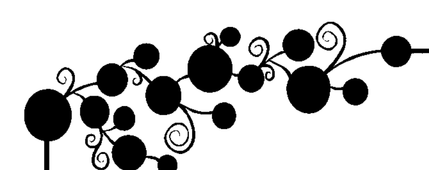


موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام

تأليف

أحمد بن سليمان أيوب

ونخبة من الباحثين

فكرة وإشراف

د. سليمان الدريع

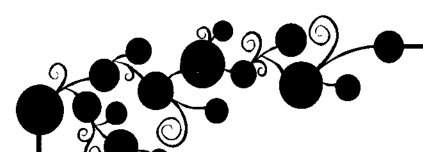
المجلد الرابع

شبهات علوم القرآن

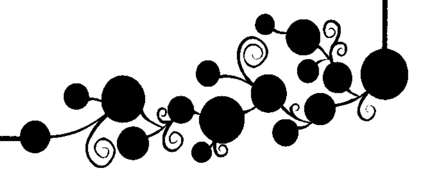
دار إيلاف الدولية

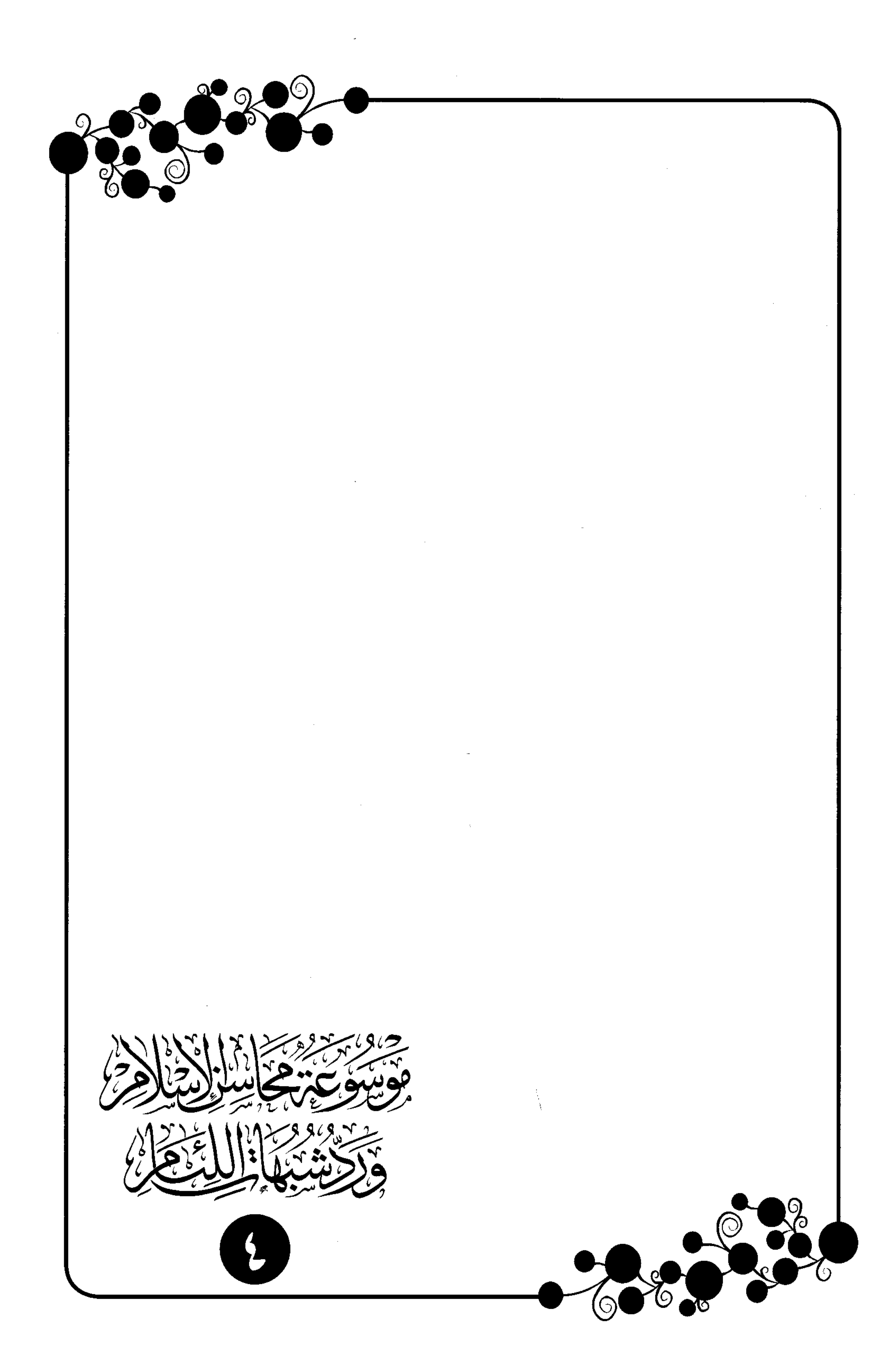
للنشر والتوزيع






بسم الله الرحمن الرحيم




موسوعة محاسن الإسلام
ورد شبهات اللئام
٤



١٤٣٦هـ - ٢٠١٥ م



(دار وقفية دعوية)

المدير العام: د/ فرحان بن عبيد الشمري

falaslmi@gmail.com

الإدارة: مجمع المخيال – هاتف: ٢٤٥٧٠٠٨٢ – ٩٦٩٩٩١٨٢- الكويت.

الفرع الأول: الجهراء – مجمع الخير – الدور الأول مكتب ١٠ هاتف ٢٤٥٥٧٥٥٩

الفرع الثاني: حولي – شارع المثنى ، هاتف وناسوخ: ٢٢٦٤١٧٩٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١١٠٤٥/ ٢٠١٥م

التوزيع داخل جمهورية مصر العربية:

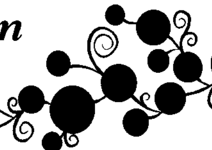


للبحث العلمي وتحقيق التراث

لصاحبها : أحمد بن سليمان

ah.solaiman1970@gmail.com

ت : ٠١١٥٨٩٨٠٥٨٠



شبهات علوم القرآن

وفيها:

١- شبهة: ادعاؤهم وجود آيات متعارضة في القرآن الكريم.

٢- شبهة حول حفظ الله ﷻ للقرآن، وحديث الداجن.

٣- شبهة حول المتشابه بين آيات القرآن الكريم.

٤- شبهة: ادعاؤهم عدم وجود إعجاز في القرآن الكريم.

٥- شبهة: ادعاؤهم وجود ألفاظ أعجمية في القرآن.

٦- شبهة: التكرار في القرآن.

٧- اختلاف المسلمين في أول ما نزل، وآخر ما نزل من القرآن.

٨- اختلاف المسلمين في المكي والمدني من آيات وسور القرآن.

٩- اختلاف المسلمين في أسباب النزول.

١٠- اختلاف المسلمين في ترتيب السور.

١١- اختلاف المسلمين في عدد سور وآيات القرآن.

١٢- شبهة: الوحي.

١٣- شبهة: القرآن من تأليف النبي ﷺ.

١٤- شبهة: اقتباس القرآن من الشعر.

١٥- شبهة: اقتباس القرآن من ورقة بن نوفل.

١٦- شبهة: اقتباس القرآن من بحيرى.

١٧- شبهة: اقتباس القرآن من التوراة والإنجيل.

١٨- شبهات: الناسخ والمنسوخ.

١٩- الأحرف السبعة، والقراءات.

٢٠- شبهات: جمع القرآن.

١ـ شبهة: ادعاؤهم وجود آيات متعارضة في القرآن الكريم.

نص الشبهة:

يدَّعون وجود تعارض واختلاف بين آيات القرآن الكريم.

و الرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: قواعد وتنبيهات مهمة.

الوجه الثاني: طرق دفع الإشكال عن آيات القرآن الكريم.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: قواعد وتنبيهات مهمة.

قبل الخوض في مباحث هذا الفصل نذكر بعض القواعد والتنبيهات والتقييدات المهمة.

أولًا: المقطوع به أن جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره فلا يجوز أن يكون الله أنزل كلامًا لا معنى له، ولا يجوز أن يكون الرسول ﷺ وجميع الأمة لا يعلمون معناه[١].

وهذا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ وتيسيره للذكر يتضمن أنواعًا من التيسير:

إحداها: تيسير ألفاظه للحفظ. **الثاني**: تيسير معانيه للفهم.

الثالث: تيسير أوامره ونواهيه للامتثال، ومعلوم أنه لو كان بألفاظ لا يفهمها المخاطب، لم يكن ميسرًا له، بل كان معسرًا عليه. [٢]

ثانيًا: المطلوب ممن وقع له إشكال في آيات الكتاب أن يبذل الوسع في دفع الإشكال ورفع الاشتباه، وليحذر من العجلة أو الإقدام على تفسير كتاب الله تعالى بالرأي والقول فيه بلا علم. [٣]

ثالثًا: أشار ابن القيم: إلى أن آيات الأحكام قد تشكل على الناس، ثم قال:

وأما آيات الأسماء والصفات فيشترك في فهمها الخاص والعام، أعني فهم أصل المعنى لا فهم الكنه والكيفية، ولهذا أشكل على بعض الصحابة قوله: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٧/ ٣٩٠) مع تقديم وتأخير.

(٢) الصواعق المرسلة لابن القيم (١/ ٣٣١-٣٢٢).

(٣) مشكل القرآن الكريم (٣٣٨-٣٣٩).

سَفَرٍ فَعِدَّةٌ﴾ حتى بين لهم بقوله: (من الفجر) ولم يشكل عليه ولا غيره قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ وأمثالها من آيات الصفات. وأشكل على عمر بن الخطاب آية الكلالة، ولم يشكل عليه أول الحديد، وآخر الحشر، وأول سورة طه، ونحوها من آيات الصفات. [١]

الوجه الثاني: طرق دفع الإشكال عن آيات القرآن الكريم.

الأول: تحرير وجه الإشكال:

إن أول أمر ينبغي أن يسلكه من استشكل عليه آية أن يقف على السبب الذي استشكلت الآية لأجله، ثم يحرره، وذلك بالتعرف على سبب وروده على الآية، وجعلها مشكلة؛ فإذا تبين أن الآية مشكلة فعلًا، بحثنا عن الطريق التي يدفع بها هذا الإشكال. [٢]

الثاني: معرفة سبب النزول:

فمعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب[٣] والوقوف على المعنى يزيل الإشكال[٤]، والجهل بأسباب التنزيل موقع في الشُبه والإشكالات ومُورِدٌ للنصوص الظاهرة مَورِدَ الإجمال حتى يقع الاختلاف، وذلك مظنة وقوع النزاع، ويوضح هذا المعنى ما روي أبو عبيد عن إبراهيم التيمي قال: خلا عمر ذات يوم فجعل يحدث نفسه: " كيف تختلف هذه الأمة، ونبيها واحد، وقبلتها واحدة؟ فقال ابن عباس: إنا أُنزل علينا القرآن، فقرأناه، وعلمنا فيما نزل، وأنه سيكون بعدنا أقوامٌ، يقرؤن القرآن، ولا يدرون فيما نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا. قال: فزجره عمر وانتهره، فانصرف ابن عباس، ونظر عمر فيما قال، فعرفه فأرسل إليه، فقال: أعد عليّ ما قلت، فأعاده عليه، فعرف عمر قوله وأعجبه. [٥]

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٢١٠).

(٢) مشكل القرآن (٣٤٥).

(٣) فتاوى ابن تيمية (١٣/ ٣٣٩).

(٤) الإتقان (١/ ٨٢).

(٥) الموافقات (٣/ ٢٠٢).

الثالث: رد المتشابه المشكل إلى المحكم، وإلى العالم به مع الإيمان والتصديق:

فلقد أخبرنا الله تعالى أن في القرآن آيات محكمات، هن أم الكتاب أي: بينات، واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد من الناس، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس، أو بعضهم، فمن ردَّ ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وأحكم محكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى، ومن عكس انعكس. (١) فما كان من عند الله لا اختلاف فيه ولا تناقض، وإنما الاختلاف والتناقض فيما كان من عند غيره، وهذه هي طريقة الصحابة والتابعين في التعامل مع المحكم والمتشابه. (٢)

الرابع: اعتبار طريقة القرآن وعادته في دفع الإشكال:

ففي كل موضوع يسوق الله فيه حكمًا من الأحكام، أو خبرًا من الأخبار، فيتشوف الذهن إلى شيء آخر، إلا وجدت الله قرن به ذلك الأمر الذي يعلق في الأذهان، فيبينه أحسن بيان، وهذا أعلى أنواع التعليم، الذي لا يُبقي إشكالًا إلا أزاله، ولا احتمالًا إلا أوضحه، وهذا يدل على سعة علم الله وحكمته، وذلك في القرآن الكريم كثير جدًا(٣)، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] رفع سبحانه توهم المجاز في تكليمه لكليمه بالمصدر المؤكد الذي لا يشك عربي القلب واللسان أن المراد به إثبات الحقيقة. ومنها قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأعراف: ٤٢]. فرفع توهم السامع أن المكلفين عملوا جميع الصالحات المقدورة والمعجوز عنها، كما يجوزه أصحاب تكليف ما لا يطاق، رفع هذا التوهم بجملة اعترض بها بين المبتدأ وخبره يزيل الإشكال. (٤)

الخامس: جمع الآيات ذات الموضوع الواحد:

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٧).

(٢) معالم أصول الفقه للجيزاني (ص١٠٦)، وانظر: فتاوى ابن تيمية (١٧/ ٣٨٦)، والقواعد الحسان للسعدي (صـ٦٨).

(٣) القواعد الحسان للسعدي (صـ٩٧).

(٤) الصواعق المرسلة (١/ ٣٩٠).

وهذا مسلك مهم في دفع الإشكال، ذلك أن ما أُجمل في موطن فإنه قد فسر في موطن آخر، وما اختصر في موضع، فقد بسط في موضع آخر، وقد كان هذا المسلك أحد المناهج النبوية في دفع الإشكال عن الآيات.

فمنه ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام: من الآية٨٢): شق ذلك على المسلمين، فقالوا: يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه، قال: ليس ذلك إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾"(لقمان: ١٣). [١]

فالآيتان أشارتا إلى الظلم، وفسرت إحداهما بالأخرى.

سادسًا: النظر في السياق:

فهذا مما يعين على فهم المعنى عند الإشكال، فإنَّ دلالة السياق ترشد إلى تبيين المجمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظيره، وغالط في مناظرته، وانظر إلى قوله تعالى ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ (الدخان: ٤٩). [٢]

ومن هذا الباب ما أورده الشوكاني في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾(الصافات: ١٣٩-١٤٥).

حيث يقول: وقد استشكل بعض المفسرين الجمع بين ما وقع هنا من قوله: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ وقوله في موضع آخر ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ (القلم: ٤٩)فإن هذه الآية تدل على أنه ينبذ بالعراء.

وأجاب النحاس وغيره بأن الله سبحانه أخبر ها هنا أنه نبذ بالعراء وهو غير مذموم،

---

(١) البخاري (٤٦٢٩).

(٢) البرهان للزركشي (٢/ ٢٠٠)، وانظر: قواعد التفسير جمعًا ودراسة لخالد بن عثمان السبت (٢/ ٦٥٣).

ولولا رحمته ﷻ لنبذ بالعراء وهو مذموم.[١]

سابعًا: تلمس الأحاديث والآثار الصحيحة الدافعة للإشكال:

فلا تخفى منزلة السنة من القرآن الكريم، فهي شارحة للقرآن وموضحة له، ودافعة للإشكال الذي يتوهم في آياته.[٢]

فمما ينبغي أن يُعلم أن القرآن والحديث إذا عُرف تفسيره من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك أقوال أهل اللغة[٣]

ولطالب التفسير مآخذ كثيرة، أمهاتها أربعة:

الأول: النقل عن رسول الله ﷺ وهذا هو الطراز الأول، لكن يجب الحذر من الضعيف فيه والموضوع، فإنه كثير.[٤]

فمن هذا الباب الإشكال الحاصل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ (الحجر: ٨٧). حيث يحتمل أن يكون قوله تعالى (سبعًا) من السور، ويحتمل من الآيات، لكن النبي ﷺ قد كشف قناع الإشكال، وأوضح شعاع البيان، ففي الصحيح عند كل فريق ومن كل طريق، أنها أم الكتاب، والقرآن العظيم حسبما تقدم من قول النبي ﷺ لأبي بن كعب: هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيت.[٥]

وبعد هذا فالسبع المثاني كثير، والكل محتمل، والنص قاطع بالمراد، قاطع بمن أراد التكليف والعناد، وبعد تفسير النبي ﷺ فلا تفسير، وليس للمتعرض إلى غيره إلا النكير، وقد كان يمكن لولا تفسير النبي ﷺ أن أحرر في ذلك مقالًا وجيزًا، وأسبك من سنام

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٥٧٧).

(٢) مشكل القرآن (٣٧٩).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١١٣٦).

(٤) البرهان للذركشي (٢/ ١٥٦).

(٥) تفسير ابن كثير (١/ ١٥٧).

المعارف إبريزًا إلا أن الجوهر الأغلى من عند النبي ﷺ أولى وأعلى. [(١)]

وحيث تقررت أهمية تفسير النبي ﷺ للقرآن الكريم في دفع الإشكال ورفعه، فلا بد من التحقق من صحة الأحاديث الواردة في ذلك، كما يتعين طرح الضعيف منها، فمن ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره قال: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا رَجُلٌ سَمَّاهُ، حَدَّثَنَا حُسَيْنٌ الْأَشْقَرُ، عَنْ قَيْسٍ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: " " قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى "، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، مَنْ هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَمَرَ الله بِمَوَدَّتِهِمْ؟ قَالَ: "فَاطِمَةُ، وَوَلَدَاهَا عَلَيْهِمُ السَّلامُ". [(٢)]

وهذا إسناد ضعيف مبهم لا يعرف إلا عن شيخ شيعي متحرق، وهو حسين الأشقر ولا يقبل خبره في هذا المحل، وذكر نزول هذه الآية في المدينة بعيد، فإنها مكية، ولم يكن إذ ذاك لفاطمة أولاد بالكلية، فإنها لم تتزوج بعلي إلا بعد بدر من السنة الثانية للهجرة. [(٣)]

ثامنًا: استخدام الإعراب في بيان المشكل:

الإعراب به تُميز المعاني ويُوقف على أغراض المتكلمين، وذلك أن قائلًا لو قال: "ما أحسنْ زيد" غيرَ معرب، أو "ضرب عمرْ زيد "غيرَ معرب - لم يوقف على مراده. فإذا قال: "ما أحسنَ زيدًا "، أو: " ما أحسنُ زيدٍ "، أو: " ما أحسنَ زيدٌ "، أبان بالإعراب عن المعنى الذي أراده. [(٤)]

واستخدم بعض المفسرين الإعراب في بيان المشكل ودفعه، فمن ذلك ما ورد عنهم في قوله تعالى ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٣).

" فمغفرة " أشكلت على جماعة من المفسرين وفيها ثلاثة أقوال:

الأول: أنها مغفرة من المسئول، واختلف في توجيهها على قولين:

١ - أنها إحسان من المسئول بترك المؤاخذة، أو مقابلة إساءة السائل، إذا وجد منه بعض الجفوة.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١١٣٦).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٧٧).

(٣) تفسير ابن كثير ١٢/ ٢٧١، سورة الشورى ٢٣.

(٤) الصاحبي لابن فارس (٣٠٩).

٢- أن المغفرة بمعنى ستر المسئول على سوء حالة السؤال.

الثاني: إنها مغفرة من السائل، والمعنى: مغفرة، وعفو من السائل إذا رُدّ وتعذر المسئول خير من أن ينال بنفسه صدقة يتبعها أذى.

الثالث: أنها مغفرة من الله تعالى، والمعنى مغفرة لكم من الله تعالى بسبب القول المعروف خير من صدقة يتبعها أذى.

قال النحاس: وهذا مشكل يبينه الإعراب[(١)]

أما كيفية بيان الإعراب لهذا الإشكال فيتضح فيما يلي:

- إن قلنا أن كلمة " وَمَغۡفِرَةٌ " معطوفة على " قَوۡلٌ مَّعۡرُوفٌ " فإن المعنى الأول هو الصحيح، فإن المغفرة على هذا صادرة من المسئول.

- وإن قلنا إن كلمة " مغفرة " مبتدأ، فيتعين المصير إلى القول الثاني أو الثالث؛ لأنه لا وجه للابتداء إلا ذلك، إذا لو كان المراد أن المغفرة صادرة عن المسئول لقلنا بالعطف. [(٢)]

تاسعًا: الجمع بين الآيات بإعمال قواعد الترجيح:

فالجمع بين الآيات لابد منه، ومن طرق الجمع: إعمال قواعد الترجيح، وهذا الترجيح ليس بين الآيات قطعًا، وإنما هو ترجيح بين أقوال المفسرين بحيث نختار القول الراجح، ونترك القول المرجوح. [(٣)]

وعلى العبد أن يوقن أنه لا تضاد بين آيات القرآن، ولا بين الأخبار النبوية، ولا بين أحدهما مع الآخر، بل الجميع جار على مهيع واحد، ومنتظم إلى معنى واحد، فإذا أراه بادئ الرأي إلى ظاهر اختلاف؛ فواجب عليه أن يعتقد انتفاء الاختلاف؛ لأن الله قد شهد له أن لا اختلاف فيه، فليقف وقوف المضطر السائل عن وجه الجمع، أو المسَلِّم من غير اعتراض "[(٤)]

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٣١٠.

(٢) مشكل القرآن (٣٨٦).

(٣) المصدر السابق (٣٩١).

(٤) الاعتصام للشاطبي (٢/ ٤٨١) بتصرف يسير.

٢ـ شبهة: حول حفظ الله للقرآن، وحديث الداجن.

نص الشبهة:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩)، فأثبت الله حفظه للقرآن الكريم كما في الآية، وفي الحديث عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن الداجن دخلت فأكلت صحيفة كُتِبَ فيها آية الرجم والرضاع. فكيف يكون الحفظ؟.

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: أن الحديث لا يصح، فلا تعارض حينئذ.

الوجه الثاني: على القول بتحسينه، فالجواب عليه من هذه الوجوه:

الأول: الحفظ كان في صدور الرجال، وعائشة ليست وحدها عندها الأوراق.

الثاني: تفسير أهل العلم لمعنى الحفظ في الآية.

الثالث: أن الله عَجَّلَ هو الذي تولى حفظ القرآن بنفسه دون سائر الكتب.

الوجه الثالث: إثبات أن كتبهم محرفة بالزيادة والنقص.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: أن الحديث لا يصح، فلا تعارض حينئذ.

ونصه: (لما نَزَلَتْ آيَةُ الرَّجْمِ وَرَضَاعَةُ الْكَبِيرِ عَشْرًا، فَلَقَدْ كَانَتْ في صَحِيفَةٍ تَحْتَ سريري، فَلَمَّا مَاتَ رَسُولُ الله ﷺ شُغِلْنَا بِمَوْتِهِ، فَدَخَلَ الدَّاجِنُ فَأَكَلَهَا)[1].

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٤٥٦٩) من حديث جعفر بن حميد الكوفي، والدارقطني (٤٣٣٠)، ومن طريقه البيهقي في المعرفة (١٥٤٦٨) من حديث محمد بن يحيى القطعي، وابن ماجه (١٩٤٤)، والطبراني في الأوسط (٧٨٠٥)، وابن حزم في المحلى (١١/ ٢٣٥)، من حديث يحيى بن خلف، ثلاثتهم (جعفر ـ ومحمد ـ ويحيى) عن عبد الأعلى: قال حدثنا محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، عن عمرة، عن عائشة الحديث.

وأخرجه أحمد (٦/ ٢٦٩)من حديث إبراهيم بن سعد، عن محمد بن إسحاق، قال حدثني عبد الله به.

وأخرجه ابن الجوزي في الناسخ والمنسوخ (١٨٨)من حديث ابن أبي داود، حدثنا عبد الله بن سعد قال حدثني عمر قال حدثني أبي عن محمد ابن إسحاق قال حدثني عبد الله به. . . .

وأخرجه أبو يعلى (٤٥٨٨) والدار قطني (٤٣٣٠)، وابن ماجه (١٩٤٤)، والطبراني في الأوسط (٧٨٠٥)، وابن حزم (١١/ ٢٣٥) عن عبد الأعلى بن عبد الأعلى عن محمد بن إسحاق عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه قال: قالت عائشة. . . . الحديث.

وقد تكلم أهل العلم على هذا الحديث، وإليك بعض من تكلم فيه:

قال ابن قتيبة: بعد ما ذكر حديث الداجن: وقد رجم رسول الله ﷺ، ورجم الناس بعده وأخذ بذلك الفقهاء. وأما رضاع الكبير عشرًا، فنراه غلطًا من محمد بن إسحاق، ولا نأمن أيضًا أن يكون الرجم الذي ذكر أنه في هذه الصحيفة كان باطلًا؛ لأن رسول الله ﷺ قد رجم ماعز بن مالك، وغيره قبل هذا الوقت، فكيف ينزل عليه مرة أخرى، ولأن مالك بن أنس

ومدار الحديث على محمد بن إسحاق، فمرة يرويه عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، ومرة يرويه عن عبد الرحمن بن القاسم، وقد خولف ممن هو أثبت منه.

خالفه مالك بن أنس كما أخرجه مالك في الموطأ (١٢٧٠ - كتاب الرضاع، باب جامع ما جاء في الرضاعة) عن ابن أبي بكر عن عمرة عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: «كان فيما أنزل من القرآن: عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس رضعات معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهو مما يقرأ من القرآن».

وأخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٣/ ٧)وابن ماجه (١٩٤٢)من حديث عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عمرة به.

وأخرجه مسلم (١٤٥٢)، وعبد الرزاق (١٣٩١٣)، والدارقطني (٤٣٣٨)، والشافعي في المسند (٣٠٧)، والبيهقي (٧/ ٤٥٤) من حديث يحيى بن سعيد الأنصاري عن عمرة عن عائشة ولفظه أنها كانت تقول: " نزل القرآن بعشر رضعات معلومات يحرمن، ثم صرن إلى خمس يحرمن، فكان لا يدخل على عائشة إلا من استكمل خمس رضعات " ولفظ حديث القاسم " كان فيما أنزل من القرآن، ثم سقط لا يحرم إلا عشر رضعات أو خمس معلومات "وليس فيه ذكرٌ للداجن ولا هذه الصحيفة، وأيضًا فإن حماد بن سلمة خالفه فرواه عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عمرة عن عائشة أنها قالت: " كان فيما أنزل الله من القرآن ثم سقط لا يحرم إلا عشر رضعات أو خمس معلومات".

أخرجه ابن ماجه (١٩٤٢)والطحاوي في مشكل الآثار (٣/ ٧).

ومحمد بن إسحاق دون مالك وحمادٍ بكثير، خاصة وقد تكلم فيه أهل العلم بكلام كثير، وانظره إن شئت في تهذيب الكمال (٢٤/ ٤٠٥: ٤٢٨) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٧/ ١٩١: ١٩٤).

قال الذهبي: وأما في أحاديث الأحكام فينحط حديثه فيها عن رتبة الصحة إلى رتبة الحسن إلا فيما شذ فيه فإنه يعد منكرًا. سير أعلام النبلاء (٧/ ٤١).

وقال أيضًا: فالذي يظهر لي أن ابن إسحاق: حسن الحديث، صالح الحال، صدوق، وما انفرد به ففيه نكارة؛ فإنَّ في حفظه شيئًا. ميزان الاعتدال (٣/ ٤٧٥).

فدلت المخالفة على شذوذ ابن إسحاق في الرواية، ولم يذكر الداجن سواه، وهو من قد علمت في سوء حفظه، وقد انفرد بهذا اللفظ ولم يأت به أحد سواه، فالزيادة شاذة لا تعتمد.

روى هذا الحديث بعينه عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخن بخمس معلومات يحرمن، فتوفي رسول الله ﷺ وهن مما يقرأ من القرآن)، إلى أن قال: " وألفاظ حديث مالك خلاف ألفاظ حديث محمد بن إسحاق. ومالك أثبت عند أصحاب الحديث من محمد بن إسحاق[1].

قال السرخسي: وحديث عائشة لا يكاد يصح؛ لأنه قال في ذلك الحديث: وكانت الصحيفة تحت السرير فاشتغلنا بدفن رسول الله ﷺ، فدخل داجنٌ البيتَ فأكله، ومعلوم أن بهذا لا ينعدم حفظه من القلوب، ولا يتعذر عليهم إثباته في صحيفة أخرى؛ فعرفنا أنه لا أصل لهذا الحديث". [2]

وقال أيضا: أما حديث عائشة رضي الله عنها فضعيف جدًا؛ لأنه إذا كان متلوا بعد رسول الله، ونسخ التلاوة بعد رسول الله ﷺ لا يجوز فلماذا لا يتلى الآن؟! وذُكر في الحديث (فدخل داجن البيت فأكله)، وهذا يقوي قول الروافض الذين يقولون: كثير من القرآن ذهب بعد رسول الله ﷺ فلم يثبته الصحابة رضي الله عنهم في المصحف وهو قول باطل بالإجماع[3].

قال ابن حزم: وقد غلط قوم غلطًا شديدًا، وأتوا بأخبار ولَّدها الكاذبون والملحدون، منها أن الداجن أكل صحيفة فيها آية متلوة فذهب البتة.

إلى أن قال: وهذا كله ضلال نعوذ بالله منه ومن اعتقاده، وأما الذي لا يحل اعتقاد سواه فهو قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩)، فمن شك في هذا كفر، ولقد أساء الثناء على أمهات المؤمنين، ووصفهن بتضييع ما يتلى في بيوتهن؛ حتى تأكله الشاة فيتلف، مع أن هذا كذب ظاهر، ومحال ممتنع؛ لأن الذي أكل الداجن لا يخلو من أحد وجهين: إما أن يكون رسول الله ﷺ حافظًا له، أو كان قد أنسيه، فإن كان في حفظه، فسواء أكل الداجن الصحيفة أو تركها، وإن كان رسول الله ﷺ قد أنسيه، فسواء أكله الداجن أو تركه قد

---

(١) تأويل مختلف الحديث (٣١٥: ٣١٤).

(٢) أصول السرخسي (٢ / ٨٠).

(٣)المبسوط للسرخسي (٥ / ١٣٤).

رفع من القرآن، فلا يحل إثباته فيه. كما قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾. فنص تعالى على أنه لا ينسى أصلا شيئا من القرآن، إلا ما أراد تعالى رفعه بإنسائه، فصح أن حديث الداجن إفك وكذب وفرية، ولعن الله من جوّز هذا أو صدّق به، بل كل ما رفعه الله تعالى من القرآن فإنما رفعه في حياة النبيﷺ، قاصدًا إلى رفعه، ناهيًا عن تلاوته إن كان غير منسي، أو ممحوًا من الصدور كلها. ولا سبيل إلى كون شئ من ذلك بعد موت رسول الله ﷺ، ولا يجيز هذا مسلم؛ لأنه تكذيب لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾. ولكان ذلك أيضا تكذيبا لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ولكان ما يرفع منه بعد مو ت رسول الله ﷺ خرما في الدين، ونقصًا منه، وإبطالا للكمال المضمون. ولكان ذلك مبطلًا لهذه الفضيلة التي خصصنا بها، والفضائل لا تنسخ.[1].

قال القرطبي: وأما ما يحكى من أن تلك الزيادة، كانت في صحيفةٍ في بيت عائشة فأكلتها الداجن فمن تأليف الملاحدة والروافض.[2].

قال ابن عاشور: ووضع هذا الخبر ظاهر مكشوف، فإنه لو صدق هذا؛ لكانت هذه الصحيفة قد هلكت في زمن النبي ﷺ أو بعده، والصحابة متوافرون، وحفاظ القرآن كثيرون، فلو تلفت هذه الصحيفة لم يتلف ما فيها من صدور الحفاظ، وكون القرآن قد تلاشى منه كثير هو أصل من أصول الروافض ليطعنوا به في الخلفاء الثلاثة، والرافضة يزعمون أن القرآن مستودع عند الإمام المنتظر فهو الذي يأتي بالقرآن وقر بعير[3].

الوجه الثاني: على القول بتحسين الحديث، أو من قال بصحته فيجاب عليه أيضًا بهذه الوجوه:

الأول: أن عائشة ليست وحدها عندها الأوراق، والحفظ كان في صدور الرجال:

وهذا أيضا لا حجة فيه؛ فإن مصاحف المسلمين كثيرة، والدواجن إذا أكلت ورقة لا

(١) الإحكام في أصول الأحكام (١/ ٤٩٢: ٤٩١).

(٢) تفسير القرطبي (١٤ / ١١٢) وبنحوه قال الزمخشري في الكشاف (٣/ ٥١٨).

(٣) التحرير والتنوير ٢١/ ٢٤٧.

نستطيع إذهاب آيات القرآن من صدور مئات آلاف المسلمين، وليست عائشة وحدها عندها أوراق من القرآن، ولم تكن من كتبة الوحي المتخصصين في كل آية تنزل على النبي ﷺ.

قال ابن حزم: وهذا حديث صحيح، وليس هو على ما ظنوا؛ لأن آية الرجم إذ نزلت حفظت، وعرفت، وعمل بها رسول الله ﷺ إلا أنه لم يكتبها نساخ القرآن في المصاحف، ولا أثبتوا لفظها في القرآن. وقد سأله عمر بن الخطاب ذلك كما أوردنا، فلم يجبه رسول الله ﷺ إلى ذلك فصح نسخ لفظها، وبقيت الصحيفة التي كتبت فيها كما قالت عائشة رضي الله عنها: فأكلها الداجن، ولا حاجة بأحد إليها، وهكذا القول في آية الرضاعة ولا فرق، وبرهان هذا أنهم قد حفظوها كما أوردنا، فلو كانت مثبتة في القرآن لما منع أكل الداجن للصحيفة من إثباتها في القرآن من حفظهم.

فبيقين ندري أنه لا يختلف مسلمان في أن الله تعالى افترض التبليغ على رسوله ﷺ، وأنه ﷺ قد بلغ كما أُمر، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، وقال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ (البقرة: ١٠٦).

فصح أن الآيات التي ذهبت لو أُمر رسول الله ﷺ بتبليغها لبلَّغها، ولو بلَّغها لحُفظت، ولو حفظت ما ضرها موته، كما لم يضر موته ﷺ كل ما بلغ فقط من القرآن، وإن كان ﷺ لم يبلغ، أو بلغه فأنسيه هو والناس أو لم ينسوه، لكن لم يأمر عليه السلام أن يُكتب في القرآن، فهو منسوخ بيقين من عند الله تعالى لا يحل أن يضاف إلى القرآن[1].

الثاني: تفسير أهل العلم لمعنى الحفظ في الآية.

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ وهو القرآن ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾، قال: وإنا للقرآن لحافظون من أن يزاد فيه باطل مَّا ليس منه، أو ينقص منه ما هو منه من أحكامه وحدوده وفرائضه، والهاء في قوله: (لَهُ) من ذكر الذكر.

---

(١) المحلى ١١/ ٢٣٦، راجع كلامه في الإحكام١/ ٤٩٢: ٤٩١.

ثم ذكر بإسناده إلى قتادة﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ قال: حفظه الله من أن يزيد فيه الشيطان باطلا أو ينقص منه حقا، وقيل: الهاء في قوله﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾من ذكر محمد ﷺ بمعنى: وإنا لمحمد حافظون ممن أراده بسوء من أعدائه[١].

قال ابن كثير: ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل الذكر، وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل. ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ على النبي ﷺ، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧) والمعنى الأول أولى، وهو ظاهر السياق[٢].

قال الماوردي: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ قال الحسن والضحاك يعني: القرآن.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾، فيه قولان:

أحدهما: وإنا لمحمد حافظون ممن أراده بسوء من أعدائه، حكاه ابن جرير.

الثاني: وإنا للقرآن لحافظون.

وفي هذا الحفظ ثلاثة أوجه:

أحدها: حفظه حتى يجزى به يوم القيامة، قاله الحسن.

الثاني: حفظه من أن يزيد فيه الشيطان باطلًا، أو يزيل منه حقًا، قاله قتادة.

الثالث: إنا له لحافظون في قلوب من أردنا به خيرًا، وذاهبوان به من قلوب من أردنا به شرًّا[٣].

قال القِنوجي: ثم أنكر سبحانه على الكفار استهزاءهم برسول الله ﷺ بقولهم المذكور، فقال سبحانه: "إنا نحن نزلنا الذكر" الذي أنكروه، ونسبوك بسببه إلى الجنون وهو القرآن، واعتقدوا أنه مختلق من عندك، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ عن كل ما لا يليق به من تصحيف، وتحريف، وزيادة، ونقص، ونحو ذلك. فالقرآن محفوظ من هذه الأشياء كلها، لا يقدر واحد من جميع الخلق من الإنس والجن أن يزيد فيه أو ينقص منه حرفًا واحدًا أو كلمة واحدة.

---

(١) تفسير الطبري ٨/ ٨.

(٢) تفسير ابن كثير٨/ ٢٤٦.

(٣) النكت والعيون٣/ ١٤٩.

وهذا مختص بالكتاب العزيز بخلاف سائر الكتب المنزلة، فإنه قد دخل على بعضها تلك الأشياء، ولما تولَّى الله حفظ ذلك الكتاب بقي مصونًا على الأبد، محروسًا من الزيادة والنقصان وغيرهما، وفيه دليل على أنه مُنزّل من عنده آية إذ لو كان من البشر لتطرق إليه الزيادة والنقصان كما يتطرق إلى كل كلام سواه، وقيل: المعنى نزله محفوظًا من الشياطين، وقيل: حفظه بأن جعله معجزة باقية إلى آخر الدهر، وقيل: حفظه من المعارضة، فلم يقدر أحد من الخلق أن يعارض ولو بأقصر آية.

وقيل: أعجز الله الخلق عن إبطاله وإفساده بوجه من الوجوه، فقيض له العلماء الراسخين يحفظونه، ويذبون عنه إلى آخر الدهر؛ لأن دواعي جماعة من الملاحدة واليهود متوفرة على إبطاله وإفساده، فلم يقدروا على ذلك بحمد الله. ومن أسباب حفظه حدوث العلوم الكثيرة الآلية التي تذب عن الدخول في أبواب إفساده، وإبطاله، وتحريفه، وتصحيفه، وزيادته، ونقصانه كالصرف والنحو والمعاني والبيان وأصول الحديث والفقه والتفسير، وغير ذلك مما له مدخل في هذا الشأن.

وعن عياض عن النبي ﷺ عن ربه تعالى: وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ[1]. [2]

قال الرازي: وفيه مسائل:

المسألة الثانية: الضمير في قوله: ﴿لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ إلى ماذا يعود؟ فيه قولان:

القول الأول: أنه عائد إلى الذكر، يعني: وإنا نحفظ ذلك الذكر من التحريف والزيادة والنقصان، ونظيره قوله تعالى في صفة القرآن: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ (فصلت: ٤٢) وقال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

---

(١) مسلم (٢٨٦٥). قال النووي: أَمَّا قَوْله تَعَالَى: { لَا يَغْسِلهُ الْمَاء } فَمَعْنَاهُ: مَحْفُوظ فِي الصُّدُور، لَا يَتَطَرَّق إِلَيْهِ الذَّهَاب، بَلْ يَبْقَى عَلَى مَرّ الْأَزْمَان. وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى "تَقْرَأهُ نَائِمًا وَيَقْظَان "، فَقَالَ الْعُلَمَاء: مَعْنَاهُ يَكُون مَحْفُوظًا لَك فِي حَالَتَيْ النَّوْم وَالْيَقَظَة، وَقِيلَ: تَقْرَأهُ فِي يُسْر وَسُهُولَة. شرح النووي٩/ ٢١٧.

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن (٧/ ١٤٨: ١٤٩).

والقول الثاني: أن الكناية في قوله: ﴿لَهُۥ﴾ راجعة إلى محمد ﷺ، والمعنى: وإنا لمحمد لحافظون وهو قول الفراء، وقوّى ابن الأنباري هذا القول فقال: لما ذكر الله الإنزال، والمنزل دل ذلك على المنزل عليه؛ فحسنت الكناية عنه؛ لكونه أمرًا معلومًا كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ (القدر: ١) فإنَّ هذه الكناية عائدة إلى القرآن مع أنه لم يتقدم ذكره، وإنما حسنت الكناية للسبب المعلوم فكذا ههنا، إلا أن القول الأول أرجح القولين وأحسنهما مشابهة لظاهر التنزيل، والله أعلم.

المسألة الثالثة: إذا قلنا الكناية عائدة إلى القرآن، فاختلفوا في أنه تعالى كيف يحفظ القرآن؟ قال بعضهم: حفظه بأن جعله معجزًا مباينًا لكلام البشر؛ فعجز الخلق عن الزيادة فيه، والنقصان عنه؛ لأنهم لو زادوا فيه، أو نقصوا عنه؛ لتغير نظم القرآن، فيظهر لكل العقلاء أن هذا ليس من القرآن، فصار كونه معجزًا، كإحاطة السور بالمدينة؛ لأنه يحصنها ويحفظها. وقال آخرون: إنه تعالى صانه وحفظه من أن يقدر أحد من الخلق على معارضته. وقال آخرون: أعجز الخلق عن إبطاله وإفساده بأن قيض جماعة يحفظونه ويدرسونه ويشهرونه فيما بين الخلق إلى آخر بقاء التكليف. وقال آخرون: المراد بالحفظ هو أن أحدًا لو حاول تغييره بحرف أو نقطة لقال له أهل الدنيا: هذا كذب وتغيير لكلام الله تعالى، حتى أن الشيخ المهيب لو اتفق له لحن أو هفوة في حرف من كتاب الله تعالى لقال له كل الصبيان: أخطأت أيها الشيخ وصوابه كذا وكذا، فهذا هو المراد من قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

واعلم أنه لم يتفق لشيء من الكتب مثل هذا الحفظ، فإنه لا كتاب إلا وقد دخله التصحيف والتحريف والتغيير، إما في الكثير منه أو في القليل، وبقاء هذا الكتاب مصونًا عن جميع جهات التحريف مع أن دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على إبطاله وإفساده من أعظم المعجزات.

وأيضًا أخبر الله تعالى عن بقائه محفوظًا عن التغيير والتحريف، وانقضى الآن قريبًا من ستمائة سنة فكان هذا إخبارًا عن الغيب، فكان ذلك أيضًا معجزًا قاهرًا[1].

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ١٦١: ١٦٠، البحر المحيط(٥/ ٤٣٥)، الفتوحات الإلهية(٢/ ٥٣٩).

الثالث: أن الله هو الذي تولى حفظ القرآن الكريم بنفسه، دون سائر الكتب.

فإن الله سبحانه لم يحفظ كتابًا من الكتب كذلك، بل استحفظها جل وعلا الربانيين والأحبار فوقع فيها ما وقع، وتولى حفظ القرآن بنفسه سبحانه، فلم يزل محفوظًا أولًا وآخرًا، فقد أنزل الله ﷻ القرآن على قلب النبي ﷺ، وتكفل الله بجمعه في قلب النبي ﷺ وعدم نسيانه إياه، وأرشده إلى عدم الاستعجال في هذا الأمر، قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ (القيامة١٩: ١٦).

قال ابن كثير: هذا تعليم من الله ﷻ لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه. فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوته، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه[1].

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ كَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَهُ وَشَفَتَيْهِ فَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ فَكَانَ ذَلِكَ يُعْرَفُ مِنْهُ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾أَخْذَهُ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ وَقُرْآنَهُ فَتَقْرَؤُهُ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾قَالَ أَنْزَلْنَاهُ فَاسْتَمِعْ لَهُ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾أَنْ نُبَيِّنَهُ بِلِسَانِكَ فَكَانَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ أَطْرَقَ فَإِذَا ذَهَبَ قَرَأَهُ كَمَا وَعَدَهُ اللهُ[2].

وتكفل الله بعدم نسيانه إياه، قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الأعلى٧: ٦)، والمعنى: سنقرئك يا محمد هذا القرآن فلا تنساه إلا ما شاء الله، ومعنى الاستثناء في هذا الموضع على النسيان، ومعنى الكلام: فلا تنسى إلا ماشاء الله أن تنساه وتذكره، وهذا ما نسخه الله من القرآن، فرفع حكمه وتلاوته، وقيل: معنى النسيان في هذا الموضع الترك، والمعنى:

---

(١) تفسير ابن كثير(١٤/ ١٩٦).

(٢) البخاري (٤٩٢٩)، مسلم (٤٤٨) واللفظ له.

سنقرئك يا محمد فلا تترك العمل بشيء منه إلا ما شاء الله أن تترك العمل به مما ننسخه.

قال الطبري: والقول الذي هو أولى بالصواب عندي قول من قال: معنى ذلك: فلا تنسى إلا أن نشاء نحن أن نُنسيكه بنسخه ورفعه؛ وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأن ذلك أظهر معانيه(١).

هذا في جانب القرآن الكريم وحفظه من رب العالمين، أما سائر الكتب فقد وكّل الله حفظها لأهلها فحرفوا فيها وغيروا، وهذا شأنهم، قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ (المائدة: ١٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ (المائدة: ٤٤).

قال ابن كثير: قيل: نزلت في أقوام من اليهود، قتلوا قتيلا وقالوا: تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد، فإن أفتانا بالدية فخذوا ما قال، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه. والصحيح أنها نزلت في اليهوديَّيْن اللذين زنيا، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، من الأمر برجم من أحْصن منهم، فحرَّفوا، واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين، فلما وقعت تلك الكائنة بعد هجرة النبي ﷺ، قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك(٢).

وفي الصحيحين من حديث عَبْدِ الله بْنَ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أُتِيَ بِيَهُودِيٍّ وَيَهُودِيَّةٍ قَدْ زَنَيَا، فَانْطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى جَاءَ يَهُودَ، فَقَالَ: مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ عَلَى مَنْ زَنَى؟ قَالُوا: نُسَوِّدُ وُجُوهَهُمَا، وَنُحَمِّلُهُمَا، وَنُخَالِفُ بَيْنَ وُجُوهِهِمَا، وَيُطَافُ بِهِمَا. قَالَ: فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَجَاءُوا بِهَا فَقَرَءُوهَا حَتَّى إِذَا مَرُّوا بِآيَةِ الرَّجْمِ وَضَعَ الْفَتَى الَّذِي يَقْرَأُ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، وَقَرَأَ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا وَرَاءَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الله بْنُ سَلَامٍ وَهُوَ مَعَ

---

(١) تفسير الطبري١٥/ ١٥٤، تفسير القرطبي٢٠/ ٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير٥/ ٢٢٠: ٢١٩.

رَسُولِ اللهِ ﷺ: مُرْهُ فَلْيَرْفَعْ يَدَهُ، فَرَفَعَهَا فَإِذَا تَحْتَهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرُجِمَا. قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: كُنْتُ فِيمَنْ رَجَمَهُمَا، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَقِيهَا مِنَ الْحِجَارَةِ بِنَفْسِهِ(١).

فهذا دليل واضح في التحريف والتبديل، فلأجل ذلك تكفل رب العزة سبحانه بحفظ كتابه الكريم.

وقد أخرج القرطبي بسنده إلى يحيى بن أكثم قال: كان للمأمون - وهو أمير إذ ذاك - مجلس نظر، فدخل في جملة الناس رجل يهودي، حسن الثوب، حسن الوجه، طيب الرائحة، قال: فتكلم فأحسن الكلام والعبارة، قال: فلما أن تقوض المجلس، دعاه المأمون فقال له: إسرائيلي؟ قال نعم. قال له: أسلم حتى أفعل بك وأصنع، ووعده. فقال: ديني ودين آبائي! وانصرف.

قال: فلما كان بعد سنة جاءنا مسلمًا، قال: فتكلم على الفقه، فأحسن الكلام، فلما تقوض المجلس دعاه المأمون وقال: ألست صاحبنا بالأمس؟ قال له: بلى. قال: فما كان سبب إسلامك؟ قال: انصرفت من حضرتك، فأحببت أن أمتحن هذه الأديان، وأنت مع ما تراني حَسَنُ الخَطِّ، فعمدت إلى التوراة، فكتبت ثلاث نسخ، فزدت فيها، ونقصت، وأدخلتها الكنيسة فاشتُريت منى، وعمدت إلى الإنجيل، فكتبت ثلاث نسخ، فزدت فيها، ونقصت، وأدخلتها البيعة فاشتُريت منى، وعمدت إلى القرآن، فعملت ثلاث نسخ، وزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الوراقين فتصفحوها، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان؛ رموا بها فلم يشتروها، فعلمت أن هذا كتاب محفوظ، فكان هذا سبب إسلامي.

قال يحيى بن أكثم: فحججت تلك السنة، فلقيت سفيان بن عيينة فذكرت له الخبر فقال لى: مصداق هذا في كتاب الله عز وجل، قال قلت: في أي موضع؟ قال: في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل: " بما استحفظوا من كتاب الله "، فجعل حفظه إليهم فضاع، وقال عز وجل: " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"، فحفظه الله ﷻ علينا فلم يضع(٢).

الوجه الثالث: إثبات أن كتبهم مليئة بالتحريف إما بالزيادة أو النقصان.

---

(١) البخاري (٦٨٤١)، مسلم (١٦٩٩) واللفظ له.

(٢) تفسير القرطبي ١٠/ ١٠.

١ـ إثبات التحريف بالزيادة:

ما ورد في قصة شفاء المسيح عليه السلام للرجل المجنون، فيلاحظ أن هذه القصة وردت بنفس التفاصيل في مرقس وفي لوقا وفي متّى، إلا أن متّى قد زاد فيها، فجعل بدلًا من كونه مجنونًا واحدًا فقد ضاعفه إلى اثنين. وفيما يلي نص هذه الشواهد:

مرقس (٥/ ٢): وَلَمَّا خَرَجَ مِنَ السَّفِينَةِ لِلْوَقْتِ اسْتَقْبَلَهُ مِنَ الْقُبُورِ إِنْسَانٌ بِهِ رُوحٌ نَجِسٌ، كَانَ مَسْكَنُهُ فِي الْقُبُورِ، وَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يَرْبِطَهُ وَلاَ بِسَلاَسِلَ.

(لوقا ٨/ ٢٧): وَلَمَّا خَرَجَ إِلَى الأَرْضِ اسْتَقْبَلَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمَدِينَةِ كَانَ فِيهِ شَيَاطِينُ مُنْذُ زَمَانٍ طَوِيل، وَكَانَ لاَ يَلْبَسُ ثَوْبًا، وَلاَ يُقِيمُ فِي بَيْتٍ، بَلْ فِي الْقُبُورِ.

(متى ٨/ ٢٨): وَلَمَّا جَاءَ إِلَى الْعَبْرِ إِلَى كُورَةِ الْجِرْجَسِيِّينَ، اسْتَقْبَلَهُ مَجْنُونَانِ خَارِجَانِ مِنَ الْقُبُورِ هَائِجَانِ جِدًّا، حَتَّى لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَجْتَازَ مِنْ تِلْكَ الطَّرِيقِ.

وفي قصة الأعمى الذي طلب الشفاء فشُفي وعاد إليه بصره، وقد تكررت هذه القصة في كل من مرقس ولوقا ومتّى، ولكن متّى قد زاد العدد، فجعل بدلًا من الأعمى الواحد أعميين اثنين، وهذه هي النصوص:

(مرقس١٠/ ٤٦): وَجَاءُوا إِلَى أَرِيحَا. وَفِيمَا هُوَ خَارِجٌ مِنْ أَرِيحَا مَعَ تَلاَمِيذِهِ وَجَمْعٍ غَفِيرٍ، كَانَ بَارْتِيمَاوُسُ الأَعْمَى ابْنُ تِيمَاوُسَ جَالِسًا عَلَى الطَّرِيقِ يَسْتَعْطِي.

(لوقا١٨/ ٣٥): وَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْ أَرِيحَا كَانَ أَعْمَى جَالِسًا عَلَى الطَّرِيقِ يَسْتَعْطِي.

(متى٢٠/ ٢٩): وَفِيمَا هُمْ خَارِجُونَ مِنْ أَرِيحَا تَبِعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ، وَإِذَا أَعْمَيَانِ جَالِسَانِ عَلَى الطَّرِيقِ.

وعندما سأل المسيح التلاميذ عن الكيفية التي يعرّفون الناس به اختلفت الألفاظ بالزيادة، وإليك النصوص:

(مرقس٨/ ٣٠: ٢٧): ثُمَّ خَرَجَ يَسُوعُ وَتَلاَمِيذُهُ إِلَى قُرَى قَيْصَرِيَّةِ فِيلُبُّسَ. وَفِي الطَّرِيقِ سَأَلَ تَلاَمِيذَهُ قِائِلًا لَهُمْ: «مَنْ يَقُولُ النَّاسُ إِنِّي أَنَا؟ » فَأَجَابُوا: «يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ. وَآخَرُونَ: إِيلِيَّا. وَآخَرُونَ: وَاحِدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ». فَقَالَ لَهُمْ: «وَأَنْتُمْ، مَنْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا؟ » فَأَجَابَ بُطْرُسُ وَقَالَ لَهُ: «أَنْتَ الْمَسِيحُ! » فَانْتَهَرَهُمْ كَيْ لاَ يَقُولُوا لأَحَدٍ عَنْهُ.

(متى١٦/ ٢٠: ١٣): ٣ وَلَمَّا جَاءَ يَسُوعُ إِلَى نَوَاحِي قَيْصَرِيَّةِ فِيلُبُّسَ سَأَلَ تَلاَمِيذَهُ قِائِلًا: «مَنْ يَقُولُ النَّاسُ إِنِّي أَنَا ابْنُ الإِنْسَانِ؟ » فَقَالُوا: «قَوْمٌ: يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ، وَآخَرُونَ: إِيلِيَّا، وَآخَرُونَ: إِرْمِيَا أَوْ وَاحِدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ»قَالَ لَهُمْ: «وَأَنْتُمْ، مَنْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا؟ » فَأَجَابَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ وَقَالَ: «أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ الْحَيِّ! ».

٢ـ إثبات التحريف بالنقصان:

(سفر التكوين٧/ ١٧): وَكَانَ الطُّوفَانُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا عَلَى الأَرْضِ.

وهذه الجملة في كثير من نسخ اللاتينية، وفي الترجمة اليونانية هكذا: وصار الطوفان أربعين وليلة على الأرض.

(سفر الخروج٦/ ٢٠): فَوَلَدَتْ لَهُ هَارُونَ وَمُوسَى.

وفي النسخة السامرية والترجمة اليونانية هكذا: فولدت له هارون وموسى ومريم أختهما.

(سفر التكوين٣٥/ ٢٢): وَحَدَثَ إِذْ كَانَ إِسْرَائِيلُ سَاكِنًا فِي تِلْكَ الأَرْضِ، أَنَّ رَأُوبَيْنَ ذَهَبَ وَاضْطَجَعَ مَعَ بِلْهَةَ سُرِّيَّةِ أَبِيهِ، وَسَمِعَ إِسْرَائِيلُ.

قال جامعو تفسير هنري وإسكات: إن اليهود يسلمون أن شيئا سقط من هذه الفقرة، وتتمته من الترجمة اليونانية هكذا: (وكان قبيحًا في نظره).

فاليهود أيضًا معترفون بالسقوط، فسقوط الجملة من النسخة العبرانية ليس بمستبعد عند أهل الكتاب فضلًا عن سقوط حرف أو حرفين. [1]

* * *

(١) وانظر تفصيل ذلك في مبحث (تحريف الكتاب المقدس) من هذه الموسوعة.

٣ـ شبهة: حول المتشابه بين آيات القرآن.

والباعث على البحث في هذا هو الجواب على شبهة: (أن القرآن إنما أنزل للهدى والبيان، فكيف اشتمل على المتشابه؟

والجواب عن هذا من وجوه:

الوجه الأول: فوائد وجود المتشابه إن كان مما يمكن علمه.

الوجه الثاني: فوائد وجود المتشابه إن كان مما لا يمكن علمه.

الوجه الثالث: الأسباب الموهمة للاختلاف في القرآن الكريم.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: فوائد وجود المتشابه إن كان مما يمكن علمه.

أولًا: يحُث العلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه، والبحث عن دقائق معانيه، فإنَّ استدعاء الهمم؛ لمعرفة ذلك من أعظم القرب، وحذرًا مما قال المشركون ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ (الزخرف: ٢٢). [١]، فإنه مع الحاجة تقع الفكرة والحيلة، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة. [٢]

ثانيًا: إظهار فضل العالم على الجاهل، ويستدعيه علمه إلى المزيد في الطلب في تحصيله؛ ليحصل له درجة الفضل، والأنفس الشريفة تتشوف لطلب العلم وتحصيله. [٣]

إذ لو كان القرآن كله محكمًا لا يحتاج إلى تأويل ونظر؛ لاستوت منازل الخلق، ولم يظهر فضل العالم على غيره. [٤]

ثالثًا: تحقيق إعجاز القرآن؛ لأن كلَّ ما استتبع فيه شيئًا من الخفاء المؤدي إلى التشابه، له مدخل عظيم في بلاغته وبلوغه الطرف الأعلى في البيان. فالبحث في مشكل القرآن يظهر بلاغة القرآن، وإحكامه، واتساق معانيه، وروعة ألفاظه. [٥]

---

(١) البرهان (٢/ ٧٥)، والإتقان (٣/ ٣٠).

(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (١٠٨).

(٣) البرهان (٢/ ٧٥).

(٤) الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٣١).

(٥) مناهل العرفان (٢/ ٢٢٤)، ومشكل القرآن/ عبد الله بن حمد المنصور (١٠٨).

رابعًا: إنَّ البحث في المشكل يوجب المشقة في الوصول إلى المراد، وزيادة المشقة توجب مزيدًا من الثواب. قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ (آل عمران: ١٤٢). [١]

خامسًا: أنه لما كان القرآن مشتملًا على المحكم والمتشابه، افتقر العلماء إلى تعلم طرق التأويلات، وترجيح بعضها على بعض، وافتقر تعلم ذلك إلى تحصيل علوم كثيرة من علم اللغة والنحو وعلم أصول الفقه، ولو لم يكن الأمر كذلك ما كان يحتاج الإنسان إلى تحصيل هذه العلوم الكثيرة. [٢]

سادسًا: تربية المسلم على التواضع ولين الجانب، فإنه عندما يرى غيره يعلم ما لا يعلمه هو، فإن هذا يدعوه إلى التعلم والاعتراف بالعجز. [٣] وفي هذا يقول عمرو بن مرة ﷺ: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني، لأني سمعت الله يقول: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (العنكبوت: ٤٣). [٤]

سابعًا: أن القرآن إذا كان مشتملًا على المحكم والمتشابه، افتقر الناظر فيه إلى الاستعانة بدليل العقل، وحينئذ يتخلص عن ظلمة التقليد، ويصل إلى ضياء الاستدلال والبيِّنة، أما لو كان كله محكمًا لم يفتقر إلى التمسك بالدلائل العقلية؛ فحينئذ كان يبقى في الجهل والتقليد. [٥]

ثامنًا: أنه لو كان القرآن محكمًا بالكلية لما كان مطابقًا إلا لمذهب واحد، وكان تصريحه مبطلًا لكل ما سوى ذلك المذهب، وذلك مما ينفر أرباب المذاهب عن قبوله، وعن النظر فيه. فالانتفاع به إنما حصل لَمَّا كان مشتملًا على المحكم والمتشابه؛ فحينئذ يطمع صاحب كل مذهب أن يجد فيه ما يقوي مذهبه ويؤثر مقالته، فحينئذ ينظر فيه جميع أرباب

(١) التفسير الكبير للرازي (٧/ ١٧٢)، والإتقان (٣/ ٣٢)، والبرهان (٢/ ٧٥).

(٢) التفسير الكبير (٧/ ١٧٢).

(٣) مشكل القرآن (١٠٨).

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٦٤/ ١٧٣٢٧).

(٥) التفسير الكبير (٧/ ١٧٢).

المذاهب، ويجتهد في التأمل فيه كل صاحب مذهب، فإذا بالغوا في ذلك صارت المحكمات مفسرة للمتشابهات، فبهذا الطريق يتخلص المبطل عن باطله، ويصل إلى الحق. (١)

تاسعًا: تيسير حفظ القرآن والمحافظة عليه؛ لأن كل ما احتواه من تلك الوجوه المستلزمة للخفاء، دال على معانٍ كثيرة زائدة على ما يستفاد من أصل الكلام، ولو عُبِّر عن هذه المعاني الثانوية الكثيرة بألفاظ؛ لخرج القرآن في مجلدات واسعة ضخمة يتعذر معها حفظه والمحافظة عليه ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ (الكهف: ١٠٩)، وكذلك يدرك القارئ لدقة القرآن، وعلو أسلوبه روعة ولذة تغريه على قراءته، وتشجعه على استظهاره وحفظه. (٢)

الوجه الثاني: فوائد وجود المتشابه إن كان مما لا يمكن علمه.

١- إنزاله ابتلاء وامتحانًا لعباده، فأما المؤمن فلا يداخله فيه شك ولا يعتريه ريب، وهو بين أمرين:

إما قادر على رده إلى المحكم، وإما قائل: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾، عندما لم يتبيّن معناه، فأمره كله خير وتعظم بذلك مثوبته، وتزيد عند الله تعالى درجته.

وأما المنافق فيرتاب ولا يزيده القرآن إلا خسارًا، وأما من كان في قلبه زيغ – كأهل البدع- فيتبعون المتشابه؛ ليفتنوا الناس عن القرآن، وصحيح السنة، ويُنزلوه على مقتضى بدعتهم. وسياق الآية وما بعدها دالٌ على أن هذا من حكمة إنزال المتشابه، إذ قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ (آل عمران: ٧ -٨)، وقد ذكر الله في القرآن أنه

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مناهل العرفان (٢/ ٢٤٤-٢٢٥).

يُنَزِّل ما يمتحن الله به عباده؛ ليزداد الذين آمنوا إيمانًا، ويضل غيرهم من أهل الضلال. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٦). [(١)]

٢- لرحمة الله بالإنسان الضعيف الذي لا يطيق معرفة كل شيء، وإذا كان الجبل حين تجلى له ربه جعله دكًا، وخرَّ موسى صعقًا، فكيف لو تجلى سبحانه بذاته، وحقائق صفاته للإنسان؟ ومن هذا القبيل أخفى الله عن الناس معرفة الساعة رحمة بهم؛ كيلا يتكاسلوا ويقعدوا عن الاستعداد لها، وكيلا يفتك بهم الخوف والهلع لو أدركوا بالتحديد شدة قربها منهم، ولمثل هذا حجب الله عن العباد معرفة آجالهم؛ ليعيشوا في بحبوحة من أعمارهم، فسبحانه من إله حكيم، رحمن رحيم.

٣- إقامة الدليل على عجز الإنسان وجهالته، مهما عظم استعداده وغزر علمه، وإقامة شاهد على قدرة الله الخالق، وأنه وحده هو الذي أحاط بكل شيء علمًا، وأن الخلق جميعًا لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وهنالك يخضع العبد ويخشع. [(٢)]

الوجه الثالث: الأسباب الموهمة للاختلاف في القرآن الكريم.

قبل الدخول في ذكر الأسباب التي أدت إلى ادعاء التناقض في القرآن الكريم؛ ينبغي أن نعلم أن هناك سببًا رئيسيًا مشتركًا في كل الأسباب التي سأوردها، وهذا السبب يتعلق بالقارىء لكتاب الله تعالى، ألا وهو مقدار العلم والمعرفة، فبالعلم يتفاوت الناس في هذا الباب، ما بين مقل ومستكثر، وإلا فإنَّ التدبر التام للقرآن الكريم كفيلٌ بدفع الإشكال عن النفس، كيف لا يكون كذلك وقد وصف الله كتابه بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ

(١) دعاوي الطاعنين (٧٧-٧٨)، وانظر أيضًا البرهان (٢/ ٧٥)، والإتقان (٣/ ٣١)، ومشكل القرآن (١٠٨)، ومناهل العرفان (٢/ ٢٢٣)، ومذكرة في أصول الفقه للشنقيطي (٧٨).

(٢) مناهل العرفان (٢/ ٢٢٣-٢٢٤).

جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (يونس: ٥٧). [١]

ولقد قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ كلامًا قريبًا من هذا المعنى حول قوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٩٤ ﴾ (يونس: ٩٤).

حيث قال: وقد أشكلت هذه الآية على كثير من الناس، وأورد اليهود والنصارى على المسلمين فيها إيرادًا، وقالوا: كان في شك فأُمر أن يسألنا. وليس فيها بحمد الله إشكال، وإنما أُتى أشباه الأنعام من سوء قصدهم، وقلة فهمهم، وإلا فالآية من أعلام نبوته ﷺ، وليس في الآية ما يدل على الشك ولا السؤال أصلًا، فإن الشرط لا يدل على وقوع المشروط، بل ولا على إمكانه. [٢]

ويقول ابن تيمية: نعم قد يكون في القرآن آيات لا يعلم معناها كثير من العلماء، فضلًا عن غيرهم، وليس ذلك في آية معينة، بل قد يشكل على هذا ما يعرفه هذا، وذلك تارة يكون لغرابة اللفظ، وتارة لاشتباه المعنى بغيره، وتارة لشبهة في نفس الإنسان تمنعه من معرفة الحق، وتارة لعدم التدبر التام، وتارة لغير ذلك من الأسباب. [٣]

ولنشرع الآن في ذكر هذه الأسباب:

الأسباب التي جعلت وجود متشابه في القرآن:

الأول: وقوع المخبَر به على أحوالٍ مختلفة وتطويرات شتى:

وهو أن ترد عدد من الآيات تتحدث عن شيء واحد، وتكون ألفاظها مختلفة، مما يوقع الإشكال لدى قارئ القرآن الكريم، بينما الصواب أنها مجتمعة ومتجانسة، وإنما الواقع أنها تحكي أحوالًا أو أطوارًا لهذا الشيء الذي تتحدث عنه. [٤]

---

(١) مشكل القرآن الكريم، تأليف: عبد الرحمن حمد منصور (١٢٢).

(٢) أحكام أهل الذمة (١/ ٢٦).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٧/ ٤٠٠).

(٤) مشكل القرآن الكريم (١٤٣).

ونضرب مثالين لهذا السبب: **الأول**: قوله تعالى في خلق آدم أنه: ﴿مِن تُرَابٍ﴾ (آل عمران: ٥٩)، ومرة: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٨)، ومرة: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ (الصافات: ١١)، ومرة: ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (الرحمن: ١٤)، وهذه الألفاظ مختلفة، ومعانيها في أحوال مختلفة؛ لأن الصلصال غير الحمأ، والحمأ غير التراب، إلا أن مرجعها كلها إلى جوهرٍ وهو التراب، ومن التراب تدرجت هذه الأحوال.

والثاني: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف: ١٠٧)، وفي موضع: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾، والجانُّ: الصغير من الحيات، والثعبان الكبير منها، وذلك لأن خلقها خلقُ الثعبان العظيم، واهتزازها وحركتها وخفتها كاهتزاز الجان وخفته.[1]

الثاني: لاختلاف الموضع والمكان والآيات:

ويُقصدُ بهذا السبب أن قارئ القرآن الكريم قد يرسخ إليه أحد الأحكام، أو المعاني عند قراءته لبعض الآيات، ثم يقرأ آيات أخرى، فيظهر له حكم أو معنى يتوهم تعارضه مع ما سبق أن ترسخ إليه فيستشكل الآية، بينما الحق أن الآية أو الآيات الأولى تتحدث عن الموضوع ذاته، ولكن موضعها ومكانها يختلف عن موضع ومكان الآية أو الآيات الأخرى.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ (الصافات: ٢٤)، وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف: ٦) مع قوله تعالى: ﴿**فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ**﴾ (الرحمن: ٣٩).

قال الحليمي: فتحمل الآية الأولى على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل، والثانية على ما يستلزم الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه. وحمله غيره على اختلاف الأماكن؛ لأن في القيامة مواقف كثيرة، فموضع يسأل ويناقش، وموضع آخر يرحم ويلطف به، وموضع آخر يعنف ويوبخ- وهم الكفار- وموضع آخر لا يعنف - وهم المؤمنون -.[2]

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢/ ٥٤-٥٥).

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢/ ٥٥).

الثالث: لاختلاف جهة الفعل:

وهو أن تأتي آيات تبين الفعل وفاعله، ثم تأتي آيات أخرى أو حتى نفس الآية – تذكر نفس الفعل وتثبت فاعلًا آخر وهذا يعني اختلاف جهة الفعل، مع أنه نفس الفعل، فمن هنا يظهر الإشكال ويبرز أهمية دفعه.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفال: ١٧). حيث نفي الرمي عن رسول الله ﷺ بقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ ثم أثبته له بقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾، وتوجيه ذلك أن الله تعالى لم يرد به أن فعل العبد هو فعل الله تعالى ـ كما تظنه طائفة من الغالطين ـ فإن ذلك لو كان صحيحًا؛ لكان ينبغي أن يقال لكل أحد حتى يقال للماشي: ما مشيت إذ مشيت ولكن الله مشى، ويقال للراكب: وما ركبت إذ ركبت ولكن الله ركب، ويقال للمتكلم: ما تكلمت إذ تكلمت ولكن الله تكلم، ويقال مثل ذلك للآكل والشارب والصائم والمصلي ونحو ذلك، وطرد ذلك: يستلزم أن يقال للكافر ما كفرت إذ كفرت ولكن الله كفر، ويقال للكاذب ما كذبت إذ كذبت ولكن الله كذب، ومن قال مثل هذا: فهو كافر ملحد خارج عن العقل والدين، ولكن معنى الآية: أن النبي ﷺ يوم بدر رماهم ولم يكن في قدرته أن يوصل الرمي إلى جميعهم، فإنه إذ رماهم بالتراب وقال: " **شاهت الوجوه**". [1] لم يكن في قدرته أن يوصل ذلك إليهم كلهم بقدرته، فيكون معنى الآية: وما أوصلت إذ حذفت ولكن الله أوصل، فالرمي الذي أثبته له ليس هو الرمي الذي نفاه عنه، فإن هذا مستلزم للجمع بين النقيضين، بل نفى عنه الإيصال والتبليغ وأثبت له الحذف والإلقاء. وكذلك إذا رمي سهمًا فأوصله الله إلى العدو إيصالًا خارقًا للعادة: كان الله هو الذي أوصله بقدرته. [2]

الرابع: لاختلافهم في الحقيقة والمجاز: ويعرف المجاز بأنه: إسنادُ الفعل أو معناه إلى ملابس له، غير ما هو له بتأولٍ، أي بقرينة صارفة له عن إرادة الظاهر[3]، وذلك كقوله

---

(١) رواه مسلم (٣٣٢٨).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢/ ٣٣١-٣٣٢).

(٣) البرهان (٢/ ٦٠-٦١).

تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾ (الحج: ٢) أي: وترى الناس سكارى بالإضافة إلى أهوال يوم القيامة مجازًا، وما هم بسكارى بالإضافة إلى الخمر حقيقة. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٨)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (الأنفال: ٢١)، وقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ١٩٨)، فإنه لا يلزم من نفي النظر نفي الإبصار لجواز قولهم: نظرت إليه فلم أبصره. [١]

الخامس: بوجهين واعتبارين، وهو الجامع للمفترقات:

وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (الشورى: ٤٥).

قال قطربُ: في قوله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: ٢٢) أي: علمك ومعرفتك بها قوية، من قولهم: بصر بكذا وكذا- أي: علم، وليس المراد رؤية العين، قال الفارسي ويدل على ذلك قوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ وصف البصر بالحدة. وكقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (الرعد: ٢٨) مع قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الأنفال: ٢)، فقد يظن أن الوجل خلاف الطمأنينة، **وجوابه**: أن الطمأنينة إنما تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد، والوجل يكون عند خوف الزيغ والذهاب عن الهدى فتوجل القلوب لذلك.

وقد جمع بينهما في قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٣)، فإن هؤلاء قد سكنت نفوسهم إلى معتقدهم ووثقوا به فانتفى عنهم الشك. [٢]

السادس: تفهم تعارض الآية أو الآيات مع الأحاديث النبوية:

فقد يتوهم قارئ القرآن الكريم حين القراءة أن هذه الآية أو الآيات التي يقرؤها تتعارض مع حديث أو أحاديث يعرفها، وباعتبار أن القرآن الكريم والسنة النبوية هما

(١) الإيضاح لتلخيص المفتاح للقزويني مع شرحه بغية الإيضاح (٥٣).

(٢) البرهان (٢/ ٦١-٦٢).

المصدر الأساسي للتشريع، فيلزم النظر وإعمال الفكر للوصول إلى التوجيه الصحيح والمعنى الصحيح لهذا التعارض المتوهم.

ومن هذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٣٢). مع ما ورد عن النبي ﷺ **"لن يدخل أحدكم الجنة بعمله"**.[1]

فظاهر الحديث يخالف الآية مما جعل أهل الحديث يبحثون في وجه الجمع بينهما، وممن قام بالجمع بينهما شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله حيث يقول: ها هنا أمر يجب التنبيه عليه وهو أن الجنة تدخل برحمة الله تعالى، وليس عمل العبد مستقلًا بدخولها، وإن كان سببًا.

ولهذا أثبت الله تعالى دخولها بالأعمال في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ونفي رسول الله ﷺ دخولها بالأعمال في قوله **"لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله"**، ولا تنافي بين الأمرين لوجهين:

أحدهما: ما ذكره سفيان وغيره قال: كانوا يقولون النجاة من النار بعفو الله، ودخول الجنة برحمته، واقتسام المنازل والدرجات بالأعمال، ويدل على هذا حديث أبي هريرة ﷺ **"أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم"**.[2]

والثاني: أن الباء التي نفت الدخول هي باء المعاوضة التي يكون فيها أحد العوضين مقابل للآخر، والباء التي أثبتت الدخول هي باء السببية التي تقضي سببية ما دخلت عليه لغيره، وإن لم يكن مستقلًا بحصوله، وقد جمع النبي ﷺ بين الأمرين بقوله **"سددوا وقاربوا وأبشروا، واعلموا أن أحدًا منكم لن ينجو بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته"**.[3]

---

(١) رواه البخاري (٥٢٤١)، ومسلم (٥٠٤٠).

(٢) رواه الترمذي (٢٥٤٩)، وابن ماجه (٤٣٣٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٨٣١).

(٣) رواه البخاري (٦٠٩٨)، ومسلم (٢٨١٦) عن أبي هريرة ﷺ. ولفظ البخاري **"لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ الله قَالَ وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِرَحْمَةٍ سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاغْدُوا وَرُوحُوا وَشَيْءٌ مِنْ الدُّلْجَةِ وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا"**.

ومن عرف الله تعالى، وشهد مشهد حقه عليه، ومشهد تقصيره وذنوبه، وأبصر هذين المشهدين بقلبه عرف ذلك وجزم به، والله سبحانه وتعالى المستعان. [١]

وقد ذكر ابن تيمية قريبًا من هذا الجمع فقال: وليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة، بل هي سبب، ولهذا قال النبيﷺ: **"أنه لن يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله! قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل "**، وقد قال تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، فهذه باء السبب، أي بسبب أعمالكم، والذي نفاه النبي ﷺ باء المقابلة كما يقال: اشتريت هذا بهذا، أي: ليس العمل عوضًا وثمنًا كافيًا في دخول الجنة، بل لا بد من عفو الله وفضله ورحمته فبعفوه يمحو السيئات، وبرحمته يأتي بالخيرات، وبفضله يضاعف البركات. [٢]

السابع: توهم استحالة المعنى:

ويقصد بهذا أن يتوهم القارئ للقرآن الكريم أن معنى الآية مستحيل، فيستشكل الآية بذلك، ويكون مخطئًا في توهمه، ويكون قد فهم من الآية شيئًا ليس مرادًا، أو أنه مراد وهو غير مستحيل. [٣]

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (الزخرف: ٨١).

اختلف العلماء في معنى ﴿إن﴾ في هذه الآية الكريمة:

١ ـ فقالت جماعة من أهل العلم أنها شرطية، واختاره غير واحد، وممن اختاره ابن جرير الطبري، والذين قالوا أنها شرطية، اختلفوا في المراد بقوله تعالى: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ فقال بعضهم: فأنا أول العابدين لهذا الولد.

وقال بعضهم: فأنا أول العابدين لله على فرض أن له ولدًا.

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (٨٧-٨٨).

(٢) فتاوى ابن تيمية (٨/ ٧٠-٧١).

(٣) مشكل القرآن/ عبد الله حمد المنصور (١٧١).

وقال بعضهم: فأنا أول العابدين لله جازمين بأن لا يمكن أن يكون له ولد.

٢ ـ وقالت جماعة آخرون: إن لفظ ﴿إن﴾ في الآية نافية، والمعنى: ما كان لله ولدٌ، وعلى القول بأنها نافية ففي معنى قوله: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ **ثلاثة أوجه:**

-**الأول**. وهو أقربها: أن المعنى ما كان لله ولد فأنا أول العابدين لله، المنزهين له عن الولد، وعن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.

- **والثاني**: أن معنى قوله: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾: أي الآنفين المستنكفين من ذلك يعني القول الباطل المفترى على ربنا الذي هو ادعاء الولد له.

- **والثالث**: أن معنى قوله: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾: أي الجاحدين النافين أن يكون لله ولد سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا[1].

التاسع: الإيجاز والاختصار:

للعرب أساليبهم في كلامهم، ومن أبدع هذه الأساليب: الإيجاز؛ وقد جاء القرآن الكريم بلغة العرب، فلا ريب أن يرد الإيجاز في آياته، ونبدأ الآن بتعريف الإيجاز، وهل بينه وبين الاختصار فرق؟ ولماذا كان الإيجاز لاستشكال بعض الآيات؟

ذهب البعض من العلماء إلى أن الإيجاز والاختصار بمعنى واحد، وفرق البعض الآخر بينهما، فقال أبو الحسن الرماني: الإيجاز: تقليل الكلام من غير الإخلال بالمعنى، وإن كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة، ويمكن أن يعبر عنه بألفاظ قليلة، فالألفاظ القليلة إيجاز.

والإيجاز عل وجهين: حذف وقصر.

فالحذف: إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام.

والقصر: بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف.[2]

ونأخذ مثالًا لهذا النوع وهو قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾

(١) المصدر السابق.

(٢) مشكل القرآن (١٩٧-١٩٨).

(البقرة: ١٧٩). ففيها يقول الرازي ـ رحمه الله ـ: ليس المراد من هذه الآية أن نفس القصاص حياة؛ لأن القصاص إزالة للحياة، وإزالة الشيء يمتنع أن تكون نفس ذلك الشيء، بل المراد أن شرع القصاص يفضي إلى الحياة في حق من يريد أن يكون قاتلًا، وفي حق من يراد جعله مقتولًا، وفي حق غيرهما أيضًا.

أما في حق من يريد أن يكون قاتلًا: فلأنه إذا علم أنه لو قتل قُتل؛ ترك القتل، فلا يقتل فيبقى حيًا. وأما في حق من يراد جعله مقتولًا: فلأن من أراد قتله إذا خاف من القصاص ترك قتله فيبقى غير مقتول. وأما في حق غيرهما: فلأن في شرع القصاص بقاء في من همَّ بالقتل أو من يهم به، وفي بقائهما بقاء من يتعصب لهما؛ لأن الفتنة تعظم بسبب القتل؛ فتؤدي إلى المحاربة التي تنتهي إلى قتل عالم من الناس.(١)

وبهذا يتبين أن الإيجاز قد يصاحبه غموض، مما يؤدي إلى استشكال الآية لدى البعض.

العاشر: احتمال الإحكام أو النسخ للآية:

وذلك أن المفسر قد تشكل عليه الآية لاختلافها مع آية أخرى، فيبحث عن وجه الجمع، فإن لم يجده يلجأ إلى القول بالنسخ، بينما يكون غيره من المفسرين يعرف وجه الجمع فيذكره ويورده، ويبين أنه لا نسخ في الآية.(٢)

ومن الأمثلة على هذا، قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ ﴾ (البقرة: ٢٤٠).

قال الأكثرون: هذه الآية منسوخة بالتي قبلها، وهي قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ (البقرة: ٢٣٤)، ففي هذه الآية أمر من الله للنساء اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليالي. كما أن قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ

(١) التفسير الكبير للرازي (٥/ ٥٦)، وانظر أيضًا: الإتقان للسيوطي (٣/ ١٦٦-١٦٧).

(٢) مشكل القرآن الكريم (٢٠٥).

﴿أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: يستفاد منه وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها.

وذهب مجاهد وعطاء إلى أن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة – كما زعمه الجمهور – حتى يكون ذلك منسوخًا بالأربعة أشهر وعشرًا، وإنما دلت على أن ذلك كان من باب الوصاية بالزوجات أن يُمَكَّنَّ من السكنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولًا كاملًا إن اخْترْنَ ذلك، ولهذا قال ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ أي يوصيكم الله بهن وصية، كقوله ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾، ولا يمنعن من ذلك لقوله ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾، فأما إذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر أو بوضع الحمل، واخترن الخروج والانتقال من ذلك بالمنزل، فإنهن لا يمنعن من ذلك، لقوله: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾، وهذا القول له اتجاه وفي اللفظ مساعدة له، وقد اختاره جماعة منهم: الإمام أبو العباس ابن تيمية، وردَّه آخرون منهم ابن عبد البر.[١]

الحادي عشر: تعدد القراءات في الآية:

تعرف القراءات بأنها: علم يعرف به كيفية النطق بالكلمات القرآنية، وطريق أدائها اتفاقًا مع عزو كل وجه لناقله.[٢]

- واختلاف القراءات لا يخلو من **ثلاثة أحوال:**

أحدها: اختلاف اللفظ والمعنى واحد. **والثاني:** اختلاف اللفظ والمعنى جميعًا، مع جواز أن يجتمعا في شيء واحد، لعدم تضاد اجتماعهما فيه. **والثالث:** اختلاف اللفظ والمعنى مع امتناع جواز أن يجتمعا في شيء واحد؛ لاستحالة اجتماعهما فيه.[٣]

والذي يعنينا هنا في هذا الباب الأمر الثالث فهو مثار الإشكال عند بعض المفسرين، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد من القراءات في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٠٩-٤١١).

(٢) البدور الزاهرة في القراءات العشرة المتواترة (٥).

(٣) الأحرف السبعة لأبي عمرو الداني (٤٧).

قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾ (المائدة: ٦). ففيها أي: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ثلاث قراءات: واحدة شاذة، واثنتان متواترتان. أما **الشاذة**: فقراءة الرفع وهي قراءة الحسن. [١]

وأما **المتواتران**: فقراءة النصب، وقراءة الخفض، **أما النصب**: فهو قراءة نافع، وابن عامر، والكسائي، وعاصم في رواية حفص من السبعة، ويعقوب من الثلاثة. [٢]

وأما **الجر**: فهو قراءة ابن كثير، وحمزة، وأبي عمرو، وعاصم في رواية أبي بكر. [٣]

أما قراءة النصب فلا إشكال فيها؛ لأن الأرجل فيها معطوفة على الوجه، وتقرير المعنى عليها: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين وامسحوا برءوسكم.

وأما على قراءة الجر: ففي الآية الكريمة إجمال، وهو أنه يُفهم منها الاكتفاء بمسح الرجلين في الوضوء عن الغسل وذلك مثل الرأس تمامًا، وهو خلاف الواقع للأحاديث الصحيحة الصريحة في وجوب غسل الرجلين في الوضوء والتوعد لمن ترك ذلك.

اعلم أولًا أن القراءتين إذا ظهر تعارضهما في آية واحدة لهما حكم الآيتين كما هو معروف عند العلماء، فإذا علمت ذلك فاعلم أن قراءة ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ بالنصب صريح في وجوب غسل الرجلين في الوضوء، فهي تفهم أن قراءة الخفض إنما هي لمجاورة المخفوض، وقال بعض العلماء: المراد بمسح الرجلين غسلهما، والعرب تطلق المسح على الغسل أيضًا، وقال بعض العلماء: المراد بقراءة الجر: المسح، ولكن النبي ﷺ بَيَّن أن ذلك المسح لا يكون إلا على الخف، وعليه فالآية تشير إلى أن المسح على الخف في قراءة الخفض. [٤]

الثاني عشر: **تردد معنى الآية بين أن يكون لها مفهوم مخالفة أولا**: ومعنى هذا العنوان هو: أنه قد ترد بعض الآيات وفيها نص على أحد الأحكام، وهذا الحكم يستخرج

---

(١) إتحاف فضلاء البشر للبنا الدمياطي (٢٥١).

(٢) المصدر السابق، وانظر أيضًا النشر لابن الجزري (٢/ ٢٥٤)، والتيسير (٧٤).

(٣) المصادر السابقة.

(٤) أضواء البيان (٢/ ٧-١٤)باختصار.

من منطوق النص القرآني. وأحيانًا تدل الآية على حكم من الأحكام بالمفهوم، بمعنى أن الحكم لم يرد في الآية منصوصًا عليه، ولكنه يفهم من معنى الآية.

فمثلًا قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ (الإسراء: ٢٣)يدل بمنطوقه عن النهي عن التأفف، وهو يدل أيضًا بمفهومه على النهي عن الضرب.(١)

ومن الآيات التي تُبيِّن هذا النوع قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ (الأعلى: ٩)، فهذه الآية يفهم منها أن التذكير لا يطلب إلا عند مظنة نفعه، بدليل ﴿إِن﴾ الشرطية.

وقد جاءت آيات كثيرة تدل على الأمر بالتذكير مطلقًا، كقوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (الغاشية: ٢١)، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر: ٢٢).

وقبل أن نجيب عن هذا الإشكال نبين أولًا أن هذا الاستشكال لا يكون إلا على قول من يقول باعتبار دليل الخطاب – الذي هو مفهوم المخالفة – وأما على قول من لا يعتبر مفهوم المخالفة فلا يعتبر ذلك إشكالًا.

ونجيب عن هذا الإشكال بعدة أجوبة منها:

١ ـ أن في الكلام حذفًا، أي إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ (النحل: ٨١)، أي والبرد.

٢ ـ أنها بمعنى (إذ).

٣ ـ أن معنى: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾: الإرشاد إلى التذكير بالأهم، أي: ذكر بالمهم الذي فيه النفع دون ما لا ينفع.

٤ ـ أنها صيغة شرط أريد بها ذم الكفار واستبعاد تذكيرهم.

قلت: والذي يظهر هو بقاء الآية الكريمة على ظاهرها، وأنه ﷺ بعد أن يكرر الذكرى تكريرًا تقوم به حجة الله على خلقه ـ مأمورٌ بالتذكير عند ظن الفائدة، أما إذا علم عدم

(١) مشكل القرآن الكريم (٢١٧).

الفائدة، فلا يؤمر بشيء هو عالم أنه لا فائدة فيه؛ لأن العاقل لا يسعى إلى مالا فائدة فيه. (١)

الثالث عشر: الاستعارة البديعة:

وتعرف الاستعارة بأنها: ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له. (٢)

ونظيرها قوله تعالى: ﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾ (الإنسان: ١٦)، فالقوارير لا يكون من الفضة، وما كان من الفضة لا يكون قوارير، ولكن للفضة صفة كمال: وهي نفاسة جوهره وبياض لونه، وصفة نقصان: وهي أنها لا تصفوا، ولا تشفُّ وللقارورة صفة كمال أيضًا، وهي الصفاء والشفيف، وصفة نقص وهي خساسة الجوهر. فعرف بعد التأمل أن المراد من كل واحد صفة كماله، وأن معناه أنها مخلوقة من فضة، وهي مع بياض الفضة في صفاء القوارير وشفيفها. وكذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ (النحل: ١١٢)، فاللباس لا يذاق ولكنه يشمل الظاهر، ولا أثر له في الباطن، والإذاقة أثرها في الباطن ولا شمول لها، فاستعيرت الإذاقة لما يصل من أثر الضرر إلى الباطن واللباس بالشمول، فكأنه قيل: فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف، أي أثرهما واصلٌ إلى بواطنهم مع كونه شاملًا لهم. (٣)

الرابع عشر: اعتقاد أمر مخالف للكتاب والسنة:

وهذا واقع عند أهل البدع؛ حيث ابتدعوا بعض الاعتقادات، وجعلوها هي الأصل المعقول المحكم الذي يجب اعتقاده والبناء عليه، ثم نظروا في الكتاب والسنة، فما أمكنهم أن يتأولوه على قولهم تأولوه، وإلا قالوا: هذا من الألفاظ المتشابهة المشكلة التي لا ندري ما أريد بها، فجعلوا بدعهم أصلًا مُحكمًا، وما جاء به الرسول فَرْعًا له، ومُشْكَلًا إذا لم يوافقه، فالواجب أن يجعل ما أنزله الله من الكتاب والحكمة أصلًا في هذه الأمور، ثم يُرَدُّ ما تكلم فيه الناس إلى ذلك، ويُبيِّن ما في الألفاظ المجملة من المعاني الموافقة من الكتاب

(١) دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (٢٥٧-٢٥٩) باختصار.

(٢) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح (٤٧٥).

(٣) كشف الأسرار، لعبد العزيز البخاري الحنفي (١/ ٥٤).

والسنة فتقبل، وما فيها من المعاني المخالفة للكتاب والسنة فَتُرَد. [١]

ولهذا يجعل كل فريق المشكل من نصوصه غير ما يجعل الفريق الآخر مشكلًا، فمنكر الصفات الخبرية الذي يقول: إنها لا تعلم بالعقل يقول: نصوصها مشكلة متشابهة، بخلاف الصفات المعلومة بالعقل عنده بعقله؛ فإنها عنده محكمة بيِّنَة. وكذلك يقول من ينكر العلو والرؤية: نصوص هذه مشكلة.

ومنكر الصفات مطلقًا يجعل ما يثبتها مشكلًا دون ما يثبت أسماء الله الحسنى، ومنكر معاني الأسماء: يجعل نصوصها مشكلة، ومنكر معاد الأبدان وما وصفت به الجنة والنار: يجعل ذلك مشكلًا

أيضًا، ومنكر القدر: يجعل ما يثبت أن الله خالق كل شيء وما شاء كان مشكلًا، دون آيات الأمر والنهي والوعد والوعيد، والخائض في القدر بالجبر يجعل نصوص الوعيد، بل ونصوص الأمر والنهي مشكلة فقد يستشكل كل فريق ما لا يستشكله غيره، ثم يقول فيما يستشكله إن معاني نصوصه لم يُبيِّنها الرسولﷺ. [٢]

ويقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ (الأعراف: ٥٤)، هذه الآية الكريمة وأمثالها من آيات الصفات كقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ (الفتح: ١٠)، ونحو ذلك، أشكلت على كثير من الناس إشكالًا ضلَّ بسببه خَلْقٌ لا يحصى كَثرة، فصار قوم إلى التعطيل، وقومٌ أخر إلى التشبيه ـ سبحانه وتعالى علوًا كبيرًا عن ذلك كله ـ والله جل وعلا أوضح هذا غاية الإيضاح، ولم يترك فيه أي لبس ولا إشكال. [٣]

وبذلك يتبين أن كون الآية من آيات الصفات لا يجعلها موضع إشكال، ولا ينبغي وصفها بذلك، كما أنه ينبغي على الباحث أن ينظر فيما يشكل عليه، والبحث عما يدفع عنه

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٧/ ٣٠٦-٣٠٧) بتصرف يسير.

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٣).

(٣) أضواء البيان (٢/ ٢٧٢).

الإشكال، خصوصًا فيما يتعلق بمسائل الاعتقاد.[(١)]

الخامس عشر: خفاء المعنى:

أي: إن الإشكال يقع في الآية؛ لغموض المعنى، وخفائه على المفسر. ومن نظائره قوله تعالى: ﴿أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الأنعام: ١١٠).

قال القرطبي: هذه آية مشكلة، ولا سيما وفيها: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: قيل: المعنى ونقلب أفئدتهم وأنظارهم يوم القيامة على لهب وحرّ الجمر، كما لم يؤمنوا به في الدنيا، ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ في الدنيا، أي نمهلهم ولا نعاقبهم، فبعض الآية في الآخرة، وبعضها في الدنيا، ونظيرها: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴿٢﴾﴾ (الغاشية: ٢)، فهذا في الآخرة، ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ (الغاشية: ٣) في الدنيا.

وقيل: ونقلب في الدنيا، أي نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية، كما حِلْنَا بينهم وبين الإيمان أول مرة، لَمَّا دَعَوْتَهُم وأَظْهَرْتَ المعجزة، وفي التنزيل ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ (الأنفال: ٢٤)، والمعنى: كان ينبغي أن يؤمنوا إذا جاءتهم الآية، فرأوها بأبصارهم وعرفوها بقلوبهم، فإذا لم يؤمنوا كان ذلك بتقليب الله قلوبهم وأبصارهم ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ودخلت الكاف على محذوف، أي: فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أول مرة، أي: أول مرة أتتهم الآيات التي عجزوا عن معارضتها مثل القرآن وغيره. **وقيل**: ونقلب أفئدة هؤلاء كيلا يؤمنوا؛ كما لم تؤمن كفار الأمم السالفة لما رأوا ما اقترحوا من الآيات. **وقيل**: في الكلام تقديم وتأخير، أي أنها إذا جاءت لا يؤمنون كما لم يؤمنوا أول مرة ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ يتحيرون.[(٢)]

* * *

(١) مشكل القرآن (١٢٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٦٧).

٤ـ شبهة: ادعاؤهم عدم وجود إعجاز في القرآن الكريم.

نص الشبهة:

التشكيك في إعجاز القرآن، بأنه ليس بمعجزة، وليست معجزته متجددة.

الرد على الشبهة من خلال مبحثين:

المبحث الأول: مقدمة مختصرة في الإعجاز.

المبحث الثاني: بيان أوجه إعجاز القرآن:

الوجه الأول: الإعجاز في فصاحة القرآن الكريم.

الوجه الثاني: الإعجاز في حروف القرآن الكريم.

الوجه الثالث: الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم.

الوجه الرابع: الإعجاز في ألفاظ القرآن الكريم.

الوجه الخامس: الإعجاز في المعنى (أي: في معاني الألفاظ في القرآن الكريم).

الوجه السادس: الإعجاز في وفاء اللفظ بالمعنى في القرآن.

الوجه السابع: الإعجاز في التركيب (أي: تركيب مفردات القرآن الكريم).

الوجه الثامن: الإعجاز في النظم.

الوجه التاسع: الإعجاز في كثرة أغراضه.

الوجه العاشر: الإعجاز البلاغي.

الوجه الحادي عشر: الإعجاز الخطابي: في مناسبة القرآن وإرضائه للعامة والخاصة.

الوجه الثاني عشر: الإعجاز في الوحدة الموضوعية(العضوية) للآيات والسور.

الوجه الثالث عشر: الإعجاز في عرضه القصصي.

الوجه الرابع عشر: الإعجاز في ضربه للأمثال.

الوجه الخامس عشر: الإعجاز في التكرار.

الوجه السادس عشر: الإعجاز في تيسير الله القرآن للذكر.

الوجه السابع عشر: الإعجاز النفسي.

الوجه الثامن عشر: إعجاز القرآن في كثرة علومه ومعارفه.

الوجه التاسع عشر: الإعجاز التشريعي.

الوجه العشرون: الإعجاز العلمي في القرآن.

الوجه الحادي والعشرون: الإعجاز الغيبي.

الوجه الثاني والعشرون: الإعجاز التأثيري.

الوجه الثالث والعشرون: القرآن معجزة متجددة.

الوجه الرابع والعشرون: الإعجاز في هيمنته على الكتب السابقة وجمعه لعلومها.

الوجه الخامس والعشرون: إعجاز القرآن في أسمائه وصفاته.

الوجه السادس والعشرون: إعجاز القرآن في بيانه للحق بالأدلة العقلية والقياس البيّن.

الوجه السابع والعشرون: إعجاز القرآن في حفظ الله له.

الوجه الثامن والعشرون: إعجاز القرآن في عدم المجيء بمثله، وتحديه للبشر.

وإليك التفصيل

المبحث الأول: مقدمة مختصرة في إعجاز القرآن.

الأدلة على إعجاز القرآن:

الدليل من القرآن:

١- قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (العنكبوت: ٥٠-٥١).

قال السيوطي: فأخبر أن الكتاب آية من آياته، كافٍ في الدلالة، قائمٌ مقام معجزاتِ غيره، وآياتِ من سواه من الأنبياء، ولما جاء به النبيّ ﷺ إليهم وكانوا أفصح الفصحاء، ومصاقع الخطباء، وتحدّاهم على أن يأتوا بمثله، وأمهلهم طول السنين فلم يقدروا.

٢- قال تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾ (الطور: ٣٤)، وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ

يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (هود: ١٣- ١٤).

وقال: فقد تحدّاهم الله على أن يأتوا بمثله، وأمهلهم طول السنين فلم يقدروا: كما قال تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾، ثم تحدّاهم بعشر سور منه في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ . . . ﴾ ثم تحدّاهم بسورة في قوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (يونس: ٣٨). ، ثم كرّر في قوله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (البقرة: ٢٣) فلما عجزوا عن معارضته، والإتيان بسورة تشبهه، على كثرة الخطباء فيهم، والبلغاء نادى عليهم بإظهار العجز، وإعجاز القرآن فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨).

الدليل من السنة

١- عن أبي هريرةؓ قال: قال النبي ﷺ: "مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيّ، إِلاَّ أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ، آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ". (١)

٢- وعن ابن عباس ﷺأن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فقال: أي عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالًا، قال: لم؟ قال: يعطونكه فإنك أتيت محمدًا تتعرض لما قبله؛ قال: قد علمت قريشٌ أني أكثرها مالًا، قال: فقل فيه قولًا يعلم قومك أنك منكر لما قال، وأنك كاره له؛ قال: فما أقول فيه، فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منّي، ولا أعلم برجزه منّي، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجنّ، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٩٦)، ومسلم (١٥٢).

ليعلو ولا يعلى. قال: والله لا يرضى قومك حتّى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكّر فيه؛ فلما فكر قال: هذا سحر يأثره عن غيره، فنزلت ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ (المدثر: ١١). قال قتادة: خرج من بطن أمه وحيدًا، فنزلت هذه الآية حتى بلغ تسعة عشر.[1]

الأدلة العقلية:

قال السيوطي: إن العرب الفصحاء اللدّ: قد كانوا أحرص شيء على إطفاء نوره، وإخفاء أمره، فلو كان في مقدرتهم معارضته، لعدلوا إليها قطعًا للحجة، ولم ينقل عن أحد منهم أنه حدث نفسه بشيء من ذلك، ولا رامه، بل عدلوا إلى العناد تارة، وإلى الاستهزاء أخرى، فتارة قالوا: سحر، وتارة قالوا: شعر، وتارة قالوا: أساطير الأولين، كل ذلك من التحيّر والانقطاع، ثم رضوا بتحكيم السيف في أعناقهم، وسبي ذراريهم، وحرمهم، واستباحة أموالهم، وقد كانوا آنفَ شيءٍ، وأشدّه حميّة، فلو علموا أن الإتيان بمثله في قدرتهم لبادروا إليه؛ لأنه كان أهون عليهم.

قال الجاحظ: بعث الله محمدًا أكثر ما كانت العرب، شاعرًا وخطيبًا، وأحكم ما كانت لغةً، وأشدّ ما كانت عدةً، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله، وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجّة؛ فلما قطع العذر وأزال الشبهة، وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية، دون الجهل والحيرة، حملهم على حظهم بالسيف، فنصب لهم الحرب، ونصبوا له. وقتل من عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبني أعمامهم، وهو في ذلك يحتجّ عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباحًا ومساءً، إلى أن يعارضوه إن كان كاذبًا، بسورة واحدة أو بآيات يسيرة، فكلما ازداد تحدّيًا لهم بها، وتقريعًا لعجزهم عنها، تكشّف من نقصهم ما كان مستورًا، وظهر منه ما كان خفيًا، فحين لم يجدوا حيلةً، ولا حجةً، قالوا له: أنت

---

(١) أخرجه الحاكم (٣٨٠٧)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥٠٢)، وشعب الإيمان (١٢٦): كلاهما عن أيوب السختياني، عن عكرمة، عن ابن عباس به. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣٢٨٧)، عن معمر، عن رجل، عن عكرمة به. والحديث صححه الألباني: في صحيح السيرة النبوية (١٥٩).

تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا، قال: فهاتوها مفتريات، فلم يرم ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر، ولا طمع فيه لتكلفه؛ ولو تكلفه لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجيده، ويحامي عليه، ويكايد فيه، ويزعم أنه قد عارض، وقابل، وناقض.

فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم، واستحالة لغتهم، وسهولة ذلك عليهم، وكثرة شعرائهم، وكثرة من هجاه منهم، وعارض شعراء أصحابه، وخطباء أمته؛ لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله، وأفسد لأمره، وأبلغ في تكذيبه، وأسرع في تفريق أتباعه من بذل النفوس، والخروج من الأوطان، وإنفاق الأموال، وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفي على من هو دون قريش، والعرب في الرأي والعقل بطبقات، ولهم القصيد العجيب، والرجز الفاخر، والخطب الطوال البليغة، والقصار الموجزة، ولهم الأسجاع، والمزدوج، واللفظ المنثور، ثم يتحدّى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم فمحال- أكرمك الله- أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر، والخطأ المكشوف البيّن، مع التقريع بالنقص، والتوقيف على العجز، وهم أشدّ الخلق أنفة، وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيد عملهم، وقد احتاجوا إليه، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة، وكما أنه محال أن يطبقوا ثلاثًا وعشرين سنةً على الغلط في الأمر الجليل المنفعة، فكذلك محال أن يتركوه، وهم يعرفونه ويجدون السبيل إليه، وهم يبذلون أكثر منه. [(١)]

لماذا خص الله القرآن بأنه معجزة هذه الأمة؟

قال السيوطي: وهي – أي المعجزات – إما حسّية وإما عقلية، وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسّية لبَلادتهم، وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية، لفرط ذكائهم، وكمال أفهامهم؛ ولأن هذه الشريعة لما كانت باقيةً على صفحات الدهر إلى يوم القيامة، خُصّت بالمعجزة العقلية الباقية؛ ليراها ذوو البصائر. [(٢)]

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣١١: ٣١٧

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣١١

اختلاف العلماء في معرفة وجه الإعجاز في القرآن:

قال ابن سراقة: اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن، فذكروا في ذلك وجوهًا كثيرةً، كلها حكمة وصواب، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءًا واحدًا من عشر معشاره. (١)

أنواع الإعجاز:

قال ابن تيمية: وكون القرآن أنه معجزة، ليس هو من جهة فصاحته، وبلاغته فقط، أو نظمه وأسلوبه فقط، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط، ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط، ولا من جهة سلب قدرتهم على معارضته فقط؛ بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة، من جهة اللفظ، ومن جهة النظم، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى، وأسمائه، وصفاته وملائكته وغير ذلك، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي، وعن الغيب المستقبل، ومن جهة ما أخبر به عن المعاد، ومن جهة ما بيّن فيه من الدلائل اليقينية، والأقيسة العقلية، التي هي الأمثال المضروبة كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (الإسراء: ٨٩). (٢)

كيفية الوقوف على إعجاز القرآن.

قال الباقلاني: قد لا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية من العجم، والترك، وغيرهم، أن يعرفوا إعجاز القرآن، إلا بأن يعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلك؛ فإذا عرفوا هذا - بأن علموا، أنهم قد تحدّوا إلى أن يأتوا بمثله، وقُرِّعوا على ترك الإتيان بمثله، ولم يأتوا به - تبيّنوا أنهم عاجزون عنه، وإذا عجز أهل ذلك اللسان، فهم عنه أعجز، وكذلك نقول إن من كان من أهل اللسان العربي - إلا أنه ليس يبلغ في الفصاحة الحد الذي يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام ووجوه تصرف اللغة، وما يعدّونه فصيحًا بليغًا بارعًا من غيره - فهو كالأعجمي، في أنه لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن، إلا بمثل ما بيّنا أن يعرف به

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣٢١

(٢) الجواب الصحيح ٥/ ٤٢٨

الفارسي، الذي بدأنا بذكره، وهو ومن ليس من أهل اللسان سواء، فأما من كان قد تناهى في معرفة اللسان العربي، ووقف على طرقها ومذاهبها - فهو يعرف القدر الذي ينتهي إليه وسع المتكلم من الفصاحة، ويعرف ما يخرج عن الوسع ويتجاوز حدود القدرة - فليس يخفى عليه إعجاز القران، كما يميّز بين جنس الخطب والرسائل والشعر، وكما يميّز بين الشعر الجيّد والرديء، والفصيح والبديع، والنادر والبارع والغريب، وهذا يميّز أهل كل صناعة صنعتهم، فيعرف الصيرفي من النقد ما يخفى على غيره، ويعرف البزّاز من قيمة الثوب وجودته ورداءته ما يخفى على غيره، وإن كان يبقى مع معرفة هذا الشأن أمر آخر، وربّما اختلفوا فيه؛ لأن من أهل الصنعة من يختار الكلام المتين والقول الرصين، ومنهم من يختار الكلام الذي يروق ماؤه، وتروع بهجته ورواؤه، ويسلس مأخذه ويسلم وجهه ومنفذه، ويكون قريب المتناول، غير عويص اللفظ، ولا غامض المعنى، كما قد يختار قوم ما يغمض معناه، ويغرب لفظه، ولا يختار ما سهل على اللسان وسبق إلى البيان، وروي أن عمر بن الخطاب ﷺوصف زهيرًا فقال: كان لا يمدح الرجل إلا بما فيه، وقال لعبد بني الحسحاس حين أنشده:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيًا — أما إنه لو قلت مثل هذا لأجَزْتُك عليه

ومنهم من يختار الغلو في قول الشِّعر والإفراط فيه حتى ربما قالوا: أحسن الشعر أكذبه، كقول النابغة:

يقد السلوقي المضاعف نسجه — ويوقدن بالصفاح نار الحباحب[1]

فالخلاصة:

إن الأعجمي لا يمكنه أن يعلم إعجازه إلا استدلالًا، وكذلك من ليس ببليغ؛ فأما البليغ الذي قد أحاط بمذاهب العرب، وغرائب الصنعة؛ فإنه يعلم من نفسه ضرورة عجزه، وعجز غيره عن الإتيان بمثله.[2]

---

(١) إعجاز القرآن (١/ ١١٣).

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣٢٥.

المبحث الثاني: بيان أوجه إعجاز القرآن.

الوجه الأول: الإعجاز في فصاحة القرآن الكريم.

قال الإمام فخر الدين: وجه الإعجاز في القرآن: الفصاحة، وغرابة الأسلوب، والسلامة من جميع العيوب. [1]

وفيه مسائل:

١ـ سبب نزول القرآن باللسان العربي:

قال الباقلاني: فإنّا لا نجد في القدر الذي نعرفه من الألسنة للشيء الواحد من الأسماء ما نعرف من اللغة، وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة على ما تتناوله العربية، وكذلك التصرف في الاستعارات، والإشارات، ووجوه الاستعمالات البديعة، التي يجيء تفصيلها بعد هذا، ويشهد لذلك من القرآن: أن الله تعالى وصفه بأنه ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ وكرر ذلك في مواضع كثيرة، وبين أنه رفعه عن أن يجعله أعجميًّا؛ فلو كان يمكن في لسان العجم إيراد مثل فصاحته، لم يكن ليرفعه عن هذه المنزلة، وأنه وإن كان يمكن أن يكون من فائدة قوله إنه ﴿عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾، أنه مما يفهمونه ولا يفتقرون فيه إلى الرجوع إلى غيرهم، ولا يحتاجون في تفسيره إلى سواهم، فلا يمتنع أن يفيد ما قلناه أيضًا كما أفاد بظاهره ما قدّمناهُ.

وبيَّن ذلك أن كثيرًا من المسلمين قد عرفوا تلك الألسنة، وهم من أهل البراعة فيها، وفي العربية، فقد وقفوا على أنه ليس فيها من التفاضل والفصاحة، ما يقع في العربية. ومعنى آخر وهو: أنّا لم نجد أهل التوراة والإنجيل ادّعوا الإعجاز لكتابهم، ولا ادّعى لهم المسلمون؛ فعُلم أن الإعجاز مما يختص به القرآن. ويبين هذا أن الشعر لا يتأتّى في تلك الألسنة على ما قد اتفق في العربية، وإن كان قد يتفق منها صنف أو أصناف ضيقة، لم يتفق فيها من البديع ما يمكن ويتأتى في العربية، وكذلك لا يتأتى في الفارسية جميع الوجوه التي تتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى في العربية.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣١٧: ٣٢٠

٢ـ الأعجمي لا يعلم أن القرآن معجز، إلا بأن يعلم عجز العرب عنه، فيعلم أن القرآن معجز بفصاحته استدلالًا.

قال الباقلاني: فالأعجمي لا يعلم أن القرآن معجز إلا بأن يعلم عجز العرب عنه، وهو يحتاج في معرفة ذلك إلى أمور لا يحتاج إليها من كان من أهل صنعة الفصاحة؛ فإذا عرف عجز أهل الصنعة، حل محلهم، وجرى مجراهم في توجه الحجة عليه.

وكذلك لا يعرف المتوسط من أهل اللسان من هذا الشأن، ما يعرفه العالي في هذه الصنعة، فربّما حلّ في ذلك محلّ الأعجمي في أن لا تتوجه عليه الحجة، حتى يعرف عجز المتناهي في الصنعة عنه.

وكذلك لا يعرف المتناهي في معرفة الشعر وحده، أو الغاية في معرفة الخطب، أو الرسائل وحدهما من غور هذا الشأن، ما يعرف من استكمل معرفة جميع تصاريف الخطاب، ووجوه الكلام، وطرق البراعة، فلا تكون الحجة قائمة على المختص ببعض هذه العلوم بانفرادها دون تحققه؛ لعجز البارع في هذه العلوم كلها عنه.

٣ـ من كان متناهيًا في معرفة وجوه الخطاب، وطرق البلاغة، والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة، فهو متى سمع القرآن عرف إعجازه ضرورة.

فأما من كان متناهيًا في معرفة وجوه الخطاب، وطرق البلاغة، والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة، فهو متى سمع القرآن عرف إعجازه، وإن لم نقل ذلك أدى هذا القول إلى أن يقال: إن النبي ﷺ لم يعرف إعجاز القرآن حين أوحى إليه حتى سبر الحال بعجز أهل اللسان عنه. وهذا خطأ من القول، فالبليغ الذي قد أحاط بمذاهب العربية وغرائب الصنعة؛ فإنه يعلم من نفسه ضرورة، عجزه عن الإتيان بمثله، ويعلم عجز غيره بمثل ما يعرف عجز نفسه، كما أنه إذا علم الواحد منا أنه لا يقدر على ذلك، فهو يعلم عجز غيره استدلالا.

٤ـ النبي ﷺ حين أوحي إليه القرآن؛ عرف كونه معجزًا.

فصحّ من هذا الوجه أن النبي ﷺ حين أوحى إليه القرآن عرف كونه معجزًا، أو عرف بأن قيل له: إنه دلالةٌ، وعلَمٌ على نبوتك؛ أنه كذلك من قبل أن يقرأه على غيره، أو يتحدى إليه سواه.

ولذلك قلنا: إن المتناهي في الفصاحة والعلم بالأساليب التي يقع فيها التفاصح، متى

سمع القرآن عرف أنه معجز؛ لأنه يعرف من حال نفسه أنه لا يقدر عليه، وهو يعرف من حال غيره مثل ما يعرف من حال نفسه، فيعلم أن عجز غيره كعجزه هو. وإن كان يحتاج بعد هذا إلى استدلال آخر، على أنه علَم على نبوته، ودلالة على رسالته؛ بأن يقال له: إن هذه آية لنبي، وإنها ظهرت عليه، وادّعاها معجزةً له وبرهانًا على صدقه.

٥ـ متى علم البليغ المتناهي في صنوف البلاغات عجزه عن القرآن علم عجز غيره عنه.

فإن قيل: فإن من الفصحاء من يعلم عجز نفسه عن قول الشعر، ولا يعلم مع ذلك عجز غيره عنه، فكذلك البليغ، وإن علم عجز نفسه عن مثل القرآن، فهو يخفي عليه عجز غيره.

قيل: هو مع مستقر العادة، وإن عجز عن قول الشعر، وعلم أنه مفحم؛ فإنه يعلم أن الناس لا ينفكُّون من وجود الشعراء فيهم، ومتى علم البليغ المتناهي في صنوف البلاغات عجزه عن القرآن، علم عجز غيره عنه، وأنه كهو؛ لأنه يعلم أن حاله وحال غيره في هذا الباب سواءٌ.

٦ـ نقض العادة يقع موقع المعجزة في القول أو الفعل.

إذ ليس في العادة مَثَلٌ للقرآن يجوز أن يعلم قدرة أحد من البلغاء عليه؛ فإذا لم يكن لذلك مثل في العادة، وعرف هذا الناظر جميع أساليب الكلام، وأنواع الخطاب، ووجد القرآن مباينًا لها؛ علم خروجه عن العادة، وجرى مجرى ما يعلم أن إخراج اليد البيضاء من الجيب خارج عن العادات، فهو لا يُجوِّزه من نفسه، وكذلك لا يُجوِّز وقوعه من غيره إلا على وجه نقض العادة، بل يرى وقوعه موقع المعجزة. وهذا وإن كان يفارق فلق البحر، وإخراج اليد البيضاء ونحو ذلك من وجه، فهو أنه يستوي الناس في معرفة عجزهم عنه؛ بكونه ناقضًا للعادة من غير تأمل شديد ولا نظر بعيد، ومما يبين ما قلناه من أن البليغ المتناهي في وجوه الفصاحة، يعرف إعجاز القرآن، وتكون معرفته حجة عليه إذا تُحدّي إليه وعجز عن مثله، وإن لم ينتظر وقوع التحدي في غيره، وما الذي يصنع ذلك بالغير فهو: ما رُوي في الحديث أن جبير بن مطعم وَرد على النبيّ ﷺ في حليف له أراد أن يفاديه، فدخل والنبي ﷺ: " يقرأ سورة ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾﴾ في صلاة الفجر، قال: فلما انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ (الطور:

١-٨) قال: خشيت أن يدركني العذاب، فأسلمَ.[١] وفي حديثٍ آخر أن عمر بن الخطاب ﷺ سمع سورة طه فأسلمَ[٢]، وقد رُوي أن قوله ﷻ في أول حم السجدة - أي سورة فصلت - إلى قوله: ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (فصلت: ٤) نزلت في شيبة، وعتبة ابني ربيعة، وأبي سفيان بن حرب، وأبى جهل، وذكر أنهم بعثوا هم وغيرهم من وجوه قريش بعتبة بن ربيعة إلى النبي ﷺ ليكلمه، وكان حسن الحديث، عجيب البيان، بليغ الكلام، وأرادوا أن يأتيهم بما عنده، فقرأ النبي ﷺ سورة حم السجدة من أولها حتى انتهى إلى قوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ (فصلت: ١٣)؛ فوثب مخافة العذاب فاستحكوه ما سمع، فذكر أنه لم يفهم منه كلمة واحدة، ولا اهتدى لجوابه، ولو كان ذلك من جنس كلامهم، لم يخف عليه وجه الاحتجاج والرد، فقال له عثمان بن مظعون ﷺ: لتعلموا أنه من عند الله إذا لم يهتد لجوابه.[٣]

وأبْيَنُ من ذلك قول الله ﷻ: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (التوبة: ٦)؛ فجعل سماعه حجة عليه بنفسه فدل على أن فيهم من يكون سماعه إياه حجة عليه.

فإن قيل: لو كان كذلك على ما قلتم، لوجب أن يكون حال الفصحاء الذين كانوا في عصر النبي ﷺ على طريقة واحدة في إسلامهم عند سماعه؟ قيل له لا يجب ذلك؛ لأن صوارفهم كانت كثيرة، وبيان ذلك في الوجه السابع.

---

(١) رواه البخاري (٢٨٨٥)، ومسلم (١٠٦٣) بمعناه: عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ - وَكَانَ جَاءَ فِي أُسَارَى بَدْرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِي ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، واللفظ للبخاري.

(٢) رواه أحمد في فضائل الصحابة١/ ٢٧٩، سيرة ابن كثير٢/ ٣٣، وسيرة ابن إسحاق١/ ١٦٠.

(٣) وفيه قَالُوا: وَيْلَكَ يُكَلِّمُكَ رَجُلٌ بِالْعَرَبِيَّةِ لاَ تَدْرِي مَاذَا قَالَ؟ قَالَ: لاَ وَاللهِ مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ غَيْرَ ذِكْرِ الصَّاعِقَةِ. أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٧١٥)، وعبد بن حميد (١١٢٣)، وأبو يعلى (١٨١٨)، والحاكم (٣٠٠٢) وصححه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد٦/ ١٦: وفيه الأجلح الكندي وثقه ابن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره، وبقية رجاله ثقات.

٧ـ بيان سبب عدم إسلام جميع فصحاء العرب في عهد النبيﷺ.

لأنهم كانوا يشكُّون؛ ففيهم من يشك في إثبات الصانع، وفيهم من يشك في التوحيد، وفيهم من يشك في النبوة، ألا ترى أن أبا سفيان بن حرب لما جاء إلى رسول الله ﷺ ليسلم عام الفتح، قال له النبي ﷺ: " أما آن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: بلى؛ فشهد. قال: أما آن لك أن تشهد أني رسول الله؟ قال: أمّا هذه ففي النفس منها شيء. "

فكانت وجوه شكوكهم مختلفة وطرق شبههم متباينة، فمنهم من قلت شبهه، وتأمل الحجة حق تأملها، ولم يستكبر فأسلم. ومنهم من كثرت شبهه أو أعرض عن تأمل الحجة حق تأملها، أو لم يكن في البلاغة على حدود النهاية، فتطاول عليه الزمان إلى أن نظر واستبصر، وراعى واعتبر، واحتاج إلى أن يتأمل عجز غيره عن الإتيان بمثله؛ فلذلك وقف أمره، ولو كانوا في الفصاحة على مرتبة واحدة، وكانت صوارفهم وأسبابهم متفقة – لتوافوا إلى القبول جملة واحدة.

٨ـ بيان سبب أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات، وتصرفهم في أجناس الفصاحات.

فإن قيل: فلِمَ زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله، مع قدرتهم على صنوف البلاغات وتصرفهم في أجناس الفصاحات؟ وهلاّ قلتم: إنَّ من قدر على جميع هذه الوجوه البديعة بوجه من هذه الطرق الغريبة، كان على مثل نظم القرآن قادرًا، وإنما يصرفه الله عنه ضربًا من الصرف، أو يمنعه من الإتيان بمثله ضربًا من المنع، أو تقصر دواعيه إليه دونه مع قدرته عليه؛ ليتكامل ما أراده الله من الدلالة، ويحصل ما قصده من إيجاب الحجة؛ لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين، لم يعجز عن نظم مثلها، وإذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى، وكذلك الثالثة حتى يتكامل قدر الآية والسورة؟.

فالجواب: أنه لو صح ذلك لكل من أمكنه نظم ربع بيت، أو مصراع من بيت أن ينظم القصائد، ويقول الأشعار، وصح لكل ناطق قد يتفق في كلامه الكلمة البديعة، نظم الخطب البليغة والرسائل العجيبة، ومعلوم أن ذلك غير سائغ ولا ممكن، على أن ذلك لو لم يكن معجزًا على ما وصفناه من جهة نظمه الممتنع، لكان مهما حط من رتبة البلاغة فيه

ومنع من مقدار الفصاحة في نظمه، كان أبلغ في الأعجوبة إذا صُرفوا عن الإتيان بمثله، ومنعوا من معارضته، وعدلت دواعيهم عنه، فكان يستغني عن إنزاله على النظم البديع، وإخراجه في المعرض الفصيح العجيب، على أنه لو كانوا صرفوا على ما ادّعاه لم يكن مَن قَبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة، والبلاغة وحسن النظم، وعجيب الرصف؛ لأنهم لم يتحدوا إليهن ولم تلزمهم حجته، فلما لم يوجد في كلام مَن قَبله مثله عُلم أنَّ ما ادعاه القائل بالصِرفة ظاهر البطلان.

وفيه معنى آخر وهو: أن أهل الصنعة في هذا الشأن إذا سمعوا كلامًا مطمعًا لم يخف عليهم، ولم يشتبه لديهم، ومن كان متناهيًا في فصاحته، لم يجز أن يطمع في مثل هذا القرآن بحال، **فإن قال**: صاحب السؤال إنه قد يطمع في ذلك.

قيل له: أنت تزيد على هذا فتزعم أن كلام الآدمي يضارع القرآن، وقد يزيد عليه في الفصاحة، ولا يتحاشاه، ويحسب أن ما ألفه في الجزء والطفرة هو أبدع وأغرب من القرآن لفظًا ومعنًى؛ ولكن ليس الكلام على ما يقدره مقدر في نفسه، ويحسبه ظان من أمره، والمرجوع في هذا إلى جملة الفصحاء دون الآحاد، ونحن نبيّن بعد هذا وجه امتناعه عن الفصيح البليغ، ونميزه في ذلك عن سائر أجناس الخطاب؛ ليعلم أن ما يقدره من مساواة كلام الناس به تقدير ظاهر الخطأ بيين الغلط، وأن هذا التقدير من جنس مَن حكي الله ـ تعالى ـ قولُه في محكم كتابه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ (المدثر: ١٨-٢٥)؛ فهم يعبرون عن دعواهم أنهم يمكنهم أن يقولوا مثله، وأن ذلك من قول البشر؛ لأن ما كان من قولهم فليس يقع فيه التفاضل إلى الحد الذي يتجاوز إمكان معارضته.[1]

٩ـ سبب انصراف الفصحاء عن نقد القرآن: ولولا أن القرآن له وجوه الإعجاز، لما تحير فيه أهل الفصاحة، ولكانوا يفزعون إلى التعمل- أي التصنع – للمقابلة، والتصنع

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ١/ ٢٥ – ٢٨.

للمعارضة، وكانوا ينظرون في أمرهم، ويراجعون أنفسهم، أو كان يراجع بعضهم بعضًا في معارضته ويتوقفون لها، فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك، علم أن أهل المعرفة منهم بالصنعة إنما عدلوا عن هذه الأمور؛ لعلمهم بعجزهم عنه، وقصور فصاحتهم دونه، ولا يمتنع أن يلتبس على من لم يكن بارعًا فيهم، ولا متقدّمًا في الفصاحة منهم، هذا الحال حتى لا يعلم إلا بعد نظر وتأمل، وحتى يعرف حال عجز غيره، إلا أنا رأينا صناديدهم وأعيانهم ووجوههم سلموا، ولم يشتغلوا بذلك تحققًا بظهور العجز وتبينًا له.[١]

١٠ـ فصاحة القرآن في جميع الفترات الإنسانية.

قال حازم القرطاجني في منهاج البلغاء: وجه الإعجاز في القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه، استمرارًا لا يوجد له فترة، ولا يقدر عليه أحدٌ من البشر، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة في جميع أنحائها في العالي منه، إلا في الشيء اليسير المعدود، ثم تعرض الفترات الإنسانية فينقطع طيب الكلام ورونقه، فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه بل توجد في تفاريق وأجزاء منه.[٢]

١١ـ السر في أن القرآن له أسلوب خاص، وأن الأساليب تختلف باختلاف المتكلمين.

فإعجاز القرآن الكريم في أسلوبه هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه؛ فإن لكل كلام إلهي أو بشري أسلوبه الخاص به، وأساليب المتكلمين وطرائقهم في عرض كلامهم من شعر أو نثر، تتعدد بتعدد أشخاصهم بل تتعدد في الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التي يتناولها، والفنون التي يعالجها.

- فالأسلوب هو الطريقة التي انتهجها المؤلف في اختيار المفردات والتراكيب لكلامه.

- وهذا هو السر في أن الأساليب مختلفة باختلاف المتكلمين، من ناثرين وناظمين، مع أن المفردات التي يستخدمها الجميع واحدة، والتراكيب في جملتها واحدة، وقواعد صوغ المفردات وتكوين الجمل واحدة، وهذا هو السر أيضًا في أن القرآن لم يخرج عن معهود

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ١/ ٤٣.

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٣١٧).

العرب في لغتهم العربية من حيث ذوات المفردات، والجمل، وقوانينها العامة، بل جاء كتابًا عربيًا جاريًا على مألوف العرب من هذه الناحية.[١]

الوجه الثاني: الإعجاز في حروف القرآن الكريم

١ـ طبيعة تنوع الحروف في القرآن:

قال الباقلاني: إن الحروف التي بُنيَ عليها كلام العرب تسعةٌ وعشرون حرفًا، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورةً. وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، وهو أربعة عشر حرفًا؛ ليدل بالمذكور على غيره، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظمٌ من الحروف التي ينظمون بها كلامهم، والذي تنقسم إليه هذه الحروف، على ما قسمه أهل العربية وبنوا عليها وجوهها أقسامٌ نحن ذاكروها، فمن ذلك: أنهم قسموها إلى حروف مهموسة، وأخرى مجهورة.

فالمهموسة منها عشرة: وهى: الحاء، والهاء، والخاء، والكاف، والشين، والثاء، والفاء، والتاء، والصاد، والسين. وما سوى ذلك من الحروف فهي مجهورة.

وقد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذكورة في جملة الحروف المذكورة في أوائل السور.

وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء، لا زيادة ولا نقصان.

(والمجهور) معناه: أنه حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع أن يُجرى معه النفس حتى ينقضي الاعتماد، ويُجرى الصوت.

(والمهموس) كل حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى معه النفس.

وذلك مما يحتاج إلى معرفته لتبنى عليه أصول العربية.

وكذلك مما يقسمون إليه الحروف، يقولون: إنها على ضربين: أحدهما حروف الحلق، وهى ستة أحرف: العين، والحاء، والهمزة، والهاء، والخاء، والغين.

والنصف الآخر من هذه الحروف: مذكور في جملة الحروف التي تشتمل عليها الحروف المثبتة في أوائل السور، وكذلك النصف من الحروف التي ليست بحروف الحلق.

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٣٠٤.

وكذلك تنقسم هذه الحروف إلى قسمين آخرين: أحدهما: حروف غير شديدة، وحروف شديدة، وهى التي تمنع الصوت أن يجرى فيه، وهى الهمزة، والقاف، والكاف، والجيم، والظاء، والذال، والطاء، والباء.

وقد علمنا أن نصف هذه الحروف أيضًا هي مذكورة في جملة تلك الحروف التي بني عليها تلك السور.

ومن ذلك الحروف المطبقة، وهى أربعة أحرف، وما سواها منفتحة.

فالمطبقة: الطاء، والظاء، والصاد، والضاد.

وقد علمنا أن نصف هذه الحروف في جملة الحروف المبدوء بها في أوائل السور.

وإذا كان القوم - الذين قسموا الحروف هذه الأقسام لأغراض لهم في ترتيب العربية، وتنزيلها بعد الزمان الطويل من عهد النبي ﷺ - رأوا مباني اللسان على هذه الجهة، وقد نبه بما ذكر في أوائل السور على ما لم يذكر، على حد التنصيف الذي وصفنا - دل على أن وقوعها الموقع الذي يقع التواضع عليه - بعد العهد الطويل - لا يجوز أن يقع إلا من الله ﷻ؛ لأن ذلك يجرى مجرى علم الغيوب، وإن كان إنما تنبهوا على ما بني عليه اللسان في أصله، ولم يكن لهم في التقسيم شيء، وإنما التأثير لمن وضع أصل اللسان، فذلك أيضًا من البديع الذي يدل على أن أصل وضعه وقع موقع الحكمة، التي يقصر عنها اللسان. فإن كان أصل اللغة توقيفًا فالأمر في ذلك أَبْيَنُ.

وإن كان على سبيل التواضع فهو عجيبٌ أيضًا! ! لأنه لا يصح أن تجتمع هممهم المختلفة على نحو هذا إلا بأمرٍ من عند الله تعالى.

وكلّ ذلك يوجب إثبات الحكمة في ذكر هذه الحروف على حدّ يتعلق به الإعجاز من وجه، ويشبه أن يكون التنصيف وقع في هذه الحروف دون الألف؛ لأن الألف قد تلغى، وقد تقع الهمزة وهى موقعًا واحدًا. [1]

٢ـ إعجاز في مخارج الحروف بتناسق مخارجها:

---

(١) إعجاز القرآن (١/ ٤٤).

إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة، تشعر بلذة جديدة في رصف هذه الحروف بعضها بجانب بعض في الكلمات والآيات. هذا يُنقر، وذاك يُصفر، وهذا يخفى، وذاك يُظهر، وهذا يُهمس، وذاك يجهر إلى غير ذلك مما هو مقرر في باب مخارج الحروف وصفاتها في علم التجويد، ومن هنا يتجلّى لك جمال لغة القرآن حين خرج إلى الناس في هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة الجامعة بين اللين، والشدة، والخشونة، والرقة، والجهر، والخفية على وجه دقيق محكم، وضع كلًا من الحروف وصفاتها المتقابلة في موضعه بميزان، حتى تألف من المجموع قالب لفظي مدهش، وقشرة سطحية أخّاذة، امتزجت فيها جزالة البداوة في غير خشونة برقة الحضارة، من غير ميوعة، وتلاقت عندها أذواق القبائل العربية على اختلافها بكل يسر وسهولة.[1]

٣ـ إعجاز في وضع الحروف: بمراعاة وضعها في مكان دون الآخر:

مثال: يقول الخطيب الإسكافي عن سر التعبير بالفاء في لفظ ﴿كُلُوا﴾ من قوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ (البقرة: ٥٨)، وعن سر التعبير بالواو لا بالفاء في لفظ ﴿كُلُوا﴾ أيضًا من قوله سبحانه في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ (الأعراف: ١٦١) مع أن القصة واحدة ومدخول الحرف واحد قال رحمه الله: الأصل أن كل فعل عطف عليه ما تعلق به، تعلق الجواب بالابتداء، وكان الأول مع الثاني بمعنى الشرط والجزاء، فالأصل فيه عطف الثاني على الأول بالفاء، ومنه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا﴾فإن وجود الأكل متعلق بالدخول، والدخول موصل إلى الأكل؛ فالأكل وجوده معلق بوجوده بخلاف ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا﴾لأن السكنى مقام مع طول لبث، والأكل لا يختص وجوده بوجوده؛ لأن من يدخل بستانًا قد يأكل منه مجتازًا فلما لم يتعلق الثاني بالأول، تعلق الجواب بالابتداء وجب العطف بالواو دون الفاء.[2]

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٣٠٦.

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل منقول من مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٣٠٦.

الوجه الثالث: الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم.

قال السكاكي: إنه ليُدرك طيب النغم العارض للصوت، ولا يدرك تحصيله لغير ذوي الفطرة السليمة، إلا بإتقان علمَي المعاني والبيان والتمرين فيهما. (١)

قال الزركشي: فمن الإعجاز الروعة التي للقرآن في قلوب السامعين وأسماعهم سواء المقر والجاحد. ومنها أنه لم يزل ولا يزال غضًّا طريًا في أسماع السامعين، وعلى ألسنة القارئين. (٢)

ونريد بنظام القرآن الصوتي اتساق القرآن وائتلافه في حركاته، وسكناته، ومدّاته، وغُنّاته، واتصالاته، وسكتاته اتساقًا عجيبًا، وائتلافًا رائعًا، يسترعي الأسماع، ويستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور. وبيان ذلك: أن من ألقى سمعه إلى مجموعة القرآن الصوتية وهي مرسلة على وجه السذاجة في الهواء مجردة من هيكل الحروف والكلمات؛ كأن يكون السامع بعيدًا عن القارئ المجود؛ بحيث لا تبلغ إلى سمعه الحروف والكلمات متميزًا بعضها عن بعض، بل يبلغه مجرد الأصوات الساذجة المؤلفة من المدّات، والغُنّات، والحركات، والسكنات، والاتصالات، والسكتات. نقول: إن من ألقى سمعه إلى هذه المجموعة الصوتية الساذجة، يشعر من نفسه ولو كان أعجميًا لا يعرف العربية؛ بأنه أمام لحن غريب وتوقيع عجيب، يفوق في حسنه وجماله كل ما عرف من توقيع الموسيقى وترنيم الشعر؛ لأن الموسيقى تتشابه أجراسها، وتتقارب أنغامها فلا يفتأ السمع أن يملّها، والطبع أن يمجها؛ ولأن الشعر تتّحد فيه الأوزان وتتشابه القوافي في القصيدة الواحدة غالبًا، وإن طالت على نمط يورث سامعه السأم والملل، بينما سامع لحن القرآن لا يسأم ولا يمل؛ لأنه يتنقل فيه دائمًا بين ألحان متنوعة، وأنغام متجددة، على أوضاع مختلفة، يهزّ كلّ وضع منها أوتار القلوب وأعصاب الأفئدة.

وهذا الجمال الصوتي أو النظام التوقيعي، هو أول شيء أحسَّته الآذان العربية أيام نزول القرآن، ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منثور الكلام، سواء أكان مرسلًا أم

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣١٧-٣٢٠.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٠٧.

مسجوعًا، حتى خُيل إلى هؤلاء العرب أن القرآن شعر؛ لأنهم أدركوا في إيقاعه وترجيعه لذة، وأخذتهم من لذة هذا الإيقاع والترجيع هزّة لم يعرفوا شيئًا قريبًا منها إلا في الشعر، ولكن سرعان ما عادوا على أنفسهم بالتخطئة فيما ظنّوا، حتى قال قائلهم وهو الوليد بن المغيرة: وما هو بالشعر معلّلًا ذلك؛ بأنه ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيدة بيد أنه تورط في خطأ أفحش من هذا الخطأ، حين زعم في ظلام العناد. (١)

الوجه الرابع: الإعجاز في ألفاظ القرآن الكريم.

وبيانه كما يلي:

١ـ ترتيب الألفاظ.

قال ابن عطية: فإذا ترتبت اللفظة من القرآن، عُلم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى، وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره. (٢)

٢ـ صفة الألفاظ.

قال الزركشي: فمن إعجاز القرآن جمعه بين صفتي الجزالة والعذوبة، وهما كالمتضادين لا يجتمعان غالبًا في كلام البشر؛ لأن الجزالة من الألفاظ التي لا توجد إلا بما يشوبها من القوة، وبعض الوعورة والعذوبة منها ما يضادها من السلاسة والسهولة، فمن نحا نحو الصورة الأولى، فإنما يقصد الفخامة والروعة في الأسماع مثل الفصحاء من الأعراب وفحول الشعراء منهم، ومن نحا نحو الثانية قصد كون الكلام في السماع أعذب وأشهى وألذ، مثل أشعار المخضرمين ومن داناهم من المولدين المتأخرين، وترى ألفاظ القرآن قد جمعت في نظمه كلتا الصفتين، وذلك من أعظم وجوه البلاغة والإعجاز. (٣)

فالكلام يتبين فضله ورجحان فصاحته بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام، أو تقذف ما بين شعر فتأخذها الأسماع، وتتشوف إليها النفوس، ويرى وجه رونقها باديًا غامرًا سائر ما تقرن به كالدُّرّة التي ترى في سلك من خرز، وكالياقوتة في واسطة العقد،

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٣١١.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣١٧-٣٢٠.

(٣) البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٠٧.

وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير، وهي غرة جميعه وواسطة عقده، والمنادي على نفسه بتميزه وتخصصه برونقه وجماله. (١)

٣ـ عدم وجود لفظة مُستكرهة:

فالقرآن ليس فيه لفظ مسخوط، ومعنًى مدخول، ولا تناقض، ولا اختلاف تضادّ، وجميعه في هذه الوجوه جار على منهاج واحد، وكلام العباد لا يخلو إذا طال من أن يكون فيه الألفاظ الساقطة، والمعاني الفاسدة، والتناقض في المعاني، وهذه المعاني التي ذكرنا من عيوب الكلام موجودة في كلام الناس من أهل سائر اللغات، لا يختص باللغة العربية دون غيرها، فجائز أن يكون التحدي واقعًا للعجم بمثل هذه المعاني في الإتيان بها، عارية مما يعيبها ويهجنها من الوجوه التي ذكرناها، ومن جهة أن الفصاحة لا تختص بها لغة العرب دون سائر اللغات، وإن كانت لغة العرب أفصحها، وقد علمنا أن القرآن في أعلى طبقات البلاغة، فجائز أن يكون التحدي للعجم واقعًا؛ بأن يأتوا بكلام في أعلى طبقات البلاغة بلغتهم التي يتكلمون بها. (٢)

فمفردات اللغة العربية منها متآلف في حروفه، ومتنافر، وواضح مستأنس، وخفي غريب، ورقيق خفيف على الأسماع، وثقيل كريه تمجه الأسماع، وموافق لقياس اللغة، ومخالف له ثم من هذه المفردات: عام وخاص، ومطلق ومقيد، ومجمل ومبين، ومعرف ومنكر، وظاهر ومضمر، وحقيقة ومجاز. (٣)

٤ـ مناسبة الألفاظ لجميع الأجيال:

فألفاظ القرآن اختيرت اختيارًا يتجلى فيه وجه الإعجاز من هذا الاختيار، وذلك في الألفاظ التي نمر بها على القرون والأجيال، منذ نزل القرآن إلى اليوم؛ فإذا بعض الأجيال يفهم منها ما يناسب تفكيره، ويلائم ذوقه ويوائم معارفه، وإذا أجيال أخرى تفهم من هذه الألفاظ عينها غير

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ١/ ٤٢.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٥/ ٣٤.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٣٠٥.

ما فهمته تلك الأجيال، ولو استبدلت هذه الألفاظ بغيرها لم يصلح القرآن لخطاب الناس كافة، وكان ذلك قدحًا في أنه كتاب الدين العام الخالد، ودستور البشرية في كل عصر ومصر. [١]

أمثلة:

إن القرآن في أغلب المواضع يأتي بلفظ يسير متضمن لمعنى كثير، ويكون اللفظ أعذب، ومن تأمل في سورة (ص) علم ما قلت، كيف صدرها وجمع فيها من أخبار الكفار وخلافهم وتقريعهم بإهلاك القرون من قبلهم، ومن تكذيبهم لمحمد ﷺ، وتعجبهم مما أتى به، والخبر عن إجماع ملإهم على الكفر، وظهور الحسد في كلامهم، وتعجيزهم وتحقيرهم ووعيدهم بخزي الدنيا والآخرة، وتكذيب الأمم قبلهم وإهلاك الله لهم، ووعيد قريش وأمثالهم مثل مصابهم. وحمل النبي على الصبر على أذاهم وتسليته في قصص الأنبياء مثل داود وسليمان وأيوب وإبراهيم ويعقوب وغيرهم عليهم السلام. وكل هذا الذي ذكر من أولها إلى آخرها في ألفاظ يسيرة متضمنة لمعان كثيرة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (البقرة: ١٧٩) فإن هذا القول لفظه يسير ومعناه كثير. ومع كونه بليغًا مشتملًا على المطابقة بين المعنيين المتقابلين، وهما القصاص والحياة. وعلى الغرابة، بجعل القتل الذي هو مفوت للحياة ظرفًا لها، وأولى من جميع الأقوال المشهورة عند العرب في هذا الباب؛ لأنهم عبروا عن هذا المعنى بقولهم: (قتل البعض إحياء الجميع) وقولهم: (أكثروا القتل ليقل القتل) وقولهم: (القتل أنفى للقتل). وأجود الأقوال المنقولة القول الأخير.

ولفظ القرآن أفصح منه بستة أوجه:

أحدها: أنه أخصر من الكل؛ لأن قوله ﴿ وَلَكُمْ ﴾ لا يدخل في هذا الباب؛ لأنه لا بد من تقدير ذلك في الكل؛ لأن قول القائل- قتل البعض إحياء للجميع- لا بد فيه من تقدير مثله، وكذلك في قولهم- القتل أنفى للقتل.

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٣٠٨.

وثانيها: أن قولهم: القتل أنفى للقتل، ظاهره يقتضي كون الشيء سببًا لانتفاء نفسه بخلاف لفظ القرآن؛ فإنه يقتضي أن نوعًا من القتل - وهو القصاص - سبب لنوع من أنواع الحياة.

وثالثها: أن قولهم الأجود تكرير لفظ القتل بخلاف لفظ القرآن.

و رابعها: أن قولهم الأجود لا يفيد إلا الردع عن القتل، بخلاف لفظ القرآن؛ فإنه يفيد الردع عن القتل، والجرح فهو أفيد.

و خامسها: أن قولهم الأجود دال على ما هو المطلوب بالتبع، بخلاف لفظ القرآن؛ فإنه دال على ما هو مقصود أصلي؛ لأن نفي القتل مطلوب تبعًا من حيث إنه يتضمن حصول الحياة الذي هو مطلوب أصالة.

و سادسها: أن القتل ظلمًا أيضًا قتل، مع أنه ليس بناف للقتل بخلاف القصاص فظاهر قولهم باطل، وأما لفظ القرآن فصحيح ظاهرًا وباطنًا. [١]

الوجه الخامس: الإعجاز في المعنى (أي في معاني الألفاظ في القرآن الكريم).

وبيان ذلك كما يلي:

١ـ الأعجمي إن لم يحدث له تحدٍ عن طريق ألفاظ القرآن؛ فإنه يتحداه من جهة المعاني وترتيبها.

قال الجصاص: معلوم أن العجم لا يُتحدون من طريق النظم، فوجب أن يكون التحدي لهم من جهة المعاني وترتيبها على هذا النظام دون نظم الألفاظ[٢].

قلت: فمن طلب العُلا في الأخلاق وجد القرآن يُرشد إلى معانٍ نبيلة، يعجز البشر عن الإتيان بمثلها، وهذا في باب الحقوق وغير ذلك.

٢ـ القرآن مشتمل على الفصيح والأفصح والمليح والأملح:

قال السيوطي: قال البارزي في أول كتابه أنوار التحصيل في أسرار التنزيل:

اعلم أن المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض، وكذلك كل واحد من جزأي الجملة قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر، ولا بد من استحضار معاني

---

(١) إظهار الحق ٢/ ٣٤.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٥/ ٣٤.

الجمل أو استحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ، ثم استعمال أنسبها وأفصحها، واستحضار هذا متعذر على البشر في أكثر الأحوال؛ وذلك عتيد حاصل في علم الله تعالى؛ فلذلك كان القرآن أحسن الحديث وأفصحه، وإن كان مشتملًا على الفصيح والأفصح، والمليح والأملح.

- ولذلك أمثلة منها: قوله تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ (الرحمن: ٥٤)، لو قال مكانه وثمر الجنتين قريب، لم يقم مقامه من جهة الجناس بين الجني والجنتين، ومن جهة أن الثمر لا يشعر بمصيره إلى حال يُجنى فيها، ومن جهة مؤاخاة الفواصل. ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٨) أحسن من التعبير بـ تقرأ لثقله بالهمزة.

ومنها قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢) أحسن من- لاشك فيه -لثقل الإدغام، ولهذا كثر ذكر الريب، ومنها: ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ (محمد: ٣٥) أحسن من- ولا تضعفوا - لخفته، و ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ (مريم: ٤) أحسن من- ضعف- لأن الفتحة أخف من الضمة، ومنها ﴿ءَامَنَ﴾ (غافر: ٣٠) أخفّ من- صدق- ولذا كان ذكره أكثر من ذكر التصديق، و﴿ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ﴾ (يوسف: ٩١) أخفّ من- فضّلك، وآتى من قوله: ﴿ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ (البقرة: ٢٥٨) أخف من- أعطى- وأَنْذِر من قوله: ﴿أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ (يونس: ٢) أخفّ من -خوّف و﴿خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ (البقرة: ١٨٤) أخفّ من- أفضل لكم- والمصدر في نحو ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ (لقمان: ١١)أخف من - مخلوق- وتَنْكِحَ من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ (البقرة: ٢٣٠) أخف من - تتزوج- لأن تفْعل أخفّ من تفعّل ولهذا كان ذكر النكاح فيه أكثر.

ولأجل التخفيف والاختصار استعمل لفظ الرحمة والغضب، والرضا، والحب، والمقت في أوصاف الله تعالى، مع أنه لا يوصف بها حقيقة؛ لأنه لو عبر عن ذلك بألفاظ الحقيقة لطال الكلام؛ كأن يقال: يعامله معاملة المحب والماقت؛ فالمجاز في مثل هذا أفضل من الحقيقة لخفّته، واختصاره، وابتنائه على التشبيه البليغ فإن قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا

أَنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (الزخرف: ٥٥) أحسن من - فلما عاملونا معاملة المغضب، أو فلما أتوا إلينا بما يأتيه المغضب.[١]

٣ـ القرآن يُورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة بمقدرة فائقة:

فيورد القرآن المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة، بمقدرة فائقة خارقة، تنقطع في حلبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء، ولسنا هنا بسبيل الاستيعاب والاستقراء، ولكنها أمثلة تهديك، ونماذج تكفيك.[٢]

ـ منها تعبيره عن طلب الفعل من المخاطبين بالوجوه الآتية:

١ - الإتيان بصريح مادة الأمر نحو قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ (النساء: ٥٨).

٢ - والإخبار بأن الفعل مكتوب على المكلفين نحو ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ (البقرة: ١٨٣).

٣ - والإخبار بكونه على الناس نحو: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . . .﴾ (آل عمران: ٩٧).

٤ - والإخبار عن المكلف بالفعل المطلوب منه، نحو﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ (البقرة: ٢٢٨) أي: مطلوب منهن أن يتربصن.

٥ - والإخبار عن المبتدأ بمعنى يطلب تحقيقه من غيره نحو: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ (آل عمران: ٩٧) أي مطلوب من المخاطبين تأمين من دخل الحرم.

٦ - وطلب الفعل بصيغة فعل الأمر نحو: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ (البقرة: ٢٣٨)، أو بلام الأمر نحو: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ (الحج: ٢٩).

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣٢٨.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٣١٩

٧ - والإخبار عن الفعل بأنه خيرٌ نحو: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ﴾ (البقرة: ٢٢٠).

٨ - ووصف الفعل وصفًا عنوانيًا بأنه برّ نحو: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٩).

٩ - ووصف الفعل بالفريضة نحو: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ . . .﴾ (الأحزاب: ٥٠) أي من بذل المهور والنفقة.

١٠ - وترتيب الوعد والثواب على الفعل نحو: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ (البقرة: ٢٤٥).

١١ - وترتيب الفعل على شرط قبله نحو: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ﴾ (البقرة: ١٩٦).

١٢ - وإيقاع الفعل منفيًا معطوفًا عقب استفهام نحو: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ (النحل: ١٧)أي تذكروا.

١٣ - وإيقاع الفعل عقب ترجّ نحو: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

١٤ - وترتيب وصف شنيع على ترك الفعل نحو: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤).

ب ـ ومنها تعبيره عن النهي بالوسائل الآتية:

١ - الإتيان في جانب الفعل بمادة النهي نحو: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ﴾ (الممتحنة: ٩).

٢ - والإتيان في جانبه بمادة التحريم نحو: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٣).

٣ - ونفي الحِلّ عنه نحو: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ﴾ (النساء: ١٩).

٤ - والنهي عنه بلفظ لا، نحو: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (الأنعام: ١٥٢).

٥ – ووصفه بأنه ليس برًا، نحو: ﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ ﴾ (البقرة: ١٨٩).

٦ – ووصفه بأنه شرّ، نحو: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ﴾ (آل عمران: ١٨٠).

٧ – وذكر الفعل مقرونًا بالوعيد، نحو: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (التوبة: ٣٤).

٨ – وذكر الفعل منسوبًا إليه الإثم، نحو: ﴿ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ (البقرة: ١٨١).

٩ – ونظم الأمر في سلك ما هو بالغ الإثم والحرمة.

١٠ – والإخبار عن الفعل بأنه رجس.

١١ – ووصفه بأنه من عمل الشيطان.

١٢ – والأمر باجتنابه.

١٣ – ورجاء الفلاح في تركه.

١٤ – وترتيب مضار مؤذية على فعله.

١٥ – والأمر بالانتهاء عنه في صورة الاستفهام، ونمثل لهذه الطرق كلها بتحريم الخمر والميسر في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١)﴾ (المائدة: ٩٠– ٩١).

وهكذا تجد القرآن يفتنّ في أداء المعنى الواحد بألفاظ وطرق متعددةٍ، بين إنشاء وإخبار، وإظهار وإضمار، وتكلم وغيبة وخطاب، ومضي وحضورواستقبال، واسمية، وفعلية، واستفهام، وامتنان، ووصف، ووعد ووعيد إلى غير ذلك. ومن عجب أنه في تحويله الكلام من نمطٍ إلى نمطٍ كثيرًا ما تجده سريعًا لا يجارى في سرعته. ثم هو على هذه

السرعة الخارقة لا يمشي مكبًّا على وجهه، مضطربًا أو متعثرًا، بل هو محتفظ دائمًا بمكانته العليا من البلاغة ﴿يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الملك: ٢٢).

ولقد خلع هذا التصرف والافتنان، لباسًا فضفاضًا من الجدّة والروعة على القرآن، ومسحه بطابع من الحلاوة والطلاوة، حتى لا يملّ قارئهُ، ولا يسأم سامعه، مهما كثرت القراءة والسماع. بل ينتقل كل منهما من لون إلى لون، كما ينتقل الطائر في روضة غنّاء من فنن إلى فنن، ومن زهر إلى زهر.

واعلم أن تصريف القول في القرآن على هذا النحو كان فنًّا من فنون إعجازه الأسلوبي كما ترى، وكان في الوقت نفسه منّة يمنّها الله على الناس؛ ليستفيدُوا عن طريقها كثرة النظر في القرآن والإقبال عليه قراءةً وسماعًا، وتدبرًا وعملًا، وأنه لا عذر معها لمن أهمل هذه النعمة وسفه نفسه. اقرأ إن شئت قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ (الإسراء: ٨٩).[1]

الوجه السادس: الإعجاز في وفاء اللفظ بالمعنى في القرآن.

وبيانه كما يلي:

١ـ براعة اللفظ في المعنى البارع:

إنَّ المعاني التي تضمنها القرآن في أصل وضع الشريعة، والأحكام، والاحتجاجات في أصل الدين، والرد على الملحدين على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضًا في اللطف والبراعة، مما يتعذر على البشر ويمتنع.

وذلك أنه قد عُلم أن تخيّر الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة، والأسباب الدائرة بين الناس أسهلُ وأقربُ من تخيّر الألفاظ لمعانٍ مبتكرةٍ، وأسباب مؤسسةٍ مستحدثةٍ؛ فإذا برعَ اللفظ في المعنى البارع، كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر، والأمر المتقرر المتصور.

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٣٢٣.

ثم انضاف إلى ذلك التصرف البديع في الوجوه التي تتضمن تأييد ما يبتدأ تأسيسه، ويراد تحقيقه، بانَ - ظهر - التفاضل في البراعة والفصاحة؛ ثم إذا وجدت الألفاظ وِفْقَ المعنى، والمعاني وِفْقَهَا لا يفضُل أحدهما على الآخر؛ فالبراعة أظهر، والفصاحة أتمّ.

٢ـ الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير وهي غرة جميعه وواسطة عقده:

فالكلام يتبين فضله ورجحان فصاحته؛ بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام، أو تقذف ما بين شعر فتأخذها الأسماع، وتتشوف إليها النفوس، ويرى وجه رونقها باديًا غامرًا سائر ما تقرن به كالدّرّة التي ترى في سلك من خرز، وكالياقوتة في واسطة العقد، وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير، وهي غُرّة جميعه، وواسطة عقده، والمنادي على نفسه بتميزه وتخصصه برونقه وجماله[1].

٣ـ عدم زيادة اللفظ على المعنى: عن طريق القصد في اللفظ مع الوفاء بالمعنى.

قصد القرآن في اللفظ مع وفائه بالمعنى؛ ومعنى هذا إنك في كل من جمل القرآن، تجد بيانًا قاصدًا مقدرًا على حاجة النفوس البشرية من الهداية الإلهية، دون أن يزيد اللفظ على المعنى، أو يقصر عن الوفاء بحاجات الخلق من هداية الخالق، ومع هذا القصد اللفظي البريء من الإسراف والتقتير، تجده قد جلي لك المعنى في صورة كاملة، لا تنقص شيئًا يعتبر عنصرًا أصليًّا فيها، أو حليةً مكملةً لها، كما أنها لا تزيد شيئًا يعتبر دخيلًا فيها وغريبًا عنها، بل هو كما قال الله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١).

ولا يمكن أن تظفر في غير القرآن بمثل هذا الذي تظفر به في القرآن، بل كل مِنطِيق[2] بليغ مهما تفوق في البلاغة والبيان، تجده بين هاتين الغايتين، كالزوج بين ضرّتين، بمقدار ما يرضي إحداهما يغضب الأخرى؛ فإن ألقى البليغ باله إلى القصد في اللفظ، وتخليصه مما عسى أن يكون من الفضول فيه، حمله ذلك في الغالب على أن يغضّ من شأن المعنى، فتجيء صورته ناقصة خفية ربما يصل اللفظ معها إلى حد الإلغاز والتعمية؛ وإذا ألقى البليغ باله إلى الوفاء

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ١/ ٤٢.

(٢) صفة على وزن: فِعْلِيلٌ، أي صاحب كلام فصيح. لسان العرب (مادة: كلم).

بالمعنى، وتجلية صورته كاملة، حمله ذلك على أن يخرج عن حد القصد في اللفظ راكبًا متن الإسهاب والإكثار حرصًا على أن لا يفوته شيء من المعنى الذي يقصده؛ ولكن ينذر حينئذ أن يسلم هذا اللفظ من داء التخمة في إسرافه وفضوله، تلك التخمة التي تذهب ببهائه، ورونقه، وتجعل السامع يتعثر في ذيوله، لا يكاد يميز بين زوائد المعنى وأصوله.

وإذا افترضنا أن بليغًا كُتب له التوفيق بين هاتين الغايتين وهما القصد في اللفظ مع الوفاء بالمعنى في جملة أو جملتين من كلامه؛ فإن الكلال والإعياء لا بد لاحقًا به في بقية هذا الكلام، وندر أن يصادفه هذا التوفيق مرةً ثانيةً إلا في الفينة بعد الفينة، كما تصادف الإنسان قطعة من الذهب أو الماس في الحين بعد الحين، وهو يبحث في التراب أو ينقب بين الصخور.

الوجه السابع: الإعجاز في التركيب (أي: تركيب مفردات القرآن الكريم)

بيان المقصود من الإعجاز في التركيب:

فالتراكيب العربية منها ما هو حقيقة ومجاز، ومنها متآلف الكلمات ومتنافرها، وواضح المعاني ومعقدها، وموافق للقياس اللغوي والخارج عليه، ومنها الإسمية والفعلية، والخبرية والإنشائية، وفيها النفي والإثبات، والإيجاز والإطناب، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل إلى غير ذلك مما هو مفصل في علوم اللغة وكتبها. [١]

قال الزملكاني: فوجه الإعجاز في هذا راجع إلى التأليف الخاص به لا مطلق التأليف، بأن اعتدلت مفرداته تركيبًا وزنة، وعلت مركباته معنى بأن يوضع كل فن في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى. [٢]

الوجه الثامن: الإعجاز في النظم.

فمعنى ذلك: أن القرآن خارجًا عن جنس كلام العرب من النظم والنثر والخطب والشعر، مع كون حروفه في كلامهم، ومعانيه في خطابهم، وألفاظه من جنس كلماتهم، وهو بذاته قبيلٌ غير قبيل كلامهم، وجنس آخر متميز عن أجناس خطابهم، حتى إن من

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٣٠٥

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣١٧.

اقتصر على معانيه وغيّر حروفه أذهب رونقه، ومن اقتصر على حروفه وغير معانيه أبطل فائدته؛ فكان في ذلك أبلغ دلالة على إعجازه.

قال الأصبهاني في تفسيره: فالنظم المخصوص يعتبر صورة القرآن، واللفظ والمعنى عنصره، وباختلاف الصور يختلف حكم الشيء واسمه لا بعنصره. كالخاتم والقرط والسوار فإنه باختلاف صورها اختلفت أسماؤها، لا بعنصرها الذي هو الذهب والفضة والحديد؛ فإن الخاتم المتخذ من الذهب ومن الفضة ومن الحديد يسمى خاتمًا وإن كان العنصر مختلفًا، وإن اتخذ خاتم وقرط وسوار

من ذهب اختلفت أسماؤها باختلاف صورها وإن كان العنصر واحدًا. قال: فظهر من هذا أن الإعجاز المختص بالقرآن يتعلق بالنظم المخصوص.

وبيان كون النظم معجزًا يتوقف على بيان نظم الكلام ثم بيان أن هذا النظم مخالف لنظم ما عداه. (١)

أنواع النظم المختلفة في الكلام عمومًا:

قال الباقلاني: وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى:

١- أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه.

٢-أنواع الكلام الموزون غير المقفى.

٣-أصناف الكلام المعدل المسجع.

٤- الكلام المعدل الموزون غير المسجع.

٥- ما يرسل إرسالًا، فتطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع ترتيب لطيف، وإن لم يكن معتدلًا في وزنه: وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمل فيه ولا يتصنع له. (٢)

القرآن يختلف عن جميع هذا النظم:

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٣٢١).

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني (١/ ٣٥: ٣٧).

قال الباقلاني: فالذي يشتمل عليه بديع نظم القرآن المتضمن للإعجاز: منها ما يرجع إلى الجملة، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد.

وقد علمنا أن القرآن خارج عن جميع النظم، ومباين لهذه الطرق، ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب مسجع، ولا فيه شيء منه، وكذلك ليس من قبيل الشعر؛ لأن من الناس من زعم أنه كلام السجع ومنهم من يدَّعى فيه شعرًا كثيرًا، والكلام عليهم يذكر بعد هذا الموضع؛ فهذا إذا تأمله المتأمل تبين - بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم - أنه خارج عن العادة وأنه معجز. وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن وتميز حاصل في جميعه.[1]

طول النظم في القرآن لا يُضاهيه طول نظم آخر:

قال الباقلاني: إنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر. وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة. وإلى شاعرهم قصائد محصورة، يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال، ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف، ويشملها ما نبديه من التعمل والتكلف والتجوز والتعسف.

وقد حصل القرآن ـ على كثرته وطوله ـ متناسبًا في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به، فقال عز من قائل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ (الزمر: ٢٣)، وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ (النساء: ٨٢)، فأخبر سبحانه أن كلام الآدمي إن امتد؛ وقع فيه التفاوت وبان عليه الاختلال.[1]

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (١/ ٣٥: ٣٧).

النظم في القرآن لا يختلف باختلاف أغراضه من قصص ومواعظ، خلافًا لكلام البشر:

قال الباقلاني: فإن عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا يتفاوت، ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام وإعذار وإنذار ووعد ووعيد وتبشير وتخويف وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها.

ونجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المفلق، والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور. فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو، ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين، ومنهم من يجود في التأبين دون التقريظ، ومنهم من يغرب في وصف الإبل أو الخيل أو سير الليل أو وصف الحرب أو وصف الروض أو وصف الخمر أو الغزل أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتناوله الكلام. ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وبزهير إذا رغب، ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل، وسائر أجناس الكلام.

ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ؛ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها فيأتي بالغاية في البراعة في معنًى، فإذا جاء إلى غيره قصر عنه ووقف دونه وبان الاختلاف على شعره. ولذلك ضرب المثل بالذين سمّيتهم؛ لأنه لا خلاف في تقدمهم في صنعة الشعر، ولا شك في تبريزهم في مذهب النظم؛ فإذا كان الاختلال يتأتّي في شعرهم لاختلاف ما يتصرفون فيه؛ ستغنينا عن ذكر من هو دونهم. وكذلك يُستغنى به عن تفصيل نحو هذا في الخطب والرسائل ونحوها، ثم نجد من الشعراء من يجود في الرجز ولا يمكنه نظم القصد أصلا، ومنهم من ينظم القصيد، ولكن يقصر تقصيرًا عجيبًا، ويقع ذلك من رجزه موقعًا بعيدًا، ومنهم من يبلغ في القصيدة الرتبة العالية، ولا ينظم الرجز أو يقصر فيه مهما تكلفه أو تعمله. ومن الناس من يجود في الكلام المرسل فإذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصانًا بيّنًا ومنهم من يوجد بضد ذلك.

---

(١) المصدر السابق.

وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا. وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة؛ فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف. وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتًا بيّنًا، ويختلف اختلافًا كبيرًا. ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة؛ فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت؛ بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة؛ فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر؛ لأن الذي يقدرون عليه قد بيّنّا فيه التفاوت الكثير عند التكرار، وعند تباين الوجوه، واختلاف الأسباب التي يتضمن:

حسن التنقل في القرآن من معنًى إلى غيره، مع حسن النظم:

فإن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتًا بيّنًا في الفصل والوصل والعلو والنزول والتقريب والتبعيد وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم ويتصرف فيه القول عند الضمّ والجمع.

ألا ترى أن كثيرًا من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيره، والخروج من باب إلى سواه حتى إن أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحتري مع جودة نظمه وحسن وصفه في الخروج من النسيب إلى المديح، وأطبقوا على أنه لا يحسنه ولا يأتي فيه بشيء؛ وإنّما اتفق له في مواضع معدودة خروج يرتضى وتنقل يستحسن.

وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شيء إلى شيء، والتحول من باب إلى باب، ونحن نفصل بعد هذا ونفسر هذه الجملة، ونبيّن أن القرآن على اختلاف فنونه وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة، والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد، وهذا أمر عجيب تبيّن به الفصاحة، وتظهر به البلاغة، ويخرج معه الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف.

ومعنى خامس وهو: أن نظم القرآن وقع موقعًا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجنّ، كما يخرج عن عادة كلام الإنس. فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا، ويقصرون دونه

كقصورنا، وقد قال الله ﷻ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٨). [١]

الحكمة من اختلاف نظم القرآن عن غيره:

فتأليفه العجيب وأسلوبه الغريب في المطالع والمقاطع والفواصل، مع اشتماله على دقائق البيان وحقائق العرفان، وحسن العبارة، ولطف الإشارة، وسلامة التركيب، وسلامة الترتيب، فتحيرت فيه عقول العرب العرباء، وفهوم الفصحاء. والحكمة في هذه المخالفة أن لا يبقى لمتعسف عنيد مظنة السرقة، ويمتاز هذا الكلام عن كلامهم ويظهر تفوقه؛ لأن البليغ- ناظمًا كان أو ناثرًا- يجتهد في هذه المواضع اجتهادًا كاملًا، ويمدح ويعاب عليه غالبًا في هذه المواضع.

اختلاف نظم القرآن عن نظم الشعر خاصة:

قال ابن العربي: فمن إعجاز القرآن خروجه عن أنواع كلام العرب، وخصوصًا عن وزن الشعر؛ ولذلك قال أخو أبي ذر لأبي ذر: " لقد وضعت قوله على أقوال الشعراء فلم يكن عليها". ولا دخل في بحور العروض الخمسة عشر، ولا في زيادات المتأخرين عليها.

ولقد اجتهد المجتهدون في أن يجروا القرآن أو شيئا منه على وزن من هذه الأوزان فلم يقدروا، فظهر عند الولي والعدو أنه ليس بشعر؛ وذلك قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ (يس: ٦٩). وقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ (الحاقة: ٤١). [٢]

الحكمة من اختلاف نظم القرآن عن نظم الشعر:

قال السيوطي: قيل الحكمة في تنزيه القرآن عن الشعر الموزون، مع أن الموزون من الكلام رتبته فوق رتبة غيره؛ أنَّ القرآن منبع الحق ومجمع الصدق، وقصارى أمر الشاعر التخييل بتصور الباطل في صورة الحق، والإفراط في الإطراء، والمبالغة في الذم، والإيذاء

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ١/ ٣٥: ٣٧.
(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٦/ ٤٧٤.

دون إظهار الحق، وإثبات الصدق؛ ولهذا نزه الله نبيه عنه. ولأجل شهرة الشعر بالكذب؛ سمى أصحاب البرهان القياسات المؤدية في أكثر الأمر إلى البطلان والكذب شعرية.

وقال بعض الحكماء: لم يُر متديّن صادق اللهجة مفلقًا في شعره.

وأما ما وجد في القرآن مما صورته صورة الموزون، فالجواب عنه: أن ذلك لا يسمى شعرًا؛ لأن شرط الشعر القصد، ولو كان شعرًا لكان كل من اتفق له في كلامه شيء موزون شاعرًا فكان الناس كلهم شعراء؛ لأنه قل أن يخلو كلام أحد عن ذلك. وقد ورد ذلك على ألسنة الفصحاء فلو اعتقدوه شعرًا لبادروا إلى معارضته، والطعن عليه؛ لأنهم كانوا أحرص شيء على ذلك، وإنما يقع ذلك لبلوغ الكلام الغاية القصوى في الانسجام.

وقيل: البيت الواحد وما كان على وزنه لا يسمى شعرًا وأقل الشعر بيتان فصاعدًا. وقيل الرجز لا يسمى شعرًا أصلًا. وقيل: أقل ما يكون من الرجز شعرًا أربعة أبيات، وليس ذلك في القرآن بحال. (١)

التوراة والإنجيل والصحف ليس شيء من ذلك بمعجز في النظم والتأليف كالقرآن:

- **فإن قيل**: فهل تقولون بأن غير القرآن من كلام الله عز وجل معجز كالتوراة والإنجيل والصحف؟

قيل: ليس شيء من ذلك بمعجز في النظم والتأليف، وإن كان معجزًا كالقرآن فيما يتضمن من الإخبار عن الغيوب. وإنما لم يكن معجزًا؛ لأن الله تعالى لم يصفه بما وصف به القرآن، ولأنا قد علمنا أنه لم يقع التحدي إليه كما وقع التحدي إلى القرآن. (٢)

الوجه التاسع: الإعجاز في كثرة أغراضه.

اشتمالُ القرآنِ على كثيرٍ من الأغراضِ، مثل: القصصِ، والمواعظِ، والحِكَمِ، والإعذارِ، والإنذارِ، والأحكامِ. وقد جاءَ في أروعِ ما يمكنُ أن يكونَ من براعةِ النظم والتأليف. أما الشاعرُ البليغُ فلا يُجيدُ إلا لونًا واحدًا أو لونينِ، فإذا خرجَ عما اعتادَ عليه وبرَعَ فيه، أساءَ وقصَّرَ. (١)

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣٢٦.

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ١/ ٣١.

فإنَّ الشاعر أو الكاتب إذا كرر مضمونًا أو قصة لا يكون كلامه الثاني مثل الأول. وقد تكررت قصص الأنبياء، وأحوال المبدأ والمعاد والأحكام والصفات الإلهية، واختلفت العبارات إيجازًا وإطنابًا وتفننًا في بيانها غيبة وخطابًا، ومع ذلك كل واحد منها في نهاية الفصاحة ولم يظهر التفاوت أصلًا.

وفي القرآن إيجاب العبادات وتحريم القبائح والحثّ على مكارم الأخلاق وترك الدنيا واختيار الآخرة، وأمثال هذه الأمور توجب تقليل الفصاحة. ولذلك إذا قيل لشاعر فصيح أو كاتب بليغ أن يكتب تسعًا أو عشرًا من مسائل الفقه أو العقائد في عبارة فصيحة مشتملة على التشبيهات البليغة والاستعارات الدقيقة يعجز. (٢)

الوجه العاشر: الإعجاز البلاغي.

أنواع البلاغة في اللغة العربية وفي القرآن.

قال الباقلاني: ذكر بعض أهل الأدب والكلام أن البلاغة على عشرة أقسام:

الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان. (٣)

فالقرآن اشتمل على جميعِ أنواعِ البلاغةِ، ويتجاوزُها إلى مالم يعرفْه العربُ ولا يستطيعونه. (٤)

فإنه مشتمل على جميع فنون البلاغة من ضروب التأكيد وأنواع التشبيه والتمثيل، وأصناف الاستعارة وحسن المطالع والمقاطع، وحسن الفواصل، والتقديم والتأخير والفصل والوصل اللائق بالمقام، وخلوّه عن اللفظ الرّكيك والشاذّ الخارج عن القياس النافر عن الاستعمال، وغير ذلك من أنواع البلاغات. ولا يقدر أحد من البلغاء والكملاء من العرب العرباء إلا على نوع أو نوعين من الأنواع المذكورة، ولو رام غيره في كلامه لم

---

(١) عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ١/ ٦١.

(٢) إظهار الحق ٢/ ٣١.

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني ١/ ٣٥.

(٤) عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ١/ ٦١.

يتأت له، وكان مقصرًا. والقرآن محتو عليها كلها فتلك عشرة كاملة، وهذه الوجوه العشرة تدل على أن القرآن في الدرجة العالية من البلاغة الخارجة عن العادة، يعرفه فصحاء العرب بسليقتهم، وعلماء الفرق بمهارتهم في فن البيان، وإحاطتهم بأساليب الكلام، ومن كان أعرف بلغة العرب وفنون بلاغتها كان أعرف بإعجاز القرآن. (١)

حازت بلاغات القرآن من كل قسم من أقسام البلاغة حصة:

قال الخطابي: ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه الإعجاز فيه من جهة البلاغة لكن صعب عليهم تفصيلها، وصغوا فيه إلى حكم الذوق. والتحقيق: أن أجناس الكلام مختلفة ومراتبها في درجات البيان متفاوتة؛ فمنها: البليغ الرصين الجزل. ومنها: الفصيح الغريب السهل. ومنها: الجائز الطلق الرسل. وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود، فالأول أعلاها، والثاني أوسطها، والثالث أدناها وأقربها.

فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع شعبة، فانتظم لها بانتظام هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة، وهما على الإنفراد في نعوتها كالمتضادين؛ لأن العذوبة نتاج السهولة؛ والجزالة والمتانة يعالجان نوعًا من الزعورة(٢) ؛ فكان اجتماع الأمرين في نظمه ـ مع نُبُوِّ كل واحد منهما عن الآخر ـ فضيلة خُصّ بها القرآن؛ ليكون آية بينة لنبيه ﷺ.

سبب عدم اتيان البشر بمثل البلاغة في القرآن:

قال الخطابي: وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور:

منها: أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وأوضاعها التي هي ظروف المعاني، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم باستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها، وارتباط بعضها ببعض،

---

(١) إظهار الحق ٢/ ٣٥.

(٢) هكذا وردت، ولعلها: الوعورة.

فيتوصلوا باختيار الأفضل من الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم.

وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا، وأشد تلاؤمًا وتشاكلًا من نظمه. وأما معانيه: فكل ذي لب يشهد له بالتقدم في أبوابه، والترقي إلى أعلى درجاته.

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام؛ فأمّا أن توجد مجموعة في نوع واحد منه، فلم توجد إلا في كلام العليم القدير. فخرج من هذا أن القرآن إنما صار معجزًا؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم[1] التأليف، مضمنًا أصح المعاني من توحيد الله تعالى، وتنزيهه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان لطريق عبادته من تحليل وتحريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساويها، واضعًا كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يتوهم في صورة العقل أمر أليق به منه، مودعًا أخبار القرون الماضية، وما نزل من مُثُلات الله بمن مضى وعاند منهم، منبئًا عن الكوائن المستقبلة في الأعصار الآتية من الزمان، جامعًا في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه؛ ليكون ذلك آكد للزوم ما دعا عليه وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهي عنه.

ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين أشتاتها؛ حتى تنتظم وتتسق أمرٌ تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم؛ فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله.[2]

إعجاز القرآن في علم البديع

---

(١) جمع (نُظُم).

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣١٧-٣٢٠.

إن سأل سائل فقال: هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما تضمنه من البديع؟ قيل: ذكر أهل الصنعة، ومن صنف في هذا المعنى من صفة البديع ألفاظًا نحن نذكرها، ثم نبين ما سألوا عنه؛ ليكون الكلام واردًا على أمر مبيّن، وباب مقرّر مصوّر.

ذكروا أن من البديع في القرآن قوله عز ذكره: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ (الإسراء: ٢٤)، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾ (الزخرف: ٤)، وقوله: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ (مريم: ٤)، وقوله: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾ (يس: ٣٧)، وقوله: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾ (الحج: ٥٥)، وقوله: ﴿نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾ (النور: ٣٥).

وقد يكون البديع في الكلمات الجامعة الحكيمة، كقوله: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ (البقرة: ١٧٩)، وفي الألفاظ الفصيحة: كقوله: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗا﴾ (يوسف: ٨).

وفي الألفاظ الإلهية: كقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ (النمل: ٩١)، وقوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ (النحل: ٥٣)، وقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ (غافر: ٥٣)، ومن التشبيه الحسن في القرآن قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ٤٩﴾ (الصافات: ٤٩). [1]

أمثلة من القرآن على إتيانه بأنواع البلاغة المختلفة، وبيان سبب إتيان القرآن بها:

قال الباقلاني: فأما الإيجاز: فإنما يحسن مع ترك الإخلال باللفظ والمعنى؛ فيأتي باللفظ القليل الشامل لأمور كثيرة، وذلك ينقسم إلى حذف وقصر:

فالحذف: الإسقاط للتخفيف: كقوله: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ (يوسف: ٨٢)، وقوله: ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ﴾ (محمد: ٢١).

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (١/ ٧٣).

-**وحذف الجواب، كقوله**: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ (الرعد: ٣١)؛ كأنه قيل: لكان هذا القرآن، والحذف أبلغ من الذكر؛ لأن النفس تذهب كل مذهب في القصد من الجواب.

والإيجاز بالقصر: كقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ (البقرة: ١٧٩)، وقوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (المنافقون: ٤)، وقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ (يونس: ٢٣)، وقوله﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ (فاطر: ٤٣).

إعجاز القرآن في علم البيان:

تعريف علم البيان

قال المراكشي: تعريف علم البيان كما اختاره جماعة: فهو ما يحترز به عن الخطأ في تأدية المعنى، وعن تعقيده وتعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه لمقتضى الحال. (1)

-فالبيان على أربعة أقسام: كلام، وحال، وإشارة، وعلامة.

ويقع التفاضل في البيان، ولذلك قال عزّ من قائل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ (الرحمن: ١-٤)، ونقيضه العي، ومنه قيل: أعيا من باقلٍ؛ سئل عن ظبية في يده بكم اشتراها، فأراد أن يقول بأحد عشر، فأشار بيديه مادًا أصابعه العشر ثم أدلع لسانه، فأفلتت الظبية من يده.

والشيء إذا صدر من أهله، وبدا من أصله، وانتسب إلى ذويه، سلم في نفسه، وبانت فخامته، وشوهد أثر الاستحقاق فيه. وإذا صدر من متكلف، وبدا من متصنع بان أثر الغربة عليه، وظهرت مخايل الاستيحاش فيه وعرف شمائل التحير منه. فالكلام الصادر عن عزة الربوبية ورفعة الإلهية يتميز عما لم يكن كذلك، ثم رجع الكلام بنا إلى ما ابتدأنا به من عظيم شأن البيان، ولو لم يكن فيه إلا ما منّ به الله على خلقه بقوله﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾، فأما بيان القرآن: فهو أشرف بيان وأهداه وأكمله وأعلاه وأبلغه وأسناه.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣١٧-٣٢٠.

تأمل قوله تعالى: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ (الزخرف: ٥) في شدة التنبيه على تركهم الحق، والإعراض عنه، وموضع امتنانه بالذكر والتحذير. وقوله: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (الزخرف: ٣٩)، وهذا بليغ في التحسير.

وقوله: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الأنعام: ٢٨)، وهذا يدل على كونهم مجبولين على الشر، معوَّدين لمخالفة النهي والأمر.

وقوله: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (المؤمنون: ٩١)، وكذلك قوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الأنبياء: ٢٢): نهاية في الحجاج، وقوله: ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (الملك١٣-١٤): نهاية في الدلالة على علمه بالخفيات، ولا وجه للتطويل؛ فإنَّ بيان الجميع في الرفعة وكِبَر المنزلة على سواء.

وقد ذكرنا من قبل أن البيان يصح أن يتعلق به الإعجاز وهو معجز من القرآن. وما حكينا عن صاحب الكلام من المبالغة في اللفظ فليس ذلك بطريق الإعجاز، لأن الوجوه التي ذكرها قد تتفق في كلام غيره وليس ذلك بمعجز؛ بل قد يصح أن يقع في المبالغة في المعنى والصفة وجوه من اللفظ تثمر الإعجاز، وتضمين المعاني أيضا قد يتعلق به الإعجاز إذا حصلت للعبارة طريق البلاغة في أعلى درجاتها.[1]

الوجه الحادي عشر: الإعجاز الخطابي: في مناسبة القرآن وإرضائه للعامة والخاصة - إعجاز خاص بالأقوال المحكية في القرآن.

قال ابن عاشور: فهو إذا حكى أقوالًا غير عربية صاغ مدلولها في صيغة تبلغ حد الإعجاز بالعربية. وإذا حكى أقوالًا عربية تصرف فيها تصرفًا يناسب أسلوب المعبر، مثل

---

(١) إعجاز القرآن (١/ ٢٨٤).

ما يحكيه عن العرب، فإنه لا يلتزم حكاية ألفاظهم، بل يحكي حاصل كلامهم، وللعرب في حكاية الأقوال اتساع مداره على الإحاطة بالمعنى دون التزام الألفاظ، فالإعجاز الثابت للأقوال المحكية في القرآن هو إعجاز للقرآن لا للأقوال المحكية. (١)

قال الزركشي: ومن الإعجاز ما ينتشر فيه عند تلاوته من إنزال الله إياه في صورة كلام هو مخاطبة من الله لرسوله تارة، ومخاطبة أخرى لخلقه، لا في صورة كلام يستمليه من نفسه من قد قُذف في قلبه وأُوحى إليه ما شاء أن يلقيه إلى عباده على لسانه، فهو يأتي بالمعاني التي ألهمها بألفاظه التي يكسوها إياه كما يشاهد من الكتب المتقدمة. (٢)

ومعنى هذا أن القرآن الكريم إذا قرأته على العامة أو قرئ عليهم، أحسوا جلاله، وذاقوا حلاوته وفهموا منه على قدر استعدادهم ما يرضي عقولهم وعواطفهم. وكذلك الخاصة إذا قرؤوه أو قرئ عليهم أحسوا جلاله وذاقوا حلاوته وفهموا منه أكثر مما يفهم العامة، ورأوا أنهم بين يدي كلام ليس كمثله كلام، لا في إشراق ديباجته، ولا في امتلائه وثروته، ولا كذلك كلام البشر؛ فإنه إن أرضى الخاصة والأذكياء لجنوحه إلى التجوز والإغراب والإشارة، لم يرض العامة؛ لأنهم لا يفهمونه. وإن أرضى العامة لجنوحه إلى التصريح والحقائق العارية المكشوفة لم يرض الخاصة؛ لنزوله إلى مستوى ليس فيه إمتاع لأذواقهم ومشاربهم وعقولهم. (٣)

الوجه الثاني عشر: الإعجاز في الوحدة الموضوعية(العضوية) للآيات والسور:

الأغلب أنه إذا انتقل الكلام من مضمون إلى مضمون آخر، واشتمل على بيان أشياء مختلفة لا يبقى حسن ربط الكلام ويسقط عن الدرجة العالية للبلاغة. والقرآن يوجد فيه الانتقال من قصة إلى قصة أخرى، والخروج من باب إلى باب، والاشتمال على أمر ونهي، وخبر واستخبار، ووعد وعيد، وإثبات النبوة، وتوحيد الذات، وتفريد الصفات،

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٢٠، ١٢١).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٠٧).

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٣١٣).

وترغيب وترهيب، وضرب مثال، وبيان حال. ومع ذلك يوجد فيه كمال الربط والدرجة العالية للبلاغة الخارجة عن العادة فتحير فيها عقول بلغاء العرب.[(١)]

ومعنى هذا أن القرآن بلغ من ترابط أجزائه، وتماسك كلماته وجمله وآياته وسوره مبلغًا لا يداينه فيه أي كلام آخر مع طول نفسه وتنوع مقاصده وافتنانه وتلوينه في الموضوع الواحد. وآية ذلك أنك إذا تأملت في القرآن الكريم وجدت منه جسمًا كاملًا، تربط الأعصاب والجلود والأغشية بين أجزائه، ولمحت فيه روحًا عامًا يبعث الحياة والحس على تشابك وتساند بين أعضائه؛ فإذا هو وحدة متماسكة متآلفة، على حين أنه كثرة متنوعة متخالفة فبين كلمات الجملة السورة الواحدة من التناسق ما جعلها رائعة التجانس والتجاذب، وبين جمل السورة الواحدة من التشابك والترابط ما جعلها وحدة صغيرة متآخذة الأجزاء، متعانقة الآيات. وبين سور القرآن من التناسب ما جعله كتابًا سويّ الخلق، حسن السمت ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ (الزمر: ٢٨) فكأنما هو سبيكة واحدة تأخذ بالأبصار وتلعب بالعقول والأفكار، على حين أنها مؤلفة من حلقات، لكل حلقة منها وحدة مستقلة في نفسها ذات أجزاء، ولكل جزء موضع خاص من الحلقة، ولكل حلقة وضع خاص من السبيكة؛ لكن على وجه من جودة السبك وإحكام السرد، جعل من هذه الأجزاء المنتشرة المتفرقة وحدة بديعة متآلفة، تُريك كمال الانسجام بين كل جزء وجزء، ثم بين كل حلقة وحلقة، ثم بين أوائل السبيكة وأواخرها وأواسطها.

يَعرف هذا الإحكام والترابط في القرآن كلُّ من ألقى باله إلى التناسب الشائع فيه من غير تفكك ولا تخاذل ولا انحلال ولا تنافر، بينما الموضوعات مختلفة متنوعة؛ فمن تشريع إلى قصص إلى جدل إلى وصف إلى غير ذلك. وكتب التفسير طافحة ببيان المناسبات فنحيلك عليها، ونكتفي بمثال واحد نضربه مع الاختصار والاقتصار.

الوجه الثالث عشر: الإعجاز في عرضه القصصي.

---

(١) إظهار الحق (٢/ ٣٣).

قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (يوسف: ٣).

قال ابن تيمية: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾: قيل: المعنى نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص كما يقال نكلمك أحسن التكليم، ونبين لك أحسن البيان. قال الزجاج: نحن نبين لك أحسن البيان. والقاص الذي يأتي بالقصة على حقيقتها، قال: وقوله: ﴿ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أي بوحينا إليك هذا القرآن، ومن قال هذا قال بما أوحينا إليك هذا القرآن.

وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَهُوَ كَقَوْلِهِ: نَقْرَأُ عَلَيْك أَحْسَنَ الْقِرَاءَةِ، وَنَتْلُوا عَلَيْك أَحْسَنَ التِّلَاوَةِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الْمَعْنَى نَقُصُّ عَلَيْك أَحْسَنَ مَا يُقَصُّ، أَيْ أَحْسَنَ الْأَخْبَارِ الْمَقْصُوصَاتِ، كَمَا قَالَ فِي السُّورَةِ الْأُخْرَى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ (الزمر: ٢٣) وَقَالَ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ (النساء: ١٢٢). وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي قِصَّةِ مُوسَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ ﴾ (القصص: ٢٥) وَقَوْلُهُ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (يوسف: ١١١)، الْمُرَادُ خَبَرُهُمْ وَنَبَؤُهُمْ وَحَدِيثُهُمْ لَيْسَ الْمُرَادُ مُجَرَّدَ الْمَصْدَرِ. وَالْقَوْلَانِ مُتَلَازِمَانِ فِي الْمَعْنَى.[1]

الوجه الرابع عشر: الإعجاز في ضربه للأمثال.

تعريف التمثيل.

قال ابن تيمية: ضَرْبُ الْأَمْثَالِ يُعَبَّرُ فِي اللُّغَةِ بِضَرْبِ الْمَثَلِ أَوْ بِالْمَثَلِ الْمَضْرُوبِ عَنْ نَوْعٍ مِنْ الْأَلْفَاظِ فَيُسْتَفَادُ مِنْهُ التَّعْبِيرُ كَمَا يُسْتَفَادُ مِنْ اللُّغَةِ؛ لَكِنْ لَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ الدَّلِيلُ عَلَى الْحُكْمِ كَأَمْثَالِ الْقُرْآنِ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ قَدْ قَالَ كَلِمَةً مَنْظُومَةً أَوْ مَنْثُورَةً لِسَبَبٍ اقْتَضَاهُ فَشَاعَتْ فِي الِاسْتِعْمَالِ حَتَّى يُصَارَ يُعَبَّرُ بِهَا عَنْ كُلِّ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْأَوَّلَ، وَإِنْ كَانَ اللَّفْظُ فِي الْأَصْلِ غَيْرَ مَوْضُوعٍ لَهَا، فَكَأَنَّ تِلْكَ الْجُمْلَةَ المثلية نُقِلَتْ بِالْعُرْفِ مِنْ الْمَعْنَى الْخَاصِّ إلَى الْعَامِّ، كَمَا تُنْقَلُ الْأَلْفَاظُ الْمُفْرَدَةُ فَهَذَا نَقْلٌ فِي الْجُمْلَةِ، مِثْلُ قَوْلِهِمْ: " يَدَاكَ أَوْكَتَا وَفُوك نَفَخَ " هُوَ مُوَازٍ لِقَوْلِهِمْ: "

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ١٨).

أَنْتَ جَنَيْت هَذَا "، لِأَنَّ هَذَا الْمَثَل قِيلَ ابْتِدَاءً لِمَنْ كَانَتْ جِنَايَتُهُ بِالْإِيكَاءِ وَالنَّفْخِ، ثُمَّ صَار مَثَلًا عَامًّا. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: " الصَّيْفَ ضَيَّعْت اللَّبَنَ " مِثْلُ قَوْلِك " فَرَّطْت وَتَرَكْت الْحَزْمَ، وَتَرَكْت مَا يُحْتَاجُ إلَيْهِ وَقْتَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ حَتَّى فَاتَ " وَأَصْلُ الْكَلِمَةِ قِيلَتْ لِلْمَعْنَى الْخَاصِّ. وَكَذَلِكَ " عَسَى الْغُوَيْرُ أَبْؤُسًا " أَيْ أَتَخَافُ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا الظَّاهِرِ الْحَسَنِ بَاطِنٌ رَدِيءٌ؟ فَهَذَا نَوْعٌ مِنْ الْبَيَانِ يَدْخُلُ فِي اللُّغَةِ وَالْخِطَابِ، فَالْمُتَكَلِّمُ بِهِ حُكْمُهُ حُكْمُ الْمُبَيِّنِ بِالْعِبَارَةِ الدَّالَّةِ سَوَاءٌ كَانَ الْمَعْنَى فِي نَفْسِهِ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا إذْ قَدْ يَتَمَثَّلُ بِهِ فِي حَقِّ مَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ فَهَذَا تَطَلُّبُهُ فِي الْقُرْآنِ مِنْ جِنْسِ تَطَلُّبِ الْأَلْفَاظِ الْعُرْفِيَّةِ، فَهُوَ نَظَرٌ فِي دَلَالَةِ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى لَا نَظَرٌ فِي صِحَّةِ الْمَعْنَى، وَدَلَالَتِهِ عَلَى الْحُكْمِ وَلَيْسَ هُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ (الزمر: ٢٧) فَتَدَبَّرْ هَذَا فَإِنَّهُ يَجْلُو عَنْك شُبْهَةً لَفْظِيَّةً وَمَعْنَوِيَّةً.

وَهَذِهِ الْأَمْثَالُ اللُّغَوِيَّةُ أَنْوَاعٌ مَوْجُودٌ فِي الْقُرْآنِ مِنْهَا أَجْنَاسُهَا، وَهِيَ مُعْلِنَةٌ بِبَلَاغَةِ لَفْظِهِ وَنَظْمِهِ وَبَرَاعَةِ بَيَانِهِ اللَّفْظِيِّ. وَالَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ فِي عِلْمِ الْبَيَانِ وَإِعْجَازِ الْقُرْآنِ يَتَكَلَّمُونَ فِي مِثْلِ هَذَا. وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ أَوَّلُ مَا يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ صَارَتْ مَثَلًا، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا تَصِيرُ الْكَلِمَةُ مَثَلًا حَتَّى يَتَمَثَّلَ بِهَا الضَّارِبُ؛ فَيَكُونُ هَذَا أَوَّلَ مَنْ تَمَثَّلَ بِهَا كَقَوْلِهِ ﷺ: " الْآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ "[1].

وَكَقَوْلِهِ: : " مُسَعِّرُ حَرْبٍ "[2] وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ لَكِنَّ النَّفْيَ بِصِيغَةِ الِاسْتِفْهَامِ الْمُضَمَّنِ مَعْنَى الْإِنْكَارِ هُوَ نَفْيٌ مُضَمَّنٌ دَلِيلَ النَّفْيِ؛ فَلَا يُمْكِنُ مُقَابَلَتُهُ بِمَنْعٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَنْفِي بِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِ إلَّا مَا ظَهَرَ بَيَانُهُ أَوْ اُدُّعِيَ ظُهُورُ بَيَانِهِ، فَيَكُونُ ضَارِبُهُ إمَّا كَامِلًا فِي اسْتِدْلَالِهِ وَقِيَاسِهِ، وَإِمَّا جَاهِلًا كَالَّذِي قَالَ: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (يس: ٧٨).

الحكمة من ذكر الأمثال في القرآن:

ولقد أكثر القرآن الكريم من التمثيلات إلى أن بلغت الألف؛ لأن في التمثيل سرًا لطيفًا وحكمة عالية؛ إذ به9+ يصير الوهم مغلوبًا للعقل، والخيال مجبورًا للانقياد للفكر، وبه

---

(١) مسلم (٤٧١٢)، مسند أحمد (٤/ ٣٢٦)، واللفظ له، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٧٥٢).

(٢) رواه البخاري (٢٥٨١).

يتحول الغائب حاضرًا، والمعقول محسوسًا، والمعنى مجسمًا، وبه يجعل المتفرق مجموعًا، والمختلط ممتزجًا، والمختلف متّحدًا، والمنقطع متصلًا، والأعزل مسلّحًا. (١)

قال الجرجاني: اعلم أن مما اتفق العقلاء عليه: أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبّهة، وكسبها منقبةً، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفًا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبةً وشغفًا.

فإن كان مدحًا كان أبهى وأفخمَ، وأنبلَ في النفوس وأعظمَ، وأهزَّ للعِطْف، وأسرعَ للإلف، وأجلبَ للفرح، وأغلبَ على الممتدح، وأوجَبَ شفاعة للمادح، وأقضى له بغرّ المواهب والمنائح، وأسيرَ على الألسن واذكرَ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدرَ. وإن كان ذمًا كان مَسُّه أوجعَ، ومِيسمه ألذَعَ، ووقعه أشدَّ، وحدُّه أحدَّ. وإن كان حجاجًا كان برهانه أنورَ، وسلطانه أقهرَ، وبيانه أبهَر. وإن كان افتخارًا كان شأوه أبعدَ، وشرفه أجدّ، ولسانه ألدَّ. وإن كان اعتذارًا كان إلى القلوب أقربَ، وللقلوب أخلبَ، وللسخائم اسلّ، ولغرب الغضب أفلّ، وفي عُقَد العقود أنفثَ، وعلى حسن الرجوع أبعثَ. وإن كان وعظًا كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر بأن يُجّلي الغياية، ويبصر الغاية، ويبرئ العليل، ويشفي الغليل. . . وهكذا الحكم إذا استقريت فنون القول وضروبه، وتتبعت أبوابه وشعوبه. (٢)

الوجه الخامس عشر: الإعجاز في التكرار.
سواء تكرار العبارات أو الكلمات:

ففي كتاب: أسرار التكرار في القرآن لابن نصر الكرماني، ذكر أمثلة كثيرة في القرآن، ووضح الهدف من هذا التكرار، وأبان بأنه لا يُخل بالمعنى؛ بل يُعد صورةً جديدةً من إعجاز القرآن.

---

(١) إشارات الإعجاز (١/ ١١٧).

(٢) أسرار البلاغة (١/ ٩٢).

فمثال ذلك: قال الكرماني في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ (البقرة: ٦٢)، وقال في (الحج: ١٧): ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾، وقال في (المائدة: ٦٩) ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾؛ لأن النصارى مقدمون على الصابئين في الرتبة؛ لأنهم أهل كتاب فقدمهم في البقرة، والصابئون مقدَّمون على النصارى في الزمان؛ لأنهم كانوا قبلهم فقدمهم في الحج، وراعى في المائدة بين المعنيين فقدّمهم في اللفظ، وأخّرهم في التقدير؛ لأن تقديره والصابئون في كذلك، قال الشاعر:

فإن يك أمسى بالمدينة رحله ... فإني وقيار بها لغريب[1]

الوجه السادس عشر: الإعجاز في تيسير الله القرآن للذكر

فمن إعجاز القرآن أن قارئه لا يملّه، وسامعه لا يمجّه؛ بل الإكباب على تلاوته يُزيده.[2]

قلت: وسبب ذلك تيسيرُ الله القرآنَ للذّكرِ.

قال الباقلاني: فقد سهل الله سبيله، فهو خارج عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلفة. وجعله قريبًا إلى الأفهام، يبادر معناه لفظه إلى القلب، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس.

وهو مع ذلك ممتنعُ المطلب، عسيرُ المتناول، غير مُطمِع مع قربه في نفسه، ولا موهم مع دنوّه في موقعه أن يقدر عليه، أو يظفر به.

فأمّا الانحطاط عن هذه الرتبة إلى رتبة الكلام المبتذل، والقول المسفسف، فليس يصح أن تقع فيه فصاحة أو بلاغة، فيطلب فيه الممتنع، أو يوضع فيه الإعجاز.

ولكن لو وضع في وحشي مستكره، أو غمر بوجوه الصنعة، وأطبق بأبواب التعسف والتكلف - لكان لقائل أن يقول فيه ويعتذر، أو يعيب ويقرع، ولكنه أوضح مناره، وقرّب منهاجه، وسهّل سبيله، وجعله في ذلك متشابهًا متماثلًا، وبين مع ذلك إعجازهم فيه.

---

(١) أسرار التكرار في القرآن (١/ ٣١)، وانظر: شبهة التكرار في القرآن من هذه الموسوعة.

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٣٢٣).

وقد علمت أن كلام فصحائهم، وشِعْرَ بُلغائهم لا ينفكّ من تصرفٍ في غريب مستنكر، أو وحشي مستكره، ومعانٍ مستبعدة. ثم عدولهم إلى كلامٍ مبتذلٍ وضيعٍ لا يوجد دونه في الرتبة، ثم تحوّلهم إلى كلام معتدل بين الأمرين، متصرّف بين المنزلتين. فمن شاء أن يتحقق هذا نظر في قصيدة امرئ القيس: قِفا نَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزل. [١]

الوجه السابع عشر: الإعجاز النفسي.

قال القاضي عياض: مشيرًا إلى تأثير القرآن في النفوس وهو يَعُدُّ وجوه الإعجاز، ومنها: الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيئة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله، وإنافة خَطَره، وهي على المكذبين به أعظم حتى كانوا يستثقلون سماعه، ويزيدهم نفورًا، كما قال تعالى، ويودّون انقطاعه لكراهتهم له،. . . ، وأمّا المؤمن فلا تزال روعته به، وهيبته إياه مع تلاوته توليه انجذابًا، وتكسبه هشاشةً لميل قلبه إليه، وتصديقه به). [٢]

وقد مات جماعةٌ عند سماع آيات منه أُفرِدُوا بالتصنيف[٣]

قال السيوطي: وقد قلت في إعجاز القرآن وجهًا ذهب عنه الناس؛ وهو صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في حال آخر ما يخلص منه إليه. قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ (الحشر: ٢١)، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ﴾ (الزمر: ٢٣). [٤]

فمن أمثلة التأثير المفضي إلى الإيمان ما أخرجه البخاري من حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ النبي ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (١/ ٤٦)

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ١/ ٢٣٠، ٢٣١

(٣) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٣٢٣).

(٤) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٣٢١).

هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ. [١]

الوجه الثامن عشر: إعجاز القرآن في كثرة علومه ومعارفه.

قال السيوطي: فهذه ثمانون نوعًا من أنواع علوم القرآن على سبيل الإدماج، ولو نوعت باعتبار ما أدمجته في ضمنها لزادت على الثلاثمائة، وغالب هذه الأنواع فيها تصانيف مفردة وقفتُ على كثير منها. [٢]

قال الزركشي: واعلم أنه ما من نوع من هذه الأنواع إلا ولو أراد الإنسان استقصاءه لاستفرغ عمره، ثم لم يحكم أمره، ولكن اقتصرنا من كل نوع على أصوله، والرمز إلى بعض فصوله؛ فإنَّ الصناعة طويلة، والعمر قصير، وماذا عسى أن يبلغ لسان التقصير! [٣]

وقد احتوى على علوم أخرى من علوم الأوائل مثل: الطبّ، والجدل، والهيئة، والهندسة، والجبر، والمقابلة والنجامة، وغير ذلك:

- أما الطبّ فمداره على حفظ نظام الصحة، واستحكام القوة؛ وذلك إنما باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة، وقد جمع ذلك في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧)، وعرفنا فيه بما يعيد نظام الصحة بعد اختلاله وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله تعالى: ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ (النحل: ٦٩)، ثم زاد على طب الأجسام بطب القلوب وشفاء الصدور.

- وأما الهيئة ففي تضاعيف سوره من الآيات التي ذكر فيها ملكوت السموات والأرض وما بثّ في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات.

- وأما الهندسة ففي قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾ (المرسلات: ٣٠).

---

(١) البخاري (٤٥٧٣).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٠).

(٣) البرهان في علوم القرآن (١/ ١٢).

- وأما الجدل فقد حوت آياته من البراهين، والمقدمات، والنتائج، والقول بالموجب والمعارضة، وغير ذلك شيئًا كثيرًا، ومناظرة إبراهيم نمرود، ومحاجته قومه أصل في ذلك عظيم. وأما الجبر والمقابلة، فقد قيل: إن أوائل السور فيها ذكر مدد وأعوام وأيام لتواريخ أمم سالفة، وإن فيها تاريخ بقاء هذه الأمة وتاريخ مدة أيام الدنيا، وما مضى وما بقي مضروب بعضها في بعض. وأما النِّجامة ففي قوله: ﴿أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ (الأحقاف: ٤) فقد فسّره بذلك ابن عباس

- وفيه أصول الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها: كالخياطة في قوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ (الأعراف: ٢٢). والحدادة﴿ءَاتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ (الكهف: ٩٦)، ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (سبأ: ١٠)، والغزْل ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ (النحل: ٩٢)، والنسج ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ (العنكبوت: ٤١)، والفلاحة ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (الواقعة: ٦٣-٦٧)، والصيد في آيات، والغوص: ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ (ص: ٣٧)، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً﴾ (النحل: ١٤) والصياغة: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ (الأعراف: ١٤٨). [(١)]

الوجه التاسع عشر: الإعجاز التشريعي.

١ـ لا تعارض بين التشريع والعقل:

قال الباقلاني: واعلم أن من قال من أصحابنا: إن الأحكام معلّلة بعلل موافقة لمقتضى العقل، جعل هذا وجهًا من وجوه الإعجاز، وجعل هذه الطريقة دلالةً فيه، كنحو ما يعلّلون به الصلاة، ومعظم الفروض وأصولها. ولهم في كثير من تلك العلل طرق قريبة، ووجوه تستحسن. [(٢)]

ـ إعجاز القرآن في كونه صالحًا ومُصلحًا لكل زمان ومكان:

(١) الإتقان في علوم القرآن (٤/ ٨٤: ٨٦).

(٢) إعجاز القرآن (١/ ٤٧).

ومعنى هذا أن القرآن الكريم جاء بهدايات تامة كاملة تفي بحاجات البشر في كل عصر ومصر، وفاء لا تظفر به في أي تشريع، ولا في أي دين آخر، ويتجلى لك هذا إذا استعرضت المقاصد النبيلة التي رمى إليها القرآن في هدايته، والتي نعرض عليك من تفاصيلها ما يأتي:

أولًا: إصلاح العقائد عن طريق إرشاد الخلق إلى حقائق المبدأ والمعاد، وما بينهما تحت عنوان الإيمان بالله تعالى وملائكته ورسله واليوم الآخر.

ثانيًا: إصلاح العبادات عن طريق إرشاد الخلق إلى ما يزكي النفوس، ويغذي الأرواح ويقوم الإرادة، ويفيد الفرد والمجموع منها.

ثالثًا: إصلاح الأخلاق: عن طريق إرشاد الخلق إلى فضائلهم، وتنفيرهم من رذائلها في قصد واعتدال، وعند حدٍّ وسط، لا إفراط فيه ولا تفريط.

رابعًا: إصلاح الاجتماع: عن طريق إرشاد الخلق إلى توحيد صفوفهم، ومحو العصبيات، وإزالة الفوارق التي تباعد بينهم. وذلك بإشعارهم أنهم جنس واحد، من نفس واحدة، ومن عائلة واحدة، أبوهم آدم، وأمهم حواء، وأنه لا فضل لشعب على شعب، ولا لأحد على أحد إلا بالتقوى؛ وأنهم متساوون أمام الله، ودينه، وتشريعه. متكافئون في الأفضلية، وفي الحقوق، والتبعات من غير استثناءات، ولا امتيازات. وأن الإسلام عقد إخاءً بينهم أقوى من إخاء النسب والعصب. وأن لسانهم العام هو لسان هذا الدين، ولسان كتابه لغة العرب. وأنهم أمة واحدة، يؤلف بينها المبدأ، ولا تفرقها الحدود الإقليمية، ولا الفواصل السياسية والوضعية ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ (المؤمنون: ٥٢).

خامسًا: إصلاح السياسة أو الحكم الدولي: عن طريق تقرير العدل المطلق، والمساواة بين الناس، ومراعاة الفضائل في الأحكام والمعاملات؛ من الحق والعدل والوفاء بالعهود والرحمة

والمواساة والمحبة واجتناب الرذائل من الظلم والغدر ونقض العهود والكذب والخيانة والغش وأكل أموال الناس بالباطل: كالرشوة والربا والتجارة بالدين والخرافات.

سادسًا: الإصلاح المالي: عن طريق الدعوة إلى الاقتصاد، وحماية المال من التلف والضياع، ووجوب إنفاقه في وجوه البر، وأداء الحقوق الخاصة والعامة والسعي المشروع.

سابعًا: الإصلاح النسائي: عن طريق حماية المرأة واحترامها وإعطائها جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية.

ثامنًا: الإصلاح الحربي: عن طريق تهذيب الحرب، ووضعها على قواعد سليمة لخير الإنسانية في مبدئها، وغايتها، ووجوب التزام الرحمة فيها، والوفاء بمعاهداتها، وإيثار السلم عليها، والاكتفاء بالجزية عند النصر، والظفر فيها.

تاسعًا: محاربة الاسترقاق في المستقبل وتحرير الرقيق الموجود بطرق شتى: منها الترغيب العظيم في تحرير الرقاب، وجعله كفارة للقتل، وللظهار، ولإفساد الصيام بطريقة فاحشة، ولليمين الحانثة، ولإيذاء المملوك باللطم أو الضرب.

عاشرًا: تحرير العقول والأفكار، ومنع الإكراه، والاضطهاد، والسيطرة الدينية القائمة على الاستبداد والغطرسة ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: ٢١-٢٢).

ب- إعجاز في أن تشريعاته؛ مهما حاولت التشريعات الوضعية أن تأتي بمثلها فلن تستطيع.

والدليل على هذا الوجه من إعجاز القرآن: أن غير المسلمين كانوا ولا يزالون حائرين يبحثون عن النور، وينقبون عما يفي بحاجتهم في كثير من نواحي حياتهم حتى اضطّروا تحت ضغط هذه الحاجة، وبعد طول المطاف، وقسوة التجارب أن يرجعوا إلى هداية القرآن من حيث يشعرون أو لا يشعرون، وإليك شواهد على ذلك:

١ - أمريكا حرّمت الخمر أخيرًا، ولكنها فشلت ولم تنجح؛ لأنها لم توفق إلى الطريقة الحكيمة التي اتبعها الإسلام في تحريم الخمر.

٢ - أمريكا أباحت الطلاق، وإن كانت قد أسرفت فيه إلى درجة ضارّة.

٣ - أسبانيا أصدرت حكومتها قانونًا بمنع البغاء الرسمي في بلادها، وبمنع النساء من البروز على الشواطئ في ثياب الاستحمام.

٤ - مصلحوا أوروبا يرفعون أصواتهم بضرورة الرجوع إلى مبدأ تعدد الزوجات حتى بعض نسائهم طالبن بهذا.

٥ - اليهود يطالبون أيضا بتعدد الزوجات، وقد تزعَّم هذه الحركة يهودي اسمه: مورشه ليكفر مان، وبرهن على أن ذلك من أحكام الدين اليهودي. وطلب إلى اليهود إلغاء قرار الحاخام غرشون الذي تعدى حدود الدين اليهودي؛ بإبطاله الزواج بأكثر من واحدة، وأصبح له أتباع كثيرون.

٦ - زعيم فرنسا نادى غداة هزيمتها في حرب من الحروب يقول: إن سبب انهيار دولتهم هو انغماسهم في الشهوات الجنسية، وإسرافهم في المفاسد والمفاتن. [١]

ج- عرض التشريع في القرآن فيه حث للقلوب على الخضوع له، لا أنها قوانين صارمة:

جمع القرآن في أسلوبه ونظمه بين مقصدين: مقصد الموعظة، ومقصد التشريع؛ فنظمه يفيد بظاهره السامع ما يحتاج إلى علمه، وهو في ذلك يشبه خطب العرب. ومع ذلك فقد ضم معناه ما يستخرج منه العلماء الأحكام الكثيرة في التشريع، وفي الآداب وغيرها. [٢]

الوجه العشرون: الإعجاز العلمي في القرآن.

- فمن إعجاز القرآن أنه تكلم في لغة العلم قبل كشفه، كما أنه استعمل كلمات وتعبيرات لم يستوحشها أذواق الأقدمين، ولا معارفهم علي حين أحاطت بكشوف العصر الحديث! [٣]

- وحكي أن طبيبًا نصرانيًا حاذقًا سأل الحسين بن علي الواقدي: لماذا لم ينقل شيء في كتابكم عن علم الطب. . . والعلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان؟. فقال الحسين: إن الله بيّن علم الطب كلّه في نصف آية، فسأل الطبيب النصراني عن هذه الآية. فقال: هي

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٣٥٢-٣٥٣).

(٢) عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم (١/ ٦٠).

(٣) إقامة الحجة على العالمين بنبوة خاتم النبيين (١/ ٤٨٩).

قوله: ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ. . . ﴾ (الأعراف: ٣١) ما أحل الله لكم من المطعومات والمشروبات ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ أي لا تتعدوا إلى الحرام، ولا تكثروا الإنفاق المستقبح، ولا تناولوا مقدارًا كثيرًا يضركم ولا تحتاجون إليه. ثم سأل الطبيب: أقال نبيكم أيضًا شيئًا في هذا الأمر؟ ، فقال الحسين: إن نبيَّنا أيضًا جمع الطب في ألفاظ يسيرة، فسأل الطبيب عنها، فقال الحسين: هي هذه: "المعدة بيت الداء. والحمية رأس كل دواء. وأعط كل بدن ما عودته"[(١)] فقال الطبيب: الإنصاف أن كتابكم ونبيكم ما تركا حاجة إلى جالينوس، يعني بينا الأمر الذي هو رأس حفظ الصحة وإزالة المرض وأصلهما ومضارهما.[(٢)]

- فالقرآن حضّ على معرفة علوم الكون، وصنائع العالم، وحث على الانتفاع بكل ما يقع تحت نظرنا في الوجود. قال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس: ١٠١)، وقال جلّت حكمته: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ (الجاثية: ١٣). فلا يليق بالمسلمين وهم المخاطبون بهذا أن يفرّوا من وجه هذه المنافع العامة، ولا أن يزهدوا في علوم الكون، ولا أن يحرموا أنفسهم فوائد التمتع بثمرات هذه القوى العظيمة التي أودعها الله لخلقه في خزائن سمواته وأرضه. ولهذا نَصَّ علماؤنا على أن تعلم تلك العلوم الكونية، وحذق هذه الصناعات الفنية فرض من فروض الكفايات، ما داموا في حاجة إليها لمصلحة الفرد أو المجموع.[(٣)]

الوجه الحادي والعشرون: الإعجاز الغيبي

- فمن وجه إعجاز القرآن الغيبي:

١- ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلة، ولم يكن ذلك من شأن العرب.

٢- ما تضمنه من الإخبار عن قصص الأولين، وسائر المتقدمين حكاية من شاهدها وحَضَرها.

---

(١) لا أصل له مرفوعًا، إنما هو من قول الحارث بن كلدة، قاله ابن القيم وغيره، انظر: الضعيفة للألباني (٢٥٢).

(٢) إظهار الحق (٢/ ٣٥)

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٣٦٧)

٣- ما تضمنه من الإخبار عن الضمائر من غير أن يظهر ذلك منهم بقول أو فعل: كقوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾(آل عمران: ١٢٢)، ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ (المجادلة: ٨).[١]

٤- ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلة، ولم يكن ذلك من شأن العرب.

فإن هذا لا يقدر عليه البشر ولا سبيل لهم إليه

الوجه الثاني والعشرون: الإعجاز التأثيري.

لقد أشار القرآن نفسه إلى هذه الوجه من وجوه إعجازه حين سمى الله كتابه روحًا من أمره بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى: ٥٢)، وحين سماه نورًا بقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ (المائدة: ١٥)، وحين وصف بالحياة والنور من آمن به في قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (الأنعام: ١٢٢) وفي قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ (النحل: ٩٧)، وفي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٤).

تأثيره في أعدائه:

أما أعداؤه المشركون، فقد ثبت أنه جذبهم إليه بقوته في مظاهر كثيرة، نذكر بعضها على سبيل التمثيل:

المظهر الأول: أن هؤلاء المشركين مع حربهم له، ونفورهم مما جاء به، كانوا يخرجون في جنح الليل البهيم يستمعون إليه والمسلمون يرتلونه في بيوتهم. فهل ذاك إلا لأنه استولى على مشاعرهم، ولكن أبي عليهم عنادهم وكبرهم وكراهتهم للحق أن يؤمنوا به ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ (المؤمنون: ٧٠)

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٣١٧).

المظهر الثاني: أن أئمة الكفر منهم كانوا يجتهدون في صد رسول الله ﷺ عن قراءته في المسجد الحرام وفي مجامع العرب وأسواقهم، وكذلك كانوا يمنعون المسلمين من إظهاره، حتى لقد هالهم من أبي بكر أن يصلي به في فناء داره، وذلك لأن الأولاد والنساء كانوا يجتمعون عليه يستمتعون بلذة هذا الحديث ويتأثرون به ويهتزون له!.

المظهر الثالث: أنهم ذعروا ذعرا شديدا من قوة تأثيره ونفوذه إلى النفوس على رغم صدهم عنه واضطهادهم لمن أذعن له فتواصوا على ألا يسمعوه، وتعاقدوا على ان يلغوا فيه إذا سمعوه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ (فصلت: ٢٦).

المظهر الرابع: أن بعض شجعانهم وصناديدهم، كان الواحد منهم يحمله طغيانه وكفره وتحمسه لموروثه، على أن يخرج من بيته شاهرا سيفه، معلنا غدره، ناويا القضاء على دعوة القرآن ومن جاء به، فلا يلبث حين تركه لمحة من لمحات العناية، وينصت إلى صوت القرآن في سورة أو آية، أن يذل للحق ويخشع، ويؤمن بالله ورسوله وكتابه ويخضع. وإن أردت شاهدا على هذا فاستعرض قصة إسلام عمر وهي مشهورة. أو فتأمل كيف أسلم سعد بن معاذ سيد قبيلة الأوس هو وابن أخيه أسيد بن حضير رضي الله عنهم وإليك كلمة قصيرة عن إسلام سعدوأسيد فيها نفع كبير:

تروي كتب السيرة أن رسول الله ﷺ وهو في مكة قبل الهجرة، أرسل مع اهل المدينة الذين جاءوا وبايعوه بيعة العقبة، مبعوثين جليلين يعلمانهم الإسلام وينشرانه في المدينة هما: مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنهما وقد نجح هذان في مهمتهما أكثر نجاح، وأحدثا في المدينة ثورة فكرية أو حركة تبشيرية جزع لها سعد بن معاذ سيد قبيلة الأوس، حتى قال لابن أخيه أسيد بن حضير: ألا تذهب إلى هذين الرجلين اللذين أتيا يسفهان ضعفاءنا فتزجرهما. فلما انتهى إليهما أسيد قال لهما: ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا؟ ثم هددهما، وقال: اعتزلا إن كانت لكما في أنفسكما حاجة- رضي الله عن مصعب- فقد تغاضى عن هذا التهديد، وقال لأسيد في وقار المؤمن وثباته: أَوَ تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن

كرهته كففْنا عنك ما تكره. ثم قرأ مصعب القرآن وأسيد يسمع، فما قام من مجلسه حتى أسلم، ثم كر راجعًا إلى سعد؛ فقال له: والله ما رأيت بالرجلين بأسًا. فغضب سعد وذهب هو نفسه ثائرًا مهتاجًا، فاستقبله مصعب بما استقبل به أسيدًا وانتهى الأمر بإسلامه ـ أيضًا ـ ثم كرّ راجعًا فجمع قبيلته، وقال لهم: ما تعدونني فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا؛ فقال سعد: كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تسلموا. فأسلموا أجمعين!.

تأثير القرآن في نفوس أوليائه:

تلك مظاهر لفعل القرآن بنفوس شانئيه، فهل تدري ماذا فعل بهم بعد أن دانوا له وآمنوا به وأصبحوا من تابعيه ومحبيه؟ لعلك لم تنس ما فعل القرآن بعمر وسعد وأسيد الذين نوّهنا بهم بين يديك. ألم يعودوا من خيرة جنود الإسلام ودعاته من يوم أسلموا بل من ساعة أسلموا؟ وهناك مظاهر أربعة لهذا الضرب أيضًا:

المظهر الأول: تنافسهم في حفظه وقراءته في الصلاة وفي غير الصلاة، حتى لقد طاب لهم أن يهجروا لذيذ منامهم من أجل تهجّدهم به في الأسحار، ومناجاتهم العزيز الغفار. وما كان هذا حالًا نادرًا فيهم؛ بل ورد أن المارّ على بيوت الصحابة بالليل كان يسمع لها دويًا كدوي النحل بالقرآن! وكان التفاضل بينهم بمقدار ما يحفظ أحدهم من القرآن! وكانت المرأة ترضى بل تغتبط أن يكون مهرها سورة يعلمها إيّاها زوجها من القرآن؟.

المظهر الثاني: عملهم به وتنفيذهم لتعاليمه في كل شأن من شؤونهم، تاركين كل ما كانوا عليه مما يخالف تعاليمه ويجافي هداياته. طيبةً بذلك نفوسُهم، طيّعةً أجسامُهم، سخيّةً أيديهم وأرواحهم، حتى صهرهم القرآن في بوتقته، وأخرجهم للعالم خلقًا آخر، مستقيم العقيدة، قويم العبادة، طاهر العادة، كريم الخلق، نبيل المطمح!.

المظهر الثالث: استبسالهم في نشر القرآن والدفاع عنه وعن هدايته. فأخلصوا له وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه وهو مدافع عنه، ومنهم من انتظر حتى أتاه اليقين وهو مجاهد في سبيله مضحّ بنفسه ونفيسه. ولقد بلغ الأمر إلى حدّ أن الرسول ﷺ كان يردّ بعض من يتطوع بالجندية من الشباب لحداثة أسنانهم وكان كثير من

ذوي الأعذار يؤلمهم التخلف عن الغزو حتى يضطرّ الرسول ﷺأن يتخلّف معهم جبرًا لخاطرهم، ويرسل سراياه وبعوثه بعد أن ينظمها ويزودها بما تحتاجه ولا يخرج معهم. روى مالك والشيخان أن رسول الله ﷺقال: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ الله أَبَدًا، وَلَكِنْ لاَ أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ، وَلاَ يَجِدُونَ سَعَةً وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّى أَغْزُو فِي سَبِيلِ الله فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ". [١]

المظهر الرابع: ذلك النجاح الباهر الذي أحرزه القرآن في هداية العالم. فقد وجد قبل النبي ﷺأنبياء ومصلحون، وعلماء ومشترعون، وفلاسفة وأخلاقيون، وحكام ومتحكمون، فما تسنّى لأحد من هؤلاء؛ بل ما تسنى لجميعهم أن يحدثوا مثل هذه النهضة الرائعة التي أحدثها محمد ﷺ في العقائد والأخلاق، وفي العبادات والمعاملات، وفي السياسة والإدارة، وفي كافة نواحي الإصلاح الإنساني. وما كان لمحمد ولا لألف رجل غير محمد أن يأتوا بمثل هذا الدستور الصالح الذي أحيا موات الأمة العربية في أقل من عشرين سنة، ثم نفخ فيهم من روحه فهبّوا بعد وفاته ينقذون العالم؛ ففتحوا ملك كسر وقيصر، ووضعوا رِجلًا في الشرق ورِجلًا في الغرب، وخفقت رايتهم على نصف المعمور في أقل من قرن ونصف قرن من الزمان. [٢]

الوجه الثالث والعشرون: القرآن معجزة متجددة

إن إحدى أهم أوجه إعجاز القرآن الكريم، أن معجزته متجددة وعجائبه لا تنقضي، فالقرآن معجزة باقية على طول الزمان من حين جاء به الرسول تُتْلى آيات التحدّي به، ويُتلى قوله: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ (الطور: ٣٤)، و﴿ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ (هود: ١٣)، و﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (يونس: ٣٨).

---

(١) رواه البخاري (٢٦٤٤)، ومسلم (٤٩٧٦)، ومالك في الموطأ من رواية الليثي (٩٩٥).

(٢) مناهل العرفان٢ / ٤٣٦: ٤٤٠.

وإخبار رسول الله ﷺ بهذا في أول الأمر، وقطعه بذلك، مع علمه بكثرة الخلق؛ دليلٌ على أنّه كان خارقًا يعجز الثقلين عن معارضته، وهذا لا يكون لغير الأنبياء.

وها هو القرآن الكريم مع طول الزمان، قد سمعه الموافق، والمخالف، والعرب، والعجم، وليس في الأمم من أظهر كتابًا يقرأه الناس، وقال إنّه مثله، وهذا يعرفه كلّ أحدٍ. [(١)]

الوجه الرابع والعشرون: الإعجاز في هيمنته على الكتب السابقة وجمعه لعلومها

قال الزركشي: ومن وجوه الإعجاز جعله آخر الكتب غنيًا عن غيره، وجعل غيره من الكتب المتقدمة قد يحتاج إلى بيان يُرجع فيه إليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ (النمل: ٧٦). [(٢)]

قال ابن تيمية: وَهَكَذَا الْقُرْآنُ فَإِنَّهُ قَرَّرَ مَا فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنْ الْخَبَرِ عَنْ الله، وَعَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ، وَزَادَ ذَلِكَ بَيَانًا وَتَفْصِيلًا. وَبَيَّنَ الْأَدِلَّةَ وَالْبَرَاهِينَ عَلَى ذَلِكَ، وَقَرَّرَ نُبُوَّةَ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ، وَرِسَالَةَ الْمُرْسَلِينَ، وَقَرَّرَ الشَّرَائِعَ الْكُلِّيَّةَ الَّتِي بُعِثَتْ بِهَا الرُّسُلُ كُلُّهُمْ. وَجَادَلَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْكُتُبِ وَالرُّسُلِ بِأَنْوَاعِ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ، وَبَيَّنَ عُقُوبَاتِ الله لَهُمْ وَنَصْرَهُ لِأَهْلِ الْكُتُبِ الْمُتَّبِعِينَ لَهَا، وَبَيَّنَ مَا حُرِّفَ مِنْهَا وَبُدِّلَ، وَمَا فَعَلَهُ أَهْلُ الْكِتَابِ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَبَيَّنَ أَيْضًا مَا كَتَمُوهُ مِمَّا أَمَرَ الله بِبَيَانِهِ. وَكُلُّ مَا جَاءَتْ بِهِ النُّبُوَّاتُ بِأَحْسَنِ الشَّرَائِعِ وَالْمَنَاهِجِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ فَصَارَتْ لَهُ الْهَيْمَنَةُ عَلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكُتُبِ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ؛ فَهُوَ شَاهِدٌ بِصِدْقِهَا وَشَاهِدٌ بِكَذِبِ مَا حُرِّفَ مِنْهَا، وَهُوَ حَاكِمٌ بِإِقْرَارِ مَا أَقَرَّهُ الله، وَنَسْخِ مَا نَسَخَهُ فَهُوَ شَاهِدٌ فِي الْخَبَرِيَّاتِ حَاكِمٌ فِي الْأَمْرِيَّاتِ. وَكَذَلِكَ مَعْنَى " الشَّهَادَةِ " و" الْحُكْمِ " يَتَضَمَّنُ إثْبَاتَ مَا أَثْبَتَهُ الله مِنْ صِدْقٍ وَمُحْكَمٍ، وَإِبْطَالِ مَا أَبْطَلَهُ مِنْ كَذِبٍ وَمَنْسُوخٍ، وَلَيْسَ الْإِنْجِيلُ مَعَ التَّوْرَاةِ وَلَا الزَّبُورِ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ بَلْ هِيَ مُتَّبِعَةٌ لِشَرِيعَةِ التَّوْرَاةِ إلَّا يَسِيرًا نَسَخَهُ الله بِالْإِنْجِيلِ؛ بِخِلَافِ الْقُرْآنِ. [(٣)]

---

(١) المختصر القويم في دلائل نبوة الرسول الكريم ١/ ١٣٢.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٠٧

(٣) مجموع الفتاوى ١٧/ ٤٤.

الوجه الوجه الخامس والعشرون: إعجاز القرآن في أسمائه وصفاته

لا يوجد كتاب على وجه الأرض له من الأسماء والصفات ما كان للقرآن.

قال ابن تيمية: أَسْمَاءُ الْقُرْآنِ: الْفُرْقَانُ، الْكِتَابُ، الْهُدَى، النُّورُ، الشِّفَاءُ، الْبَيَانُ، الْمَوْعِظَةُ، الرَّحْمَةُ، بَصَائِرُ، الْبَلَاغُ، الْكَرِيمُ، الْمَجِيدُ، الْعَزِيزُ، الْمُبَارَكُ، التَّنْزِيلُ، الْمُنَزَّلُ، الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، حَبْلُ اللهِ، الذِّكْرُ، الذِّكْرَى، تَذْكِرَةٌ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (الحاقة: ٤٨)، ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ (المدثر: ٥٤-٥٥)، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (البقرة: ٩٧) و﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (يونس: ٣٧) الْمُهَيْمِنُ عَلَيْهِ ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ (يوسف: ١١١)، ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ (النحل: ٨٩)، الْمُتَشَابِهُ، الْمَثَانِي، الْحَكِيمُ ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ (يونس: ١)، مُحْكَمٌ، الْمُفَصَّلُ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا﴾ (الأنعام: ١١٤)، الْبُرْهَانُ ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ١٧٤)، عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ. الْحَقُّ ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ (يونس: ١٠٨)، عَرَبِيٌّ مُبِينٌ، أَحْسَنَ الْحَدِيثِ، أَحْسَنَ الْقَصَصِ عَلَى قَوْلٍ. كَلَامُ اللهِ ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٦)، الْعِلْمُ ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ (آل عمران: ٦١)، الْعَلِيُّ، الْحَكِيمُ ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف: ٤)، الْقَيِّمُ ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ (البينة: ٢-٣)، ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ (الكهف: ١-٢) وَوَحْيٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٤)، حِكْمَةٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَـٰلِغَةٌ﴾ (القمر: ٤-٥) وَحُكْمًا فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ (الرعد: ٣٧)، وَنَبَأٌ عَلَى قَوْلٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (النبأ: ٢)، وَنَذِيرٌ عَلَى قَوْلٍ ﴿هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ (النجم: ٥٦) فِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَى: شَافِعًا مُشَفَّعًا، وَشَاهِدًا

مُصَدِّقًا، وَسَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ" حُجَّةٌ لَك أَوْ عَلَيْك "[١]، وَفِي حَدِيثِ الْحَارِثِ عَنْ عَلِيٍّ "عِصْمَةٌ لِمَنْ اسْتَمْسَكَ بِهِ "[٢]. وَأَمَّا وَصْفُهُ بِأَنَّهُ يَقُصُّ، وَيَنْطِقُ، وَيَحْكُمُ، وَيُفْتِي، وَيُبَشِّرُ، وَيَهْدِي فَقَالَ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (النمل: ٧٦) ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ (الجاثية: ٢٩) ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ (النساء: ١٢٧) أَيْ يُفْتِيكُمْ أَيْضًا ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ . . . ﴾ (الإسراء: ٩). [٣]

الوجه السادس والعشرون: إعجاز القرآن في بيانه للحق بالأدلة العقلية والقياس البين.

وَهَكَذَا غَالِبُ مَا بَيَّنَهُ الْقُرْآنُ، فَإِنَّهُ يُبَيِّنُ الْحَقَّ وَالصِّدْقَ وَيَذْكُرُ أَدِلَّتَهُ وَبَرَاهِينَهُ؛ لَيْسَ يُبَيِّنُهُ بِمُجَرَّدِ الْإِخْبَارِ عَنْ الْأَمْرِ كَمَا قَدْ يَتَوَهَّمُهُ كَثِيرٌ مِنْ الْمُتَكَلِّمَةِ والمتفلسفة أَنَّ دَلَالَتَهُ سَمْعِيَّةٌ خَبَرِيَّةٌ، وَأَنَّهَا وَاجِبَةٌ لِصِدْقِ الْمُخْبِرِ؛ بَلْ دَلَالَتُهُ أَيْضًا عَقْلِيَّةٌ بُرْهَانِيَّةٌ، وَهُوَ مُشْتَمِلٌ مِنْ الْأَدِلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى أَحْسَنِهَا وَأَتَمِّهَا بِأَحْسَنِ بَيَانٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ فَهْمٌ وَعَقْلٌ؛ بِحَيْثُ إذَا أَخَذَ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذَلِكَ، وَبَيَّنَ لِمَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ، أَوْ لَمْ يَعْلَمْ صِدْقَ الرَّسُولِ، أَوْ يَظُنُّ فِيهِ ظَنًّا مُجَرَّدًا عَنْ مَا يَجِبُ مِنْ قَبُولِ قَوْلِ الْمُخْبِرِ كَانَ فِيهِ مَا يُبَيِّنُ صِدْقَهُ وَحَقَّهُ وَيُبَرْهِنُ عَنْ صِحَّتِهِ. [٤]

الوجه السابع والعشرون: إعجاز القرآن في حفظ الله له

١- تكفل الله بحفظه.

قال القاضي عياض: ومن وجوه إعجازه كونه آيةً باقيةً لا يعدم ما بقيت الدنيا، مع تكفّل الله بحفظه. [٥]

٢-إبطال حِيل من أراد تحريفًا للقرآن.

٣- نقل القرآن بالتّواتر من جيلٍ لجيلٍ.

---

(١) رواه مسلم (٥٥٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة عن ابن مسعود رضي الله عنه (٣٠٦٣٠). وضعفه الألباني في الضعيفة (٦٨٤٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/ ٢).

(٤) مجموع الفتاوى١٤/ ٤٣٧.

(٥) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣٢٣.

قال الباقلاني: القرآن الذي هو متلو محفوظ مرسوم في المصاحف هو الذي جاء به النبيﷺ، وأنه هو الذي تلاه على من في عصره ثلاثًا وعشرين سنةً.[(١)]

الوجه الثامن والعشرون: إعجاز القرآن في عدم المجيء بمثله، وتحديه للبشر.

قال الرماني: وجوه إعجاز القرآن تظهر من جهات ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة والتحدّي للكافة.[(٢)]

فجعل الله عجز الجن والإنس عن الإتيان بمثله دليلًا على أنه منه، ودليلًا على وحدانيته. وذلك يدلّ عندنا على بطلان قول من زعم أنه لا يمكن أن تُعلم بالقرآن الوحدانية، وزعم أن ذلك مما لا سبيل إليه إلا من جهة العقل؛ لأن القرآن كلام الله ﷻ، ولا يصح أن يعلم الكلام حتى يعلم المتكلم أولًا.

فقلنا: إذا ثبت بما نبينه إعجازه، وأن الخلق لا يقدرون عليه - ثبت أن الذي أتى به غيرهم، وأنه إنما يختص بالقدرة عليه من يختص بالقدرة عليهم، وأنه صدق، وإذا كان كذلك كان ما يتضمنه صدقًا، وليس إذا أمكن معرفته من جهة العقل امتنع أن يعرف من طريق القرآن؛ بل يمكن عندنا أن يعرف من قوله ﷻ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ (الإسراء: ٨٨)، وقوله: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الطور: ٣٣-٣٤)، فقد ثبت بما بيناه أنه تحدّاهم إليه ولم يأتوا بمثله.

وفي هذا أمران: أحدهما: التحدّي إليه، والآخر: أنهم لم يأتوا له بمِثلٍ، والذي يدل على ذلك النقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري فلا يمكن جحود واحد من هذين الأمرين.[(٣)]

* * *

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ١/ ١٨، ١٩.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣٢٣.

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني ١/ ١٧.

٥ـ شبهة: ادعاؤهم وجود ألفاظ أعجمية في القرآن الكريم

نص الشبهة:

يقولون: كيف توجد ألفاظ أعجمية في القرآن مع أن الله قال: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾؟

والجواب على ذلك في مبحثين

المبحث الأول: هل في القرآن ألفاظ أعجمية؟

المبحث الثاني: على فرض وجود ألفاظ أعجمية

فالجواب عليه من وجوه:

الوجه الأول: إن لسان العرب أوسع من أن يحيط به أحد.

الوجه الثاني: ليس أحدُ الجنسين أولى بأن يكون أصلُ ذلك كان من عنده من الجنس الآخر، فلعل ما وصف أنه عجمي يكون عربي الأصل.

الوجه الثالث: لم يرد أن أحدًا من سكان مكة أو غيرها قال: بأنها غريبة عنه لا يعرفها.

الوجه الرابع: هذه المفردات غير العربية هي عربية باستعمال العرب لها فتكلّمت به العرب حتى صار كاللغة.

الوجه الخامس: لا يمتنع أن يتفق لسان العرب مع لسان العجم في بعض الألفاظ فتكون عربية وأعجمية، فالقرآن فيه من كلّ لسان اتفق فيه لفظ العرب ولفظ غيرها من الأمم التي تنطق به، وليس معنى هذا أن اللفظ أصله أعجمي.

الوجه السادس: إن كل ما في القرآن من كلمات غير عربية الأصل إنما هي كلمات مفردات.

الوجه السابع: إن وجود مفردات أجنبية في أي لغة سواء كانت اللغة العربية أو غير العربية لا يخرج تلك اللغة عن أصالتها.

الوجه الثامن: وجود عدد وإن كان نادرًا جدًا من الألفاظ ذات الأصل غير العربي، ومن مختلف اللغات القديمة، يحمل إشارة إلى عالمية الدعوة الإسلامية.

الوجه التاسع: يخلو القرآن الكريم من تراكيب، أو جُمل، أو أشباه جُمل، غير عربية.

الوجه العاشر: ذكر الأعجمي على فرض أنه ذكر للإعجاز.

وإليك التفصيل

المبحث الأول: هل في القرآن ألفاظ أعجمية؟ والجواب: في ذلك خلاف، والراجح عدم وجود ألفاظ أعجمية. وإليك تفصيل الكلام.

القول الأول: لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ لَفْظٌ غَيْرُ عَلَمٍ إلا عَرَبِيٌّ.

اخْتَارَهُ أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ الْعَزِيزِ، وَالْقَاضِي، وَأَبُو الْخَطَّابِ، وَابْنُ عَقِيلٍ، وَالْمَجْدُ، وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ، مِنْهُمْ: الإمام الشَّافِعِيُّ، وَأَبُو عُبَيْدَة، وَابْنُ جَرِير، وَالْبَاقِلانِيّ، وَابْنُ فَارِسٍ وَغَيْرُهُمْ؛ لِمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ الآيَاتِ الْكَثِيرَةِ الْوَارِدَةِ فِي الْقُرْآنِ.[1]

---

(١) **قال الإمام الشافعي في الرسالة ٤٦ ـ ٥٠**: الحجة في أن كتاب الله محضٌ بلسان العرب لا يخلطه فيه غيره، قال الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ (إبراهيم: ٤)، فإن قال قائل: فإن الرسل قبل محمد كانوا يرسلون إلى قومهم خاصة، وإن محمدًا بعث إلى الناس كافة، فقد يحتمل أن يكون بعث بلسان قومه خاصة ويكون على الناس كافة أن يتعلموا لسانه وما أطاقوا منه، ويحتمل أن يكون بعث بألسنتهم. فهل من دليل على أنه بعث بلسان قومه خاصة دون ألسنة العجم؟ فإن كانت الألسنة مختلفة بها لا يفهمه بعضهم عن بعض، فلا بد أن يكون بعضهم تبعًا لبعض، وأن يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع، وأولى الناس بالفضل باللسان من لسانه لسان النبي ﷺ ولا يجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون أهل لسانه أتباعًا لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد، بل كلُّ لسان تبع للسانه، وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه. وقد بين الله ذلك في غير آية من كتابه قال الله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٤)، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ (الرعد: ٣٧)، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشورى: ٧) وقال: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف: ١-٣)، وقال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الزمر: ٢٨). **قال الشافعي**: فأقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية ذكرناها، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه جل ثناؤه كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه، فقال تبارك وتعالى: **﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾** (النحل: ١٠٣) وقال تعالى: **﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾** (فصلت: ٤٤)، **قال الشافعي**: وعرّفنا نعمه بما خصنا به من مكانه، فقال: **﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾** (التوبة: ١٢٨)، وقال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾** (الجمعة: ٢)، وكان مما عرّف الله نبيه من إنعامه أن قال تعالى: **﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾** (الزخرف: ٤٤)، فخص قومه بالذكر معه بكتابه، وقال تعالى: **﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾** (الشعراء: ٢١٤)، وقال تعالى: **﴿تُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى**

أدلة القول الأول:

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ (إبراهيم: ٤). وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ (الشورى: ٧). وقوله تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء: ١٩٥). وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الزخرف: ٣). وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ (الرعد: ٣٧). وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف: ٢). ونفى عنه جل ثناءه كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه: فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (النحل: ١٠٣). وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ﴾ (فصلت: ٤٤)

إلى غير ذلك من الآيات الناطقة بأن هذا القرآن عربي لا يشارك العربية فيه كلام أمة أخرى.

قال الزركشي: اعلم أن القرآن أنزله الله بلغة العرب، فلا يجوز قراءته وتلاوته إلا بها؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا ﴾ الآية، يدل على أنه

وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشورى: ٧). وأم القرى مكة، وهي بلده وبلد قومه، فجعلهم في كتابه خاصة، وأدخلهم مع المنذرين عامة، وقضى أن يُنذروا بلسانهم العربي: لسان قومه منهم خاصة. فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جَهدُه، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، ويتلوا به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك.

وما ازداد من العلم باللسان، الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته، وأنزل به آخر كتبه: كان خيرًا له كما عليه يتعلمُ الصلاة والذكر فيها، ويأتي البيت وما أمر بإتيانه، ويتوجه لما وجه له. ويكون تبعًا فيما افترض عليه، وندب إليه لا متبوعًا. وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره؛ لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحدٌ جهل سعة لسان العرب، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه وتفرقها. ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها. فكان تنبيه العامة على أن القرآن نزل بلسان العرب خاصة: نصيحة للمسلمين. والنصيحة لهم فرض لا ينبغي تركه، وإدراك نافلة خير لا يدعها إلا من سفه نفسه، وترك موضع حظه. وكان يجمع مع النصيحة لهم قيامًا بإيضاح حق. وكان القيام بالحق ونصيحة المسلمين من طاعة الله. وطاعة الله جامعة للخير.

ليس فيه غير العربي؛ لأن الله تعالى جعله معجزة شاهدة لنبيه عليه الصلاة والسلام، ودلالة قاطعة لصدقه، وليتحدى العرب العرباء به، ويحاضر البلغاء والفصحاء والشعراء بآياته، فلو اشتمل على غير لغة العرب لم تكن له فائدة. (١)

القول الثاني: أنَّ في القرآن أَلْفَاظًا غَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ:

وَذَهَبَ إليه ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ، وَعِكْرِمَةُ، وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَعَطَاءٌ، وَغَيْرُهُمْ.

أما أدلة المذهب الثاني فهي كما يلي:

أولًا: ذهب من قال بالوقوع بأن في القرآن خاصًا يجهله بعض العرب.

ثانيًا: وجود من كان ينطق من العجم بالشيء من لسان العرب.

ثالثًا: أن جميع الرسل كانوا يرسلون إلى قومهم خاصة، أما محمد ﷺ بُعث إلى الناس كافة، فليكن في القرآن عموم في اللغات كعموم المنزل عليه إلى العالم. (٢)

القول الثالث: وَنُقِلَ عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ أَنَّهُ قَالَ: الصَّوَابُ عِنْدِي مَذْهَبٌ فِيهِ تَصْدِيقُ الْقَوْلَيْنِ جَمِيعًا. وَذَلِكَ: أَنَّ هَذِهِ الأَحْرُفَ أُصُولُهَا أَعْجَمِيَّةٌ كَمَا قَالَ الْفُقَهَاءُ، لَكِنَّهَا وَقَعَتْ لِلْعَرَبِ، فَعُرِّبَتْ بألسنتها، وَحَوَّلَتْهَا عَنْ أَلْفَاظِ الْعَجَمِ إِلَى أَلْفَاظِهَا فَصَارَتْ عَرَبِيَّةً، ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ - وَقَدْ اخْتَلَطَتْ هَذِهِ الْحُرُوفُ بِكَلَامِ الْعَرَبِ - فَمَنْ قَالَ: إِنَّهَا عَرَبِيَّةٌ فَهُوَ صَادِقٌ، وَمَنْ قَالَ أَعْجَمِيَّةٌ فَصَادِقٌ. (٣)

ومال إلى هذا القول الجواليقي، وابن الجوزي، وآخرون. (٤)

لا خلاف بين العلماء في أنه ليس في القرآن كلام مركب من ألفاظ أعجمية تعطي معنى مستفادًا حسب هذا التركيب.

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٨٧)، والإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٩٣).

(٢) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (٧/ ٤٠٧).

(٣) الكوكب المنير شرح مختصر التحرير (١/ ٩٧)، والرسالة (١/ ٤٢)، وجامع البيان للطبري (١/ ٧)، والبحر المحيط في أصول الفقه (١/ ٥٢٩)، والإحكام لابن حزم (٢/ ٢١٤)، والاعتصام (١/ ٥٠٠)، والموافقات (٢/ ١٠١)، والمدخل لابن بدران (٨٨)، وروضة الناظر (١/ ٦٥)، وحاشية العطار (٣/ ٦٠)، والبرهان في علوم القرآن (١/ ٢٨٧)، والإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٩٣)، والمهذب فيما وقع في القرآن من المعرب (١/ ١).

(٤) المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب (١/ ٢).

كما أنه لا خلاف بينهم أن في القرآن أعلام أعجمية كنوح، وإسرائيل، ولوط من غير لسان العرب. والخلاف إنما هو في ألفاظ مفردة ليست من هذا ولا ذاك، فهل من لسان العرب أم من لسان غير العرب؟. (١)

المبحث الثاني: على فرض وجود ألفاظ أعجمية فالجواب عليه من وجوه

الوجه الأول: إن لسان العرب أوسع من أن يحيط به أحد.

نعم، فلسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه لا يذهب منه شئ على عامتها؛ حتى لا يكون موجودًا فيها من يعرفه. والعلم به عند العرب كالعلم بالسُنّة عند أهل الفقه، لا نعلم رجلًا جمع السنن فلم يذهب منها عليه شئ. (٢)

قال السيوطي: وقال آخرون: كل هذه الألفاظ عربية صرفة، ولكن لغة العرب متسعة جدًّا، ولا يبعد أن تخفى على الأكابر الأجلة، وقد خفي على ابن عباس معنى فاطر وفاتح. وقال أبو المعالي عزيزي بن عبد الملك إنما وجدت هذه الألفاظ في لغة العرب؛ لأنها أوسع اللغات وأكثرها ألفاظًا، ويجوز أن يكونوا سبقوا إلى هذه الألفاظ. (٣) لأنَّ غيرَ العرب لم تتسع في المجاز اتساعَ العرب؛ ألا ترى أنك لو أردتَ أن تنقلَ قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾. لم تستطع أن تأتي لهذه بألفاظ مؤدِّية عن المعنى الذي أودِعَتْه حتى تبسط مجموعها، وتصلَ مقطوعها، وتُظهرَ مَسْتُورها؛ فتقول: إن كان بينك وبين قوم هُدْنة وعَهْد، فخِفْت منهم خيانةً ونقضًا، فأعْلمهم أنك قد نقضتَ ما شرطته لهم، وآذنْهم بالحرب؛ لتكونَ أنتَ وهم في العلم بالنَّقْض على الاستواء. وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ ﴾. (٤)

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٦٨) بتصرف.

(٢) الرسالة (١/ ٤٢).

(٣) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٩٣)، والمهذب فيما وقع في القرآن من المعرب (١/ ١).

(٤) المزهر (١/ ٩٩).

الوجه الثاني: ليس أحدُ الجنسين أولى بأن يكون أصلُ ذلك كان من عنده من الجنس الآخر، فلعل ما وصف أنه عجمي يكون عربي الأصل.

قال الطبري: لم نستنكر أن يكون من الكلام ما يتفق فيه ألفاظ جميع أجناس الأمم المختلفة الألسن بمعنى واحد، فكيف بجنسين منها؟ كما وجدنا اتفاقًا كثيرًا منه فيما قد علمناه من الألسن المختلفة، وذلك كالدرهم، والدينار، والدواة، والقلم، والقرْطاس، وغير ذلك مما يتعب إحصاؤه وُيمِلّ تعداده، كرهنا إطالة الكتاب بذكره مما اتفقت فيه الفارسية والعربية باللفظ والمعنى. ولعلّ ذلك كذلك في سائر الألسن التي نجهل منطقها ولا نعرف كلامها. فلو أن قائلًا قال -فيما ذكرنا من الأشياء التي عددْنا وأخبرْنا اتفاقَه في اللفظ والمعنى بالفارسية والعربية، وما أشبهَ ذلك مما سكتنا عن ذكره-: ذلك كله فارسيّ لا عربيّ، أو ذلك كله عربيّ لا فارسيّ، أو قال: بعضه عربيّ وبعضه فارسيّ، أو قال: كان مخرج أصله من عند العرب فوقع إلى العجم فنطقوا به، أو قال: كان مخرج أصله من عند الفرس فوقع إلى العرب فأعربته كان مستجهَلًا؛ لأن العربَ ليست بأولى من أن يكون مخرجُ أصل ذلك منها إلى العجم، ولا العجم أحقّ أن يكون مخرج أصل ذلك منها إلى العرب، إذا كان استعمال ذلك بلفظ واحد ومعنى واحد موجودًا في الجنسين. وإذْ كان ذلك موجودًا على ما وصفنا في الجنسين، فليس أحدُ الجنسين أولى بأن يكون أصلُ ذلك كان من عنده من الجنس الآخر. والمدّعي أن مخرج أصل ذلك إنما كان من أحد الجنسين إلى الآخر، مدّعٍ أمرًا لا يوصَل إلى حقيقة صحّته إلا بخبرٍ يوجب العلم، ويزيل الشكّ، ويقطع العذرَ صحتُه؛ بل الصواب في ذلك عندنا: أن يسمَّى: عربيًّا أعجميًّا، أو حبشيًّا عربيًّا، إذا كانت الأمّتان له مستعملتين -في بيانها ومنطقها- استعمالَ سائر منطقها وبيانها. فليس غيرُ ذلك من كلام كلّ أمة منهما، بأولى أن يكون إليها منسوبًا منه. فكذلك سبيل كل كلمة واسم اتفقت ألفاظ أجناس أمم فيها وفي معناها، ووُجد ذلك مستعملًا في كل جنس منها استعمالَ سائرِ منطقهم، فسبيلُ إضافته إلى كل جنس منها، سبيلُ ما وصفنا - من الدرهم والدينار والدواة والقلم، التي اتفقت ألسن

الفرس والعرب فيها بالألفاظ الواحدة والمعنى الواحد، في أنه مستحقٌّ إضافته إلى كل جنس من تلك الأجناس- اجتماعٌ واقترانٌ. (١)

الوجه الثالث: لم يرد أن أحدًا من سكان مكة أو غيرها قال بأنها غريبة عنه لا يعرفها.

فكيف يتهمون محمدًا ﷺ بأنه قد أدخل كلمات، عرَفها الناس وتداولوها قبل أن يولد بعقود.

ولو وجد العرب حرفًا واحدًا من غير لسانهم في القرآن لراموا التطاول على هاتين الآيتين اللتين احتجتا عليهم بعدم العذر لفهم هذا القرآن بأسلوب توكيدي كما يرى الإمام الشافعي. والقوم كما يعلم كل ذي بصيرة في التاريخ في سيرة النبي ﷺ في حواره معهم، وفي أساليب القرآن وتحديه لهم؛ جادلوا النبي ﷺ في كل جليلة وحقيرة، لا يفوتون فرصة قامت لهم في هذا الميدان. وكيف تُتلى عليهم ألفاظٌ رومية وفارسية ونبطية وحبشية ولا يتحركون ويستسلمون؟!. وهل نقل أنهم عارضوا هذه الألفاظ على أنها عجمية؟! (٢)

الوجه الرابع: هذه المفردات غير العربية هي عربية باستعمال العرب لها، فتكلّمت به العرب حتى صار كاللغة.

قال الجوهري: تعريبُ الاسم الأعجميّ أن تتفوَّه به العرب على مِنْهاجها، تقول: عرَّبَتْه العرب وأَعَرَبته أيضًا. (٣)

إن هذه المفردات غير العربية التي وردت في القرآن الكريم، وإن لم تكن عربية في أصل الوضع اللغوي، فهي عربية باستعمال العرب لها قبل عصر نزول القرآن وفيه، وكانت سائغة ومستعملة بكثرة في اللسان العربي قبيل نزول القرآن، وبهذا الاستعمال فارقت أصلها غير العربي، وعُدَّتْ عربية نطقًا واستعمالًا وخطًا.

بل إنَّ للعرب العاربة التي نزل القرآن بلغتهم بعض مخالطة لسائر الألسنة في أسفارهم، فعلَّقت من لغاتهم ألفاظًا غيرت بعضها بالنقص من حروفها، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها؛ حتى جرت مجرى العربيّ الفصيح، ووقع بها البيان، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن. (١)

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٢١).

(٢) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة العدد (٢١): (هل في القرآن من غير لسان العرب؟) بقلم: محمد الأنصاري.

(٣) الصحاح في اللغة (١/ ٤٥٦).

وقال الجواليقي في المعرَّب: إن العرب كثيرًا ما يجترئون على الأسماء الأعجمية فيغيِّرونها بالإبدال، قالوا: إسماعيل، وأصلُه إشْمائيل، فأبدلوا لقُرْب المَخْرج.[٢]

قال ابن دريد: باب ما تكلّمت به العرب من كلام العجم، حتى صار كاللغة، من ذلك: **الدَّيابوذ**، وهو دُوابُوذ بالفارسية، أي ثوب يُنسج على نِيرَين. قال الشاعر:

كأنها وابنَ أيامٍ تُرَبِّبه ... من قُرّةَ العين مجتابًا دَيابُودِ

يعني ظبية وولدَها أنهما في خِصْب وسَعَة فقد حَسُنَت شَعرتُهما فكأنما عليهما ثوبٌ ذو نِيرَين.

ومن ذلك **القُرْدُمانيّ**، أي الكَرْدَمانُد، أي عُمِلَ فبَقِيَ. **والمُهْرَق**، وهي خِرَق كانت تُصقل ويُكتب عليها، وتفسيرها مُهْرَ كرْد، أي صُقلت بالخَرَز. **والَسَّبيجة**: البَقيرة، وأصلها شَبيّ، وهو القميص. وأنشد: كالحَبَشيِّ التفَّ أو تسَّبجا.

والكرْد: العُنُق، وهي كَرْدَن بالفارسية.

قال الفرزدق: وكنّا إذا القيسي نَبَّ عَتُوده. . . ضربناه تحت الأنثَيَيْن على الكَرْدِ.

والفَصافِص فارسية معرَّبة: إسْفِست، وهي الرَّطْبة. **والبُوصِيّ**: السفينة، وهي بُوذيّ.

والأَرَنْدَج: الجلود التي تدبغ بالعَفْص حتى تسوادَّ؛ أَرَنْدَه. قال الراجز:

كأنّه مُسَرْوَلٌ أَرندَجا ... كما رأيتَ في المُلاء البَرْدَجا

أي البَرْدَه، وهم العبيد.

وقال الراجز: عَكْفَ النَّبيطِ يلعبون الفَنْزَجا يقال: هو **الفَنْجَكان**. قال أبو حاتم: وهو الدَّسْتَبَنْد.

وقال أبو حاتم: **الزِّنديق** فارسيّ معرَّب، كأن أصله زَنْده كَر، أي يقول بدوام بقاء الدهر. قال بكر: زِنْدَهْ: الحياة، والكَرْ: العمل بالفارسية.[٣]

الوجه الخامس: لا يمتنع أن يتفق لسان العرب مع لسان العجم في بعض الألفاظ، فتكون عربية وأعجمية، فالقرآن فيه من كلّ لسان اتفق فيه لفظ العرب ولفظ غيرها من الأمم التي تنطق به وليس معنى هذا أن اللفظ أصله أعجمي.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٩٣)، والمهذب فيما وقع في القرآن من المعرب (١/ ١).

(٢) المزهر (١/ ٨٥).

(٣) جمهرة اللغة (٢/ ٢٥٧).

قال ابن قتيبة: وخبَّرني- يعني أباه - عن أبي عبيدة انَّه رُبَّما وافق الأعجميُّ العَرَبيَّ. قالوا: غَزْل سَخْت، أي: صُلْب. **والزُّور**: القوّة. **والدست**: الصحراء وهي بالفارسية: **دَشْت**. ولم يكن ذهب إلى أنَّ في القرآن شيئًا من غير لغة العرب. وكان يقول: هو اتّفاق بين اللسانين. وخبَّرنا بمثل ذلك عن أبي عبيدة عبد الله بن محمد بن هانيء. وكان غيره يزْعُم أن **القُسْطاس**: الميزان بلغة قوم من الروم. **والمِشْكاة**: الكُوَّة بلسان الحَبَشة، **والسِّجَيل** بالفارسية: سَنْك وكَلِ. **والطُور**: الجَبَل بالسّريانية. **واليمُّ**: البحر بالسريانية. [1]

وقال ابن جرير: ما ورد عن ابن عباس وغيره من تفسير ألفاظ من القرآن إنها بالفارسية أو الحبشية أو النبطية أو نحو ذلك؛ إنما اتفق فيها توارد اللغات، فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد. [2]

الوجه السادس: إن كل ما في القرآن من كلمات غير عربية الأصل؛ إنما هي كلمات مفردات.

نعم، أسماء أعلام مثل: **إبراهيم، يعقوب، إسحاق، فرعون**، وهذه أعلام أشخاص، أو صفات مثل: **طاغوت، حبر**، إذا سلمنا أن كلمة طاغوت أعجمية.

قال القرطبي: لا خلاف بين الأئمة أنه ليس في القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب، وأن فيه أسماء أعلامًا لمن لسانه غير لسان العرب كإسرائيل، وجبريل، وعمران، ونوح، ولوط. [3] بالنظر إلى الكلمات المذكورة تجد أن عددًا منها كان أسماء شخصيات وأماكن - وما يتعلق بها - لا يمكن إلا أن تُسمَّى باسمها، ولا يوجد عاقل يطلب تسميتها بغير اسمها، بل لو فعل القرآن الكريم ذلك، لعدَّه خصومه مثلبة! [4]

الوجه السابع: إن وجود مفردات أجنبية في أي لغة سواء كانت اللغة العربية أو غير العربية لا يخرج تلك اللغة عن أصالتها.

---

(١) غريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ٣٤١) وانظر: أدب الكاتب لابن قتيبة أيضا (١/ ١٠٥).

(٢) الإتقان (١/ ٣٩٣).

(٣) تفسير القرطبي (١/ ٦٨)، والمهذب فيما وقع في القرآن من المعرب (١/ ١).

(٤) اللفظ المعرب في القرآن الكريم (٩).

فمن المعروف أن الأسماء لا تترجم إلى اللغة التي تستعملها حتى الآن. فالمتحدث بالإنجليزية، إذا احتاج إلى ذكر اسم من لغة غير لغته، يذكره برسمه ونطقه في لغته الأصلية، ومن هذا ما نسمعه الآن في نشرات الأخبار باللغات الأجنبية في مصر، فإنها تنطق الأسماء العربية نُطقًا عربيًا. ولا يقال: إن نشرة الأخبار ليست باللغة الفرنسية أو الإنجليزية مثلًا، لمجرد أن بعض المفردات فيها نطقت بلغة أخرى.

فالكلمات اليسيرة بغير العربية لا تخرجه عن كونه عربيًا، والقصيدة الفارسية لا تخرج عنها بلفظة فيها عربية.

وأجاب القائلون بذلك عن قوله تعالى: ﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ بأن المعنى من السياق: أكلام أعجمي ومخاطب عربي؟ واستدلوا باتفاق النحاة على أن منع صرف نحو إبراهيم للعلمية والعجمة. ورُد هذا الاستدلال بأن الأعلام ليست محل خلاف، فالكلام في غيرها موجه بأنه إذا اتفق على وقوع الأعلام فلا مانع من وقوع الأجناس، وأقوى ما رأيته للوقوع وهو اختياري ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبي ميسرة التابعي الجليل قال: في القرآن من كل لسان.[1]

الوجه الثامن: وجود عدد وإن كان نادرًا جدًا من الألفاظ ذات الأصل غير العربي، ومن مختلف اللغات القديمة، يحمل إشارة إلى عالمية الدعوة الإسلامية.

قال السيوطي: فهذه إشارة إلى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن أنه حوى علوم الأولين والآخرين ونبأ كل شيء، فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن؛ ليتم إحاطته بكل شيء، فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالا للعرب، ثم رأيت ابن النقيب صرح بذلك فقال: من خصائص القرآن على سائر كتب الله تعالى المنزلة أنها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم، ولم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم، والقرآن احتوى على جميع لغات العرب، وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير. وأيضا النبي مرسل إلى كل أمة، وقد قال تعالى:

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٩٤)، والمهذب فيما وقع في القرآن من المعرب (١/ ١)، ومباحث في علوم القرآن مناع القطان (٣٤٤).

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾، فلا بد وأن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم، وإن كان أصله بلغة قومه هو. [1]

الوجه التاسع: يخلو القرآن الكريم من تراكيب، أو جُمل، أو أشباه جُمل، غير عربية. فكل ما ذكروه من المعرب، مجرد لفظٍ لأدواتٍ حسية، ليست معنوية. [2]

الوجه العاشر: ذكر الأعجمي على فرض أنه ذكر للإعجاز.

قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٍ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة ٢٣: ٢٤). وقال تعالى: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٍ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (يونس: ٣٨-٣٩). وقال تعالى: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٍ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٍ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ (هود١٣-١٤)، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (الإسراء: ٨٨-٨٩).

قال السيوطي: وقد رأيت الخويِّي ذكر لوقوع المعرب في القرآن فائدة أخرى، فقال: إن قيل: إن "استبرق" ليس بعربي، وغيرُ العربي من الألفاظ دون العربي في الفصاحة والبلاغة، فنقول: لو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا أن يتركوا هذه اللفظة ويأتوا بلفظ يقوم مقامها في الفصاحة لعجزوا عن ذلك؛ وذلك لأن الله تعالى إذا حث عباده على الطاعة، فإن لم يرغبهم بالوعد الجميل ويخوفهم بالعذاب الوبيل لا يكون حثه على وجه الحكمة،

---

(١) الإتقان (١/ ١٥٧).

(٢) اللفظ المعرب في القرآن الكريم (٩).

فالوعد والوعيد نظرًا إلى الفصاحة واجب. ثم إن الوعد بما يرغب فيه العقلاء، وذلك منحصر في أمورٍ: الأماكن الطيبة، ثم المآكل الشهية، ثم المشارب الهنية، ثم الملابس الرفيعة، ثم المناكح اللذيذة، ثم ما بعده مما يختلف فيه الطباع، فإذن ذكر الأماكن الطيبة والوعد به لازم عند الفصيح، ولو تركه لقال من أُمر بالعبادة ووعد عليها بالأكل والشرب: إن الأكل والشرب لا ألتذ به إذا كنت في حبس أو موضع كريه، فإذن ذكَر الله الجنة ومساكن طيبة فيها، وكان ينبغي أن يذكر من الملابس ما هو أرفعها، وأرفع الملابس في الدنيا الحرير، وأما الذهب فليس مما ينسج منه ثوب. ثم إن الثوب الذي من غير الحرير لا يعتبر فيه الوزن الثقيل، وربما يكون الصفيق الخفيف أرفع من الثقيل الوزن، وأما الحرير فكلما كان ثوبه أثقل كان أرفع؛ فحينئذ وجب على الفصيح أن يذكر الأثقل الأثخن، ولا يتركه في الوعد لئلا يقصر في الحث والدعاء. ثم هذا الواجب الذكر، إما أن يذكر بلفظ واحد موضوع له صريح، أولا يذكر بمثل هذا؛ ولا شك أن الذكر باللفظ الواحد الصريح أولى؛ لأنه أوجز وأظهر في الإفادة؛ وذلك "إستبرق"، فإن أراد الفصيح أن يترك هذا اللفظ ويأتي بلفظ آخر لم يمكنه؛ لأن ما يقوم مقامه إما لفظ واحد أو ألفاظ متعددة، ولا يجد العربي لفظًا واحدًا يدل عليه؛ لأن الثياب من الحرير عرفها العرب من الفرس، ولم يكن لهم بها عهد، ولا وُضع في اللغة العربية للديباج الثخين اسم، وإنما عرَّبوا ما سمعوا من العجم واستغنوا به عن الوضع لقلة وجوده عندهم ونزْرة تلفظهم به، وأما إن ذكره بلفظين فأكثر، فإنه يكون قد أخل بالبلاغة؛ لأن ذكر لفظين لمعنى يمكن ذكره بلفظٍ تطويلٌ، فعلم بهذا أن لفظ "إستبرق" يجب على كل فصيح أن يتكلم به في موضعه ولا يجد ما يقوم مقامه، وأي فصاحة أبلغ من أن لا يوجد غيره مثله! [١]

* * *

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٩٥)، والمهذب فيما وقع في القرآن من المعرب (١/ ١).

٦ـ شبهة: حول التكرار في القرآن.

نص الشبهة:

قد تكررت ألفاظ في القرآن بعينها، وكذلك أعيد ذكر قصص في أكثر من موضع، وهذا لا فائدة منه إلا تكثير الآيات والإطناب لغير فائدة، في حين أنه لو حذفت هذه المكررات لأتى القرآن بحجم أصغر من ذلك بكثير ولأدى نفس الفائدة. . . ألا يعدُّ هذا عيبًا يعاب به القرآن ويشينه ويُضعف من إعجازه؟!

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: معنى التكرار في اللغة.

الوجه الثاني: التكرار في كلام العرب.

الوجه الثالث: وسائل التكرار.

الوجه الرابع: التكرار في عموم القرآن كمنهج عام.

الوجه الخامس: التكرار في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى التكرار في اللغة.

كَرَّرَ الشيء وكَرْكَره: أَعاده مرة بعد أُخرى، والكَرّةُ المَرَّةُ، والجمع الكَرَّات، ويقال: كَرَّرْتُ عليه الحديث وكَرْكَرْتُه إِذا ردّدته عليه، وكَركَرْتُه عن كذا كَرْكَرةً إِذا رَدَدْته، والكَرُّ الرجوع على الشيء، ومنه التَّكْرارُ. [١]

و(تَكْرِيُر) الشيء وهو إعادته مرارًا، والاسم (التَّكْرارُ). [٢]

فالتكرار هو أن يكرر المتكلم اللفظة الواحدة باللفظ والمعنى، والمراد بذلك تأكيد الوصف، أو المدح، أو الذم، أو التهويل، أو الوعيد، أو الإنكار، أو التوبيخ، أو الاستبعاد، أو أي غرض من الأغراض. [٣]

---

(١) لسان العرب (٥/ ١٣٥).

(٢) المصباح المنير (٢/ ٥٣٠).

(٣) خزانة الأدب للحموي (١/ ٣٦١).

الوجه الثاني: التكرار في كلام العرب.

لقد وقع التكرار للتأكيد في كلام العرب كثيرًا كما في قول الشاعر:

فَأَيْنَ إِلَى أَيْنَ النَّجَاةُ بِبَغْلَتِي   أَتَاكَ أَتَاكَ اللاَّحِقُّون احْبِسِ احْبِس

وقول الآخر:

كَمْ نِعْمَةٍ كانَتْ لَكُمْ   كَمْ كَمْ وكم كانَتْ وَكَمْ

إلى غير ذلك ما وقع في كلامهم مما لا تأخذه الإحاطة.[1]

وقال ابن عادل: والتكرير حسن في مثل هذا، وقال الشاعر (من البسيط):

لا تَقْتُلِي مُسْلِمًا إن كُنْتِ مُسْلمَةً   إِيَّاكِ من دمِهِ إِيَّاكِ إِيَّاكِ

وقال آخر (من المنسرح):

لا تَقْطَعَنَّ الصَّديقَ ما طَرَفَتْ   عَيْنَاكَ من قَوْلِ كَاشحٍ أَشِرِ

ولا تَمَلَّنَّ مِنْ زيَارتِهِ   زُرْهُ وَزُرْهُ وَزُرْ وَزُرْ وَزُرِ

وقال الحسين بن الفضل: التكرير طرد للغفلة، وتأكيد للحجَّة.[2]

قال الفراء: إن القرآن نزل بلغة العرب ومن عادتهم تكرار الكلام للتأكيد والإفهام فيقول المجيب: بلى بلى، الممتنع: لَا لا، وعليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾، وأنشد قوله (من الطويل):

كائن وكم عندي لهم من صنيعة   أيدي سنوها عليّ وأوجبوا

وقوله (من الرجز):

نعق الغراب ببين ليلى غدوة   كم كم وكم بفراق ليلى ينعق

وهو كثير نظمًا ونثرًا.[3]

الوجه الثالث: وسائل التكرار.

---

(١) كتاب الصناعتين للعسكري (١/ ٦٠)، وخزانة الأدب للبغدادي (٥/ ١٥٦).

(٢) تفسير اللباب (١٥/ ٣٧).

(٣) روح المعاني (٣٠/ ٢٥١).

يكون التكرار بإعادة اللفظ بعينه اسمًا كان أو فعلًا أو حرفًا كقولك مثلا: زيدٌ زيدٌ لمهذب، وكقولك: جاء جاء النذير، وكقولك: إنَّ إنَّ محمدًا آتٍ، وتارة يكون التكرار بإعادة المعنى وإن اختلف اللفظ كإعادة قصة في أكثر من مكان لفائدة كتكرار قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم.

وقد بين القزويني أن التكرير يأتي لفائدة: كتأكيد الإنذار كما في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ (التكاثر: ٣، ٤) وكزيادة التنبيه على ما ينفى التهمة ليكمل تلقى الكلام بالقبول كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩﴾ (غافر: ٣٨، ٣٩)، وقد يكرر اللفظ لطولٍ في الكلام كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١٩﴾ (النحل: ١١٩)، وقد يكرر لتعدد المتعلق كما كرره الله تعالى من قوله: ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ (الرحمن: ١٣)؛ لأنه تعالى ذكر نعمة بعد نعمة، وعقب كل نعمة بهذا القول. ومعلوم أن الغرض من ذكره عقيب نعمة غير الغرض من ذكره عقيب نعمة أخرى. (١)

الوجه الرابع: التكرار في عموم القرآن كمنهج عام، وفيه مباحث:

أولًا: من أمثلة التكرار في القرآن: كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾ (الحاقة: ١، ٢)، وكقوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ (القارعة: ١، ٢) وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾ (القدر: ١، ٢) وقوله: ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩﴾ (الواقعة: ٨، ٩)، وقوله: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧﴾ (الواقعة: ٢٧) وقوله: ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني (١٨٩) بتصرف واختصار.

﴿ ١٣ ﴾ (الرحمن: ١٣)، فقد تكررت في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة، وقوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ (المرسلات: ١٥)، فقد ذكرت في سورة المرسلات عشر مرات.

ثانيًا: من أمثلة التكرار في السنة: كقول النبي ﷺ: **" أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ. ثَلاَثًا. قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله. قَالَ: " الإِشْرَاكُ بِالله، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ "وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا، فَقَالَ: " أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ ". قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ. ".** [1]

- وقوله ﷺ: **" هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ ". قَالَهَا ثَلاَثًا.** [2]

- وقوله للرجل الذي قال: له أوصني فقال: **" لاَ تَغْضَبْ ". فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ " لاَ تَغْضَبْ ".** [3]

- وقوله: **" وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ ". مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا.** [4]

- وقوله: **" هل بلغت؟ ثلاثا"**[5]، - **وكان من هديه ﷺ "أَنَّهُ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلاَثًا حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ ".** [6]

ثالثا: فوائد التكرار في القرآن:

قال الزركشي: وقد غلط من أنكر كونه من أساليب الفصاحة ظنًا أنه لا فائدة له وليس كذلك؛ بل هو من محاسنها لاسيما إذا تعلق بعضه ببعض، وذلك أن عادة العرب في خطاباتها إذا اهتمت بشيء إرادةً لتحقيقه وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء عليه كررته توكيدًا، وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم عليه أو الاجتهاد في الدعاء عليه حيث تقصد الدعاء، وإنما نزل القرآن بلسانهم وكانت مخاطباته جارية فيما بين بعضهم وبعض. وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة، وعلى ذلك يحمل ما ورد من

---

(١) رواه البخاري (٢٥١١)، ومسلم (٩١).

(٢) رواه مسلم (٢٠٥٥).

(٣) رواه البخاري (٢٢٦٧).

(٤) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٢١٤).

(٥) رواه البخاري (٤٧)، ومسلم (٦١٨).

(٦) رواه البخاري (٤٨).

تكرار المواعظ والوعد والوعيد؛ لأن الإنسان مجبول من الطبائع المختلفة وكلها داعية إلى الشهوات، ولا يقمع ذلك إلا تكرار المواعظ والقوارع، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (القمر: ١٧).

قال الزمخشري: قوله ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ أي: سهلناه للادكار والاتعاظ؛ بأن شحناه بالمواعظ الشافية، وصرّفنا فيه من الوعد والوعيد ﴿فَهَلْ مِن﴾ متعظ، وقيل: ولقد سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه، فهل من طالب لحفظه ليعان عليه. (١)

ثم تارة يكون التكرار مرتين كقوله تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (المدثر: ١٩- ٢٠)، وقوله: ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴾ (القيامة: ٣٤- ٣٥)، وقوله: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (التكاثر: ٣- ٤)وقوله: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ (التكاثر: ٦- ٧)، وقد أخبر الله سبحانه بالسبب الذي لأجله كرر الأقاصيص والأخبار في القرآن: فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (القصص: ٥١)، وقوله: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ (طه: ١١٣).

وحقيقة التكرار: إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى خشية تناسي الأول لطول العهد به، فإن أعيد لا لتقرير المعنى السابق لم يكن منه كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ (الزمر: ١١- ١٥) فأعاد قوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ ﴾ بعد: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ ﴾؛ لأنه لم يأتِ لتقرير الأول، بل لغرض آخر؛ لأن معنى الأول الأمر بالإخبار أنه مأمور بالعبادة لله والإخلاص له فيها. ومعنى الثاني أنه يخص الله وحده دون غيره بالعبادة والإخلاص، ولذلك قدم المفعول على فعل العبادة في الثاني.

(١) الكشاف للزمخشري (٦/ ٤٥٢).

واعلم أنه إنما يحسن سؤال الحكمة عن التكرار إذا خرج عن الأصل. أما إذا وافق الأصل فلا، ولهذا لا يتجه سؤالهم لمَ كرر إياك في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ (الفاتحة: ٥) فقيل: إنما كررت للتأكيد.

فوائد التكرار بوجه عام:

أحدها: التأكيد. واعلم أن التكرير أبلغ من التأكيد؛ لأنه وقع في تكرار التأسيس وهو أبلغ من التأكيد؛ فإن التأكيد يقرر إرادة معنى الأول وعدم التجوز؛ فإن الثانية تأسيس لا تأكيد؛ لأنه جعل الثانية أبلغ في الإنشاء.

الثاني: زيادة التنبيه على ما ينفى التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول.

الثالث: إذا طال الكلام وخشي تناسى الأول أعيد ثانيًا تطرية له وتجديدًا لعهده، كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ﴾ (النحل: ١١٠) ثم أعاد فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١١٩﴾ (النحل: ١١٩)، ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . . . ﴾ ثم قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ (البقرة: ٨٩)، فهذا تكرار للأول.

الرابع: في مقام التعظيم والتهويل كقوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ﴾ (الحاقة: ١، ٢)، وقال: ﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ (القارعة: ١، ٢)، وقال: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ (القدر: ١، ٢)، وقوله: ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ (الواقعة: ٨، ٩)، وقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (الواقعة: ٢٧)، وقوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ (المدثر: ٣١).

الخامس: في مقام الوعيد والتهديد كقوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (التكاثر: ٣- ٤)، وذكر ﴿ ثُمَّ ﴾ في المكرر دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ

من الأول، وفيه تنبيه على تكرر ذلك مرة بعد أخرى، وإن تعاقبت عليه الأزمنة لا يتطرق إليه تغيير بل هو مستمر دائمًا.

السادس: التعجب. كقوله تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠﴾ (المدثر: ١٩-٢٠) فأعيد تعجبًا من تقديره وإصابته الغرض على حد قولهم: قاتله الله ما أشجعه.

السابع: لتعدد المتعلق. كما في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ (الرحمن: ١٣)، فإنها وإن تعددت فكل واحد منها متعلق بما قبله، وإن الله تعالى خاطب بها الثقلين من الإنس والجن، وعدد عليهم نعمه التي خلقها لهم، فكلما ذكر فصلًا من فصول النعم طلب إقرارهم واقتضاهم بالشكر عليها، وهي أنواع مختلفة وصور شتى. فإن قيل: فإذا كان المعنى في تكريرها عد النعم واقتضاء الشكر عليها فما معنى قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥﴾ (الرحمن: ٣٥) وأي نعمة هنا، وإنما هو وعيد؟ قيل: إن نعم الله فيما أنذر به وحذر من عقوباته على معاصيه ليحذروها، فيرتدعوا عنها نظير أنعمه على ما وعده وبشر من ثوابه على طاعته؛ ليرغبوا فيها ويحرصوا عليها، وإنما تتحقق معرفة الشيء بأن تعتبره بضده والوعد والوعيد وإن تقابلا في ذواتها، فإنهما متقاربان في موضع النعم بالتوقيت على ملاك الأمر منها. وعليه يحمل قول بعض حكماء الشعراء:

والحادثات وإن أصابك بؤسها ... فهو الذي أنباك كيف نعيمها

وإنما ذكرنا هذا؛ لتعلم الحكمة في كونها زادت على ثلاثة، ولو كان عائدًا لشيء واحد لما زاد على ثلاثة؛ لأن التأكيد لا يقع به أكثر من ثلاثة، فإن قيل: فإذا كان المراد بكلٍ ما قبله، فليس ذلك بإطناب، بل هي ألفاظ أريد بها غير ما أريد بالآخر!

قلت: إن قلنا: العبرة بعموم اللفظ؛ فكل واحد أريد به غير ما أريد بالآخر. وقد تكلف لتوجيه العدّة التي جاءت عليها هذه الآية مكررة، **قال الكرماني**: جاءت آية واحدة في هذه السورة كررت نيفًا وثلاثين مرة؛ لأن ست عشرة راجعة إلى الجنان لأن لها ثمانية أبواب، وأربعة عشر منها راجعة إلى النعم والنقم، فأعظم النقم جهنم ولها سبعة

أبواب، وجاءت سبعة في مقابلة تلك الأبواب، وسبعة عقب كل نعمة ذكرها للثقلين. وقال غيره: نبه في سبع منها على ما خلقه الله للعباد من نعم الدنيا المختلفة على عدة أمهات النعم، وأفرد سبعًا منها للتخويف وإنذارًا على عدة أبواب المخوف منه، وفصل بين الأول والسبع الثواني بواحدة سوّى فيها بين الخلق كلهم فيما كتبه عليهم من الفناء حيث اتصلت بقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ (الرحمن: ٢٦)، فكانت خمس عشرة أُتبعت بثمانية في وصف الجنان وأهلها على عدة أبوابها، ثم بثمانية أخر في وصف الجنتين اللتين من دون الأوليين لذلك أيضًا، فاستكملت إحدى وثلاثين.

ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ (المرسلات: ١٥)، فقد ذكرت في سورة المرسلات عشر مرات؛ لأنه سبحانه ذكر قصصًا مختلفة، وأتبع كل قصة بهذا القول، فصار كأنه قال عقب كل قصة: ويل للمكذبين بهذه القصة، وكل قصة مخالفة لصاحبتها، فأثبت الويل لمن كذب بها. ويحتمل أنه لما كان جزاء الحسنة بعشر أمثالها، جعل للكفار في مقابلة كل مثل من الثواب ويلًا.

ومنه قوله في سورة الشعراء: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ (الشعراء: ٦٧)، ومنه تكرار الإضراب. واعلم أن بل إذا ذكرت بعد كلام موجب فمعناها الإضراب، وهو إما أن يقع في كلام الخلق؛ ومعناه: إبطال ما سبق على طريق الغلط من المتكلم؛ وإما أن يقع في كلام الله تعالى وهو ضربان:

أحدهما: أن يكون ما فيها من الرد راجعًا إلى العباد؛ كقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ (الأنبياء: ٥).

والثاني: أن يكون إبطالًا، ولكنه على أنه قد انقضى وقته، وأن الذي بعده أولى بالذكر، كقوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ (النمل: ٦٦)، و: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ (ص: ٨)، وزعم ابن مالك في شرح الكافية أن ﴿بَلِ﴾ حيث وقعت في القرآن، فإنها

للاستئناف لغرض آخر، لا لإبطال الأول؛ وهو مردود بما سبق وبقوله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦﴾ (الأنبياء: ٢٦)، فأضرب بها عن قولهم وأبطل كذبهم. وقوله: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ (الشعراء: ١٦٦) إن أضرب بها عن حقيقة إتيانهم الذكور وترك الأزواج. ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾ (الطلاق: ٢).

ومنه تكرار القصص في القرآن كقصة إبليس في السجود لآدم، وقصة موسى وغيره من الأنبياء. قال بعضهم: ذكر الله موسى في مائة وعشرين موضعًا من كتابه. قال ابن العربي في "القواصم": ذكر الله قصة نوح في خمسة وعشرين آية، وقصة موسى في سبعين آية؛ **وإنما كررها لفائدة خلت عنه في الموضع الآخر وهي أمور:**

أحدها: أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئا، ألا ترى أنه ذكر الحية في عصا موسى عليه السلام وذكرها في موضع آخر ثعبانًا، ففائدته أن ليس كل حية ثعبانًا، وهذه عادة البلغاء أن يكرر أحدهم في آخر خطبته أو قصيدته كلمة لصفة زائدة.

الثانية: أن الرجل كان يسمع القصة من القرآن، ثم يعود إلى أهله، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل بعد صدور الأولين، وكان أكثر من آمن به مهاجريًا فلولا تكرر القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى آخرين، وكذلك سائر القصص، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجميع فيها فيكون فيه إفادة القوم وزيادة تأكيد وتبصرة لآخرين وهم الحاضرون، وعبر عن هذا ابن الجوزي وغيره.

الثالثة: تسليته لقلب النبي ﷺ مما اتفق للأنبياء مثله مع أممهم قال تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ (هود: ١٢٠).

الرابعة: إن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة لا يخفى ما فيه من الفصاحة.

الخامسة: أن الدواعي لا تتوفر على نقلها كتوفرها على نقل الأحكام، فلهذا كررت القصص دون الأحكام.

السادسة: أن الله تعالى أنزل هذا القرآن، وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية لصحة نبوة محمدﷺ، ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم؛ بأن كرر ذكر القصة في مواضع، إعلامًا بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاءوا بأي عبارة عبروا. قال ابن فارس: وهذا هو الصحيح.

السابعة: أنه لما سخر العرب بالقرآن قال: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٣)، وقال في موضع آخر: ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ (هود: ١٣)، فلو ذكر قصة آدم مثلًا في موضع واحد واكتفى بها لقال العربي بما قال الله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ إيتونا أنتم بسورة من مثله، فأنزلها سبحانه في تعداد السور دفعًا لحجتهم من كل وجه.

الثامنة: أن القصة الواحدة من هذه القصص كقصة موسى مع فرعون -وإن ظن أنها لا تغاير الأخرى -فقد يوجد في ألفاظها زيادة ونقصان وتقديم وتأخير وتلك حال المعاني الواقعة بحسب تلك الألفاظ، فإن كل واحدة لا بد وأن تخالف نظيرتها من نوع معنى زائد فيه، لا يوقف عليه إلا منها دون غيرها، فكأن الله تعالى فرق ذكر ما دار بينهما وجعله أجزاء، ثم قسم تلك الأجزاء على تارات التكرار؛ لتوجد متفرقة فيها، ولو جمعت تلك القصص في موضع واحد لأشبهت ما وجد الأمر عليه من الكتب المتقدمة، من انفراد كل قصة منها بموضع كما وقع في القرآن بالنسبة ليوسف عليه السلام خاصة.

فاجتمعت في هذه الخاصية من نظم القرآن عدة معان عجيبة:

منها: أن التكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يوقع في اللفظ هجنة ولا أحدث مللًا، فباين بذلك كلام المخلوقين.

ومنها: أنه ألبسها زيادة ونقصانًا وتقديمًا وتأخيرًا؛ ليخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه واحدة بأعيانها فيكون شيئًا معادًا، فنزهه عن ذلك بهذه التغييرات.[1]

وقال الرازي: إن فائدة التكرير التقرير، وأما هذا العدد الخاص، فالأعداد توقيفية لا تطلع على تقدير المقدرات أذهان الناس. والأولى أن لا يبالغ الإنسان في استخراج الأمور البعيدة في

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/ ٢٧) بتصرف كبير.

كلام الله تعالى تمسكًا بقول عمر ﷺ حيث قال مع نفسه عند قراءته سورة عبس: كل هذا قد عرفناه فما الأبُّ؟ ، ثم رفع عصا كانت بيده وقال: هذا لَعمْرُ الله هو التكلُّف، وما عليك يا عمر أن لا تدري ما الأبُّ؟ ، ثم قال: اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه. [١]

وقال سعيد النورسي: إن قلت: إن في القرآن الموجز المعجز أشياء مكررة تكرارًا كثيرًا في الظاهر كـ(البسملة)، و﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾، و﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ وقصة موسى وأمثالها، مع أن التكرار يُمِلُّ وينافي البلاغة.

قيل لك: مَا كُلُّ مَا يَتَلأْلأُ يُحْرِقُ، فإن التكرار قد يُمِلُّ لا مطلقًا، بل قد يُستحسن وقد يُسأم، فكمَا أن في غذاء الإنسان ما هو قُوت كلما تكرر حلا وكان آنس، وما هو تفكّه إن تكرر مُلَّ وان تجدد استُلِذّ، كذلك في الكلام ما هو حقيقة وقوت وقوّة للأفكار وغذاء للأرواح كلما استعيد استحسن واستؤنس بمألوفه كضياء الشمس، وفيه ما هو من قبيل الزينة والتفكه لذتُه في تجدّد صورتِه وتلوّن لباسه.

إذا عرفت هذا فاعلم أنه كما أن القرآن بمجموعه قوتٌ وقوّة للقلوب لا يُمَلُّ على التكرار، بل يُستحلى على الإكثار منه، كذلك في القرآن ما هو روح لذلك القوت كلما تكرر تلألأ، وفارت أشعة الحق والحقيقة من أطرافه، وفي ذلك البعض ما هوأسُّ الأساس والعقدة الحياتية والنور المتجسد بجسدٍ سرمدي كـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. . . هذا بناء على تسليم التكرار، وإلا فيجوز أن تكون قصة موسى مثلًا مذكورة في كل مقامٍ لوجهٍ مناسب من الوجوه المشتملة هي عليها، فإنّ قصة موسى أجدى من تفاريق العصا، أخذَها القرآن بيده البيضاء فضةً فصاغتها ذهبًا، فخرت سحرةُ البيان ساجدين لبلاغته وكذا في (البسملة) جهات: من الاستعانة، والتبرك، والموضوعية، بل الغايتية، والفهرستية للنقط الأساسية في القرآن.

وأيضًا فيها مقامات: كمقام التوحيد، ومقام التنزيه، ومقام الثناء، ومقام الجلال والجمال، ومقام الإحسان وغيرها.

---

(١) تفسير الرازي (١٥/ ٦٦).

وأيضًا فيها أحكام ضمنية: كالإشارة إلى التوحيد والنبوة والحشر والعدل أعني المقاصد الأربعة المشهورة، مع أن في أكثر السور يكون المقصود بالذات واحدًا منها والباقي استطراديًا، فلِمَ لا يجوز أن يكون لجهة أو حُكمٍ أو مقام منها مناسبة مخصوصة لروح السورة وتكون موضوعًا للمقام! ، بل فهرسته إجمالية باعتبار تلك الجهات والمقامات؟ (١).

وبعد: فلقد جاء التكرار في القرآن الكريم محكمًا، وقد ورد فيه كثيرًا فليس فيه موضع قد أخذ عليه. دَعْ دعاوى المغالين فإن بينهم وبين القرآن تارات؛ فهم له أعداء وإذا أحسنا الفهم لكتاب الله، فإن التكرار فيه مع سلامته من المآخذ والعيوب يؤدى وظيفتين أولاهما: من الناحية الدينية. ثانيهما: من الناحية الأدبية.

فالناحية الدينية: باعتبار أن القرآن كتاب هداية وإرشاد وتشريع لا يخلو منها فن من فنونه، وأهم ما يؤديه التكرار من الناحية الدينية هو تقرير المكرر وتوكيده وإظهار العناية به؛ ليكون في السلوك أمثَل وللاعتقاد أبْيَن. أما الناحية الأدبية فإن دور التكرار فيها متعدد، وإن كان الهدف منه في جميع مواضعه يؤدى إلى تأكيد المعاني وإبرازها في معرض الوضوح والبيان. (٢)

الوجه الخامس: التكرار في الكتاب المقدس.

إن تكرار القرآن جاء محكمًا مؤديًا غرضه في أبلغ صورة على الإطلاق، لكن عندما ننظر إلى التكرار في الكتاب المقدس نجد شيئًا مغايرًا تمامًا.

لنبدأ بسفر الجامعة فقد تكررت فيه كلمة: (تَحْتَ الشَّمْسِ) ثلاثين مرة في السفر وبطريقة لا تمت إلى البلاغة بصلة وإليك أمثلة: (مَا الْفَائِدَةُ لِلإِنْسَانِ مِنْ كُلِّ تَعَبِهِ الَّذِي يَتْعَبُهُ تَحْتَ الشَّمْسِ. رأَيْتُ كُلَّ الأَعْمَالِ الَّتِي عُمِلَتْ تَحْتَ الشَّمْسِ وَلاَ مَنْفَعَةَ تَحْتَ الشَّمْسِ ولا جديد تحت الشمس) سفر الجامعة (٢/ ٤٨٨).

وهكذا أكثر من ثلاثين مرة. وهنا لنا كلمة عن سفر الجامعة هذا وهو من الكتب الغريبة في العهد القديم، ويختلف في موضوعه وفى روحه الدينية عن بقية الأسفار ويقدم

(١) إشارات الإعجاز (١/ ٣٤).

(٢) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين (٧٧) وما بعدها.

رؤية فكرية مختلفة، بل مضادة للدين، ويعكس موقفًا سلبيًا من الحياة الإنسانية، ويفسر هذه الحياة في ضوء نظرية عبثية ترى كل الأشياء باطلة، ولا معنى للأشياء سوى التكرار الممل للأحداث فلا جديد تحت الشمس التي تتكرر بطريقة سمجة ثلاثين مرة. وهذه كلمة سلاه تكررت أكثر من ٧٠ مرة في المزامير(٢/ ٣٦٧)، والكارثة هنا أن هذه الكلمة ليس لها معنى على الإطلاق أو كما يقول القاموس معناها مشكوك فيه.

والآن قاصمة الظهر يتحدثون عن التكرار انظر الملوك الثاني الإصحاح ١٩ من بدايته

الإصْحَاحُ التَّاسِعُ عَشَرَ

١٩ ١ فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ حَزَقِيَّا ذلِكَ مَزَّقَ ثِيَابَهُ وَتَغَطَّى بِمِسْحٍ وَدَخَلَ بَيْتَ الرَّبِّ. ٢وَأَرْسَلَ أَلِيَاقِيمَ الَّذِي عَلَى الْبَيْتِ وَشَبْنَةَ الْكَاتِبَ وَشُيُوخَ الْكَهَنَةِ مُتَغَطِّينَ بِمُسُوحٍ إِلَى إِشَعْيَاءَ بْنِ آمُوصَ النَّبِيِّ. ٣فَقَالُوا لَهُ: «هكَذَا يَقُولُ حَزَقِيَّا: هذَا الْيَوْمُ يَوْمُ شِدَّةٍ وَتَأْدِيبٍ وَإِهَانَةٍ، لأَنَّ الأَجِنَّةَ دَنَتْ إِلَى الْمَوْلِدِ وَلاَ قُوَّةَ عَلَى الْوِلاَدَةِ. ٤لَعَلَّ الرَّبَّ إِلهَكَ يَسْمَعُ كَلاَمَ رَبْشَاقَى الَّذِي أَرْسَلَهُ مَلِكُ أَشُّورَ سَيِّدُهُ لِيُعَيِّرَ الإِلهَ الْحَيَّ، فَيُوَبِّخَ عَلَى الْكَلاَمِ الَّذِي سَمِعَهُ الرَّبُّ إِلهُكَ. فَارْفَعْ صَلاَةً لأَجْلِ الْبَقِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ

فجاء عبيد الملك حزقيا إلى أشعياء ٥ فَجَاءَ عَبِيدُ الْمَلِكِ حَزَقِيَّا إِلَى إِشَعْيَاءَ. ٦فَقَالَ لَهُمْ إِشَعْيَاءُ: « هكَذَا تَقُولُونَ لِسَيِّدِكُمْ: هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: لاَ تَخَفْ)، وقارن مع أشعيا الإصحاح ٣٧ من أوله:

فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ حَزَقِيَّا ذلِكَ مَزَّقَ ثِيَابَهُ وَتَغَطَّى بِمِسْحٍ وَدَخَلَ بَيْتَ الرَّبِّ. ٢ وَأَرْسَلَ أَلِيَاقِيمَ الَّذِي عَلَى الْبَيْتِ وَشَبْنَةَ الْكَاتِبَ وَشُيُوخَ الْكَهَنَةِ مُتَغَطِّينَ بِمُسُوحٍ إِلَى إِشَعْيَاءَ بْنِ آمُوصَ النَّبِيِّ. ٣ فَقَالُوا لَهُ: «هكَذَا يَقُولُ حَزَقِيَّا: هذَا الْيَوْمُ يَوْمُ شِدَّةٍ وَتَأْدِيبٍ وَإِهَانَةٍ، لأَنَّ الأَجِنَّةَ دَنَتْ إِلَى الْمَوْلِدِ وَلاَ قُوَّةَ عَلَى الْوِلاَدَةِ. ٤ لَعَلَّ الرَّبَّ إِلهَكَ يَسْمَعُ كَلاَمَ رَبْشَاقَى الَّذِي أَرْسَلَهُ مَلِكُ أَشُّورَ سَيِّدُهُ لِيُعَيِّرَ الإِلهَ الْحَيَّ، فَيُوَبِّخَ عَلَى الْكَلاَمِ الَّذِي سَمِعَهُ الرَّبُّ إِلهُكَ. فَارْفَعْ صَلاَةً لأَجْلِ الْبَقِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ».

فَجَاءَ عَبِيدُ الْمَلِكِ حَزَقِيَّا إِلَى إِشَعْيَاءَ. ٦ فَقَالَ لَهُمْ إِشَعْيَاءُ: « هكَذَا تَقُولُونَ لِسَيِّدِكُمْ: هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: لاَ تَخَفْ بِسَبَبِ الْكَلاَمِ الَّذِي سَمِعْتَهُ، الَّذِي جَدَّفَ عَلَيَّ بِهِ غِلْمَانُ مَلِكِ أَشُّورَ(سفر أشعياء٣٧/ ٦: ١).

بماذا يفسر تطابق السفرين هذا التطابق كلمة بكلمة وحرف بحرف؟ هل نسي كاتب سفر أشعيا أن كاتبًا آخر كان قد سبقه إلى تدوين نفس الكلام في سفر الملوك؟! ! ، وإليك أيضًا الكلام المتكرر، فقد تكررت الجملة: (لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.) في مزمور(١٣٦) تحديدًا ٢٦ مرةً.

١ اِحْمَدُوا الرَّبَّ لأَنَّهُ صَالِحٌ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٢ احْمَدُوا إِلهَ الآلِهَةِ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٣ احْمَدُوا رَبَّ الأَرْبَابِ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٤ الصَّانِعَ الْعَجَائِبَ الْعِظَامَ وَحْدَهُ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٥ الصَّانِعَ السَّماوَاتِ بِفَهْمٍ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٦ الْبَاسِطَ الأَرْضَ عَلَى الْمِيَاهِ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٧ الصَّانِعَ أَنْوَارًا عَظِيمَةً، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٨ الشَّمْسَ لِحُكْمِ النَّهَارِ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٩ الْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ لِحُكْمِ اللَّيْلِ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ١٠ الَّذِي ضَرَبَ مِصْرَ مَعَ أَبْكَارِهَا، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ١١ وَأَخْرَجَ إِسْرَائِيلَ مِنْ وَسَطِهِمْ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ١٢ بِيَدٍ شَدِيدَةٍ وَذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ١٣ الَّذِي شَقَّ بَحْرَ سُوفٍ إِلَى شُقَق، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ١٤ وَعَبَّرَ إِسْرَائِيلَ فِي وَسَطِهِ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ١٥ وَدَفَعَ فِرْعَوْنَ وَقُوَّتَهُ فِي بَحْرِ سُوفٍ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ١٦ الَّذِي سَارَ بِشَعْبِهِ فِي الْبَرِّيَّةِ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ١٧ الَّذِي ضَرَبَ مُلُوكًا عُظَمَاءَ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ١٨ وَقَتَلَ مُلُوكًا أَعِزَّاءَ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ١٩ سِيحُونَ مَلِكَ الأَمُورِيِّينَ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٢٠ وَعُوجَ مَلِكَ بَاشَانَ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٢١ وَأَعْطَى أَرْضَهُمْ مِيرَاثًا، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٢٢ مِيرَاثًا لإِسْرَائِيلَ عَبْدِهِ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٢٣ الَّذِي فِي مَذَلَّتِنَا ذَكَرَنَا، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٢٤ وَنَجَّانَا مِنْ أَعْدَائِنَا، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٢٥ الَّذِي يُعْطِي خُبْزًا لِكُلِّ بَشَرٍ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. ٢٦ احْمَدُوا إِلهَ السَّماوَاتِ، لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.

* * *

٧ـ شبهة: حول اختلاف المسلمين في أول ما نزل، وآخر ما نزل من القرآن الكريم.

نص الشبهة:

اختلف علماء المسلمين حول أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: المقدمة. وتحتوي على (اختلاف علماء المسلمين جائز شرعًا وعقلًا، ولا يضر؛ لأنه من النوع غير المنهي عنه).

الوجه الثاني: فوائد معرفة أول وآخر ما نزل.

الوجه الثالث: ذكر الأقوال في أول ما نزل، وبيان الراجح منها.

الوجه الرابع: ذكر الأقوال في آخر ما نزل، وبيان الراجح منها.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: الاختلاف بين العلماء.

إنّ الأصل المتفق عليه والمرجوع إليه أصل واحد، لا يختلف، هو ما جاء عن صاحب الشرعﷺ؛ إما في القران أو في قوله وفعله ﷺ. وأنه المعصوم وحده ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى. وإن هؤلاء العلماء رحمهم الله بشر ينسون كما ينسى بقية البشر، وقد يحفظ الرجل الحديث ولا يحضره ذكره حتى يفتي بخلافه. وقد يذكر الفقيه الآية أو الحديث، لكن يتأول فيهما تأويلًا من خصوص نسخ أو معني ما. ولقد كتب العلماء في أسباب الخلاف قديمًا وحديثًا وكان من أجلِّهم **شيخ الإسلام ابن تيمية**- رحمه الله تعالى- في رسالته القيمة (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، قال في مقدمته:

وَبَعْدُ: فَيَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ -بَعْدَ مُوَالَاةِ الله تعالى وَرَسُولِهِﷺ- مُوَالَاةُ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ. خُصُوصًا الْعُلَمَاءُ، الَّذِينَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ جَعَلَهُمْ الله بِمَنْزِلَةِ النُّجُومِ يُهْتَدَى بِهِمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ، إذْ كُلُّ أُمَّةٍ -قَبْلَ مَبْعَثِ نبيِّنا مُحَمَّدٍﷺ- فَعُلَمَاؤُهَا شِرَارُهَا إلَّا الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّ عُلَمَاءَهُمْ خِيَارُهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ خُلَفَاءُ الرَّسُولِ ﷺ فِي أُمَّتِهِ، والمُحيون لِمَا مَاتَ مِنْ سُنَّتِهِ. بِهِمْ قَامَ الْكِتَابُ وَبِهِ قَامُوا وَبِهِمْ نَطَقَ الْكِتَابُ وَبِهِ نَطَقُوا.

وَلْيُعْلَمَ أَنَّهُ لَيسَ أَحدٌ مِنْ الْأَئِمَّةِ -الْمَقْبُولِينَ عِنْدَ الْأُمَّةِ قَبُولًا عَامًّا- يَتَعَمَّدُ مُخَالَفَةَ رَسُولِ الله ﷺ فِي شَيْءٍ مِنْ سُنَّتِهِ؛ دَقِيقٍ وَلَا جَلِيلٍ.

فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ اتِّفَاقًا يَقِينيًّا عَلَى وُجُوبِ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ، وَعَلَى أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ مِنْ النَّاسِ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا رَسُولَ الله ﷺ، وَلَكِنْ إِذَا وُجِدَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ قَوْلٌ قَدْ جَاءَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ بِخِلَافِهِ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ عُذْرٍ فِي تَرْكِهِ. وَجَمِيعُ الْأَعْذَارِ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ:

أَحَدُهَا: عَدَمُ اعْتِقَادِهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَهُ.

وَالثَّانِي: عَدَمُ اعْتِقَادِهِ إِرَادَةَ تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ بِذَلِكَ الْقَوْلِ.

وَالثَّالِثُ: اعْتِقَادُهُ أَنَّ ذَلِكَ الْحُكْمَ مَنْسُوخٌ.

وَهَذِهِ الْأَصْنَافُ الثَّلَاثَةُ تَتَفَرَّعُ إِلَى أَسْبَابٍ مُتَعَدِّدَةٍ:

السَّبَبُ الْأَوَّلُ: أَن لا يَكُونَ الْحَدِيثُ قَدْ بَلَغَهُ. وَمَنْ لَمْ يَبْلُغْهُ الْحَدِيثُ لَمْ يُكَلَّفْ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِمُوجَبِهِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ قَدْ بَلَغَهُ -وَقَدْ قَالَ فِي تِلْكَ الْقَضِيَّةِ بِمُوجَبِ ظَاهِرِ آيَةٍ أَوْ حَدِيثٍ آخَرَ؛ أَوْ بِمُوجَبِ قِيَاسٍ؛ أَوْ مُوجَبِ اسْتِصْحَابٍ- فَقَدْ يُوَافِقُ ذَلِكَ الْحَدِيثَ تَارَةً وَيُخَالِفُهُ أُخْرَى.

وَهَذَا السَّبَبُ: هُوَ الْغَالِبُ عَلَى أَكْثَرِ مَا يُوجَدُ مِنْ أَقْوَالِ السَّلَفِ مُخَالِفًا لِبَعْضِ الْأَحَادِيثِ.

فَإِنَّ الْإِحَاطَةَ بِحَدِيثِ رَسُولِ الله ﷺ لَمْ تَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْ الْأُمَّةِ. وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحَدِّثُ؛ أَوْ يُفْتِي؛ أَوْ يَقْضِي؛ أَوْ يَفْعَلُ الشَّيْءَ؛ فَيَسْمَعُهُ أَوْ يَرَاهُ مَنْ يَكُونُ حَاضِرًا، وَأَمَّا إِحَاطَةُ وَاحِدٍ بِجَمِيعِ حَدِيثِ رَسُولِ الله ﷺ فَهَذَا لَا يُمْكِنُ ادِّعَاؤُهُ قَطُّ.

وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ الَّذِينَ هُمْ أَعْلَمُ الْأُمَّةِ بِأُمُورِ رَسولِ الله ﷺ وَسُنَّتِهِ وَأَحْوَالِهِ.

السَّبَبُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْحَدِيثُ قَدْ بَلَغَهُ لَكِنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ عِنْدَهُ، إِمَّا لِأَنَّ مُحَدِّثَهُ أَوْ مُحَدِّثَ مُحَدِّثِهِ أَوْ غَيْرَهُ مِنْ رِجَالِ الْإِسْنَادِ مَجْهُولٌ عِنْدَهُ أَوْ مُتَّهَمٌ أَوْ سَيِّئُ الْحِفْظِ.

وَإِمَّا لِأَنَّهُ لَمْ يَبْلُغْهُ مُسْنَدًا، بَلْ مُنْقَطِعًا؛ أَوْ لَمْ يَضْبطْ لَفْظَ الْحَدِيثِ مَعَ أَنَّ ذَلِكَ الْحَدِيثَ قَدْ رَوَاهُ الثِّقَاتُ لِغَيْرِهِ بِإِسْنَادٍ مُتَّصِلٍ بِأَنْ يَكُونَ غَيْرُهُ يَعْلَمُ مِنْ الْمَجْهُولِ عِنْدَهُ الثِّقَةَ، أَوْ يَكُونُ قَدْ

رَوَاهُ غَيْرُ أُولَئِكَ الْمَجْرُوحِينَ عِنْدَهُ؛ أَوْ قَدْ اتَّصَلَ مِنْ غَيْرِ الْجِهَةِ الْمُنْقَطِعَة وَقَدْ ضَبَطَ أَلْفَاظَ الْحَدِيثِ بَعْضُ الْمُحَدِّثِينَ الْحُفَّاظِ؛ أَوْ لِتِلْكَ الرِّوَايَةِ مِنْ الشَّوَاهِدِ وَالْمُتَابَعَاتِ مَا يُبَيِّنُ صِحَّتَهَا.

السبب الثالث: اعتقاد ضعف الحديث باجتهاد قد خالفه فيه غيره، مع قطع النظر عن طريق آخر سواء كان الصواب معه أو مع غيره.

وقد شرح -رحمه الله- أسباب الخلاف كلها كما ذكر الأمثلة على ذلك. (١)

الوجه الثاني: فوائد معرفة أول وآخر ما نزل من القرآن.

قال الزرقاني: من فوائد الإلمام بأول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن فوائد، ومنها:

أولًا: تمييز الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات على موضوع واحد، وكان الحكم في إحدى هذه الآيات يغاير الحكم في الأخرى.

ثانيًا: معرفة تاريخ التشريع الإسلامي، ومراقبة سيره التدريجي، والوصول من وراء ذلك إلى حكمة الإسلام وسياسته في أخذه الناس بالهوادة والرفق والبعد بهم عن غوائل الطفرة والعنف سواء في ذلك هدم ما مردوا عليه من باطل وبناء ما لم يحيطوا بعلمه من حق.

ثالثًا: هي إظهار مدى العناية التي أحيط بها القرآن الكريم حتى عرف فيه أول ما نزل وآخر ما نزل، كما عرف مكيه ومدنيه وسفريه وحضريه إلى غير ذلك، ولا ريب أن هذا مظهر من مظاهر الثقة به ودليل على سلامته من التغيير والتبديل ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (يونس: ٦٤)(٢).

الوجه الثالث: ذكر الأقوال في أول ما نزل، وبيان الراجح منها.

اختلف المسلمون في أول ما نزل من القرآن على أقوال:

القول الأول: أن أول ما نزل قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ. . . ﴾.

فعن عائشة قالت: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام (٨-٢٠).

(٢) مناهل العرفان ١/ ٧٧: ٧٦.

فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ- قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ قَالَ: " **مَا أَنَا بِقَارِئٍ. . . . . - حَتَّى بَلَغَ-، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ:** ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)﴾ حتى بلغ ﴿**عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. .** ﴾ ". [1]

وقوله: " ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)﴾ هَذَا دَلِيل صَرِيح فِي أَنَّ أَوَّل مَا نَزَلَ مِنْ الْقُرْآن ﴿اقْرَأْ﴾،

وَهَذَا هُوَ الصَّوَاب الَّذِي عليهِ الْجَمَاهِير مِنْ السَّلَف وَالْخَلَف. [2]

وقال ابن بطال في شرحه: وقوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ يدل على أنها أول ما نزل من القرآن. [3]

وعن أبي رجاء العطاردي قال: كان أبو موسي يقرئنا فيجلسنا حلقًا عليه ثوبان أبيضان، فإذا تلا هذه السورة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)﴾ قال: هذه أول سورة أنزلت على محمدﷺ[4]، وهو قول مجاهد[5]، وقول عبيد بن عمير. [6]

القول الثاني: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١)﴾.

عن يَحْيَى يَقُولُ: سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ قَبْلُ؟ قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١)﴾، فَقُلْتُ: أَوْ اقْرَأْ فَقَالَ: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ أَيُّ الْقُرْآنِ أُنْزِلَ قَبْلُ؟ قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ

---

(١) رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٢) شرح النووي (١/ ٤٨٠).

(٣) شرح ابن بطال (١/ ١٠).

(٤) المستدرك (٢/ ٢٢٠)، وهذا لفظ الحاكم، وقال: هذا حديث صحيح علي شرط الشيخين ولم يخرجاه، وابن أبي شيبة (٧/ ١٩٥) عن وكيع بن الجراح عن قرة بن خالد عن أبي رجاء العطاردي قال: أخذت من أبي موسى، **وإسناده صحيح.**

(٥) ابن أبي شيبة (٣٠٢١٧)**والإسناد إليه صحيح**، ورواه عن مجاهد عبد الله بن أبي نجيح. قال عنه في التقريب: ثقة رمي بالقدر وربما دلس.

(٦) رواه ابن أبي شيبة (٣٥٨١٣) قال: حدثنا وكيع عن سفيان عن أبي نجيح عن مجاهد.

﴿١﴾، فَقُلْتُ: أَوْ اقْرَأْ؟ قَالَ جَابِرٌ: أُحَدِّثُكُمْ مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: "جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ شَهْرًا، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي نَزَلْتُ فَاسْتَبْطَنْتُ بَطْنَ الْوَادِي، فَنُودِيتُ فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرَ أَحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ فَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَ أَحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا هُوَ عَلَى الْعَرْشِ فِي الْهَوَاءِ -يَعْنِي جِبْرِيلَ عليه السلام-، فَأَخَذَتْنِي رَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي، فَدَثَّرُونِي فَصَبُّوا عليّ مَاءً، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾"(المدثر: ١-٤). [(١)]

وعن جابر رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ، فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: " فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾". [(٢)]

قال النووي: وأما قول من قال: إِنَّ أَوَّلَ مَا أُنْزِلَ قَوْله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾: فَضَعِيف، بَلْ بَاطِل، وَالصَّوَاب أَنَّ أَوَّل مَا أُنْزِلَ عَلَى الْإِطْلَاق ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي حَدِيث عَائِشَة رضي الله عنها. [(٣)]

وَأَمَّا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾، فَكَانَ نُزُولهَا بَعْد فَتْرَة الْوَحْي، كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي رِوَايَة الزُّهْرِيّ عَنْ أَبِي سَلَمَة عَنْ جَابِر، وَالدَّلَالَة صَرِيحَة فِيهِ فِي مَوَاضِع مِنْهَا: قَوْله: (وَهُوَ يُحَدِّث عَنْ فَتْرَة الْوَحْي إِلَى أَنْ قَالَ: فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾، وَمِنْهَا، قَوْله ﷺ: " فَإِذَا الْمَلَك الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاء "، ثُمَّ قَالَ: فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾.

وَمِنْهَا قَوْله: " ثُمَّ تَتَابَعَ الْوَحْي "يَعْنِي بَعْد فَتْرَته. فَالصَّوَاب أَنَّ أَوَّل مَا نَزَلَ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وَأَنَّ أَوَّل مَا نَزَلَ بَعْد فَتْرَة الْوَحْي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾. [(٤)]

---

(١) رواه البخاري (٤٩٢٤)، ومسلم (٢٥٧).

(٢) رواه البخاري (٣٢٣٨).

(٣) المستدرك (٢٨٧٣)، وتقدم تخريجه.

(٤) شرح النووي على مسلم (١/ ٤٨٥).

وقال السيوطي: أما قول من قال إن أول ما نزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ فأجابوا عنه بأجوبة:

أولًا: أن السؤال في حديث جابر كان عن نزول سورة كاملة، فبين أن سورة المدثر نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة: (**اقرأ**)، فإنها أول ما نزل منها صدرها.

ثانيًا: أن مراد جابر بالأولية أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي لا أولية مطلقة.

ثالثًا: أن المراد أولية مخصوصة بالإنذار، وعبر بعضهم عن هذا بقوله: أول ما نزل للنبوة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، وأول ما نزل للرسالة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾.

رابعًا: إن المراد أول ما نزل بسبب متقدم، وهو ما وقع من التدثر الناشئ عن الرعب، وأما اقرأ فنزلت ابتداء بغير سبب متقدم.

خامسًا: أن جابرًا استخرج ذلك باجتهاده وليس هو من روايته، فتقدم عليه رواية عائشة.[1]

وجمع بعضهم بين القولين الأولين بأن قال: يمكن أن يقال أول ما نزل من التنزيل في تنبيه الله على صفة خلقه ﴿ٱقْرَأْ﴾. وأول ما نزل من الأمر بالإنذار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾.[2]

القول الثالث: سورة الفاتحة.

واستدلوا بحديث عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: " **إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، فقد والله خشيت أن يكون هذا أمرًا، فقالت: معاذ الله ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث، فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له وقالت: اذهب مع محمد إلى ورقة، فانطلقا فقصا عليه فقال: إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي يا محمد، يا محمد، فأنطلق هاربًا في الأفق، فقال: لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتني فأخبرني، فلما خلا ناداه: يا محمد، قل:** ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ **حتى بلغ** ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.[1]

---

(١) الإتقان (١/ ٧٠: ٦٩) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٧٨).

(٢) عمدة القاري (١/ ٦٢).

ويُجاب عنه: بأن الحديث ضعيف لا يثبت ولا يقاوم ما ثبت في الصحيح كما تقدم.

قال النووي: وَأَمَّا قَوْل مَنْ قَالَ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ: أَوَّل مَا نَزَلَ الْفَاتِحَة، فَبُطْلَانه أَظْهَر مِنْ أَنْ يُذْكَر، وَاللهُ أَعْلَم. (٢)

وأبعد من قال أن أول ما نزل الفاتحة، بل هو شاذ. (٣)

القول الرابع: سورة من المفصل.

واستدلوا بحديث عائشة قالت: (**أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنْ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ**). (٤)

هَذَا ظَاهِره مُغَايِر لِمَا تَقَدَّمَ أَنَّ أَوَّل شَيْء نَزَلَ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، وَلَيْسَ فِيهَا ذِكْر الْجَنَّة وَالنَّار، فَلَعَلَّ " مِنْ " مُقَدَّرَة أَيْ مِنْ أَوَّل مَا نَزَلَ، أَوْ الْمُرَاد سُورَة الْمُدَّثِّر فَإِنَّهَا أَوَّل مَا نَزَلَ بَعْد فَتْرَة الْوَحْي وَفِي آخِرهَا ذِكْر الْجَنَّة وَالنَّار، فَلَعَلَّ آخِرهَا نَزَلَ قَبْل نُزُول بَقِيَّة سُورَة اِقْرَأْ، فَإِنَّ الَّذِي نَزَلَ أَوَّلًا مِنْ اِقْرَأْ كَمَا تَقَدَّمَ خَمْس آيَات فَقَطْ. (٥)

الخلاصة:

من تحرير الأقوال السابقة يتضح أن القول في أول ما نزل هو:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ إلى الآية الخامسة، ثم فتر الوحي، ثم أنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾، وقد بينا ذلك بالأدلة وكلام العلماء عليها، والله أعلم.

الوجه الرابع: ذكر الأقوال في آخر ما نزل، وبيان الراجح منها.

القول الأول: آخر ما نزل آية الربا

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٥٩: ١٥٨)، وقال: هذا منقطع، فإن كان محفوظًا فيحتمل أن يكون خبرًا عن نزولها بعد ما نزلت عليه﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، و﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، والله أعلم، ووجه الانقطاع أن عمرو بن شرحبيل تابعي لم يدرك زمان الرسول ﷺ.

(٢) شرح النووي (١/ ٤٨٥).

(٣) عمدة القاري (١/ ٦٢).

(٤) رواه البخاري (٤٩٩٣).

(٥) فتح الباري (٨/ ٦٥٧)، وانظر الإتقان (١/ ٧١.)

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ آيَةُ الرِّبَا. [(١)]

أورد البخاري هذا الحديث هنا؛ لأنه أَرَادَ أَنْ يَجْمَع بَيْنَ قَوْلَيْ اِبْن عَبَّاس، فَإِنَّهُ جَاءَ عَنْهُ ذَلِكَ مِنْ هَذَا الْوَجْه، وَجَاءَ عَنْهُ مِنْ وَجْه آخَر: آخِر آيَة نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيّ ﷺ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٨١). [(٢)(٣)]

وَاعْتَرَضَهُ الدَّاوُدِيُّ فَقَالَ: هَذَا إِمَّا أَنْ يَكُون وَهْمًا، وَإِمَّا أَنْ يَكُون اِخْتِلَافًا عَنْ اِبْن عَبَّاس، لِأَنَّ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْمُصَنِّف فِي التَّفْسِيرِ عَنْهُ فِيهِ التَّنْصِيص عَلَى أَنَّ آخِر آيَةٍ نَزَلَتْ قَوْله تَعَالَى ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾. الْآيَة، قَالَ: فَلَعَلَّ النَّاقِلَ وَهِمَ لِقُرْبِهَا مِنْهَا.

وَتَعَقَّبَهُ اِبْن التِّين بِأَنَّهُ هُوَ الْوَاهِمُ؛ لِأَنَّ مِنْ جُمْلَةِ الْآيَاتِ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا الْبُخَارِيُّ فِي التَّرْجَمَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾. [(٤)]، وَهِيَ آخِر آيَةٍ ذَكَرَهَا لِقَوْلِهِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وَإِلَيْهَا أَشَارَ بِقَوْلِهِ هَذِهِ آخِرُ آيَةٍ أُنْزِلَتْ.

وَكَأَنَّ الْبُخَارِيَّ أَرَادَ بِذِكْرِ هَذَا الْأَثَرِ عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ تَفْسِير قَوْل عَائِشَة: (لَمَّا نَزَلَتْ الْآيَاتُ مِنْ آخِر سُورَةِ الْبَقَرَةِ). [(٥)]

القول الثاني: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٨١).

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: آخر شيء نزل من القرآن ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾. [(٦)]

واعترض الداودي علي القول الأول وقال: هَذَا إِمَّا أَنْ يَكُون وَهْمًا، وَإِمَّا أَنْ يَكُون اِخْتِلَافًا عَنْ اِبْن عَبَّاس، لِأَنَّ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْمُصَنِّف فِي التَّفْسِيرِ عَنْهُ فِيهِ التَّنْصِيصُ عَلَى أَنَّ

---

(١) رواه البخاري (٤٥٤٤).

(٢) رواه النسائي في الكبرى (١١٠٥٧)ثنا الحسين بن حريث، نا الفضل بن موسى، عن الحسين بن واقد، عن يزيد، عن عكرمة، عن ابن عباس، **وإسناده صحيح إلى ابن عباس**.

(٣) فتح الباري (٨/ ٥٣).

(٤) فتح الباري (٨/ ٥٢).

(٥) السابق (٤/ ٣٦٨).

(٦) رواه النسائي في الكبرى (١١٠٥٧)، وقد سبق تخريجه.

آخِرَ آيَةٍ نَزَلَتْ قَوْله تعالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾الآيَة، قَالَ: فَلَعَلَّ النَّاقِلَ وَهِمَ لِقُرْبِهَا مِنْهَا. اِنْتَهَى. وَتعقَّبهُ اِبْن التِّين بِأَنَّهُ هُوَ الْوَاهِمُ. لِأَنَّ مِنْ جُمْلَةِ الْآيَاتِ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا الْبُخَارِيُّ فِي التَّرْجَمَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾الْآيَة، وَهِيَ آخِر آيَةٍ ذَكَرَهَا لِقَوْلِهِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وَإِلَيْهَا أَشَارَ بِقَوْلِهِ: هَذِهِ آخِرُ آيَةٍ أُنْزِلَتْ. (١)

القول الثالث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾:

عَنْ الْبَرَاءِ ﷺ قَالَ: آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ كَامِلَةً بَرَاءَةٌ، وَآخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ خَاتِمَةُ سُورَةِ النِّسَاءِ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾. (٢)

قال ابن حجر: أَمَّا الْآيَة فَتَقَدَّمَ حَدِيث اِبْن عَبَّاس فِي سُورَة الْبَقَرَة، وَأَنَّ آخِر آيَة نَزَلَتْ آيَة الرِّبَا، وَيُجْمَع بِأَنَّهُمَا لَمْ يَنْقُلَاهُ، وَإِنَّمَا ذَكَرَاهُ عَنْ اِسْتِقْرَاء بِحَسَبِ مَا اِطَّلَعَا عَلَيْهِ، وَأَوْلَى مِنْ ذَلِكَ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا أَرَادَ آخِرِيَّةً مَخْصُوصَة، وَأَمَّا السُّورَة فَالْمُرَاد بَعْضهَا أَوْ مُعْظَمهَا وَإِلَّا فَفِيهَا آيَات كَثِيرَة نَزَلَتْ قَبْلَ سَنَة الْوَفَاة النَّبَوِيَّة، وَأَوْضَحُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَوَّل بَرَاءَة نَزَلَ عَقِبَ فَتْح مَكَّةَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ عَامَ حَجِّ أَبِي بَكْر وَقَدْ نَزَلَ ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وَهِيَ فِي الْمَائِدَة فِي حَجَّة الْوَدَاع سَنَةَ عَشْرٍ، فَالظَّاهِر أَنَّ الْمُرَاد: مُعْظَمهَا، وَلَا شَكَّ أَنَّ غَالِبهَا نَزَلَ فِي غَزْوَة تَبُوكَ وَهِيَ آخِرُ غَزَوَات النَّبِيِّ ﷺ. (٣)

القول الرابع: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾﴾:

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُتْبَةَ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: تَعْلَمُ آخِرَ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنْ الْقُرْآنِ نَزَلَتْ جَمِيعًا؟ قُلْتُ: نَعَمْ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾﴾، قَالَ: صَدَقْتَ. (٤)

---

(١) فتح الباري (٤/ ٣٦٨).

(٢) رواه البخاري (٤٦٥٤، ٤٣٦٤)، ومسلم (١٦١٨).

(٣) فتح الباري (٨/ ١٦٧).

(٤) رواه مسلم (٣٠٢٤).

قال ابن حجر: وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِير بَرَاءَة أَنَّهَا آخِر سُورَة نَزَلَتْ. وَالْجَمْع بَيْنهمَا: أَنَّ آخِرِيَّة سُورَة النَّصْر نُزُولهَا كَامِلَة، بِخِلَافِ بَرَاءَة كَمَا تَقَدَّمَ تَوْجِيهه. (١)

فائدة: الجمع بين الأقوال:

مما سبق يتبين أن القول في آخر آية نزلت يدور حوله ثلاثة أقوال:

الأول: آية الربا.

الثاني: آية ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

الثالث: آية ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ﴾.

وأما السور فالقول يدور حول قولين:

الأول: سورة براءة.

الثاني: سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾.

وطريقة الجمع هي:

أولًا: بالنسبة للآيات:

وطريق الجمع بين قول: (آية الربا)، وآية ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

أن آية الربا هي ختام الآيات المنزلة في الربا إذ هي معطوفة عليهن.

وأما آية ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ﴾، فَيُجْمَع بَيْنه وَبَيْن قَوْل اِبْن عَبَّاس بِأَنَّ الْآيَتَيْنِ نَزَلَتَا جَمِيعًا، فَيَصْدُق أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا آخِر بِالنِّسْبَةِ لِمَا عَدَاهُمَا، وَيَحْتَمِل أَنْ تَكُون الْآخِرِيَّةُ فِي آيَة النِّسَاء مُقَيَّدَة بِمَا يَتَعَلَّق بِالْمَوَارِيثِ مَثَلًا، بِخِلَافِ آيَة الْبَقَرَة، وَيَحْتَمِل عكسه، وَالْأَوَّل أَرْجَح لِمَا فِي آيَة الْبَقَرَة مِنْ الْإِشَارَة إِلَى مَعْنَى الْوَفَاة الْمُسْتَلْزِمَة لِخَاتِمَةِ النُّزُول. (٢)

وَيُجْمَع أيضًا بين القولين الأولين: بأنهما لَمْ يَنْقُلَاهُ، وَإِنَّمَا ذَكَرَاهُ عَنْ اِسْتِقْرَاء بِحَسَبِ مَا اِطَّلَعَا عَلَيْهِ، وَأَوْلَى مِنْ ذَلِكَ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا أَرَادَ آخِرِيَّةً مَخْصُوصَة. (٣)

---

(١) فتح الباري (٨/ ٦٠٦).

(٢) فتح الباري (٨/ ٥٣).

(٣) السابق (٨/ ١٦٧).

فبذلك نكون قد استبعدنا القول الثالث وهو أن آخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ . . ﴾ ويكون الجمع بين القولين الأولين من وجوه:

أولًا: أن آية الربا هي ختام الآيات المنزلة في الربا إذ هي معطوفة عليهن.

ثانيًا: أن ابن عباس والبراء لم ينقلا هذين القولين، وَإِنَّمَا ذَكَرَاهُ عَنْ اِسْتِقْرَاء بِحَسَبِ مَا اطَّلَعَا عَلَيْهِ.

ثالثا: أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا أَرَادَ آخِرِيَّةً مَخْصُوصَة.

وقال ابن حجر: وَأَصَحُّ الْأَقْوَال فِي آخِرِيَّةِ الْآيَة قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾. [1]

وهذا هو الراجح إن شاء الله؛ لأن آية الربا هي آخر ما نزل بالنسبة لآيات الربا، أو لعلهما نزلتا جميعًا وتكون ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بعدها.

وأما القول في آخرية ما نزل من السور

فقلنا أن هذا القول يدور حول قولين: سورة براءة، وسورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾.

قال ابن حجر: وَأَمَّا سُورَة (براءة) فَالْمُرَاد بَعْضهَا أَوْ مُعْظَمهَا، وَإِلَّا فَفِيهَا آيَات كَثِيرَة نَزَلَتْ قَبْلَ سَنَة الْوَفَاة النَّبَوِيَّة، وَأَوْضَحُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَوَّل بَرَاءَة نَزَلَ عَقِبَ فَتْح مَكَّة فِي سَنَةِ تِسْعٍ عَامَ حَجِّ أَبِي بَكْر، وَقَدْ نَزَلَ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾، وَهِيَ فِي الْمَائِدَة فِي حَجَّة الْوَدَاع سَنَةَ عَشْرٍ، فَالظَّاهِر أَنَّ الْمُرَاد مُعْظَمُهَا، وَلَا شَكَّ أَنَّ غَالِبهَا نَزَلَ فِي غَزْوَة تَبُوكَ وَهِيَ آخِرُ غَزَوَات النَّبِيّ ﷺ. [2]

فيكون الجمع بين القولين: أن آخرية سورة النصر نزولها كاملة بخلاف براءة كما تقدم توجيهه. [3]

---

(١) السابق (٨/ ١٦٧).

(٢) فتح الباري (٨/ ١٦٧).

(٣) السابق (٨/ ٦٠٦: ٦٠٥).

ويجمع بين هذه الاختلافات إن صحت بأن كل واحد أجاب بما عنده، وهذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبيﷺ، وكل قاله بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن. ويحتمل أن كلًا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل، وغيره سمع منه بعد ذلك وإن لم يسمعه هو، ويحتمل أيضًا أن تنزل هذه الآية التي هي آخر آية تلاها الرسولﷺمع آيات نزلت معها، فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك، فيظن أنه آخر ما نزل في الترتيب. [1]

الخلاصة:

نقول إن القول في آخر ما نزل ليس فيه شئ مرفوع إلي النبيﷺ، وما قاله الصحابة هو ضرب من الاجتهاد وغلبة الظن، وقد رجح ابن حجر بأن آخر ما نزل ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾.

وقلنا أنه يمكن الجمع بين هذه الآية، وآية الربا كما تقدم. والله أعلم.

* * *

(١) الإتقان (١/ ٨٠: ٧٩).

٨ـ شبهة: حول اختلاف المسلمين في المكي والمدني.

نص الشبهة:

يوجد اختلاف بين المسلمين في المكي والمدني.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: معرفة المكي والمدني وفوائده، وأن الاختلاف في ذلك لا يضر.

الوجه الثاني: سبب الاختلاف في المكي والمدني.

الوجه الثالث: اختلاف العلماء ليس منهيًا عنه في مثل هذه الأمور.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معرفة المكي والمدني وفوائده، وأن الاختلاف في ذلك لا يضر.

أولًا: اصطلاحات العلماء في معنى المكي والمدني:

اعلم أن للناس في المكي والمدني اصطلاحات ثلاثة:

أشهرها: أن المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها سواء نزل بمكة أم بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع أم بسفر من الأسفار (وهو الراجح من الأقوال).

الثاني: أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة، وعلى هذا نثبت الواسطة، فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكي ولا مدني.

الثالث: أن المكي ما وقع خطابًا لأهل مكة، والمدني ما وقع خطابًا لأهل المدينة.[1]

ثانيًا: فوائد معرفة المكي والمدني:

قال الزرقاني: من فوائد العلم بالمكي والمدني:

١- تمييز الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات من القرآن الكريم في موضوع واحد، وكان الحكم في إحدى هاتين الآيتين أو الآيات مخالفًا للحكم في غيرها، ثم عرف أن بعضها مكي وبعضها مدني، فإننا نحكم بأن المدني منها ناسخ للمكي نظرًا إلى تأخر المدني عن المكي.

٢-ومن فوائده أيضًا معرفة تاريخ التشريع وتدرجه الحكيم بوجه عام، وذلك يترتب عليه الإيمان بسمو السياسة الإسلامية في تربية الشعوب والأفراد.

---

(١) الإتقان (١/ ٢٣)، والبرهان (١/ ١٨٧).

٣-ومن فوائده أيضًا الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالمًا من التغيير والتحريف. ويدل على ذلك اهتمام المسلمين به كل هذا الاهتمام؛ حتى لَيَعرفون ويتناقلون ما نزل منه قبل الهجرة وما نزل بعدها، وما نزل بالحضر وما نزل بالسفر، وما نزل بالنهار وما نزل بالليل، وما نزل بالشتاء وما نزل بالصيف، إلى غير ذلك.

فلا يعقل بعد هذا أن يسكتوا ويتركوا أحدًا يمسُّه ويعبث به، وهم المتحمسون لحراسته وحمايته والإحاطة بكل ما يتصل به أو يحتف بنزوله إلى هذا الحد!. (١)

وقال مناع القطان: وللعلم بالمكي والمدني فوائد، أهمها:

١-الاستعانة به في تفسير القرآن الكريم. فإنّ معرفة مواقع النزول تساعد على فهم الآية، وتفسيرها تفسيرًا صحيحًا، وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويستطيع المفسر في ضوء ذلك عند تعارض المعنى في آيتين أن يميز بين الناسخ والمنسوخ، فإن المتأخر يكون ناسخًا للمتقدم.

٢-تذوق أساليب القرآن، والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله، فإن لكل مقام مقالًا، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة، وخصائص الأسلوب المكي في القرآن والمدني منه تعطي الدارس منهجًا لطرائق الخطاب في الدعوة إلى الله بما يلائم نفسية المخاطب، ويمتلك عليه لبه ومشاعره، ويعالج فيه دخيلته بالحكمة البالغة، ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليب الخطاب فيها، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم وأحوال بيئتهم، ويبدو هذا واضحًا جليًا بأساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب.

٣-الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية. فإن تتابع الوحي على رسول الله ﷺ ساير تاريخ الدعوة بأحداثها في العهد المكي والعهد النبوي منذ بدَأ الوحي إلى آخر آية نزلت، والقرآن الكريم هو المرجع الأصيل لهذه السيرة الذي لا يدع مجالًا

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ١٦١).

للشك فيما رُوي عن أهل السير موافقًا له، ويقطع دابر الخلاف عند اختلاف الروايات.[١]

الوجه الثاني: سبب الاختلاف في المكي والمدني.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: إنما يُرجع في معرفة المكي والمدني إلى حفظ الصحابة والتابعين، وكما أنه لا بد في العادة من معرفة معظِّمي العالِم والخطيب، وأهل الحرص على حفظ كلامه ومعرفة كتبه ومصنفاته من أن يعرفوا ما صنفه أولًا وآخرًا، وحال القرآن في ذلك أمثل والحرص عليه أشد، غير أنه لم يكن من النبي ﷺ في ذلك قول ولا ورد عنه أنه قال: اعلموا أن قدر ما نزل بمكة كذا، وبالمدينة كذا وفصَّله لهم، ولو كان ذلك منه لظهر وانتشر؛ وإنما لم يفعله لأنه لم يؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ؛ ليعرف الحكم الذي تضمنهما فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول بعينه، وقوله هذا هو الأول المكي، وهذا هو الآخر المدني، وكذلك الصحابة والتابعون من بعدهم لما لم يعتبروا أن من فرائض الدين تفصيل جميع المكي والمدني مما لا يسوغ الجهل به لم تتوفر الدواعي على إخبارهم به ومواصلة ذكره على أسماعهم وأخذهم بمعرفته.

وإذا كان كذلك ساغ أن يختلف في بعض القرآن هل هو مكي أو مدني، وأن يعملوا في القول بذلك ضربًا من الرأي والاجتهاد، وحينئذ فلم يلزم النقل عنهم ذكر المكي والمدني، ولم يجب على من دخل في الإسلام بعد الهجرة أن يعرف كل آية أنزلت قبل إسلامه: مكية أو مدنية، فيجوز أن يقف في ذلك أو يغلب على ظنه أحد الأمرين، وإذا كان كذلك بطل ما توهموه من وجوب نقل هذا أو شهرته في الناس، ولزوم العلم به لهم ووجوب ارتفاع الخلاف فيه.[٢]

فمما سبق يتبين أن سبب الاختلاف هو:

١- أنه لم يرد نص عن النبيﷺ في تحديد ذلك.

---

(١) مباحث في علوم القرآن (١/ ٥٥).

(٢) البرهان (١/ ١٩٢: ١٩١) نقلًا عن ابن العربي في "الانتصار".

٢- لم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ.

٣- وعلى ذلك الصحابة والتابعون لم تتوفر الدواعي على إخبارهم به، ومواصلة ذكره على أسماعهم وأخذهم بمعرفته.

فائدة: أن القرآن لم ينزل جملة واحدة، وإنما نزل مفرقًا.

أن القرآن لم ينزل جملةً واحدة، وإنما نزل مفرقًا على دفعات، فبذلك لم ينزل في مكان واحد، وإنما كان يتعايش مع المسلمين في حياتهم وغزواتهم ومواقفهم، فلا يعقل مثلًا أن تحدث حادثة الإفك في المدينة ثم ينزل القرآن فيها بمكة، فهذا من سوائغ الاختلاف مع سائغ أن النبيﷺ لم ينص نصًا في تحديد المكي والمدني.

الوجه الثالث: أن اختلاف العلماء ليس منهيًا عنه في هذه الأمور.

فإن قيل: إن هناك سورًا بعضها مكي وبعضها مدني، فنقول: إن السورة تشتمل على أكثر من موضوع وموقف وعلى أكثر من حكاية، فلا مانع أن تكون هذه الحادثة حدثت بالمدينة، وحادثة أخرى بمكة وجمعتا في سورة واحدة بأمر من الله‎ﷻ للنبيﷺ، فتكون بعض الآيات مدنية والأخرى مكية، وهذا في قليل من سور القرآن.

مثال: إن البقرة سورة مدنية إلا ما ذُكر فيها من قصة آدم‎؛ لأن الغالب على المكي أنه يذكر فيه قصص السابقين، وهناك بعض السور والآيات قد تنزل مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة، مثل الفاتحة، فمن الأقوال فيها أنها نزلت مرتين.

* * *

٩- شبهة: اختلاف المسلمين في أسباب النزول.

قالوا: بأن الآية الواحدة قد يرد عليها أكثر من سبب نزول، وادَّعوا أن هذا من التناقض.

والرد من وجوه:

الوجه الأول: لا نحتج إلا بالحديث الصحيح في أسباب النزول وغيرها.

الوجه الثاني: لا إشكال في تعدد أحاديث أسباب النزول وذلك من وجوه:

الوجه الثالث: فوائد معرفة أسباب النزول.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: لا يُحتج إلا بالحديث الصحيح.

نحن لا نأخذ بكل حديث يُروى لنا في كتب التفسير لا في أسباب النزول ولا في غيرها.

قال الواحدي: لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا علي الأسباب، وبحثوا عن علمها، وقد قال محمد بن سيرين: سألت عبيدة عن آية من القرآن فقال: اتق الله وقل سدادًا، ذهب الذين يعلمون فيم أنزل الله القرآن. وقال غيره: معرفة سبب النزول أمر يحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا وربما لم يجزم بعضهم فقال: أحسب هذه الآية نزلت في كذا، كما أخرج الأئمة الستة عن عبد الله بن الزبير ﷺقال: خاصم الزبير رجلًا من الأنصار في شراج الحرة فقال النبي ﷺ: اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ أَرْسِلْ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ! فَتَلَوَّنَ وَجْهُ نَبِيِّ الله ﷺ ثُمَّ قَالَ: يَا زُبَيْرُ اسْقِ ثُمَّ احْبِسْ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَدْرِ.

فَقَالَ الزُّبَيْرُ: وَالله إِنِّي لَأَحْسِبُ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ (النساء: ٦٥). [(١)]

وإذا أخبر الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا، فإنه حديث مسند، مثال: عن جابر ﷺقال: كانت اليهود تقول: من أتى امرأته من دبرها في قبلها جاء الولد أحول، فأنزل الله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾. [(٢)]

---

(١) البخاري (٢٣٥٩)، ومسلم (٢٣٥٧).

(٢) الإتقان في علوم القرآن ١/ ٨٩، والحديث رواه مسلم (١٤٣٥).

الوجه الثاني: لا إشكال في تعدد أحاديث أسباب النزول.

وفي هذا الوجه مسائل:

المسألة الأولي: وهي: التعدد قد يكون في التفسير وليس في السبب.

أن يعبر أحدهم بقوله: نزلت في كذا، والآخر: نزلت في كذا، وذكر أمرًا آخر. فهذا يراد به التفسير لا ذكر سبب النزول، فلا منافاة بين قولهما إذا كان اللفظ يتناولهما(١).

المسألة الثانية: قد يكون الأول تفسيرًا والآخر سببًا.

كأن يعبر واحد بقوله: نزلت في كذا، ويصرح آخر بذكر سبب خلافه؛ فهو المعتمد وذاك استنباط، مثاله: عن ابن عمر ﷺقال: أنزلت " نساؤكم حرث لكم" في إتيان النساء في أدبارهن، وعن جابر التصريح بذكر سبب خلافه، فالمعتمد حديث جابر؛ لأنه نقل، وقول ابن عمر استنباط منه، فحديث جابر قال: كانت اليهود تقول: من أتى امرأة من دبرها في قبلها جاء الولد أحول، فأنزل الله " نساؤكم حرث لكم ". (٢)

المسألة الثالثة: قد يكون أحدهما صحيحًا والآخر ضعيفًا.

أن يذكر واحد سببًا وآخر سببًا غيره، فإن كان إسناد أحدهما صحيحًا دون الآخر فالصحيح المعتمد، مثال: عن جندب: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتته امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾(٣).

وعن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها وكانت خادم رسول اللهﷺ: أن جروًا دخل بيت النبيﷺفدخل تحت السرير فمات، فمكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة ما حدث في بيت رسول اللهﷺ؟ جبريل لا يأتيني، فقلت في نفسي: لوهيأت البيت

---

(١) الإتقان ١/ ٩١.

(٢) البخاري (٤٥٢٨)، مسلم (١٤٣٥).

(٣) البخاري (٤٩٥٠).

وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجرو، فجاء النبي ﷺ ترعد لحيته، وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرعدة، فأنزل الله (والضحى) إلى قوله (فترضى)[١].

قال ابن حجر: قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة لكن كونها سبب نزول الآية غريب، وفي إسناده من لا يعرف فالمعتمد ما في الصحيح[٢].

مثال آخر: عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها بضعة عشر شهرًا وكان يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾. فارتاب من ذلك اليهود وقالوا - ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، فأنزل الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

وعن ابن عمر قال: نزلت ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أن تصلي حيثما توجهت بك راحلتك في التطوّع.

ومن حديث عامر بن ربيعة قال: كنا في سفر في ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة، فصلى كل رجل منا على حياله، فلما أصبحنا ذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت.

فالحديث الأول صحيح الإسناد وهو الذي صرح فيه بذكر السبب فهو المعتمد[٣].

المسألة الرابعة: أن يستوي الإسنادان في الصحة:

فيرجح أحدهما بكون راويه حاضر القصة أو نحو ذلك من وجوه الترجيحات.

مثال: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنت أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بالمدينة وهو يتوكأ علي عسيب، فمر بِنَفَرٍ مِنْ الْيَهُودِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لو سألتموه! فقالوا: حدثنا عن الروح. فقام ساعة ورفع رأسه، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ حَتَّى صَعِدَ الْوَحْيُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ

(١) المعجم الكبير للطبراني ٦٣٦.

(٢) فتح الباري٨/ ٥٨٠.

(٣) الإتقان١/ ٩٣: ٩١.

ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾﴾ (الإسراء: ٨٥)[١].

وعن ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: قَالَتْ قُرَيْشٌ لِيَهُودَ أَعْطُونَا شَيْئًا نَسْأَلُ هَذَا الرَّجُلَ! فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه فَأَنْزَلَ الله ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ . . . ﴾[٢].

فهذا يقتضي أنها نزلت بمكة والأول خلافه، وقد رجح بأن ما رواه البخاري أصح من غيره وبأن ابن مسعود كان حاضر القصة[٣].

المسألة الخامسة: أن يكون نزولها عقيب السببين أو الأسباب المذكورة، بشرط ألا تكون معلومة التباعد:

مثال: عن ابن عباس أن هلال ابن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: "البينة أو حَدٌّ في ظهرك، فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلًا ينطلق يلتمس البينة؟ فأنزل عليه ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ حتى بلغ ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (النور: ٩)"[٤].

وعن سهل بن سعد قال جاء عويمر إلى عاصم بن عدي فقال: اسأل رسول الله ﷺ: أرأيت رجلًا وجد مع امرأته رجلًا فقتله أيقتل به أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ، فغاب السائل، فأخبر عاصم عويمرًا فقال: والله لآتين رسول الله ﷺ فلأسألنه، فأتاه فقال: أنه قد أنزل فيك وفي صاحبتك قرآن. . . . الحديث)[٥]، فجمع بينهما بأن أول من وقع له ذلك هلال وصادف مجيء عويمر أيضًا فنزلت في شأنهما معًا[٦].

المسألة السادسة: تعدد النزول.

ألا يمكن نزولها عقيب السببين أو الأسباب المذكورة فيحمل على تعدد النزول وتكرره:

---

(١) والحديث أخرجه البخاري. الفتح٨/ ٢٥٣، ومسلم ٤/ ٢١٥٢/ ٢٧٩٤.

(٢) الترمذي٥/ ٣٠٤/ ٣١٤٠ قال الألباني: إسناده صحيح في ظلال الجنة١/ ٣٢٢.

(٣) الإتقان١/ ٩٤: ٩٣.

(٤) البخاري، ٥/ ٣٣٥/ ٢٦٧١_فتح، ومسلم: ٢/ ١١٣٤/ ١٤٩٦

(٥) البخاري٩/ ٣٥٤/ ٥٣٠٤_ فتح، ومسلم٢/ ١١٢٩/ ١٤٩٢

(٦) الإتقان١/ ٩٥: ٩٤

مثال: عن المسيب قال: لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أمية فقال: أي عم قل لا إله إلا الله أُحاجُّ لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال: هو على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أنه عنه، فنزلت ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ ﴾ (التوبة: ١١٣)[١].

وعن علي رضي الله عنه قال: سمعت رجلًا يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: تستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال: استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت[٢].

فنجمع بين هذه الأحاديث بتعدد النزول[٣].

المسألة السابعة: قد يكون في إحدى القصتين (فتلا) فَيَهِمُ الراوي فيقول (فنزل)، أو تكون بلفظ (فقرأ) وتأتي في الرواية الأخري (فنزل).

مثال: عن ابن عباس قال: مر يهودي بالنبي ﷺ فقال: كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السموات على ذه، والأرضين على ذه، والماء على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه؟ فأنزل الله ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ ﴾ (الأنعام٩١)[٤].

والحديث في الصحيح بلفظ: (فتلا رسول الله ﷺ) وهو الصواب فإن الآية مكية[٥].

وهذا الحديث عند البخاري بلفظ: (فقرأ رسول الله ﷺ).

الوجه الثالث: فوائد معرفة أسباب النزول.

قال الزرقاني: لأسباب النزول فوائد متعددة لا فائدة واحدة، ومن تلك الفوائد:

---

(١) البخاري٣/ ٢٦٣. ومسلم١/ ٥٤/ ٣٩.

(٢) الترمذي٥/ ٢٨١/ ٣١٠١ قال الألباني: حسن. تلخيص أحكام الجنائز١/ ٤٨.

(٣) الإتقان١/ ٩٦: ٩٥، والبرهان١/ ٢٩.

(٤) الترمذي٥/ ٣٧١/ ٣٢٤٠، وأصله في البخاري (٤٨١١).

(٥) الإتقان١/ ٩٦.

الأولى: معرفة حكمة الله تعالى على التعيين فيما شرعه بالتنزيل، وفي ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن؛ أما المؤمن فيزداد إيمانًا على إيمانه، ويحرص كل الحرص على تنفيذ أحكام الله، والعمل بكتابه لما يتجلى له من المصالح والمزايا التي نيطت بهذه الأحكام ومن أجلها جاء هذا التنزيل. وأما الكافر فتسوقه تلك الحِكم الباهرة إلى الإيمان إن كان منصفًا حين يعلم أن هذا التشريع الإسلامي قام على رعاية مصالح الإنسان لا على الاستبداد والتحكم والطغيان، خصوصا إذا لاحظ سير ذلك التشريع وتدرجه في موضوع واحد، وحسبك شاهدًا على هذا تحريم الخمر وما نزل فيه.

الثانية: الاستعانة على فهم الآية ودفع الإشكال عنها.

حتى لقد قال الواحدي: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها.

وقال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية؛ فإن العلم بالمسبب يورث العلم بالسبب.

الثالثة: دفع توهم الحصر عما يفيد بظاهره الحصر نحو قوله سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ (الأنعام: ١٤٥).

الرابعة: تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب، وبدون معرفة السبب تصير الآية معطلة خالية من الفائدة.

الخامسة: معرفة أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إذا ورد مخصص لها، وذلك لقيام الإجماع على أن حكم السبب باق قطعًا، فيكون التخصيص قاصرا على ما سواه، فلو لم يعرف سبب النزول، لجاز أن يفهم أنه مما خرج بالتخصيص مع أنه لا يجوز إخراجه قطعا للإجماع المذكور.

السادسة: معرفة من نزلت فيه الآية على التعيين حتى لا يشتبه بغيره؛ فيتهم البريء ويبرأ المريب مثلًا؛ ولهذا ردت عائشة على مروان حين اتهم أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر

بأنه الذي نزلت فيه آية ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ (الأحقاف: ١٧)، وقالت: والله ما هو به ولو شئت أن أسميه لسميته إلى آخر تلك القصة.

السابعة: تيسير الحفظ وتسهيل الفهم وتثبيت الوحي في ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سببها؛ وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات، والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة، كل أولئك من دواعي تقرر الأشياء وانتقاشها في الذهن وسهولة استذكارها عند استذكار مقارناتها في الفكر[1].

* * *

(١) مناهل العرفان ١/ ٩٢: ٩١.

١٠- شبهة: اختلاف المسلمين في ترتيب السور.

نص الشبهة:

يقولون: إن ترتيب سور القرآن اختلف فيها المسلمون.

والرد على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: ذكر الأقوال في ترتيب السور.

الوجه الثاني: الجمع بين الأقوال، وأنه لا تعارض بينها.

الوجه الثالث: ما ورد عن الصحابة من اختلافٍ في ترتيب المصاحف، وتوجيه ذلك.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: ذكر الأقوال في ترتيب السور.

وأما ترتيب السور على ما هي عليه الآن، فاختُلف: هل هو توقيف من النبي ﷺ، أو من فعل الصحابة، أو بعضه توقيف من النبي ﷺ وبعضه اجتهادي؟ على ثلاثة أقوال: [١]

القول الأول: وهو مذهب الجمهور: أن النبي ﷺ فوَّضَ ذلك إلى أمته من بعده، يعني أن هذا الترتيب من فعل الصحابة.

ومِمَّن ذهب هذا المْذهب الإمام مالكٌ، والقاضي أبو بكر الباقلاني فيما استقر عليه رأيه من قوليه. [٢]

قال الزركشي: قال أبو الحسين أحمد بن فارسٍ في كتاب "المسائل الخمس": جمع القرآن على ضربين: أحدهما: تأليف السور، كتقديم السبع الطُّوال، وتعقيبها بالمْئين، فهذا الضرب هو الذي تولاه الصحابة. [٣]

---

(١) هوَّن الزركشي من أمر هذا الخلاف، فقال: والخلاف يرجع إلى اللفظ؛ لأن القائل بالثاني - بأن الترتيب كان عن اجتهاد منهم- يقول: إنه رمز إليهم بذلك، لعلمهم بأسباب نزوله، ومواقع كلماته؛ ولِهذا قال الإمام مالك: إنَّما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبي ﷺ، مع قوله بأن ترتيب السور اجتهاد منهم، فآل الخلاف إلى أنه: هل ذلك بتوقيف قولي، أم بِمجرد استناد فعلي، وبحيث بقي لَهم فيه مجال للنظر؟ البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٢٥٧). قال السيوطي: وسبقه إلى ذلك أبو جعفر بن الزبير. الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٧٧).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ٣/ ٣٢٠

(٣) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٥٨-٢٥٩).

وقد استدلوا على مذهبهم بأدلة، منها:

أولًا: أنه لو كان ترتيب السور بتوقيف من النبي ﷺ لظهر وفشا ونقل مثله، وفي العلم بعدم ذلك النقل دليلٌ على أنه لم يكن منه ﷺ توقيف فيه.

ثانيًا: أن مصاحف الصحابة كانت مختلفة في ترتيب السور قبل جمع القرآن في عهد عثمان، ولو كان الترتيب توقيفيًّا منقولًا عن النبي ﷺما ساغ لهم أن يهملوه ويتجاوزوه. (١)

فمن ذلك أن مصحف أُبيٍّ بن كعب قدمت فيه النساء على آل عمران، ثم تلت آل عمران سورة الأنعام، ثم الأعراف ثم المائدة. . . ، ومصحف ابن مسعود كان مبدوءا بالبقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، ثم الأعراف، ثم الأنعام. . . الخ ما فيهما من خلاف مصاحفنا اليوم، وروي أن مصحف علي كان مرتبًا على النزول، فأوله سورة العلق، ثم المدثر، ثم ق، ثم المزمل ثم تبت، ثم التكوير، وهكذا إلى آخر المكي والمدني. (٢)

ثالثًا: حديث ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قُلْتُ لِعُثْمَانَ: مَا حَمَلَكُمْ عَلَى أَنْ عَمَدْتُمْ إِلَى سُورَةِ الأَنْفَالِ وَهِيَ مِنَ الْمَثَانِي، وَإِلَى سُورَةِ بَرَاءةٌ وَهِيَ مِنَ الْمِئِينَ فَقَرَنْتُمْ بَيْنَهُمَا، وَلَمْ تَكْتُبُوا بَيْنَهُمَا سَطْرَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَوَضَعْتُمُوهَا فِي السَّبْعِ الطِّوَالِ، فَمَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِمَّا يَأْتِي عَلَيْهِ الزَّمَانُ وَهُوَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ مِنَ السُّوَرِ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، فَكَانَ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ دَعَا بَعْضَ مَنْ يَكْتُبُ لَهُ فَيَقُولُ: ضَعُوا هَذِهِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، وَإِذَا أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ الآيَاتُ قَالَ: ضَعُوا هَذِهِ الآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، وَإِذَا أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ الآيَةُ قَالَ: ضَعُوا هَذِهِ الآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، وَكَانَتْ سُورَةُ الأَنْفَالِ مِنْ أَوَائِلِ مَا نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ سُورَةُ بَرَاءةٌ مِنْ أَوَاخِرِ مَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ، قَالَ: فَكَانَتْ قِصَّتُهَا شَبِيهًا بِقِصَّتِهَا، فَظَنَنَّا أَنَّهَا مِنْهَا، وَقُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا أَنَّهَا مِنْهَا، فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَرَنْتُ بَيْنَهُمَا، وَلَمْ أَكْتُبْ بَيْنَهُمَا سَطْرَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَوَضَعْتُهَا فِي

---

(١) مناهل العرفان (١/ ٢٨٧). الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٧٦)

(٢) الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٧٦)، والبرهان في علوم القرآن (١/ ٢٥٩)، ومناهل العرفان (١/ ٢٨٧).

السَّبْعِ الطِّوَالِ.[١]

فقول عثمان: "فَظَنَنَّا أَنَّهَا مِنْهَا، وَقُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا أَنَّهَا مِنْهَا" صريحٌ في عدم التوقيف.[٢]

فهذا الحديث يدل عندهم على أن ترتيب السور لم يكن بتوقيف من النبي ﷺ، بل كان باجتهاد من الصحابة .

رابعًا: عن يُوسُفَ بْنِ مَاهَكٍ قَالَ: إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها، إِذْ جَاءَهَا عِرَاقِيٌّ فَقَالَ: أَيُّ الْكَفَنِ خَيْرٌ؟ قَالَتْ: وَيْحَكَ وَمَا يَضُرُّكَ؟! قَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَرِينِي مُصْحَفَكِ. قَالَتْ: لِمَ؟ قَالَ: لَعَلِّي أُوَلِّفُ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ. قَالَتْ: وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟. . . قَالَ: فَأَخْرَجَتْ لَهُ الْمُصْحَفَ فَأَمْلَتْ عَلَيْهِ آيَ السُّوَرِ.[٣]

ووجه الدلالة فيه أن السائل كان يسأل عن ترتيب السور، بدليل قول عائشة له: وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟ لأن السلف متفقون على المنع من قراءة القرآن منكوسًا، بأن يقرأ من آخر السورة إلى أولها، ولو كان السائل يسأل عن ترتيب الآي لأنكرت عليه عائشة قراءة القرآن غير مؤلف.[٤]

القول الثاني: أن هذا الترتيب توقيف من النبي ﷺ، وبه قالت طائفة من أهل العلم.[٥]

قال أبو جعفر النحاس: المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ.[٦]

---

(١) رواه أحمد في المسند (١/ ٩٢)، (١/ ١١١)، وأبو داود (٧٨٦)، والترمذي (٣٠٨٦).

(٢) نكت الانتصار لنقل القرآن صـ ٨٢.

(٣) البخاري (٤٩٩٣).

(٤) فتح الباري (٨/ ٦٥٥).

(٥) قال البيهقي في المدخل: كان القرآن على عهد النبي ﷺ مرتبًا سوره وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة لحديث عثمان السابق. قال السيوطي: والذي ينشرح له الصدر ما ذهب إليه البيهقي، وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفي، إلا براءة والأنفال، ولا ينبغي أن يستدل بقراءته ﷺ سورًا ولاءً على أن ترتيبها كذلك، وحينئذ لا يَرِدُ حديث قراءته النساء قبل آل عمران؛ لأن ترتيب السور في القراءة ليس بواجبٍ، ولعله فعل ذلك لبيان الجواز. الإتقان في علوم القرآن ١/ ١٧٩ : ١٧٧ .

(٦) البرهان (١/ ٢٥٨).

وقال الكِرْماني: ترتيب السور هكذا هو عند الله تعالى في اللوح المحفوظ.[١]

وقال أبو بكر بن الأنباري: أنزل القرآن كله إلى سماء الدنيا، ثم فرِّق في بضعٍ وعشرين، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث، والآية جوابًا لمستخبر، ويقف جبريلُ النبيَّ ﷺ على موضع السورة والآية، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف، كله عن النبي ﷺ، فمن قَدَّم سورة أو أَخَّرَها، فقد أفسد نظم الآيات.[٢]

واستدلوا على ذلك:

أولًا: بأن الصحابة أجمعوا على المصحف الذي كتب في عهد عثمان، ولم يُخالف منهم أحد، وإجماعهم لا يتم إلا إذا كان الترتيب الذي أجمعوا عليه عن توقيف؛ لأنه لو كان عن اجتهاد لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة بِمخالفتهم، ولكنهم عدلوا عن مصاحفهم وأحرقوها، ورجعوا إلى مصحف عثمان وترتيبه جميعًا.[٣]

واستدلوا بأحاديث، منها: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ كان يَقُولُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَمَرْيَمَ وَطه وَالأَنْبِيَاءِ: إِنَّهُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلاَدِي.[٤]

فذكرها نسقًا كما استقر ترتيبها.

ثانيًا: عن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: أُعْطِيتُ مكانَ التَّوراة السبعَ الطِّوالَ، وأُعْطِيتُ مكان الزبور المِئِينَ، وأُعْطِيتُ مكان الإنجيل المثانيَ، وفُضِّلْت بالمفصَّلِ.[٥]

قال ابن النحاس: وهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي ﷺ، وأنه مؤلف من ذلك الوقت.[٦]

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٥٩).

(٢) البرهان (١/ ٢٦٠).

(٣) مناهل العرفان (١/ ٢٨٨).

(٤) البخاري (٤٩٩٤).

(٥) الطيالسي في مسنده (١٠١٢)، والطحاوي في " مشكل الآثار " (٢/ ١٥٤)، أخرجه الطبري في تفسيره وصححه بمجموع طرقه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٨٠).

(٦) البرهان (١/ ٢٥٨).

ثالثًا: عَنْ أَوْسِ الثَّقَفِيِّ قَالَ: كُنْتُ فِي الْوَفْدِ الَّذِينَ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ أَسْلَمُوا مِنْ ثَقِيفٍ... الحديث، وفيه: قُلْنَا مَا أَمْكَثَكَ عَنَّا يَا رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: طَرَأَ عَلَيَّ حِزْبٌ مِنَ الْقُرْآنِ فَأَرَدْتُ أَنْ لا أَخْرُجَ حَتَّى أَقْضِيَه. قَالَ: فَسَأَلْنَا أَصْحَابَ رسول الله ﷺ حِينَ أَصْبَحْنَا، قَالَ: قُلْنَا: كَيْفَ تُحَزِّبُونَ الْقُرْآنَ؟ قَالُوا: نُحَزِّبُهُ ثَلاثَ سُوَرٍ وَخَمْسَ سُوَرٍ وَسَبْعَ سُوَرٍ وَتِسْعَ سُوَرٍ وَإِحْدَى عَشْرَةَ سُورَةً وَثَلاثَ عَشْرَةَ سُورَةً وَحِزْبَ الْمُفَصَّلِ مِنْ قَافْ حَتَّى يُخْتَمَ.(١)

قال ابن حجر: فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان في عهد النبي ﷺ.(٢)

قال السيوطي: ومِمَّا يدل على أنه توقيفي كون الحواميم رتبت ولاءً، وكذا الطواسين، ولم ترتب المسبحات ولاءً، بل فصل بين سورها، وفصل بين (طسم) الشعراء و(طسم) القصص بـ (طس) مع أنها أقصر منهما، ولو كان الترتيب اجتهاديًّا لذكرت المسبحات ولاءً، وأُخِّرت (طس) عن القصص.

وقد سئل ربيعة: لم قُدِّمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضعٌ وثمانون سورة بمكة، وإنَّما أنزلتا بالمدينة؟ فقال: قُدِّمتا، وأُلِّف القرآن على علم ممن أَلَّفه به، ومن كان معه فيه، واجتماعهم على علمهم بذلك، فهذا مِمَّا يُنْتَهى إليه، ولا يُسْأل عنه.(٣)

القول الثالث: أن ترتيب كثير من السور كان بتوقيف من النبي ﷺ وعلم ذلك في حياته، وأن ترتيب بعض السور كان باجتهاد من الصحابة.

واستدلوا على ذلك بورود أحاديث تفيد ترتيب بعض السور، كالأدلة التي احتج بِها الفريق القائل بالقول الثاني، وورود آثار تصرح باجتهاد الصحابة في ترتيب بعض السور كحديث ابن عباس عن عثمان السابق.

---

(١) أبو داود في (١٣٩٣)، وابن ماجه (١٣٤٥)، وأحمد (٤/ ٩) من طريق عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى الطائفي، عن عثمان بن عبد الله بن أوس، عن جده أوس بن حذيفة به.

(٢) فتح الباري (٨/ ٦٥٨).

(٣) الإتقان (١/ ١٧٩)، مناهل العرفان (١/ ٢٨٨).

واختلف القائلون بهذا القول في السور التي جاء ترتيبها عن توقيف، والسور التي جاء ترتيبها عن اجتهاد:

فقال القاضي أبو محمد بن عطية: إن كثيرًا من السور قد علم ترتيبها في حياة النبي ﷺ كالسبع الطوال، والحواميم، والمفصل. وأنّ ما سوى ذلك يمكن أن يكون قد فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده.

وقال أبو جعفر بن الزبير: الآثار تشهد بأكثر مِمَّا نصَّ عليه ابن عطية، ويبقى منها قليلٌ يُمكن أن يجري فيها الخلاف، واحتج بأحاديث منها: حديث عبد الله بن مسعود، وحديث عبد الله بن عباس السابقة في أدلة القول الأول. [1]

قال ابن حجر: ترتيب بعض السور على بعض، أو معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفيًّا، وإن كان بعضه من اجتهاد بعض الصحابة، واحتج بحديث ابن عباس السابق.

الوجه الثاني: الجمع بين الأقوال.

قال الزركشي: والذي يمال إلى ترجيحه هو القول الثاني القائل بأن ترتيب سور الكتاب العزيز كلها توقيفيٌّ، بما سبق من الأدلة عند حكاية هذا القول.

أما أدلة الفريق القائل بأن ترتيب السور اجتهادي فمردودة بما يأتي:

١- أما دعواهم أنه لو كان ترتيب السور بتوقيف من النبي ﷺ لظهر وفشا ونقل مثله، وأن في العلم بعدم ذلك النقل دليلًا على عدم التوقيف، فيجاب بأن عدم النقل ليس دليلًا على عدم وجود النص؛ بل إن إجماع الصحابة على هذا الترتيب دليلٌ على وجود النص بالتوقيف؛ لأنهم لا يُجمعون على خلاف السنة.

٢- أما حديث ابن عباس عن عثمان. [2]

وهو أقوى حججهم، فهو أوهاها إذا نظر إليه بعين التمحيص، ففيه ضعف لا يُنكر سندًا، وفيه الرد على شبهتهم متنًا:

---

(١) الإتقان (١/ ١٧٧)

(٢) وقد سبق قريبًا، وفيه قوله: قُلْتُ لِعُثْمَانَ: مَا حَمَلَكُمْ عَلَى أَنْ عَمَدْتُمْ إِلَى سُورَةِ الأَنْفَالِ وَهِيَ مِنَ المَثَانِي، وَإِلَى سُورَةِ بَرَاءةٌ وَهِيَ مِنَ المِئِينَ فَقَرَنْتُمْ بَيْنَهُمَا، وَلَمْ تَكْتُبُوا بَيْنَهُمَا سَطْرَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَوَضَعْتُمُوهَا فِي السَّبْعِ الطِّوَالِ.

أما من ناحية السند فإن مدار الحديث على يزيد الفارسي.

قال الشيخ أحمد شاكر: وفي إسناده نظر كثير، بل هو عندي ضعيف جدًّا، بل هو حديث لا أصل له. [١]

وقد اختلف المُحدِّثون في يزيد هذا، اختلافًا كثيرًا:

قال البخاري في ترجمة يزيد بن هرمز: قال عبد الرحمن بن مهدي: يزيد الفارسي هو ابن هرمز، قال: فذكرته ليحيى فلم يعرفه، قال: وكان يكون مع الأمراء. [٢]

وقال ابن أبي حاتم: يزيد بن هرمز، اختلفوا فيه، هل هو يزيد الفارسي أم لا؟ فقال عبد الرحمن بن مهدي، فيما سمعت أبي يَحكي عن علي بن المْديني عنه أنه قال: يزيد الفارسي، هو يزيد بن هرمز، وكذا قاله أحمد بن حنبل. . . ، وأنكر يحيى بن سعيد القطان أن يكونا واحدًا، فعن علي بن المديني قال: ذكرت ليحيى قول عبد الرحمن بن مهدي: إن يزيد الفارسي هو يزيد بن هرمز، فلم يعرفه.

قال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: يزيد بن هرمز هذا، ليس بيزيد الفارسي، هو سواه، وكان يزيد بن هرمز من أبناء الفرس الذين كانوا بالمدينة وجالسوا أبا هريرة، وليس هو بيزيد الفارسي البصري الذي يروي عن ابن عباس، روى عنه عوف الأعرابي. [٣]

وأثبته البخاري في الضعفاء بالاسمين: ابن هرمز والفارسي، [٤] فهما ضعيفان عنده.

فعلى هذا فالحديث ضعيف، إما لضعف يزيد بن هرمز إن كان هو نفسه يزيد الفارسي، أو لجهالة أو ضعف يزيد الفارسي إن كان غير ابن هرمز.

قال العلامة أحمد شاكر: فهذا يزيد الفارسي الذي انفرد برواية هذا الحديث، يكاد يكون مجهولًا، حتى شُبِّه على مثل ابن مهدي وأحمد والبخاري أن يكون هو ابن هرمز أو

---

(١) مسند أحمد بتحقيق الشيخ أحمد شاكر (١/ ٣٩٩).

(٢) التاريخ الكبير (٢/ ٣٦٧)

(٣) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٤/ ٢/ ٢٩٣).

(٤) الضعفاء الصغير ترجمة (٤٠٧).

غيره. . فلا يقبل منه مثل هذا الحديث ينفرد به، وفيه تشكيك في معرفة سور القرآن الثابتة بالتواتر القطعي. . وفيه تشكيك في إثبات البسملة في أوائل السور، كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه، وحاشاه من ذلك.

ثم قال: فلا علينا إذا قلنا إنه حديث لا أصل له. . . فلا عبرة في هذا الموضع بتحسين الترمذي، ولا بتصحيح الحاكم، ولا بموافقة الذهبي، وإنَّما العبرة للحجة والدليل.(١)

وأما متنًا، فإنه يَحمل تناقضًا ظاهرًا، ويحمل طعنًا في التوقيف في ترتيب الآي.

أما التناقض، فلأنه أثبت للأنفال وبراءة اسمين مختلفين، وفيه مع ذلك أن عثمان ظن أن براءة من الأنفال فقرنَها بِها، وكان الأولى أن يقول: إنهما سورة واحدة.

قال الباقلاني: وقد تضمن ذلك أنَّهما سورتان؛ لأنه سمى كل واحدة باسمها.

وأما الطعن في التوقيف في ترتيب الآي، فلأن قول عثمان: "فظننا أنَّها منها" يدل على أن النبي ﷺ لم يفصح بأمر براءة، فأضافها عثمان إلى الأنفال اجتهادًا منه .

وهذا مخالف لِمَا لا يُحصى من الأخبار الصحيحة الدالة على التوقيف في ترتيب آي السور، ومخالف للإجماع المنقول عن أهل العلم على أن ترتيب آي السور ليس محلًا للاجتهاد، وإنَّما كان بتوقيف من النبي ﷺ

كما أن قول ابن عباس: "عَمَدْتُمْ إِلَى سُورَةِ الأَنْفَالِ وَهِيَ مِنَ الْمَثَانِي، وَإِلَى سُورَةِ بَرَاءَةٌ وَهِيَ مِنَ الْمِئِينَ. . . فَوَضَعْتُمُوهَا فِي السَّبْعِ الطِّوَالِ" يحمل ما يرد احتجاج هؤلاء بِهذا الحديث، فهو ذا يذكر أن الأنفال من المثاني، وأن براءة من المئين، ويقول: فوضعتموهما في السبع الطوال، وهذا يدل على أن السبع الطوال كانت معلومة توقيفًا قبل الجمع، وكذلك المثاني، وكذلك المئون، وإلا فما وجه استنكار ابن عباس هذا الترتيب؟!

٣ - أما حديث يوسف بن ماهك عن عَائِشَةَ رضي الله عنها فيرد عليه بأن هذا العراقي إنَّما سأل عن ترتيب السور، وكان مِمَّن يأخذ بقراءة ابن مسعود، وكان ابن مسعود لما حضر مصحف

---

(١) مسند الإمام أحمد بتحقيق الشيخ أحمد شاكر (١/ ٣٩٩-٤٠١).

عثمان إلى الكوفة، لم يوافق أول الأمر على الرجوع عن قراءته، ولا على إعدام مصحفه، وكان تأليف مصحفه مغايرًا لتأليف مصحف عثمان، فلذا أطلق العراقي أنه غير مؤلف.[١]

وأما الفريق الثالث القائل بالتفصيل، فيجاب بنفس الأجوبة، إذ لم يأت بدليل جديد، كما يرد عليهم أيضًا بأن العلم بتوقيف البعض يدل على التوقيف في الكل، إذ لو علم الصحابة التوقيف لَمَا فاتَهم أن يسألوا عن كل سورة بعينها، والنبي ﷺ حَيٌّ بين أظهرهم، وإلا لكانوا -وحاشاهم- مقصرين في حفظ القرآن.

الوجه الثالث: ما ورد من اختلاف في ترتيب مصاحف الصحابة.

فإن قيل: كيف يكون الصحابة مجمعين على هذا الترتيب مع أن مصاحفهم كانت مختلفة في ترتيب السور قبل جمع القرآن في عهد عثمان، ولو كان الترتيب توقيفيًّا منقولًا عن النبي ﷺ ما ساغ لهم أن يهملوه ويتجاوزوه، وهو دليلهم الثاني؟[٢]

فيجاب عليه بهذه الوجوه:

الوجه الأول: أن هذا الاختلاف كان قبل العلم بالتوقيف فيه.

بأنهم اختلفوا فيما اختلفوا قبل أن يعلموا التوقيف فيه، ولما جمع عثمان القرآن على هذا الترتيب علموا ما لم يكونوا يعلمونه، ولذلك تركوا ترتيب مصاحفهم وأخذوا بترتيب عثمان.[٣]

قال السيوطي: وقد من الله عليّ بجواب لذلك نفيس وهو أن القرآن وقع فيه النسخ كثيرًا للرسم، حتى لسور كاملة وآيات كثيرة، فلا بِدع أن يكون الترتيب العثماني هو الذي استقر في العرضة الأخيرة، كالقراءات التي في مصحفه، ولم يبلغ ذلك أبيًّا وابن مسعود، كما لم يبلغهما نسخ ما وضعاه في مصاحفهما من القراءات التي تخالف المصحف العثماني؛ ولذلك كتب أبيٌّ في مصحفه سورة الحفد والخلع، وهما منسوختان فالحاصل أني أقول:

---

(١) فتح الباري (٨/ ٦٥٥).

(٢) إن هذه الشبهة لا ترد على القائلين بأن ترتيب السور كلها اجتهادي، أما القائلون بأن منه اجتهاديا ومنه توقيفيًا فمن السهل الجواب عنهم: بأن الاختلاف بين الصحابة وقع في القسم الاجتهادي لا التوقيفي. وإنما ترد هذه الشبهة على القائلين بأن ترتيب السور كله توقيفي والجواب كما نبينه.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ٣/ ٣٢٠، مناهل العرفان (١/ ٢٩٢).

ترتيب كل المصاحف بتوقيف، واستقر التوقيف في العرضة الأخيرة على القراءات العثمانية، ورتب أولئك على ما كان عندهم، ولم يبلغهم ما استقر، كما كتبوا القراءات المنسوخة المثبة في مصاحفهم بتوقيف، واستقر التوقيف في العرضة الأخيرة على القراءات المنسوخات، ولم يبلغهم النسخ[1].

الوجه الثاني: أن الاختلاف كان في مصاحف فردية.

أن الأمر في اختلاف مصاحفهم أنها كانت مصاحف فردية، لم يكونوا يكتبونها للناس؛ إنما كانوا يكتبونها لأنفسهم، فبَدهي أن الواحد منهم لم يثبت فيها إلا ما وصل إليه بمجهوده الفردي، وقد يفوته ما لم يفت سواه من تحقيق أدق أو علم أوسع.

ولهذا كان يوجد بتلك المصاحف الفردية بعض آيات قد تكون منسوخة، وربما لم يبلغ صاحب ذاك المصحف نسخها.

وقد يهمل صاحب المصحف إثبات سورة لشهرتها وغناها بهذه الشهرة عن الإثبات، كما ورد أن مصحف ابن مسعود لم تكن به الفاتحة.

وقد يكتب صاحب المصحف ما يرى أنه بحاجة إليه من غير القرآن في نفس المصحف كما تقدم ذلك في قنوت الحنفية الذي روي أن بعض الصحابة كان قد كتبه بمصحفه وسماه سورة الخلع والحفد.[2]

الوجه الثالث: أن هذا الاختلاف زال بما اتفقوا عليه في مصحف عثمان.

قال ابن تيمية: ترتيب السور بالاجتهاد لا بالنص في قول جمهور العلماء من الحنابلة والمالكية والشافعية، فيجوز قراءة هذه قبل هذه، وكذا في الكتابة، ولهذا تنوعت مصاحف الصحابة في كتابتها، لكن لما اتفقوا على المصحف زمن عثمان رضي الله عنهم جميعًا صار هذا مما سنّه الخلفاء الراشدين، وقد دل الحديث على أن لهم سنة يجب إتباعها.[3]

* * *

(١) أسرار ترتيب القرآن ١/ ٧٣.

(٢) مناهل العرفان (١/ ٢٩٢).

(٣) الناسخ والمنسوخ للكرمي ١/ ٢٣٢، شرح منتهى الإرادات ١/ ١٩١، المبدع ١/ ٤٨٦، الفروع ١/ ٣٦٩.

١١ـ شبهة: اختلاف المسلمين في عدد سور وآيات القرآن.

نص الشبهة:

اختلاف المسلمين في عدد سور وآيات القرآن، أما سوره فمائة وأربع عشرة سورة بإجماع من تعبد به، وقيل وثلاث عشرة بجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة، هل تتماشى تلك الأخبار مع آية في سورة النساء: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ (النساء: ٨٢)؟

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: معنى قول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

الوجه الثاني: سبب اختلاف المسلمين، وهذا الاختلاف لا يضر في القرآن الكريم.

الوجه الثالث: تقسيم القرآن الكريم إلى ثلاثة أقسام.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: معنى قول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

قال الطبري : يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، أفلا يتدبر المبيتون غير الذي تقول لهم يا محمد كتاب الله؟ ، فيعلموا حجّة الله عليهم في طاعتك واتباع أمرك، وأن الذي أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم؛ لاتِّساق معانيه، وائتلاف أحكامه، وتأييد بعضه بعضًا بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق، فإن ذلك لو كان من عند غير الله لاختلفت أحكامه، وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض.[1]

وقال ابن كثير: يقول تعالى آمرًا عباده بتدبر القرآن، وناهيًا لهم عن الإعراض عنه، وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة، ومخبرًا لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تضادّ ولا تعارض؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد، فهو حق من حق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ (محمد: ٢٤)، ثم قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لو

(١) تفسير الطبري (٤/ ١٧٩).

كان مفتعلًا مختلقًا، كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم ﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ أي: اضطرابًا وتضادًّا كثيرًا، أي: وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله كما قال تعالى مخبرًا عن الراسخين في العلم، حيث قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ (آل عمران: ٧) أي: محكمه ومتشابهه حق؛ فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغووا؛ ولهذا مدح تعالى الراسخين وذم الزائغين. (١)

عن أَبِي عِمْرَانَ الْجَوْنِيِّ قَالَ: كَتَبَ إِلَيَّ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَبَاحٍ الْأَنْصَارِيُّ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو قَالَ: هَجَّرْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا قَالَ: فَسَمِعَ أَصْوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعْرَفُ فِي وَجْهِهِ الْغَضَبُ، فَقَالَ: "**إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ**". (٢)

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا وَأَخِي مَجْلِسًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، أَقْبَلْتُ أَنَا وَأَخِي وَإِذَا مَشْيَخَةٌ مِنْ صَحَابَةِ رَسولِ اللهِ ﷺ جُلُوسٌ عِنْدَ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ، فَكَرِهْنَا أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ، فَجَلَسْنَا حَجْرَةً، إِذْ ذَكَرُوا آيَةً مِنْ الْقُرْآنِ فَتَمَارَوْا فِيهَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُغْضَبًا قَدْ احْمَرَّ وَجْهُهُ يَرْمِيهِمْ بِالتُّرَابِ وَيَقُولُ: "**مَهْلًا يَا قَوْمِ بِهَذَا أُهْلِكَتْ الْأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَضَرْبِهِمْ الْكُتُبَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ**". (٣)

ودلت هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ على وجوب التدبر للقرآن؛ ليعرف معناه. والمعنى: أنهم لو تدبروه حق تدبره لوجدوه مؤتلفًا غير مختلف، صحيح المعاني، قوي المباني، بالغًا في البلاغة إلى أعلى درجاتها ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٧٢).

(٢) مسلم (٢٦٦٦).

(٣) رواه أحمد (٦٧٠٢)، وعبد الرزاق (٢٠٣٦٧)، والبغوي في شرح السنة (١٢١)، والبيهقي في الشعب (٢٢٥٨)، والبخاري في خلق أفعال العباد (١٦٥)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٣٧).

﴿غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ أي: تفاوتًا وتناقضًا، ولا يدخل في هذا اختلاف مقادير الآيات والسور؛ لأن المراد اختلاف التناقض والتفاوت، وعدم المطابقة للواقع، وهذا شأن كلام البشر لا سيما إذا طال، وتعرّض قائله للإخبار بالغيب، فإنه لا يوجد منه صحيحًا مطابقًا للواقع إلا القليل النادر. (١)

الوجه الثاني: سبب هذا الاختلاف.

سبب هذا الاختلاف: أن النبي ﷺ كان يقف على رءوس الآي تعليمًا لأصحابه أنها رءوس آي، حتى إذا علموا ذلك وصل ﷺ الآية بما بعدها طلبًا لتمام المعنى، فيظن بعض الناس أن ما وقف عليه النبي ﷺ فاصلة، فيصلها بما بعدها معتبرًا أن الجميع آية واحدة، والبعض يعتبرها آية مستقلة فلا يصلها بما بعدها، وقد علمت أن الخطب في ذلك سهل؛ لأنه لا يترتب عليه في القرآن زيادة ولا نقص.

وأيضًا البسملة نزلت مع السورة في بعض الأحرف السبعة، فمن قرأ بحرف نزلت فيه عدها، ومن قرأ بغير ذلك لم يعدها. (٢)

وقيل: وسبب الاختلاف في عد الكلمات أن الكلمة لها حقيقة، ومجاز، ولفظ، ورسم، واعتبار كل منها جائز، وكل من العلماء اعتبر أحد الجوائز، وتقدم عن ابن عباس عدد حروفه، وفيه أقوال أخر. والاشتغال باستيعاب ذلك مما لا طائل تحته، وقد قال السخاوي: لا أعلم لعدد الكلمات والحروف من فائدة؛ لأن ذلك إن أفاد؛ فإنما يفيد في كتاب يمكن فيه الزيادة والنقصان، والقرآن لا يمكن فيه ذلك. (٣)

وعن أم سلمة أنها سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت: كان يقطع قراءته آية آية: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾. (٤)

---

(١) فتح القدير (١/ ٧٣٤-٧٣٥).

(٢) مناهل العرفان (١/ ٢٧٨)، والبرهان (١/ ٢٥٢).

(٣) الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٩٧).

(٤) رواه أحمد (٦/ ٣٠٢)، وأبو داود (٢/ ٤٠٠١)، وصححه الألباني إرواء الغليل (٢/ ٦٠).

الوجه الثالث: سور القرآن على ثلاثة أقسام.

قال الموصلي: ثم سور القرآن على ثلاثة أقسام: قسم لم يختلف فيه لا في إجمالٍ ولا في تفصيلٍ، وقسم اختلف فيه تفصيلًا لا إجمالًا، وقسم اختلف فيه إجمالًا وتفصيلًا.

فالقسم الأول: أربعون سورة: **يوسف** مائة وإحدى عشرة، **الحجر** تسع وتسعون، **النحل** مائة وثمانية وعشرون، **الفرقان** سبع وسبعون، **الأحزاب** ثلاث وسبعون، **الفتح** تسع وعشرون، **الحجرات والتغابن** ثمان عشرة، **ق** خمس وأربعون، **الذاريات** ستون، **القمر** خمس وخمسون، **الحشر** أربع وعشرون، **الممتحنة** ثلاث عشرة، **الصف** أربع عشرة، **الجمعة والمنافقون والضحى والعاديات** إحدى عشرة، **التحريم** ثنتا عشرة، **ن** اثنتان وخمسون، **الإنسان** إحدى وثلاثون، **المرسلات** خمسون، **التكوير** تسع وعشرون، **الانفطار وسبّح** تسع عشرة، **البروج** اثنتان وعشرون، **الغاشية** ست وعشرون، **البلد** عشرون، **الليل** إحدى وعشرون، **ألم نشرح والتين وألهاكم** ثمان، **الهمزة** تسع، **الفيل والفلق وتبت** خمس، **الكافرون** ست، **الكوثر والنصر** ثلاث.

والقسم الثاني: أربع سور وهم الذين اختلف فيهم تفصيلًا لا إجمالًا، أربع سور: **القصص** ثمان وثمانون، عد أهل الكوفة (طسم)، والباقون بدلها ﴿أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾، **العنكبوت** تسع وستون، عد أهل الكوفة (الم)، والبصرة بدلها ﴿أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾، والشام ﴿وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾، **الجن** ثمان وعشرون عد المكي ﴿لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾، والباقون بدلها ﴿وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾، **والعصر** ثلاث، عد المدني الأخير ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾دون (والعصر) وعكس الباقون.

والقسم الثالث: الذي اختلف فيه إجمالًا وتفصيلًا، وهم سبعون سورة الباقية من القرآن الكريم.[1]

ويترتب على معرفة الآي وعدها وفواصلها أحكام فقهية:

---

(١) الإتقان (١/ ١٩٠-١٩١).

منها: اعتبارها في الخطبة، فإنه يجب فيها قراءة آية كاملة، ولا يكفي شطرها إن لم تكن طويلة، وكذا الطويلة على ما أطلقه الجمهور. **ومنها**: اعتبارها في السورة التي تقرأ في الصلاة أو ما يقوم مقامها، ففي الصحيح أنهﷺ كان يقرأ في الصبح بالستين إلى المائة. [(١)]

ومنها: اعتبارها في قراءة قيام الليل، ففي أحاديث عن عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهﷺ: **"مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنْ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنْ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنْ الْمُقَنْطِرِينَ"**. [(٢)]

ومنها: اعتبارها في الوقف. وهناك فوائد أخرى **منها**: العلم بأن كل ثلاث آيات قصار معجزة للنبي ﷺ وفي حكمها الآية الطويلة التي تعدل بطولها تلك الثلاث القصار، **ومنها**: حسن الوقف على رءوس الآي عند من يرى أن الوقف على الفواصل سنة. [(٣)]

* * *

(١) البخاري (٥٤١)، مسلم (٤٦١).

(٢) رواه أبو داود (١٣٩٨)، والدارمي (٣٤٤٤)، وابن خزيمة (١١٤٤)، وابن حبان في صحيحه (٢٥٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٣٩)، وصحيح أبي داود (١٣٤٦).

(٣) الإتقان (١/ ١٩٦)، ومناهل العرفان (١/ ٢٧٩).

١٢ـ شبهة: الوحي.

نص الشبهة

دارت شبهات الوحي حول هذه الأمور:

١- كيفية نزول الوحي وما فيها من تناقضات وأمور غريبة. فهذا غير حال أنبياء التوراة الكرام، الذين تكلموا بالحِكَم الإلهية، وأعلنوا الحق أمام الملوك والأمراء والعلماء والفلاسفة، وهم بصحة عقلٍ وجسمٍ وفهم. ولم يرِدْ أن نبيًا منهم كان عند نزول الوحي يُغشى عليه، أو يصير كالسكران، أو تحمرّ عيناه، أو تجزّع الناس من منظره، أو يغط كغطيط البَكر.

٢- حالة النبي ﷺ عند نزول الوحي؛ حيث ادعوا أنه كان إذا نزل عليه الوحي تغير حاله حتى يشبه المصروع.

٣- حال النبي ﷺ قبل نزول الوحي حيث ورد أنه كان يُرقى من العين.

٤- كيف يُشَبِّه الوحي بالجرس وهو تشبيه محمود بمذموم؟

٥- سؤالهم كيف ينزل الوحي في ثوبِ أو في لحاف عائشة؟.

٦- ادعاؤهم نزول الوحي حسب الأهواء كما كان حال عمر رضي الله عنه.

٧- ادعاؤهم أن الوحي انقطع بسبب جروٍ(كلب).

٨- ادعاؤهم أن النبي ﷺ لم يكن يتأكد من الوحي فكانت خديجة تختبره له.

٩- ثمَّ شبهات أخرى تتعلق بالوحي تم الرد عليها مستقلة مفصلة؛ مثل شبهة تفكير النبي ﷺ في الانتحار بسبب انقطاع الوحي، وشبهة شك النبي ﷺ في الوحي، وشبهة نسيان النبي ﷺ للوحي.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: مقدمة لابد منها.

الوجه الثاني: مراتب الْوَحْي مراتب عديدة.

الوجه الثالث: حال النبي ﷺ عند نزول الوحي عليه، وبيان كذب ما يدّعون.

الوجه الرابع: خصائص الوحي.

الوجه الخامس: المراد بالثقل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾

الوجه السادس: نفي الله ﷻ عن نبينا محمد ﷺ هذه الأمراض.

الوجه السابع: إجماع الأمة على عصمة رسول الله ﷺ من مثل هذه الأمراض.

الوجه الثامن: أعراض مرض الصرع من الناحية الطبية.

الوجه التاسع: الصرع كان معروفًا عند العرب في الجاهلية، فلماذا لم يتهمه المشركون بمثل هذا!

الوجه العاشر: الرد على الشبهات الفرعية المتعلقة بالوحي.

الوجه الحادي عشر: حالة الأنبياء عند نزول الوحي كما في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: مقدمة لابد منها.

تعريف الوحي في اللغة والشرع.

قال ابن منظور: الوَحْيُّ الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي، وكل ما ألقيته إلى غيرك، يقال: وَحَيْتُ إليه الكلام وأَوْحَيْتُ ووَحَى وَحْيًا وأَوْحَى أيضًا، أي: كتب. والوحي: المكتوب والكتاب أيضًا، وعلى ذلك جمعوا فقالوا: وَحِيٌّ مثل حَلْيٌ وحُلِيٌّ. (١)

وقال الراغب: معنى الوحي الإشارة السريعة، ولتضمنّ السرعة قيل: أمر وَحْيٌ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة. ويقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبيائه وأوليائه: وحي. (٢)

أما الوحي فمعناه في لسان الشرع: أن يعلم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر. (٣)

الوحي الإلهي: هو كلمة الله ﷻ إلى عباده ليخرجهم من الظلمات إلى النور وهو أصل الدين، إذ يتعلق بكتاب الله ﷻ، وسنة نبيهﷺ. والوحي في الإسلام ثابت محفوظ بحفظ الله تعالى. والأمة مهيأة لخدمة نصوصه كما تقتضيه ظروف الحياة العلمية لها.

---

(١) لسان العرب: مادة (وحي) ١٥/ ٣٧٩.

(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن (٥٥٢).

(٣) مناهل العرفان١/ ٤٦.

والوحي: أهم عنصر يميز شخصية النبي أو الرسول، وأكبر الدعائم التي ترتكز عليها حقيقة النبوة، وقد دلت نصوص الكتاب الكريم، والسنة الشريفة، والسيرة العطرة على عصمة سيدنا محمدﷺ، في تبليغ وحي الله تعالى إلى الأمة، وانعقد إجماع علماء الأمة على ذلك.

إلا أنه يوجد في كل أمة، وفي كل زمان ومكان، من يطعن في عصمة رسول الله ﷺ في تبليغ وحى الله تعالى؛ من أعداء الإسلام من المستشرقين والمبشرين، ومن أذيالهم المتسترين بعباءة القرآن الكريم ممن يسمون أنفسهم (القرآنيين).

أما المستشرقون: فشبهاتهم حول الوحي الإلهي قائمة على إنكار نبوة رسول الله ﷺ، إذ لم تكن لدى معظمهم القناعة العلمية، ولا الإيمان الراسخ بهذه النبوة، فنفذوا بشيء من العداء لهذه الشخصية النبوية الكريمة، ودفعوا دفعًا مقصودًا للإيقاع بنبوته، وحملوا حملًا مغرضًا لتجريده من صفاتها، وعلى رأسها صفة العصمة.

فزعموا تارة أن الوحي الذي جاء به رسول الله ﷺ أمر ذاتي من داخل نفسه الصافية، وعقله العبقري. وتارة ثانية، يزعمون أنه عبارة عن أمراض عقلية ونفسية، وهم بذلك يتناقضون مع أنفسهم؛ إذ كيف يجتمع الضدان، صفاء النفس، والعقل العبقري، مع الإصابة بالأمراض النفسية والعقلية؟! وتارة ثالثة، يزعمون أن الوحي الذي جاء به رسول الله ﷺ مقتبس من اليهودية والنصرانية، أو أنه وحي شيطاني بناءًا على فرية الغرانيق، وهذه الطعون في الوحي الإلهي، هي رأي معظم المستشرقين الذين يدرسون ظاهرة الوحي والنبوة، ويخلطون عن عمد بين النبوة والعبقرية، ومعاني البطولة، ومعاني الرسالة، إذا استثنينا أولئك المستشرقين الذين ينحون بتفكيرهم نحو المادية والعلمانية، وينكرون الوحي كله جملة وتفصيلًا.

إن المستشرقين هنا فيما يزعمون كالببغاوات يرددون شبهة إخوانهم أعداء الأنبياء والرسل الذين جعلوا ما يحصل لأنبياء الله مثل الذي يحصل للمجانين والسحرة، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ وهي عين الفرية التي رمت بها قريش رسول الله ﷺ، فبرأه الله مما قالوا بقوله سبحانه: ﴿

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ أرأيت كيف يردد المستشرقون شبهة عفا عليها الدهر، وطوتها السنون، وبيَّن الله فسادها قبل خمسة عشر قرنًا من الزمن، ثم جاءوا يلوكونها ويدندنون بها تشويهًا للإسلام، وتشكيكًا في عصمة رسول الله ﷺ في عقله وبدنه.[1]

الوجه الثاني: مَراتِب الْوَحْيِ مَراتِب عَدِيدَة

بيّن القرآن الكريم أنواع الوحي بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ (الشُّورَى: ٥١).

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: وما ينبغي لبشر من بني آدم أن يكلمه ربه إلا وحيًا يوحي الله إليه كيف شاء، أو إلهامًا، وإما غيره ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ يقول: أو يكلمه بحيث يسمع كلامه ولا يراه، كما كلم موسى نبيه عليه السلام ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ يقول: أو يرسل الله من ملائكته رسولًا إما جبرائيل عليه السلام، وإما غيره ﴿فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ يقول: فيوحي ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن ربه ما يشاء، يعني: ما يشاء ربه أن يوحيه إليه من أمر ونهي، وغير ذلك من الرسالة والوحي.[2]

وقد بينت لنا السنة هذه المراتب.

إحداها: الرُّؤْيَا الصّادِقَةُ وَكَانَتْ مَبْدَأَ وَحْيِه ﷺ وَكَانَ لَا يَرى رُؤْيَا إلّا جاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصّبْحِ. عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الوحي الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُو التَّعَبُّدُ - اللَّيالي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ، فَقَالَ: اقْرَأْ؟ قَالَ: "**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**". قَالَ: "**فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّى الْجُهْدَ، ثُمَّ أرسلني**" فَقَالَ: اقْرَأْ. قُلْتُ: "**مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فغطني الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّى الْجُهْدَ، ثُمَّ أرسلني** فَقَالَ:

(١) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء السنة النبوية الشريفة (١/ ٣٧٨).

(٢) تفسير الطبري (١١/ ١٦٢).

اقْرَأْ؟ فَقُلْتُ: " مَا أَنَا بِقَارِئٍ فأخذني فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أرسلني فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾، فَرَجَعَ بِهَا رَسولُ الله ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رضي الله عنها فقَالَ: " زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي ". فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: " لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نفسي ". فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلاَّ وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ الله أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ. فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَءًا تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ العبرانيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ - فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ هَذَا النَّامُوسُ الذي نَزَّلَ الله عَلَى مُوسَى عليه السلام يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ "؟ قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عودي، وَإِنْ يدركني يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الوحي.(١)

الثانية: مَا كَانَ يُلْقِيهِ الْمَلَكُ فِي رَوْعِهِ وَقَلْبِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَاهُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **" إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ، فَإِنَّ مَا عِنْدَ اللهِ لَا يُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ "**.(٢)

الثالثة: أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَتَمَثَّلُ لَهُ الْمَلَكُ رَجُلًا فَيُخَاطِبُهُ حَتَّى يَعِيَ عَنْهُ مَا يَقُولُ لَهُ، وَفِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ كَانَ يَرَاهُ الصَّحَابَةُ أَحْيَانًا.

عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا

---

(١) رواه البخاري (٣).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٨/ ١٢٩، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٦٦).

أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النبي ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أخبرني عَنِ الإِسْلاَمِ.... الحديث وفيه: ثُمَّ قَالَ لِي: " **يَا عُمَرُ أَتَدْرِى مَنِ السَّائِلُ؟** ". قُلْتُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: " **فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ.** "(١)

الرابعة: أَنَّهُ كَانَ يَأْتِيهِ فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَكَانَ أَشَدَّهُ عَلَيْهِ فَيَتَلَبَّسُ بِهِ الْمَلَكُ حَتَّى إنّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصّدُ عَرَقًا فِي الْيَوْمِ الشّدِيدِ الْبَرْدِ.

عَنْ عَائِشَةَ أَمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رضي الله عنه سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يَأْتِيكَ الوحي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " **أَحْيَانًا يأتيني مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ – وَهُو أَشَدُّهُ عَلَيَّ – فَيُفْصَمُ عَنِّى وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا فيكلمني فَأَعِى مَا يَقُولُ** ". قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوحي في الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا. (٢)

قال النووي: قَالَ الْعُلَمَاء: وَالْحِكْمَة فِي ذَلِكَ أَنْ يَتَفَرَّغَ سَمْعُهُ ﷺ، وَلَا يَبْقَى فِيهِ وَلَا فِي قَلْبه مَكَان لِغَيْرِ صَوْت الْمَلَك. (٣)

قال ابن الجوزي: إنما شبهه بالجرس؛ لأنه صوت متدارك لا يفهمه في أول وهلة حتى يتثبت ولذلك قال: "**وهو أشده علي**"، وقوله: " **فيفصم عني** " أي يقلع عني وينجلي ما يغشاني منه. وأصله من الفصم وهو القطع، وقولها: (وإن جبينه) للإنسان جبينان والجبهة بينهما، وقوله: (ليتفصد) بمعنى: يسيل عرقًا كما يفصد العرق، وكان ﷺ يلقى مشقة شديدة لثقل ما يلقى عليه من القرآن، فيعتريه ما يعتري المحموم، وكان ذلك من هيبة الكلام، وتعظيم المتكلم، وجمع الفهم للوعي، وخوف التحريف لنقص العقول من غير

---

(١) رواه البخاري (٤٤٩٩)عن أبى هريرة، ومسلم (١٠٢) واللفظ له.

(٢) البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣).

(٣) شرح مسلم للنووي٨/ ٤٦.

قصد، وقد خُوِّف من هذا بقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤)﴾ (الحاقة: ٤٤)، إلى غير ذلك من الأمور المزعجة التي تضعف عن إطاقتها البشرية. [١]

الْخَامِسَةُ: أَنَّهُ يَرَى الْمَلَكَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا فَيُوحِي إِلَيْهِ مَا شَاءَ الله أَنْ يُوحِيَهُ وَهَذَا وَقَعَ لَهُ مَرَّتَيْنِ، كَمَا ذَكَرَ الله ذَلِكَ فِي النَّجْمِ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦)﴾ (النجم ١٣: ١٦).

السَّادِسَةُ: مَا أَوْحَاهُ الله وَهُوَ فَوْقَ السَّمَوَاتِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ مِنْ فَرْضِ الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا.

السَّابِعَةُ: كَلَامُ الله لَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ بِلَا وَاسِطَةِ مَلَكٍ كَمَا كَلَّمَ الله مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ عليه السلام، وَهَذِهِ الْمَرْتَبَةُ هِيَ ثَابِتَةٌ لِمُوسَى قَطْعًا بِنَصِّ الْقُرْآنِ وَثُبُوتُهَا لِنَبِيِّنَا ﷺ هُوَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ. [٢]

الوجه الثالث: حال النبي عند نزول الوحي عليه وبيان كذب ما يدّعون.

١- في قصة الإفك، قالت عائشة: فو الله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء؛ حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق، وهو في يوم شاتٍ، من ثقل الوحي الذي نزل عليه. [٣]

٢- عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رضي الله عنه سَأَلَ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله كَيْفَ يَأْتِيكَ الوحي؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " **أَحْيَانًا يأتيني مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ - وَهُو أَشَدُّهُ عَلَيَّ - فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا فيكلمني فأعي مَا يَقُولُ** "، قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوحي فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا. [٤]

قال ابن حجر: يُفْهَم مِنْهُ أَنَّ الْوَحْي كُلّه شَدِيد، وَلَكِنَّ هَذِهِ الصِّفَة أَشَدّهَا، وَهُوَ وَاضِح؛ لِأَنَّ الْفَهْم مِنْ كَلَامٍ مِثْل الصَّلْصَلَة أَشْكَل مِنْ الْفَهْم مِنْ كَلَام الرَّجُل بِالتَّخَاطُبِ

---

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين ١/ ١١٩٧.

(٢) زاد المعاد ١/ ٧.

(٣) البخاري (٤٤٧٣)، مسلم (٢٧٧٠).

(٤) البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣).

الْمَعْهُود، وَالْحِكْمَة فِيهِ أَنَّ الْعَادَة جَرَتْ بِالْمُنَاسَبَةِ بَيْن الْقَائِل وَالسَّامِع، وَهِيَ هُنَا إِمَّا بِاتِّصَافِ السَّامِع بِوَصْفِ الْقَائِل بِغَلَبَةِ الرُّوحَانِيَّة وَهُو النَّوْع الْأَوَّل، وَإِمَّا بِاتِّصَافِ الْقَائِل بِوَصْفِ السَّامِع وَهُو الْبَشَرِيَّة وَهُو النَّوْع الثَّانِي، وَالْأَوَّل أَشَدّ بِلَا شَكّ. وَقَالَ شَيْخنَا شَيْخ الْإِسْلَام الْبُلْقِينِيّ: سَبَب ذَلِكَ أَنَّ الْكَلَام الْعَظِيم لَهُ مُقَدِّمَات تُؤْذِن بِتَعْظِيمِهِ لِلاهْتِمَامِ بِهِ، قَالَ: وَقَالَ بَعْضهمْ: وَإِنَّمَا كَانَ شَدِيدًا عَلَيْهِ لِيَسْتَجْمِع قَلْبه فَيَكُون أَوْعَى لِمَا سَمِعَ ا هـ.

وَقِيلَ: إِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَنْزِل هَكَذَا إِذَا نَزَلَتْ آيَة وَعِيد أَوْ تَهْدِيد، وَهَذَا فِيهِ نَظَر. وَالظَّاهِر أَنَّهُ لَا يَخْتَصّ بِالْقُرْآنِ. وفِي حَدِيث يَعْلَى بْن أُمَيَّة فِي قِصَّة لَابِس الْجُبَّة الْمُتَضَمِّخ بِالطِّيبِ فِي الْحَجّ، فَإِنَّ فِيهِ أَنَّهُ "رَآهُ ﷺ حَال نُزُول الْوَحْي عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَيَغِطّ"، وَفَائِدَةُ هَذِهِ الشِّدَّة مَا يَتَرَتَّب عَلَى الْمَشَقَّة مِنْ زِيَادَة الزُّلْفَى، وَالدَّرَجَات. (١)

٣- عن عروة بن عبد الرحمن بن عبد القاري، سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدويِّ النحل، وذكر تمام الحديث في نزول ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾. (٢)

٤- عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي كربه ذلك وتربد وجهه. (٣)

٥- عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النبي ﷺ إذا أنزل عليه الوحي نكس رأسه، ونكس أصحابه رؤوسهم فلما أتلي عنه رفع. (٤)

---

(١) فتح الباري١/ ٢٠.

(٢) ضعيف. رواه الترمذي (٣١٧٣)، وأحمد (١/ ٣٤)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧١٧) والنسائي في الكبرى (١٤٣٩) وقال: هذا حديث منكر لا نعرف أحدًا رواه غير يونس بن سليم، ولا نعرفه. وعبد الرزاق في مصنفه (٦٠٣٨)، قال أبوحاتم الرازي: روى عبد الرزاق هذا الحديث مرة أخرى، فقال: عن يونس بن سليم عن يونس بن يزيد ويُونُس بنُ سُليمٍ لا أعرِفُهُ، ولا يُعرفُ هذا الحدِيثُ مِن حدِيثِ الزُّهرِيِّ. علل الحديث (١٧٣٦). وضعفه الألباني في فقه السيرة (٩٧).

(٣) مسلم (١٦٩٠)، (تربد: تغير لون وجهه).

(٤) مسلم (٢٣٣٥). (أُتْلِيَ): ارتفع عنه الوحي.

٦- وفي حديث زيد بن ثابت‌ﷺ أن رسول الله ﷺ أَمْلَى عَلَيْهِ ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قَالَ: فَجَاءَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَهُوَ يُمِلُّهَا عَلَيَّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! لَوْ أَسْتَطِيعُ الْجِهَادَ لَجَاهَدْتُ! وَكَانَ رَجُلًا أَعْمَى، فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ وَفَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي؛ فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنَّ تَرُضَّ فَخِذِي، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾.(١)

٧- وعن يعلى بن أمية قال: قال لي عمر: أيسرك أن تنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يوحى إليه؟ فرفع طرف الثوب عن وجهه وهو يوحى إليه بالجعرانة، فإذا هو محمر الوجه. وهو يغط كما يغط البَكْر.(٢)

٨- عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: خَرَجَتْ سَوْدَةُ بَعْدَمَا ضُرِبَ الْحِجَابُ لِحَاجَتِهَا، وَكَانَتْ امْرَأَةً جَسِيمَةً لَا تَخْفَى عَلَى مَنْ يَعْرِفُهَا؛ فَرَآهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا سَوْدَةُ أَمَا وَاللهِ مَا تَخْفَيْنَ عَلَيْنَا فَانْظُرِي كَيْفَ تَخْرُجِينَ؟ قَالَتْ: فَانْكَفَأَتْ رَاجِعَةً وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِي، وَإِنَّهُ لَيَتَعَشَّى وَفِي يَدِهِ عَرْقٌ، فَدَخَلَتْ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي خَرَجْتُ لِبَعْضِ حَاجَتِي فَقَالَ لِي عُمَرُ كَذَا وَكَذَا، قَالَتْ فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ ثُمَّ رُفِعَ عَنْهُ وَإِنَّ الْعَرْقَ فِي يَدِهِ مَا وَضَعَهُ فَقَالَ: " **إِنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنَّ** ".(٣)

٩- عن عبد الله بن عمرو‌ﷺ قلت: يا رسول الله، هل تحس بالوحي؟ قال: " **نعم أسمع صلاصل ثم أثبت عند ذلك، وما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض منه** ".(٤)

---

(١) البخاري (٢٦٧٧)، ومسلم نحوه (١٨٩٨). (ترض) من الرض وهو الدق وكل شيء كسرته فقد رضضته.

(٢) البخاري (١٤٦٣)، ومسلم (١١٨٠) البَكْرِ [الإبل].

(٣) البخاري (٤٥١٧) واللفظ له، ومسلم (٢١٧٠).

قال ابن كثير: فدل هذا على أنه لم يكن الوحي يغيب عنه إحساسه بالكلية، بدليل أنه جالس ولم يسقط العرق أيضًا من يده صلوات الله وسلامه دائمًا عليه.

(٤) **إسناده ضعيف**. أخرجه أحمد ٢/ ٢٢٢، وأورده الهيثمي في المجمع٨/ ٢٥٩، وقال رواه الطبراني وأحمد، وإسناده حسن. وضعف إسناده الألباني في الضعيفة (٢٧٧٨)لعمرو بن الوليد – السهمي المصري – مجهول،

١٠- عن الفلتان بن عاصم رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ وأنزل عليه، وكان إذا أنزل عليه دام بصره وعيناه مفتوحة وفرغ سمعه وقلبه لما يأتيه من الله ﷻ. (١)

١١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي صدع وغلف رأسه بالحناء. (٢)

١٢- عن أسماء بنت يزيد قالت: إني لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلها، وكادت من ثقله تدق عضد الناقة. (٣)

وبعد سرد هذه الأحاديث التي تبين حال النبي ﷺ عند نزول الوحي والتي ليس فيها ما ادعوه على رسول الله ﷺ من صرع، وغير هذه الأمراض المنفرة، يتبين لنا أن ادعاء الكذب هو سبيل هؤلاء للنيل من شخص رسول الله ﷺ، وإنما الذي كان يعتري النبي ﷺ بسبب ثقل الوحي، وقد أخبرنا رب العالمين بذلك حيث قال ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، وسيأتي معناها مفصلًا كي يزول اللبس بإذن الملك ﷻ.

الوجه الرابع: خصائص الوحي. (٤)

وابن لهيعة لسوء حفظه، وهو كما قال، وإن كان قوله: " **أسمع صلاصل**" له أصل في الصحيح كما مر في حديث الحارث بن هشام.

(١) **صحيح**. أخرجه ابن حبان (٤٧١٢)، ومسند أبي يعلى (١٥٨٣)، الآحاد والمثاني (١٠٣٩، ٢٥٩٣) ومشكل الآثار للطحاوي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٥١٠، ٧/ ٦٦، رواه أبو يعلى رجاله ثقات، وقال البوصيرى في الزوائد (٤٢٨٧)(باب النية في الجهاد) هذا إسناد رواته ثقات، وصححه الألباني في فقه السيرة (١٠٨).

(٢) **ضعيف**. الطبراني في الأوسط (٥٦٢٩)، وابن عدي في الكامل٢/ ١٠، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق٧/ ٢٥٢، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد٥/ ١٦٠: رواه البزار وفيه الأحوص بن حكيم وقد وثق وفيه ضعف كثير وأبو عون لم أعرفه، قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء٤/ ١٣٤، وقد اختلف في إسناده على الأحوص بن حكيم. وقال ابن كثير في السيرة النبوية١/ ٤٢٤: هذا حديث غريب جدًا. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٩٩٣٠).

(٣) مسند أحمد٦/ ٤٥٥، وحسنه الألباني في فقه السيرة (١٠٩).

(٤) هذا الوجه مأخوذ من كتاب "وحي الله حقائقه وخصائصه في الكتاب والسنة نقض مزاعم المستشرقين" د/ حسن ضياء الدين عتر صـ١٢٣-١٣٥بتصرف يسير.

١ـ الوحي حدث مفاجئ:

إنه حدث تلقائي فجائي طرأ على حياة من اصطفاه الله للرسالة أو النبوة دون سابق توقع أو تطلع، فهذا محمد ﷺ في عزلته عن العالم فاجأه ملك الوحي في غار حراء، وأخذ يعتصره بقوة حتى أجهده وأضناه، فعل ذلك به ثلاثًا، حتى ارتجف فؤاده، وخاف على نفسه، فانطلق لتوه إلى زوجته خديجة رضي الله عنها مرتاعًا، فلما سكن أخبرها الخبر مستغربًا وجلًا، ثم انطلق معها ليفسر عنه ويتعرف عليه.

وبينما كان ﷺ ماشيًا طرق سمعه صوت من السماء فرفع بصره إليه، فشاهد جبريل جالسًا على كرسي بين السماء والأرض، ففزع منه ورجع إلى بيته يتزمل ثانيةً، لكن الوحي لم يدعه يركن إلى التزمل والتدثر، فها هو ذا يستنهضه مرة إثر أخرى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾، هذا وغيره من صور الوحي، أفاد أن الرسول لم يستشرف الوحي ولم يتأهب له، بل لقد طرق الوحي حياة الرسول ﷺ طروقًا مباغتًا لم يكن في حسبانه، حتى كان يفاجئه ليلًا ونهارًا في سفر أو حضر راكبًا أو جالسًا.

٢ـ الوحي حدث إلزامي: ونستبين ذلك من ناحيتين:

أولاهما: الأعراض الجسدية:

ولقد ينزل عليه الوحي فتعتريه أعراض إلزامية، كاحمرار الوجه، وتتابع الأنفاس، مع تحول الوعي عما حوله إلى ملك الوحي، وينجلي عنه الوحي في اليوم القارس البرد، وإن كان العرق ليتقاطر غزيرًا من جبينه، وإن جسم رسول الله ﷺ ليثقل من شدة الوحي، حتى تكاد فخذه ترض فخذ زيد دونها، وحتى تثقل ناقته فتبرك على الأرض، وتزخر أذناه بأصوات حادة كصلصلة الجرس، يجد الصحابة لها دويًا كدوي النحل.

وواضح لكل ذي لب أن هذه الأعراض إلزامية مفاجئة، فليس في طوق أحد من البشر افتعالها، وأن مسببها -بلا مراء- ذات أخرى تغاير الذات المحمدية، ويزيد القضية جلاءً، أن هذه الأعراض غير الإرادية ما كانت تعتري رسول الله ﷺ قط إلا في الفترة

الوجيزة التي يتلقى فيها القرآن، فاقتران هذه الأعراض العضوية بهذا الحدث الوحي برهان جلي على براءة ظاهرة(الوحي) من شوائب الذات الإنسانية الصحيحة أو العليلة.

ثانيهما: الأحوال النفسية:

لقد انتاب الخوف رسول الله ﷺ من ملك الوحي في جولاته الأولى، حتى خشي على نفسه الهلاك، وكان الأمر مبهمًا بالنسبة إليه حتى راح يستفسر عنه، ثم عرض له فأرعبه حتى لاذ منه بالفرار، والتجأ إلى التدثر والتزمل ليسكن فؤاده، ويدفع عن نفسه مشاهدة الملك، ووميض الوحي، فلم يجده ذلك شيئًا، فإذا بلغ الوحي أشده وقرع صليله مسامع الرسول، اتجه وعيه كلية إلى ملك الوحي، حتى يقتضي مقالته، فمحمد ﷺ أراد أن يتملص طواعية من ملك الوحي، لكن سلطان وحي الله لم يترك له مناصًا من الإذعان والتلقي، إن مقاومته تلك تدل على التعارض بين وجهته التي اتخذها بدافع من سجيته الشخصية وبين حتمية النبوة التي طوقت إرادته وهيمنت على ذاته، وفي هذه القرائن دلائل قوية للنظرة الموضوعية في نبوة محمد ﷺ.

٣ـ الوحي مستقل عن ذات النبي ﷺ وارادته.

يظهر لك من الخصيصتين السابقتين أن الوحي خارج عن ذات رسول الله ﷺ، فهو تلقائي فجائي إلزامي، والأعراض الجسدية والأحوال النفسية تفيد استقلاله عن إرادة النبي ﷺ وعجزه عن دفعه عن نفسه، وتفيد القرائن أيضًا عجزه عن استحضاره؛ فإن الوحي قد انقطع بعد أن جاءه الملك في غار حراء أول مرة، فلما عرف النبي ﷺ جلية الأمر أقض مضجعَه فتورُ الوحي، فقد خاف أن يكون حُرم نعمة النبوة، فلما شاهد الملك على كرسي بين السماء والأرض فزع إلى أهله يتدثر ويتزمل، وفي فترة الوحي هذه حكم إلهية جلية منها:

١ - أنه ﷺ لما فَجَأَهُ ملك الوحي أول مرة في الغار هاله لقاؤه، ونفر منه طبعه البشري لمخالفته المألوف الإنساني، ولم يتمكن بالتالي من التأمل في تلك الحال، فجاءت فترة الوحي تعطي رسول الله ﷺ فسحة لإنعام النظر، واطمئنانًا إلى تلقي الوحي وألفةً للملك عليه السلام،

فيذهب عنه الروع ويحصل له التشوق إلى عودة الوحي، فالله تبارك وتعالى يعد الرسول ﷺ ويقويه ويحوطه بعنايته الخاصة، ليتحمل الوحي، لكنه لا يسلخه عن طباعه البشرية.

٢- أن هذه الفترة قد حملت الرسول ﷺ على التعجب والتساؤل والبحث، وانتشر الخبر بين طائفة يعز عندها محمد بن عبد الله، فخلف انقطاع الوحي يقينًا بأن هذه الظاهرة خارجة عن ذات النبي ﷺ، فصار مع من حوله متثبتين من إلهية ظاهرة الوحي، وقد استبطأ رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام فحثه على الإكثار من زيارته، فنزل الجواب آية من القرآن تبين أنه مأمور من الله تعالى، وأن الله لا ينسى رسوله ﷺ، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِجِبْرِيلَ: **" مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا "** فَنَزَلَتْ﴿**وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا**﴾.

ولقد كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه غريزيًا أثناء تلقي الوحي حرصًا على الدقة في استحفاظ القرآن، فأتاه الأمر بالاستسلام الكامل للوحي قلبًا وفكرًا وجارحةً، ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ (القيامة ١٦- ١٧)، ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

وهكذا يجد الباحث أن الوحي ينقطع عن رسول الله ﷺ على الرغم من شدة طلبه وحرارة لهفته إليه، وإنه فجائي إلزامي، يأمره بالتسليم التام، ولهذا دلالة بليغة على أن حدوث الوحي مستقل عن تدخل ذات النبي ﷺ وإرادته، وأنه لا سبيل له إلى دفعه أو استحضاره، وهذا مما يقوي اليقين بصدق صاحبه، والاطمئنان إلى ربانية مصدره.

٤ـحصول الوحي وفق الاصطفاء الإلهي.

اشرأبت أعناق المشركين إلى مقام النبوة بعد أن سمعوا آيات الله الباهرات، ورأوا ما أجراه على يد محمد ﷺ من معجزات قاهرات، وتملك الحسد قلوبهم، كيف تكون النبوة بمحمدﷺ، وفيهم من الزعماء من تعظمهم قبائل العرب؟ اندفع أكابر مجرمي مكة يطالبون أن ينزل الله عليهم الوحي كما أنزله على المرسلين فكشفوا عن عنادهم

واستكبارهم عن الحق المبين، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (الأنعام: ١٢٤)، بل بلغ بالقوم الحمق واللجاج بالباطل، أن ابتغى كل منهم حصول الوحي له كما أخبر الله عنهم﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ ﴾ (المدثر: ٥٢)، فكبح الله جماح غرورهم ولجاجهم، إذ أشار إلى عظم أمر النبوة، وأنها تكون لصاحب الأهلية واللياقة للتلقي عن الله ﷻ، فلا قيمة للاعتبارات الاجتماعية والمالية والسياسية البشرية، وإنما العبرة كل العبرة لنبل الخلق وشرف النفس، وصفاء السريرة، وطيب الطوية، وهذا لا يعلمه علم اليقين إلا الله رب العالمين، فهو يصطفي من يشاء ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ والنبوة رحمة إلهية للناس جميعًا، فلما قضت حكمة الله ظهورها في زمانٍ ما؛ شرف سبحانه بها حسب مشيئته وحكمته من كان أهلًا لها ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (آل عمران: ٧٤)، أما الذين اقترفوا بتجبرهم وتكبرهم جريمة الإعراض عن رسالة الله، ودفعهم الغل والحسد إلى تنفير الناس من رسالة الله، فسلكوا ذلك الأسلوب من المكر والخداع والمراوغة؛ فإنهم لهذه الأوصاف الخسيسة، ليسوا أهلًا للنبوة، ولكنهم جديرون أن يجازوا على تجبرهم، وتطاولهم وتعاليهم بالضد، بالذل والهوان والتحقير ويعاقبوا على مكرهم وكفرهم بالعذاب الأليم﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

وتقلب مجرمًوا مكة بين أنواع الكفر، ومن ذلك زعمهم أن أمر الوحي والنبوة إنما يليق برجل كثير المال، عظيم الجاه من مكة أو الطائف.

٥ـ قوة يقين النبي بالوحي:

يجب أن نضيف إلى معارفنا عن الوحي رأي الذات المحمدية نفسها فيه، ولابد لنا في سبيل ذلك من عودة الذاكرة إلى أوصاف هذه الذات، فإنها أخلاقية رفيعة تنعم بقدر

عظيم من الفطانة ورجاحة العقل، ذات منزهة عن الصغائر والسفاسف لا ترقى إليها الظنون، وقد سبق الحديث عنها، ثم لننظر عَلَامَ استقر رأي هذه الذات؟ وهل تمت قناعتها اعتباطًا أم باستخدام كامل الطاقة الفكرية؟.

انطلق فكر محمد ﷺ في دراسة بادرة الوحي إلى غايتها تدريجيًا فرؤى بذلك نزوع عقله الراجح، وإلى رغبته الملحة في الوصول إلى اليقين في هذه الظاهرة، لقد جاءه الملك في غار حراء فجأة يأمره بفعل ما لا يقدر عليه ﴿ٱقْرَأْ﴾، ثم هو يغطه ويرسله أمر فجائي إلزامي خارج عن ذاته، بعيد كل البعد عن سوانح فكره، راح بحال مضطربة فناجى خديجة رضي الله عنها بالذي جرى، وعبر عن عمق تأثره بقوله ﷺ: " **لقد خشيت على نفسي** " أصدر قوله هذا بداهة فجاء إقرارًا عفويًا دالًا على حقيقة أمره، حدث عجيب لم يعرفه ولم تعرفه خديجة! ! أثار في نفسه التساؤل فانطلق معها إلى ورقة، ثم فتر الوحي ويلوح له الملك على كرسي بين السماء والأرض، حدث لم يخطر من قبل بباله، يفزع إلى التدثر والتزمل بعدًا عنه، فيوافيه على الرغم من إرادته، أدى كل ذلك إلى تنشئة يقينه بالوحي، ونموه وتعاظمه، وكانت كل حالة من أحوال الملك شاهدًا جديدًا على حقيقة الوحي، واستقلاله عن ذاته، وشاهدًا على صدوره عن الذات الإلهية العلية. لقد استقر به مطاف التعجب والاستفسار إلى هذه القناعة الذاتية القاطعة، والمعرفة اليقينية، وتتوالى عليها الأيام وأحداث الوحي فما تزيدها إلا قوةً ورسوخًا.

٦ـ معارف الوحي فوق مطامح الذات الإنسانية وإمكانها. في بيئة الجهالة القاتمة بعث الله محمدًا ﷺ، فجاء قومَه بعقيدة وأحكام تنافي ما أقاموا عليه من وثنية وتقاليد عفنة نتنة، وقاوم عقائد القوم بحدة وصلابة حتى أزعجهم وأقلقهم، هذا نهج لا ينصرف إليه ذهن مترعم، وإنما يجيء الوحي به إلى النبي ﷺ ويأمره بالتزامه، على الرغم مما يلقى من عنت القوم؛ عرف ورقة بن نوفل هذه الحقيقة قبل وقوعها، فأعلم محمدًا ﷺ بقوله: (إذ يخرجك قومك، فقال: " **أوَ مخرجِيّ هم؟** " قال: نعم، إذ لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا

عودي. . .)، وها هم أولاء زعماء الشرك قد مشوا إلى أبي طالب فَقَالُوا: يَا أَبَا طَالِبٍ إِنّ ابْنَ أَخِيك قَدْ سَبّ آلِهَتَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، وَسَفّهَ أَحْلَامَنَا، وَضَلّلَ آبَاءَنَا؛ فَإِمّا أَنْ تَكُفّهُ عَنّا، وَإِمّا أَنّ تُخَلّي بَيْنَنَا وَبَيْنَه، وإذ لم يكف عن دعوته، عادوا إلى أبي طالب يتذمرون ثانية حتى قالوا: وَإِنّا وَاللهِ لَا نَصْبِرُ عَلَى هَذَا مِنْ شَتْمِ آبَائِنَا، وَتَسْفِيهِ أَحْلَامِنَا، وَعَيْبِ آلِهَتِنَا، حَتّى تَكُفّهُ عَنّا، أَوْ نُنَازِلَهُ وَإِيّاكَ فِي ذَلِكَ حَتّى يَهْلِكَ أحد الفريقين.

فالوحي يُلْقِي إلى النبي ﷺ عقيدة متميزة ليناهض بها العقيدة الشعبية السائدة الراسخة، ويغير القيم والمفاهيم، ويقلب الأوضاع، وهذا أمر لا تستحسنه الذات الإنسانية، ولا تسعى إليه إن تعلقت بزعامة، أو حرصت على جاه.

وحمي الوحي وتتابع نزوله بالقرآن، فتزاحمت في وعي الرسول الأمين حقائق إلهية، ودينية، وتاريخية، وكونية، واجتماعية، لم يخط منها قبل شيء في لوحة إدراكه وذاكرته، فكانت خارجة عن إطار ذاته، بل عن معلومات عصره أيضًا، وقد اشتمل القرآن على عقيدة الوحدانية الصحيحة ودلائلها، وعلى أركان العقيدة الإسلامية العظيمة، ثم على أحكام الشريعة الغراء، وعلى حقائق من التاريخ ممحصة، تصحح ما ورد في الكتب السماوية الأخرى من زيف وتشويه، وعلى أخبار غيبية مستقبلة صدقتها وقائع الدهر، وعلى وعود أنجزها الله لعباده المسلمين. . . وغير ذلك من أوجه إعجاز القرآن الكريم، وكل ذلك أفكار منتظمة في أسلوب منطقي يسهل استيعابه، وإنّ دراسة هذه الأفكار وصلة بعضها ببعضٍ، ما تقدم في النزول منها وما تأخر؛ لتبرهن على خروجها عن نطاق فعالية الذات المحمدية وعبقريتها، وإن هذه المعلومات والأفكار والأحكام خارجة أيضًا عن حدود الفكر الإنساني عامة في العصر المحمدي؛ بل يستحيل أن ينشئها أي فكر إنساني على كر الدهور ومر العصور، ويكشف ذلك بدون أدنى ريب عن صدورها عن قدرة إلهية خلاقة منظمة.

الوجه الخامس: المراد بالثقل في قوله تعالى ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾

قال ابن الجوزي: قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ وهو القرآن، وفي معنى ثِقَله ستة أقوال:

أحدها: أنه كان يثقُل عليه إذا أوحي إليه، وهذا قول عائشة قالت: (ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه {يعني يتخلص عنه}، وإن جبينه ليتفصّد عرقًا.

والثاني: أن العمل به ثقيل في فروضه وأحكامه، قاله الحسن، وقتادة.

والثالث: أنه يثقل في الميزان يوم القيامة، قاله ابن زيد.

والرابع: أنه المهيب، كما يقال للرجل العاقل: هو رزين راجح، قاله عبد العزيز بن يحيى.

والخامس: أنه ليس بالخفيف ولا السفساف؛ لأنه كلام الرب ﷻ، قاله الفراء.

والسادس: أنه قول له وزن في صحته وبيانه ونفعه، كما تقول: هذا كلام رصين، وهذا قول وزن: إذا استجدته، ذكره الزجاج. [١]

قال الآلوسي: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ ﴾ أي سنوحي إليك، وإيثار الإلقاء عليه لقوله تعالى: ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ وهو القرآن العظيم؛ فإنه لما فيه من التكاليف الشاقة ثقيل على المكلفين، سيما على الرسولﷺ؛ فإنه ﷺ مأمور بتحملها وتحميلها للأمة، وهذه الجملة المؤكدة معترضة بين الأمر بالقيام وتعليله الآتي لتسهيل ما كلفه ﷺ من القيام كأنه قيل: إنه سيرد عليك في الوحي المنزل تكاليف شاقة، هذا بالنسبة إليها سهل، فلا تبال بهذه المشقة، وتمرن بها لما بعدها.

الوجه السادس: نفي الله ﷻ عن نبينا محمد ﷺ هذه الأمراض.

أما عن قولهم: إن هذه الأعراض التي كانت تصيب النبي ﷺ فيها دلالة على أنه كان يصاب بالصرع، فقد نفي رب العالمين ذلك كله عن نبيه لما ادعى أعداؤه مثل ذلك، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾ (الأعراف: ١٨٤).

قال الرازي: واعلم أن بعض الجهال من أهل مكة كانوا ينسبون إليه الجنون لوجهين:

الأول: أن فعله ﷺكان مخالفًا لفعلهم؛ وذلك لأنه ﷺ كان معرضًا عن الدنيا مقبلًا على الآخرة، مشتغلًا بالدعوة إلى الله، فكان العمل مخالفًا لطريقتهم، فاعتقدوا فيه أنه مجنون. [٢]

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٨/ ٣٨٩-٣٩٠.

(٢) تفسير الرازي (١٥/ ٧٥).

قال السعدي: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم﴾ محمد ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ أي: أو لم يُعْمِلُوا أفكارهم، وينظروا: هل في صاحبهم الذي يعرفونه ولا يخفي عليهم من حاله شيء، هل هو مجنون؟ فلينظروا في أخلاقه وهديه، ودلّه وصفاته، وينظروا في ما دعا إليه، فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا أتمها، ولا من العقل والرأي إلا ما فاق به العالمين، ولا يدعو إلا لكل خير، ولا ينهى إلا عن كل شر.[١]

ولهذا قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: يدعو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب، ويحصل لهم الثواب.

لقد كان ﷺ أكمل الرجال عقلًا، وأشدهم فطنة، وأصوبهم قولًا، وأحكمهم فعلًا. وقد تحدى الله المشركين الذين عرفوه وعايشوه وخبروا حاله أن يثبتوا عليه جنونًا أو اختلال عقل، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (سبأ: ٤٦) ففي قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي جنون، مستأنف منبه لهم على أن ما عرفوه من رجاحة عقله كاف في ترجيح صدقه؛ والتعبير عنه ﷺ بـ (صاحبهم) للإيماء، أن حاله معروف مشهور بينهم؛ لأنه نشأ بين أظهرهم معروفًا بقوة العقل، ورزانة الحلم، وسداد القول والفعل ﷺ.[٢]

فالآية الكريمة تقول لهم: ها هو ذا تاريخ محمد ﷺ وأحاديثه، وسننه، وآدابه، وأخلاقه، وشريعته، تحت أنظاركم فانظروا وتفكروا من غير هوى ولا عصبية في جوانب ذلك كله، واستخرجوا منه - ولن تستطيعوا - ما يقيم عوج دعواكم، وإفك أباطيلكم، ولكنكم علمتم أن محمدًا ﷺ معصوم بعصمة الله ﷻ، الذي أرسله ليقوض بنيان الكفر والنفاق.[٣]

---

(١) تفسير السعدي (٦٨٣).

(٢) محاسن التأويل للقاسمي ١٤/ ٣٤.

(٣) الرد على شبهات عصمة النبي (شبهة أن الوحي عبارة عن أمراض نفسية وعقلية ١ / ٤٣٦.

الوجه السابع: إجماع الأمة على عصمة رسول الله ﷺ من مثل هذه الأمراض

قَالَ الْقَاضِي: وَاعْلَمْ أَنَّ الأمة مُجْتَمِعَة عَلَى عِصْمَة النَّبِيّ ﷺ مِنْ الشَّيْطَان فِي جِسْمه وَخَاطِره وَلِسَانه، وسائر الأنبياء قبله من سائر الأمراض المنفرة، فرسول الله ﷺ وكافة الرسل قبله، قد اشتهروا بالتعقل والنباهة والفطنة قبل النبوة وبعدها. (١) وبالجملة: فإن دلائل عصمته ﷺ في عقله وبدنه، يشهد بها كتاب الله والسنة المطهرة، والسيرة العطرة(٢)

الوجه الثامن: أعراض مرض الصرع من الناحية الطبية

الصرع هو: مجموعة من الأمراض المميزة باضطرابات متكررة في الوظائف العصبية للمخ نتيجة اضطراب مستوى الكهربية في المخ، وأسباب الصرع تختلف باختلاف الأعمار وتنقسم إلى:

٠: ٢ years infant
٢: ١٢ years child
١٢: ١٨ years adolescent
١٨: ٣٥ years young adult
above ٣٥ years old adult، وهذا هو المقصود.

وتتلخص أسباب الصرع في هذا السن فيما يعرف بـcerebrovascular strock

وهى تعرف على أنها فقدان للوعي بصورة جادة نتيجة لانسداد أحد الشرايين المغذية للمخ المتبوعة بشلل أحد الأطراف أو كلها.

وهي في أبسط صورها تنتج عن شلل نصفي، كما أن عدة نوبات من الصرع على مدى ٢٣ عام بدون أي مضاعفات: ككسور أو عض اللسان أو ما شابه شيء لا يصدق كما أن الموت في هذه الحالات بدون علاج يحدث أثناء إحدى النوبات.

إن ثمة فرقًا واضحًا بين صور الوحي الذي كان يتلقاه النبي ﷺ وبين أعراض مرض الصرع الذي زعمه هؤلاء المستشرقون غير المنصفين، فصور الوحي قد وقفتَ عليها من قبل عند الحديث عن كيفياته بما لم أر بك حاجة إلى إعادة الحديث عنها هنا.

---

(١) الشفا ٢/ ١١٧.

(٢) الرد على شبهات عصمة النبي ﷺ١/ ٤٣٦

وأما أعراض مرض الصرع، فهو كما جاء في كتاب (الموسوعة العربية الميسرة) أن يرى المريض شبحًا، ويسمع صوتًا، أو يشم رائحة، ويعقب ذلك وقوع المريض صارخًا على الأرض، وفاقدًا وعيه ثم تتملكه رعدة تشنجية، تتصلب فيها العضلات، وقد يتوقف فيها التنفس مؤقتًا، ويعقب النوبة خور في القوى، واستغراق في النوم يصحو منه المريض خالي الذهن من تذكر ما حدث له. (١)

فإذا كان هذا هو الثابت علميًا فهو بخلاف أمر رسول الله ﷺ، فلا يظهر عليه شيء مما ذكر من أعراض هذا المرض عند نزول الوحي عليه، بل يظل في تمام وعيه، وكامل قوته العقلية، قبل وأثناء وبعد الوحي، كما قال ﷺ، لما سُئل: كيف يأتيك الوحي؟ قال: **"أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدّه علي، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال."**(٢)

وقد كان جبريل عليه السلام يأتي إلى النبي ﷺ في صورة الرجل فيحادثه أمام جمع من الحضور وهم يشاهدون ذلك، كما ثبت في حديث جبريل المشهور الذي سأل فيه النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان... وكما جاء في حديث ابن عمر من إتيان جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ، في صورة الصحابي الجليل دحية الكلبي رضي الله عنه.

لقد عاش النبي ﷺ طيلة حياته في صحة نفسية وعصبية وعقلية دائمة، لم يطرأ عليه أي خلل في عقله أو أعصابه في يوم من الأيام، بل كان ﷺ بشهادة القرآن والسنة والتاريخ، وديعًا صبورًا حليمًا، بل كان عظيم الصبر، واسع الحلم والصدر حتى أنه ﷺ وسع الناس جميعًا ببسطه وخلقه.

وبالجملة: كان كمال عقله وخلقه ﷺ مضرب الأمثال لعصمة الله له، ولكل منصف أن يتساءل: هل يتفق هذا المرض وما هو معروف عن النبي ﷺ من أنه كان أمة وحده، في أخلاقه، وثباته، وحلمه، وسلامة جسمه وقوة بنائه؟.

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة ليوسف إلياس سركيس (حرف الصاد)، مادة صرع؛ نقلًا من الرد على شبهات عصمة النبي ﷺ.

(٢) البخاري (٢).

ثم كيف يتفق ذلك الداء العضال الذي أعيا الأطباء، وما انتدب له رسول الله ﷺ من تكوين شموسٍ أبيّة، وتربيتها على أسمى نواميس الهداية وقوانين الأخلاق، وقواعد النهضة والرقي، مع أنها أمة صحراوية النفوس، صخرية الطباع؟!.

أضف إلى ذلك أنه نجح في هذه المحاولة المعجزة، إلى درجة جعلت تلك الأمة، بعد قرن واحد من الزمان، هي أمة الأمم، وصاحبة العلم، وربة السيف والقلم.

فهل المريض المتهوس الذي لا يصلح لقيادة نفسه يتسنى له أن يقوم بهذه القيادة العالمية الفائقة، ثم ينجح فيها هذا النجاح المعجز المدهش؟.

ثم ما رَأْي هؤلاء الطاعنين وفيهم من ينتمي إلى بعض الأديان في أنهم لا ينالون من نبوة وعصمة سيدنا محمد ﷺ وحده؛ وإنما ينالون من جميع أنبياء الله ورسله الذين كانت لهم كتب أو صحف، أُوحي بها من عند الله سبحانه.

فهل تطيب نفوس المقرين بالأديان منهم أن يخربوا بيوتهم قبل أن يخربوا بيوت غيرهم؟ فما رأيهم فيما جاء في كتب العهد القديم والجديد، من إيحاءات ونبوءات؟.

وهل يقولون في وحى نبي الله موسى وعيسى - عليهما السلام - ما يقولون في وحى نبينا محمد رسول الله ﷺ؟.

إن الرسول ﷺ، ليس بدعًا من الرسل في باب الوحي، إنه أوحي إليه كما أوحي إليهم، وصدق الحق تبارك وتعالى حيث يقول: ﴿**إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ**﴾ (النساء: ١٦٣).

اللهم إن هذا الطعن لا يقول به إلا أحد رجلين: إما رجل مخرف، وإما رجل مخرب مدمر يريد هدم الأديان. [1]

قلت: فلا نبينا ﷺ، ولا أحد من إخوانه من الأنبياء أصيب بمثل هذه الأمراض المنفرة، لعصمة ربهم لهم، وإنما المرضى - حقيقة - هم أعداؤهم من كل أمة.

---

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للدكتور محمد أبو شهبة ١/ ٢٧٩، ٢٧٨.

فالثابت علميًا أن المصروع يتعطل تفكيره وإدراكه تعطلًا تامًا، فلا يدري أثناء نوبته عما يدور حوله، ولا يجيش في نفسه ويغيب عن صوابه، وتعتريه تشنجات تتوقف فيها حركة الشعور عنده، ويصبح المريض بلا إحساس، وأبرز سمة عنده تكون النسيان، ولكن الرسول ﷺ لم يكن يظهر عليه شيء من ذلك، فكان يبقى في تمام وعيه قبل وخلال وبعد حالة الوحي، فكان يفصم عنه وقد وعى كل ما قاله له جبريل عليه السلام من آيات بينات وتشريعات محكمات وعظات بليغات وأخلاق عظيمة، وكلام بلغ الغاية القصوى في الفصاحة والبلاغة والإعجاز حتى طأطأ لإعجازه أقدر الناس فصاحة وبلاغة فرادًا أو مجتمعين وفي كل الأزمان.

أسبابه:

أثبتت وسائل الطب الحديث والأجهزة المتقدمة في التشخيص والعلاج أن نوبات الصرع ناتجة عن تغيرات فسولوجية عضوية في المخ، حيث أمكن تسجيل تغيرات كهربائية في المخ أثناء النوبات الصرعية مهما كان مظهرها الخارجي، كما أثبت الطب الحديث أن هناك مظاهر عديدة ومختلفة لنوبات الصرع وذلك تبعًا لمراكز المخ التي تبدأ فيها التغيرات الكهربائية، وتبعًا لطريقة انتشارها وسرعته، وأهم نوبات الصرع، النوبات الصرعية النفسية.

وفي هذه الحالة من نوبات الصرع؛ فإنها تمر بذهن المريض ذكريات قديمة، وأحلام مرئية أو سمعية أو الاثنان معًا، وتسمى (بالهلاوس) وهذه الذكريات يكون قد عاشها المريض نفسه ثم احتفظ بها في مخه في ثناياه، استدعتها للخروج من مكانها الحالة الصرعية التي انتابته، وقد أمكن طبيًا إجراء عملية التنبيه لها بواسطة تيار كهربائي صناعي سُلط على جزء خاص في المخ فشعر المريض بنفس (الهلاوس) التي تنتابه في أثناء نوبة الصرع، وبتطبيق ما قرره الطب الحديث في حقائق الصرع على ما كان يعتري النبي ﷺ، نجده يردد آيات لم يسمعها من قبل في حياته أخبره بها الله ﷻ، ولما كانت هذه الأحاديث والآيات والأحوال لم تمر به ﷺ من قبل، فهي إذا لم تُختزن بالتالي في مخه لتثيرها وتخرجها نوبات صرعية فيتذكرها وينطق بها.

فيظهر جليًا أن ما كان يعتري رسول الله ﷺ هي حالة نفسية وجسدية لتلقي وحي الله سبحانه، فبالتالي فهناك فرق شاسع بين الحالتين: حالة الصرع التي تنتاب المصروعين، وحالة الوحي التي تعتري أنبياء الله – صلوات الله وسلامه عليهم- ولا شك أن الطعن في الوحي الذي نزل على محمد ﷺ طعن في كل ما نزل على أنبياء الله من قبل، وهذا لا يكون من مؤمن بالله وأنبيائه، ولا يكون إلا من ملحد لا ديني أحيل بين قلبه وبين الإيمان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. [(١)]

يرد فريتهم أن الوحي أثر لمرض الهستريا الذي هو كما بينه الأساتذة(كريكيه)، (الأندوز)، و(شاركو) أنه مرض عصبي عضال، وهو وراثي أكثر إصابته في النساء، ومن أعراضه شذوذ في الخلق، وضيق في التنفس إلى حد الاختناق، ويظهر عليه ضيق في الصدر واضطراب في الهضم، وقد تصحب هذه الأعراض كذلك بحركة واضطراب في اليدين والرجلين إلى حد الشلل في بعض الأعضاء؛ فإذا تابع المرض تقدمه جاء دور التشنج فيسبقه بكاء وعويل، وكرب عظيم وهذيان، ينتهي إلى حد الإغماء، فإذا تجاوز هذه المرحلة فإن المريض يرى أشباحًا تهدده وتسخر منه، وأعداء تحاربه، ويسمع أصواتًا لا وجود لها في الحس والواقع.

وفي هذا الدور يقع المريض بحركة مضطربة، وقفز من مكان لمكان على صورة تلقي الذعر في قلب كل من يراه. [(٢)]

هذا الوصف لأعراض هذا المرض لم يكن يظهر منه شيء على رسول الله ﷺ الذي كان يتمتع بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء بصحة جيدة، وعقل رصين، ونفس هادئة، وخلق كريم، وحركات متزنة، ويشهد لصحته وقوته صرعه ركانة بن عبد يزيد، الذي كان أقوى عصره[(٣)]، ويشهد لرجاحة عقله وسلامته فصله في خصومة قريش في شرف

---

(١) آراء المستشرقين حول القرآن، انظر المدخل لدراسة القرآن الكريم (١٠٨ : ١٠٣).

(٢) انظر القرآن والمستشرقون، رابح جمعة (٢٧)، ومناهل العرفان للزرقاني (١/ ٧٤).

(٣) الاستيعاب في تمييز الأصحاب (١/ ٥١٥، ٥١٦).

وضع الحجر الأسود في مكانه[١]، والطب لم يخرج لنا مريضًا واحدًا مصابًا بمثل هذا المرض وقال كلامًا معقولًا وآراء راجحة.

الوجه التاسع: الصرع كان معروفًا عند العرب في الجاهلية فلماذا لم يتهمه المشركون بمثل هذا؟.

فضلًا عن هذا فالصرع كان مرضًا معروفًا لعرب الجاهلية، ولم يكن ليغيب عنهم كون رسول الله ﷺ مصابًا به لو كان حقًا. إذ لو كان مصابًا بمثل هذا لأخذ عليه المشركون مثل هذا، والدليل على هذا رواية المرأة السوداء الشهيرة في الصحيحين عن عَطَاء بْن أَبِي رَبَاحٍ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَ لِي، قَالَ: "**إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ**"، فَقَالَتْ: أَصْبِرُ فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهَ لِي أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ "**فَدَعَا لَهَا**".[٢]

فهذا كله فيه دليل على كون الصرع مرضًا معروفًا للعرب الجاهليين، ولم يكن يخفي عليهم إصابة الرسول ﷺ به لو كان كذلك خاصةً مع وجود العديد من الصحابة ثاقبي النظر المعروفين بالفراسة، ودقة النظر، والذين لم تكن تخفى عليهم أدق الملاحظات كعمر بن الخطاب رضي الله عنه مثلًا.

لو كان النبي ﷺ مصابًا بمرض الصرع، لذكر ذلك أصحابه الذين لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة إلا نقلوها عنه، أو ذكره أعداؤه في ذلك العصر، هؤلاء الذين كانوا يتربصون بالنبي ﷺ الدوائر، ويودون أن يظفروا منه ولو بشيء نذر يسير يعيرونه به.

أليس هم القائلون: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ فأقصى ما عابوه فيه - كما ترى - أنه فقير ومثله في نظرهم لا يحق أن يكون نبيًا.

فلو كان ﷺ مريضًا بالصرع كما زعم هؤلاء الحاقدون؛ لوجد أعداؤه في ذلك فرصة سانحة للطعن عليه؛ لكن ما حدث ممن خلصت ضمائرهم بعض الوقت، وكانوا مع أنفسهم صادقين قبل ما يطرأ عليهم من إرهاب فكرى من أمثال الوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث الذي نفى في

---

(١) السيرة النبوية للذهبي (٣٣: ٣٢).

(٢) البخاري (٥٣٢٨)، مسلم (٢٥٧٦).

إشارة بليغة عن رسول الله ﷺ وما جاء به؛ السحر، والكهانة، والشعر، والجنون، حيث إنهم يعلمون علم اليقين حقيقة هذه الألفاظ، واعترف النضر بن الحارث بإقرار صناديد قريش، أن رسول الله ﷺ وما جاء به، بعيدان كل البعد عن حقيقة الألفاظ السابقة.

وهنا يحق لنا أن نتساءل: إذا لم يذكر لنا التاريخ أن النبي ﷺ أصيب بهذا النوع من الأمراض المنفرة؛ فليأتنا أعداء الإسلام بما يكذب ذلك؟ ولكن أنّى لهم ذلك! اللهم إلا ما كان من هؤلاء المأفونين من المستشرقين الذين زعموا هذا الزعم بناءً على تصورهم للحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي عليه، وهي حالة واحدة من حالات متعددة كان يأتيه عليها الوحي كما علمت، وبينها وبين ما تصوروه عنها بُعد المشرقين.

يقول المستشرق ماكس مايرهوف[1]: أراد بعضهم أن يرى في محمد رجلًا مصابًا بمرض عصبي أو بداء الصرع، ولكن تاريخ حياته من أوله إلى آخره، ليس فيه شيء يدل على هذا، كما أن ما قام به فيما بعد من التشريع والإدارة يناقض هذا القول[2].

وأتساءل أيضًا: هل الذين آمنوا برسول الله ﷺ منذ خمسة عشر قرنًا، واتبعوا الدين الذي جاء به من قادة الفكر على امتداد العصور، كلهم أغبياء مغرورون لم يميزوا بين الحق والباطل، والصدق والكذب، والصحة والمرض، والكمال والنقص؟!.

الوجه العاشر: حالة الأنبياء عند نزول الوحي كما في الكتاب المقدس.

أولًا: دانيال خاف وخر على وجهه:

وَسَمِعْتُ صَوْتَ إِنْسَانٍ بَيْنَ أُولاَيَ فَنَادَى وَقَالَ: يَا جِبْرَائِيلُ فَهِّمْ هَذَا الرَّجُلَ الرُّؤْيَا. ١٧فَجَاءَ إِلَى حَيْثُ وَقَفْتُ. وَلَمَّا جَاءَ خِفْتُ وَخَرَرْتُ عَلَى وَجْهِي. فَقَالَ لِي: افْهَمْ (دانيال٨/ ١٧: ١٦).

ثانيًا: حزن وفزع:

---

(١) مستشرق ألماني، من كبار أطباء العيون العالميين، وفي طليعة مؤرخي الطب العربي، تعد اكتشافاته فيه، وكتابته عنه، بالفرنسية والإنجليزية والألمانية، مرجعًا دقيقًا وافيًا، سكن مصر، وانتخب نائبًا لرئيس المعهد المصري، والجمعية الطبية المصرية. توفي بالقاهرة سنة ١٩٤٥م. الأعلام للزركلي ٥/ ٢٥٦، ٢٥٧

(٢) ينظر: الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب لأحمد بوطامي (١٦٢).

أَمَّا أَنَا دانيال فَحَزِنَتْ رُوحِي فِي وَسَطِ جِسْمِي وَأَفْزَعَتْنِي رُؤَى رَأْسِي.

ثالثًا: فزع وتغيرت هيئته:

إِلَى هُنَا نِهَايَةُ الأَمْرِ. أَمَّا أَنَا دانيال فَأَفْكَارِي أَفْزَعَتْنِي كَثِيرًا وَتَغَيَّرَتْ عَلَيَّ هَيْئَتِي وَحَفِظْتُ الأَمْرَ فِي قلبي.

رابعًا: لم يفهم معنى الوحي:

وَكَانَ لَمَّا رَأَيْتُ أَنَا دانيال الرُّؤْيَا وَطَلَبْتُ الْمَعْنَى إِذَا بِشِبْهِ إِنْسَانٍ وَاقِفٍ قُبَالَتِي (دانيال٨/ ١٥).

خامسًا: خر على وجهة أمام جبريل:

وَإِذْ كَانَ يَتكَلَّمُ مَعِي كُنْتُ مُسَبَّخًا عَلَى وَجْهِي إِلَى الأَرْضِ فَلَمَسَنِي وَأَوْقَفَنِي عَلَى مَقَامِي. (دانيال٨/ ١٨).

سادسًا: ضعف وأصبح نحيلًا غير فاهم لعدة أيام:

وَأَنَا دانيال ضَعُفْتُ وَنَحِلْتُ أَيَّامًا ثُمَّ قُمْتُ وَبَاشَرْتُ أَعْمَالَ الْمَلِكِ. وَكُنْتُ مُتَحَيِّرًا مِنَ الرُّؤْيَا وَلاَ فَاهِمَ. (دانيال٨/ ٢٧).

سابعًا: ناح ثلاثة أسابيع ولم يأكل ولم يدهن:

فِي تِلْكَ الأَيَّامِ أَنَا دانيال كُنْتُ نَائِحًا ثَلاَثَةَ أَسَابِيعِ أَيَّامٍ ٣لَمْ آكُلْ طَعَامًا شَهِيًّا وَلَمْ يَدْخُلْ فِي فَمِي لَحْمٌ وَلاَ خَمْرٌ وَلَمْ أَدَّهِنْ.

ثامنًا: يرى الرؤيا وحده لا يراها الناس:

فَرَأَيْتُ أَنَا دانيال الرُّؤْيَا وَحْدِي وَالرِّجَالُ الَّذِينَ كَانُوا مَعِي لَمْ يَرُوا الرُّؤْيَا.

تاسعًا: راحت قوته ونضارته وتحولت إلى فساد وخر بوجهه على الأرض: فَبَقِيتُ أَنَا وَحْدِي وَرَأَيْتُ هَذِهِ الرُّؤْيَا الْعَظِيمَةَ. وَلَمْ تَبْقَ فِيَّ قُوَّةٌ وَنَضَارَتِي تَحَوَّلَتْ فِيَّ إِلَى فَسَادٍ وَلَمْ أَضْبِطْ قُوَّةً. ٩وَسَمِعْتُ صَوْتَ كَلاَمِهِ. وَلَمَّا سَمِعْتُ صَوْتَ كَلاَمِهِ كُنْتُ مُسَبَّخًا عَلَى وَجْهِي وَوَجْهِي إِلَى الأَرْضِ.

عاشرًا: وجهه على الأرض لا يتكلم أثناء الوحي:

فَلَمَّا تَكَلَّمَ مَعِي بِمِثْلِ هذا الكلام جَعَلْتُ وَجْهِي إِلَى الأَرْضِ وَصَمَتُّ.

وكل ما سبق يبين أعراض نزول الوحي على النبي دانيال، ولكن لم ننتهي بعد، انظر بقية الأنبياء.

اليك إبراهيم عليه السلام(**تك ١٥**: ١):

بَعْدَ هَذِهِ الأُمُورِ صَارَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَى أَبْرَامَ فِي الرُّؤْيَا: لاَ تَخَفْ يَا أَبْرَامُ. أَنَا تُرْسٌ لَكَ. أَجْرُكَ كَثِيرٌ جِدًّا.

وموسى في (**خروج ٣: ٦.**)

فَغَطَّى مُوسَى وَجْهَهُ لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى اللهِ.

وموسى في العبرانيين٢١: ١٢:

وَكَانَ الْمَنْظَرُ هَكَذَا مُخِيفًا حَتَّى قَالَ مُوسَى: «أَنَا مُرْتَعِبٌ وَمُرْتَعِدٌ! ».

و هذا إيليا الملوك الأول ١٩: ١٢:

وَدَخَلَ هُنَاكَ الْمُغَارَةَ وَبَاتَ فِيهَا. وَكَانَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَيْهِ: [مَا لَكَ هَهُنَا يَا إِيلِيَّا؟] فَقَالَ: [قَدْ غِرْتُ غَيْرَةً لِلرَّبِّ إله الْجُنُودِ، لأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ تَرَكُوا عَهْدَكَ وَنَقَضُوا مَذَابِحَكَ وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَكَ بِالسَّيْفِ، فَبَقِيتُ أَنَا وَحْدِي. وَهُمْ يَطْلُبُونَ نَفْسِي لِيَأْخُذُوهَا]. ١١فَقَالَ: [اخْرُجْ وَقِفْ عَلَى الْجَبَلِ أَمَامَ الرَّبِّ]. وَإِذَا بِالرَّبِّ عَابِرٌ وَرِيحٌ عَظِيمَةٌ وَشَدِيدَةٌ قَدْ شَقَّتِ الْجِبَالَ وَكَسَّرَتِ الصُّخُورَ أَمَامَ الرَّبِّ، وَلَمْ يَكُنِ الرَّبُّ فِي الرِّيحِ. وَبَعْدَ الرِّيحِ زَلْزَلَةٌ، وَلَمْ يكن الرب فِي الزَّلْزَلَةِ. وَبَعْدَ الزَّلْزَلَةِ نَارٌ، وَلَمْ يَكُنِ الرَّبُّ فِي النَّارِ. وَبَعْدَ النَّارِ صَوْتٌ مُنْخَفِضٌ خَفِيفٌ. فَلَمَّا سَمِعَ إِيلِيَّا لَفَّ وَجْهَهُ بِرِدَائِهِ وَخَرَجَ وَوَقَفَ فِي بَابِ المغارة.

وهذا إشعيا (**إشعيا ٦: ٦ -٧**):

فِي سَنَةِ وَفَاةِ عُزِّيَّا الملك رَأَيْتُ السَّيِّدَ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ عَالٍ وَمُرْتَفِعٍ وَأَذْيَالُهُ تَمْلأُ الْهَيْكَلَ. السَّرَافِيمُ وَاقِفُونَ فَوْقَهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ سِتَّةُ أَجْنِحَةٍ. بِاثْنَيْنِ يُغَطِّي وَجْهَهُ وَبِاثْنَيْنِ يُغَطِّي رِجْلَيْهِ وَبِاثْنَيْنِ يَطِيرُ. وَهَذَا نَادَى ذَاكَ: «قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْجُنُودِ. مَجْدُهُ مِلْءُ كُلِّ الأَرْضِ». فَاهْتَزَّتْ أَسَاسَاتُ الْعَتَبِ مِنْ صَوْتِ الصَّارِخِ وَامْتَلأَ الْبَيْتُ دُخَانًا. فَقُلْتُ: «وَيْلٌ لِي! إِنِّي هَلَكْتُ لأَنِّي إِنْسَانٌ نَجِسُ الشَّفَتَيْنِ وَأَنَا سَاكِنٌ بَيْنَ شَعْبٍ نَجِسِ الشَّفَتَيْنِ لأَنَّ عَيْنَيَّ قَدْ رأتا الملك رَبَّ الْجُنُودِ». ٦فَطَارَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنَ السَّرَافِيمِ وَبِيَدِهِ جَمْرَةٌ قَدْ أَخَذَهَا بِمِلْقَطٍ مِنْ عَلَى

الْمَذْبَحِ. وَمَسَّ بِهَا فَمِي وَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ قَدْ مَسَّتْ شَفَتَيْكَ فَانْتُزِعَ إِثْمُكَ وَكُفِّرَ عَنْ خَطِيَّتِكَ». ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتَ السَّيِّدِ: «مَنْ أُرْسِلُ وَمَنْ يَذْهَبُ مِنْ أَجْلِنَا؟ » فَأَجَبْتُ: «هَئَنَذَا أَرْسِلْنِي». فَقَالَ: »اذْهَبْ وَقُلْ لِهَذَا الشَّعْبِ: اسْمَعُوا سَمْعًا وَلاَ تَفْهَمُوا وَأَبْصِرُوا إِبْصَارًا وَلاَ تَعْرِفُوا.

وحزقيال (٣: ١٢)

هَئَنَذَا قَدْ جَعَلْتُ وَجْهَكَ صُلْبًا مِثْلَ وُجُوهِهِمْ وَجَبْهَتَكَ صُلْبَةً مِثْلَ جِباهِهِمْ، ٩قَدْ جَعَلْتُ جَبْهَتَكَ كَـالْمَاسِ أَصْلَبَ مِنَ الصَّوَّانِ، فَلاَ تَخَفْهُمْ وَلاَ تَرْتَعِبْ مِنْ وُجُوهِهِمْ لأَنَّهُمْ بَيْتٌ متمرد، وقال لِي: [يَاابْنَ آدم كُلَّ الْكَلاَمِ الَّذِي أُكَلِّمُكَ بِهِ أَوْعِهِ فِي قَلْبِكَ وَاسْمَعْهُ بأُذُنَيْكَ. وَامْضِ إلى مَسْبِيِّينَ إِلَى بَنِي شَعْبِكَ وَكَلِّمْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ: هَكَذَا قال السيد الرَّبُّ، إِنْ سَمِعُوا وَإِنِ امْتَنَعُوا». ١٢ثُمَّ حَمَلَنِي رُوحٌ فَسَمِعْتُ خَلْفِي صَوْتَ رَعْدٍ عَظِيمٍ: [مُبَارَكٌ مَجْدُ الرَّبِّ مِنْ مَكَـانِهِ». ١٣وَصَوْتَ أَجْنِحَةِ الْحَيَوَانَاتِ الْمُتَلاَصِقَةِ الْوَاحِدُ بِأَخِيهِ وَصَوْتَ الْبَكَرَاتِ مَعَهَا وَصَوْتَ رَعْدٍ عَظِيمٍ. فَحَمَلَنِي الرُّوحُ وَأَخَذَنِي، فَذَهَبْتُ مُرًّا فِي حَرَارَةِ رُوحِي، وَيَدُ الرَّبِّ كَانَتْ شَدِيدَةً عَلَيَّ. ١٥فَجِئْتُ إِلَى الْمَسْبِيِّينَ عِنْدَ تَلِّ أَبِيبَ، السَّاكِنِينَ عِنْدَ نَهْرِ خَابُورَ. وَحَيْثُ سَكَنُوا.

وهذا شاول في صمويل (١٦: ١٤ـ ٢٠).

وَذَهَبَ رُوحُ الرَّبِّ مِنْ عِنْدِ شَاوُل، وَبَغَتَهُ رُوحٌ رَدِيءٌ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ. ١٥فَقَالَ عَبِيدُ شَاوُلَ لَهُ: »هُوَذَا رُوحٌ رَدِيءٌ مِنْ قِبَلِ الله يَبْغَتُكَ. فَلْيَأْمُرْ سَيِّدُنَا عَبِيدَهُ قُدَّامَهُ أَنْ يُفَتِّشُوا عَلَى رَجُلٍ يُحْسِنُ الضَّرْبَ بِالْعُودِ. وَيَكُونُ إِذَا كَانَ عَلَيْكَ الرُّوحُ الرَّدِيءُ مِنْ قبل الله أَنَّهُ يَضْرِبُ بِيَدِهِ فَتَطِيبُ.

وهذا النص يثبت دخول روح رديئة (من قبل الرب) في شاول النبي وتأمل طريقة خروج هذه الروح الرديئة باستعمال الضرب على العود.

الرد على الشبهات الفرعية المتعلقة بالوحي.

١- شبهة رقية النبي ﷺ من العين

نص الشبهة:

كان النبي ﷺ يُرْقَى من العين وفي ذلك إثبات أنه كان مصابًا كما رواه ابن إسحاق.

قال: حدثني عبد الله بن أبي بكر، عن أبي جعفر قال: كان رسول الله ﷺ تصيبه العين بمكة، فتسرع إليه قبل أن ينزل عليه الوحي، فكانت خديجة بنت خويلد تبعث إلى عجوز بمكة ترقيه، فلما نزل عليه القرآن فأصابه من العين نحو مما كان يصيبه، فقالت له خديجة: يا رسول الله ألا أبعث إلى تلك العجوز فترقيك؟ فقال: " **أما الآن فلا** ". (١)

عن ابن إسحاق قال: كانت آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ تحدث أنها أتيت حين حملت بمحمد ﷺ، فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد من كل بر عاهد وكل عبد رائد، يرود غير رائد فإنه عبد الحميد الماجد حتى أراه قد أتى المشاهد. . . . الحديث. (٢)

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: الحديثان لا يصحان، وعليه فلا يجوز الاحتجاج بهما.

الوجه الثاني: على فرض صحة الحديثين فليس فيهما ما ينافي عصمة النبي ﷺ فكل ما فيهما أنه كان يرقى من العين.

فَعَلَ النبيُّ ﷺ ذلك، وبيَّن أن ذلك سنة الأنبياء.

---

(١) **مُرسل**. أخرجه ابن إسحاق في ا لسيرة النبوية ١/ ٤٠، وهو حديث لا يصح حيث لم يرد إلا من هذا الطريق وفيه انقطاع حيث إن أبا جعفر وهو محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب من الطبقة الرابعة التي تلي الوسطى من التابعين (التقريب ٦٤٠٣).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة معلقًا بدون إسناد١/ ٩، ومن طريقه البيهقي في الدلائل ١/ ٢١، وابن عساكر في تاريخ دمشق٣/ ٨٢، وهو معضل، فابن اسحق بينه وبين هذه الحكاية مفاوز، وأخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ٩٨من طريق الواقدي، ومن طريقه ابن الجوزي في المنتظم ١/ ٢٠٦، والواقدي متروك الحديث كما هو معلوم. وعليه فالحديث باطل.

ودليلنا في ذلك كما في الحديث عن ابن عباسﷺ قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَيَقُولُ: " **إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ** "(١).

فها هو إبراهيمعليه السلام كان يعيز أولاده بكلمات الله التامة، وليس بهما شيء، وأيضًا فعل النبي ﷺ للحسن والحسين، فذلك من باب الرقية.

٢ـ تشبيه الوحي بالجرس

نص الشبهة:

كيف يشبه الوحي بالجرس وهو تشبيه محمود بمذموم كما في حديث عائشة؟ وهو مناقض أيضًا لحديث: لا تصحب الملائكة رفقة فيها كلب ولا جرس.

والرد على ذلك من وجهين:

الوجه الأول: لا يلزم في التشبيه تساوي المشبه بالمشبه به في الصفات كلها، بل يكفى اشتراكهما في صفة ما.

الوجه الثاني: المقصود هنا بيان الجنس حيث ذكر ما ألف السامعون سماعه تقريبا لأفهامهم.

فصَل ذلك ابن حجر فقال:

فإن قيل: المحمود لا يشبه بالمذموم، إذ حقيقة التشبيه إلحاق ناقص بكامل، والمشبه الوحي وهو محمود، والمشبه به صوت الجرس وهو مذموم لصحة النهي عنه والتنفير من مرافقة ما هو معلق فيه والإعلام بأنه لا تصحبهم الملائكة كما أخرجه مسلم وأبو داود وغيرهما، فكيف يشبه ما فعله الملك بأمر تنفر منه الملائكة؟.

والجواب: أنه لا يلزم في التشبيه تساوي المشبه بالمشبه به في الصفات كلها، بل ولا في أخص وصف له، بل يكفي اشتراكهما في صفة ما، فالمقصود هنا بيان الجنس، فذكر ما ألف السامعون سماعه تقريبا لأفهامهم. والحاصل أن الصوت له جهتان: جهة قوة وجهة طنين، فمن حيث القوة وقع التشبيه به، ومن حيث الطرب وقع التنفير عنه؛ وعلل بكونه

(١) البخاري (٣٣٧١).

مزمار الشيطان، ويحتمل أن يكون النهي عنه وقع بعد السؤال المذكور وفيه نظر. قيل: والصلصلة المذكورة صوت الملك بالوحي قال الخطابي يريد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يتبينه أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد، وقيل: بل هو صوت حفيف أجنحة الملك والحكمة في تقدمه أن يقرع سمعه الوحي، فلا يبقى فيه مكان لغيره، ولما كان الجرس لا تحصل صلصلته إلا متداركة وقع التشبيه به دون غيره من الآلات(١).

٣ـ شبهة نزول الوحي في ثوب عائشة.

نص الشبهة:

كيف ينزل الوحي على النبي ﷺ وهو في ثوب عائشة، أوفي لحافها مخاطبًا أم سلمة رضي الله عنها كما في الحديث: " **لَا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ فَإِنَّ الْوَحْيَ لَمْ يَأْتِنِي وَأَنَا فِي ثَوْبِ امْرَأَةٍ إِلَّا عَائِشَةَ** ".

وفي لفظ: **فَإِنَّهُ وَاللهِ مَا نَزَلَ عَلَيَّ الْوَحْيُ وَأَنَا فِي لِحَافِ امْرَأَةٍ مِنْكُنَّ غَيْرِهَا** "(٢)

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: حرف في بمعنى على. نعلم أولًا أن القرآن يفسر بعضه بعضًا، والسنة تفسر بعضها بعضًا، والسنة أيضًا تفسر القرآن كما كان يفعل الرسول ﷺ، وحرف (في) هوالذي يسبب اللبس عند البعض بسبب ضعفهم اللغوي، فقد قال فرعون عن السحرة: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ (طه: ٧١)، ومن الطبيعي ألا يقول عاقل: إن السحرة صلبهم فرعون في داخل النخل، بل (في) هنا تعني على النخل.

الوجه الثاني: كلمة لباس تطلق على الرجل والمرأة.

أطلق القرآن على النساء والرجال لفظ لباس: ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ**﴾ (البقرة: ١٨٧)، ولا يعنى هذا أن المرأة قميص للرجل أو أن الرجل قميص للمرأة؛ بل إن لفظ (لباس) بمعنى الستر كما تستر الملابس الجسد؛ فإن المرأة تستر زوجها من الزنا والمعاصي، وكذلك الرجل يستر على زوجته ويعفها.

الوجه الثالث: الرواية الأخرى تبين المعنى الصحيح.

---

(١) فتح الباري١/ ٢٠.

(٢) البخاري (٢٥٨١)، (٣٧٧٥).

لكي نفهم معنى (في ثوب عائشة) لا بد من البحث عن القصة بكل ملابساتها وظروفها في أحاديث أخرى في النقاش الذي كان بين الرسول ونسائه، وهنا يتضح لنا المقصود والمعنى، فبعض الأحاديث وردت بلفظ لباس، وبعضها بلفظ لحاف، ومن هنا يتضح أن المقصود باللباس هو اللحاف وهو الغطاء أو السترة؛ لأن كل نساء النبي ﷺ لهن سترة، ولكن لم يأت الوحي إلا في بيت عائشة وهذا لفضلها ومن مناقبها رضي الله عنها.

الوجه الرابع: بيان فضل عائشة من خلال الحديث.

وعلى هذا نفهم من الحديث أن أم المؤمنين السيدة عائشة هي الوحيدة من زوجات النبي ﷺ التي كان ينزل الوحي عليه وهو نائم بجانبها في الفراش، أو بمعنى آخر في فراشها دون وضع جماع، وفي اللغة العربية من الممكن التعبير بالجزء عن الكل إذا اعتبرنا أن الثياب ملازم للمرء وملامس لجسده، وكذلك الفرش واللحاف لا يستغنى عنه المرء، ودائمًا ما يتردد عليه المرء للنوم، ويكون مهاد ورداء لجسده.

٤ـ شبهة موافقة عمر رضي الله عنه لربه.

نص الشبهة: في قول عمر رضي الله عنه (وافقت ربي في ثلاث)، يقولون: إن الوحي ينزل على حسب أهواء الناس، وفي الحديث شبهة أخرى ألا وهي: ادعاؤهم أن عمر رضي الله عنه كان يطلع على عورات نساء النبي ﷺ.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الوحي حاشاه أن يوافق أهواء الناس.

من الأسباب في نزول الحجاب ما رواه أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قالَ: أَنَا أَعْلَمُ النَّاسِ بِهَذِهِ الْآيَةِ آيَةِ الْحِجَابِ؛ لَمَّا أُهْدِيَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ رضي الله عنها إِلَى رَسُولِ الله ﷺ كَانَتْ مَعَهُ فِي الْبَيْتِ، صَنَعَ طَعَامًا وَدَعَا الْقَوْمَ فَقَعَدُوا يَتَحَدَّثُونَ فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْرُجُ ثُمَّ يَرْجِعُ وَهُمْ قُعُودٌ يَتَحَدَّثُونَ؛ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ فَضُرِبَ الْحِجَابُ وَقَامَ الْقَوْمُ.(١)

وفي رواية عن أنس قال: أَوْلَمَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ بَنَى بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ فَأَشْبَعَ النَّاسَ خُبزًا وَلحمًا، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى حُجَرِ اُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ صَبِيحَةَ بِنَائِهِ، فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِنَّ وَيُسَلِّمْنَ عَلَيْهِ وَيَدْعُو لَهُنَّ وَيَدْعُونَ لَهُ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى بَيْتِهِ رَأَى رَجُلَيْنِ جَرَى بِهِمَا الْحَدِيثُ، فَلَمَّا رَآهُمَا رَجَعَ عَنْ بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلَانِ نَبِيَّ الله ﷺ رَجَعَ عَنْ بَيْتِهِ وَثَبَا مُسْرِعَيْنِ، فَمَا أَدْرِي أَنَا أَخْبَرْتُهُ بِخُرُوجِهِمَا أَمْ أُخْبِرَ، فَرَجَعَ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ وَأَرْخَى السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَأُنْزِلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ(٢).

قال ابن حجر: وَمُحَصِّل الْقِصَّة أَنَّ الَّذِينَ حَضَرُوا الْوَلِيمَة جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ، وَاسْتَحْيَا النَّبِيّ ﷺ أَنْ يَأْمُرهُمْ بِالْخُرُوجِ، فَتَهَيَّأَ لِلْقِيَامِ لِيَفْطِنُوا لِمُرَادِهِ فَيَقُومُوا بِقِيَامِهِ، فَلَمَّا أَلْهَاهُمْ الْحَدِيث عَنْ ذَلِكَ قَامَ وَخَرَجَ فَخَرَجُوا بِخُرُوجِهِ، إِلَّا الثَّلَاثَة الَّذِينَ لَمْ يَفْطِنُوا لِذَلِكَ لِشِدَّةِ شُغْل بَالهمْ بِمَا كَانُوا فِيهِ مِنْ الْحَدِيث، وَفِي غُضُون ذَلِكَ كَانَ النَّبِيّ ﷺ يُرِيد أَنْ يَقُومُوا مِنْ غَيْر مُوَاجَهَتهمْ بِالْأَمْرِ بِالْخُرُوجِ لِشِدَّةِ حَيَائِهِ، فَيُطِيل الْغَيْبَة عَنْهُمْ بِالتَّشَاغُلِ بِالسَّلَامِ عَلَى نِسَائِهِ وَهُمْ فِي شُغْل بَالهمْ، وَكَانَ أَحَدهمْ فِي أَثْنَاء ذَلِكَ أَفَاقَ مِنْ غَفْلَته فَخَرَجَ وَبَقِيَ الِاثْنَانِ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ وَوَصَلَ النَّبِيّ ﷺ إِلَى مَنْزِله فَرَآهُمَا فَرَجَعَ، فَرَأَيَاهُ لَمَّا رَجَعَ، فَحِينَئِذٍ فَطِنَا فَخَرَجَا، فَدَخَلَ النَّبِيّ ﷺ، وَأُنْزِلَتْ الْآيَة فَأَرْخَى السِّتْر بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنَس خَادِمه أَيْضًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَهْد بِذَلِكَ(٣).

وإنما أوردت هذه الأسباب تبيينًا أن الحجاب لم ينزل موافقًا لرأي عمر وحده، أو أن الوحي يوافق أهواء الناس، بل هناك أسباب أخرى تقتضي مثلًا نزول الحجاب، وهناك أسباب غير ما أشار به عمر فيما وافق فيه ربه، وإنما هذه مجرد كرامات الأولياء يلقيها الله ﷻ

(١) البخاري (٤٧٩٢)، مسلم (١٤٢٨).

(٢) البخاري (٤٧٩٤).

(٣) فتح الباري (٨/ ٦٢٠).

على ألسنة أوليائه والملازمين لقرآنه وسنة نبيهم ﷺ جزاءً لهم على ما قدموا للإسلام والمسلمين.

قال في الدليل إلى المتون العلمية: وهي من فوائد مجالسة العلماء إذ يفتح للمتعلم بين أيديهم مالا يفتح له دونهم، ويبقى ذلك النور لهم بمقدار ما بقوا في متابعة معلمهم، وتأدبهم معه واقتدائهم به، فهذا الطريق نافع على كل تقدير(١). **وهذا أولًا.**

ثانيًا: أن عمرﷺ كان ملهمًا مُحَدَّثًا، وهذه نعمة من الله تبارك وتعالى على عبده الذي دافع عن الإسلام والمسلمين، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنْ الأَمَمِ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ(٢).

ثالثًا: هذا اجتهاد من عمرﷺ ووافقه الله تعالى بقدره؛ لأنه رأى الصواب وألهمه الله ﷻ الصواب في ذلك، فليس معنى أن الوحي يوافق كلامه أن الوحي ينزل على هوى الناس، ويؤيد ذلك حديث: (إِنَّ الله جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ)، وقَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَا نَزَلَ بِالنَّاسِ أَمْرٌ قَطُّ فَقَالُوا فِيهِ وَقَالَ فِيهِ عُمَرُ أَوْ قَالَ (ابْنُ الْخَطَّابِ) فِيهِ ـ شَكَّ خَارِجَةُ ـ إِلَّا نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ عَلَى نَحْوِ مَا قَالَ عُمَرُ(٣).

فمن قول ابن عمر أيضًا: (فقالوا فيه. . .) يدل على أن باب الاجتهاد مفتوح، وأنه ليس عمر وحده الذي يجتهد، ولكن تشريفًا لعمر أجرى الله الصواب على لسانه، وما قال عمر كان سينزله الله سواءً قاله عمر أو لم يقله.

رابعًا: أن كلام الله ﷻ من صفاته تعالى، وهي صفات أزلية، فالله لم يزل ولا يزال متكلمًا، وكلام عمر وفعله حادث لاحق.

---

(١) الدليل إلى المتون العلمية لعبد العزيز بن إبراهيم بن قاسم (١/ ٣٧).

(٢) البخاري (٣٦٨٩)، مسلم (٢٣٩٨).

(٣) سنن الترمذي من حديث ابن عمر (٣٦٨٢)، مسند أحمد (٢/ ٤٠١، ٥٣)، قال أبو عيسى: وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٩٠٨).

قال الملا علي القاري: قال الطيبي: ما أحسن هذه العبارة وما ألطفها حيث راعى فيها الأدب الحسن ولم يقل وافقني ربي، مع أن الآيات إنما نزلت موافقة لرأيه واجتهاده[١].

الوجه الثاني: المعنى الصحيح للحديث.

عَنْ أَنَسٍ ﷺقال: قَالَ عُمَرُ: وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله لَواتَّخَذْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى فَنَزَلَتْ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وَآيَةُ الْحِجَابِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله لَوأَمَرْتَ نِسَاءَكَ أَنْ يَحْتَجِبْنَ فَإِنَّهُ يُكَلِّمُهُنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ؛ فَنَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ. وَاجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَيْرَةِ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُنَّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

هذه رواية البخاري، أما رواية مسلم فقال: في مقام إبراهيم وفي الحجاب وفي أسارى بدر[٢].

قال ابن حجر: قَوْلُه: (وَافَقْت رَبِّي فِي ثَلَاث)، أَيْ: وَقَائِع، وَالْمَعْنَى: وَافَقَنِي رَبِّي فَأَنْزَلَ الْقُرْآن عَلَى وَفْق مَا رَأَيْت، لَكِنْ لِرِعَايَةِ الْأَدَب أَسْنَدَ الْمُوَافَقَة إِلَى نَفْسه، أو أَشَارَ بِهِ إِلَى حُدُوث رَأْيه وَقِدَم الْحُكْم، وَلَيْسَ فِي تَخْصِيصه الْعَدَد بِالثَّلَاثِ مَا يَنْفِي الزِّيَادَة عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهُ حَصَلَتْ لَهُ الْمُوَافَقَة فِي أَشْيَاء غَيْر هَذِهِ مِنْ مَشْهُورهَا قِصَّة أَسَارَى بَدْر، وَقِصَّة الصَّلَاة عَلَى الْمُنَافِقِينَ، وَهُمَا فِي الصَّحِيح.

وقال ابن رشيد: اجْتَهَدَ عُمَر فِي أَنْ اخْتَارَ أَنْ يَكُون الْمُصَلَّى إِلَى مَقَام إِبْرَاهِيم الَّذِي هُوَ فِي وَجْه الْكَعْبَة، فَاخْتَارَ إِحْدَى جِهَات الْقِبْلَة بِالِاجْتِهَادِ، وَحَصَلَتْ مُوَافَقَته عَلَى ذَلِكَ فَدَلَّ عَلَى تَصْوِيب اجْتِهَاد الْمُجْتَهِد إِذَا بَذَلَ وُسْعه وَلَا يَخْفِي مَا فِيهِ[٣].

قال النووي رحمه الله: هَذَا مِنْ أَجَلِّ مَنَاقِب عُمَر وَفَضَائِله، وَلَيْسَ فِي لَفْظه مَا يَنْفِي زِيَادَة الْمُوَافَقَة. وَالله أَعْلَمُ، وَجَاءَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَة: (وَافَقْت رَبِّي فِي ثَلَاثٍ)، وَفَسَّرَهَا بِهَذِهِ الثَّلَاث. وَجَاءَ فِي رِوَايَة أُخْرَى فِي الصَّحِيح: (اِجْتَمَعَ نِسَاء رَسُول الله ﷺ عَلَيْهِ فِي الْغَيْرَة.

---

(١) مرقاة المفاتيح (كتاب مناقب عمر، الفصل الثالث).

(٢) البخاري (٤٠٢)، مسلم (٢٣٩٩) عن ابن عمر.

(٣) فتح الباري (١/ ٥٩٣: ٥٩٢).

..)، وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي ذَكَرَهُ مُسْلِم بَعْد هَذَا مُوَافَقَته فِي مَنْعِ الصَّلَاة عَلَى الْمُنَافِقِينَ، وَنُزُول الْآيَة بِذَلِكَ[١]، وَجَاءَتْ مُوَافَقَته فِي تَحْرِيم الْخَمْر[٢].

قال ابن رجب: وقول عمر: (وافقت ربي في ثلاث)، ليس بصيغة حصر، فقد وافق في أكثر من هذه الخصال الثلاث والأربع. ومما وافق فيه القرآن قبل نزوله: النهي عن الصلاة على المنافقين[٣]. وقوله لليهود: من كان عدوا لجبريل، فنزلت الآية.

وقوله للنبي ﷺ لما اعتزل نساءه ووجد عليهن: يا رسول الله، إن كنت طلقتهن، فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك[٤].

قال عمر: وقل ما تكلمت - وأحمد الله - بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي الذي أقول، فنزلت آية التخيير: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ (التحريم: ٥)[٥].

وهذا من الموافقة من باب المفاعلة التي تدل على مشاركة اثنين في فعلٍ يُنسب إلى أحدهما متعلقًا بالآخر، والمعنى في الأصل: وافقني ربي فأنزل القرآن على وفق ما رأيت، ولكنه راعى الأدب فأسند الموافقة إلى نفسه لا إلى الرب جل وعز، والتخصيص بالعدد لا يدل على نفي الزائد[٦].

الوجه الثالث: فضائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإبطال ما رُمِيَ به من أنه يطلع على عورات زوجات النبي ﷺ.

عمر بن الخطاب الملهم:

لعمر فضائل جمة ومناقب لا تحصى، تكفيه أن يصل إلى هذه المرتبة وهي أن يوافق كلامه كلام الوحي من الله تعالى بإذن الله ﷻ، وليس في هذا اتهام للوحي أنه ينزل موافقًا

---

(١) مسلم (٢٤٠٠).

(٢) شرح النووي (٩/ ١٨٠).

(٣) البخاري (١٣٦٦)، مسلم (٢٤٠٠).

(٤) مسلم (١٤٧٩).

(٥) فتح الباري لابن رجب (٣/ ١٥٣)، وأما موافقته في قوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧]، فرواه: أبو جعفر الرازي، عن حصين بن عبد الرحمن، عن ابن أبي ليلى، عن عمر ورواه: داود، عن الشعبي، عن عمر، وهما منقطعان.

(٦) عمدة القاري (٤/ ١٤٣).

لآراء الناس، ولكن يُلقي اللهﷻ على لسان أمثال عمر ما يوافق كلامهﷻ الذي سينزله على خلقه تشريفًا لصاحب هذا اللسان.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **"لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الأمَمِ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ"**.

زَادَ زَكَرِيَّاءُ بْنُ أَبِي زَائِدَةَ عَنْ سَعْدٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " **لَقَدْ كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ رِجَالٌ يُكَلَّمُونَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ فَإِنْ يَكُنْ مِنْ أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَعُمَرُ** "[1].

قَالَ أَبُو عِيسَى: حَدَّثَنِي بَعْضُ أَصْحَابِ سفْيَانَ قَالَ: قَالَ سفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ مُحَدَّثُونَ يَعْنِي مُفَهَّمُونَ[2].

قَوْله: (مُحَدَّثُونَ) بِفَتْحِ الدَّال جَمْع مُحَدَّث، وَاخْتُلِفَ فِي تَأْوِيله فَقِيلَ: مُلْهَم، قَالَهُ الْأَكْثَر قَالُوا: الْمُحَدَّث بِالْفَتْحِ هُوالرَّجُل الصَّادِق الظَّنّ، وَهُوَ مَنْ أُلْقِيَ فِي رُوعه شَيْء مِنْ قِبَل الْمَلَأ الْأَعْلَى فَيَكُون كَالَّذِي حَدَّثَهُ غَيْره بِهِ، وَقِيلَ: مَنْ يَجْرِي الصَّوَاب عَلَى لِسَانه مِنْ غَيْر قَصْد، وَقِيلَ مُكَلَّم أَيْ تُكَلِّمهُ الْمَلَائِكَة بِغَيْرِ نُبُوَّة.

وقال ابن حجر: وَيَحْتَمِل رَدّه إِلَى الْمَعْنَى الْأَوَّل أَيْ تُكَلِّمهُ فِي نَفْسه، وَإِنْ لَمْ يَرَ مُكَلِّمًا فِي الْحَقِيقَة فَيَرْجِع إِلَى الْإِلْهَام، وَفَسَّرَهُ اِبْن التِّين بِالتَّفَرُّسِ، وَوَقَعَ فِي مُسْنَد "الْحُمَيْدِيّ " عَقِب حَدِيث عَائِشَة: " الْمُحَدَّث الْمُلْهَم بِالصَّوَابِ الَّذِي يُلْقَى عَلَى فِيهِ"[3].

وَفِي رِوَايَة الْإِسْمَاعِيلِيّ " قَالَ إِبْرَاهِيم – يَعْنِي: اِبْن سَعْد: رِوَايَة قَوْله: مُحَدَّث، أَيْ يُلْقَى فِي رُوعه "[4]، وَيُؤَيِّدهُ حَدِيث " إِنَّ الله جَعَلَ الْحَقّ عَلَى لِسَان عُمَر وَقَلْبه ".

---

(١) البخاري (٣٦٨٩)، مسلم (٢٣٩٨) عن عائشة، ورواه أحمد عن عائشة (٦/ ٥٥).

(٢) الترمذي (٥/ ٦٢٢).

(٣) مسند الحميدي (٢٥٣).

(٤) فتح الباري (٧/ ٥٨).

وقَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَا نَزَلَ بِالنَّاسِ أَمْرٌ قَطُّ فَقَالُوا فِيهِ وَقَالَ فِيهِ عُمَرُ أَوْ قَالَ ابْنُ الْخَطَّابِ فِيهِ ـ شَكَّ خَارِجَةُ ـ إِلَّا نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ عَلَى نَحْوِ مَا قَالَ عُمَرُ(١). قال ابن وهب: تفسير محدثون: ملهمون(٢).

وقال البخاري: يجري الصواب على ألسنتهم، وقال النووي: وفي الحديث إثبات كرامات الأولياء(٣).

عمر بن الخطاب رضي الله عنه وما له في الجنة:

فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **رَأَيْتُنِي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِالرُّمَيْصَاءِ امْرَأَةِ أَبِي طَلْحَةَ، وَسَمِعْتُ خَشَفَةً فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا بِلَالٌ. وَرَأَيْتُ قَصْرًا بِفِنَائِهِ جَارِيَةٌ فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا؟ فَقَالَ لِعُمَرَ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَهُ فَأَنْظُرَ إِلَيْهِ فَذَكَرْتُ غَيْرَتَكَ. فَقَالَ عُمَرُ بِأَبِي وأمي يَا رَسُولَ الله أَعَلَيْكَ أَغَارُ "(٤).**

وهذه شهادة من النبي ﷺ بأن عمر في الجنة، وقد قال في حديث العشرة (وعمر في الجنة)(٥).

عمر بن الخطاب رضي الله عنه العالم:

عن عروة أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: **بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ شَرِبْتُ يَعْنِي اللَّبَنَ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَى الرِّيِّ يَجْرِي فِي ظُفُرِي أَوْ فِي أَظْفَارِي ثُمَّ نَاوَلْتُ عُمَرَ فَقَالُوا فَمَا أَوَّلْتَهُ يا رسول الله؟ قَالَ: الْعِلْمَ**(٦).

وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ، مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدِيَّ، وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ، وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ، قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: الدِّينَ**(٧).

---

(١) سنن الترمذي من حديث ابن عمر (٣٦٨٢)، مسند أحمد (٢/ ٤٠١، ٥٣)، قال أبو عيسى: وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٩٠٨).

(٢) شرح النووي (٨/ ١٨٠: ١٧٦).

(٣) شرح النووي (١/ ١٨٠)، وانظر عمدة القاري (٤/ ١٤٣).

(٤) البخاري (٣٦٧٩)، مسلم (٢٣٩٥) عن أبي هريرة.

(٥) الترمذي (٣٧٤٧)، أبو داود (٤٦٤٩)، ابن ماجه (١٣٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٣١٩).

(٦) البخاري (٣٦٨١)، مسلم (٢٣٩١).

قَالَ أَهْل الْعِبَارَة: الْقَمِيصُ فِي النَّوْم الدِّين، وَجَرُّهُ يَدُلُّ عَلَى بَقَاء آثَاره الجَمِيلَة وَسُنَنه الْحَسَنَة فِي الْمُسْلِمِينَ بَعْد وَفَاته لِيُقْتَدَى بِهِ. وَأَمَّا تَفْسِير اللَّبَن بِالْعِلْمِ فَلِاشْتِرَاكِهِمَا فِي كَثْرَة النَّفْع، وَفِي أَنَّهُمَا سَبَب الصَّلَاح، فَاللَّبَن غِذَاء الْأَطْفَال، وَسَبَب صَلَاحهمْ، وَقُوتٌ لِلْأَبْدَانِ بَعْد ذَلِكَ، وَالْعِلْم سَبَبٌ لِصَلَاحِ الْآخِرَة وَالدُّنْيَا[٢].

الشيطان يخاف من عمر ﷺ:

عن سعد بن أبي وقاص: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: إِيهًا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا قَطُّ إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ[٣].

فيه فضيلة عظيمة لعمر تقتضي أن الشيطان لا سبيل له عليه[٤].

العزة بعمر ﷺ: قال عَبْدُ الله بن مسعود ﷺ: مَازِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ[٥].

لزومه للنبي ﷺ: يقول ابن عباس ﷺ: وَحَسِبْتُ إِنِّي كُنْتُ كَثِيرًا أَسْمَعُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبو بَكْرٍ وَعُمَرُ[٦].

عمر ﷺ الشهيد:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أُحُدٍ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ، فَرَجَفَ بِهِمْ فَضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ وقَالَ: اثْبُتْ أُحُدُ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْشَهِيدَانِ.

توفي عنه النبي ﷺ وهو راض عنه: قال ابن عباس وكأنه يجزعه لما طعن: لَقَدْ صَحِبْتَ رَسُولَ الله ﷺ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ[٧].

فهل يقال في مثل ذلك الرجل: أنه يطلع على عورات زوجات النبي ﷺ؟.

---

(١) مسلم (٢٣٩٠).

(٢) شرح النووي (٨/ ١٧٧).

(٣) البخاري (٣٦٨٣).

(٤) فتح الباري (٧/ ٥٣).

(٥) البخاري (٣٦٨٤).

(٦) البخاري (٣٦٨٥)، مسلم (٢٣٨٩).

(٧) البخاري (٣٦٩٢).

الوجه الرابع: عمر حاشاه أن يطلع على عورات زوجات النبيﷺ.

إن في الحديث نفسه ما يدل على غيرة عمرﷺ على نساء النبيﷺ، فكيف يطلع على العورات؟ حيث قال: (يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ فَلَو أمرت أمهات الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ فَأَنْزَلَ الله آيَةَ الْحِجَابِ)(١).

وعَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: خَرَجَتْ سَوْدَةُ بَعْدَمَا ضُرِبَ الْحِجَابُ لِحَاجَتِهَا، وَكَانَتْ امْرَأَةً جَسِيمَةً لَا تَخْفي عَلَى مَنْ يَعْرِفُهَا، فَرَآهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا سَوْدَةُ أَمَا وَالله مَا تَخْفَيْنَ عَلَيْنَا فَانْظُرِي كَيْفَ تَخْرُجِينَ؟ ، قَالَتْ فَانْكَفَأَتْ رَاجِعَةً وَرَسُولُ الله ﷺ فِي بَيْتِي، وَإِنَّهُ لَيَتَعَشَّى وَفِي يَدِهِ عَرْقٌ فَدَخَلَتْ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي خَرَجْتُ لِبَعْضِ حَاجَتِي فَقَالَ لِي عُمَرُ كَذَا وَكَذَا، قَالَتْ فَأَوْحَى الله إِلَيْهِ ثُمَّ رُفِعَ عَنْهُ وَإِنَّ الْعَرْقَ فِي يَدِهِ مَا وَضَعَهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنَّ(٢).

قال ابن حجر: وَالْحَاصِل أَنَّ عُمَر ﷺ وَقَعَ فِي قَلْبه نُفْرَة مِنْ اِطِّلَاع الْأَجَانِب عَلَى الْحَرِيم النَّبَوِيّ، حَتَّى صَرَّحَ بقوله لَهُ ﷺ: "احْجُبْ نِسَاءَك "، وَأَكَّدَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ نَزَلَتْ آيَة الْحِجَاب، ثُمَّ قَصَدَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ لَا يُبْدِينَ أَشْخَاصهنَّ أَصْلًا وَلَوْ كُنَّ مُسْتَتِرَات، فَبَالَغَ فِي ذَلِكَ فَمَنَعَ مِنْهُ، وَأَذِنَ لَهُنَّ فِي الْخُرُوج لِحَاجَتِهِنَّ دَفْعًا لِلْمَشَقَّةِ وَرَفْعًا لِلْحَرَج(٣).

قال النووي: وَفِي هَذَا الْحَدِيث مَنْقَبَة ظَاهِرَة لِعُمَر اِبْن الْخَطَّاب ﷺ، وَفِيهِ تَنْبِيه أَهْل الْفَضْل وَالْكِبَار عَلَى مَصَالِحهمْ، وَنَصِيحَتهمْ، وَتَكْرَار ذَلِكَ عَلَيْهِمْ(٤).

(١) البخاري (٤٧٩٠)، مسلم (٢٣٩٩).
(٢) البخاري (٤٧٩٥)، مسلم (٢١٧٠).
(٣) فتح الباري (٨/ ٦٢٢).
(٤) شرح النووي (٧/ ٤٠٧).

٥ـ شبهة: ادعاؤهم انقطاع الوحي بسبب جرو.

نص الشبهة: انقطاع الوحي بسبب جرو فأنزلت الآية ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾

فجوابه من وجوه:

الوجه الأول: بيان ضعف حديث الجرو الذي ذكر أنه سبب في نزول هذه الآية

عن خولة، وكانت خادمة رسول الله ﷺ، أن جروًا دخل البيت، فدخل تحت السرير فمات، فمكث نبي الله ﷺأيامًا لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة ما حدث في بيتي؟ جبريل عليه السلاملا يأتيني، قالت خولة: لو هيأتُ البيت وكنستُه، فأهويت بالمكنسة تحت السرير فإذا شيء ثقيل، فلم أزل حتى أخرجته فإذا هو جرو ميت، فأخذته فألقيته خلف الجدار، فجاء نبي الله ﷺترعد لحياه، وكان إذا نزل الوحي استقبلته الرعدة فقال: يا خولة دثريني، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾.[1]

قال ابن حجر: وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب بل شاذ مردود بما في الصحيح والله أعلم.[2]

الوجه الثاني: بيان السبب الصحيح للآية

ورد للآية أكثر من سبب نزول صحيح منها:

١- عن جندب البجلي قال: اشتكى النبي ﷺفلم يقل ليلة أو ليلتين، فأتته امرأة فقالت: يا محمد! ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.[3]

---

(١) ضعيف. أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٤٤٣)، والطبراني في الكبير ٢٤/ ٢٤٩، وأبو نعيم في معرفة الصحابة من طريق الطبراني (٧٦٥٣)، وأخرجه الواحدي في أسباب النزول (١٥٩) كلهم من طريق واحد عن حفص بن سعيد القرشي الأعور، قال: حدثتني أمي عن أمها خولة. . . به.

قلت: وفي الحديث أم حفص وهي مجهولة؛ قال ابن عبد البر في الاستيعاب ٤/ ٣٩٣، وليس إسناد حديثها في ذلك مما يحتج به، قال الهيثمي في المجمع ٧/ ١٤١: رواه الطبراني، وأم حفص لم أعرفها. وقال البوصيري في الزوائد: ٨/ ١٩٨ وهذا إسناد ضعيف.

(٢) فتح الباري ٨/ ٧١٠.

(٣) البخاري (٤٦٩٨)، ومسلم (١٧٩٧).

٢- وعنه أيضًا: قالت امرأة يا رسول الله ما أرى صاحبك إلا أبطأك فنزلت: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ .[1]

٣- وعنه أيضا: أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ، فقال المشركون: قد وُدِّع محمد؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾[2]

الوجه الثالث: بيان أن الوحي تأخر ولم ينقطع مع ذكر سبب تأخره.

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: وَاعَدَ رَسُولَ الله ﷺ جِبْرِيلُ ﵇ في سَاعَةٍ يَأْتِيهِ فِيهَا، فَجَاءَتْ تِلْكَ السَّاعَةُ وَلَمْ يَأْتِهِ، وَفِي يَدِهِ عَصًا فَأَلْقَاهَا مِنْ يَدِهِ وَقَالَ: « مَا يُخْلِفُ الله وَعْدَهُ وَلاَ رُسُلُهُ »، ثُمَّ الْتَفَتَ فَإِذَا جَرْوُ كَلْبٍ تَحْتَ سَرِيرِهِ فَقَالَ: « يَا عَائِشَةُ مَتَى دَخَلَ هَذَا الْكَلْبُ هَا هُنَا؟ »، فَقَالَتْ: وَالله مَا دَرَيْتُ، فَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ؛ فَجَاءَ جِبْرِيلُ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « وَاعَدْتَنِي فَجَلَسْتُ لَكَ فَلَمْ تَأْتِ ». فَقَالَ: منعني الْكَلْبُ الذي كَانَ في بَيْتِكَ، إِنَّا لاَ نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلاَ صُورَةٌ.[3]

قال النووي: قال العلماء: سبب امتناعهم من بيت فيه صورة كونها معصية فاحشة، وفيها مضاهاة لخلق الله تعالى، وبعضها في صورة ما يعبد من دون الله تعالى. وسبب امتناعهم من بيت فيه كلب؛ لكثرة أكله النجاسات، ولأن بعضها يسمى شيطانا كما جاء به الحديث، والملائكة ضد الشياطين، ولقبح رائحة الكلب والملائكة تكره الرائحة القبيحة، ولأنها منهي عن اتخاذها؛ فعوقب متخذها بحرمانه دخول الملائكة بيته، وصلاتها فيه، واستغفارها له، وتبريكها عليه وفي بيته، ودفعها أذى للشيطان.

وأما هؤلاء الملائكة الذين لا يدخلون بيتا فيه كلب أو صورة فهم ملائكة يطوفون بالرحمة والتبريك والاستغفار، وأما الحفظة فيدخلون في كل بيت، ولا يفارقون بني آدم في كل حال؛ لأنهم مأمورون بإحصاء أعمالهم، وكتابتها. قال الخطابي: وإنما لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو صورة مما يحرم اقتناؤه من الكلاب والصور، فأما ما ليس بحرام من كلب الصيد والزرع

(١) البخاري (٤٦٦٨).

(٢) مسلم (١٧٩٧).

(٣) مسلم (٢١٠٤).

والماشية والصورة التي تمتهن في البساط والوسادة وغيرهما فلا يمتنع دخول الملائكة بسببه، وأشار القاضي إلى نحو ما قاله الخطابي. والأظهر أنه عام في كل كلب، وكل صورة، وأنهم يمتنعون من الجميع لإطلاق الأحاديث، ولأن الجرو الذي كان في بيت النبي ﷺ تحت السرير كان له فيه عذر ظاهر؛ فإنه لم يعلم به، ومع هذا امتنع جبريل عليه السلام من دخول البيت، وعلل بالجرو، فلو كان العذر في وجود الصورة والكلب لا يمنعهم لم يمتنع جبريل. والله أعلم[١].

٦ـ شبهة امتحان خديجة للوحي:

نص الشبهة:

أن النبي ﷺكان لايعرف من يأتيه، واستُدل على ذلك بامتحان خديجة للوحي عن طريق خلع خمارها كما في الحديث، قالت: " قلت: يا رسول الله يا ابن عمي، هل تستطيع إذا جاءك الذي يأتيك أن تخبرني به؟ فقال لي رسول الله ﷺ: نعم يا خديجة، قالت خديجة: فجاءه جبريل ذات يوم وأنا عنده فقال رسول الله ﷺ: يا خديجة هذا صاحبي الذي يأتيني قد جاء، فقلت له: قم فاجلس على فخذي الأيمن فقام فجلس على فخذي الأيمن، فقلت له: هل تراه؟ قال: نعم، فقلت له: تحول فاجلس على فخذي الأيسر فجلس، فقلت: هل تراه؟ قال: نعم، فقلت له: فتحول فاجلس في حجري فجلس، فقلت له: هل تراه؟ قال: نعم، قالت خديجة: فتحسرت وطرحت خماري، وقلت له: هل تراه؟ قال: لا، فقلت له: هذا والله ملك كريم لا والله ما هذا شيطان، قالت خديجة: فقلت لورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزي بن قصي ذلك كما أخبرني به محمد رسول الله، فقال ورقة: حقًا يا خديجة". [٢]

الجواب على ذلك من وجوه

الوجه الأول: الحديث لا يصح. [٣]

---

(١) شرح النووي ١٤/ ٨٤.

(٢) انظر: سيرة ابن إسحاق (١/ ١١٣)، الطبري في التاريخ (١/ ٥٣٣)، الطبراني في الأوسط (٦/ ٢٨٧)، البيهقي في الدلائل (٢/ ١٥١).

(٣) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (١/ ١١٣)، ومن طريقه الطبري في التاريخ (١/ ٥٣٣)، الطبراني في الأوسط (٦/ ٢٨٧)، البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٥١)، كلهم من طريق إسماعيل بن أبي حكيم، والحديث فيه أكثر من علة، فيه:

الوجه الثاني: افتراض أن القصة ثابتة:

هذا شيء كانت خديجة رضي الله عنها تصنعه تستثبت به الأمر احتياطًا لدينها وتصديقها، فأما النبي ﷺ فقد كان قد وثق بما قال له جبريل وأراه من الآيات التي ذكرناها مرة بعد أخرى، وما كان من تسليم الشجر والحجر عليه، وما كان من إجابة الشجر لدعائه، وذلك بعدما كذبه قومه وشكاهم إلى جبريل عليه السلام فأراد أن يطيب قلبه. (١)

* * *

أ- الحارث بن محمد الفهري.

قال ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ٤٦): مجهول، وقال ابن عبد الهادي في تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق (٣/ ٢٤): لا يعرف، مجهول، وهذه العلة تكفي لإسقاط الطريق.

ب- يحيى بن سليمان بن نضلة المدني.

قال أبو حاتم في الجرح والتعديل (٩/ ١٥٤): شيخ حدث أيامًا ثم توفي، وقال عبد الرحمن بن خراشي في الكامل لابن عدي (٧/ ٢٥٦): لا يساوي فلسًا، وقال ابن حبان في الثقات (٩/ ٢٦٩): يخطئ ويهم.

ج-النضر بن سلمة.

قال أبو حاتم في الجرح والتعديل (٨/ ٤٨٠): كان يفتعل الحديث، وقال ابن حجر في الإصابة (٤/ ٢٦٢): كذاب، وفي موضع آخر: متروك.

ومن طريق آخر أخرجه ابن إسحاق أيضًا في السيرة (١/ ٤٣)، ومن طريقه الطبري في التاريخ (١/ ٥٣٤)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ١٥١)، وعلته الانقطاع بين فاطمة وخديجة رضي الله عنهما، حيث إن فاطمة بنت الحسين من الطبقة الرابعة طبقة تلي الوسطى من التابعين (تقريب التهذيب (٨٦٥٢)، وهي بنت الحسين بن علي بن أبي طالب، والحسين لم يلق خديجة رضي الله عنها، لأن خديجة ماتت قبل الهجرة (الإصابة لابن حجر٢/ ٧٦)، تهذيب الكمال (٦/ ٣٩٦)، وضعف الألباني القصتين، ونقل تضعيف القصة عن شيخ الإسلام ابن تيمية كما في رسالة لباس المرأة المسلمة، انظر الضعيفة (٦٠٩٧).

(١) البيهقي في الدلائل (٢/ ١٥٢).

١٣ـ شبهة: ادعاؤهم أن القرآن من تأليف النبي محمدﷺ.

نص الشبهة:

هذا الطعن من أقدم الطعون وقد ذكر في القرآن كما في قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (النحل: ١٠١) أي أنك متقول على الله تعالى.

وكما قال سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ (الفرقان: ٤)، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (السجدة: ٣)، ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ (سبأ: ٨)، ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ (سبأ: ٤٣).

ولا زال الطاعنون يرددون هذه الشبهة إلى اليوم[1]:

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: الرد الصريح من القرآن على هذه الفرية.

الوجه الثاني: عجز البشر أن يأتوا بمثله دليلٌ أنه من عند الله.

الوجه الثالث: آيات العتاب.

الوجه الرابع: تبرؤ محمد ﷺ من نسبة القرآن إليه ليس ادعاء يحتاج بينة، بل هو إقرار يؤخذ به صاحبه.

الوجه الخامس: موقف الرسول ﷺ من النص القرآني موقف المفسر الذي يتلمس الدلالات، ويأخذ بأرفق احتمالاتها.

الوجه السادس: ما نزل بعد طول انتظار.

---

(١) راجع كلام الطاعنين كما نقله صاحب كتاب: "دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم" (١٨٣: ١٨١).

الوجه السابع: حال النبي ﷺ لتثبيت القرآن عند نزوله.

الوجه الثامن: عجز الرسول ﷺ عن الإتيان ببدل له.

الوجه التاسع: نسبة محمد ﷺ القرآن إلى الله لا تكون احتيالًا منه لبسط نفوذه، وإلا لِمَ لَمْ ينسب أقواله كلها إلى الله.

الوجه العاشر: آية المباهلة.

الوجه الحادي عشر: توقف الرسول ﷺ أحيانًا في فهم مغزى النص حتى يأتيه البيان.

الوجه الثاني عشر: الغيبيات التي ذكرت في القرآن.

الوجه الثالث عشر: بقاء القرآن محفوظًا دليلٌ على أنه من عند الله.

الوجه الرابع عشر: أوقات نزول القرآن على النبي ﷺ.

الوجه الخامس عشر: الآيات التي تجرد الرسول ﷺ من نسبتها إليه.

الوجه السادس عشر: الفرق بين كلام الله ﷻ وبين كلام النبي محمد ﷺ.

وإليك التفصيل [1]

الوجه الأول: **الرد الصريح من القرآن على هذه الفرية كقوله تعالى** ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

فَصَلَ الله تعالى هذه القضية بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (يونس: ٣٧).

قال ابن كثير: هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من مثله؛ لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحَلاوته، واشتماله على المعاني العزيزة النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في

---

(١) اعلم – هداني الله وإياك – أن هذه الوجوه التي ستذكر كافية لإثبات أن القرآن من عند الله ولم يؤلفه بشر لا نبي، ولا قس، ولا راهب، ولا هو مقتبس من التوراة والإنجيل أو غير ذلك، إلا أنه قد خص في هذا المبحث الرد على من زعم أن القرآن من تأليف النبي محمد ﷺ، على أن يخصص للرد على ما سبق ذكره في مسائل مستقلة. والله المستعان.

ذاته ولا صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر، ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي: من الكتب المتقدمة، ومهيمنا عليها، ومبينا لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل.

وقوله: ﴿ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي: وبيان الأحكام والحلال والحرام، بيانًا شافيًا كافيًا حقًا لا مرية فيه من الله رب العالمين. [(١)]

لقد علم الناس أجمعون - علمًا لا يخالطه شك - أن هذا الكتاب العزيز جاء على لسان رجل عربي أمي، ولد بمكة في القرن السادس الميلادي، اسمه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ، هذا القدر لا خلاف فيه بين مؤمن وملحد؛ لأن شهادة التاريخ المتواتر به لا يماثلها ولا يدانيها شهادته لكتاب غيره ولا لحادث غيره ظهر على وجه الأرض.

أما بعد؛ فمن أين جاء به محمد بن عبد الله ﷺ؟ أَمنْ عند نفسه ومن وحي ضميره، أم من معلم؟ ومَن هو ذلك المعلم؟

نقرأ في هذا الكتاب أنه ليس من عمل صاحبه، وإنما هو قول رسول كريم، ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثَمَّ أمين: ذلكم هو جبريل عليه السلام، تلقاه من لدن حكيم عليم، ثم نزله بلسان عربي مبين على قلب محمد ﷺ، فتلقنه محمد منه كما يتلقن التلميذ عن أستاذه نصًا من النصوص، ولم يكن له فيه من عمل بعد ذلك إلا:

١) الوعي والحفظ. ٢) ثم التبليغ.

٣) ثم البيان والتفسير. ٤) ثم التطبيق والتنفيذ.

أما ابتكار معانيه وصياغة مبانيه فما هو منها بسبيل، وليس له من أمرهما شيء إن هو إلا وحيٌ يوحى.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ٢٦٨.

هكذا سماه القرآن حيث يقول: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ﴾ (الأعراف: ٢٠٣)، ويقول: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ (يونس: ١٥) وأمثال هذه النصوص كثيرة في شأن إيحاء المعاني، ثم يقول في شأن الإيحاء اللفظي: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ (يوسف: ٢)، ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴾ (الأعلى: ٦)، ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (القيامة: ١٦ -١٩)، ﴿ اقْرَأْ ﴾ (العلق: ١)، ﴿ وَاتْلُ ﴾ (الكهف: ٢٧)، ﴿ وَرَتِّلِ ﴾ (المزمل: ٤) فانظر كيف عبر بالقرآن بالقراءة والإقراء، والتلاوة والترتيل، وتحريك اللسان، وكون الكلام عربيًا، وكل أولئك من عوارض الألفاظ لا المعاني البحتة.

القرآن إذًا صريح في أنه "لا صنعة فيه لمحمدﷺ، ولا لأحد من الخلق، وإنما هو منزل من عند الله بلفظه ومعناه"، والعجب أن يبقى بعض الناس في حاجة إلى الاستدلال على الشطر الأول من هذه المسألة، وهو أنه ليس من عند محمدﷺ[1].

الوجه الثاني: عجز البشر أن يأتوا بمثله دليلٌ أنه من عند الله.

لو كان القرآن من تأليف النبيﷺ، لاستطاع العرب أن يأتوا بمثله، مع حرصهم الشديد على معارضته، لكن النبيﷺكان يتحداهم دائمًا ويكرره عليهم كثيرًا، ومع هذا لم يطق أحد منهم معارضته.

قال الشوكاني: قوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ أي: إن كان الأمر كما تزعمون من أن محمدًا افتراه، فأتوا أنتم على جهة الافتراء بسورة مثله في البلاغة، وجودة الصناعة، فأنتم مثله في معرفة لغة العرب وفصاحة الألسن وبلاغة الكلام ﴿ وَادْعُوا ﴾ بمظاهريكم ومعاونيكم ﴿ مَنِ اسْتَطَعْتُم ﴾ دعاءه والاستعانة به، من قبائل العرب، ومن آلهتكم التي تجعلونهم شركاء لله. وقوله: ﴿ مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ متعلق ب ﴿ وَادْعُوا ﴾: أي ادعوا

(١) النبأ العظيم لعبد الله دراز (٤٩-٥٠).

من سوى الله من خلقه ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم أن هذا القرآن مفترى.

وسبحان الله العظيم ما أقوى هذه الحجة وأوضحها، وأظهرها للعقول، فإنهم لما نسبوا الافتراء إلى واحد منهم في البشرية والعربية، قال لهم: هذا الذي نسبتموه إليّ وأنا واحد منكم، ليس عليكم إلا أن تأتوا، وأنتم الجمع الجمّ، بسورة مماثلة لسورة من سوره، واستعينوا بمن شئتم من أهل هذه اللسان العربية على كثرتهم وتباين مساكنهم، أو من غيرهم من بني آدم، أو من الجنّ، أو من الأصنام، فإن فعلتم هذا بعد اللتيا والتي، فأنتم صادقون فيما نسبتموه إليّ وألصقتموه بي. فلم يأتوا عند سماع هذا الكلام المنصف، والتنزّل البالغ، بكلمة ولا نطقوا ببنت شفة، بل كاعوا عن الجواب، وتشبثوا بأذيال العناد البارد، والمكابرة المجردة عن الحجة، وذلك مما لا يعجز عنه مبطل، ولهذا قال سبحانه عقب هذا التحدّي البالغ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ فأضرب عن الكلام الأوّل، وانتقل إلى بيان أنهم سارعوا إلى تكذيب القرآن، قبل أن يتدبروه ويفهموا معانيه، وما اشتمل عليه، وهكذا صُنع من تصلب في التقليد، ولم يبال بما جاء به من دعا إلى الحق وتمسك بذيول الإنصاف، بل يردّه بمجرد كونه لم يوافق هواه، ولا جاء على طبق دعواه قبل أن يعرف معناه، ويعلم مبناه، كما تراه عيانًا وتعلمه وجدانًا. والحاصل أن من كذب بالحجة النيرة، والبرهان الواضح، قبل أن يحيط بعلمه، فهو لم يتمسك بشيء في هذا التكذيب، إلا مجرد كونه جاهلًا لما كذب به غير عالم به، فكان بهذا التكذيب مناديًا على نفسه بالجهل بأعلى صوت، ومسجلًا بقصوره عن تعقل الحجج بأبلغ تسجيل، وليس على الحجة ولا على من جاء بها من تكذيبه شيء:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه.[1]

ومن هنا نعلم والتاريخ يشهد أن القرآن لو كان مصدره نفس محمد كما يقول أولئك الملاحدة؛ لأمكن هؤلاء العرب البارزين في البيان أن يعرفوا أنه كلامه بما أوتوا من ملكة النقد، وما وهبوا من نباهة الحس والذوق ثم لأمكنهم أن يجاروه ولو شوطًا قريبًا إن لم يمكنهم مجاراته شوطًا بعيدًا، لا

(١) فتح القدير ٢/ ٦٤٦.

سيما أن القرآن قد اكتفى منهم في معرض التحدي بأن يأتوا بسورة من مثل أقصر سورة أي بمثل ثلاث آيات قصار من بين تلك الآلاف المؤلفة التي اشتمل عليها الكتاب العزيز، وأنت خبير بأن هؤلاء لم تكن لتعييهم تلك المساجلة وهم فرسان ذلك الميدان، وأئمة الفصاحة والبيان لو كان الأمر من صناعة محمد وإنشائه كما يزعم أولئك الخراصون، فما بالك وقد خرست ألسنتهم وخشعت أصوات الأجيال كلها من بعدهم، ومعلوم أن النابغة الفذ في أي عصر من العصور يستطيع أقرانه بيسر وسهولة أن يحاكوه مجتمعين ومنفردين في الشيء القليل على فرض أنهم لا يستطيعون معارضته في الجميع أو الشيء الكثير. (١)

الوجه الثالث: آيات العتاب.

ومعنى هذا أن القرآن سجل في كثير من آياته بعض الوقائع التي اجتهد فيها النبي ﷺ ووُجِّه إليه بسببها عتابًا، نشعر بلطفه تارة وبعنفه أخرى. ولا ريب أن العقل المنصف يحكم جازمًا بأن هذا القرآن كلام الله وحده؛ ولو كان كلام محمد ما سجل على نفسه هذه المواقف وهذا العتاب يتلوهما الناس؛ بل ويتقربون إلى الله بتلاوتها حتى يوم المآب. (٢)

لا أدل على أن الوحي القرآني خارج عن الذات المحمدية من مخالفة القرآن في عدة مواطن لاجتهاده الشخصي ولطبعه الخاص، ومعاتبته على بعض اجتهاداته:

مثل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ (الأنفال ٦٧: ٦٨).

عن ابنِ عبَّاسٍ قال: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: " لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وَهُمْ أَلْفٌ وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ الله الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: اللهمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي. . . -الحديث وفيه-: فَلَمَّا أَسَرُوا الأَسَارَى قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: « مَا تَرَوْنَ فِي

---

(١) مناهل العرفان ١/ ٦٢- ٦٣.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٢٨٢ بتصرف يسير.

هَؤُلَاءِ الأَسَارَى؟ » فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً؛ فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ »، قُلْتُ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عُقَيْلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلَانٍ - نَسِيبًا لِعُمَرَ- فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا. فَهَوِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ، فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمْ الْفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ »شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللهِ ﷺ، وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ فَأَحَلَّ اللهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ"[1].

وتأمل آية الأنفال المذكورة، تجد فيها ظاهرة عجيبة؛ فإنها لم تنزل إلا بعد إطلاق أسارى بدر وقبول الفداء منهم، وقد بُدئت بالعتاب على هذه الفعلة، ثم لم تلبث أن ختمت بإقرارها، وتطييب النفوس بها، بل صارت هذه السابقة التي وقع التأنيب عليها هي القاعدة لما جاء بعدها. فهل الحال النفسية التي يصدر عنها أول الكلام - لو كان عن النفس مصدره - يمكن أن يصدر عنها آخره، ولما تمض بينهما فترة تفصل بين زمجرة الغضب والندم وبين ابتسامة الرضا والاستحسان؟ كلا، وإنَّ هذين الخاطرين لو فرض صدورهما عن النفس متعاقبين، لكان الثاني منهما إضرابًا عن الأول ماحيًا له، ولرجع آخر الفكر وفقًا لما جرى به العمل.

فأي داعٍ دعا إلى تصوير ذلك الخاطر الممحو وتسجيله، على ما فيه من تقريعٍ علني بغير حق، وتنغيصٍ لهذه الطعمة- المكسب- التي يراد جعلها حلالًا طيبًا؟ إنَّ الذي يفهمه علماء النفس من قراءة هذا النص أن هاهنا البتة شخصيتين منفصلتين، وأن هذا صوت

---

(١) مسلم (١٧٦٣).

سيد يقول لعبده: لقد أسأتَ ولكني عفوت عنك وأذنت لك[١].

الوجه الرابع: تبرؤ محمد ﷺ من نسبة القرآن إليه ليس ادعاءً يحتاج بينة، بل هو إقرار يؤخذ به صاحبه.

في الحقيقة إن هذه القضية لو وجدت قاضيًا يقضي بالعدل، لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها على نفسه، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل، ذلك أنها ليست من جنس (الدعاوى) فتحتاج إلى بينه، وإنما هي من نوع (الإقرار) الذي يؤخذ به صاحبه، ولا يتوقف صديق ولا عدو في قبوله منه، أي مصلحة للعاقل الذي يدعي لنفسه حق الزعامة، ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة، نقول أي مصلحة له في أن ينسب بضاعته لغيره، وينسلخ منها انسلاخًا؟ على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحدًا يعارضه ويزعمها لنفسه.

الذي نعرفه أن كثيرًا من الأدباء يسطون على آثار غيرهم، فيسرقونها أو يسرقون منها ما خف حمله، وغلت قيمته وأمنت تهمته، حتى إن منهم من ينبش قبور الموتى، ويلبس من أكفانهم ويخرج على قومه في زينة من تلك الأبواب المستعارة؛ أمَّا أن أحدًا ينسب لغيره أنفس آثار عقله، وأغلى ما تجود به قريحته فهذا ما لم يلده الدهر بعد[٢].

الوجه الخامس: موقف الرسول ﷺ من النص القرآني موقف المفسر الذي يتلمس الدلالات، ويأخذ بأرفق احتمالاتها.

وأنت لو نظرت في هذه الذنوب التي وقع العتاب عليها، لوجدتها تنحصر في شيء واحد، وهو أنه ﷺ كان إذا ترجح بين أمرين ولم يجد فيهما إثمًا، اختار أقربهما إلى رحمة أهله وهداية قومه وتأليف خصمه، وأبعدهما عن الغلظة والجفاء، وعن إثارة الشُبه في دين الله. لم يكن بين يديه نص فخالفه كفاحًا، أو جاوزه خطأ ونسيانًا، بل كل ذنبه أنه مجتهد بذل وسعه في النظر، ورأى نفسه مخيرًا فتخير. هَبْهُ مجتهدًا أخطأ باختيار خلاف الأفضل، أليس معذورًا ومأجورًا؟

---

(١) النبأ العظيم (٥٥).

(٢) النبأ العظيم (٥١).

على أن الذي اختاره كان هو خير ما يختاره ذو حكمة بشرية، وإنما نبهه القرآن إلى ما هو أرجح في ميزان الحكمة الإلهية، هل ترى في ذلك ذنبًا يستوجب عند العقل هذا التأنيب والتثريب؟ أم هو مقام الربوبية ومقام العبودية، وسنة العروج بالحبيب في معارج التعليم والتأديب؟.

توفي عبد الله بن أُبَيْ كبير المنافقين، فكفنه النبي ﷺ في ثوبه، وأراد أن يستغفر له ويصلي عليه، فقال عمر ﷺ: أتصلي عليه وقد نهاك ربك؟ فقال ﷺ: إنما خيَّرني ربي فقال:

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ (التوبة: ٨٠) وسأزيدُه على السبعين، وصلَّى عليه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ (التوبة: ٨٤) فترك الصلاة عليهم[1].

اقرأ هذه القصة الثابتة برواية الصحيحين، وانظر ماذا ترى؟ إنها لتمثل لك نفس هذا العبد الخاضع، وقد اتخذ من القرآن دستورًا يستملي أحكامه من نصوصه الحرفية، وتمثل لك قلب هذا البشر الرحيم وقد آنس من ظاهر النص الأول تخييرًا له بين طريقين، فسرعان ما سلك أقربهما إلى الكرم والرحمة، ولم يلجأ إلى الطريق الآخر إلا بعد ما جاءه النص الصريح بالمنع، وهكذا كلما درست مواقف الرسول من القرآن في هذه المواطن أو غيرها، تجلى لك فيه معنى العبودية الخاضعة، ومعنى البشرية الرحيمة الرقيقة، وتجلى لك في مقابل ذلك من جانب القرآن معنى القوة التي لا تتحكم فيها البواعث والأغراض، بل تصدع بالبيان فرقانًا بين الحق والباطل، وميزانًا للخبيث والطيب، أحب الناس أم كرهوا، رضوا أم سخطوا، آمنوا أم كفروا، إذ لا تزيدها طاعة الطائعين، ولا تنقصها معصية العاصين، فترى بين المقامين ما بينهما، وشتان ما بين سيد ومسود، وعابد ومعبود[2].

الوجه السادس: ما نزل بعد طول انتظار.

ومعنى هذا أن في القرآن آيات كثيرة تناولت مهمات الأمور، ومع ذلك لم تنزل إلا بعد تلبث وطول انتظار؛ فدلَّ هذا على أن القرآن كلام الله لا كلام محمد؛ لأنه لو كان كلام

---

(١) البخاري (١٣٠٠)، مسلم (٢٤٠٠).

(٢) النبأ العظيم (٥٧: ٥٦).

محمد ما كان معنًى لهذا الانتظار، فإن الانتظار في ذاته شاق وتعلقه بمهمات الأمور يجعله أشق خصوصًا على رجل عظيم يتحدى قومه بل تحدى العالم كله.[١]

ولبيان هذا الوجه نمثل بأمثلة:

أولها: تحويل القبلة:

لقد كان النبي ﷺ يتحرق شوقًا إلى تحويل القبلة إلى الكعبة، وظل يقلب وجهه في السماء ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، لعل الوحي ينزل عليه بتحويل القبلة إلى البيت الحرام، ولكن رب القرآن لم ينزل في هذا التحويل قرآنًا، على الرغم من تلهف رسوله الكريم إليه إلا بعد قرابة عام ونصف العام[٢].

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ صَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُحِبُّ أَنْ يُوَجَّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَأَنْزَلَ الله ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ فَتَوَجَّهَ نَحْوَ الْكَعْبَةِ. . .)[٣].

ولو كان الوحي من تأليف النبي ﷺ، لما تأخر كل هذه المدة لشيء يحبه ويشتهيه ويتشوف إليه ويتحرق شوقا له، ولكنه وحي الله ولا ينزل إلا بأمر الله وإذنه.

ثانيها: حادث الإفك:

وهو من أخطر الأحداث وأشنعها، لم ينزل القرآن فيه إلا بعد أن مضى على الحادث قرابة أربعين يومًا على حين أنه يتصل بعِرِض الرسول وعِرِض صديقه الأول أبي بكر، وقام على اتهام أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق ورميها بأقذر العار، وهو عار الزنى فلو كان القرآن كلام محمد، ما بخل على نفسه بتلك الآيات التي تنقذ سمعته وسمعة زوجه الحَصَان الطاهرة، ولما انتظر يومًا واحدًا في القضاء على هذه الوشايات الحقيرة الآثمة التي تولى كبرها أعداء الله المنافقون، اقرأ قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ

---

(١) مناهل العرفان٢/ ٢٨٥.

(٢) المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن (٥٦).

(٣) البخاري (٣٩٠)، ومسلم (٥٢٥).

عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾ في سورة النور، ثم حدثني بعد قراءتها ألم يكن الواجب على محمد ﷺ أن يعجل الحكم بهذه البراءة لو كان الأمر إليه، خصوصا أنه قد علم الناس وجوب الدفاع عن العرض ولو بالنفس؟ ثم أخبرني ألا ترى فارقا كبيرا بين هذه اللغة الجريئة القاطعة، المنذرة والمبشرة، التي صيغت بها آيات البراءة وبين لغة الرسول الحذرة المتحفظة التي رويت عنه في هذه الحادثة؟ إن كنت في شك فأمامك آيات البراءة وهاك كلمتين مما أثر عنه في هذا الأمر الجلل ورد أنه قال حين طال الانتظار وبلغت القلوب الحناجر: "إني لا أعلم إلا خيرًا " وورد أنه قال قبيل الساعة التي نزلت فيها آيات البراءة: "يا عائشة، أما إنه قد بلغني كذا وكذا. فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله".

فهل يجوز في عقل عاقل أن يكون صاحب هذا الكلام هو صاحب آيات البراءة؟ دع عنك الأسلوبين ولكن تأمل النفسيتين المتميزتين في الكلامين، تميز السيد من المسود، والعابد من المعبود!. [1]

الوجه السابع: حال النبي ﷺ لتثبيت القرآن عند نزوله.

وبيان ذلك أن النبي ﷺكان في أول عهده بالوحي يتعجل في تلقفه ويحرك لسانه بالقرآن من قبل أن يفرغ أمين الوحي من إيحائه إليه؛ وذلك للإسراع بحفظه والحرص على استظهاره حتى يُبَلِّغه للناس كما أنزل، وكان ﷺ يجد من ذلك شدة على نفسه فوق الشدة العظمى التي يحسها من نزول الوحي عليه، حتى إن جبينه ليتفصد عرقًا في اليوم الشديد البرد، وحتى إن جسمه ليثقل بحيث يحس ثقله من بجواره وحتى أن وجهه ليحمر ويسمع له غطيط. روى مسلم أنه ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك، وتربد وجهه الشريف؛ فاقتضت رحمة الله بمصطفاه أن يخفف عنه هذا العناء فأنزل عليه في سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨﴾

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٢٨٧-٢٨٨، وانظر النبأ العظيم (٥٣).

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾، وبهذا اطمأن الرسول ثقة بأن الله قد تكفل له بأن يجمع القرآن في صدره، وأن يقرأه على الناس كاملا لا ينقص كلمة ولا حرفا، وأن يبين له معناه فلا تخفى عليه خافية منه كذلك قال الله في سورة الأعلى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، وقال له مرة ثالثة في سورة طه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾.

ألا ترى في هذا كله نورًا يهدي إلى أن القرآن كلام الله وحده، ومحال أن يكون كلام محمد وإلا لما احتاج إلى هذا العناء الذي كان يعانيه في نزول القرآن عليه، ولكان الهدوء والسكون والصمت أجدى في إنضاج الفكرة وانتقاء ألفاظها لديه، ولما كان ثمة من داع إلى أن يطمأن على حفظه وتبليغه وبيان معانيه. أضف إلى ذلك أن هذه الحال التي كانت تعروه ﷺعند الوحي لم تكن من عادته في تحضير كلامه لا قبل النبوة ولا بعدها، ولم تكن من عادة أحد من قومه بل كان ديدنهم جميعًا تحضير الكلام في نفوسهم وكفى.[1]

الوجه الثامن: عجز الرسول عن الإتيان ببدل له

وذلك أن أعداء الإسلام طلبوا من النبي ﷺأن يأتي بقرآن غير هذا القرآن أو أن يبدله فلم يفعل؛ وما ذاك إلا لأن القرآن ليس كلامه؛ بل هو خارج عن طوقه، آت من فوقه، ولو كان كلامه لاستطاع أن يأتي بغيره، وأن يبدله حين اقترحوا عليه، وحينئذ يكتسب أنصارًا إلى أنصاره ويضم أعوانا إلى أعوانه، ويكون ذلك أروج لدعوته التي يحرص على نجاحها؛ لكنه أعلن عجزه عن إجابة هذه المقترحات، وأبدى مخاوفه إن هو أقدم على هذا الذي سألوه، وتنصَّل من نسبة القرآن إليه مع أنه الفخر كل الفخر، وألقمهم حجرًا في أفواههم بتلك الحجة التي أقامها عليهم وهي أنه نشأ فيهم لا يعرف ولا يعرفون عنه ذلك الذي جاء به وهو القرآن، اقرأ إن شئت هاتين الآيتين في سورة يونس﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٢٨٩- ٢٩٠، وانظر: النبأ العظيم (٦١)، والمستشرقون وشبهاتهم حول القرآن (٥٢)، ودعاوى الطاعنين في القرآن الكريم (٢٠٤).

عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس: ١٥-١٦).

والمعنى أن القرآن فوق طاقتي وليس من مقدوري، وما أنا إلا ناقل له أتبع ما يوحى إلي منه، وإني أخاف سطوة صاحب هذا الكتاب إذا أنا تلاعبت بنصوصه أو غيرت فيه، فالقرآن كلامه ولو أراد ألا أكون رسولًا بينه وبينكم ما كانت لي حيلة إلى أن أتلو هذا الكتاب عليكم وتأخذوه عني؛ فقد نشأتُ بينكم، ومكثتُ أكثر من أربعين سنة قبل نزوله وهو عمر طويل، وأنتم لا تعرفون مني هذا الاستعداد الأعلى، ولا تسمعون مني مطلقًا مثل هذا الكلام المعجز، ولم تأخذوا عليَّ قط أني كذبت مرة على عبد من عباد الله، فكيف أكذب على الله بعد هذا العمر الطويل أفلا تعقلون؟! ، يا لها كلمة فيها من لذعة التعنيف والتخجيل بمقدار ما فيها من لفت النظر إلى قوة الدليل.[1]

الوجه التاسع: نسبة محمد ﷺ القرآن إلى الله لا تكون احتيالًا منه لبسط نفوذه، وإلا لِمَ لَمْ ينسب أقواله كلها إلى الله[2].

ولو أننا افترضناه افتراضًا لما عرفنا له تعليلًا معقولًا ولا شبه معقول، اللهم إلا شيئًا واحدًا قد يحيك في صدر الجاهل، وهو أن يكون هذا الزعيم قد رأى أن في (نسبته القرآن إلى الوحي الإلهي) ما يعينه على استصلاح الناس باستيجاب طاعته عليهم، ونفاذ أمره فيهم؛ لأن تلك النسبة تجعل لقوله من الحرمة والتعظيم ما لا يكون له لو نسبه إلى نفسه.

وهذا قياس فاسد في ذاته، فاسد في أساسه؛ أما أنه فاسد في ذاته، فلأن صاحب هذا القرآن قد صدر عنه الكلام المنسوب إلى نفسه، والكلام المنسوب إلى الله تعالى؛ فلم تكن نسبته ما نسبه إلى نفسه بناقصةٍ من لزوم طاعته شيئًا، ولا نسبة ما نسبه إلى ربه بزائدةٍ فيها شيئًا، بل استوجب على الناس طاعته فيهما على السواء، فكانت حرمتها في النفوس على سواء، وكانت طاعته من طاعة الله، ومعصيته من معصية الله، فهلا جعل كل أقواله من

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٢٩١-٢٩٢.

(٢) شبهات حول القرآن وتفنيدها، د. غازي عناية (٢١) نقلًا من دعاوي الطاعنين.

كلام الله تعالى لو كان الأمر كما يهجس به ذلك الوهم.

وأما فساد هذا القياس من أساسه؛ فلأنه مبنيٌّ على افتراض باطل، وهو تجويز أن يكون هذا الزعيم من أولئك الذين لا يأبون في الوصول إلى غاية إصلاحية أن يَعبروا إليها على قنطرة من الكذب والتمويه، وذلك أمر يأباه علينا الواقع التاريخي كل الإباء، فإنّ من تتبع سيرته الشريفة في حركاته وسكناته، وعباراته وإشاراته، في رضاه وغضبه، في خلوته وجلوته لا يشك في أنه كان أبعد الناس عن المداجاة والمواربة، وأنّ ذلك كان أخص شمائله، وأظهر صفاته قبل النبوة وبعدها كما شهد ويشهد به أصدقاؤه وأعداؤه إلى يومنا هذا ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ (يونس: ١٦)[١].

الوجه العاشر: آية المباهلة.

وذلك أن القرآن دعا إلى المباهلة، وهي مفاعلة من الابتهال والضراعة إلى الله بحرارة واجتهاد فأبى المدعوون وهم النصارى من أهل نجران أن يستجيبوا لها، وخافوها ولاذوا بالفرار منها مع أنها لا تكلفهم شيئًا سوى أن يأتوا بأبنائهم ونسائهم ويأتي الرسول بأبنائه ونسائه ثم يجتمع الجميع في مكان واحد يبتهلون إلى الله، ويضرعون إليه بإخلاص وقوة أن ينزل لعنته وغضبه على من كان كاذبا من الفريقين، قال سبحانه في سورة آل عمران: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾، ونقول: أليس هذا دليلًا ماديًا على أن القرآن كلام القادر على إنزال اللعنة، وإهلاك الكاذب، ثم أليس قبول محمد ﷺ لهذه المباهلة مع امتناع أعدائه دليلًا على أن صدقه في نبوته كان أمرًا معروفًا مقررًا حتى في نفوس مخالفيه من أهل الكتاب.[٢]

الوجه الحادي عشر: توقف الرسول ﷺ أحيانًا في فهم مغزى النص حتى يأتيه البيان.

---

(١) النبأ العظيم ٥١، ٥٢.

(٢) مناهل العرفان ٢/ ٢٩٠.

لقد كان يجيئه الأمر أحيانًا بالقول المجمل، أو الأمر المشكل الذي لا يستبين هو ولا أصحابه تأويله، حتى ينزل الله عليهم بيانه بعد. قل لي بربك: أي عاقل توحي إليه نفسه كلامًا لا يفهم هو معناه، وتأمره أمرًا لا يعقل هو حكمته؟.

أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل، وأنه مأمور لا آمر؟.

وإليك مثال على ذلك: مسلكه في قضية الحديبية:

اقرأ في صحيح البخاري(١) وغيره قضية الحديبية، ففيها آية بينة: أذن الله للمؤمنين أن يقاتلوا من يعتدي عليهم أينما وجدوه، غير ألا يقاتلوا في الحرم من لم يقاتلهم فيه نفسه، فقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠) فلما أجمعوا زيارة البيت الحرام في ذلك العام وهو العام السادس من الهجرة أخذوا أسلحتهم حذرًا أن يقاتلهم أحد فيدافعوا عن أنفسهم الدفاع المشروع، ولما أشرفوا على حدود الحرم علموا أن قريشًا قد جمعت جموعها على مقربة منهم، فلم يثن ذلك من عزمهم؛ لأنهم كانوا على تمام الأهبة، بل زادهم ذلك استبسالًا وصمموا على المضي إلى البيت، فمن صدهم عنه قاتلوه، وكانت قريش قد نهكتها الحروب، فكانت البواعث كلها متضافرة والفرصة سانحة للالتحام في موقعة فاصلة يتمكن فيها الحق من الباطل فيدمغه. وإنهم لسائرون عند الحديبية إذ بَرَكت راحلة النبي ﷺ، وأخذ أصحابه يثيرونها إلى جهة الحرم فلا تثور، فقالوا: خلأت القصواء - أي حرنت الناقة - فقال النبي ﷺ: " ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل "، يعني أن الله الذي اعتقل الفيل ومنع أصحابه من دخول مكة محاربين، هو الذي اعتقل هذه الناقة ومنع جيش المسلمين من دخولها الآن عنوة. وهكذا أيقن أن الله تعالى لم يأذن لهم في هذا العام بدخول مكة مقاتلين، لا بادئين ولا مكافئين، وزجر الناقة فثارت إلى ناحية أخرى، فنزل بأصحابه في أقصى الحديبية، وعدل بهم عن متابعة السير امتثالًا لهذه الإشارة الإلهية، التي لا يعلم حكمتها، وأخذ يسعى لدخول مكة من طريق الصلح مع قريش قائلًا: « والذي نفسي

(١) القصة عند البخاري (٢٥٨٣).

بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » ولكن قريشًا أبت أن يدخلها في هذا العام لا محاربًا ولا مسالمًا، وأملت عليه شروطًا قاسية بأن يرجع من عامه، وأن يرد كل رجل يجيئه من مكة مسالمًا، وألا ترد هي أحدًا يجيئها من المدينة تاركًا لدينه، فقبل تلك الشروط التي لم يكن ليمليها مثل قريش في ضعفها على مثل المؤمنين في قوتهم، وأمر أصحابه بالتحلل من عمرتهم وبالعودة من حيث جاءوا. فلا تسل عما كان لهذا الصلح من الوقع السيئ في نفوس المسلمين، حتى إنهم لما جعلوا يحلقون بعضهم لبعض كاد يقتل بعضهم بعضًا ذهولًا وغمًا، وكادت تزيغ قلوب فريق من كبار الصحابة فأخذوا يتساءلون فيما بينهم ويراجعونه هو نفسه قائلين: لِمَ نعطي الدنية في ديننا؟ وهكذا كاد الجيش يتمرد على إمرة قائده ويفلت حبله من يده. أفلم يكن من الطبيعي إذ ذاك لو كان هذا القائد هو الذي وضع هذه الخطة بنفسه أو اشترك في وضعها أو وقف على أسرارها أن يبين لكبار الصحابة، حكمة هذه التصرفات التي فوق العقول، حتى يطفئ نار الفتنة قبل أن يتطاير شررها؟ ولكن انظر كيف كان جوابه حين راجعه عمر: " إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري "يقول: إنما أنا عبد مأمور ليس لي من الأمر شيء إلا أن أنفذ أمر مولاي واثقًا بنصره قريبًا أو بعيدًا، وهكذا ساروا راجعين، وهم لا يدرون تأويل هذا الإشكال حتى نزلت سورة الفتح، فبينت لهم الحكم الباهرة والبشارات الصادقة فإذا الذي ظنوه ضيمًا وإجحافًا في بادئ الرأي كان هو النصر المبين والفتح الأكبر؛ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ

ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ٢٤-٢٧). (١)

الوجه الثاني عشر: الغيبيات التي ذكرت في القرآن.

إخباره في هذا الكتاب بأمور تحصل بعد موته وعلوم لم تكن في عصره، وقد قيل: يمكن أن تخدع كل الناس بعض الوقت، ويمكن أن تخدع بعض الناس كل الوقت، ولكن لا يمكن أن تخدع كل الناس كل الوقت.

فلنفرض أن النبي ﷺ استطاع أن يخدع كل من كان في زمنه، ألا يخشى أن ينكشف بعد ذلك إذا ازداد الناس علما، فهو يخبر بأمور فلكية وأخرى طبية وأمور جغرافية، ويخبر بأحداث سوف تقع بعد موته، ويتكلم بعلوم لم يعرفها أهل زمانه، كل هذا وهو مطمئن القلب لصدق نفسه، ثم لا يأتي الواقع إلا مطابقا لما قال، ولا يأتي العلم -على تقدمه الكبير- إلا بتأكيد كلامه وتأييد آرائه، أليس في هذا دليل أنه لا يتحدث من قبل نفسه، بل من قبل من يعلم السر والنجوى الذي لا تخفى عليه خافية.

أليس يكفي للحكم ببراءة الإنسان من عمل من الأعمال، أن يقوم من الطبيعة شاهدٌ بعجزه المادي عن إنتاج ذلك العمل؟.

فلينظر العاقل: هل كان هذا النبي الأمي (أهلًا بمقتضى وسائله العلمية، لأن تجيش نفسه بتلك المعاني القرآنية؟.

سيقول الجهلاء من الملحدين: نعم. فقد كان له من ذكائه الفطري وبصيرته النافذة ما يؤهله لإدراك الحق والباطل من الآراء، والحسن القبيح من الأخلاق، والخير والشر من الأفعال، حتى لو أن شيئًا في السماء تناله الفراسة، أو تلهمه الفطرة، أو توحي به الفكرة، لتناوله محمد بفطرته السليمة وعقله الكامل وتأملاته الصادقة.

ونحن قد نؤمن بأكثر مما وصفوا من شمائله، ولكننا نسأل: هل كل ما في القرآن مما

---

(١) النبأ العظيم (٦٠: ٥٧).

يستنبطه العقل والتفكير، ومما يدركه الوجدان والشعور؟ اللهم كلا.

طبيعة المعاني القرآنية ليست كلها مما يدرك بالذكاء وصدق الفراسة فمن ذلك:

أ - أنباء الماضي لا سبيل إليها إلا بالتلقي:

ففي القرآن جانب كبير من المعاني النقلية البحتة، التي لا مجال فيها للذكاء والاستنباط، ولا سبيل إلى علمها لمن غاب عنها إلا بالتلقي؛ ماذا يقولون فيما قصه علينا القرآن من أنباء ما قد سبق، وما فصله من تلك الأنباء على وجهه الصحيح كما وقع؟ أيقولون: إن التاريخ يمكن وضعه أيضًا بإعمال الفكر ودقة الفراسة؟ أم يخرجون إلى المكابرة العظمى فيقولون: إن محمدًا قد عاصر تلك الأمم الخالية، وتنقل فيها فشهد هذه الوقائع مع أهلها شهادة عيان، أو أنه ورث كتب الأولين وعكف على دراستها حتى أصبح من الراسخين في علم دقائقها؟ إنهم لا يسعهم أن يقولوا هذا ولا ذاك، لأنهم معترفون مع العالم كله بأنه لم يكن من أولئك ولا من هؤلاء ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ (آل عمران: ٤٤)، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف: ١٠٢)، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ (القصص: ٤٤)، ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (العنكبوت: ٤٨)، ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾ (هود: ٤٩)، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ (يوسف: ٣).

لا نقول إن العلم بأسماء بعض الأنبياء والأمم الماضية، وبمجمل ما جرى من حوادث التدمير في ديار عاد وثمود وطوفان نوح وأشباه ذلك لم يصل قط إلى الأميين؛ فإن هذه النتف اليسيرة قلما تعزب عن أحد من أهل البدو أو الحضر؛ لأنها مما توارثته الأجيال وسارت به الأمثال، وإنما الشأن في تلك التفاصيل الدقيقة والكنوز المدفونة في بطون

الكتب، فذلك هو العلم النفيس الذي لم تنله يد الأميين، ولم يكن يعرفه إلا القليل من الدارسين، وإنك لتجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محررًا في القرآن، حتى الأرقام طبق الأرقام: فترى مثلًا في قصة نوح عليه السلام في القرآن أنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وفي سفر التكوين من التوراة أنه عاش تسعمائة وخمسين سنة، وترى في قصة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة شمسية، وفي القرآن أنهم ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾ (الكهف: ٢٥)، وهذه السنون التسع هي فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية؛ قاله الزجاج: يعني بتكميل الكسر.

فانظر إلى هذا الحساب الدقيق في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب.

كَفَاكَ بِالْعِلْمِ فِي الأمي مُعْجِزَةً   فِي الجَاهِلِيَّةِ والتَّأْدِيبِ فِي اليُتْمِ

نعم إنها لعجيبة حقًا: رجل أمي بين أظهر قوم أميين، يحضر مشاهدهم - في غير الباطل والفجور - ويعيش معيشتهم مشغولًا برزق نفسه وزوجه وأولاده، راعيًا بالأجر، لا صلة له بالعلم والعلماء؛ يقضي في هذا المستوى أكثر من أربعين سنة من عمره، ثم يطلع علينا فيما بين عشية وضحاها، فيكلمنا بما لا عهد له به في سالف حياته، وبما لم يتحدث إلى أحد بحرف واحد منه قبل ذلك، ويبدي لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم في دفاترهم وقماطرهم؟ أفي مثل هذا يقول الجاهلون إنه استوحى عقله واستلهم ضميره؟ أي منطق يسوغ أن يكون هذا الطور الجديد العملي نتيجة طبيعية لتلك الحياة الماضية الأمية؟ إنه لا مناص في قضية العقل من أن يكون لهذا الانتقال الطفري سر آخر يُلتمس خارجًا عن حدود النفس وعن دائرة المعلومات القديمة، وإن ملاحدة الجاهلية وهم أجلاف الأعراب في البادية كانوا في الجملة أصدق تعليلًا لهذه الظاهرة، وأقرب فهمًا لهذا السر من ملاحدة هذا العصر، إذ لم يقولوا كما قال هؤلاء إنه استقى هذه الأخبار من وحي نفسه، بل قالوا: إنه لابد أن تكون قد أمليت عليه منذ يومئذ علوم جديدة؛ فدرس منها ما لم يكن قد درس، وتعلم ما لم يكن يعلم ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ (الأنعام: ١٠٥)، ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ

ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (الفرقان: ٥)، ولقد صدقوا؛ فإنه درسها، ولكن على الروح الأمين، واكتتبها، ولكن من صحفٍ مكرمةٍ مرفوعةٍ مطهره، بأيدي سفرةٍ كرامٍ برره ﴿ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرًا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ (يونس: ١٦).

ذلك شأن ما في القرآن من الأنباء التاريخية، لا جدال في أن سبيلها النقل لا العقل، وأنها تجيء من خارج النفس لا من داخلها.

أما سائر العلوم القرآنية فقد يقال: إنها من نوع ما يدرك بالعقل، فيمكن أن ينالها الذكي بالفراسة والروية. وهذا كلام قد يلوح حقًا في بادئ الرأي، ولكنه لا يلبث أن ينهار أمام الاختبار، ذلك أن العقول البشرية لها في إدراك الأشياء طريق معين تسلكه، وحدٌّ محدود تقف عنده ولا تتجاوزه، فكل شيء لم يقع تحت الحس الظاهر أو الباطن مباشرة، ولم يكن مركوزًا في غريزة النفس، إنما يكون إدراك العقول إياه عن طريق مقدمات معلومة توصل إلى ذلك المجهول، إما بسرعة كما في الحَدْسِ، وإما ببطء كما في الاستدلال والاستنباط والمقايسة، وكل ما لم تمهد له هذه الوسائل والمقدمات، لا يمكن أن تناله يد العقل بحال، وإنما سبيله الإلهام، أو النقل عما جاءه ذلك الإلهام.

فهل ما في القرآن من المعاني غير التاريخية كانت حاضرة الوسائل والمقدمات في نظر العقل؟ ، ذلك ما سيأتي نبأه بعد حين، ولكننا نعجل لك الآن بمثالين من تلك المعاني نكتفي بذكرهما هنا عن إعادتهما بعد:

أحدهما: قسم العقائد الدينية.

والثاني: قسم النبوءات الغيبية.

ب - الحقائق الدينية الغيبية لا سبيل للعقل إليها:

فأما أمر الدين؛ فإنَّ غاية ما يجتنيه العقل من ثمرات بحثه المستقل فيه، بعد معاونة الفطرة السليمة له، هو أن يعلم أن فوق هذا العالم إلهًا قاهرًا دبره، وأنه لم يخلقه باطلًا، بل

وضعه على مقتضى الحكمة والعدالة؛ فلابد أن يعيده كرةً أخرى؛ لينال كل عامل جزاء عمله، إن خيرًا وإن شرًا.

هذا هو كل ما يناله العقل الكامل من أمر الدين، ولكن القرآن لا يقف في جانبه عند هذه المرحلة؛ بل نراه يشرح لنا حدود الإيمان مفصلة، ويصف لنا بدء الخلق ونهايته، ويصف الجنة وأنواع نعيمها، والنار وألوان عذابها، كأنها رأي عين، حتى إنه ليحصي عدة الأبواب، وعدة الملائكة الموكلة بتلك الأبواب، فعلى أي نظرية عقلية بنيت هذه المعلومات الحسابية، وتلك الأوصاف التحديدية؟ إن ذلك ما لا يوحي به العقل البتة؛ بل هو إما باطل فيكون من وحي الخيال والتخمين، وإما حق فلا ينال إلا بالتعليم والتلقين، لكنه الحق الذي شهدت به الكتب واستيقنه أهلها﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ ﴾ (المدثر: ٣١)، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ (الشورى: ٥٢)، ﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (ص: ٦٩)، ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (يونس: ٣٧).

ج -أنباء المستقبل قد تستنبط بالمقايسة الظنية، ولكنها لا سبيل فيها لليقين إلا بالوحي الصادق:

وأما النبوءات الغيبية، فهل تعرف كيف يحكم فيها ذو العقل الكامل؟ إنه يتخذ من تجاربه الماضية مصباحًا يكشف على ضوئه بضع خطوات من مجرى الحوادث المقبلة، جاعلًا الشاهد من هذه مقياسًا للغائب من تلك، ثم يصدر فيها حكمًا محاطًا بكل تحفظ وحذر، قائلًا: (ذلك ما تقضي به طبيعة الحوادث لو سارت الأمور على طبيعتها، ولم يقع ما ليس في الحسبان). أما أن يبت الحكم بتًا، ويحدده تحديدًا، حتى فيما لا تدل عليه مقدمة من المقدمات العلمية، ولا تلوح منه أمارة من الأمارات الظنية العادية، فذلك ما لا يفعله إلا أحد رجلين:

إما رجل مجازف لا يبالي أن يقول الناس فيه صدق أو كذب، وذلك هو دأب جهلاء المتنبئين من العرافين والمنجمين. وإما رجل اتخذ عند الله عهدًا فلن يخلف الله عهده، وتلك

هي سنة الأنبياء والمرسلين، ولا ثالث لهما إلا رجلًا روى أخباره عن واحد منهما.

فأي الرجلين تراه في صاحب هذا القرآن حينما يجيء على لسانه الخبر الجازم بما سيقع بعد عام وما سيقع في أعوام، وما سيكون أبد الدهر، وما لن يكون أبد الدهر؟ ذلك وهو لم يتعاط علم المعرفة والتنجيم، ولا كانت أخلاقه كأخلاقهم تمثل الدعوى والتقحم، ولا كانت أخباره كأخبارهم خليطًا من الصدق والكذب، والصواب والخطأ. بل كان مع براءته من علم الغيب وقعوده عن طلبه وتكلفه، يجيئه عفوًا ما تعجز صروف الدهر وتقلباته في الأحقاب المتطاولة أن تنقض حرفًا واحدًا مما ينبئ به ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ (فصلت: ٤١-٤٢).[١]

قال الزرقاني: ومعنى هذا أن القرآن قد اشتمل على أخبار كثيرة من الغيوب التي لا علم لمحمد ﷺ بها ولا سبيل لمثله أن يعلمها مما يدل دلالة بينة على أن هذا القرآن المشتمل على تلك الغيوب لا يعقل أن يكون نابعا من نفس محمد ولا غير محمد من الخلق؛ بل هو كلام علام الغيوب وقيوم الوجود الذي يملك زمام العالم وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، من ذلك قصص عن الماضي البعيد المتغلغل في أحشاء القدم، وقصص عن الحاضر الذي لا سبيل لمحمد ﷺ إلى رؤيته ومعرفته فضلًا عن التحدث به، وقصص عن المستقبل الغامض الذي انقطعت دونه الأسباب وقصرت عن إدراكه الفراسة والألمعية والذكاء. وسر الإعجاز في ذلك كله أنه وقع كما حدث وما تخلف وجاء على النحو الذي أخبر به في إجمال ما أجمل، وتفصيل ما فصل، وأنه إن اخبر عن غيب الماضي صدقه ما شهد به التاريخ، وإن أخبر عن غيب الحاضر صدقه ما جاء به الأنبياء وما يَجِدُّ في العالم من تجارِب وعلوم، وإن أخبر عن غيب المستقبل صدقه ما تلده الليالي وما تجيء به الأيام.[٢]

الوجه الثالث عشر: بقاء القرآن محفوظًا دليلٌ على أنه من عند الله.

---

(١) النبأ العظيم (٦٥-٧٠) بتصرف، وانظر دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم (٢٠٣-٢١٠).

(٢) مناهل العرفان٢/ ٣٣٧.

ولنسرد لك هاهنا بعض النبوءات القرآنية مع بيان شيء من ملابساتها التاريخية؛ لترى هل كانت مقدماتها القريبة أو البعيدة حاضرة فتكون تلك النبوءات من جنس ما توحي به الفراسة والألمعية؟ مثال ذلك:

ما جاء في بيان أن هذا الدين قد كتب الله له البقاء والخلود، وأن هذا القرآن قد ضمن الله حفظه وصيانته ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧)، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ (إبراهيم: ٢٤- ٢٥)، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر: ٩)، أتعلم متى وأين صدرت هذه البشارات المؤكدة، بل العهود الوثيقة؟ إنها آيات مكية من سور مكية، وأنت قد تعرف ما أمر الدعوة المحمدية في مكة؟

ثلاث عشرة سنة كلها إعراض من قومه عن الاستماع لقرآن، وصد لغيرهم عن الإصغاء له، واضطهاد وتعذيب لتلك الفئة القليلة التي آمنت به، ثم مقاطعة له ولعشيرته ومحاصرتهم مدة غير يسيرة في شِعب من شِعاب مكة، ثم مؤامرات سرية أو علنية على قتله أو نفيه، فهل للمرء أن يلمح في ثنايا هذا الليل الحالك، الذي طوله عشرة أعوام، شعاعًا ولو ضئيلًا من الرجاء أن يتنفس صبحه عن الإذن لهؤلاء المظلومين برفع صوتهم وإعلان دعوتهم؟ ولو شام المصلح تلك البارقة من الأمل في جوانب نفسه من طبيعة دعوته، لا في أفق الحوادث، فهل يتفق له في مثل هذه الظروف أن يربوا في نفسه الأمل حتى يصير حكمًا قاطعًا؟ وهَبْهُ امتلأ رجاء بظهور دعوته في حياته ما دام يتعهدها بنفسه، فمن يتكفل له بعد موته ببقاء هذه الدعوة وحمايتها وسط أمواج المستقبل العاتية؟ وكيف يجيئه اليقين في ذلك، وهو يعلم من عبر الزمان ما يفت في عضد هذا اليقين؟ فكم من مصلح صرخ بصيحات الإصلاح، فما لبثت أصواته أن ذهبت أدراج الرياح! وكم من مدينة قامت في التاريخ ثم عَفَت ودرست آثارها! وكم من نبي قتل! وكم من كتابٍ فُقد أو انتُقص أو بُدِّل! وهل

كان محمدﷺممن تستخفه الآمال فيجري مع الخيال؟ إنه ما كان قبل نبوته يطمع في أن يكون نبيًا يوحى إليه﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ (القصص: ٨٦)، ولا كان بعد نبوته يضمن لنفسه أن يبقى هذا الوحي محفوظًا لديه ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ (الإسراء: ٨٦-٨٧)؛ فلابد إذًا من كفيل بهذا الحفظ من خارج نفسه، ومن ذا الذي يملك هذا الضمان على الدهر المتقلب المملوء بالمفاجآت؟ إلا رب الدهر الذي بيده زمام الحوادث كلها، والذي قدر مبدأها ومنتهاها، وأحاط علمًا بمجراها ومرساها، فلولا فضل الله ورحمته الموعود بهما في الآية الآنفة، لما استطاع القرآن أن يقاوم تلك الحروب العنيفة التي أقيمت ولا تزال تقام عليه بين آن وآن.

سل التاريخ: كم مرةٍ تنكر الدهر لدول الإسلام، وتسلط الفجار على المسلمين، فأثخنوا فيهم القتل، وأكرهوا أممًا منهم على الكفر، وأحرقوا الكتب، وهدموا المساجد؛ وصنعوا ما كان يكفي القليل منه لضياع هذا القرآن كلًا أو بعضًا كما فعل بالكتب قبله؛ لولا أن يد العناية تحرسه، فبقي في وسط هذه المعامع رافعًا راياته وأعلامه، حافظا آياته وأحكامه، بل اسأل صحف الأخبار اليومية كم من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تنفق في كل عام لمحو هذا القرآن، وصد الناس عن الإسلام بالتضليل والبهتان والخداع والإغراء ثم لا يظفر أهلُها من وراء ذلك إلا بما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (الأنفال: ٣٦)، ذلك بأن الذي يمسكه أن يزول هو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ذلك بأن الله ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ

وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (التوبة: ٣٣)، والله بالغ أمره ومتم نوره، فظهر، وسيبقى ظاهرًا لا يضره من خالفه حتى يأتي أمر الله[1].

الوجه الرابع عشر: أوقات نزول القرآن على النبي ﷺ.

من الأدلة على أن القرآن ليس من النبي ﷺ: أوقات نزوله؛ فليس للنبي ﷺ اختيار فيما ينزل أو متى ينزل، فقد يأتيه وهو في الفراش مع أهله، أو وهو نائم، أو مع أصحابه، أو وهو سائر، أو على البعير، وقد يتتابع الوحي ويحمى حتى يشعر بكثرته عليه له، وقد يفتر عنه حتى يشتاق إليه، بل قد يمرض من تأخره عليه.

فقد روي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ: أَنَّ الله تَعَالَى تَابَعَ عَلَى رَسُولِهِ الْوَحْيَ قَبْلَ وَفَاتِهِ حَتَّى تَوَفَّاهُ أَكْثَرَ مَا كَانَ الْوَحْيُ ثُمَّ تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ بَعْد[2].

وعن عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ نِسَاءَ رَسُولِ الله ﷺ كُنَّ حِزْبَيْنِ: فَحِزْبٌ فِيهِ عَائِشَةُ، وَحَفْصَةُ، وَصَفِيَّةُ وَسَوْدَةُ، وَالْحِزْبُ الْآخَرُ أُمُّ سَلَمَةَ وَسَائِرُ نِسَاءِ رَسُولِ الله ﷺ. . . الحديث، وفيه فَقَالَ: " لَا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ؛ فَإِنَّ الْوَحْيَ لَمْ يَأْتِنِي وَأَنَا فِي ثَوْبِ امْرَأَةٍ إِلَّا عَائِشَةَ "[3].

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: " أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ. فَقَرَأَ بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ ثُمَّ قَالَ: « أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ. . . "[4].

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِجِبْرِيلَ: " أَلَا تَزُورُنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا، قَالَ: فَنَزَلَتْ ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ الْآيَةَ[5].

---

(١) النبأ العظيم (٧٢: ٧٠).

(٢) البخاري (٤٩٨٢)، ومسلم ٣٠١٦).

(٣) البخاري (٢٥٨١).

(٤) مسلم (٤٠٠).

(٥) البخاري (٣٢١٨)، للاستزادة انظر: حال النبي عند نزول الوحي في شبهة الوحي.

الوجه الخامس عشر: الآيات التي تجرد الرسول ﷺ من نسبة القرآن إليه.

وذلك أنك تقرأ القرآن فتجد فيه آيات كثيرة تجرد الرسول محمدًا ﷺ من أن يكون له فيها حرف أو كلمة، وتصفه بأنه كان قبل نزول القرآن لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، وتمتن عليه بأنَّ الله آتاه الكتاب والحكمة بعد أن كان بعيدا عنهما وغير مستعد لهما، ولم يكن عنده رجاء من قبل لأنْ يكون منهل هذا الفيض، ولا مشرق ذلك النور اقرأ قوله سبحانه في سورة النساء: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٣)، وقوله في ختام سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾، وقوله في سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

بل كان ﷺ يخاف انقطاع هذا المدد الفياض عنه، فإذا فتر الوحي عراه من الحزن على فترته، والتلهف على عودته ما يجعله يمشي في الشعاب والجبال كأنه يتلمسه؛ لولا أن طمأنه الله عليه. وأكثر من هذا وذاك أنه كان يخاف أن ينزع الله من قلبه ما أنزل عليه وحفظه إياه ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ (الإسراء: ٨٦).

قل لي ـ وربك ـ هل يتصور منصف على وجه الأرض أن القرآن كلام محمد، بعد ما قصصنا عليك من هذه الآيات التي تجرده من إنشائه ووضعه، بل تجرده من رجاء نزوله عليه قبل مبعثه، ومن رجاء بقائه لديه بعد نزوله عليه؟ وهل يصح في الأذهان أن أحدًا يبتكر بعبقريته أمرًا هو مفخرة المفاخر ومعجزة المعجزات ثم يقول للعالم في صراحة: ليس هذا الفخر فخري، وما هو من صنعي، وما كان لديَّ استعداد أن آتي بشيء منه، وأنتم تعرفونني وتعرفون استعدادي من قبل؟

ألا إن هذا يخالف العقل والمنطق، ويجافي العرف والعادة، وينافي مقررات علم النفس وعلم الاجتماع؛ فإن النفوس البشرية مجبولة على الرغبة في جلائل الأمور ومعاليها، مطبوعة على حب كل ما يخلد ذكرها ويرفع شأنها، لا سيما إذا كان ذلك نابعًا منها وصادرًا عنها، وكان صاحب هذه النفس صدوقًا ما كذب قط، رافعًا عقيرته بزعامة الناس ودعوتهم إلى الحق. وليس شيء أجل شأنًا ولا أخلد ذكرًا من القرآن الكريم، الذي جمع الله به شمل أمة، وأقام به خير ملة، وأسس به أعظم دولة؛ فما كان لمحمد أن يزهد في هذا المجد الخالد، ولا أن يتنصل من نسبته إليه لو كان من وصفه وصنعه، وهو يدعو الخلق إلى الإيمان به وبما جاء به!

وأي وجه لمحمد في أن يتنصل من نسبة القرآن إليه وهو صاحبه؟ إنه إن كان يطلب الوجاهة والعلو والمجد، فليس شيء أوجه له ولا أعلى ولا أمجد من أن يكون هذا القرآن كلامه، وإن كان يطلب هداية الناس؛ فالناس يسرهم أن يأخذوا الهداية مباشرة ممن يُعجِزُ الجن والإنس بكلامه، ويتحدى كل جيل وقبيل ببيانه، ويقهر كل معارض ومكابر ببرهانه. ولو كان القرآن من تأليف محمد ﷺ لأثبت به ألوهيته بدلًا من نبوته؛ لأن هذا القرآن لا يمكن أن يصدر إلا عن إله كما بينا في الوجوه السالفة للإعجاز، وإذن لكانت تلك الألوهية أبلغ في نجاح دعوته، وأَرْجى في ترويج ديانته؛ لأن الناس تبهرهم الألوهية أكثر مما تبهرهم النبوة، ويشرفهم أنهم أتباع إله أكثر من أن يشرفهم أنهم أتباع رسول لم يخرج ولن يخرج يومًا من أرض العبودية، ولم يرتق ولن يرتقي يومًا إلى سماء الربوبية:

العبد عبد وإن تعالى   والمولى مولى وإن تنزل

ولهذا كان أعداء الرسل كثيرًا ما يعظم عليهم أن يخضعوا لرجل منهم، وكانوا يعجبون أن يُوحى إلى بشر مثلهم، ويقترحون أن يروا الله جهرة أو تنزل لهم الملائكة عيانًا. فلو كان محمد ﷺ صاحب هذا التنزيل، لخرج عن مستوى الخلق جملة، ولظهر في أفق الألوهية، يطل على العالم بعظمة تنقطع دونها الأعناق وتخضع لها الرقاب، وأن يحقق كل ما اقترحه معارضوه من الآيات؛ ولكنه اعترف بعبوديته حينذاك، وتبرأ من حوله وقوته إزاء هذا

الكتاب وغيره من المعجزات وخوارق العادات. اقرأ في سورة الإسراء: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٌ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَـٰبًا نَّقۡرَؤُهُۥ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓا۟ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ (الإسراء٩٠: ٩٤). [1]

الوجه السادس عشر: الفرق بين كلام الله ﷻ وبين كلام النبي محمد ﷺ.

ومما يفيد في هذا المقام ويدفع التلبيس، أن تعرف بُعد ما بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي الشريف. ولا أدلَّ على ذلك من أن بين يدي التاريخ إلى يوم الناس هذا آلافا مؤلفة من كتب السنة، تملأ دور الكتب في الشرق والغرب، وتنادي كل من له إلمام وذوق في البيان العربي: أن هَلُمَّ لتحس بحاستك البيانية، المدى البعيد بين أسلوبي القرآن والحديث، ولتؤمن عن وجدان بأن أسلوب التنزيل أعلى وأجل من أسلوب الأحاديث النبوية، علوا خارقا للعادة، خارجًا عن محيط الطاقة البشرية، وإن بلغ كلام الرسول ﷺ في جودته وروعته وجلالته، ما جعله خير بيان لخير إنسان. غير أن هذه الفوارق -كما قلنا- فوارق فنية لا يدركها إلا الذين أوتوا حظًا عظيمًا من معرفة اللسان العربي والذوق العربي. ولقد نزل القرآن أول ما نزل على أمة العرب وهم مطبوعون على اللغة الفصحى، منقطعون لإحيائها وترقيتها؛ وكانوا يتفاضلون بينهم بالتفوق في علو البيان وفصاحة اللسان، حتى بلغ في تقديسهم لهذا أنهم كانوا يقيمون المعارض العامة للتفاخر والتفاضل بفصيح المنظوم وبليغ المنثور، وحتى إن القبيلة كان يرفعها بيت واحد من الشعر يكون رائعًا في مدحها، ويضعها بيت يكون لاذعًا في ذمها. ولقد كان هؤلاء العرب يعرفون نبي الإسلام ويعرفون مقدرته الكلامية من قبل أن يوحى إليه، فلم يخطر ببال منصف منهم أن يقول: إن هذا القرآن كلام محمد ﷺ، وذلك لما يرى من المفارقات الواضحة بين لغة القرآن ولغة الرسول ﷺ.

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٢٩٣-٢٩٤.

يضاف إلى هذا أنه لم يعرف في نشأته بينهم بالخطابة ولا بالكتابة ولا بالشعر، ولم يؤثر أنه شاركهم في معارضهم وأسواقهم العامة التي كانوا يقيمونها للتسابق في البيان؛ بل كان مقبلا على شأنه، زاهدًا في الظهور، ميالًا إلى العزلة. وكل ما اشتهر به قبل النبوة أنه كان صادقا لم يجربوا عليه كذبا، أمينًا ما خان أبدًا، ميمون النقيبة عالي الأخلاق علوا ممتازا! فهل يعقل أن رجلًا سلخ عهد شبابه وكهولته على هذا النمط، يجيء في سن الشيخوخة فينافس العالم كله ويتحداه بشيء من لدنه، وهو الذي ما نافس أحدا قبل ذلك ولا تحداه؛ بل كان من خُلُقه الحياء والتواضع وعدم الاستطالة على خلق الله؟ (١)

ثم ليعلم أن القرآن لو كان كلام محمد كالحديث الشريف؛ لكان أسلوبهما واحدًا ضرورة أنهما على هذا الفرض صادران عن شخص واحد، استعداده واحد، ومزاجه واحد، ولكن الواقع غير ذلك، فأسلوب القرآن ضربٌ وحده، تظهر عليه سمات الألوهية التي تجل عن المشابهة والمماثلة، وأسلوب الحديث النبوي ضربٌ آخر لا يجل عن المشابهة والمماثلة؛ بل هو محلق في جو البيان، يعلو أساليب الناس في جملته دون تفصيله، ولا يستطيع بحال أن يصعد إلى سماء إعجاز القرآن. (٢)

* * *

(١) مناهل العرفان٢/ ٢٤٤.

(٢) مناهل العرفان٢/ ٣١٤.

١٤ـ شبهة: اقتباس القرآن من الشعر.

نص الشبهة:

ادعى مَنْ عادى الإسلام أن القرآنَ الكريم اقتبس من شعر امرئ القيس عدة فقرات، وضَمَّنَهَا آياتِه، ولم يحدث هذا في آية أو آيتين، بل في عدة آيات، وإذا كان الأمر كذلك، لم يكن لما يُدندن حوله المسلمون من بلاغة القرآن وإعجازه مكان؛ بل هو في ذلك معتمد على بلاغة من سبقه من فحول الشعراء وأساطين البلاغة. ومثال ذلك: ما قاله المناوي: " وقد تكلم امرؤ القيس بالقرآن قبل أن ينزل، فقال:

يتمنى المرء في الصيف الشتاء ... حتى إذا جاء الشتاء أنكره

فهو لا يرضى بحال واحد ... قتل الإنسان ما أكفره

وقال:

إذا زلزلت الأرض زلزالها ... وأخرجت الأرض أثقالها

تقوم الأنام على رسلها ... ليوم الحساب ترى حالها

وقال بعضهم إن امرئ القيس قال:

دنت الساعة وانشق القمر ... غزال صاد قلبي ونفر

مر يوم العيد بي في زينة ... فرماني فتعاطى فعقر

بسهام من لحاظ فاتك ... فر عني كهشيم المحتظر

وإذا ما غاب عني ساع ... كانت الساعة أدهى وأمر. [(١)]

وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ (سورة الزلزلة: ١، ٢)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾، وقوله تعالى﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿ بَلِ

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢/ ١٨.

ﭐلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾.

والرد من وجوه: (١)

الوجه الأول: تحدي القرآن للعرب، وعجز فصحائهم عن الإتيان بمثل القرآن، وإقرارهم بأنه ليس من قبيل الشعر.

الوجه الثاني: موقف القرآن والسنة من الشعر والشعراء.

الوجه الثالث: سيرته ﷺ تشهد على قلة معرفته للشعر، واستحالة تأليفه له.

الوجه الرابع: اتخاذ النبي ﷺ شعراء يردون على أعدائه دليل أنه لم يكن شاعرًا.

الوجه الخامس: إن امرؤ القيس وغيره من الشعراء قد نُحلت عليهم العديد من القصائد فضلًا عن الأبيات.

الوجه السادس: ولأن الأبيات من الشعر المولد؛ فإن صاحبها اقتبس كلماتها من القرآن الكريم.

الوجه السابع: أن المتقدمين من أهل اللغة والأدب كانوا يذكرون في كتبهم قضية اقتباس الشعراء من كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ.

الوجه الثامن: لو افترضنا صحة نسبة الأبيات إلي امرئ القيس، فإن ذلك يشهد للقرآن بالفصاحة والبلاغة والبيان.

الوجه التاسع: منافاة أسلوب القرآن لأسلوب الشعر عامة.

---

(١) سيتم الرد على مسألة اقتباس القرآن من الشعر عامةً بذكر الدلائل الواضحات على فساد هذا الكلام، وضرب المثال المفصل على شعر امرئ القيس، وأمر ادعاء أن آيات من سورة القمر توافق أشعارًا لامرئ القيس الشاعر الجاهلي؛ ليكون ذلك ردًا على كل من يدعي أن القرآن قد اقتبس من شعره، أو من شعر غيره، كما نسب الأعداء القرآن لشعر امرئ القيس نسبوه لشعر أمية بن أبي الصلت. انظر مقال " الرد على خرافة اقتباس القرآن من شعر أميّة بن أبى الصلت " بقلم د. إبراهيم عوض في " المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام " وهذا دأبهم. أما أُميَّة فقد عاش بعد الإسلام طويلًا، وشعره الديني الصحيح النسبة إليه اقتبسه من القرآن، فتم التمثيل بشعر امرئ القيس؛ لأنه جاهلي ما عاصر الإسلام فهو مُشْكَلٌ على مَنْ قلَّ علمه ويقينه، كما أنه يستدل به على غيره من الشعراء.

الوجه العاشر: إن فساد معاني الأبيات بما لا يقتضيه واقع العرب وعقيدتها الجاهلية يفضح كذب ادعائها على الشعر الجاهلي كله.

الوجه الحادي عشر: مخالفة الشبهة لمقتضى العقل وانعدام المنهج العلمي في تقريرها.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: تحدي القرآن للعرب وعجز فصحائهم عن الإتيان بمثل القرآن، وإقرارهم بأنه ليس من قبيل الشعر.

لو كان هناك مطعن في القرآن من حيث لغته ودلالته، أو بيانه وبلاغته، أو ألفاظه ومعانيه، لكان أعداء القرآن من مشركي العرب أتوا به قبل أن يتحداهم القرآن. . . إذ قد اجتمع في كفار قريش أقوى عامِلَين للتشكيك في القرآن الكريم.

العامل الأول: كونهم أهل اللغة، وفصحائها، وفيهم فطاحل الشعراء والخطباء. [1]

العامل الثاني: رغبتهم الجامحة في إطفاء نور الله تعالى، والحرص على جحده وتكذيبه بعد أن عاب آلهتهم، وسفه أديانهم وأحلامهم. بل زاد الأمر عليهم حين تحداهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة أو آية من ممثله، فلم يأتوا بشيء.

قال تعالى ـ أول ما تحداهم ـ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ (الطور: ٣٣، ٣٤)، فلما انقطعوا قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟

---

(١) **يقول الفخر الرازي في التفسير الكبير ٢/ ١١٥، ١٢٠**: كانوا في معرفة اللغة، والاطلاع على قوانين الفصاحة في الغاية، وكانوا في محبة إبطال أمره في الغاية؛ إذ مفارقة الأوطان والعشيرة وبذل النفوس والمهج من أقوى ما يدل على ذلك. وكانوا في الحمية والأنفة على حد لا يقبلون الحق فكيف الباطل! فإذا انضاف إليه مثل هذا التقريع وهو قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ﴾ فلو كان في وسعهم وإمكانهم الإتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه لأتوا به، فلما لم يأتوا بها علمنا عجزهم عنها، فثبت أن القرآن لا يماثل قولهم وأن التفاوت بينه وبين كلامهم ليس تفاوتًا معتادًا فهو إذن تفاوت ناقض للعادة فوجب أن يكون معجزًا.

ويقول الزرقاني في مناهل العرفان ٢/ ٢٧٨: القرآن معجز خصوصًا أن النبي ﷺ تحدى به؛ فأعجز أساطين الفصحاء، وأعيا مقاويل البلغاء، وأخرس ألسنة فحول البيان من أهل صناعة اللسان، وذلك في عصر كانت القوى فيه قد توافرت على الإجادة والتبريز في هذا الميدان، وفي أمة كانت مواهبها محشودة للتفوق في هذه الناحية، وإذا كان أهل الصناعة هؤلاء قد عجزوا عن معارضة القرآن فغيرهم أشد عجزا وأفحش عيا.

بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (هود: ١٣، ١٤)، فلما عجزوا هذه المرة أيضا طاولهم مرة أخرى وقال: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٣، ٢٤)

يقول القاضي عياض: فلم يزل يقرعهم النبي ﷺ أشد التقريع، ويوبخهم غاية التوبيخ، ويسفه أحلامهم، ويحط أعلامهم، ويشتت نظامهم، ويذم آلهتهم وإياهم، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته، يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب والإغراء بالافتراء، وقولهم: إن هذا إلا قول البشر، إن هذا إلا سحر يؤثر، وسحر مستمر وإفك افتراه، وأساطير الأولين. . . ، وقد قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ﴾ فما فعلوا ولا قدروا، ومَنْ تعاطَى ذلك من سُخَفَائِهِم كمسيلمة كُشِفَ عَوَارُهُ لِجَمِيْعِهِم[1].

ويقول: تحديهم بأن يأتوا بمثله قاطع، وهو أبلغ في التعجيز، وأحرى بالتقريع، والاحتجاج بمجيء بشر مثلهم بشيء ليس من قدرة البشر لازم، وهو أبهر آية، وأقمع دلالة، وعلى كل حال فما أتوا في ذلك بمقال بل صبروا على الجلاء والقتل، وتجرعوا كاسات الصغار والذل، وكانوا من شموخ الأنف، وإباءة الضيم بحيث لا يؤثرون ذلك اختيارا، ولا يرضونه إلا اضطرارا، وإلا فالمعارضة لو كانت من قدرهم والشغل بها أهون عليهم وأسرع بالنجح وقطع العذر وإفحام الخصم لديهم وهم ممن لهم قدرة على الكلام وقدوة في المعرفة به لجميع الأنام[2].

ويقول ابن عاشور: الله تعالى تحدى بلغاءهم أن يأتوا بسورة من مثله فلم يتعرض واحد إلى معارضته، اعترافا بالحق وربئا بأنفسهم عن التعريض بالنفس إلى الافتضاح، مع أنهم

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١ / ٢٦١.

(٢) السابق ١/ ٢٦٧.

أهل القدرة في أفانين الكلام نظما ونثرا، وترغيبا وزجرا، قد خُصوا من بين الأمم بقوة الذهن، وشدة الحافظة، وفصاحة اللسان، وتبيان المعاني، فلا يستصعب عليهم سابق من المعاني، ولا يجمح بهم عسير من المقامات[1].

وقال مالك بن نبي: لم يذكر التاريخ أن أحدًا قد أجاب على هذا التحدي، وبهذا يمكن أن نستخلص أنه قد ظل دون تعقيب وإن إعجازه الأدبي قد أفحم فعلا عبقرية ذلك العصر. فكان عجزُهم بعد ذلك أشنعَ وأبشعَ وسَجَّلَ الله عليهم الهزيمة أبد الدهر فلم يفعلوا ولن يفعلوا فافتضح أمرهم.

فكفار قريش الذين عجزوا كانوا أعلم الناس بأشعار العرب وأحفظهم له، وأعرفهم بمداخله ومخارجه، وقد كانوا مع ذلك أحرص الناس على بيان كذب النبي ﷺ، وأنه ما هو إلا ساحر أو كاهن أو شاعر، والله تعالى ردَّ عليهم بقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١)﴾ (الحاقة: ٤١)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٠)﴾ (يس ٦٩: ٧٠)، فلم يستطيعوا تكذيب كلام الله تعالى، ولم يقدروا على أن يأتوا بدليل على كلامهم من كونه شاعرا إلا التهويش والتكذيب، ثم لو كان اقتبس في القرآن من ذلك الشعر المنسوب لامرئ القيس، لكان كفار قريش ـ وهم الحفاظ لشعره ـ أولَ من يستعين بذلك في رد كلام الله تعالى.

بل ولم يستطيعوا أن يخفوا أو ينكروا إعجاز القرآن وبلاغته وقوته، كما سيأتي بعد قليل. وإن من أعجب العجب أن يخرج علينا الأعجمي الذي لم يرضع اللسان العربي والذي لا يطيق الإبانة عن نفسه بلسان عربي، فيُخَطِّئُ ـ ما عجزت عنه العرب قاطبة ـ أحْكَمَ القَولِ وأبلغَهُ، يخطِّئُ الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، بلسان عربي مبين.

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٠٦.

إن هؤلاء الأعاجم الأغتام أخذوا يفتعلون الأسباب لتنقص القرآن وإلحاق المعابة به، أنه لم يكن سابقًا في بلاغته؛ بل اعتمد على بلاغة مَن سبقه من الشعراء والفصحاء كامرئ القيس وغيره، وأرادوا بذلك نفي أنه كلام الله وأنه صنع بشري يستعين بمَن سبق.[(١)]

قال السيوطي: لما عجزوا عن معارضته والإتيان بسورة تشبهه؛ على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء، نادى عليهم بإظهار العجز، فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٨) هذا وهم الفصحاء اللد، وقد كانوا أحرص شيء على إطفاء نوره، وإخفاء أمره فلو كان في مقدرتهم معارضته، لعدلوا إليها قطعا للحجة، ولم ينقل عن أحد منهم أنه حدث نفسه بشيء من ذلك ولا رامه؛ بل عدلوا إلى العناد تارة وإلى الاستهزاء أخرى. . . ، ثم رضوا بتحكيم السيف في أعناقهم، وسبي ذراريهم وحرمهم، واستباحة أموالهم وقد كانوا آنف شيء وأشده حمية، فلو علموا أن الإتيان بمثله في قدرتهم لبادروا إليه؛ لأنه كان أهون عليهم[(٢)].

وقال أيضًا: قال الجاحظ: بعث الله محمدا أكثر ما كانت العرب شاعرًا وخطيبًا، وأحكم ما كانت لغة، وأشد ما كانت عدة، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجة فلما قطع العذر، وأزال الشبهة، وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة، حملهم على حظهم بالسيف فنصب لهم الحرب، ونصبوا له، وقتل من عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبني أعمامهم، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباحًا ومساءً إلى أن يعارضوه إن كان كاذبًا بسورة واحدة أو بآيات يسيرة، فكلما ازداد تحديًا لهم بها وتقريعا لعجزهم عنها تكشف من نقصهم ما كان مستورًا، وظهر منه ما كان خفيًّا، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف فلذلك يمكنك ما لا يمكننا، قال: فهاتوها مفتريات فلم يرم

(١) الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي صـ١٨٩.
(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٣١٢.

ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر، ولا طمع فيه لتكلفه، ولو تكلفه لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عليه ويكايد فيه ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض، فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم، وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته؛ لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله، وأفسد لأمره، وأبلغ في تكذيبه، وأسرع في تفريق أتباعه من بذل النفوس والخروج من الأوطان وإنفاق الأموال، وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى عَلَى مَنْ هو دون قريش والعرب في الرأي والعقل بطبقات، ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم فمحال أكرمك الله أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر والخطأ المكشوف البين مع التقريع بالنقص والتوقيف على العجز وهم أشد الخلق أنفة، وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيد عملهم، وقد احتاجوا إليه، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعة؟ وكما أنه محال أن يطبقوا ثلاثًا وعشرين سنة على الغلط في الأمر الجليل المنفعة، فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل إليه وهم يبذلون أكثر منه[1].

بل حدث منهم نقيض ذلك؛ فكان العرب الفصحاء يدركون هذا التمايز في الأسلوب القرآني عن غيره من الأساليب؛ فالوليد بن المغيرة شهد على نفسه وقومه من قبل بأن القرآن الكريم ليس من جنس شعر العرب، فضلًا عن أن يكون مقتبسًا منه.

وكما روى إسحاق بن راهويه بسنده عن ابن عباس: أن الوليدَ بنَ المغيرة جَاءَ إلى رسول الله ﷺ فَقَرأَ عليه القرآنَ، فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أبا جهل فأتاه فقال: "يا عم! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالًا. قال: لِمَ؟ قال: ليعطوكه؛ فإنك أتيت محمدًا لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالًا. قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له. قال: وماذا أقول؟ فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برَجَزه ولا

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣١٣.

بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر فيه فلما فكر قال: إن هذا إلا سحر يؤثر يأثره عن غيره. فنزلت: ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ۝١٣ ﴾[1].

وروى البخاري من حديث ابن عباس ﷺ ومسلم عن عبد الله بن الصامت واللفظ لمسلم: أن أنيسًا أخا أبي ذرٍّ، قال لأبي ذرٍّ: لقيت رجلًا بمكة على دينك. قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر. وكان أنيس أحد الشعراء. قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أَقْرَاءِ الشعر، فما يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون.

وفي رواية البخاري: فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، ويقول كلاما ما هو بالشعر[2].

وروى مسلم أن ضماد بن ثعلبة الأزدي قال لرسول الله ﷺ: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ولقد بلغن ناعوس البحر[1].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٥٠، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ١٥٦، ودلائل النبوة ٢/ ١٩٨، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية صـ١٥٨.

(٢) رواه البخاري (٣٦٤٨)، ومسلم (٦٥١٣)، (٦٥١٦).

يقول ابن عاشور في التحرير والتنوير ٢٣/ ٦٢: لقد ظهرت حكمة علام الغيوب في ذلك؛ فإن المشركين لما سمعوا القرآن ابتدروا إلى الطعن في كونه منزّلًا من عند الله بقولهم في الرسول: هو شاعر، أي أن كلامه شعر حتى أفاقهم من غفلتهم عقلاؤهم مثل الوليد بن المغيرة، وأُنيس بن جُنادة الغفاري، وحتى قرعهم القرآن بهذه الآية: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ۝٦٩﴾ وبعد هذا، فإن إقامة الشعر لا يخلو الشاعر فيها من أن يتصرف في ترتيب الكلام تارات بما لا تقضيه الفصاحة مثل ما وقع لبعض الشعراء من التعقيد اللفظي، ومثل تقديم وتأخير على خلاف مقتضى الحال فيعتذر لوقوعه بعذر الضرورة الشعرية، فإذا جاء القرآن شعرًا قصَّر في بعض المواضع عن إيفاء جميع مقتضى الحال حقّه.

وفي قصة عتبة بن ربيعة حين جاء يفاوض النبي ﷺ على أن يترك دعوته، ويعرض عليه المال والملك والسلطان، فقرأ عليه ﷺ شيئًا من القرآن، فلما رجع إلى قومه وجلسوا إليه قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني والله قد سمعت قولًا ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا الكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، خلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تُصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم(٢).

بل إن العرب عجزت والتزمت الصمت وما انبست لها شفة، ولا قالوا مثلا: قد كان يمكن لفصحائنا القدماء أن يأتوا بمثل هذا القرآن إنما علموا أن ذلك ليس من قبيل الكلام المعروف.

يقول الجاحظ: وهو يذكر إعجازَ القرآن: ولو أن رجلًا قرأ على رجلٍ منْ خُطبائِهم وبلغائِهم سورةً قصيرةً أو طويلةً؛ لتبيَّنَ له في نظامِها ومَخْرجها منْ لفظِها وطابَعِها أنه عاجزٌ عن مثلِها، ولو تَحدَّى بها أَبْلَغَ العربِ لأظهرَ عجزَه عنها. (٣)

ويقول عبد القاهر الجرجاني: المتعارف من عادات الناس التي لا تختلف، وطبائعهم التي لا تَتَبَدَّل، أن لا يسلموا لخصومهم الفضيلة وهم يجدون سبيلًا إلى دفعها، ولا ينتحلون العجز وهم يستطيعون قهرهم والظهور عليهم كيف، وإن الشاعر أو الخطيب أو الكاتب يبلغه أنَّ بأقصى الإقليم الذي هو فيه من يَبْأَي بنفسه(٤)، ويُدِلُّ بشعرٍ يقوله، أو

---

(١) صحيح مسلم (٨٦٨). قال النووي في شرح مسلم (٦ / ١٥٧): ضبطناه بوجهين أشهرهما: ناعوس بالنون والعين هذا هو الموجود في أكثر نسخ بلادنا، والثاني: قاموس بالقاف والميم.. . ، وقال أبو عبيد: قاموس البحر: وسطه، وقال بن دريد: لجته، وقال صاحب كتاب العين: قعره الأقصى، وقال الحربي قاموس البحر: قعره، وقال أبو مروان بن سراج: قاموس فاعول من قمسته إذا غمسته، فقاموس البحر: لجته التي تضطرب أمواجها ولا تستقر مياهها، وهي لفظة عربية صحيحة.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٧٩، السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٣).

(٣) رسائل الجاحظ ٣/ ٢٢٩، وانظر البيان والتبيين للجاحظ ٣/ ٢٩.

(٤) (بأى عليه يبأى بأوًا): فخر عليه وأظهر الكبر. لسان العرب (١٤ / ٦٣، مادة: بأي).

خطبة يقوم بها، أو رسالة يعملها، فيدخله من الأنفة والحمية ما يدعوه إلى معارضته، وإلى أن يُظْهِر ما عنده من الفضل، ويبذُلَ ما لديه من المُنَّة، حتى إنه ليتوصَّل إلى أن يكتب إليه، وأن يعرض كلامه عليه، ببعض العِلَل وبنوع من التَّمَحُّل، هذا وهو لم ير ذلك الإنسان قط، ولم يكن منه إليه ما يَهُزُّ ويُحَرِّك ويَهيجُ على تلك المعارضة، ويدعو إلى ذلك التَعَرُّض.

وإن كان المُدَّعِي بمرًاى منه ومسمع، كان ذلك أَدعى له إلى مُباراته، وإلى إظهار ما عنده، وإلي أن يعرف الناس أنه لا يُقَصِّر عنه، أو أَنَّه منه أفضلُ.

فإن انضافَ إلى ذلك أن يَدْعُوَه الرجلُ إلي مُمَاتَنَتِه، ويُحَرِّكه لُمقاوَلته، فذلك الذي يُسهر ليله ويَسلُبُه القرار، حتى يستفرغ مجهوده في جوابه، ويبلغ أقصى الحدِّ في مناقضته.

وإذا كان هذا واجبًا بين نَفْسين لا يَرُومُ أحدُهما من مُباهاةِ صاحبه إلا ما يَجْرِي على الألسُن من ذِكْرِه بالفضل فقط، فكيف يجوز أن يظهر في صميم العرب، وفي مثل قريش ذوي الأنفس الأبيَّة والهمم العليَّة، والأَنَفَة والحمية مَنْ يدَّعي النبوة، ويخبر أنه مبعوث من الله تعالى إلى الخلق كَافَّة، وأنه بشير بالجنة ونذير بالنار، وأنه قد نَسَخَ به كل شريعةٍ تقدَّمته، ودِينٍ دان به الناس شَرْقًا وغربًا، وأنه خاتم النبيين، وأنه لا نبي بعده، إلى سائر ما صدع به ﷺ، ثم يقول: وحجتي أن الله تعالى قد أنزل كتابًا عربيًا مبينًا، تعرفون ألفاظه، وتفهمون معانيه، إلا أنكم لا تقدرون على أن تأتوا بمثله، ولا بعشر سور منه، ولا بسورة واحدة، ولو جَهدتم جَهْدكم، واجتمع معكم الجن والإنس ثم لا تدعوهم نفوسهم إلى أن يعارضوه، ويُبَيِّنوا سَرَفَه في دعواه، مع إمكان ذلك، ومع أنهم لم يسمعوا إلا ما عندهم مثله أو قريب منه؟ أم هل يجوز أن يخرج خارجٌ من الناس على قوم لهم رياسة، ولهم دين ونِحلة، فَيُؤَلِّبَ عليهم الناس، ويُدَبِّرَ في إخراجهم من ديارهم وأموالهم، وفي قَتْلِ صناديدهم وكبارهم، وسَبْي ذراريهم وأولادهم، وعُمْدتُه التي يجد بها السبيل إلى تَأَلُّفِ

مَنْ يَتَأَلَّفُهُ، ودُعاءٍ من يدعوه، دَعْوى له في تلك الدعوى، ولا يُشْتَغَل بإبطالها، مع إمكان ذلك، ومع أنه ليس بمتعذِّر ولا ممتنع؟. [1]

من ثَمَّ فإن أي تشكيك بعدهم في بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، إنما هو ضرب من الهذيان، إذ إن أولى الناس بهذا التشكيك كفارَ قريش، فقد وقفوا حائرين أمام عبارات القرآن وآياته، وكان حالهم على نحو ما ذكر عبد القاهر منذ قليل.

الوجه الثاني: موقف القرآن والسنة من الشعر والشعراء.

الإسلام وقف من الشعر موقف الحذر، فالشعر جائز إذا خلا عن الكذب والرياء وهجو ما لا يجوز هجوه، وعن ذكر الفسق ومدحه والتغني به، وأن يخلو من آفات المدح مع عدم الاستكثار منه، والتجرد له حتى يشغله عن بعض الواجبات والسنن، وقلما يخلو الشعر عن هذه الآفات.

فإذا كانت حال الشعر بهذه المثابة، والإسلام يبيح منه قسما، ويُحَرِّمُ آخر فكيف يستقيم أن يقتبس منه في كتابه الكريم الخالد؟ بل وكيف يقتبس من الشعر الجاهلي الذي قبله وأغراضه معلومة؟

وللبيان نقول ما هو الشعر؟

الشعر في اللغة: واحد الأشعار، وهو في اصطلاح الأدباء كما قال ابن خلدون: "الكلام الموزون المقفى، ومعناه الذي تتكون أوزانه كلها على رويٍّ واحد وهو القافية".

وقال: "وأساليب الشعر تناسبها خلط الجد بالهزل، والإطناب في الأوصاف، وضرب الأمثال، وكثرة التشبيهات والاستعارات"[2].

ويقول صديق حسن: الشعر: هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به. [1]

---

(١) "الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني من صـ٥٧٦: ٥٨٠ باختصار.

(٢) في المقدمة ص٥٣٢.

بدء الشعر عند العرب

الشعر من أعظم ما جادت به ألسنة العرب، وهو عنوان لغتها وبلاغتها، وسجل حوادثها وتاريخها، وترجمان أخلاقها وعاداتها، وكان أحب إليهم من غيره، وأرفع قدرًا وأعظم شأنًا، والشعر عند العرب صفة قديمة لهم ولا يمكن تحديد بدء ظهوره.

يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات: ومما يدل على أن الشعر قديم العهد قول امرئ القيس:

عودا على الطلل القديم لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن حزام

وقول عنترة: هل غادر الشعراء من متردّم[٢]

الشعر والشعراء في القرآن:

قال تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا الله كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء ٢٢٤: ٢٢٧)

يقول ابن كثير: قال عكرمة: كان الشاعران يتهاجيان، فينتصر لهذا فِئَامٌ من الناس، ولهذا فئَامٌ من الناس، فأنزل الله: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾. وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: في كل لغو يخوضون. وقال الحسن البصري: قد والله رأينا أوديتهم التي يهيمون فيها، مرة في شتمة فلان، ومرة في مدحة فلان. وقال قتادة: الشاعر يمدح قومًا بباطل، ويذم قومًا بباطل.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾ قال العوفي، عن ابن عباس: كان رجلان على عهد رسول الله، أحدهما من الأنصار، والآخر من قوم آخرين، وإنهما تهاجيا، فكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء فقال تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أكثر قولهم يكذبون فيه.

---

(١) أبجد العلوم ١/ ٢٩٦.

(٢) في تاريخ الأدب العربي ص٢٨.

وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنه هو الواقع في نفس الأمر؛ فإن الشعراء يتبجَّحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم، فيتكثرون بما ليس لهم[١].

قال الماوردي: قال أهل التأويل: يريد بالشعراء، الذين إذا قالوا كذبوا، وإذا غضبوا سبوا[٢].

موقف السنة من الشعر والشعراء:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لأن يمتلئ جوف الرجل قيحا يَرِيه خير من أن يمتلئ شعرًا"[٣].

وفي رواية مسلم عن أبي سعيد قال: "بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد فقال رسول الله: "خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان؛ لأن يمتلئ جوف رجل قيحًا خير من أن يمتلئ شعرًا"[٤].

فهذا الحديث في ظاهره يدل على التنفير من الشعر والحث على هجره واجتنابه؛ بل على تحريم تعاطيه. وصدّر البخاري ترجمته بقوله: باب ما يكره أن يكون الغالبُ على الإنسان الشعر حتى يصُدّهُ عن ذكر الله والقرآن.

قال ابن الأثير: هو مَوْرِيٌّ إذا أصاب جوفه الداء.

قال الأزهري: الوَرْيُ مثَال الرَّمْي: دَاء يُداخل الجَوف. يقال: رَجُلٌ مَوْرِيٌّ غَير مهموز. وقال الفرّاء: هُو الوَرَى بفتح الراء. وقال ثَعْلب: هو بالسُّكون: المَصْدَرُ وبالفَتْح: الاسم. وقال الجوهري: وَرَى القَيْحُ جَوْفَهُ يَرِيه وَرْيًا: أَكَلَه.[٥]

وقال النووي: قالوا؛ بل الصواب أن المراد أن يكون الشعر غالبًا عليه، مستوليًا عليه، بحيث يشغله عن القرآن وغيره من العلوم الشرعية وذكر الله تعالى، وهذا مذموم من أي شعر كان، فأما إذا كان القرآن والحديث وغيرهما من العلوم الشرعية هو الغالب عليه فلا

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ١٧٣، ١٧٤.

(٢) الحاوي في فقه الشافعي للماوردي ١٧/ ٢٠٨.

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٠٣) ومسلم (٦٠٣٠).

(٤) صحيح مسلم (٦٠٣٢).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/ ٣٩٠.

يضر حفظ اليسير من الشعر مع هذا لأن جوفه ليس ممتلئا شعرا والله أعلم[١].

ويقول ابن الجوزي: هذا الحديث محمول على من جعل جميع شغله الشعر، فلم يحفظ شيئًا من القرآن ولا من العلم؛ لأنه إذا امتلأ الجوف بالشيء لم يبق فيه سعة لغيره. وقال أحمد بن حنبل: أكره من الشعر الهجاء والرقيقَ الذي يشبب بالنساء، فأما الكلام الجاهلي فما أنفعه![٢]

ويقول ابن عبد البر: أحسن ما قيل في تأويل هذا الحديث والله أعلم، أنه الذي قد غلب الشعر عليه، فامتلأ صدره منه دون علم سواه، ولا شيء من الذكر غيره، ممن يخوض به في الباطل ويسلك به مسالك لا تحمد له، كالمكثر من الهذر واللغط والغيبة وقبيح القول ولا يذكر الله كثيرا. وهذا كله مما اجتمع العلماء على معنى ما قلت منه؛ ولهذا قلنا فيما روي عن ابن سيرين والشعبي ومن قال بقولهما من العلماء: الشعر كلام؛ فحسنه حسن وقبيحه قبيح أنه قول صحيح، وبالله التوفيق[٣].

وبَعد ما ذُكِرَ نعلم أن التحقيق أن الحديث الصحيح المصرّح بأن امتلاء الجوف من القيح المفسد له خير من امتلائه من الشعر، محمول على من أقبل على الشعر، واشتغل به عن الذكر، وتلاوة القرآن، وطاعة الله تعالى، وعلى الشعر القبيح المتضمّن للكذب والباطل، كذكر الخمر ومحاسن النساء الأجنبيّات، ونحو ذلك.

يقول ابن بطال: الشعر والرَجَز والحُداء كسائر الكلام، فما كان فيه ذكر تعظيم لله ووحدانيته وقدرته وإيثار طاعته وتصغير الدنيا والاستسلام له تعالى، فهو حسن مرغب فيه، وهو الذي قال فيهﷺ: "إن من الشعر حكمة"، وما كان منه كذبًا وفحشًا فهو الذي ذمه الله ورسوله"[٤].

ما يرخص فيه من الشعر:

(١) شرح صحيح مسلم ١٥/ ١٤.

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين لأبي الفرج ابن الجوزي ١/ ١٦٩.

(٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ٢٢/١٩٦، وانظر الحاوي في فقه الشافعي للماوردي ١٧/ ٢٠٨ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ١٥٠، ١٣/ ١٥١.

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٩/ ٣١٩.

ما ورد في ذم الشعر والشعراء في القرآن أو في السنة، فإنما يُذَمُّ مَنْ أَسَرَفَ وكَذَبَ، فالغالب أن الشعراء يقولون الكذب، فيقذفون المحصنات، ويهجون الأبرياء، فوقع الذم على الأغلب، واستثنى الله منهم من لا يفعل ذلك، كما في آيات سورة الشعراء. وما ورد في السنة من ذم حفظ الشعر فالمقصود به الإكثار من ذلك حتى يشغله عن القرآن والسنة والتفقه في الدين، أو ما كان فيه تشبيب بالنساء ونحوه.

أما الشعر الذي فيه نصرٌ للحق وأهله، ودفاع عن الرسول ﷺوشرعه، ففيه تنزل نصوص مدح الشعر والشعراء، ومنها دعائه ﷺ لحسان: "يا حسان! أجب عن رسول الله ﷺ، اللهم أيده بروح القدس"[١].

ودليل ذلك أيضًا ما أخرجه الإمام البخاري عن أبي بن كعب أخبره أن رسول الله ﷺ قال: إن من الشعر حكمة[٢].

قال ابن حجر: قوله: إن من الشعر حكمة؛ أي قولًا صادقًا مطابقًا للحق، وقيل: أصل الحكمة المنع، فالمعنى: أن من الشعر كلاما نافعا يمنع من السفه[٣].

وقال السندي: (من) تبعيضية يريد أن الشعر لا دخل له في الحسن والقبح، ولا يعتبر به حال المعاني في الحسن والقبح، والمدار إنما هو على المعاني لا على كون الكلام نثرًا أو نظمًا، فإنهما كيفيتان لأداء المعنى وطريقان إليه، ولكن المعنى: إن كان حسنًا وحكمة فذلك الشعر حكمة، وإذا كان قبيحًا فذلك الشعر كذلك، وإنما يذم الشعر شرعًا بناء على أنه غالبًا يكون مدحًا لمن لا يستحقه وغير ذلك[٤].

وروى البخاري في الأدب المفرد عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: "الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام"[١].

---

(١) رواه البخاري (٤٤٢)، مسلم (٢٤٨٥).

(٢) صحيح البخاري (٥٧٩٣).

(٣) فتح الباري ١٠/ ٥٤٠.

(٤) حاشية السندي على سنن ابن ماجة ٧/ ١٥٣.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: الشعر منه حسن ومنه قبيح؛ خذ بالحسن ودع القبيح. ولقد رُويت من شعر كعب بن مالك أشعارًا منها القصيدة فيها أربعون بيتا ودون ذلك[٢].

وقد أنشد كثير من الصحابة الشعر بحضرة الرسول ﷺ، فروى مسلم عَنْ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ رَدِفْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: " هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِى الصَّلْتِ شَيْئًا ». قُلْتُ: نَعَمْ قَالَ: « هِيهِ ». فَأَنْشَدْتُهُ بَيْتًا فَقَالَ: « هِيهِ ». ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ بَيْتًا فَقَالَ: « هِيهِ ». حَتَّى أَنْشَدْتُهُ مِائَةَ بَيْتٍ". [٣]

وأخرج بن أبي شيبة عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ منحرفين ولا متماوتين، وكانوا يتناشدون الأشعار في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم فإذا أريد أحدهم على شيء من دينه دارت حماليق عينيه[٤].

وقال الماوردي: وقد استشهد عبد الله بن عباس رضي الله عنه فيما سأله نافع بن الأزرق في معاني القرآن بأشعار العرب، ودل به على معانيه وقال: الشعر ديوان العرب، فما أنكره أحد منهم من الصحابة والتابعين[٥].

وقال ابن الجوزي: قال حبيب بن أبي ثابت: كان ابن عباس يعجبه شعر زهير ويقضي له، وكان معاوية يعجبه شعر عدي ويقضي له، وكان ابن الزبير يعجبه شعر عنترة ويقضي له، قال: وإنما اختار ابن عباس شعر زهير؛ لأنه كان يختار من الشعر أكثره أمثالًا وأدله على العلم والخير، واختار معاوية شعر عدي؛ لأنه كان كثير الأخبار، واختار ابن الزبير شعر عنترة لشجاعته[٦].

---

(١) الأدب المفرد (٨٦٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٦٦)، وقال ابن حجر في الفتح١٠/ ٥٤٠: سنده حسن. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٧٣١.

(٣) صحيح مسلم (٦٠٢٢).

(٤) ابن أبي شيبة (٤٠٥)، وحسن إسناده ابن حجر في الفتح١٠/ ٥٤٠.

(٥) الحاوي في فقه الشافعي للماوردي ١٧/ ٢٠٣.

(٦) كشف المشكل من حديث الصحيحين ١/ ١٦٩.

قال الماوردي: قال الشافعي: والشعر حكمه كلام، فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيحه. (١)

وقال ابن تيمية: إن الأمثلة المنظومة والمنثورة إذا كانت حقا مطابقا فهي من الشعر الذي هو حكمة، وإن كان فيها تشبيهات شديدة وتخيلات عظيمة أفادت تأليفا وتنفيرًا(٢).

قال ابن قدامة: وليس في إباحة الشعر خلاف، وقد قاله الصحابة والعلماء، والحاجة تدعو إليه لمعرفة اللغة العربية والاستشهاد به في التفسير، وتعرف معاني كلام تعالى وكلام رسوله ﷺ، ويستدل به أيضًا على النسب والتاريخ وأيام العرب. (٣)

فالشعر أنواع: فما كان فيه حكمة، أو موعظة حسنة، أو دفاع عن حق، أو إبطال لباطل، أو نحو ذلك من وجوه الخير فهو خير وهو مشروع. وما كان فيه كذب، أو شرك، أو لهو، أو مجون، أو إغراء بشرٍّ أو نصر لباطل، أو إبطال لحق، أو ثناء على أهل الشر، أو ذم لأهل الخير، أو نحو ذلك فهو شر وهو ممنوع، وبالجملة فحكمه حكم ما اشتمل عليه.

يقول ابن حجر: الذي يتحصل من كلام العلماء في حد الشعر الجائز أنه إذا لم يكثر منه في المسجد، وخلا عن هجوٍ وعن الإغراق في المدح والكذب المحض والتغزل بمعين لا يحل، وقد نقل ابن عبد البر الإجماع على جوازه إذا كان كذلك(٤).

الوجه الثالث: سيرته ﷺ تشهد على قلة معرفته للشعر، واستحالة تأليفه له.

من أين للنبي ﷺ أن يعرف الشعر أو أن يقوله؟ والله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ (يس: ٦٩). ويقول: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء ٢٢٤: ٢٢٦).

---

(١) الحاوي في فقه الشافعي للماوردي ١٧/ ٢٠٢.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٦٥١.

(٣) المغني لابن قدامة ٢٣/ ١٨٨، وانظر الحاوي في فقه الشافعي للماوردي ١٧/ ٢٠٢: ٢١٠. والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ١٤٧.

(٤) فتح الباري ١٠/ ٥٣٩.

قَالَ المُشْرِكُونَ: إنَّ مُحَمَّدًا لَشاعِرٌ، وقالوا: إن القرآنُ شِعْرٌ؛ فأنزَلَ الله تَعالى هذهِ الآيَةَ الكريمةَ يُرُدُّ بها على افْتِرَائِهِمْ هَذا، ويقولُ لهُمْ: إنَّ القرآنَ فيما حَواه من حِكَمٍ وأحْكَامٍ، وفي أُسْلُوبِه يَتَنَاقَضُ مع الشِّعْرِ. وإنَّ حَالَ مُحَمَّدٍ يَتَنَافَى مَعَ حَالِ الشُّعْراءِ، فهوَ لا يَنْطِقُ إلا بالحَقِّ والحِكْمَةِ، والصِّدْقِ، ويَتَّبِعُهُ الصَّادِقُونَ المُخْلِصُونَ. والشُّعَراءُ يقولونَ الباطِلَ والزُّورَ، ولا يَتَّبِعُهُمْ إلا الضَّالُّونَ.

والشُّعَرَاءُ يَخُوضُونَ في كُلِّ لغْوٍ، ألم تر أنهم في كل واد من أودية القول يهيمون على وجوههم، في كلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الكَلاَمِ، فلا يهتدون إلى الحق؟ فَهُمْ يَخُوضُونَ مرةً فِي شَتيمةِ فلانٍ، ومَرةً في مَديحِ فُلانٍ، فلا يَهْتَدُونَ إلى الحَقِّ.

والشُّعَرَاءُ يقُولُونَ مَا لاَ يَلْتَزِمُونَ بهِ في عَمَلِهِمْ، ويَتَبَجَّحُونَ بأقْوَالٍ وأفْعَالٍ لمْ تَصْدُرْ عَنْهُمْ ولا مِنْهُمْ، فَيتكَثَّرُونَ بِمَا ليسَ لهُمْ، والرَّسُولُ الذي أُنْزِلَ عليهِ القُرآنُ ليسَ بِكَاهِنٍ، ولا شَاعِرٍ لأنَّ حالَهُ مُنَافٍ لِحَالِ الشُّعَراءِ مِنْ وُجُوهٍ ظَاهِرَةٍ فهو ينطق بالحكمة، وهم ينطقون بالزور.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ يظهر منه أن الله تولى الدفاع عن حبيبه ونبيه ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ (النجم: ٢) نفي لقولهم هو شاعر إذ الشعراء يتبعهم الغاوون[1].

يقول محمد الأمين الشنقيطي: أما دعواهم أنه ﷺ شاعر، فقد ذكره تعالى في قوله عنهم: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ (الأنبياء: ٥)، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ (الصافات: ٣٦)، وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ (الطور: ٣٠). وأمّا تكذيب الله لهم في ذلك، فقد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ (الحاقة: ٤١)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ (يس: ٦٩)، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (الصافات: ٣٦، ٣٧)؛ لأن قوله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾، تكذيب لهم في قولهم إنه شاعر مجنون[1].

---

(١) أيسر التفاسير لأسعد حومد (الشعراء ٢٢٤: ٢٢٦) بتصرف.

يقول ابن كثير عن آية سورة (يس): يقول تعالى مخبرًا عن نبيه محمد ﷺ: أنه ما علمه الشعر، ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ أي: وما هو في طبعه، فلا يحسنه ولا يحبه، ولا تقتضيه جِبلَّته؛ ولهذا وَرَدَ أنه، عليه الصلاة والسلام، كان لا يحفظ بيتًا على وزنٍ منتظم، بل إن أنشده زَحَّفه أو لم يتمه.

ويقول: قال أبو زُرْعة الرازي: حُدِّثت عن إسماعيل بن مجالد، عن أبيه، عن الشعبي أنه قال: ما وَلَد عبد المطلب ذكرًا ولا أنثى إلا يقول الشِّعر، إلا رسول الله ﷺ[٢].

وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا استراث الخبر، تمثل فيه ببيت طَرَفَة: ويَأْتِيكَ بالأَخْبار مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ[٣]

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٦/ ١٠٤

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٦/ ٥٨٨، ويقول عبد العزيز القارئ في مقالة (شعر أهل الحديث) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة العدد ١٠ صـ٢٩٣: من المجمع عليه أنه ﷺ لم يكن شاعرًا ولم ينظم الشعر، بل طبعه الله ﷻ على خلاف سجية الشعراء ومنع عنه ملكة الشعر. . حتى ما كان يستقيم في لسانه في الغالب، وإن كان يجري على لسانه أحيانًا، إلا أن المنفي عنه بالجملة أن يكون شاعرًا، فإذا جرى على لسانه بيت أو بيتان مستقيمان فإن ذلك لا يعني أنه قال شعرًا، لأن جريان كلام منظوم بغير قصد لنظمه وعنايته بإيجاده موزونًا، يجري على كل الألسنة ولا يعتبر شعرًا.

ويقول صـ٢٩٤: وكون الرسول أميًا لم يعن مذمة الكتابة والقراءة. . وكذلك كونه ليس شاعرًا لا يعني ذم الشعر. . فلا يفهم من قوله: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ إلا أن الشعر مع مقام الوحي لم يكن مناسبًا، كما أن الأمية كانت مناسبة، والدليل على أن المقصود هو تأكيد أن القرآن ليس بشعر أن الآية جاءت في معرض هذا المعنى حيث يقول بعدها: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾فيكون المعنى وما ينبغي أن يكون القرآن شعرًا؛ لأنه كتاب إرشاد وتعليم وموعظة للناس، والشعر ليس محلا للتفصيل والتبيين والإيضاح بل هو محل الإجمال والإشارة. . فهذا الكلام ليس من نوع الشعر ولكنه (قرآن مبين).

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٣١، ١٤٦، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٩٦)، وفي السنن الكبرى (١٠٨٣٤)، عن الشعبي، عن عائشة، وأخرجه الترمذي (٢٨٤٨)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٩٧)أيضًا، وأحمد ٦/ ١٣٨: من حديث المقدام بن شريح بن هانئ، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها كذلك، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٥٧).

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن عائشة: كان يتمثل ببيت أخي بني قيس، فيجعل أوله آخره، وآخره أوله. فقال أبو بكر ليس هكذا، فقال: رسول الله ﷺ: "إني والله ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي"[(١)].

ومع فصاحته ﷺ كان يبغض الشعر، روى الإمام أحمد عن أبي نوفل قال: سألتُ عائشة: أكان رسول الله ﷺ يتسامع عنده الشعر؟ فقالت: كان أبغض الحديث إليه. وقال عن عائشة: كان رسول الله ﷺ يعجبه الجوامع من الدعاء، ويدع ما بين ذلك.[(٢)]

يقول ابن عاشور: تقدير المعنى: نحن علمناه القرآن وما علمناه الشعر، فالقرآن موحىً إليه بتعليم من الله والذي أوحى به إليه ليس بشعر، وإذن فالمعنى: أن القرآن ليس من الشعر في شيء. ودل على أن هذا هو المقصود من قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ قوله عقبه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾، أي ليس الذي علمناه إياه إلا ذكرًا وقرآنا وما هو بشعر. والتعليم هنا بمعنى الوحي، أي وما أوحينا إليه الشعر فقد أطلق التعليم على الوحي في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ (النجم ٤: ٥) وقال ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ (النساء: ١١٣)[(٣)].

يقول: وقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ جملة معترضة بين الجملتين المتعاطفتين أي ما يتأتّى له الشعر، قُصِدَ منها اتباع نفي أن يكون القرآن الموحَى به للنبي ﷺ شعرًا بنفي أن يكون النبي ﷺ شاعرًا فيما يقوله من غير ما أوحى به إليه، أي فطر الله النبي ﷺ على النفرة بين ملكته الكلامية والملكة الشاعرية، أي لم يجعل له ملكة أصحاب قرض الشعر؛ لأنه أراد أن يقطع من نفوس المكذّبين دابر أن يكون النبي ﷺ شاعرا وأن يكون قرآنه شعرًا؛ ليتضح بهتانهم عند من له أدنى مسكة من تمييز للكلام.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ٥٩٠، ورواه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١١٧) عن معمر عن قتادة، به.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٣٤)، والطيالسي في المسند (١٥٩٣)، والبيهقي في السنن الكبرى(١٠/ ٢٤٥)، وابن أبي شيبة (٢٦٦١٥) وقال الهيثمي في المجمع ٨/ ٢٢٠: رجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٠٥٩).

(٣) التحرير والتنوير ٢٣/ ٥٧. وانظر أيضا: نظم الدرر ٦/ ٢٧٩، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٩.

ومعنى كون الشعر لا ينبغي له: أن قول الشعر لا ينبغي له؛ لأن الشعر صنف من القول له موازين وقوافٍ، فالنبي ﷺ منزّه عن قرض الشعر وتأليفه، أي ليست مِن طباع ملكته إقامة الموازين الشعرية، وليس المراد أنه لا ينشد الشعر؛ لأن إنشاد الشعر غير تعلّمه، وكم من راوية للأشعار ومن نَقَّادٍ للشعر لا يستطيع قول الشعر، وكذلك كان النبي ﷺ قد انتقد الشعر، ونبه على بعض مزايا فيه، وفضّل بعض الشعراء على بعض، وهو مع ذلك لا يقرض شعرًا. وربما أنشد البيت فغفل عن ترتيب كلماته فربما اختلّ وزنه في إنشاده، وذلك من تمام المنافرة بين ملكة بلاغته وملكة الشعراء، ومنها جانب قوام الشعر ومعانيه فإن للشعر طرائق من الأغراض كالغزل والنسيب والهجاء والمديح والمُلَح، وطرائق من المعاني كالمبالغة البالغة حدّ الإغراق وكادّعاء الشاعر أحوالًا لنفسه في غرام أو سير أو شجاعة هو خِلوٌ من حقائقها فهو كذب مغتفر في صناعة الشعر. وذلك لا يليق بأرفع مقام لكمالات النفس، وهو مقام أعظم الرسل صلوات الله عليه وعليهم فلو أن النبي ﷺ قَرَضَ الشعر، ولم يأت في شعره بأفانين الشعراء لَعُدَّ غضاضة في شعره، وكانت تلك الغضاضة داعية للتناول من حُرمة كماله في أَنْفُسِ قومه يستوي فيها العدوّ والصديق. على أن الشعراء في ذلك الزمان كانت أحوالهم غير مرضية عند أهل المروءة والشرف لما فيهم من الخلاعة والإقبال على السُكر والميسر والنساء، فلو جاء الرسول ﷺ بالشعر أو قاله لرمقه الناس بالعين التي لا يرمق بها قدره الجليل وشرفه النبيل، فتنزيه النبي ﷺ عن قول الشعر من قبيل حياطة معجزة القرآن وحياطة مقام الرسالة مثل تنزيهه عن معرفة الكتابة[1].

(١) التحرير والتنوير ٢٣/ ٦٢، ٦٣، ٦٤ بتصرف. ويقول أحمد المراغي في تفسيره٢٣/ ٣٠: لأن الشعر يسير مع العواطف والأهواء وليس مع ما يمليه العقل الصحيح، فكان مستقر المبالغات والأراجيف والمدائح والتفاخر ومبني على الركون إلى الأهواء تبعًا لفائدة ترجى، أو شفاء للنفس من ضغائن الصدور، والشرائع والأحكام تنزه عن مثل هذا.
والخلاصة: إن الله تعالى كما جعل رسوله أميا لتكون الحجة أتم والبرهان على المشركين أقوم كذلك منعه قول الشعر حتى لا يكون لهم حجة أن يدّعو عليه أن القرآن من المفتريات التي يتقولها، والأباطيل التي ينمقها، وليس بوحي من عند ربه.

ومن شهد للنبي ﷺ بذلك ضماد الأزدي كما في صحيح مسلم عن ابن عباس: (أَنَّ ضمادًا قدم مكة وكان من أزد شنوءة، وكان يرقي من هذه الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدا مجنون. فقال لو أنى رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي، قال: فلقيه، فقال: يا محمد إنى أرقي من هذه الريح وإن الله يشفى على يدي من شاء فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: " إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله أما بعد". قال: فقال: أعد عليَّ كلماتك هؤلاء. فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال: فقال لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ولقد بلغن ناعوس البحر. قال: فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام. قال: فبايعه. [1]

يقول الأستاذ محمود محمد شاكر: كلمات قلائل تذوقها ضماد ﷺ، ولم يصبر حتى يتلى عليه بعض ما نزل من القرآن يومئذ بمكة وقطع الحديث ليستعيد ما سمع، ونحن اليوم نسمعها من كل منبر في كل يوم جمعة ونحن في غفلة عن تذوقها تذوق ضماد. كانت هذه الكلمات التي سمعها ضماد يومئذ هي وحدها دليله على نبوة صديقه الذي كان يعرفه ويعرف كلامه بالأمس في الجاهلية؛ لأنه وصل بتذوقها إلي صميم الفرق بين كلام صاحبه بالأمس وكلامه في هذا اليوم، وأسرعت به إلي البيعة على الإسلام قبل أن يسمع كلام الله! فأي دقة في التذوق! ! وأي رجال كان هؤلاء الذين فوض إليهم التفريق بين كلام رب العالمين وكلام عبيده من البشر ؟!. [2]

الوجه الرابع: اتخاذ النبي ﷺ شعراء يردون على أعدائه دليل أنه لم يكن شاعرًا.

وقد كان المقتضى أن يقوم هو بالرد على الأعداء؛ فيكون ذلك أبلغ في النكاية بالقوم، وحتى لا يقولوا عجز عن الرد، فاستعان بهؤلاء النفر من أصحابه، ولكن كما سبق ما له وللشعر ﷺ وكان على الشعر العبء الأكبر في تأجيج نار الخصومة والمجاهرة بها، فقام الصحابة رضوان الله عليهم بهذا الدور.

---

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٤٥)، وأحمد ١/ ٣٠٢.

(٢) قضية الشعر الجاهلي صـ٦٢، ٦١.

قال الماوردي: وقد كان للنبي ﷺ شعراء، منهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وكانوا ينشدون الشعر تارة ابتداء ويأمرهم به أخرى ليردوا على من هجاه[1].

فهم وأمثالهم من الذين استثناهم الله تعالى من الشعراء بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٧).

وهم الشعراء الذين أغلب أحوالهم تحري الحق والصدق ممن دافعوا عن الرسالة والرسول ونافحوا عن الإسلام، ودافعوا عن القيم الفاضلة، فدخلوا في حزب المؤمنين، فعملوا بأعمالهم الصالحة وذكرُوا الله كَثِيرًا في أشعارهم ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ﴾ أراد بذلك الانتصار لله، ولرسوله، ولدين الله، وللمؤمنين. فذلك عمل صالح، وعُدَّةٌ من عُدَدِ الحرب، وقوام الدين.

كما كان يقع من شعراء النبيّ ﷺ، فإنهم كانوا يهجون من يهجوه، ويحمون عنه ويذبون عن عرضه، ويكافحون شعراء المشركين وينافحونهم.

قال ابن سيرين: كان كعب بن مالك يخوفهم الحرب، وكان حسان يقبل على الأنساب، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر[2].

أما حسان فهو: ابن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار. شاعر رسول الله ﷺ عاش مائة وعشرين سنة: ستين في الجاهلية، وستين في الإسلام.

روى البخاري: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف: أنه سمع حسان بن ثابت الأنصاري يستشهد أبا هريرة أنشدك الله هل سمعت النبي ﷺ يقول يا حسان أجب عن رسول الله ﷺ: اللهم أيده بروح القدس؟ قال أبو هريرة: نعم[3].

وقال ﷺ لحسان بن ثابت " اهجهم يعني قريشًا فو الله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام، في غلس الظلام، اهجهم ومعك جبريل روح القدس، والق أبا بكر يعلمك تلك الهنات.

---

(١) الحاوي في فقه الشافعي ١٧/ ٢٠٤

(٢) أسد الغابة في ترجمة: كعب بن مالك.

(٣) رواه البخاري (٤٤٢)، ومسلم (٢٤٨٥).

وعَنْ الْبَرَاءِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِحَسَّانَ: اهْجُهُمْ، أَوْ قَالَ هَاجِهِمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ[1].

وروى البخاري ومسلم: عن عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: " اهْجُوا قُرَيْشًا فإنه أَشَدُّ عليها من رَشْقٍ بِالنَّبْلِ، فَأَرْسَلَ إلى بن رَوَاحَةَ فقال: اهْجُهُمْ فَهَجَاهُمْ فلم يُرْضِ، فَأَرْسَلَ إلى كَعْبِ بن مَالِكٍ ثُمَّ أَرْسَلَ إلى حَسَّانَ بن ثَابِتٍ فلما دخل عليه قال حَسَّانُ: قد آنَ لَكُمْ أَنْ تُرْسِلُوا إلى هذا الْأَسَدِ الضَّارِبِ بِذَنَبِهِ، ثُمَّ ادلع لِسَانَهُ، فَجَعَلَ يُحَرِّكُهُ فقال: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَفْرِيَنَّهُمْ بِلِسَانِي فَرْيَ الْأَدِيمِ فقال رسول الله ﷺ لَا تَعْجَلْ؛ فان أَبَا بَكْرٍ أعلم قُرَيْشٍ بِأَنْسَابِهَا، وإن لي فِيهِمْ نَسَبًا حتى يُلَخِّصَ لك نَسَبِي، فأتاه حَسَّانُ ثُمَّ رَجَعَ فقال: يا رَسُولَ الله قد لَخَّصَ لي نَسَبَكَ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَسُلَّنَّكَ منهم كما تُسَلُّ الشَّعْرَةُ من الْعَجِينِ. قالت عَائِشَةُ: فَسَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول لِحَسَّانَ إن رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ ما نَافَحْتَ عن الله وَرَسُولِهِ. وَقَالَتْ سمعت رَسُولَ الله ﷺ يقول: هَجَاهُمْ حَسَّانُ فَشَفَى وَاشْتَفَى "، قال حَسَّانُ:

هجوتَ محمداً، فأجبتُ عنهُ ... وعندَ الله في ذاكَ الجزاءُ
أتَهْجُوهُ، وَلَسْتَ لَهُ بكُفْءٍ ... فَشَرُّكُما لِخَيْرِكُما الفِداءُ
هجوتَ مباركاً، براً، حنيفاً ... أمينَ الله، شيمتهُ الوفاءُ
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ الله مِنْكُمْ ... ويمدحهُ، وينصرهُ سواءُ
فَإنّ أبي وَوَالِدَهُ وَعِرْضي ... لعرضِ محمدٍ منكمْ وقاءُ
لساني صارمٌ لا عيبَ فيهِ، ... وَبَحْرِي لا تُكَدِّرُهُ الدِّلاءُ[2]

قال ابن حجر: قال أبو عبيدة: فُضِّلَ حسان بن ثابت على الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر النبي ﷺ في أيام النبوة وشاعر اليمن كلها في الإسلام[3].

أما ابن رواحة فهو: عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو بن امرئ القيس الأكبر بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الأنصاري

---

(١) صحيح البخاري (٥٦٨٧).

(٢) رواه البخاري (٥٦٨٤)، ومسلم (٢٤٩٠) واللفظ لمسلم.

(٣) الإصابة في أخبار الصحابة ٢/ ٦٣.

الخزرجي يكنى أبا محمد، وهو أحد النقباء، شهد العقبةَ وبدرًا وأحدًا والخندق والحديبية وعمرة القضاء، والمشاهد كلها إلا الفتح وما بعدها؛ لأنه قتل يوم مؤتة شهيدا، وهو أحد الأمراء في غزاة مؤتة، وأحد الشعراء المحسنين الذين كانوا يردون الأذى عن رسول الله ﷺ.

روى البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ يَذْكُرُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ إِنَّ أَخًا لَكُمْ لَا يَقُولُ الرَّفَثَ يَعْنِي بِذَاكَ ابْنَ رَوَاحَةَ قَالَ:

وَفِينَا رَسُولُ الله يَتْلُو كِتَابَهُ ... إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنْ الْفَجْرِ سَاطِعُ

أَرَانَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقُلُوبُنَا بِهِ ... مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعُ

يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ ... إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالْكَافِرِينَ الْمَضَاجِعُ. [1]

وفي الصحيحين أنه ﷺ تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة، ولكن تبعًا لقول أصحابه، فإنهم يرتجزون وهم يحفرون، فيقولون:

اللهمَّ لوْلا أنت مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا

فَأَنزلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّت الأَقْدَامَ إنْ لاقَيْنَا

إنّ الألى قَدْ بَغَوا عَلَيْنَا ... إذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا. [2]

ويرفع صوته بقوله: "أبينا" ويمدها.

أما كعب فهو: كعب بن مالك ابن أبي كعب، واسم أبي كعب: عمرو بن القين بن كعب بن سواد بن غنم بن كعب ابن سلمة الأنصاري، الخزرجي العقبي الأحدي. أحد شعراء رسول الله ﷺ الذين كانوا يردون الأذى عنه، وكان مجودًا مطبوعًا قد غلب عليه في الجاهلية أمر الشعر، وعرف به ثم أسلم وشهد العقبة ولم يشهد بدرًا وشهد أحدًا والمشاهد كلها حاشا تبوك، فإنه تخلَّف عنها. وقد قيل: إنه شهد بدرًا فالله تعالى أعلم. وهو أحد الثلاثة الأنصار الذين قال الله فيهم: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ (التوبة: ١١٨). [3]

---

(١) صحيح البخاري (٥٦٨٥).

(٢) صحيح البخاري (٢٨٧٠) وصحيح مسلم (٤٧٧١).

(٣) انظر الاستيعاب ١/ ٤١١.

عن ابن المنكدر، عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال لكعب بن مالك: " ما نسي ربك لك – وما كان ربك نسيًا – بيتًا قلته ". قال: ما هو؟ قال: " أنشده يا أبا بكر "، فقال:

زعمت سُخينة أنْ ستغلب ربها ... وليُغلَبَنَّ مغالب الغلاب[1]

وله أشعار حسان جدًا في المغازي وغيرها.

قال ابن سيرين: فبلغني أن دوسا إنما أسلمت فرقا من قول كعب بن مالك:

قضينا من تهامة كل وتر ... وخيبر ثم أغمدنا السيوفا

نخيرها ولو نطقت لقالت ... قواطعهن: دوسا أو ثقيفا

فقالت دوس: انطلقوا فخذوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نزل بثقيف[2].

ومن شعراء النبي ﷺ: كعب بن زهير، والأعشى أعشى بني مازن اسمه عبد الله بن الأعور ويقال عبد الله بن عمرو من بني تميم، وغيرهم الكثير وما ذُكر إشارة على اتخاذه ﷺ للشعراء.

فالرسول ﷺ يستعين بهم، ويوظفهم في مقاومته أهلَ مكَّةَ وشعرائها، الذين هجوه وآذوا دعوته وصدوا عنها فهو ﷺ استخدم أسلحة قريش في الرد عليهم، حيث استعمل الأنساب والأيام والمثالب، والشعر الذي دار في الهجاء بين شعراء المسلمين والمشركين يمثل الصورة.

يقول الشيخ عبد الحي الكتاني: قال الشهاب البربير في كتاب الشرح الجلي: الصحابة كانوا معدن الشعر ومنبعه منهم: النابغة الجعدي، وكعب بن زهير، وكعب بن مالك، والزبرقان، والعباس بن مرداس، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن رواحة، وضرار بن الخطاب، والعباس عمهﷺ، وابنه عبد الله بن عباس، ولبيد، ومعاوية بن أبي سفيان، وأبوه أبو سفيان، والمغيرة بن شعبة، وغيرهم.

قلت: الشعراء من الصحابة الذين مدحوه ﷺ بين رجال ونساء جمعهم الحافظ فتح الدين محمد بن محمد الأندلسي المعروف بابن سيد الناس المتوفى عام ٧٣٤ في قصيدة ميمية ثم شرحها في مجلد سماه: "منح المدح أو فتح المدح" ورتبهم على حروف المعجم قارب بهم المائتين[1].

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٠/ ١٩٠، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٧٠).

(٢) أسد الغابة في ترجمة: كعب بن مالك.

ومن الوجوه المفحمة في رد هذه الفرية: إبطال نسبة هذه الأبيات إلى عصر الجاهلية من عدة وجوه، وما هي إلا أبيات مولدة في العصور الإسلامية اقتبس صاحبها بعض الأساليب والكلمات من القرآن الكريم على ما درج عليه أهل الأدب قديما وحديثا فلا شبهة في هذا ولا اقتباس وإليك الكلام مفصلًا في:

الوجه الخامس: إن امرئ القيس وغيره من الشعراء قد نحلت عليهم العديد من القصائد فضلا عن الأبيات.

بل نُحل على بعضهم قصص كاملة لا خطم لها ولا أزمة، وقضية نحل الشعر ونسبته لقدماء الشعراء أمر معروف لا يستطيع أحد إنكاره.

النحل في اللغة: قال ابن منظور: انْتَحَل فلانٌ شِعْر فلانٍ إِذا ادّعاه أَنه قائلُه. وتَنَحَّلَه: ادَّعاه وهو لغيره، ويقال: نُحِل الشاعرُ قصيدةً إِذا نُسِبَت إِليه وهي من قِيلِ غيره[٢].

وقال الرازي: نَحَلَهُ القول من باب قطع أي أضاف إليه قولًا قاله غيره وادَّعاه عليه، وانْتَحَل فُلان شِعْر غيره، أو قول غيره إذا ادَّعاه لنفسه، وتَنَحّل مثله وفُلان يَنْتَحِلُ مذهب كذا وقبيلة كذا إذا انتسب إليه[٣].

يقول محمد بن سلام الجمحي: وفى الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير، لا خير فيه ولا حجة في عربيةٍ ولا أدب يستفاد، ولا معنى يستخرج، ولا مثل يضرب، ولا مديح رائع، ولا هجاء مقذع، ولا فخر معجب، ولا نسيب مستطرف. وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب لم يأخذوه عن أهل البادية ولم يعرضوه على العلماء، وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفي.

وقد اختلف العلماء بعدُ في بعض الشعر كما اختلفت في سائر الأشياء فأما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه[١].

---

(١) نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدراية ١/ ٢١١.

(٢) لسان العرب مادة: (ن ح ل).

(٣) مختار الصحاح، مادة: (ن ح ل).

ويقول: فلما راجَعَتِ العَرَبُ رِوَايةَ الشِّعْرِ وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قومٌ قَلَّتِ وقائعُهم وأشعارُهم فأرادوا أن يَلْحَقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسنة شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار التي قيلت. وليس يُشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولدون(٢).

وقال: وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية، وكان غير موثوق به، وكان ينحل شعر الرجل غيره، وينحله غير شعره، ويزيد في الأشعار(٣).

وسبب ذلك ما يقول الأستاذ محمود محمد شاكر: الشعر الجاهلي المحض له مشكلة قائمة برأسها، يشركه في بعضها الشعر في صدر الإسلام. وكلاهما يعتمد اعتمادًا يكاد يكون تامًّا على الرواية المتسلسلة في بوادي الجاهلية وحواضرها، ثم في بوادي الإسلام وحواضره إلى أن يصل إلى عهد رواية العلماء، وتقييد ما يَرْوُونَه كتابة في بعض الأحيان أو إملاءً على أصحابهم وتلاميذهم أحيانًا أخرى. وهذه الفترة واقعة ما بين سنة ١٥٠ قبل الهجرة تقريبا إلى نحو سنة ثمانين بعد الهجرة. وهذه فترة طويلة جدا، مئتان وثلاثون سنة أو تزيد تُعَرِّضُ الرواية المتنقلة عن طريق السماع والحفظ، لعيوب لا يمكن اتقاؤها. (٤)

وثمة عوامل خلال هذه السنين تُعَرِّض هذا المنقول للنسيان أو الزيادة والنقصان أو التحريف والتبديل.

يقول الأستاذ شاكر: جاء عصر الرواة العلماء، وجعلوا همهم تتبع الشعر والشعراء في قبيلة بعد قبيلة وحي بعد حتى لقوا في رحلتهم عوارض في تلقِّي الشعر: فقُرب عهد الشاعر أو بُعدُه من زمان العلماء الرواة له أثر في الرواية، وكذلك طول القصيدة أو قصرها له أثر آخر،

(١) في كتابه " طبقات فحول الشعراء " ١/ ٥.

(٢) السابق ١/ ٤٦.

(٣) السابق ١/ ٤٨.

(٤) نمط صعب ونمط مخيف صـ٣٨.

وشهرة الشاعر لها أثر، كما عرضت للعلماء أنفسهم عوارض فيما سمعوه فحفظوه أو قيدوه من نسيانٍ لبعض ما حفظ، ومن لحوق الضياع أو التلف ببعض ما قيدوه وكتبوه، ومن تباعد الأيام أو تدانيها من وقت روايتهم، ثم إن القصيدة الواحدة قد رواها عدد مختلف من العلماء الرواة القدماء عن رواة مختلفين من رواة البادية في أماكن مختلفة من بلاد العرب، وفي أحوال يختلف بعضها عن بعض فإذا قدرنا العوارض التي ذكرناها آنفا لم نجد مناصًا من أن يلحق هذه القصيدة ضرب أو ضروب من الاختلاف، فيختلف عدد أبياتها تقديمًا وتأخيرًا، وتختلف نسبتها أحيانًا، فتنسب إلى شاعرين أو ثلاثة أو أكثر من ذلك، من قبيلة واحدة أو من قبائل مختلفة. بل ربما دخلت في بعض رواياتها أبيات لشاعر آخر على وزنها وقافيتها من قبيلته أو غير قبيلته، على قدر ما يتميز به كل راو من الدقة والضبط أو الغفلة والنسيان[(١)].

قال ابن عبد ربه: وكان خَلفٌ الأحمرُ أَروَى الناسِ للشِّعرِ وَأَعْلَمَهُمْ بِجَيِّدِهِ. . . . وكان خلف مع روايته وحِفظه يقول الشعر فيُحسن، وينَحله الشعراء. . . وكذلك كان يفعل حمّادٌ الرواية، يَخلط الشعر القديم بأبيات له، قال حماد: ما مِن شاعر إلا قد زِدْتُ في شعره أبياتًا فجازت عليه إلا الأعشى، أعشى بكر، فإني لم أزد في شعره قطُّ غيرَ بيت فأفسدتُ عليه الشعر، قيل له: وما البيتُ الذي أدخلته في شعر الأعشى؟ فقال:

وأنكرتْني وما كان الذي نَكِرتْ   من الحوادث إلا الشَّيبَ والصلعَا[(٢)]

وقال السيوطي: قال ابنُ فارس:. . . عن الخليل قال: إن النَّحَارير ربَّما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادة اللَّبس والتَّعنيت[(٣)].

وقال أبو الطيب في مراتب النحويين: أخبرنا محمد بن يحيى، أخبرنا محمد بن يزيد قال: كان خلف الأحمر يُضْرَب به المثلُ في عَمل الشعر، وكان يعمل على ألْسنة الناس فيشبه كلَّ

---

(١) السابق من صـ٣٩: صـ٤٢ ملخصًا بتصرف.

(٢) العقد الفريد ٢/ ٣١٩، وانظر تفاصيل نسبة شعر ابن أخت تأبّط شَرًّا مع ذكر الراجح فيها والفوائد الغزيرة في كتاب نمط صعب ونمط مخيف من صـ٤٤: صـ٦١.

(٣) في كتاب " المزهر في علوم اللغة " ١/ ١٣٥

شعر يقوله بشعر الذي يضَعُه عليه، ثم نَسَك فكان يختم القرآن في كلّ يوم وليلة، فلما نَسك خرج إلى أهل الكوفة فعرَّفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس فقالوا له: أنتَ كنتَ عندنا في ذلك الوقت أوثقَ منك الساعة فبقي ذلك في دواوينهم إلى اليوم[١].

وقال الصفدي: خلف الأحمر الشاعر صاحب البراعة في الآداب، حمل عنه ديوانه أبو نواس، وتوفي في حدود الثمانين ومائة. وكان راوية ثقة علاّمة، لم يكن فيه ما يعاب به إلا أنه كان يعمل القصيدة يسلك فيها ألفاظ العرب القدماء، وينحلها أعيان الشعراء، كـ أبي داود، والإيادي، وتأبَّط شرًا، والشنفرى وغيرهم، فلا يفرَّق بين ألفاظه وألفاظهم، ويرويها جلَّة العلماء لذلك الشاعر الذي نحله إيّاها، فمّما نحله الشّنفرى القصيدة المعروفة بلامية العرب:

أقيموا بني أمي صدور مطيّكم فإني إلى قومٍ سواكم لأميل[٢].

وقال أبو الحسن الجرجاني: وهو يناقش من يعترض عليه بأن شعر المتقدمين كان فيه من متانة الكلام، وجزالة المنطق وفخامة الشعر، ما يصعب معه أن ينسج على منواله، ولو حاول أحد أن يقول قصيدة أو يقرضَ بيتًا يُقارب شعر امرئ القيس وزهير، في فخامته، وقوة أسْره، وصلابة معجَمه لوجده أبعد من العيّوق مُتناولًا، وأصعبَ من الكبريت الأحمر مطلبًا!

فرد على المعترض قائلًا: أحلتك على ما قالت العلماء في حمّاد وخلَف وابن دأْب وأضرابِهم، ممن نحلَ القدماءَ شعره فاندمج في أثناء شعرهم، وغلب في أضعافه، وصعُب على أهل العناية إفرادُه، وتعسّر، مع شدة الصعوبة حتى تكلّف فلْي الدواوين، واستقراءُ القصائد فنُفِي منها ما لعلّه أمتن وأفخم، وأجمع لوجوه الجوْدة وأسباب الاختيار مما أثبت وقُبِل[٣].

إن هذه النقولات تثبت أن وقوع النحل في شعر العرب أمر حاصل، وقد مرَّ كلامُ المتقدمين، الذين عرفوا كلام العرب وأشعارهم، وسبقوا المُحْدَثِينَ والمستشرقين.

---

(١) المزهر ١/ ١٤٠. ١٣٩ وبعدها فصَّل السيوطي وذكر الأمثلة على هذا المصنوع المنسوب لكبار الشعراء.

(٢) الوافي بالوفيات للصفدي في ترجمة خلف الأحمر: ٤/ ٣٧٤. ومعجم الأدباء لياقوت الحموي: ٤/ ١٧٩.

(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني صـ٢٤.

ومما جاء في إنكار بعض أبيات الشبهة المفتراة صراحة ما **قال محمود الآلوسي** رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ (عبس: ١٧) قال الإمام: إن الجملة الأولى تدل على استحقاقهم أعظم أنواع العقاب عرفًا، والثانية تنبيه على أنهم اتصفوا بأعظم أنواع القبائح والمنكرات شرعا، ولم يسمع ذلك قبل نزول القرآن، وما نسب إلى امرئ القيس "قتل الإنسان ما أكفره "فلا أصل له، ومن له أدنى معرفة بكلام العرب لا يجهل أن قائل ذلك مولد أراد الاقتباس لا جاهلي[١].

فهذا كلام من ذاق أشعار العرب، وأَلِف أساليبهم، حيث لم يخف عليه ركاكة الألفاظ وضعف السبك.

وإنَّ امرأَ القيس خاصة لما له من قِدَم السبق والإجادة في ميدان الشعر والبيان تمَّ نحله الكثير من الشعر.

قال الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم: استفاضت أخباره على ألسنة الرواة، وزخرت بها كتب الأدب والتراجم والتاريخ، ونسجت حول سيرته القصص، وصيغت الأساطير، واختلط فيها الصحيح بالزائف، وامتزج الحق بالباطل، وتناول المؤرخون والأدباء بالبحث والنقد والتحليل، وخاصة في العصر الحديث. . . وفي جميع أطوار حياته منذ حداثته وطراءة سنه، إلى آخر أيامه، قال الشعر وصاغ القريض. . . وأصبح عند الناس قدر وافر من قصيده، فنحلوه كل شعر جُهِلَ قَائِلُهُ، أو خَمُلَ صَاحِبُهُ، من جيد يعسر تمييزه عن شعره، ورديء سفساف مهلهل النسج، سقيم المعنى.

وللعلماء من القدماء حول هذا الشعر وتحقيق نسبته إليه أقوال معروفة مشهورة[٢].

وإنه إذا نُسِبَت الأبيات موضع الشبهة إلى امرئ القيس أو إلى ديوانه دون سند أو

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٤٤.

(٢) في مقدمة دراسته عن امرئ القيس وشعره.

برهان، فلا شك حينئذ في أنها منحولة ومكذوبة عليه، ومع ذلك فإنه حتى في المنحول الذي يذكره مَنْ جَمَعَ شِعْرَ امْرِئِ القَيْسِ وَمَا نُحِلَ عَلَيهِ لَا يَذْكُرُها.

بل إن بعض أبيات الشبهة جاء منسوبا بالفعل إلى غير امرئ القيس، وغاية ما ذكر في كتب بعض المتقدمين بيتان فقط منسوبان لامرئ القيس وافقت ألفاظهما لفظ القرآن الكريم:

قال الإمام الذهبي: قال ابن النّجّار: كان كاتبًا[1] سديدًا بليغًا وحيدًا، فاضلًا، أديبًا، مقتدرا على الارتجال. . . وله يد باسطة في النّحو واللّغة، إلى أن قال: أنشدني عبد العظيم بن عبد القويّ المنذري، أخبرنا عليّ بن ظافر الأزدي، أنشدني الوزير مؤيّد الدّين القمّي النائب في الوزارة الناصرية لنفسه:

يشتهي الإنسان في الصّيف الشّتا فإذا ما جاءه أنكره

فهو لا يرضى بعيشٍ واحد قتل الإنسان ما أكفره. [2]

فهذا الذهبي يروي البيتين منسوبين للوزير محمد القمي.

وكذلك فعل **التيفاشي** (ت ٦٥١ هـ) أيضًا: فنَسَبَ البيتين إلى يحيى بن صاعد. [3]

فهذان إمامان متقدمان على المناوي قد نسبا البيتين إلى غير امرئ القيس.

ومن أبيات الشبهة التي جاءت منسوبة إلى امرئ القيس:

أنا منْ قومٍ كرامٍ يطعمونَ الطيباتِ بجفانٍ كالجوابي وقدورٍ راسياتِ

فهذان البيتان فقط ذكرهما بعض الأدباء منسوبين إلى امرئ القيس، ومع ذلك فقد أنكروهما وشككوا في صحة نسبتها إليه، فذكر ابن أبي الأصبع عندما تكلم عن الإيداع أو التضمين، وما قيل من وقوع ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ (سبأ: ١٣) قال: على أن بعض الرواة ذكر أنه وضعه بعض الزنادقة، وتكلم على الآية الكريمة، وأن امرأ القيس لم يصح أنه تلفظ به[4].

---

(١) يعني (محمد بن محمد بن عبد الكريم بن برز المعروف بمؤيد الدين القمي) والنص المذكور من ترجمته.

(٢) تاريخ الإسلام ٤٥/ ٤٠٨ و٤٠٩ في ترجمة القمي.

(٣) سرور النفوس بمدارك الحواس الخمس ١/ ٢٣٩.

(٤) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر صـ٤٨٦.

ونقل عبد الرحيم العباس قول ابن أبي الأصبع، وأقره ثم أعقبه بقوله: " قلت: وقد تصفحت ديوانه على اختلاف رُواته، فلم أجد فيه قصيدة على هذا الوزن والرويّ "[١].

فهذه كتب الأدباء والعلماء، وأساطين اللغة والشعر الذي اطلعوا على أشعار العرب ودواوين امرئ القيس حتى نهاية القرن العاشر الهجري، لا ينسبون إلى امرئ القيس أي شيء من هذا القبيل، ولو اطلعوا على غيرها من الأبيات لذكروه، سواء صحت نسبته أم لم تصح.

لذا فإن اعتماد هؤلاء المرجفين على أشعار " فيض القدير " للمناوي مغالطة كبيرة؛ إذ إن المناوي رحمه الله، كان اهتمامه في كتابه شرح أحاديث " الجامع الصغير" فلم يعتن بجمع الشعر، أو تمحيص رواياته، وكتابه (فيض القدير) ليس كتابًا معتمدًا في نقل الشعر أو نسبته، هذا فضلًا عن كونه من المتأخرين، حيث توفي سنة ١٠٢٩هـ، فكيف يصبح كلامه مقدمًا على كلام من سبقه من أساطين اللغة، وعلماء الأدب والبيان، خاصة وأنه لم يذكر لهذه الأبيات سندًا ولا مصدرًا.

بل كيف يسوق أبياتًا مكسورة؟! فالبيت الأول في (دنت الساعة وانشق القمر) غير مستقيم من ناحية الوزن الشعري، فالشطر الأول مكسور، إلا لو أبدلنا (اقتربت) بـ (دنت)، وعلى ذلك بقية الأبيات[٢]، وحينئذ يتبين أن المناوي لم يكن له عناية في كتابه بذكر الشعر أو تحقيقه.

الوجه السادس: ولأن الأبيات من الشعر المولد؛ فإن صاحبها اقتبس كلماتها من القرآن الكريم.

إنه ليس لأحد من الناس أن يدعي قولًا وينسبه لرجل مات بلا برهان ولا بينة، وسبيلُ نسبة قولٍ لشاعرٍ جاهلي، معرق في القدم كامرئ القيس أن يكون هذا القول مأخوذًا من ديوان شعره أو من روايات هذا الديوان المتعددة والمتكاثرة المطبوعة، أو يذكر هذا القول منسوبًا لامرئ القيس في كتب التراث الأدبي من المجاميع الشعرية " كالكامل" و" الفاضل " و" الوحشيات " جميعها للمبرد، أو كالأغاني لأبي الفرج الأصفهاني أو"

---

(١) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص صـ ٢٢٩٧.

(٢) وانظر: الوجه العاشر من وجوه الرد على هذه الشبهة ففيه تفصيل.

الأمالي " لأبي علي القالي أو الحماسة لأبي تمام أو كتب مختارات الأدباء والشعراء أو كتب تراجم الأدباء إلى آخر ما هنالك من قضايا تحقيق نسبة الشعر لأصحابه[1].

وإن أي باحث في الأدب العربي يعلم أن شعر امرئ القيس قد وجد عناية خاصة، وتضافرت جهود القدماء والمحدثين على جمعه وروايته ونشره، وهناك العديد من النسخ المشهورة لديوانه كنسخة الأعلم الشنتمري، ونسخة الطوسي، ونسخة السكري، ونسخة البطليوسي، ونسخة ابن النحاس وغيرها، ولا يوجد أي ذكر لهذه الأبيات في هذه النسخ، على الرُّغْم من أنها تذكر ما نُحِلَ عليه لتنقده، وكذلك كان أمر الدراسات المعاصرة التي عنيت بشعر امرئ القيس وما نسب إليه وخبر دواوينه، لم تذكر شيئًا من هذه الأبيات لا على أنها من قوله، ولا على أنها مما نحل عليه. ومنها دراسة للأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم في أكثر من خمسمائة صفحة حول امرئ القيس وشعره، وقد ذكر فيه ما صحت نسبته إليه وما لم يصح، وما نحل عليه ومَن نحله، ولم يذكر مع ذلك بيتًا واحدًا من هذه الأبيات السابقة.

فهل كان الأعاجم أصحاب هذه الشبهات أعلمَ بامرئ القيس وشعره من هؤلاء جميعًا الذين عنوا بجمعه وتمحصيه ونقده؟! !

الوجه السابع: أن المتقدمين من أهل اللغة والأدب كانوا يذكرون في كتبهم قضية اقتباس الشعراء من كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ.

وعلى عكس كلامهم في اقتباس القرآن، فإن ابن داود الظاهري الأصفهاني (ت: ٢٢٧هـ) عقد في كتابه (الزهرة) فصلًا لما استعانت به الشعراء من كلام الله تعالى، وكان مما ذكر عن قوله سبحانه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ أن الخنساء ضمنته في أبيات لها فقالت:

أبعدَ ابن عمرو من آل الشّريد ... حلَّتْ به الأرضُ أثقالها

فخر الشّوامِـخُ من فَقْدِه ... وزُلزلتِ الأرضُ زلزالها.[1]

---

(١) قواعد رواية الشعر ونسبته لأصحابه مع التطبيق العملي على ذلك تجدها مفصلة في كتاب (نمط صعب ونمط مخيف) للأستاذ محمود محمد شاكر.

وهذا مما يدل على أن أول من نطق بهذه العبارة هو القرآن الكريم؛ لأنه لو كان امرؤ القيس قد قالها قبل القرآن الكريم، لما كان للفصل الذي عقده فائدة، ولكانت الخنساء قد ضمنت أبيات امرئ القيس في شعرها، لا آيات القرآن الكريم، ولكان القرآن الكريم نفسه قد ضمن أبيات امريء القيس. وثَمَّ أمر مهم وهو أن هذه الأبيات المفتراة لو بلغت علماءنا المتقدمين، فلماذا لم يثيروا قضية التشابه بين القرآن الكريم وشعر امرئ القيس؟

الوجه الثامن: لو افترضنا صحة نسبة الأبيات إلي امرئ القيس ـ وهو أمر مستحيل ـ وافترضنا أن هناك تشابه في الكلمات بين ألفاظ القرآن وهذه الأشعار، فإن ذلك يشهد للقرآن بالفصاحة والبلاغة والبيان.

إذ إن كلاهما باللسان العربي والكلمات المشتركة جاءت في القرآن على أفصح ما يكون الكلام وأبلغه، بينما هي في الأبيات المكذوبة جاءت في غاية السخافة والسفول، ثم إنه لا غضاضة في أن يحصل تشابهٌ في بعض الكلمات، وجاء القرآن بما تعهده العرب في كلامها من أمثلة واستعارات وغير ذلك من ضروب البلاغة.

ثم إن القرآن الكريم نزل ليتحدى كفار قريش، قائلًا لهم: إنكم تنطقون بهذه الأحرف، وتقولون تلك الكلمات، لكنكم مع ذلك عاجزون عن أن تأتوا بمثل القرآن من جهة القوة والإحكام والإتقان، هذا ومعلوم أن التشابه في بعض الكلمات والتراكيب لا يعني الاقتباس والنقل.

وسوف يترتب على فرض صحة نسبة الأبيات للجاهلية؛ تساؤل هو: لماذا لم يواجه فصحاء قريش النبي ﷺ بهذا التشابه وهم أحفظ للشعر من مستشرقي عصرنا؟ ولماذا عندما تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن أو بمثل آية منه لم يقتبسوا من هذه الأشعار كما اقتبس هو؟ [٢]

يقول أبو بكر الباقلاني: الفصحاء منهم حين أورد عليهم القرآن، لو كانوا يعتقدونه شعرًا ولم يروه خارجا عن أساليب كلامهم - لبادروا إلى معارضته؛ لأن الشعر مُسخَّر لهم مُسهَّل عليهم، ولهم فيه ما علمت من التصرف العجيب والاقتدار اللطيف؛ فلما لم نرهم

---

(١) الزهرة ١/ ٢٣٤.

(٢) وانظر الوجه الأول من وجوه الرد على الشبهة.

اشتغلوا بذلك ولا عولوا عليه - علم أنهم لم يعتقدوا فيه شيئا مما يقدره الضعفاء في الصنعة، والمرمدون في هذا الشأن، وإن استدراك من يجيء الآن على فصحاء قريش وشعراء العرب قاطبة في ذلك الزمان وبلغائهم وخطبائهم وزعمه أنه قد ظفر بشعر في القرآن، وقد ذهب أولئك النفر عنه، وخفي عليهم مع شدة حاجتهم عندهم إلى الطعن في القرآن، والغض منه، والتوصل إلى تكذيبه بكل ما قدروا عليه، فلن

يجوز أن يخفي على أولئك وأن يجهلوه ويعرفه من جاء الآن وهو بالجهل حقيق[1].

فالقرآن لم يخرج عن معهود لغة العرب؛ فمن حروفهم ركبت كلماته، ومن كلماتهم ألفت جمله وآياته، وهذا من إعجاز القرآن وإفحامه للعالمين أجمعين؛ إذ حروف اللغة وكلماتها موجودة ملك الجميع لكن من ذا الذي يؤلف بينها؟.

يقول عبد الله دراز: صنعةُ البيان مثلُ صنعةِ البنيان، فالمهندسون البَنَّاءون لا يخلقون مادة بناء لم تكن في الأرض، ولا يعدو ما يصنعونه أن يكون جدرانًا مرفوعًا، وسقفًا موضوعًة، ولكنهم تتفاضل صناعاتهم وراء ذلك في اختيار أمتن المواد وأَكَنِّها للناس من الحَرِّ والقَرِّ وفي الانتفاع بالمساحة اليسيرة في المرافق الكثيرة، فمنهم من يفي بذلك، ومنهم من يخل بشيء منه، كذلك ترى أهل اللغة الواحدة يؤدون الغرض الواحد على طرائق شتي يتفاوت حظها في الحسن والقبول، وما من كلمة من كلامهم ولا وضع من أوضاعهم بخارج عن مواد اللغة وقواعدها في الجملة، وليست كل هذه الطرائق تجمل في كل موطن أو تقبح في كل موطن إذًا لأصبحت البلاغة في لسان الناس طعمًا واحدًا. . . والناس ليسوا سواء في استعراض هذه الطرائق فضلًا عن حسن الاختيار فيها إلى أن يتكون الأسلوب الخاص بكل إنسان وعلى حسب ذلك يقع التفاوت في درجات الكلام.

فالجديد في لغة القرآن، أنه في كل شأن يتناوله من شئون القول يتخير أشرف المواد، وأمسها بالمعني المراد، وأجمعها للشوارد، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها

(١) إعجاز القرآن للباقلاني صـ٥٣.

وهي أحق به: بحيث لا يجد المعني في لفظه إلا مرآته الناصعة وصورته الكاملة ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين، وقراره المكين[1]، لا يومًا أو بعض يوم؛ بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور، فلا المكان يريد بساكنه بدلًا، ولا الساكن يبغي عن منزله حولًا. . . . وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان. . . . فإن أحببت أن تعرف للقرآن الكريم سبقه وأنت بعد لم ترزق قوة الفصل بين درجات الكلام، فسبيلك أن تأخذ الحكم مسلمًا عن أهله، وتقنع فيه بشهادة العارفين به، فها هو الوليد بن المغيرة لما سمع القرآن رقَّ له، فقال رَادًّا على أبي جهل: وماذا أقول؟! والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلاه، مشرق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته[2].

هذا وإن بيان وبلاغة آيات القرآن الكريم تأبى وتتنافى ودعوى الأخذ من هذه الأشعار المتكلفة الضعيفة.

كما أنا لو سلمنا جدلًا بأن القرآن اقتبس في عشر آيات منه، من عشرة أبيات، فمن أين أتى القرآن بأكثر من ستة آلاف آية أخرى؟!

الوجه التاسع: منافاة أسلوب القرآن لأسلوب الشعر عامة.

ولو تنزلنا مرة أخرى مع القوم حسب عقولهم، وافترضنا صحة نسبة الأبيات إلي امرئ القيس؛ فإننا جميعًا سوف نصطدم بالاختلاف البائن بين أسلوب القرآن الكريم كلام رب العالمين وبين هذه الأشعار كلام المخلوقين.

وقد بوَّب الإمام البيهقي قبل رواية حديث الوليد الآنف الذكر فقال: باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز، وأنه لا يشبه شيئًا من لغاتهم مع كونهم من أهل اللغة وأرباب اللسان[3].

---

(١) سبق قول ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٤٩: وكتاب الله لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد، ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع؛ لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام.

(٢) النبأ العظيم صـ١١٣ : ١١٦ (ملخصًا) وقد مرَّ قول الوليد محققًا في الوجه الأول.

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٩٨.

ويقول القاضي عياض: من إعجاز القرآن صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب، المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه، ووقفت مقاطع آيه، وانتهت فواصل كلماته إليه، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه؛ بل حارت فيه عقولهم، وتدلَّهت دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر. . . ، وإنه مما جُمع في قوة جزالته، ونصاعة ألفاظه، وحسن نظمه وإيجازه وأسلوبه لا يصح أن يكون في مقدور البشر، وأنه من باب الخوارق الممتنعة عن أقدار الخلق عليها كإحياء الموتى، وقلب العصا، وتسبيح الحصا(١).

ويقول ابن حزم: إن القرآن ليس من نوع بلاغة الناس(٢).

ويقول: وأنه ليس من نوع كلام المخلوقين، لا من أعلاه ولا من أدناه ولا من أوسطه، وأنَّ آية ذلك الأقسام التي في أوائل السور، والحروف المقطعة التي لا يعرف أحد معناها، قال: وبرهان هذا أن إنسانا لو أدخل في رسالة له أو خطبة أو تأليف أو موعظة حروف الهجاء المقطعة لكان خارجًا عن البلاغة المعهودة بلا شك، فصح أنه ليس من نوع بلاغة الناس أصلًا(٣).

هذا وإن البون شاسع بين القرآن والشعر والفروق بينهما كثيرة، ودليل ذلك في الأمور التالية:

الأول: لم ينزل القرآن الكريم على النمط المألوف من كلام العرب، فلم يأت على أسلوب الخطابة ولا الوصية ولا المثل ولا المنافرة ولا المفاخرة ولا المحاورة ولا نظم القصيد، فأسلوب وطريقة الشعر معروفة في الشكل العمودي للقصيدة العربية مع اتحاد القافية وتساوي الأشطر واتحاد بحر القصيدة، وليس شئ من هذا في القرآن فهو لم يكن شعرًا ولا نثرًا مرسلًا ولا سجعًا ولا مزاوجةً بل جاء على مذهب خارج عن المعهود من نظام كلام العرب ومبائن للمألوف من مناهج كلامهم، ينصرف على وجوه مختلفة، من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأمثال، وترغيب وترهيب وأمر ونهي ووعد

---

(١) الشفا ١/ ٢٦٤، ٢٦٧.

(٢) الفصل في الملل والنحل ١/ ٨٧.

(٣) السابق نفسه ٣/ ١٢.

ووعيد وتبشير وتخويف وهو أثناء ذلك يتردد بين الإيجاز والإطناب، فما أجملَ القرآنَ فيما اشتمل عليه من دقة التصوير، وجمال الوصف، مع سمو التعبير، وعظمة التأثير، وروعة الإيجاز وبلاغة التكرار، وليس الشعر يبلغ في هذا فتيلًا[١].

قال أبو بكر بن العربي: القرآن خرج عن أنواع كلام العرب، وخصوصا عن وزن الشعر؛ ولذلك قال أخو أبي ذر لأبي ذر: "لقد وضعتُ قوله على أقوال الشعراء فلم يكن عليها"[٢]، ولا دخل في بحور العروض الخمسة عشر، ولا في زيادات المتأخرين عليها؛ لأن تلك البحور تخرج من خمس دوائر: إحداها دائرة المختلف ينفك منها ثلاثة أبحر: وهي الطويل، والمديد، والبسيط؛ ثم تتشعب عليها زيادات كلها منفكة. الدائرة الثانية دائرة المؤتلف ينفك منها بحر الوافر، والكامل، ثم يزيد عليها زيادات لا تخرج عنها. . . وهكذا الدوائر الخمس ولقد اجتهد المجتهدون في أن يُجروا القرآن أو شيئا منه على وزن من هذه الأوزان فلم يقدروا، فظهر عند الولي والعدو أنه ليس بشعر[٣].

يقول الطاهر بن عاشور: كيف يكون القرآن شعرًا والشعر كلام موزون مقفّى له معان مناسبة لأغراضه التي أكثرها هزل وفكاهة؟ فأين الوزن في القرآن، وأين التقفية، وأين المعاني التي ينتجها الشعراء، وأين نظم كلامهم من نظمه، وأساليبهم من أساليبه؟

---

(١) " القرآن معجزة العصور " لمحمد عبد المنعم خفاجي وآخرين من صـ ١١٢: ١١٦ بتصرف. ويقول د. **مصطفى مسلم** في (مباحث في إعجاز القرآن) صـ١٤٢: الآية في النظم القرآني ليست بيت شعر، وجملة نثر، ومقطع سجع، بل هي قطعة من القرآن لها بداية ونهاية متضمنة في سورة، ولكل آية مقطع تنتهي به هو الفاصلة، وليست هذه الفاصلة قافية شعر، ولا حرف سجع، وإنما هي شاهد قرآني لا يوجد إلا فيه، ولا يعتدل في كلام غيره.

إن النظم القرآني البديع بهر العرب بحسن مبادئ الآي والمقاطع، وتماسك الكلمات واتساقها في التراكيب؛ بل وجدوا اتساقا بهر العقول وأعجز أهل الحكم والبلاغات، ونظاما والتئاما وإتقانا وإحكاما لم يدع في نفس واحد منهم موضع طمع، حتى خرست الألسن أن تدَّعي وتتقول.

(٢) صحيح مسلم (٦٥١٦)

(٣) أحكام القرآن ٤/ ١٦٠٩، ١٦١٠

وما بني عليه أسلوب القرآن من تساوي الفواصل لا يجعلها موازية للقوافي كما يعلمه أهلُ الصناعة منهم وكُلُّ مَنْ زَاولَ مَبَادِئَ القَافية مِنَ المولدين، ولا أحسبهم دَعوهُ شعرًا إلا تعجلًا في الإِبطال، أو تمويهًا على الإِغفال، فأشاعوا في العرب أن محمدًا ﷺ شاعر، وأن كلامه شعر[١].

الثاني: إن الأشعار الشهيرة ومنها المعلقات ـ فخر العرب ـ تخلو من كل قيمة فكرية أو إنسانية أو روحية أو أمر أو نهي أو إرشادٍ إلى خير بخلاف القرآن العظيم، فالأوامر فيه تصل إلى الألف آية وكذلك النواهي، ويحض على فعل كل خير وينهى عن كل شرٍّ، ويرشد ويهدي إلى كل صلاح ونفع في الدنيا والآخرة.

وقد ذكر أبو بكر الباقلاني فصلًا جيدًا عن الشعر الحسن الذي يحلو لفظه وتقل فوائده[٢].

وقال الشافعي مرة بمكة: سلوني عما شئتم أخبركم عنه في كتاب الله. فقيل له: ما تقول في المحرم يقتل الزنبور؟ فقال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر: ٧).

فالقرآن الكريم حوى علمَ الأولينَ والآخرين فهو أصل العلوم كلها، فعلم الكلام من القرآن، وعلم الفقه وأصول الفقه وعلم النحو واللغة، وعلوم مثل التاريخ والطب والجدل وأصول الصنائع وغيرها الكثير. واشتمل على علم الزهد في الدنيا وأخبار الآخرة ومنها أهوال يوم القيامة وأحوال الناس فيه، كما يفصل أخبار مآلهم ففريق في الجنة وفريق في السعير، ثم ينتقل إلى وصف الجنة ونعيم أهلها وإلى وصف النار وجحيم أهلها إلى ما هنالك مما لا يعلم إلا عن طريق الوحي وهذا كثير جدا في القرآن.

يقول القاضي عياض: ومن إعجازه جمعه لعلوم ومعارف لم تعهد العرب عامة ولا محمد ﷺ قبل نبوته خاصة بمعرفتها ولا القيام بها، ولا يحيط بها أحد من علماء الأمم، ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم، فجمع فيه من بيان علم الشرائع، والتنبيه على طرق الحجج العقليات،

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/ ٥٧، ٥٨ مختصرًا.

(٢) في كتابه إعجاز القرآن صـ ١٦٠.

والرد على فِرَق الأمم ببراهين قوية، وأدلة بينة سهلة الألفاظ، موجزة المقاصد، رام المتحذلقون بعدُ أن ينصبوا أدلة مثلها فلم يقدروا عليها كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (يس: ٨١) وقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (يس: ٧٩) وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢) إلى ما حواه من علوم السير، وأنباء الأمم والمواعظ والحكم، وأخبار الدار الآخرة، ومحاسن الآداب والشيم، قال الله جل اسمه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ (الأنعام: ٢٢). وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩)، وقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ (الزمر: ٢٧)[1].

بل إن من خصائص القرآن الإخبار عن مستقبل الناس في الدنيا، وما سيحدث لهم من انتصار وتمكين لبعضهم، أو خزي وذلٍّ لبعض آخر، إلى آخر ما هو ليس في طوق البشر. ومَن تعاطى ذلك من المتنبئين والشعراء افْتُضِحَ فِي حِيْنِه، وما جاء في القرآن كان هو الحق المبين، فَمَنْ أصدقُ مِنَ الله حَدِيثًا. ومن إخبار القرآن عن ذلك وهو كثير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ (الروم١: ٥).[2]

---

(١) الشفا ١/ ٢٧٧.

(٢) يقول الزرقاني في مناهل العرفان ٢/ ٣٠٧، ٣٠٨: معنى هذا أن القرآن قد اشتمل على أخبار كثيرة من الغيوب التي لا علم لمحمد ﷺ بها. . . ، من ذلك قصص عن الماضي البعيد المتغلغل في أحشاء القدم، وقصص عن الحاضر الذي لا سبيل لمحمد إلى رؤيته ومعرفته فضلا عن التحدث به، وقصص عن المستقبل الغامض الذي انقطعت دونه الأسباب وقصرت عن إدراكه الفراسة والألمعية والذكاء. وسر الإعجاز في ذلك كله أنه وقع كما حدث وما تخلف وجاء على النحو الذي أخبر به في إجمال ما أجمل وتفصيل ما فصل، وأنه إن اخبر عن غيب الماضي صدقه ما شهد به التاريخ، وإن أخبر عن غيب الحاضر صدقه ما جاء به الأنبياء وما يجد في العالم من تجارب وعلوم، وإن أخبر عن غيب المستقبل صدقه ما تلده الليالي وما تجيء به الأيام.

وهذا القرآن قد جاء بما حدث من عظيمات الأمور، ومهمات السير من بدء الخليقة إلى حين بعثة النبي ﷺ مع كونه ﷺ أميا لا يعرف شيئا من كتب السابقين وأنبائهم.

فالقرآن ليس كتاب قصص، وليس كتاب متعة وتسلية على نحو دواوين الشعراء فهو ليس شعرا أو أدبا أو حكمة أو تاريخا أو اجتماعا، إنما هو خلاصة لكل ما في الحياة من حقائق ومعارف وعلوم وثقافات، ومنهج كامل لكل جانب من جوانب الحياة الروحية والعقلية والاجتماعية والسياسية، فهو كتاب الإنسانية كلها، وصحيفة البشرية قاطبة[1].

يقول السيوطي: قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء؛ أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها[2].

وظهر أثر هذا الأمر في القرآن في المجتمعات التي سلَّمت له وآمنت به، كيف أثَّر فيها وغير من الأخلاق الرديئة، وأرسى الأخلاق الحميدة مع الدعوة إلى الحق والعدل والعلم، ورسم المثل الإنسانية العليا وأهداف الأفراد والشعوب وتحديد الفلاح في الدنيا والآخرة.

الثالث: هذه القصائد الجاهلية العالية الحبْك والصياغة، لا تخلو من أخطاء تندُّ عن

فمن غيوب الماضي أن يخبر عن تلك القصص الرائعة للأنبياء إخبار مَن حضرها قال تعالى: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ). (هود ٤٩) كذكر بدء الخلق وقصص أصحاب الكهف وذي القرنين، ومن غيوب الحاضر ما يتصل بالله تعالى والملائكة والجن وفضح المنافقين في عصر النبي ﷺ. ومن غيوب المستقبل إخبار القرآن عن الروم بأنهم سينتصرون في بضع سنين، وبأن النبي ﷺ لن يُقتل؛ لأن الله عاصمه كما قال تعالى: (والله يعصمك من الناس) وتحققت نبوءة القرآن فلم يتمكن أحد من أعدائه أن يقضي عليه مع كثرة عددهم ووفرة استعدادهم، وإخبار القرآن عن القرآن بأنه لن يُحرَّف قال تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ولم يحدث مع تطاول السنين ولن يحدث، وما جاء في مقام التحدي بأن الإنس والجن لن يأتوا بمثل القرآن قال ﷻ: (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) ولم يحدث أن جاء أحد بمثل سورة منه. بتصرف.

وهذا بخلاف المعجزات التي يكشف عنها العلم الحديث من وقت لآخر، وتفصيلها في باب الإعجاز من هذه الموسوعة.

(١) " القرآن معجزة العصور " لمحمد عبد المنعم خفاجي وآخرين صـ١١٤.

(٢) انظر الإتقان للسيوطي ٤/ ٢٥: ٣٣ ففيه تفصيل.

الشاعر، ومن ذلك ما ذكره أبو بكر الباقلاني إذ درس في كتابه[(١)] معلقة امرئ القيس المشهورة فأبان ما اشتملت عليه من أخطاء لغوية وفنية وغيرها.

قال ابن عطية: فالله تعالى قد أحاط بكل شيء علمًا، وأحاط بالكلام كله علما، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن قط محيطا، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة. . . ، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا، ثم تعطي لآخر نظيره فيأخذها بقريحة جامة فيبدل فيها وينقح ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل، كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد. ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام[(٢)].

الرابع: فصاحة العرب أكثرها في وصف مشاهدات، مثل وصف بعير أو فرس أو جارية أو ملك أو ضربة أو طعنة أو وصف حرب أو وصف غارة، وليس في القرآن من هذه الأشياء شيء فكان يجب أن لا تحصل فيه الألفاظ الفصيحة التي اتفقت العرب عليها في كلامهم[(٣)].

الخامس: أنه تعالى راعى فيه طريقة الصدق، وتنزه عن الكذب في جميعه، وكل شاعر ترك الكذب والتزم الصدق نزل شعره ولم يكن جيدًا، ألا ترى أن لبيد بن ربيعة وحسان بن ثابت لما أسلما نزل شعرهما ولم يكن شعرهما الإسلامي في الجودة كشعرهما الجاهلي، فالشعر يعتمد على المبالغة والتهويل حتى قالوا أعذب الشعر أكذبه، وليس شيء من هذا في القرآن الكريم، وكيف يكون ذلك وهو كلام الله وحده لا كلام مخلوق سواه؟!

---

(١) إعجاز القرآن من صـ٢٤١: ٣٢٢

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي ١/ ٤٩.

(٣) من النقطة الرابعة إلى الثامنة في هذا الوجه من التفسير الكبير للفخر الرازي ٢/ ١١٦، ١١٥ بتصرف وزيادات.

يقول القلقشندي: لم ينزل الله القرآن على صفة نظم الشعر؛ بل نزهه عنه بقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ (الحاقة: ٤١) وحرم نظمه على نبيه محمد؛ تشريفا لمحله وتنزيها لمقامه منبها على ذلك بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ (يس: ٦٩)؛ وذلك أن مقاصد الشعر لا تخلو من الكذب، والتحويل على الأمور المستحيلة، والصفات المجاوزة للحد، والنعوت الخارجة عن العادة، وقذف المحصنات، وشهادة الزور، وقول البهتان، وسب الأعراض، وغير ذلك مما يجب التنزه عنه لآحاد الناس، فكيف بالنبي ﷺ ولا سيما الشعر الجاهلي الذي هو أقوى الشعر وأفحله؟ (١).

وقال الراغب: قال بعض الكفار عن النبي ﷺ: إنه شاعر! فقيل: لما وقع في القرآن من الكلمات الموزونة والقوافي، وقيل: أرادوا أنه كاذب؛ لأنه أكثر ما يأتي به الشاعر كذب، ومِنْ ثَمَّ سموا الأدلة الكاذبة شعرا، وقيل في الشعر: أحسنه أكذبه ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾(٢).

السادس: إن الكلام الفصيح البليغ إنما يتفق في القصيدة: في البيت والبيتين والباقي لا يكون، وليس كذلك القرآن؛ لأنه كله فصيح بحيث يعجز الخلق عنه كما عجزوا عن جملته.

يذكر الباقلاني فصاحة القرآن فيقول: ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال، ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف، ويشملها ما نبديه من التعمل والتكلف والتجوز والتعسف، وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسبا في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال عز من قائل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا ١/ ٩١.

(٢) فتح الباري ١٠/ ٥٣٨.

إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٣)، وقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢)، فأخبر سبحانه أن كلام الآدمي إن امتد وقع فيه التفاوت وبان عليه الاختلال.

ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور، فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو، ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين، ومنهم من يجود في التأبين دون التقريظ ومنهم من يغرب في وصف الإبل أو الخيل أو سير الليل أو وصف الحرب أو وصف الروض أو وصف الخمر أو الغزل أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتناوله الكلام ولذلك ضُرِبَ المَثَلُ بامرِئِ القَيسِ إِذَا رَكِبَ والنابغةِ إذا رَهِبَ وبِزُهَيرٍ إذا رَغِبَ ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام.

ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها فيأتي بالغاية في البراعة في معنى فإذا جاء إلى غيره قَصُرَ عنه ووَقَفَ دُونَه. . . ، ثم نجد من الشعراء من يجود في الرجز ولا يمكنه نظم القصد أصلًا ومنهم من ينظم القصيد ولكن يقصر تقصيرًا عجيبًا. . . ، ومن الناس من يجود في الكلام المرسل فإذا أتى بالموزون قَصَّرَ وَنَقَصَ نُقْصَانا بَيِّنا ومنهم من يوجد بضد ذلك.

وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا، وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة؛ فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف، وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتًا بينًا ويختلف اختلافًا كبيرًا، ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة؛ فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت؛ بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة؛ فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر[1].

---

(١) إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني من صـ٣٥: ٣٧.

يقول عبد القاهر الجرجاني: يقول ابنُ مسعودٍ في صفةِ القرآن: " لا يَتْفَهُ ولا يَتَشانُّ "[١] وقال: " إِذا وقعتُ في آلِ حم وقعتُ في رَوضات دَمِثاتٍ أتأَنَّقُ فيهم " أي أَتتبَّع محاسنَهن. قال ذلك من أجلِ أوزان الكلمات ومن أجل الفواصلِ في أواخرِ الآيات[٢].

السابع: أن كل من قال شعرًا فصيحًا في وصف شيء فإنه إذا كرره لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأول، وفي القرآن التكرار الكثير ومع ذلك كل واحد منها في نهاية الفصاحة بل ولم يظهر التفاوت أصلًا.

الثامن: أنه اقتصر على إيجاب العبادات وتحريم القبائح والحث على مكارم الأخلاق وترك الدنيا واختيار الآخرة وأمثال هذه الكلمات توجب تقليل الفصاحة؛ لذا يبتعد الشعر عنها وتقل في الشعر الجاهلي خاصةً.

التاسع: ما يقوله القاضي عياض: ومنها الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته، وهي على المكذبين به أعظم حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفورًا، ويودون انقطاعه لكراهتهم له، وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته تُولِيه انجذابًا لميل قلبه إليه وتصديقه به، قال الله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ

ويقول الفخر الرازي في التفسير الكبير ٢/ ١١٦: إنهم قالوا: إن شعر امرئ القيس يحسن عند الطرب وذكر النساء وصفة الخيل، وشعر النابغة عند الخوف، وشعر الأعشى عند الطلب ووصف الخمر، وشعر زهير عند الرغبة والرجاء، وبالجملة فكل شاعر يحسن كلامه في فن فإنه يضعف كلامه في غير ذلك الفن، أما القرآن فإنه جاء فصيحًا في كل الفنون على غاية الفصاحة ألا ترى أنه سبحانه وتعالى قال في الترغيب: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. (سورة السجدة: ١٧) وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾. (سورة الزخرف: ٧١) وقال في الترهيب: ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾ الآيات (الإسراء: ٦٨).

(١) هذا الأثر في مسند الإمام أحمد ١/ ٤٠٥ من حديث طويل: (إن هذا القرآن لا يختلف، ولا يستشن ولا يتفه لكثرة الرد) وذكر هذا الأثر بهذا اللفظ أبو عبيد القاسم بن سلام في (غريب الحديث) ٣/ ١٥٣، ٤/ ٥٥. و(يتشان): لا يخلق، وهو مأخوذ من (الشن) وهو الجلد الخلق البالي. و(يستشن): يصير شنا باليا. و(يتفه) من الشئ (التافه)، أي لا يبتذل حتى يلحق بالخسيس.

(٢) دلائل الإعجاز صـ ٣٨٨.

يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٣) وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر: ٢١) ويدل على أن هذا شيء خُصَّ القرآن به أنه يَعْتَرِي مَنْ لا يفهم معانيه ولا يعلم تفاسيره، كما روى عن نصراني أنه مر بقارئ، فوقف يبكى. فقيل له: مم بكيت؟ قال: للشجا والنظم.

وهذه الروعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام وبعده فمنهم من أسلم لها لأول وَهْلَةٍ، ومنهم من كفر، فَحُكِيَ في الصحيح عن جبير بن مطعم قال سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿الْمُصَيْطِرُونَ﴾ كاد قلبى أن يطير للإسلام[1].

وعن عتبة بن ربيعة أنه كلم النبي ﷺ فيما جاء به من خلاف قومه فتلا عليهم: ﴿حم﴾ فصلت إلى قوله: ﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ فأمسك عتبة بيده على فِي النبي ﷺ وناشده الرحم أن يكف، وفى رواية: فجعل النبي ﷺ يقرأ وعتبة مصغ ملق يديه خلف ظهره معتمد عليهما حتى انتهى إلى السجدة فسجد النبي ﷺ وقام عتبة لا يدرى بم يراجعه، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قومه حتى أتوه فاعتذر لهم، وقال: والله لقد كلمني بكلام، والله ما سمعت أذناى بمثله قط فما دريت ما أقول له[2].

وقال مالك بن نبي: وهناك شهادات سجلتها لنا السيرة في ذلك العصر، تقدم لنا معلومات واسعة عن التأثير الغلاب الذي كان لآيات القرآن على النفس البدوية.

فعمر رضي الله عنه يتحول إلى الإسلام بفعل هذا التأثير، على حين قد عبر الوليد بن المغيرة الذي كان مثالا في الفصاحة والفخر الأدبي عن رأيه في (سحر القرآن) بقول: والله، . . . ، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه.

---

(١) صحيح البخاري (٤٤٧٦).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ٢٧٣.

هذه اللغة التي لم تعبر حتى تلك اللحظة - قبيل الرسالة - إلا عن ذكاء بدو الصحراء، تحتاج بقدر ما أن تثري لكي تشبع رغبات عقل واجهته -منذ ذلك الحين- المشاكل الغيبية والشرعية والاجتماعية بل العلمية أيضا. (١)

العاشر: ما يقوله القاضي عياض: ومنها مشاكلة بعض أجزائه بعضا، وحسن ائتلاف أنواعها والتئام أقسامها، وحسن التخلص من قصة إلى أخرى، والخروج من باب إلى غيره على اختلاف معانيه، وانقسام السورة الواحدة إلى أمر ونهي، وخبر واستخبار، ووعد ووعيد، وإثبات نبوة وتوحيد وتفريد، وترغيب وترهيب إلى غير ذلك من فوائده دون خلل يتخلل فصوله. والكلام الفصيح إذا اعتوره مثل هذا ضعفت قوته، ولانت جزالته، وقل رونقه، وتقلقلت ألفاظه؛ فتأمل أول (ص) وما جمع فيها من أخبار الكفار وشقاقهم وتقريعهم بإهلاك القرون من قبلهم، وما ذكر من تكذيبهم بمحمد ﷺ وتعجبهم مما أتى به والخبر عن اجتماع ملئهم على الكفر، وما ظهر من الحسد في كلامهم وتعجيزهم وتوهينهم ووعيدهم بخزي الدنيا والآخرة، وتكذيب الأمم قبلهم، وإهلاك الله لهم، ووعيد هؤلاء مثل مصابهم، وتصبير النبي ﷺ على أذاهم وتسليته بكل ما تقدم ذكره، ثم أخذ في ذكر داود وقصص الأنبياء، كل هذا في أوجز كلام وأحسن نظام(٢).

الحادي عشر: ما يقوله **أبو بكر الباقلاني**: كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتا بينا في الفصل والوصل، والعلو والنزول، والتقريب والتبعيد، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع، ألا ترى أن كثيرا من الشعراء قد وُصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيره، والخروج من باب إلى سواه؛ حتى إن أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحتري مع جودة نظمه وحسن وصفه في الخروج من النسيب إلى المديح، وأطبقوا على أنه لا يحسنه، ولا يأتي فيه بشيء، وإنما اتفق له في مواضع معدودة خُروجٌ يُرْتَضَى، وتَنَقُّلٌ يُسْتَحْسَنُ، أما القرآن فإنه على اختلاف فنونه، وما يتصرف

---

(١) الظاهرة القرآنية صـ١٩١.

(٢) الشفا ١/ ٢٨٠.

فيه من الوجوه الكثيرة، والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد، وهذا أمر عجيب تبين به الفصاحة، وتظهر به البلاغة، ويخرج معه الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف[١].

الثاني عشر: إنه لا يزال الناس قديما وحديثا إذا سُرُّوا مِن كلامٍ أو أسلوبٍ وأعجبهم جماله حَاكُوه وقَلَّدُوه.

يقول الباقلاني: الناس إذا استحسنوا شيئًا اتبعوه، وتنافسوا في محاكاته بباعث الجبلة. وكذلك رأينا أصحاب هذا الصناعة يتبع بعضهم بعضا فيما يستجيدونه من الأساليب، وربما أدركَ اللَّاحِقُ السَّابِقَ وأَرْبَى عليه، كما صنع ابن العميد بأسلوب الجاحظ، وكما يصنع الكتاب والخطباء اليوم في اقتداء بعضهم ببعض. وما أساليب الناس على اختلاف طرائقها في النثر والشعر إلا مناهل مورودة، ومسالك معبدة، تؤخذ بالتعلم، وتراض الألسنة والأقلام عليها بالمرانة، كسائر الصناعات.

فما الذي منع الناس أن يخضعوا أسلوب القرآن لألسنتهم وأقلامهم، وهم شرع في استحسان طريقته، وأكثرهم الطالبون لإبطال حجته؟

وما ذاك إلا لأن فيه من غريب تأليفه في بنيته، وما اتخذه في رصف حروفه وكلماته وجُمله وآياته، من نظام له سمتٌ وحده، وطابع خاص به، خرج فيه عن هيئة كل نظام تعاطاه الناس أو يتعاطونه. فلا جرم لم يجدوا له مثالًا يحاذونه به، ولا سبيلًا يسلكونه إلي تذليل منهجه. يقول ابن عطية: لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد.

وآية ذلك أن أحدًا لو حاول أن يدخل عليه شيئًا من كلام الناس من السابقين منهم أو اللاحقين، من الحكماء أو البلغاء أو النبيين والمرسلين؛ لأفسد بذلك مزاجه في فم كل قارئ، ويجعل نظامه يضطرب في أذن كل سامع، وإذًا لنادى الداخل على نفسه بأنه واغل

---

(١) إعجاز القرآن صـ٣٨.

دخيل، ولنفاه القرآن عن نفسه كما ينفي الكير خبث الحديد[1] ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ ﴾ (فصلت: ٤٢).

الثالث عشر: أن الشعر قاله ويقوله الناس ـ منذ أن نطق الإنسان ـ المجيدون منهم الآلاف بل يزيدون، فضلا عن غيرهم، بل إن الشعراء المجيدين يفاضل الناس بينهم فيقولون: فلان أَشْعَرَ من فلان أو فلان أشعر الناس في الهجاء، وفلان أشعر الشعراء في الوصف، وآخر في الرثاء إلى غير ذلك.

وليس شيء من هذا في القرآن في دبير أو نفير، فإذا كان امرؤ القيس أشعر الشعراء؛ فإن ذلك لم يكن مسلما به حتى في زمانه.

يقول عبد القاهر الجرجاني: في حديث علقمة الفحل أنه لما قال له امرؤ القيس، وقد تناشدا: أَيُّنَا أَشعرُ؟ ، قال: أنا، غيرَ مُكْتَرِثٍ ولا مُبالٍ، حتى قال امرؤ القيس: فقُلْ وَانْعَتْ فَرَسَكَ وناقتَك، وأقولُ وأَنْعَتُ فرسي وناقتي.

فقال علقمة: إني فاعل، والحكَمُ بَيْني وبَينك المرأةُ من ورائك، يعني أُمَّ جُنْدُب امرأة امرئ القيس، فقال امرؤ القيس:

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدَبِ … نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفُؤَادِ المُعَذَّبِ

وقال عَلْقمة:

ذَهَبْتَ مِنَ الهِجْرَانِ في كُلِّ مَذْهَبِ … وَلَمْ يَكُ حَقًّا كُلُّ هَذَا التَّجَنُّبِ

وتحاكما إلى المرأة، ففَضَّلَت علقَمة.

ويقول **عبد القاهر**: وقالوا: كان الأوائل لا يفضلون على زهير أحدا في الشعر ويقولون: ((قد ظلمه حقَّه من جعله كالنابغة)). قالوا: ((وعامة أهل الحجاز على ذلك)).

---

(١) الوجه الثاني عشر جاء ملخصًا من كتاب (النبأ العظيم) للدكتور: عبد الله دراز صـ١٣٤ وانظر تفصيل إعجاز أسلوب القرآن وخصائصه في الكتاب نفسه من صـ١٣٥: ١٦، وليس منها شيء في أسلوب الشعر.

ورُوِيَ عن أبي عبيدة أنه قال: أشعرُ الناس ثلاثةٌ: امرؤ القيس بن حجر، وزهير بن أَبي سُلْمَى، والنابغة الذبياني، ثم اختلفوا فيهم.

ورُوي عن يحيى بن سليمان الكاتب أنه قال: بَعَثني المنصور إلى حَمّادٍ الراوية أسأله عن أشعر الناس، فأتيتُه وقلت: إن أمير المؤمنين يسألك عن أشعر الناس.

فقال: ذاك الأعشى صَنَّاجُها.

ويقول: ويزيد الأمر بيانًا أنا رأيناهم حين طبَّقوا الشعراءَ جعلوا امرأَ القيس بنَ حجر، وزهيرًا، والنابغة والأعشى في طبقة، فأعلموا بذلك أنهم أَكفاءٌ ونُظَراء، وأن فضلًا إن كان لواحدٍ منهم، فليس بالذي يُوئِسُ الباقين من مُدَاناتِه، ومن أن يستطيعوا التعلق به والجري في مَيْدَانه ويمنعهم أن يدَّعوا لأنفسهم أو يُدَّعَى لهم أنهم ساوَوهُ في كثير مما قالوه أو دَنَوْا منه، وأنهم جَرَوا إلى غايَتِه أو كادوا، وإذا كان هذا صورة الأمر، كان من العَمَى التعلُّقُ به، ومن الخَسَار الوُقوعُ في الشُّبْهَة. [١]

ونحن أمام قرآن عظيم ما قال بمثله ولا بمثل سورة منه إنس ولا جان فهو ليس كالشعر الذي يقوله الكثير، ثم يُفاضل بينهم.

الوجه العاشر: إن فساد معاني الأبيات بما لا يقتضيه واقع العرب وعقيدتها الجاهلية يفضح كذب ادعائها على الشعر الجاهلي كله.

ولنتساءل كيف تكون تلك الأبيات لامرئ القيس المشهور؟! ثم يأتي رسول الله ﷺ بكلام مسروق من شعره يعرضه على قريشٍ التي هي أفصح العرب وأحفظهم لشعر الشعراء، وبلغ منهم أن عظَّموا القصائد وعلقوها على الكعبة، ولا يخرج رجل واحد منهم حافظ للشعر، ويقول له: أنت يا محمد نقلت تلك الأبيات من امرؤ القيس، ثم يأت فلان العجمي بعد ألف وأربعمائة سنة ليقول لنا: خذوا تلك أبيات امرؤ القيس التي نقلها نبيكم في القرآن!.

---

(١) "الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني من صـ٥٩١: ٥٩٥ باختصار.

ويقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي -رحمه الله تعالى- في (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية): إن لكلام الله تعالى أسلوبًا خاصًّا يعرفه أهله ومن امتزج القرآن بلحمه ودمه، وأما الذين لا يعرفون منه إلا مفردات الألفاظ وصور الجمل فأولئك عنه مبعدون.

هذا ما يخالف العقل من جوانبه، ولو افترضنا مرة أخرى ثبوت الأبيات، فإن أي نقد يوجه إليها يوضح ضعف سبكها، وسقم معناها، وسخف بعض التراكيب فيها بما لا يتناسب مع شاعر جزل كامرئ القيس؛ بل يشعر المرءُ بمجرد قراءة تلك الأبيات أنها أقرب إلى النظم المفتعل الذي وضع صاحبه أمام عينيه آيات القرآن الكريم وأَخَذَ يجتهدُ في تضمينها أبياته، فالكلامُ مهلهلٌ، وغير مستوٍ، وفيه فجوات يملؤها الناظم كيفما اتفق.

فمن الأبيات التي ذكرها المناوي قوله:

إذا زلزلت الأرض زلزالها   وأخرجت الأرض أثقالها

تقوم الأنام على رسلها   ليوم الحساب ترى حالها

وهي أبيات لا يمكن أن تصدر عن امرئ القيس، فليست هي من معهود شعره، كما أن أهل الجاهلية لم يكونوا يؤمنوا بالبعث، فضلًا عن أن يذكروا تفاصيل إخراج الأرض لأثقالها، وقيام الأنام لربهم، مع حضور الرسل ليوم الحساب، إضافة إلى مشهد حساب الله تعالى للخلائق، إلا ما نقل عن الحنفاء الذين عرف اتصالهم بأهل الكتاب، ووجد في شعرهم شيء من ذلك كزيد بن عمرو بن نفيل، وامرؤ القيس ليس منهم قطعًا.

والبيت الأول لا يستقيم في ميزان الشعر ألبتة، فالتاء زائدة وكاسرة للوزن، وليس هناك رواية مكذوبة أخرى لتصحح هذا الخلل، مما يدلك على أن أصل نسبة تلك الأبيات خطأ محض.

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد: وأيسر ما يبدو من جهل هؤلاء المتخبطين في أمر اللغة العربية قبل الإسلام وعلاقتها بلغة القرآن الكريم، أنهم يحسبون أن العلماء المسلمين يجدون في بحث تلك الأبيات وصبًا واصبًا لينكروا نسبتها إلى الجاهلية، ولا يلهمهم الذوق الأدبي أن نظرة واحدة كافية لليقين بدحض نسبتها إلى امرئ القيس أو غيره من شعراء الجاهلية[1].

---

(١) (إسلاميات) من صـ ٥١: ٥٣ – ط دار الشعب. ويقول الأستاذ يحيى مراد في (ردود على شبهات المستشرقين) صـ٢٥٦: ماذا في الاعتراف بأن تكون بعض التعبيرات العربية التي استخدمها العرب في الشعر والنثر وردت كلاما من القرآن؟ والقرآن جاء بلسان عربي مبين، وكان أحيانا ينزل بنص كلمات تحدث بها الصحابة من أمثال عمر رضي الله عنهم وأرضاهم، وهناك فرق كبير بين (دنت الساعة) وبين. . (اقتربت الساعة). . .

وردَّ عليهم العلامة محمد رشيد رضا: لولا أن في القراء بعض العوام، لما كنتَ في حاجة إلى التنبيه على أن هذه القصيدة يستحيل أن تكون لعربي، فهي في ركاكة أسلوبها، وضعف موضوعها بريئة من شعر العرب فكيف يصح أن تكون لحامل لوائهم، وأبلغ بلغائهم؟!

فما معنى: "دنت الساعة " في البيت؟ إن كان المراد بالساعة يوم القيامة، فالجاهليون لم يكونوا يؤمنوا بالمعاد، فضلًا عن أن يذكروه في أشعارهم أو يضعوه في قصائدهم، وإن كان المراد ساعة لقاء الحبيبة كما قد يُفهم، فما المراد حينئذ بقوله (وانشق القمر)؟ فإن كان المراد انشقاق القمر فعلًا، فهذا كذب، إذ لم ينشق القمر في عهدهم أبدًا؛ بل انشق على عهد النبي ﷺ كما جاء في القرآن والروايات، وإن كان المراد بالقمر ذكر المحبوبة، فليس من عادة العرب التعبير عن جمال المحبوبة بانشقاق القمر، وما وجه الحسن في انشقاقه ليشبه به المحبوبة، وقد دأب العرب على تشبيه حسن النساء بالبدر حين اكتماله، لا بانشقاق القمر، فأي ركاكة في أسلوب هذا البيت؟!

هذا التفسير العقلي المبسط يجعلنا نفهم أن قوله: (دنت الساعة وانشق القمر) قد أُلصق إلصاقا بالقصيدة فأدى إلى معنًى مستشنع يدلُّ على أنه غريب عن بقية الأبيات. . . ، تماما الحال بالنسبة لبقية الأبيات المشبهة بآيات القرآن.

و البيت الذي فيه:

مَرَّ يوم العيد بي في زينة فرماني فتعاطى فعقر

فأَيُّ عيد كان عند الجاهلية يمر فيه الغلمان متزينين؟ وأليس يوم العيد احتفالًا إسلاميًا؟ فكيف يكون هذا كلام امرئ القيس الجاهلي وَيَذْكُرُ فيه يوم العيد وهو من مات قبل مولد نبينا ﷺ بثلاثين عامًا أو أكثر، فهل هذا الشعر جاهليًا؟

وهل يسمح لك ذوقك بأن تصدق أن امرأ القيس يقول ذلك؟ كما يظهر من ركاكة الأسلوب، قوله: (فتعاطى) إذ جاء بعد قوله: (فرماني) فإذا كان قد رماه، فأي شيء تعاطاه، والتعاطي هو تناول الشيء، فلماذا يتعاطى شيئا بعد أن رماه! وكان المفترض أن

يتعاطى شيئًا، ثم يرميه به، وليس في القرآن (فرماني فتعاطى فعقر) ومعناه في الآية: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ (القمر: ٢٩) أنه تناول رمحًا، أو خنجرًا، فعقر الناقة به، والإبل تعقر في نحورها، والعُشَّاق إنما يرمون باللحاظ في قلوبهم، فهل يقول العربي بعد ما قال إن محبوبه رماه: إنه تعاطى بعد ذلك فعقر؟ وقد جاء بعد هذا قوله: (بسهام من لحاظ) أي: أنه قد رماه بسهام من سهام العيون، وإذا كان الأمر كذلك، فما فائدة قوله: فتعاطى فعقر. إلا الزيادة في قبح الأسلوب ورداءة المعنى؟

الوجه الحادي عشر: مخالفة الشبهة لمقتضى العقل وانعدام المنهج العلمي في تقريرها.

هذا القرآن العظيم الحكيم الذي أعجز الخلق أجمعين في كل شيء من خصائصه ما كان يمنع محمدًا أن ينسبه إلي نفسه إن كان يبغي سيطرةً وسلطانًا وهو من جمعه وأَلَّفَهُ مِنْ شِعر مَن سبقه، ثم هو ﷺ ينسبه لغيره، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ (يونس: ١٥).

يقول الدكتور عبد الله دراز: والذي نعرفه أن كثيرًا من الأدباء يسْطُون علي آثار غيرهم فيسرقونها أو يسرقون منها ما خَفَّ حملُه، وغَلَت قِيمتُه، وأُمِنَتْ تُهْمَتُه حتى أن منهم من يَنبِشُ قبور الموتى ويلبس من أكفانهم ويخرج علي قومه في زينةٍ من تلك الأثواب المستعارة. أما أن أحدًا يَنسِبُ لغيره أَنْفَسَ آثارِ عَقْلِهِ وأغلي ما تجود به قريحته فهذا مَا لَم يَلِدْهُ الدَّهْرُ بعد.

ويقول: أيُّ مصلحة للعاقل الذي يدّعي لنفسه حق الزعامة، ويتحدي الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة، نقول: أيُّ مصلحةٍ له في أن ينسب بضاعته لغيره وينسلخ منها انسلاخًا؟ علي حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحدًا يعارضه ويزعمها لنفسه[1].

هذا وإن العرب مع حرصهم الشديد على معارضة النبي ﷺ وكثرة تحديه الدائم لهم لم يطق أحد منهم أن يعارض القرآن، ولا يقال: إن النبي ﷺ بلغ من العبقرية مبلغا بحيث لم

---

(١) النبأ العظيم صـ ١٧ بتصرف.

يستطع أحد أن يأتي بمثل ما قال؛ لأنه يمكن للمخالفين أن يجتمعوا فيألفوا قرآنا، ومعلوم أن الجماعة تبدع وتبتكر أكثر من الإنسان الواحد.

ولنا أن نتسائل كيف يكون القرآن الكريم قد أخذ من الشعر؟ فمن هو الآخذ، ومن هو الشاعر المأخوذ من شعره، وأين هذا المأخوذ، وكيف كان الأخذ ومتى حدث؟

بل يستحيل في العقل وفي العادة أن يكون على فرض أولئك الأقوام أن يكون الله تعالي خالق الكون والإنس والجن ولغاتهم هو الآخذ، فهم لا يعنون بذلك إلا محمدًا ﷺ أخذ من شعر العرب الجاهليين الأميين، والقرآن حاوي العلوم جميعها فلا يكون الجهل مصدرا للعلم أبدا ومن هو المأخوذ منه؟ يقولون: امرؤ القيس فيكون بعد ذلك يقول فيه الرسول ﷺ: هو حامل لواء الشعراء إلي النار. وكيف هي المؤهلات التي عند امرئ القيس وشعره حتى يؤخذ منه القرآن وإن شعره مليء بالغريب والأخطاء الفنية والأدبية علي نحو ما ذكر الباقلاني في إعجاز القرآن[1]، بل قد مَرَّ في الوجه التاسع أنَّ اقتباسَ القرآن من الشعر يستحيل للبعد الشاسع بينهما في الموضوعات والمعاني والأسلوب وفي كل شيء.

ثم أين هو شعر امرئ القيس؟ يقول الأصمعي: كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا نتفًا سمعتها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء.

فما نحل عليه كثير وكل الذي نحل عليه هو مما صنعه المولدون في عصور الإسلام فاقتبسوا في الشعر المنحول بعض آيات وكلمات القرآن الكريم.

ولو قلنا إن غرض هؤلاء الملفقين لهذه الشبهات التحري والوصول إلى الحقيقة خدمة للإنسانية ووقع لهم أن هذه الأبيات لامرئ القيس، فَلِمَ جزموا أنها للشاعر الجاهلي والقرآن كلام رب العالمين قد أخذ منها ولم يسألوا أنفسهم أنها ربما كانت لشاعر إسلامي اسمه (امرئ القيس) قد أخذ واقتبس في أبياته ألفاظ القرآن الكريم على عادة كثير من الشعراء الإسلاميين.

---

(١) إعجاز القرآن (١٥٨: ١٨٠).

فكم عدد الشعراء اللذين تَسَمَّوا بامرئ القيس؟ فيكون الجواب أنهم كُثْرٌ، فأَيُّهم صاحب تلك الأبيات لو قلنا أنها لامرئ القيس؟

وهل وجد شاعر منهم بعد النبي ﷺ؟ الأمر الذي يعني أن هذا الشاعر هو مَن اقتبس مِن القرآن الكريم، لقد كان المنهج العلمي والتحري في معرفة الحقائق يتطلب منهم هذه المباحث فنقول لهم الشعراء الذين تَسَمَّوا بامرئ القيس كالآتي:

الأول: امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، الشاعر الجاهلي، وأشهر الشعراء على الإطلاق، وهو أَوَّلُ مَن قَصَّدَ القَصَائِدَ، وذكر الوقائع، ولم يكن لأوائل العرب إلا أبياتا يقولها الرجل في حاجته وتعزيته وتاريخه وغير ذلك. عاش من سنة ١٣٠ قبل الهجرة الى سنة ٨٠ قبل الهجرة وهو الذي قصده المستشرقون الحاقدون.

الثاني: امرؤ القيس بن جبلة السكوني وهو جاهلي، مِمَّنْ لم يصلنا الكثير من شعره.

الثالث: امرؤ القيس الكلبي وهو امرؤ القيس بن حمام بن مالك بن عبيدة بن عبد الله وهو شاعر جاهلي عاصر المهلهل بن ربيعة.

الرابع: امرؤ القيس الزهيري وهو امرؤ القيس بن بحر الزهيري شاعر جاهلي أيضا وهو ممن وصلنا القليل من شعره.

الخامس: امرؤ القيس بن عابس بن المنذر بن امرئ القيس، وفد إلى النبي ﷺ فأسلم وثبت على إسلامه، ولم يكن فيمن ارتد من كندة، وكان شاعرًا نزل الكوفة، وهو الذي خاصم الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فقال للحضرمي: بينتك وإلا فيمينه. قال: يا رسول الله، إن حلف ذهب بأرضي. فقال رسول الله ﷺ: من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها مالًا لقي الله وهو عليه غضبان. فقال امرؤ القيس: يا رسول الله ما لمن تركها وهو يعلم أنها حق؟ قال: الجنة " قال: فأشهدك أني قد تركتها له[1].

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٩١، والطبراني في الكبير ١٧/ ١٣٧ (٣٤١)، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٧٨، وفي شعب الإيمان ٤/ ٢١٦، وقال الهيثمي في المجمع ٤/ ٣١٩: رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات.
ولفظ الحديث بدون قصة امرئ القيس في صحيح البخاري (٦٢٨٣).

ومن شعر امرئ القيس هذا:

قف بالديار وقوف حابس   وتأن إنك غير آيس
لعبت بهن العاصفات   الرائحات من الروامس
ماذا عليك من الوقوف   بهالك الطللين دارس

فلو قلنا: إن الأبيات التي توافق سورة القمر ليست من شعر الإسلاميين فلنقل إنها لهذا الشاعر، ونَظَمَ تلك الأبيات واقتبس فيها من القرآن الكريم حبًا في كلام الله أن يضع منه في قصائده وليس كفرًا منه أو تحديًا.

فالجزم أن امرأ القيس الشاعر الجاهلي المشهور، الذي بُعِثَ النبي ﷺ بعد موته بما يصل إلى سبعين سنة[1]، هو صاحب تلك الأبيات افتراء لا مرية في ذلك.

والنبي ﷺ باعتراف خصومه: كما ولد أميا نشأ أميًا وعاش أميًا فما كان يتلو من قبل القرآن من كتاب ولا يخطه بيمينه فكيف يأخذ من شعر السابقين؟ فلابد أن يكون المعلم له حيا يعلمه عن طريق التلقين لا عن طريق الكتابة والتدوين فمن هو ذلك المعلم؟ سَمُّوهُ لَنَا.

يقول دراز- ردا علي من قال أنه يُعلِّمه بشر -:

يقال له كما قيل للذين يخلقون لله شركاء لا وجود لهم في الخيال والوهم ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ (الرعد: ٣٣)

بل نقول هل ولد هذا النبي في المريخ، أو نشأ في مكان قصي عن العالم فلم يهبط علي قومه إلا بعد أن بلغ أشده واستوي ثم كانوا بعد ذلك لا يرونه إلا لمامًا؟ ألم يولد في حجورهم؟ ألم يكن يمشي بين أظهرهم ويصبحهم ويمسيهم؟ ألم يكونوا يرونه بأعينهم في حله ورحيله؟ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (المؤمنون: ٦٩). طوعت لهم أنفسهم أن يقولوا ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ (النحل: ١٠٣)، ولكن هل تراهم كانوا في هذه الكلمة جادين؟ كان كل

(١) مات امرؤ القيس سنة ثمانين قبل الهجرة (انظر: الأعلام للزركلي).

همهم أن يدرءوا عن أنفسهم معرة السكوت والإفحام بأي صورة تتفق لهم من صور الكلام بالصدق أو بالكذب؟ ومن هو ذلك البشر الذي قالوا أنه يعلمه؟

ما اجترءوا أن ينسبوا هذا التعليم لواحد منهم؟ كلا فقد رأوا أنفسهم أوضح جهل من أن يعلموا رجلًا جاءهم بما لم يعرفوا ولا آباؤهم. . . وجدوا أنفسهم مضطرين أن يلتمسوا شخصًا يتحقق فيه شرطان: أحدهما: أن يكون من سكان مكة نفسها لتروج عنهم دعوى أنه يلاقيه ويملي عليه بكرةً وأصيلًا[1].

وثانيهما: أن يكون من غير جلدتهم وملتهم ليمكن أن يقال إن عنده علم ما لم يعلموا. وقد التمسوا هذه الأوصاف فوجدوها، أتدري أين وجدوها؟. . في حداد رومي! !

نعم وجدوا في مكة غلامًا تعرفه الحوانيت والأسواق، ولا تعرفه تلك العلوم في قليل ولا كثير. غير أنه لم يكن أميًا ولا وثنيًا مثلهم، بل كان نصرانيًا يقرأ ويكتب. فكان من أجل ذلك خليقًا في زعمهم أن يكون أستاذًا لمحمد، وبالتالي لعلماء اليهود والنصارى والعالم أجمعين، ولئن سألتهم هل كان ذلك الغلام فارغًا لدراسة الكتب وتمحيص أصيلها من دخيلها، ورد متشابهها إلي محكمها؟ وهل كان مزودًا في عقله ولسانه بوسائل الفهم والتفهيم؟. . . لعرفت أنه كان حدادًا منهمكًا في مطرقته وسندانه، وأنه كان عامي الفؤاد لا يعلم الكتاب إلا أماني، أعجمي اللسان لا تعدو قراءته أن تكون رطانة لا يعرفها محمد ولا أحد من قومه. لكن ذلك كله لم يكن ليحول بينه وبين لقب الأستاذية الذي منحوه إياه علي رغم أنف الحاسدين! وهكذا فمن ضاقت به دائرة الجد، لم يسعه إلا فضاء الهزل، وهكذا أمعنوا في هزلهم حتى خرجوا عن وقار العقل، فكان مثلهم كمثل من يقول: إن العلم يستقي من الجهل، وإن الإنسان يتعلم كلامه من الببغاء! وكفي بهذا هزيمة وفضيحة لقائله ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى

---

(١) لقد كان كفار قريش يُحْكِمون الكَذِبَ لِيروجَ عَنْهم، فكانوا أَسَدَّ رأيًا وأحكمَ عَقْلًا مِنْ مُسْتشرقي عصرنا، إذ لم يستجيبوا لنداء الفطرة والعقل فيكونوا مع حزب الله المؤمنين ولم يقتدوا بالقرشيين الكاذبين، فأصبحوا أضحوكة للعالمين ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلًا.

يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ (النحل: ١٠٣)[١].

ويقول دراز: هؤلاء قوم محمد ﷺ وهم كانوا أحرص الناس علي خصومته، وأدري الناس بأسفاره ورحلاته، وأحصاهم لحركاته وسكناته، قد عجزوا كما ترى أن يعقدوا صلة علمية بينه وبين أهل العلم في عصره. فما للملحدين اليوم وقد مضي نيف وثلاثة عشر قرنًا انفضت فيها سوق الحوادث، وجفت الأقلام، وطويت الصحف، لا يزالون يبحثون عن تلك الصلة في قمامات التاريخ، وفي الناحية التي أنف قومه أن ينبشوها؟

ألا فليريحوا أنفسهم من عناء البحث، فقد كفتهم قريش مئونته. وليشتغلوا بغير هذه الناحية التي قضى التاريخ والمنطق على كل محاولة فيها بالفشل. فإن أبوا فليعلموا أن كل شبهة تقام في وجه الحق الواضح سيحيلها الحق حجة لنفسه يضمها إلى حججه وبيناته[٢].

* * *

(١) النبأ العظيم للدكتور عبد الله دراز صـ ٧٩: ٨١ بتصرف.

(٢) المصدر السابق ص ٨٣.

١٥ـ شبهة: ادعاؤهم اقتباس محمد الوحي من ورقة بن نوفل.

لقد دأب المستشرقون من عهد بعيد على اتهام سيدنا رسول الله ﷺ بالأخذ عن أشخاص من أهل زمانه، فكان من ذلك: زعمهم أنه تلقى عن ورقة بن نوفل، ذهب إلى ذلك قديمًا (درمنغام) وغيره، وذهب إليه حديثًا البروفيسور(مونتكمري واط) ويوسف إلياس الحداد وغيرهما.

قالوا: السر الكبير في ثقافة محمد الكتابية والإنجيلية وجود العالِم المسيحي ورقة بن نوفل من بني أسد ابن عم السيدة خديجة في جوار النبي ﷺ، وهو الذي زوجه ابنة عمه، فقد أجمعت الآثار على أن ورقة تنصر، وكان يترجم التوراة والإنجيل إلى العربية، فهو إذن عالم مسيحي كبير، وقد عاش محمد في جواره خمسة عشر عامًا قبل مبعثه، ألا تكفي هذه المدة لنابغة العرب محمد بن عبد الله لكي يأخذ عنه شيئًا من علوم التوراة والإنجيل، وينصُّ صحيح البخاري على أن ورقة هو الذي ثبَّتَ محمدًا في دعوته وبعثته لما عاد خائفًا من غار حراء، وعلى أن الوحي فتر لما توفي ورقة، وحاول محمد الانتحار مرارًا لفقده وفتوره.

وقالوا: إن الدعوة المحمدية كانت في العهد المكي كتابية إنجيلية توراتية مسيحية يهودية، والقرآن نسخة عربية من الكتب السماوية السابقة المنزلة على الأنبياء السابقين ومقتبس منها، والقرآن كتاب توراتي إنجيلي في موضوعه ومصادره وقصصه وجدله، وكان محمد متأثرًا إلى أبعد الحدود باليهود والنصارى، حتى كأنه واحد منهم مع غلبة المسحة المسيحية[1].

والرد على الشبهات كما يلي:

أولًا: بذكر ردود إجمالية ومنها:

١ - إثبات نبوة النبي محمد ﷺ وخصائص وأسباب اصطفائه.

٢ - إثبات حال العرب قبل الإسلام وعلى أي دين كانوا يدينون.

ثانيًا: ذكر ردود تفصيلية، وذلك بأن نفَصِّل الشبهات الدائرة حول ورقة بن نوفل، فهناك عدة شبهات تتعلق بكل مطلب من هذه المطالب:

١ -طبيعة تدين ورقة بالنصرانية.

---

(١) انظر القرآن والمبشرون (٩٤-٩٥).

٢- تعليم ورقة لمحمدﷺ.

٣- اللقاءات بين ورقة ومحمدﷺ.

٤-موقف قريش من ورقة.

٥-دور ورقة من زواج محمد ﷺ بخديجة.

٦-ادعائهم أن لخديجة وأبي طالب دور لتنصير محمد كَوكَلاء عن ورقة.

٧- القرآن وورقة.

٨- ترجمة ورقة للكتاب المقدس وتحويل الترجمة إلى قرآن.

٩- محاولة انتحار محمد ﷺ بعد موت ورقة حيث فتر الوحي.

١٠- ادعاؤهم أن ورقة قام بتنظيم مؤلف من: أبي بكر وسلمان الفارسي وصهيب وغيرهم.

١١-أخت ورقة ودورها مع عبد الله والد النبيﷺ.

١٢-ادعاء أن من حاضنات النبي ﷺ من كن نصرانيات كأم أيمن وحليمة.

١٣- ادعاؤهم أن الجزيرة العربية كانت على الديانة النصرانية.

وإليك التفصيل

أولًا: ذكر ردود إجمالية ومنها:

١ـ إثبات نبوة النبي محمدﷺ، وخصائصه، وأسباب اصطفائه.

إجراء المعجزات على يد النبي ﷺ:

قال ابن تيمية: جنس آيات الأنبياء خارجة عن مقدور البشر؛ بل وعن مقدور جنس الحيوان، وأما خوارق مخالفيهم كالسحرة والكهان فإنها من جنس أفعال الحيوان من الإنس وغيره من الحيوان والجن؛ مثل قتل الساحر وتمريضه لغيره، فهذا أمر مقدور معروف للناس بالسحر وغير السحر، وكذلك ركوب المكنسة أو الخابية وغير ذلك حتى تطير به، وطيرانه في الهواء من بلد إلى بلد هذا فعل مقدور للحيوان؛ فإن الطير يفعل ذلك والجن تفعل ذلك، وقد أخبر الله أن العفريت قال لسليمان: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وهذا تصرف في أعراض الحي فإن الموت والمرض والحركة أعراض، والحيوان يقبل في العادة مثل هذه

الأعراض ليس في هذا قلب جنس إلى جنس، ولا في هذا ما يختص الرب بالقدرة عليه ولا ما تختص به الملائكة، وكذلك إحضار ما يحضر من طعام أو نفقة أو ثياب أو غير ذلك من الغيب، وهذا إنما هو نقل مال من مكان إلى مكان وهذا تفعله الإنس والجن، لكن الجن تفعله والناس لا يبصرون ذلك، وهذا بخلاف كون الماء القليل نفسه يفيض حتى يصير كثيرًا بأن ينبع من بين الأصابع من غير زيادة يُزادها فهذا لا يقدر عليه إنسي ولا جني.(١)

معرفة النبي محمد ﷺ أمورًا غيبية من لدن الله:

قال تعالى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الجن: ٢٦، ٢٧).

قال ابن تيمية: فهذا غيب الرب الذي اختص به الرسول؛ مثل علم الرسول بما سيكون من تفصيل الأمور الكبار على وجه الصدق فإن هذا لا يقدر عليه إلا الله، والجن غايتها أن تخبر ببعض الأمور المستقبلة؛ كالذي يسترقه الجن من السماء مع ما في الجن من الكذب فلا بد لهم من الكذب، والذي يخبرون به هو مما يعلم بالمنامات وغير المنامات فهو من جنس المعتاد للناس، وأما ما يخبر به الرسول من الأمور البعيدة الكبيرة مفصلًا مثل إخباره إنكم تقاتلون الترك صغار الأعين، ذلف الأنوف، ينتعلون الشعر، كأن وجوههم المجانُّ المطرقة، وقوله: لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى، ونحو ذلك فهذا لا يقدر عليه جني ولا إنسي، والمقصود أن ما يخبر به غيرُ النبي من الغيب معتاد معروف نظيره من الجن والإنس فهو من جنس المقدور لهم، وما يخبر به النبي خارج عن قدرة هؤلاء وهؤلاء؛ فهو من غيب الله الذي قال فيه: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾.

قال: وكذلك الإخبار ببعض الأمور الغائبة مع الكذب في بعض الأخبار فهذا تفعله الجن كثيرًا مع الكهان وهو معتاد لهم مقدور. . . والكهان لا بد لهم من الكذب، والرب

(١) النبوات ١/ ٦.

قد أخبر في القرآن أن الشياطين تنزل على بعض الناس فتخبره ببعض الأمور الغائبة؛ لكن ذكر الفرق فقال: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾، كذلك مسرى الرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه الرب من آياته، فخاصة الرسول ليست مجرد قطع هذه المسافة؛ بل قطعها ليريه الرب من الآيات الغائبة ما يخبر به، فهذا لا يقدر عليه الجن وهو نفسه لم يحتج بالمسرى على نبوته بل جعله مما يؤمن به فأخبرهم به ليؤمنوا به، والمقصود إيمانهم بما أخبرهم من الغيب الذي رآه تلك الليلة، وإلا فهم كانوا يعرفون المسجد الأقصى؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ﴾؛ قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به؛ وهذا كما قال في الآية: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾، ومعلوم أن النبي إذا دعا الجن إلى الإيمان به فلابد أن يأتي بآية خارجة عن مقدور الجن، فلابد أن تكون آيات الأنبياء خارجة عن مقدور الإنس والجن، وما يأتي به الكاهن من خبر الجن وغايته أنه سمعه الجني لما استرق السمع مثل الذي يستمع إلى حديث قوم وهم له كارهون. (١)

انتشار دينه: عن أبي أسماء عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكُها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض". (٢)

استحالة كذب النبي ﷺ، وإثبات أن أخلاقه موافقة لأخلاق الأنبياء:

عن عَبْدَ الله بْنَ عَبَّاسٍ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ -وَكَانُوا تُجَّارًا بِالشَّأْمِ- فِي الْمُدَّةِ التي كَانَ رَسُولُ الله ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ

(١) النبوات١/ ٦.

(٢) رواه مسلم (٢٨٨٩).

قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الذي يَزْعُمُ أَنَّهُ نبي، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا، فَقَالَ أَدْنُوهُ مِنِّي، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ، فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ: إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ. فَوَاللهِ لَوْلاَ الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ، قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ، قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ قُلْتُ: لاَ، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لاَ نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا؛ قَالَ: وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ، قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ، فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ، وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ

تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لاَ تَغْدِرُ، وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ.(١)

اللسان العربي الذي سيكون لغة وحي الله الخاتم هل هذا اللسان تتوفر فيه مميزات وفضائل غير متوفرة في غيره من اللهجات واللغات؟

قال ابن تيمية: فإن الله تعالى خص العرب ولسانهم بأحكام تميزوا بها، ثم خص قريشًا على سائر العرب بما جعل فيهم من خلافة النبوة.(٢)

٢ـ إثبات حال العرب قبل الإسلام وعلى أي دين كانوا يدينون:

عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: " أَلاَ إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا: كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلاَلٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لاَ يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ ".(٣)

كنيسة صنعاء:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمّ إنّ أَبْرَهَةَ بَنَى الْقُلّيْس بِصَنْعَاءَ، فَبَنَى كَنِيسَةً لَمْ يُرَ مِثْلُهَا فِي زَمَانِهَا بِشَيْءِ مِنْ الْأَرْضِ، ثُمّ كَتَبَ إلَى النّجَاشِيّ: إنّي قَدْ بَنَيْتُ لَك أَيّهَا الْمَلِكُ كَنِيسَةً لَمْ يُبْنَ مِثْلُهَا لِمَلِكِ كَانَ قَبْلَك، وَلَسْت بِمُنْتَهٍ حَتّى أَصْرِفَ إلَيْهَا حَجّ الْعَرَبِ، فَلَمّا تَحَدّثَتْ الْعَرَبُ بِكِتَابِ

(١) رواه البخاري (٧)، ومسلم (٤٧٠٧).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم١/ ١٥٤.

(٣) مسلم (٧٣٨٦).

أَبْرَهَةَ ذَلِكَ إِلَى النَّجَاشِيِّ غَضِبَ رَجُلٌ مِنْ النَّسَأَةِ أَحَدُ بَنِي فُقَيْمِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ عَامِرِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مَالِكِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إلْيَاس مِنْ مُضَرَ. قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: فَخَرَجَ الْكِنَانِيّ حَتّى أَتَى الْقُلّيْس فَقَعَدَ فِيهَا -قَالَ ابْنُ هِشَامٍ يَعْنِي أَحْدَثَ فِيهَا-، ثُمّ خَرَجَ فَلَحِقَ بِأَرْضِهِ، فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ أَبْرَهَةُ فَقَالَ مَنْ صَنَعَ هَذَا؟ فَقِيلَ لَهُ: صَنَعَ هَذَا رَجُلٌ مِنْ الْعَرَبِ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ الّذِي تَحُجّ الْعَرَبُ إلَيْهِ بِمَكّةَ لَمّا سَمِعَ قَوْلَك: " أَصْرِفُ إلَيْهَا حَجّ الْعَرَبِ " غَضِبَ فَجَاءَ فَقَعَدَ فِيهَا، أَيْ: أَنّهَا لَيْسَتْ لِذَلِكَ بِأَهْلِ. فَغَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ أَبْرَهَةُ وَحَلَفَ لَيَسِيرَن إلَى الْبَيْتِ حَتّى يَهْدِمَهُ، ثُمّ أَمَرَ الْحَبَشَةَ فَتَهَيّأَتْ وَتَجَهّزَتْ، ثُمّ سَارَ وَخَرَجَ مَعَهُ بِالْفِيلِ وَسَمِعَتْ بِذَلِكَ الْعَرَبُ، فَأَعْظَمُوهُ وَفَظِعُوا بِهِ، وَرَأَوْا جِهَادَهُ حَقًّا عَلَيْهِمْ حِينَ سَمِعُوا بِأَنّهُ يُرِيدُ هَدْمَ الْكَعْبَةِ بَيْتِ الله الْحَرَامِ.[1]

ثانيًا: الردود التفصيلية:

المطلب الأول: حياة ورقة بن نوفل ومراحلها.

الشبهات في هذا المطلب مآلها إلى الآتي:

١-المدة الزمنية لحياة ورقة النصرانية: فعندهم أنه كان قسيسًا قبل ولادة النبي ﷺ، وكان يتفطن في من سيلد محمدًا ﷺ، ويستعد ورقة لتهيئة الظروف المواتية لإعداد محمد ﷺ قبل أن يأتي إلى الدنيا.

٢- ورقة كان ملازمًا لمحمد دائمًا في جميع مراحل حياته كما يلازم الظل الجسد.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: ورقة لم يعرف النصرانية إلا متأخرًا فكيف يقال: كان قسيسًا قبل ولادة النبي ﷺ

ورقة بن نوفل لم يكن قد تنصر قط في حياة عبد الله والد نبينا محمد ﷺ فضلًا عن أن يكون قسًا وعالمًا نصرانيًا مستبحرًا في علوم ديانته. فإنه تنصر عندما ذهب للشام بعد ما كان في الحبشة، فعندما علم بقرب ظهور النبي الخاتم وهو بالشام ذهب إلى مكة مرة أخرى، فعند

(١) سيرة ابن هشام١/ ٤٣، الروض الأنف١/ ١١٥، السيرة النبوية لابن كثير ١/ ٣٠.

اقتراب بعثة النبي ﷺ كان الرُّهبان يتناقلون مقولتهم الشهيرة، حيث قد قالها أحدهم لزيد بن عمرو: فقال له الراهب: إنك لتطلب دينًا ما تجد من يحملك عليه، ولكن قد أظلك زمان نبي يخرج من بلدك يبعث بدين الحنيفية، فلما قال له ذلك رجع يريد مكة[1].

والروايتان السابقتان توضحان بجلاء أن ورقة بن نوفل ظل مشركًا إلى ما بعد ولادة النبي محمدﷺ، ثم إنه لم يتنصر إلا بعد عدة سنوات من سفرٍ هنا وهناك حتى استقر بالشام، وبعض الروايات توضح أنه تهود قبل أن يتنصر، وظل ورقة بالشام فترة من الواضح أنها كانت طويلة تكفي لتعلمه النصرانية وتبحره في دراستها، حتى أن النبي ﷺ تزوج من خديجة ومازال ورقة بالشام، وهذا ما سيتضح أيضًا في الوجه الثالث.

الوجه الثاني: مكث ورقة يتعلم النصرانية وفي نفس الوقت جاء الوحي للنبي ﷺ

ورقة ظلَّ فترة في الشام ليتعلم النصرانية، وفي هذه الفترة كان نبينا محمد ﷺ قد كبر واشتد عوده وأتته إرهاصات النبوة في حالة كونه غلام، وكان بعد ذلك على الحنيفية في تعبده وأخلاقه ومعاملاته، فأين ورقة من كل ذلك؟!

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ النبي ﷺ لقي زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ بِأَسْفَلِ بَلْدَحَ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى النبي ﷺ الوحي فَقُدِّمَتْ إِلَى النَّبِي ﷺ سُفْرَةٌ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ زَيْدٌ: إِنِّي لَسْتُ آكُلُ مِمَّا تَذْبَحُونَ عَلَى أَنْصَابِكُمْ، وَلاَ آكُلُ إِلاَّ مَا ذُكِرَ اسْمُ الله عَلَيْهِ، وَإِنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو كَانَ يَعِيبُ عَلَى قُرَيْشٍ ذَبَائِحَهُمْ، وَيَقُولُ: الشَّاةُ خَلَقَهَا الله، وَأَنْزَلَ لَهَا مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءَ، وَأَنْبَتَ لَهَا مِنَ الأَرْضِ، ثُمَّ تَذْبَحُونَهَا عَلَى غَيْرِ اسْمِ الله إِنْكَارًا لِذَلِكَ وَإِعْظَامًا لَهُ[2].

قال السهيلي: فِي هذا الحديث سُؤَالٌ يُقَالُ: كَيْفَ وَفَّقَ الله زَيْدًا إِلَى تَرْكِ أَكْلِ مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَمَا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ الله عَلَيْهِ، وَرَسُولُ الله ﷺ كَانَ أَوْلَى بِهَذِهِ الْفَضِيلَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لِمَا ثَبَّتَ الله؟ فَالْجَوَابُ مِنْ وَجْهَيْنِ:

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير١/ ٣٥٧.

(٢) رواه البخاري (٣٨٢٦).

أحدهما: أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْحَدِيثِ حِينَ لَقِيَهُ بِبَلْدَحَ، فَقُدِّمَتْ إِلَيْهِ السُّفْرَةُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَكَلَ مِنْهَا، وَإِنَّمَا فِي الْحَدِيثِ أَنَّ زَيْدًا قَالَ حِينَ قُدِّمَتْ السُّفْرَةُ: لَا آكُلُ مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ.

ثانيهما: أَنَّ زَيْدًا إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ بِرَأْيٍ رَآهُ لَا بِشَرْعٍ مُتَقَدِّمٍ، وَإِنَّمَا تَقَدَّمَ شَرْعُ إِبْرَاهِيمَ بِتَحْرِيمِ الْمَيْتَةِ لَا بِتَحْرِيمِ مَا ذُبِحَ لِغَيْرِ اللهِ، وَإِنَّمَا نَزَلَ تَحْرِيمُ ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ وَبَعْضُ الْأُصُولِيِّينَ يَقُولُونَ: الْأَشْيَاءُ قَبْلَ وُرُودِ الشَّرْعِ عَلَى الْإِبَاحَةِ، فَإِنْ قُلْنَا بِهَذَا وَقُلْنَا: إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَأْكُلُ مِمَّا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ فَإِنَّمَا فَعَلَ أَمْرًا مُبَاحًا، وَإِنْ كَانَ لَا يَأْكُلُ مِنْهَا فَلَا إِشْكَالَ، وَإِنْ قُلْنَا أَيْضًا: إنَّهَا لَيْسَتْ عَلَى الْإِبَاحَةِ وَلَا عَلَى التَّحْرِيمِ وَهُوَ الصَّحِيحُ فَالذَّبَائِحُ خَاصَّةٌ لَهَا أَصْلٌ فِي تَحْلِيلِ الشَّرْعِ الْمُتَقَدِّمِ كَالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا أَحَلَّهُ اللهُ تَعَالَى فِي دِينِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، وَلَمْ يَقْدَحْ فِي ذَلِكَ التَّحْلِيلِ الْمُتَقَدِّمِ مَا ابْتَدَعُوهُ حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامُ، وَأَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ (الْأَنْعَامُ: ١٢١)، أَلَا تَرَى كَيْفَ بَقِيَتْ ذَبَائِحُ أَهْلِ الْكِتَابِ عِنْدَنَا عَلَى أَصْلِ التَّحْلِيلِ بِالشَّرْعِ الْمُتَقَدِّمِ وَلَمْ يَقْدَحْ فِي التَّحْلِيلِ مَا أَحْدَثُوهُ مِنْ الْكُفْرِ وَعِبَادَةِ الصُّلْبَانِ، فَكَذَلِكَ كَانَ مَا ذَبَحَهُ أَهْلُ الْأَوْثَانِ مُحِلًّا بِالشَّرْعِ الْمُتَقَدِّمِ حَتَّى خَصَّهُ الْقُرْآنُ بِالتَّحْرِيمِ(١).

فهذا دليل واضح أن زيد بن عمرو ترك ورقة في الشام يتعلم النصرانية، وعندما رجع إلى مكة كان النبي محمد ﷺ شابًا، بل قد تزوج النبي من خديجة؛ لأن زيد بن حارثة قد وهبته خديجة لمحمد بعد زواجهما، فما أتى ورقة إلى مكة إلا بعد زواج محمد ﷺ من خديجة وقرب بعثة محمد ﷺ للنبوة.

ومن الإرهاصات التي أتت للنبي ﷺ ولم يكن ورقة مشرفًا عليها مثل:

١- شق الصدر في الصغر.

٢- تسليم الحجر والشجر على محمد ﷺ.

---

(١) الروض الأنف ١/ ٣٨٢.

لذلك نقول بجلاء: إنه ليس لورقة علاقة بتمهيد وتسهيل النبوة لمحمد ﷺ، وليس له دور في تكوين شخصية محمد ﷺ، بل إن ربَّه ربَّاه كما ربَّى موسى على عينه.

الوجه الثالث:

عودة ورقة من الشام إلى مكة كانت قرب وفاته وقرب وفاة زيد بن عمرو، وكان ذلك قرب سنة بناء الكعبة؛ فوقتئذٍ كان عُمْرُ النبي ﷺ اقترب من السابعة والثلاثين، ولم يصل ورقة إلى مكة بعد تنصره، قال زيد بن حارثة: ومات زيد بن عمرو بن نفيل قبل أن يبعث رسول الله ﷺ[1].

ومن قريب أثبتنا أن زيد بن عمرو رجع من رحلته من الشام وثبت على ملة إبراهيم عليه السلام، وبعد ذلك كله قابل محمدًا ﷺ ومعه زيد بن حارثة وذلك كان بعد زواج محمد ﷺ من خديجة، وفي كل هذا الوقت كان ورقة لا يزال بالشام.

ورجوع زيد بن عمرو من رحلته -التي لم تكن طويلة- كان ذلك عند اقتراب بعثة محمد ﷺ، ففي مسند الطيالسي: خرج ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل يلتمسان الدين حتى انتهيا إلى راهب بالموصل، فقال لزيد بن عمرو بن نفيل: من أين أقبلت يا صاحب البعير؟ قال: من بيت إبراهيم، قال: وما تلتمس؟ قال: ألتمس الدين، قال: ارجع؛ فإنه يوشك أن يظهر الذي تطلب في أرضك[2].

---

(١) **صحيح**. رواه البيهقي في دلائل النبوة (٤٣١)، (٤٣٢)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٤٤)، وأبو يعلى (٧٠٥٦)، والحاكم (في المستدرك ٤٩٤٥)، والطبراني (في المعجم الكبير٤٦٦٣)-جميعًا عن: محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، عن أسامة بن زيد، عن زيد بن حارثة به.
والإسناد رجاله رجال البخاري ومسلم غير يحيى بن عبد الرحمن: فمن رجال مسلم.

(٢) رواه أبو داود الطيالسي في مسنده (٣٢)، وعنه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٥٥٠)، وابن عساكر١٩/ ٥٠٠، ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٣٥٠)من طريق عبد الله بن رجاء- جميعًا عن المسعودي، عن نفيل بن هاشم بن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي عدي قريش، عن أبيه، عن جده.
قال البوصيري: هذا إسناد رجاله ثقات؛ نفيل وهشام ذكرهما ابن حبان في الثقات، والباقي على شرط مسلم إلا أن المسعودي اختلط بآخره، وممن روى عنه بعد الاختلاط أبو داود الطيالسي ويزيد بن هارون كما أوضحته في تبيين حال المختلطين؛ اتحاف الخيرة المهرة١/ ١٥.

فهذا دليل واضح أن زيدًا ترك ورقة واستمع لكلام الراهب فرجع إلى مكة على الفور لانتظار اقتراب ظهور هذا النبيﷺ.

وهو دليل واضح أيضًا على أن ورقة لم يكتمل تعلمه للنصرانية إلا والنبي محمد ﷺ اقترب سنه من الأربعين.

الوجه الرابع: وفاة زيد ووفاة ورقة.

قال الزهري: ولقد توفي زيد وبقي ورقة بعده كما يزعمون سنتين[1].

وبغض النظر عن كون الفارق بين وفاتهما سنتين أو يزيد قليلًا، فهذا يبين أن كليهما لم يعمِّرا حتى بداية دعوة النبي ﷺ قومه إلى الإسلام، ووفاة زيد بن عمرو كانت بعد بناء الكعبة.

الدليل على أن وفاة زيد كانت بعد بناء الكعبة:

قال ابن حجر: مات زيد بن عمرو قبل البعثة بخمس سنين. . وعند ابن سعد عن الواقدي بسند له أن سعيد بن زيد قال: توفي أبي وقريش تبني الكعبة، قال مصعب الزبيري: حدثني الضحاك بن عثمان، عن بن أبي الزناد، عن هشام بن عروة: بلغنا أن زيد بن عمرو بلغه مخرج النبي ﷺ فأقبل يريده فقتله أهل مبقعة موضع بالشام. [2]

إن زيدًا كان عندما رجع من رحلته للبحث عن الدين الحق ثم وصل إلى مكة ورأته أسماء بنت أبي بكر وهو يسند ظهره للكعبة، ولربما أثناء بناء الكعبة استغرق ذلك وقتًا ما لبنائها بحيث إن أجزاءً منها وجدرانًا لها يمكن أن يُسند زيد ظهره إليها.

فعن أسماء بنت أبي بكر قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائمًا مسندًا ظهره إلى

قلت: وقد تابع عبد الله بن رجاء أبو داود الطيالسي، ومن المحتمل الغالب أن عبد الله بن رجاء بن عمر الغداني قد روى عن المسعودي قبل الاختلاط؛ وذلك لأنه بصري، وقد قال عبد الله بن أحمد: قال أبي: وإنما اختلط المسعودي ببغداد، ومن سمع منه بالبصرة والكوفة فسماعه جيد؛ شرح علل الترمذي١/ ٢٢٨.

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٠).

(٢) الإصابة٢/ ٦١٥.

الكعبة[١]. وكان هذا لا يتأتى له قبل بناء الكعبة.

قال ابن إسحاق: وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كانت تطرح فيها ما يهدى إليها كل يوم، فتتشرق على جدار الكعبة، وكانت مما يهابون؛ وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزألت وكشت وفتحت فاهها؛ فكانوا يهابونها، فبينما هي يومًا تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع بعث الله عليها طائرًا فاختطفها فذهب بها. فقالت قريش: إنا لنرجو أن يكون الله تعالى قد رضي ما أردنا-أي: بناء الكعبة- عندنا عامل رفيق، وعندنا خشب، وقد كفانا الله الحية[٢].

فلهذه العلاقة نقول: إن زيد بن عمرو عندما ترك ورقة بالشام ثم رجع إلى مكة بطريقة غير مباشرة كان باستطاعته أن يصل للكعبة ويسند ظهره إليها، ولا يتم ذلك إلا بعد بناء الكعبة أو حين بنائها وذهاب الحية عنها.

قال حسني الأطير: فهذه الصورة المزعجة لحال الكعبة حال تصدعها قبل الهدم، وإعادة بنائها، ترينا كيف كان القرشيون لا يستطيعون أن يدخلوا الكعبة، ولا حتى أن يقتربوا منها، الأمر الذي بلغ حد أن يعطلهم عن هدمها لإعادة بنائها[٣].

والحاصل من الأخبار السابقة: أن كلًا من زيد بن عمرو، وورقة كانت وفاتهما قريبة من بعضهما، وكانت أيضًا قبل دعوته لعشيرته للإسلام، وإن ورقة لم يمكث بعد بعثة النبي ﷺ إلا فترة يسيرة.

---

(١) المستدرك (٥٨٩٣)، السيرة النبوية لابن كثير١/ ١٥٤، الروض الأنف١/ ٣٨٢، سيرة ابن هشام١/ ٢٢٤، قال الحاكم: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، ثنا الحسن بن علي بن عفان، ثنا أبو أسامة، ثنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن أسماء به.

قلت: إسناده حسن-من أجل الحسن بن علي، وأبو أسامة هو: حماد بن أسامة؛ وقد قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) السيرة النبوية١/ ٢٧٦، سيرة ابن هشام١/ ١٩٢.

(٣) نقض الاشتباه بتعلم الرسول من ورقة بن نوفل (١٧٥).

الوجه السادس: ورقة ليس عنده يقين في الكيفية الصحيحة لعبادة الله، ولكن ما يغلب على ظنه يفعله:

فعن يونس بن بكير: عن ابن إسحاق، حدثني هشام، عن أبيه، عن أسماء: أن ورقة كان يقول: اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلم، ثم يسجد على راحته[1].

فهل ورقة الذي ليس عنده يقين في أمر النصرانية يكون داعيًا ومحرضًا لها؟ فمن الواضح من سيرة ورقة أنه اتخذ النصرانية لنفسه انتظارًا لنبي آخر الزمان لا أنه أراد أن يستمر على نصرانيته حتى ولو ظهر نبيٌّ يدعوه لغيرها.

المطلب الثاني: طبيعة تدين ورقة بالنصرانية.

الشبهة التي تندرج تحت هذا المطلب: أن ورقة قسيس نصراني (أبيوني) المذهب؛ له كهنوت بمكة، وله تأثير على محمد في تأليف الإسلام.

فالشبهات في هذا المطلب مآلها إلى الآتي:

١- اعتقاد ورقة بأنه أبيوني المذهب لذلك أشار بتكفير النصارى في القرآن، وادعى أن المسيح ما هو إلا بشر رسول.

٢- ورقة مبشر قسيس؛ فقام بالدعوة لدينه.

الشبهة الأولى: ورقة أبيوني المذهب.

الرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: تعريف الأبيونية عند غير المسلمين.

قال المؤرخ موشيم في المجلد الأول من تاريخه:

إن الفرقة الأبيونية التي كانت في القرن الأول كانت تعتقد أن عيسى عليه السلام إنسان فقط تولد من مريم ويوسف النجار مثل الناس الآخرين، وطاعة الشريعة الموسوية ليست منحصرة في حق اليهود فقط؛ بل تجب على غيرهم أيضًا والعمل على أحكامه ضروري للنجاة، ولما كان بولس ينكر وجوب هذا العمل ويخاصمهم في هذا الباب مخاصمة شديدة كانوا يذمونه ذمًا شديدًا ويحقرون تحريراته تحقيرًا بليغًا.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٢٥، السيرة لابن كثير ١/ ١٥٤، سير أعلام النبلاء (١/ ١٢٩)ورجاله ثقات.

وقال جامعو تفسير (هنري واسكات):

سبب فقدان النسخة العبرانية أن الفرقة الأبيونية التي كانت تنكر ألوهية المسيح حرفت هذه النسخة وضاعت بعد فتنة (يروشالمن)، وقال البعض إن: الناصريين أو اليهود الذين دخلوا في الملة المسيحية حرفوا الإنجيل العبراني، وأخرجت الفرقة الأبيونية فقرات كثيرة منه.

ويشير أبو موسى الحريري في كتابه "قس ونبي" إلى عقائد بعض الفرق الأبيونية الهرطوقية التي ادعت أن المسيح يتحول برضاه من صورة إلى صورة، فقد ألقى في صلبه شبهه على سمعان، وصُلب سمعان بدلًا عنه، فيما هو ارتفع إلى السماء حيًا إلى الذي أرسله، ماكرًا بجميع الذين مكروا للقبض عليه؛ لأنه كان غير منظور للجميع[1].

الوجه الثاني: اعتقاد الأبيونيين ليس كاعتقاد ورقة ولا المسلمين.

اعتقاد الطائفة الأبيونية وكذلك سائر عقائد النصارى في هذا الوقت يختلف عن اعتقاد ورقة ومحمدﷺ.

هذه هي عقيدة الأبيونية وبعض الفرق الأخرى التي ظهرت في القرن الثاني الميلادي التي اعتقد البعض أن الإسلام أخذ منها عقيدته:

١ - فالأبيونيون وغيرهم كانوا يؤمنون بأن المسيح ولد ولادة طبيعية من علاقة جنسية مباشرة بين مريم ورجل (سواء كان هذا الرجل هو يوسف النجار أو بانتيرا أو غيرهما)، وكانوا يتجنبون ذِكر هل هذه العلاقة كانت عن زواج أم زنى؟

وذلك الاعتقاد عند الأبيونيين (ويُسمون بالأبيونيين المتشدِّدين) والكيرنثيين والكسائيين في ذلك، بينما اختلفوا في الرجل الذي باشر مريم.

وأما الناصريون (ويُسمون بالأبيونيين المعتدلين)فأقروا بالولادة العذراوية للمسيح؛ أي: أن مريم فتاة عذراء لم يقتحمها ذكر، وأن المسيح له طبيعة مغايرة لسائر الأنبياء، سواء كانت طبيعة ملائكيًا أو غير ذلك.

---

(١) قس ونبي (١٢٩).

أما عند المسلمين فيؤمنون بما جاء في القرآن بأن المسيح خلق من روح مخلوقة، أنزلها الله مع جبريل لتُجعل في مريم؛ فيتكون المسيح من بعد ذلك بداخلها، فلم يكن هناك مباشرة بين رجل وامرأة، ولا أن المسيح له طبيعة ملائكية؛ بل له طبيعة بشرية، وذلك لقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ (مريم٢٢: ١٥).

فإن الأبيونيين نفوا ألوهية المسيح لإنكارهم ميلاده العذراوي، وكانوا يفترضون أنه لو صح لديهم ميلاده العذراوي لجاز لهم احتمال تأليهه.

أما القرآن فينفي أي احتمالات على ألوهية المسيح، مع التأكيد على أنه لم يكن هناك مباشرة بين رجل وامرأة لإنجابه[1].

٢- الإقرار بصلب المسيح وقتله. وشاركهم الكيرنثون، والكسائيون، والناصريون في ذلك. أما عند المسلمين فيؤمنون بما جاء في القرآن بنفي صلب المسيح وبنفي قتله[2].

وذلك لقوله تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ (النساء ١٥٧: ١٥٨).

٣- إنكار قيامة المصلوب بعد موته، وأنكروا عقيدة الفداء أو الخلاص أو الكفارة عن خطيئة آدم بدم المصلوب، وهذا عند: الأبيونيين، والكيرنثيين، والكسائيين في ذلك، أما الناصريون فأقروا بقيامة المصلوب بعد موته.

(١) انظر بحث (ألوهية المسيح) في هذه الموسوعة.

(٢) انظر بحث (الصلب والفداء) في هذه الموسوعة.

أما القرآن فلا يثبت الصلب أصلًا.

٤- تحريم الذبائح في القربان: عند الأبيونيين، والكيرنثيين، والكسائيين، والناصريين.
أما في الإسلام فأباح تلك الذبائح وأمر بها في الشعائر.

٥- الاغتسال الكامل للبدن كل يوم لأداء الطقوس: عند الأبيونيين، والكيرنثيين، والكسائيين، والناصريين.

وهذا يختلف عن الوضوء عند المسلمين، فما يُغسل في الوضوء إلا بعضُ الأعضاء وهي: الوجه، واليدان إلى المرفقين، والرجلان إلى الكعبين، ويُمسح بالرأس، أما عندهم فيُغسل جميع البدن.

٦-المسيح نبي لا إله ولا ابن الإله؛ وذلك عند الأبيونيين والكيرنثيين، إلا ما كان عند الكسائيين والناصريين من اختلافٍ في طبيعة المسيح.

مما سبق يتضح أنه إن كان ورقة أبيوني متشدد، وصاغ لمحمد القرآن من الإنجيل ووافق عقائدهم فيتبين خطأ ذلك الادعاء بوضوحٍ عند المقارنة المجردة ما بين العقائد التي أتى بها القرآن وعقائد الفرق النصرانية المختلفة، فنؤكد على أنه لا يوجد اتفاق تام بين العقائد التي أتى بها القرآن وأي عقيدة أخرى بشرية أرضية أو إلهية تم تحريفها من قِبل البشر كما حدث لليهودية والنصرانية.

وإن كان هناك حق في الأديان الأخرى المخالفة للإسلام، فليس معنى ذلك أنه خطأ، بل إن الإسلام يقرُّ بكل حق أيًّا كان قائله أو كاتبه.

الوجه الثالث: ورقة لم يكن أبيونيًا بل كان يبحث عن الحق في النصرانية، وحاول جاهدًا أن يتتبع الحق فيها ويترك ما فيها من باطل.

نحن المسلمين نعتقد أن دين النصارى قد حُرِّف[1]، فكان ممن يريد اتباع الحق من النصارى يتلاشى ما يغلب على ظنه أن به تحريفًا، ويتبع ما كان يوافق منهج الأنبياء في التوحيد والإصلاح وما يصل إليه من خلال بحثه فيعتقد أنه الحق الذي لم يحرف.

قال المناوي: والظاهر أن ورقة لم يكن متمسكًا بالمبدل من النصرانية بل بالصحيح منها الذي هو الحق[2].

قال عبد القادر البغدادي: وحاصل ما ذكره البقاعيّ في شأن ورقة بن نوفل: أنه ممن وحّد الله في الجاهلية، فخالف قريشًا وسائر العرب في عبادة الأوثان وسائر أنواع الإشراك، وعرف بعقله الصحيح أنهم أخطئوا دين أبيهم إبراهيم الخليل عليه السلام، ووحّد الله تعالى واجتهد في تطلب الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام ليعرف أحب الوجوه إلى الله تعالى في العبادة.

فلم يكتف بما هداه إليه عقله، بل ضرب في الأرض ليأخذ علمه عن أهل العلم بكتب الله المنزلة من عنده، الضابطة للأديان، فأداه سؤاله أهلَ الذكر الذين أمر الله بسؤالهم إلى أن اتبع الدين الذي أوجبه الله في ذلك الزمان، وهو الناسخ لشريعة موسى عليه السلام دين النصرانية، ولم يتبعهم في التبديل؛ بل في التوحيد، وصار يبحث عن النبي ﷺ الذي بشر به موسى وعيسى -عليهما السلام[3].

وحتى لو كان ورقة أبيوني المذهب فهل هذا هو الداعي لكره للنصارى؛ حيث إنه كتب ما يسبهم في القرآن-كما تدعون-فللرد على ذلك نقول:

١- القرآن ذمَّ أناسًا من النصارى ومدح أناسًا آخرين منهم؛ فهذا يدل على إنصاف القرآن، وأن ورقة لو كان هو الذي كتبه لتعرض بالسب واللعن لهم جميعًا بسبب أو بدون سبب لينصر مذهبه؛ قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ

(١) انظر بحث (تحريف الكتاب المقدس) في هذه الموسوعة.

(٢) فيض القدير٦/ ٤٠١.

(٣) خزانة الأدب١/ ٤٣٧.

ﭐﻟۡﺤَﻖِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (المائدة٨٣: ٨٢)[١].

٢- القرآن يثبت أن المسيح عليه السلام وأتباعه كانوا على الحق، والحقائق العلمية التاريخية تثبت أن الكتاب المقدس تم تحريفه بعد هذا العصر المبارك، فإنكار القرآن هو على من اتبعوا الكلمات المحرفة وتركوا كلمات الله الصادقة[٢].

الوجه الرابع:

ورقة متعلق بدين زيد بن عمرو فإنه أخذ النصرانية من رهبانيِّ الشام وتأثر بتوحيد زيد بن عمرو:

عن جابر رضي الله عنه قال: سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن زيد بن عمرو بن نفيل فقلنا: يا رسول الله، إنه كان يستقبل القبلة ويقول: ديني دين إبراهيم وإلهي إله إبراهيم، وكان يصلي ويسجد! قال: "ذاك أمة وحده، يحشر بيني وبين يدي عيسى ابن مريم"، وسئل عن ورقة بن نوفل، وقيل: يا رسول الله، إنه كان يستقبل القبلة ويقول: إلهي إله زيد، وديني دين زيد، وكان يتوجه ويقول:

رشدت فأنعمت ابن عمرو فإنما عنيت تنورًا من النار حاميا

بدينك دينًا ليس دين كمثله وتركك حنان الجبال كما هيا

قال: "رأيته يمشي في بطنان الجنة عليه حلة من سندس"[٣].

---

(١) انظر بحث (ثناء القرآن للتوراة والإنجيل) في هذه الموسوعة.

(٢) انظر بحث (إثبات تحريف الكتاب المقدس) في موسوعتنا.

(٣) **حسن بطرقه وشواهده.** رواه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٦٠٢)، والبيهقي في دلائل النبوة١/ ٨١، وفي الأسماء والصفات (٦٠٤)، وابن عساكر في تاريخه (٦٣/ ٢٢) عن يحيى بن سعيد بن أبان بن سعيد بن العاص الأموي قال: نا مجالد بن سعيد، عن الشعبي (وهو عامر بن شراحيل)، عن جابر رضي الله عنه، وأبو يعلى (٢٠٤٧)، وابن عساكر في تاريخه (٦٣/ ٢٣)، وابن عدى في الكامل (١/ ٣١٩، ترجمة ١٤٣ إسماعيل بن مجالد بن سعيد) جميعًا مختصرًا: عن إسماعيل بن مجالد بن سعيد، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله، وذكره السهيلي في الروض الأنف (١/ ٣٨٩).

قال ابن حجر: وَتَفَرَّدَ بِهِ مُجَالِدٌ وَفِيهِ ضِعْفٌ؛ المطالب العالية٢/ ١٥٧.

* إسماعيل بن مجالد وإن كان من رجال البخاري فقد تكلم فيه بعضهم من قبل حفظه، وقال الذهبي في " الكاشف": " صدوق "، وكذا قال الحافظ في " التقريب ". وزاد: " يخطئ "، قال الألباني: وهذا أصح،

وعن أسماء ابنة أبي بكر قالت: قال زيد بن عمرو بن نفيل ﷺ:

عزلت الجن والجنان عني ... كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا العزى أدين ولا ابنتيه ... ولا أطم بني طسم أدير

ولا غنما أدين وكان رب إلى ... الدهر إذ حلمي صغير

فرب واحد أو ألف رب ... أدين إذا أنقسمت الأمور

ألم تعلم بأن الله أفنى ... رجالًا كان شأنهم الفجور

وأبقى آخرين بعد قوم ... قبروا منهم الطفل والصغير

وأوشك أن يعيش المرء يومًا ... كما يتروح الغصن النضير

وقال ورقة بن نوفل لزيد بن عمرو بن نفيل:

فمثله وسط؛ يدور حديثه بين أن يكون حسنًا لذاته، أو حسنًا لغيره، فإن توبع لم يتوقف الباحث عن تحسينه؛ السلسلة الصحيحة٦/ ١٥٦. قلت: وكذلك مجالد يحتاج إلى متابعة أو شواهد.

ولفظة: (رأيته يمشي في بطنان الجنة عليه حلة من سندس) لها شواهد فيحكم عليها بالحسن؛ فمن تلك الشواهد:

أنه في رِوَايَةِ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يَسُبُّ وَرَقَةَ فَقَالَ: أَمَا عَلِمْت أَنِّي رَأَيْت لِوَرَقَةِ جَنَّةً أَوْ جَنَّتَيْنِ؟)؛ أخرجه الحاكم (٤٢١١)، وابن عساكر (٦٣/ ٢٤)، والديلمي (٧٢٩٧).

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ مِنْ رِوَايَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْوَقَّاصِيِّ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺسُئِلَ عَنْ وَرَقَةَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: كَانَ صَدَّقَك وَلَكِنَّهُ مَاتَ قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: رَأَيْت وَرَقَةَ فِي الْمَنَامِ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ بَيَاضٌ، وَلَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَكَانَ عَلَيْهِ لِبَاسٌ غَيْرُ ذَلِكَ)؛ أخرجه الترمذى (٢٢٨٨)، والحاكم (٤/ ٤٣٥)، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَعُثْمَانُ لَيْسَ بِالْقَوِيِّ.

قال زَيْنُ الدِّينِ عَبْدُ الرَّحِيمِ الْعِرَاقِيُّ: وَقَدْ رَوَاهُ مَعْمَرٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ مُرْسَلًا لَيْسَ فِيهِ عَائِشَةُ، وَهُوَ مُرْسَلٌ صَحِيحٌ؛ رَوَاهُ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ هَكَذَا.

ثم حكم العراقي على اللفظة المذكورة فقال: فَهَذَا مَعَ حَدِيثِ عَائِشَةَ مَعَ مُرْسَلِ عُرْوَةَ يُقَوِّي بَعْضُهَا بَعْضًا؛ طرح التثريب١/ ٢٧٧. لذلك قال الألباني: ورواه أبو يعلى عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله: وإسناده حسن؛ (صحيح السيرة النبوية٩٤).

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما توقيت تنورًا من النار حاميا

بدينك ربا ليس رب كمثله وتركك جنان الجبال كما هيا

يقول إذ جاورت أرضًا مخيفة حنانيك لا تظهر علي إلا عاديا

أدين لربي يستجيب ولا أدين لمن لا يسمع الدهر داعيا

أقول إذا صليت في كل مسجد تباركت قد أكثرت باسمك داعيا[1]

فما وصل إليه زيدٌ من التوحيد هو لتتبعه أقوال وأفعال إبراهيم ﷺ التي تحصَّل عليها من نتاج بحثه، وما وصل إليه ورقة من حق إنما كان لتتبعه بعض ما كان عليه زيد، وما وصل إليه محمد ﷺ إنما هو من قِبَل الوحي.

الوجه الخامس: ورقة لم يكن مُوَفَّقًا في اتباعه النصرانية كما وُفِق زيد بن عمرو في إتباع الحنفية:

قال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق: وقد كان نفر من قريش: زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث بن أسد، وعبد الله بن جحش -حضروا قريشًا عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لعيد من أعيادهم، فلما اجتمعوا خلا بعض أولئك النفر إلى بعض وقالوا: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، فقال قائلهم: تعلمن والله ما قومكم على شيء، لقد أخطئوا دين إبراهيم وخالفوه، ما وثن يعبد لا يضر ولا ينفع؟ فابتغوا لأنفسكم.

فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم[2].

---

(١) **حسن لغيره.** رواه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٧٧٣)؛ قال ابن أبي عاصم: حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، ثنا ابن أبي أويس، عن ابن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن أسماء ابنة أبي بكر.

ورجال إسناده على شرط البخاري.

وعبد الرحمن بن أبى الزناد: هو من رجال مسلم، وذكره البخاري في تعليقاته. قال ابن معين: هو أثبت الناس في هشام بن عروة (الكاشف٣١٩٣)

وإسماعيل بن عبد الله بن عبد الله بن أويس. قال أبو حاتم: مغفل محله الصدق، وضعفه النسائي (الكاشف٣١٩٣) قال ابن حجر: صدوق أخطأ في أحاديث من حفظه (التقريب ٤٦٠)

قلت: والحديث السابق يعتبر شاهد له فيحسن.

(٢) الروض الأنف ١/ ٣٧٩، وسيرة ابن هشام ١/ ٢٤٢، والمنتقى ١٧٥-١٧٦.

قال ابن كثير: ولم يكن فيهم -أي: في الأربعة الباحثين عن الحقيقة- أعدل أمرًا وأعدل ثباتًا من زيد بن عمرو بن نفيل، اعتزل الأوثان وفارق الأديان من اليهود والنصارى والملل كلها إلا دين الحنيفية دين إبراهيم، يوحد الله ويخلع من دونه، ولا يأكل ذبائح قومه فأذاهم بالفراق لما هُم فيه[(١)].

فتنصروا كلهم؛ لأنهم وجدوه أقرب الأديان إذ ذاك إلى الحق، إلا زيد بن عمرو بن نفيل؛ فإنه رأي فيه دخلًا وتخبيطًا وتبديلًا وتحريفًا وتأويلًا، فأبت فطرته الدخول فيه أيضًا، وبشره الأحبار والرهبان بوجود نبي قد أزف زمانه واقترب أوانه، فرجع يتطلب ذلك، واستمر على فطرته وتوحيده، لكن اخترمته المنية قبل البعثة المحمدية[(٢)].

وهذا يدل على أن ابن كثير احتج بهذه الرواية الموجودة في سيرة ابن إسحاق، لذلك نقول: إننا لو افترضنا أن ورقة اتبع النصرانية التي ليس بها شرك، ولكن اتباع زيد بن عمرو للحنفية كان أرشد، وهذا لإقرار ورقة فقد قال: رشدت وأنعمت ابن عمرو، وذلك بعد مقتل زيد بن عمرو، بل أشار ورقة أن زيدًا كان على العقيدة الصحيحة من توحيد الله وترك الشرك بجميع أنواعه، فَقَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ يَبْكِيهِ:

رَشَدْت وَأَنْعَمْت ابْنَ عَمْرٍو وَإِنّمَا ... تَجَنّبْت تَنّورًا مِنْ النّارِ حَامِيَا
بِدِينِك رَبّا لَيْسَ رَبّ كَمِثْلِهِ ... وَتَرْكِك أَوْثَانَ الطّوَاغِي كَمَا هِيَا
وَإِدْرَاكِك الدّينَ الّذِي قَدْ طَلَبْته ... وَلَمْ تَكُ عَنْ تَوْحِيدِ رَبّك سَاهِيَا
فَأَصْبَحْت فِي دَارٍ كَرِيمٍ مُقَامُهَا ... تُعَلّلُ فِيهَا بِالْكَرَامَةِ لَاهِيَا
تُلَاقِي خَلِيلَ الله فِيهَا، وَلَمْ تَكُنْ ... مِنْ النّاسِ جَبّارًا إلَى النّارِ هَاوِيَا
وَقَدْ تُدْرِكُ الْإِنْسَانَ رَحْمَةُ رَبّهِ ... وَلَوْ كَانَ تَحْتَ الْأَرْضِ سَبْعِينَ وَادِيَا[(٣)]

فكان الذي ينبغي على ورقة أن يتبع ما سار عليه زيد للتمسك بالحنفية وذلك لعدة أمور:

---

(١) السيرة النبوية ١/ ١٥٥.

(٢) السيرة النبوية ١/ ٣٩٦.

(٣) سبق تخريجه.

١- أن دين الجزيرة العربية قبل انتشار الشرك هو اتباع ملة إبراهيم، وورقة من الجزيرة، فلماذا اتبع دين النصارى الذين قابلهم في الشام، وترك دين إبراهيم أبي الحنفاء؟ ونحن المسلمون نعتقد أن المسيح بُعث إلى بني إسرائيل لا إلى العرب.

ففي الكتاب المقدس:

هؤُلاَءِ الاثْنَا عَشَرَ أَرْسَلَهُمْ يَسُوعُ وَأَوْصَاهُمْ قَائِلًا: «إِلَى طَرِيقِ أُمَمٍ لاَ تَمْضُوا، وَإِلَى مَدِينَةٍ لِلسَّامِرِيِّينَ لاَ تَدْخُلُوا، بَلِ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ. (متى ١٠/ ٦: ٥)

فَتَقَدَّمَ تَلاَمِيذُهُ وَطَلَبُوا إِلَيْهِ قَائِلِينَ: «اصْرِفْهَا، لأَنَّهَا تَصِيحُ وَرَاءَنَا!» [٢٤] فَأَجَابَ وَقَالَ: «لَمْ أُرْسَلْ إِلاَّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ»(متى ١٥/ ٢٤: ٢٣).

٢- البدع والضلالات التي فشت في دين النصارى في هذه الفترة مما أطفأ بهاء هذا الدين.

٣- إن ورقة وزيدًا وغيرهما كانوا يبحثون عن دين الحنيفية لا النصرانية، فالعجيب أن ورقة لم يُكمل بحثه فضعفت عزيمته، بينما قويت عزيمة زيد فانتهى أمره إلى اتباع الحنيفية، وهذه هي الحقيقة التي ينتهي إليها العقل فيستسلم لها، ففي قول ابن إسحاق السابق: (فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض يلتمسون الحنفية دين إبراهيم)، فنقول بأن ورقة لو استكمل البحث عن الدين الحق لانتهى إلى ما انتهى إليه زيد.

لذلك نقول: ما كان الله ليختار لنبيه محمدًا إلا الدين الصحيح الخالي من أي شكوك، وهو دين إبراهيم، لذلك كان محمدٌ يفتخر بذلك فيقول بما قال الله له: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ (البقرة: ١٣٥).

الشبهة الثانية: كون ورقة مبشرًا للنصرانية:

والرد على الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: لم نعثر في روايات العلماء على ما يُشار إلى أن ورقة كان داعية إلى النصرانية.

قال حسن ضياء الدين: لقد استقصى المحدثون والمؤرخون كل ما عرف عن ورقة بن نوفل مما له سند صحيح وما ليس له سند صحيح، فلم نعثر في رواياتهم على ما يشير إلى أنه

كان داعية إلى النصرانية، ورواية الإمام البخاري وهي أوثق رواية في أوثق مصدر تاريخي، وكذا رواية ابن إسحاق لدى الطبري وابن هشام، وغير ذلك من الروايات -أفادت أن نصرانية ورقة كانت قاصرة على نفسه، ولم تكن لديه حماسة التعليم ولا القدرة عليه والتفرغ له، وإلا لكان أنشأ مدرسة لها سمعتها ومشاكلها في الحياة الجاهلية الوثنية، لا تخفى ولا تغيب أخبارها عن أحد أبدًا.

وها أنت ذا تجد أن ورقة يقف مستطلعًا نبأ ما حصل لمحمد، ولم يكن ورقة يومها ولا قبلها معلمًا ولا ملقنًا، ولو كان له بعض ذلك لأعلن ابتهاجه بأن غرسه قد أثمر، لكنه أعلن أن وصف محمد ﷺ لملك الوحي مطابق لما عنده من صفات ملك الوحي الذي أنزله الله على موسى؛ إذ قال له ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء إلى موسى، ولتكَذبنَّه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه، ولئن أنا أدركت ذلك لأنصرنَّ الله نصرًا يعلمه.

أعلن ورقة بصراحة قوية مجلجلة أن هذا الحدث إلهي المصدر، والسبب خارج عن طاقة محمد ﷺ المخلوق وتصرفه وإرادته، وأن مشيئة الله اختارت محمدًا رسولًا إلى العالمين دون علم سابق منه ودون إرادته أو تطلعه وسعيه، ولكن لماذا أعلن ورقة أن الملك هو ملك الوحي الذي بعثه الله إلى موسى ولم يقل: إلى عيسى؛ علمًا بأن ورقة نفسه يقيم على شيء من النصرانية؟!

ذهب ابن حجر العسقلاني إلى أن ورقة أعلن بهذا أن الملك الذي لقيه محمد ﷺ في غار حراء هو ملك الوحي الذي أجمع أهل الديانتين اليهودية والنصرانية على الإيمان بنزوله على موسى، ولم يقل ورقة: (إنه الذي نزل على عيسى) لأن اليهود ينكرون نبوة عيسى وصلته بوحي الله.

قلت: ورأي اليهود هذا معروف في الجزيرة لاستيطانهم بعضها، فقلد احتاط ورقة فنسب الملك إلى موسى ليكون أبلغ في إعلان اليقين، والتأكيد بأنه ملك الوحي، وأقطع حكمًا بنبوة محمدﷺ، وأنفى للشك وأبعد للاحتمال والتأويل الذي يجر إليه قذف الموضوع

في لُجة الخلاف بين اليهود والنصارى، وهذا غاية ما يمكن أن يعبر به ورقة عن يقينه بإلهية رسالة محمدﷺ[١].

الوجه الثاني:

ذكرنا في المطلب الأول وهو(حياة ورقة بن نوفل ومراحلها): حيث إن ورقة عندما رجع من الشام إلى مكة ظل فترة وجيزة لا تتجاوز ثلاث سنوات حتى أتته المنية، وقبل وفاته قد عمي بصره، فأين الفترة التي بشر فيها بالنصرانية حتى أصبح القسيس المعظم لدى مكة، الذي يُطاع فيها أمر؟!

الوجه الثالث:

هناك من العلماء من له وجهة أخرى في أمر نصرانية ورقة، فيقول: إن نصرانيته لم تكن بكهنوت يتبعه كما يلتزم النصارى بطقوسهم باختلاف طوائفهم، ولم يلتزم الكنائس والأديرة، فكم ممن يقرأ كتبًا لديانة ما وربما اتَّبع بعض ما فيها، ولكنه يتوقف في أمور كثيرة منها، وأن الأدلة من السنة التي تشير إلى أنه كان نصرانيًا إن هذا فيما يبدو لأهل مكة؛ لأنهم عندهم من ترك دينهم والتمس أي دين فينسبونه إلى هذا الدين الذي التمسه سواء أكان لم يقتنع تماما به أو غير ذلك، فقد تكون نسبة اتباعه لهذا الدين الجديد ضئيلة، ولكن لأنه بمجرد أنه ترك دينهم فقد صَبِئ، أما الأدلة التي تشير إلى أنه استحكم في النصرانية فهي ضعيفة.

أدلة هؤلاء العلماء:

أولًا: قولُ" ابن مَنِّ الله" في حديقة البلاغة في رده على ابن غرسية: وكانت فيهم (أي: العرب) الملّة الحنيفية الإسلامية، والشريعة الإبراهيمية، ومن أهلها كان قس بن ساعدة الإيادي، وورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو من بني عدى[٢].

فقالوا: من هذا النص يتضح لنا أن ورقة كان على دين إبراهيم عليه السلام.

ثانيًا: شرح الروايات التي أتت في أمر تَنَصُر ورقة:

---

(١) وحي الله حقائقه وخصائصه (٨٨: ٩٠).

(٢) نوادر المخطوطات (١/ ٣٢٧).

روى البخاري في صحيحه بخصوص ورقة بن نوفل: كان امرءًا تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمى(١).

وأخرجه البخاري في كتاب الأنبياء بلفظ: وكان رجلًا تنصر يقرأ الإنجيل بالعربية(٢).

وقال ابن إسحاق في السيرة: فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية، واتبع الكتب من أهلها، حتى علم علمًا من أهل الكتاب(٣).

وفي تاريخ الطبري: وكان ورقة قد تنصر، وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل(٤).

قالوا: هل تدل هذه الروايات على أن ورقة كان راهبًا ومهرطقًا وصاحب كنيسة ... إلخ؟! بالطبع لا.

يقول د. عويد المطرفي: فإن كان قد تنصر، ففي أي المدارس؟ وكم دام تحصيله لها؟

ونحن إذا طلبنا إجابات عن هذه الأسئلة المُلحّة التي طرحناها بشأن ما تنسبه الروايات الحديثية والتاريخية إلى ورقة بن نوفل من الدخول في النصرانية، والاستحكام فيها، واتباع كتبها من أهلها في الجاهلية، لم نجد لأي من هذه الأسئلة جوابًا محددًا ولا غير محدد يوضح متى تنصّر ورقة بن نوفل؟ ولا كيف تنصر؟ كما لم يُذكر في أي من هذه الروايات، ولا في غيرها من الأخبار الصحيحة الإسناد، ولا غير الصحيحة مَنْ دعاه إلى الدخول في النصرانية، بل لم يكن أبدًا أن أحدًا من الناس دعاه إلى الدخول في النصرانية ولا رَغّبَهُ فيها، وحبّبَهُ فيها، ولا كيف تعلمها، ولا ذكرت أسماء أشخاصٍ لا معروفين ولا غير معروفين تلقّاها عنهم، ولا شيوخ لا من الرهبان ولا ممن هم دونهم درسها عليهم، أو سمع أخبارها منهم.

كما لم يُذكر في هذه الروايات، ولا في غيرها اسمٌ لبلدٍ تعلم فيه ورقة بن نوفل النصرانية

(١) صحيح البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠، ٢٥٢).

(٢) صحيح البخاري (٣٢١٢).

(٣) سيرة ابن هشام (١/ ٢٤٣).

(٤) تاريخ الطبري (٢/ ٣٠٢).

لا مدرسة، ولا معهد، ولا كنيسة، ولا أي مؤسسة من مؤسسات النصارى التي كانوا ينشرون نصرانيتهم من خلالها[(١)].

ثالثًا: ويجيبون على قول القائل: فما معنى الروايات المذكورة في البخاري وغيره أن ورقة تنصر واستحكم في النصرانية؟

فيُجيب د. عويد المطرفي إذ يقول: قول الرواية (تنصر في الجاهلية) لا ينهض دليلًا قاطعًا ولا شبه قاطع على تديّنه بالنصرانية، لا من قريب ولا من بعيد لأمور منها:

١- أن الإخبار عنه بالتنصر إخبار باعتناق دين النصرانية، وهي انتماء ديني، وأمر عقدي، وكلاهما فعل قلبي لا يتأكد إلا بأمور منها:

أهمها: التصريح الحقيقي في حال اليسر والعسر ممن نُسب إليه ذلك الانتماء والاعتقاد بأنه قد دان بذلك الدين أو المذهب الذي دان بدين من الأديان التي كان الناس يدينون بها في حياته وبعد مماته حتى وقتنا الحاضر، والمعلوم المعروف من ورقة بن نوفل أنه لم يُصرح في يوم من الأيام أنه يدين بالنصرانية؛ بل على العكس من ذلك كان يصرح بأنه على الحنيفية فإن ديدنه وهِجِّيراه في حياة صديقه ونديمه زيد بن عمرو بن نفيل، وبعد مماته أن يقول: إلهي إله زيد وديني دين زيد.

بل إن مما يدل على بُعد ورقة بن نوفل عن النصرانية أنه حين ذكر لخديجة بنت خويلد رضي الله عنها تصديقه لرسول الله ﷺ، وفرحه بمبعثه، واستبشاره به أيما استبشار -فإنه لم يذكر عيسى ابن مريم في الروايات الصحيحة في البخاري ومسلم -رحمهما الله- الذي جاء بالنصرانية فلم يقل: هذا هو الناموس الذي نزَّل الله على عيسى عليه السلام مثلًا؛ بل قال: (هذا هو الناموس الذي نزّل الله على موسى)[(٢)]. مما يدل على أن استحضار قلبه لذكر موسى أسرع من استحضاره لذكر عيسى عليهما الصلاة والسلام.

---

(١) ورقة بن نوفل في بطنان الجنة (٥٨، ٥٩) صادر عن رابطة العالم الإسلامي.

(٢) البخاري (٣٢١٢)، مسلم (٢٥٢).

ولم يُعلم لورقة بن نوفل كلمة واحدة في الدفاع عن النصرانية، ولا عن رجالها، ولا في الدعوة إليها، ولا في ترغيب أحد فيها، وهذا يدل على أنه لا علاقة بينه وبينها ولا صلة له بها ولا برجالها، ولا بالبلدان التي تنتشر فيها هذه الديانة الغريبة عنه وعن أسرته وعشيرته، وبلده، وقومه القرشيين. ولا رأوا له مكانًا يرتاده يُشبه معابد النصارى، لا في بيته الذي كان يقع تحت أنظار عموم الناس من أهل مكة وغيرهم غربي الكعبة بينه وبينها تسعة أذرع، تفيء الكعبة على دارهم بالضحى، وتفيء دارهم على الكعبة بالعشي، حتى إن الدوحة التي كانت في دارهم ربما تعلّق بعض أفنانها بأثواب بعض الطائفين بالكعبة لقرب دارهم منها[١]. ولا رأوا له شيئًا من ذلك -أيضًا- في بلده مكة؛ لا في جبالها، ولا في كهوفها مع سعتها وكبر مساحتها، وتوفر كل ذلك فيها لو أراد عمل شيء منه[٢].

رابعًا: ويجيبون عن رواية(استحكم في النصرانية)، يقول الدكتور المطرفي:

إنها مردودة من وجهين:

١- أنها لم تثبت بإسناد صحيح، بل لم يذكر ابن إسحاق في السيرة لها أصلًا.

٢- على فرض أن ورقة بن نوفل استحكم في النصرانية فليس معنى استحكامه فيها أنه قد دان بها، بل معناه أنه علمها حق العلم بها، وعرف حقائقها، وأسرارها وتاريخها بأخذ كُتبها من أهلها.

وإن لم يفعل ذلك لقيل -جدلًا-: إنه لم يطلع حق الاطلاع على النصرانية، بل إنه هو قد تحدثه نفسه بأن النصرانية المعاصرة له قد تكون على شيء من التوحيد الذي يبحث عنه هو، وزملاؤه الآخرون، ولكنه لرجاحة عقله، وقوة فهمه وحسن تبصّره في أمره، وتحققه في بحثه عن الحنيفية ملة أبيه إبراهيم حصل على كتب أهل الكتاب من أهلها، فرأى-بلا ريب- أن النصرانية ليست على شيء من دين إبراهيم دين التوحيد الخالص لله تعالى، فهل يعقل أن يُقال: إن ورقة بن نوفل بعد اطلاعه على كتب النصرانية تلك وتحققه مما فيها من

---

(١) أخبار مكة للفاكهي (٣/ ٣٠٧).

(٢) ورقة بن نوفل في بطنان الجنة (٦٦)؛ صادر عن رابطة العالم الإسلامي.

تناقضات وتحريفات ووثنية الثالوث قد رضيها دينا لنفسه، وهو الذي رفض الوثنية من أصلها بما فيها من فكرة تعدد الآلهة؟!. [١]

ويعقب الدكتور المطرفي شارحًا موضوع(استحكم في النصرانية):

(هناك الكثير من الرهبان ومن هم في معناهم من أهل النصرانية اليوم يحفظون القرآن الكريم، لا ليدينوا به، ولا ليتبعوا أحكامه، وشرائعه، وآدابه؛ بل لأغراض أخرى انطوت عليها أنفسهم، وقلوبهم الحاقدة على الإسلام، والمسلمين، وعلى رسول الله ﷺ بوجه خاص.

فهل يقال: إنهم باستحكامهم في حفظ القرآن ومعرفة الشرائع، وتاريخه قد دانوا بالإسلام؟ هذا مالم يقل به أحد لا منًا ولا منهم[٢].

خامسًا: تفسيرهم لكلمة: قس.

وحتى لا يستشكل أحد ويقول لقد ذكر ابن القيم أن ورقة (قس)، فإننا نقول: إن قس لا تعني نصراني، وإنما تعنى: تتبع الشيء وتطلّبه، والقُسس: هم العقلاء، والساقة الحذاق[٣].

سادسًا: إن ورقة هناك مَنْ عدَّه مِن الصحابة.

فقد ذكره الطبري، وابن قانع، وابن السكن، وغيرُهم في الصحابة، وقال الحافظ العراقي: "ينبغي أن يقال: إن أول مَن آمن من الرجال ورقةُ بن نوفل، لحديث الصحيحين في بدء الوحي "[٤]. ومن الأدلة على ذلك:

١- أن ورقة بن نوفل قال للنبيﷺ: (إن يدركني يومُك أنصرك نصرًا مؤزرًا).

قال الحافظ ابن كثير: فإن مثل هذا الذي صدر عنه تصديق بما وجد، وإيمان بما حصل من الوحي ونية صالحة للمستقبل[٥].

---

(١) ورقة بن نوفل في بطنان الجنة ٧٠، ٧١؛ صادر عن رابطة العالم الإسلامي.

(٢) ورقة بن نوفل في بطنان الجنة ٧٣؛ صادر عن رابطة العالم الإسلامي.

(٣) معجم مقاييس اللغة (٥/ ٩)، لسان العرب (٦/ ١٧٤)، والقاموس المحيط (٧٢٩).

(٤) ينظر تدريب الراوي (٢/ ٢٢٩).

(٥) البداية والنهاية (٣/ ٩).

وقال ابن حجر: فهذا ظاهره أنه أقر بنبوته.

وقال أبو زرعة العراقي : قَالَ وَالِدِي -رَحِمَهُ اللهُ- فِي نُكَتِ ابْنِ الصَّلَاحِ: يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ: إنَّ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ مِنْ الرِّجَالِ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ لِهَذَا الْحَدِيثِ؛ فَإِنَّ فِيهِ أَنَّ الْوَحْيَ نَزَلَ فِي حَيَاةِ وَرَقَةَ، وَأَنَّهُ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ، وَذَكَرَهُ فِي الصَّحَابَةِ أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ مَنْدَهْ؛ وَقَالَ: اُخْتُلِفَ فِي إسْلَامِهِ قَالَ وَالِدِي: وَمَا تَقَدَّمَ مِنْ الْأَحَادِيثِ يَدُلُّ عَلَى إسْلَامِهِ[1].

٢- وعن الشَّعْبِيِّ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: (سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ وَرَقَةَ فَقَالَ: أَبْصَرْته فِي بُطْنَانِ الْجَنَّةِ عَلَيْهِ السُّنْدُسُ)[2].

٣-عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين[3].

٤- عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: «كان ورقة بن نوفل يمر ببلال وهو يعذب على الإسلام، وهو يقول: أحد أحد، فيقول ورقة: أحد أحد والله يا بلال[4].

---

(١) طرح التثريب٥/ ٢٢٠.

(٢) رواه أبو يعلى (٢٠٤٧)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٦٠٢)، قال الألباني: إسناده حسن.

(٣) أخرجه الحاكم (٤٢١١) وقال: صحيح على شرط الشيخين، وابن عساكر (٦٣/ ٢٤)، وأخرجه أيضًا: الديلمي (٧٢٩٧). قال البوصيري: رُوي من حديث عائشة مرفوعًا بسند صحيح؛ إتحاف الخيرة المهرة١/ ١٥، قال الألباني: (صحيح)؛ صحيح الجامع (٧٣٢٠).

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان ١٥٨٢، وأبو نعيم في حلية الأولياء١/ ١٤٨، وذُكر في سيرة ابن هشام١/ ٣١٧، ورواه الذهبي بإسناده عن هشام؛ (انظر سير أعلام النبلاء١/ ١٢٨ ترجمة: سعيد بن زيد)، وذكره السهيلي في الروض الأنف٢/ ٨٣.

وإن ترجيح الذهبي أقوى من ترجيح ابن حجر في مسألة وفاة ورقة قبل دعوة النبي ﷺ للإسلام، فلقد قال الحافظ ابن حجر: " وهذا مرسل جيد يدل على أن ورقة عاش إلى أن دعا النبي ﷺ إلى الإسلام حتى أسلم بلال "؛ الإصابة في تمييز الصحابة (٦/ ٦٠٧)، وقد رجحنا قول الذهبي؛ لأنه مرسل كما قال ابن حجر، وأنه معارض لروايات أخرى صحيحة قد ذكرناها في هذا البحث، فإنه يُرجح ما في الصحيح لأن ما في الصحيح أصح، ويقال: يكفي في إيمانه وتصديقه ما جاء في الصحيح كما تقدم عن الحافظين ابن كثير وابن حجر، وإن كان هناك محاولة للجمع بين هذه الروايات المتعارضة لكن لا يسلم هذا الجمع من انتقاضات. فلقد قال ابن حجر: " فلعل الراوي لم يحفظ لورقة ذكرًا بعد ذلك في أمر من الأمور فجعل هذه القصة انتهاء أمره بالنسبة إلى علمه لا إلى ما هو الواقع؛ فتح الباري (١/ ٢٧).

وهذا الأثر وإن كان يدل على إسلام ورقة ولكنه لا يصح سندًا ولا متنًا.

قال الذهبي: هذا مرسل، وورقة لو أدرك هذا لعد من الصحابة، وإنما مات الرجل في فترة الوحي بعد النبوة وقبل الرسالة كما في الصحيح[(١)].

٥- حديث عائشة ﵂: أَنَّ خَدِيجَةَ سَأَلَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ فَقَالَ: " قَدْ رَأَيْتُهُ فِي الْمَنَامِ فَرَأَيْتُ عَلَيْهِ ثِيَابُ بَيَاضٍ فَأَحْسِبُهُ لَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ ثِيَابَ بَيَاضٍ "[(٢)].

قوله: لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير؛ لأنه آمن بي وصدقني، وفي هذا الإسناد انقطاع.

وقد ألف أبو الحسن برهان الدين إبراهيم البقاعي الشافعي تأليفًا في إيمان ورقة بالنبي وصحبته له.

قال البغدادي: ولقد أجاد في جمعه وشدد الإنكار على من أنكر صحبته، وجمع فيه الأخبار التي نقلت عن ورقة ﵁ بالتصريح بإيمانه بالنبي ﷺ، وسروره بنبوته، والأخبار الشاهدة له بأنه في الجنة[(٣)].

ولعل في قصة ورقة والرسول ﷺ ما يدلل على أن ورقة كان مسلمًا، إذ قد سأل ورقة للرسول عن أمر الوحي: يابن أخي ماذا ترى؟ ، فأخبره الرسول ﷺ خبر ما رأي، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، ياليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك.

يعلق الدكتور المطرفي على هذا الحديث ودلالته بما يلي:

أولًا: إن ورقة بن نوفل قد عرف مما أخبره رسول الله ﷺ به أنه ﷺ، وهو الرسول الذي أخبره علماء أهل الكتاب في بحثه عن الملة الحنيفية هو وزيد بن عمرو بن نفيل أنه قد أظل زمانه، وأن ما نزّل الله عليه هو الناموس الذي نزّله الله على موسى ﵇.

---

(١) سير أعلام النبلاء١ / ١٢٨؛ ترجمة: سعيد بن زيد.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٦/ ٦٥، قال ابن كثير في السيرة النبوية١ / ٣٩٧: " وهذا إسناد حسن، لكن رواه الزهري وهشام عن عروة مرسلًا ".

(٣) خزانة الأدب (٣/ ٣٩١).

ثانيًا: ثم أيد ورقة بن نوفل تصديقه لرسول الله ﷺ وإيمانه به بما هو شاهد على ما استقر في قلبه، واطمأنت إليه نفسه، وذلك من وجهين:

الوجه الأول: أنه وجه الخطاب لرسول الله ﷺ بقوله له: ياليتني فيها جذعًا.

قال الزمخشري: أراد ليتني في نبوّته شابًا أقوى على نصرته، أو ليتني أدركتها في عصر الشبيبة، حتى كنت على الإسلام لا على النصرانية. (١)

الوجه الثاني: أن قوله له: ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك، ومعناه أنه تمنى لنفسه طول العمر، بعد تمنيه لها الشباب وقوته لا ليحقق لنفسه بذلك مصالح ذاتية، ولا ليتمتع بطول العمر وملذّات الحياة كما هي تمنيات الناس؛ بل ليسخر حياته وشبابه وقوته لنصر رسول الله ﷺ، ونشر الحق الذي جاء به من عند الله، وشد أزره، وتأييد دينه، وقمع أعدائه، ومنعهم من الوصول إليه بأي أذى حتى يتفرغ رسول الله ﷺ لنشر دعوته وتبليغ رسالته – دليل ظاهر على إيمانه برسول الله ﷺ، واتباعه له، وامتلاء قلبه بحبه، وعقله بالعمل على نصره، ومنع الأذى عنه بأظهر الوسائل، وأقواها أثرًا(٢).

لقد اعتنق ورقة الإسلام وتوفي بعد بعثة الرسول ﷺ بعام، وله الكثير من الأشعار يمتدح فيه المصطفي ﷺ وأصحابه.

المطلب الثالث: تعليم ورقة لمحمد ﷺ.

نص الشبهة:

ورقة كان له باع في تعليم محمد للتوراة والإنجيل لتكوين القرآن معًا.

الوجه الأول:

الروايات الصحيحة لم تذكر أن ورقة ألقى إلى الرسول عظة أو درسًا في العقائد أو التشريع، ولا أن الرسول ﷺ كان يتردد عليه:

---

(١) الفائق في غريب الحديث والأثر (١/ ٦٤).

(٢) المصدر السابق (١٠٦: ١٠٤).

قال الزرقاني: نقرر أنه لا دليل عندهم على هذا الذي يتوهمونه ويوهمون الناس به، بل الدليل قائم عليهم؛ فإن الروايات الصحيحة لم تذكر أن ورقة ألقى إلى الرسول عظة أو درَّس له درسًا في العقائد أو التشريع، ولا أن الرسول كان يتردد عليه كما يتوهمون أو يوهمون، فأنى لهم ما يقولون؟ وأي مُنصف يسمع كلمة ورقة هذه ولا يفهم منها أنه كان يتمنى أن يعيش حتى يكون تلميذًا لمحمد ﷺ وجنديًا مخلصًا في صفه؛ ينصره ويدافع عنه في وقت المحنة، ولكن القوم ركبوا رؤوسهم على رغم ذلك، وحاولوا قلب الأوضاع، وإيهام أن ورقة هو الأستاذ الخصوصي الذي استقى منه محمد ﷺ دينه وقرآنه، ألا ساء ما يحكمون[1].

الوجه الثاني: موقف ورقة يدل على اعتقاده ربانية الوحي إلى رسول الله ﷺ:

قال حسن ضياء الدين: وذلك لما يأتي:

أ ـ أن ورقة بن نوفل وقف من محمد ﷺ مستطلعًا مستفهمًا كشأن الراهب بحيرا تمامًا، فأين هو التعلم والتلقي؟

ب ـ زد على ذلك أنه أنبأ رسول الله بأن قومه المشركين سيكافئونه على الهداية بالأذى والعداء والاضطهاد الشديد، وأن حاله معهم كحال رسل الله قبله مع أقوامهم، ويمضي ورقة في إعلانه إلهية هذه الرسالة ويقينه بها، فيندفع على كبر سنه بالتطوع للتضحية مناصرة لدعوة الله وردًا لأعدائها الكائدين.

ج ـ إن ورقة نفسه لم يدِّعِ النبوة، ولم يطلب لنفسه مكانًة واعتبارًا في الدعوة الجديدة كدليل ومرشد لها، أرأيت لو كان ورقة مصدر معارف محمد ﷺ أكان يقف منه موقف التابع المصدق المؤيد المناصر؟![2]

الوجه الثالث: ورقة لم يكن لديه علم بكون محمد ﷺ هو خاتم النبيين؛ فقد استيأس من ظهوره وهو حي.

---

(١) مناهل العرفان ٢/ ٣١١.

(٢) وحي الله حقائقه وخصائصه (٩٣).

قال ابن إسحاق: وكانت خديجة قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وكان ابن عمها، وكان نصرانيًا قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس - ما ذكر لها غلامُها ميسرة من قول الراهب، وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه، فقال ورقة: لئن كان هذا حقًا يا خديجة إن محمدًا لنبي هذه الأمة. قال ورقة لخديجة: قد عرفت أنه كائن بهذه الأمة نبي يُنتظر هذا زمانه-أو كما قال- فجعل ورقة يستبطئ الأمر.

وله في ذلك أشعار منها ما رواه يونس بن بكير عن ابن إسحاق:

أتبكر أم أنت العشية رائح	وفي الصدر من إضمارك الحزن قادح
لفرقة قوم لا أحب فراقهم	كأنك عنهم بعد يومين نازح
وأخبار صدق خبرت عن محمد	يخبرها عنه إذا غاب ناصح
بأن ابن عبد الله أحمد مرسل	إلى كل من ضمت عليه الأباطح
وظني به أن سوف يبعث صادقًا	كما أرسل العبدان نوح وصالح[1]

قلت: فقوله: (فجعل ورقة يستبطئ الأمر) دليل على عدم علمه بأمر تقدير الله لنبيه محمد ﷺ بالنبوة قبل إخبار خديجة له.

الوجه الرابع: إسلام ورقة دليل على استعداده للاستسلام لأوامر الرسول، فكيف للمعلِّم أن يخضع لأوامر تلميذه؟!

قال المناوي: ذهب جمع من أهل العلم أن ورقة أسلم عند ابتداء الوحي[2].

فلعلم ورقة أن محمدًا نبي كان عليه أن يستسلم لأوامره، فمن قال: إن ورقة هو المعلم الأول لمحمد كان من المفترض أن لا يرضى إلا أن يكون على الأقل استشاريَّ النبي لا مجرد تابع، فأنتم تقولون: إنه هو الذي ألَّف لمحمد القرآن وهو الذي علمه، فلازم قولكم أن ورقة ينبغي أن لا يرضى أن يكون مثله مثل باقي الأتباع لمحمد، بل كان عليه أن يشترط على محمد شروطًا مثل الشروط الجزائية التي تُعقد بين شركة وبين مندوب مبيعات هذه

(١) عيون الأثر (١/ ٧٤)؛ ذكر سفره ﷺ إلى الشام مرة ثانية وتزويجه خديجة، خزانة الأدب١/ ٤٣٧).

(٢) فيض القدير٦/ ٤٠١.

الشركة، فأنتم قلتم: إن ورقة أنتج الإسلام ومحمد وزَّعه ونشره بين العرب، فمِن صالح الشركة أن تضع اسمها على المنتج وأن تنسب هذا المنتج إلى نفسها.

فلماذا ورقة لم يكتب اسمه على المصحف الذي ألَّفه لمحمد؟ ولا نقول: إن عليه أن يدعي أن المصحف هو الذي ألَّفه حتى لا تنكشف الخطة، بل نقول: كان عليه أن يكتب على المصحف: نسخة ورقة بن نوفل، كما هو مكتوب على كتبكم المقدسة: نسخة الملك جيمس، أو نسخة الفانديك، أو النسخة الياسوعية، وغير ذلك؛ كمسألة تشريفية له.

فهل هذا يدل على أن ورقة متفانٍ في الإخلاص حتى إنه لا يريد ذكر اسمه، فعلى الأقل يذكر اسمه حتى يترحم عليه المسلمون!

ونرى أن محمدًا ﷺ يُحث المسلمين على ذكر اسمه هو ففي القرآن: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٦).

وفي الأحاديث: يَقُولُ محمدﷺ: "إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا الله لِي الْوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إِلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ الله وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ"[1].

فإذا قلتم: نعم، إن ورقة متفانٍ في الإخلاص لذلك لم يذكر اسمه على المصحف، فنقول لكم: إذن هو لم يحسن اختيار محمد، ولم يحسن تعليمه وتربيته؛ لأن محمدًا لم يكن أبدًا ليعترف أن كل خير هو فيه بسبب ورقة، بالرغم من أنه اعترف لغيره بالفضل والشكر. مَن أكثر مرافقة للنبي ورقة أم أبي بكر؟

بالطبع أبو بكر، فلماذا ادعيتم أن ورقة هو الذي علَّم محمدًا؟! مع أن أبا بكر هو الأكثر صحبة لمحمد وذلك قبل بعثته حتى وفاته، فلماذا لم ترد الشبهة باحتمال ذلك؟ هل هذا لأن ورقة نصرانيٌّ فتريدون أن تنسبوا الإنجازات التي حققها الإسلام للدين النصراني، أم لأن ورقة كبيرٌ في السن، والرجل قد يُصاب بالخرف عند كبره؟!

---

(١) مسلم (٨٧٥).

الوجه الخامس:

إن محمدًا ﷺ حتى ولو أنه قابل ورقة أوغيره فمع ذلك لم يتخذهم قدوة له يأتمر بأمرهم وينتهي بنهيهم، ولم يكن هو كالتلميذ وهم كالمعلِّمين؛ قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ (الأنعام: ٩٠). فهذه الآية أمرٌ من الله لنبيه بأن يهتدي بهُدى الأنبياء من قبله، فقبل هذه الآية ذكر الله عددًا منهم: كنوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وغيرهم، فالسؤال كيف يقتدي بهم وقد ماتوا؟!

والإجابة: وذلك بأن يتتبع أحوالهم وأخبارهم في القرآن، فقد لا يجد المرء أفضل من الاقتداء بسيرة الأموات؛ فإنه لا يُؤمَن على حي فتنة، فكما تزعمون أن ورقة له تأثير عظيم في حياة محمد ﷺ فكان يقتدي به ويأتمر لأمره، فلماذا لم يُذكر ورقة ضمن الذين أُمر محمد بالاقتداء بهم فهذا من باب رد الفضل لأهل الفضل؟!.

فإن قلتم: إن ورقة كان يُخفي شخصيته، قلنا: فهذا دليل على أن ورقة يخطط لأمورٍ يخاف المجتمع منها سواءً كان حكامًا أو محكومين، والعجيب أنكم تدَّعون أن ورقة كانت له كلمة مسموعة في مكة وغيرها، وتدَّعون أن مجتمع الجزيرة العربية كانت النصرانية منتشرة في معظم أنحائه، فلماذا يخطط بهذه السرية؟!.

قال ابن عاشور: لم يسبق للنّبي ﷺ اقتداء بأحد ممّن تحنّفوا في الجاهليّة أو تنصَّروا أو تهوّدوا، فقد لقي النّبي ﷺ زيدَ بن عَمْرو بن نُفَيْلٍ قبل النّبوءة في بَلْدَح، وعَرض عليه أن يأكل معه من سُفْرته، فقال زيد: (إنّي لا آكل ممّا تذبحون على أنصابكم) توهّمًا منه أنّ النبي يدين بدين الجاهليّة، وألهم الله محمّدًا السكوت عن إجابته إلهامًا لحفظ السِرّ المدَّخر، فلم يقل له: إنّي لا أذبح على نُصُب. ولقي ورقةَ بن نوفل غير مرّة بمكّة، ولَقِي بحيرا الرّاهبَ، ولم يقتد بأحد من أولئك، وبقي على الفطرة إلى أن جاءته الرّسالة[1].

الوجه السادس: أين باقي تلاميذ ورقة؟

---

(١) التحرير والتنوير ٥/ ٢٣.

السؤال الأول الذي نوجِّهه لكل من يتلفظ بهذه الشبهات ألا وهو: لماذا اختار ورقة محمدًا لأمر النبوة مع أن محمدًا كان أميًا[1]، وكان فقيرًا، ولم يكن رئيس قبيلة؟.

فكان من الأحرى لورقة أن يختاره غنيًا حتى لا يتحجج كفار مكة؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٣٢ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ۝٣٣﴾ (الزخرف٣١: ٣٣).

الوجه السابع: لم يرد ثناء من النبي ﷺ على ورقة لأنه علمه.

بالرغم من أنه دافع عن عرضه، وذكر كرامته في الآخرة؛ عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: "لا تسبوا ورقة بن نوفل فإني قد رأيت له جنة أو جنتين"[2].

ويوضح قول النبي ﷺ ذلك ما في زيادات المغازي ليونس بن بكير؛ أخرجه عن هشام بن عروة عن أبيه قال: سابَّ أخ لورقة رجلًا، فتناول الرجل ورقة فسبه فبلغ النبي ﷺ، فقال: هل علمت أني رأيت لورقة جنة أو جنتين، فنهى عن سبه[3].

فكان من المتوقع أن يقول: لا تسبوا ورقة بن نوفل فإن له فضلًا علي؛ علمني بعد جهلي، فإن النبي عندما كان هناك شيء بين أبي بكر وعمر، فَسَأَله أبو بكر أَنْ يَغْفِرَ له فَأَبَى عمر، قال: فَقَالَ النبي ﷺ: " إِنَّ الله بعثني إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وواساني بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لي صاحبي"[4].

المطلب الرابع: عدد اللقاءات بين ورقة ومحمد ﷺ.

شبهة كون محمد ﷺ كان ملازمًا تمامًا لورقة؛ لأنه تلميذ يتلقى العلم من أستاذه، وقد

---

(١) انظر بحث أمية الرسول.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) الإصابة٦/ ٦٠٩.

(٤) رواه البخاري (٣٤٦١).

عاش محمد في جواره خمسة عشر عامًا قبل مبعثه؛ ألا تكفي هذه المدة لنابغة العرب محمد ابن عبد الله لكي يأخذ عنه شيئًا من علوم التوراة والإنجيل.

وللرد على الشبهة في الوجوه التالية:

الوجه الأول: حصر اللقاءات التي تمت بين ورقة والنبي محمدﷺ.

لنحدد عدد اللقاءات التي تمت روايتها في كتب الحديث والسيرة، وهل فيها ثبت أن محمدًا ﷺ كان في هذه اللقاءات يقوم ورقة بتحفيظ محمد ﷺ القرآن كما كان يفعل جبريل.

أولًا: ورقة وطفولة النبيﷺ.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَزَعَمَ النّاسُ فِيمَا يَتَحَدّثُونَ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنّ أُمّهُ السّعْدِيّةَ لَمّا قَدِمَتْ بِهِ مَكّةَ أَضَلّهَا فِي النّاسِ وَهِيَ مُقْبِلَةٌ بِهِ نَحْوَ أَهْلِهِ، فَالْتَمَسَتْهُ فَلَمْ تَجِدْهُ فَأَتَتْ عَبْدَ الْمُطّلِبِ، فَقَالَتْ لَهُ: إنّي قَدْ قَدِمْت بِمُحَمّدٍ هَذِهِ اللّيْلَةَ فَلَمّا كُنْت بِأَعْلَى مَكّةَ أَضَلّنِي، فَوَاللهِ مَا أَدْرِي أَيْنَ هُوَ؟ فَقَامَ عَبْدُ الْمُطّلِبِ عِنْدَ الْكَعْبَةِ يَدْعُو اللهَ أَنْ يَرُدّهُ، فَيَزْعُمُونَ أَنّهُ وَجَدَهُ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدٍ وَرَجُلٌ آخَرُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَأَتَيَا بِهِ عَبْدَ الْمُطّلِبِ، فَقَالَا لَهُ: هَذَا ابْنُك؟ وَجَدْنَاهُ بِأَعْلَى مَكّةَ، فَأَخَذَهُ عَبْدُ الْمُطّلِبِ، فَجَعَلَهُ عَلَى عُنُقِهِ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ يُعَوّذُهُ وَيَدْعُو لَهُ ثُمّ أَرْسَلَ بِهِ إلَى أُمّهِ آمِنَةَ[1].

وروى البيهقي عن عبد الله بن عباس عن حليمة بنت أبي ذؤيب أنها قالت: فخفت أن يبلغ الخبر عبد المطلب قبلي، فقصدت قصده، فلما نظر إليَّ قال: أسعد نزل بك أم نحوس؟ قالت: قلت: بل نحس الأكبر، ففهمها مني، وقال: لعل ابنك قد ضل منك؟ قالت: قلت: نعم، بعض قريش اغتاله فقتله، فسل عبد المطلب سيفه وغضب، وكان إذا غضب لم يثبت له أحد من شدة غضبه، فنادى بأعلى صوته: يا يسيل؛ وكانت دعوتهم في الجاهلية. قال: فأجابته قريش بأجمعها، فقالت: ما قصتك يا أبا الحارث؟ فقال: فُقد ابني محمد، فقالت قريش: اركب نركب معك، فإن سبقت خيلًا سبقنا معك، وإن خضت بحرًا خضنا معك. قال: فركب وركبت معه قريش، فأخذ على أعلى مكة، وانحدر على أسفلها، فلما أن لم يرَ شيئًا ترك الناس،

(١) الروض الأنف١/ ٢٩٤، سيرة ابن هشام١/ ١٦٧، البداية والنهاية٢/ ٣٣٨.

واتشح بثوب، وارتدى بآخر، وأقبل إلى البيت الحرام فطاف أسبوعًا، ثم أنشأ يقول:

يا رب إن محمدًا لم يوجد فجميع قومي كلهم متردد

فسمعنا مناديًا ينادي من جو الهواء: معاشر القوم، لا تصيحوا؛ فإن لمحمد ربًا لا يخذله ولا يضيعه، فقال عبد المطلب: يا أيها الهاتف، من لنا به؟ قالوا: بوادي تهامة عند شجرة اليمنى. فأقبل عبد المطلب، فلما صار في بعض الطريق تلقاه ورقة بن نوفل، فصارا جميعًا يسيران، فبينما هم كذلك إذا النبي ﷺ قائم تحت شجرة يجذب أغصانها، ويعبث بالورق، فقال عبد المطلب: من أنت يا غلام؟ فقال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، قال عبد المطلب: فدتك نفسي، وأنا جدك عبد المطلب، ثم احتمله، وعانقه، ولثمه، وضمه إلى صدره، وجعل يبكي، ثم حمله على قربوس* سرجه، ورده إلى مكة، فاطمأنت قريش، فلما اطمأن الناس نحر عبد المطلب عشرين جزورًا، وذبح الشاء والبقر، وجعل طعامًا، وأطعم أهل مكة.

قالت حليمة: ثم جهزني عبد المطلب بأحسن الجهاز وصرفني، فانصرفت إلى منزلي وأنا بكل خير دنيا؛ لا أحسن وصف كنه خيري، وصار محمد عند جده.

قالت حليمة: وحدثت عبد المطلب بحديثه كله، فضمه إلى صدره وبكى، وقال: يا حليمة، إن لابني شأنًا، وددت أني أدرك ذلك الزمان(١).

توجيه هذه الروايات:

على فرض التسليم بصحة الرواية فأين التعليم والتلقين وورقة لم يكن معلم كتاب يجمع الصبيان عنده كما يفعل المعلمون، غايته أنه وجده في الطريق فسلمه لجده عبد المطلب، ثم إن ورقة لم يدخل في النصرانية حينذاك، وإنما كان مشركًا من جملة مشركي مكة، فحتى لو بقي عنده أسبوعًا فما عند ورقة من علم يؤديه لغيره.

---

* القَرَبُوس حِنْوُ السَّرْج، والقُرْبُوس لغة فيه؛ لسان العرب لابن منظور (قربس).

(١) دلائل النبوة للبيهقي٤٦، ومن طريقه أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣/ ٤٧٤، ٤٧٩؛ وقال: هذا حديث غريب جدًا وفيه ألفاظ ركيكة لا تشبه الصواب، ويعقوب بن جعفر غير مشهور في الرواية، والمحفوظ من حديث حليمة ما تقدم قبل من رواية عبد الله بن جعفر.

قال حسني الأطير: لم ينكر أحد من عرب مكة معرفة ورقة وآل ورقة بمحمد وآل محمد، والجميع مُجمِعون على وجود قرابة بعيدة تجمع بينهم، حيث يلتقون في الجد الرابع لمحمد ﷺ(١).

معرفة ورقة لمحمد منذ طفولته:

قال حسني الأطير: العرب أمة قبلية تهتم بتعليم أطفالها أنسابَهم وأصولَهم منذ الصغر، فما يدَّعونه-أي: مِنْ أن محمدًا كان يعرف ورقة في صغره- لا يقدم ولا يؤخر(٢).

* ورقة كان مشركًا في هذه الفترة كما قلنا، فهو يُعتبر فردًا عاديًا في قومه، فقد راح يبحث عن محمد عندما فُقد، فلم يكن له صومعة يعتكف فيها عن باقي الناس، بل كان مشاركًا معهم في جميع تقاليدهم من تقديم القرابين للأصنام وغير ذلك حتى هداه الله للحق.

* أين كان ورقة من طفولة محمد؟ فلو كان حقًا أراد تكوين شخصية محمد لكان عليه أن يكفله كما كفل زكريا مريمَ، بل تركه يتربى في الصحراء مع أهل البادية، ثم تركه يُضَيِّع وقته في البحث عن العمل من رعي للغنم وتجارة، فكان ينبغي على ورقة أن يحتفظ بمحمد دائمًا أمام عينه لعدة أسباب منها: خوفُه عليه من اليهود الذين يعلمون من كتبهم مواصفات محمد؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ (البقرة: ١٤٦).

* لو كان ورقة هو الذي لقيه بمفرده لقيل ربما كان يُعلِّمه النصرانية في هذه الفترة الوجيزة إلى أن يأتي إليه من يبحث عنه، ففي الرواية السابقة: (وَجَدَهُ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدٍ، وَرَجُلٌ آخَرُ مِنْ قُرَيْشٍ).

* ورقة كان من ضمن المستجيبين لأوامر عبد المطلب للبحث عن محمد، فكان من المفترض أن ورقة هو الذي يُعطي الأوامر لقريش؛ لأنه هو صاحب الكهنوت بمكة وصاحب الكلمة المسموعة -كما يزعمون-، ومن المفترض أن ورقة يخاف على محمد أكثر من خوف عبد المطلب عليه، لكنه لم يوجد من ورقة أي مسارعة وانزعاج إلا بعد ما

(١) نقض الاشتباه بتعلم الرسول من ورقة بن نوفل (٢٥).

(٢) نقض الاشتباه بتعلم الرسول من ورقة بن نوفل (٢٦).

ذَكرت الرواية السابقة من أمر عبد المطلب.

ثانيًا: ورقة والنبي ﷺ في شبابه:

عن يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق بن يسار قال: « وكانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد؛ وكان ابن عمها؛ وكان نصرانيًا؛ قد تبع أهل الكتاب؛ وعلم من علم الناس - ما ذكر لها غلامُها ميسرة من قول الراهب، وما كان رأى منه إذ كان الملكان يظلانه. فقال ورقة: لئن كان هذا حقًا يا خديجة إن محمدًا لنبي هذه الأمة، قد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر هذا زمانه. أو كما قال. فجعل ورقة يستبطئ الأمر ويقول: حتى متى؟ فكان فيما يذكرون يقول أشعارًا يستبطئ فيها خبر خديجة ويستريث ما ذكرت خديجة، فقال ورقة بن نوفل:

أتبكر أم أنت العشية رائح ... وفي الصدر من إضمارك الحزن فادح

لفرقة قوم لا أحب فراقهم ... كأنك عنهم بعد يومين نازح

وأخبار صدق خبرت عن محمد ... يخبرهما عنه إذا غاب ناصح

بفتاك الذي وجهت يا خير حرة ... بغور وبالنجدين حيث الصحاصح

إلى سوق بصرى والركاب التي غدت ... وهن من الأحمال قعص دوالح

يخبرنا عن كل حبر بعلمه ... وللحق أبواب لهن مفاتح

كأن ابن عبد الله أحمد مرسل ... إلى كل من ضمت عليه الأباطح

وظني به أن سوف يبعث صادقًا ... كما أرسل العبدان هود وصالح

وموسى وإبراهيم حتى يرى له ... بها ومنشور من الذكر واضح

ويتبعه حيا لؤي جماعة ... شبابهم والأشيبون الجحاجح

فإن أبقَ حتى يدرك الناس دهره ... فإني به مستبشر الود فارح

وإلا فإني يا خديجة فاعلمي ... عن أرضك في الأرض العريضة سائح[1]

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي١/ ٤٩١، عيون الأثر ١/ ٧٤، خزانة الأدب١/ ٤٣٧، سبل الهدى والرشاد ٢/ ١٦٠، البداية والنهاية ٢/ ٢٩٧.

بيان حال الرواية:

١- لا يشترط أن خديجة أخبرت ورقة بما حدث لمحمد مما تحدَّث به ميسرة أنه موقف مغاير لما حدثته بأمر الناموس، فهناك تشابه بين الروايتين مثل قول ابن إسحاق: (وكان ابن عمها، وكان نصرانيا، قد تبع الكتب)، وقوله:

فإن أبق حتى يدرك الناس دهره فإني به مستبشر الود فارح
وإلا فإني يا خديجة فاعلمي عن أرضك في الأرض العريضة سائح

فإخبار خديجة ورقة بما حدث من أمر الملكين اللذين يظلانه، وأمر الناموس؛ كان كل هذا في موقف واحد.

٢- فعندما أخبر ميسرةُ خديجة أنه رأي ملكين يظلان محمدًا، وقال لها ما قاله الراهب، احتفظت خديجة هذا الخبر في ذاكرتها إلى أن تزوجت من محمد، فعندما نزل عليه الناموس أيضًا وخافت على زوجها أخبرت ورقة بما حدث لمحمد في الماضي والحاضر لتعرف هل سيكون عليه خطورة في المستقبل؟

فإننا أثبتنا أن ورقة ما زال مشركًا قبل زواج محمد ﷺ من خديجة، وهذه الرواية يقول فيها: (قد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر هذا زمانه) فذلك دليل على أن ورقة قال ذلك الكلام بعد قدومه من الشام.

وقال أيضًا:

لَجِجْت وَكُنْت فِي الذِّكْرَى لَجُوجًا لِهَمّ طَالَمَا بَعَثَ النّشِيجَا
وَوَصْفٍ مِنْ خَدِيجَةَ بَعْدَ وَصْفٍ فَقَدْ طَالَ انْتِظَارِي يَا خَدِيجَا
بِبَطْنِ الْمَكّتَيْنِ عَلَى رَجَائِي حَدِيثَك أَنْ أَرَى مِنْهُ خُرُوجَا
بِمَا خَبّرْتنَا مِنْ قَوْلِ قَسّ مِنْ الرّهْبَانِ أَكْرَهُ أَنْ يَعُوجَا
بِأَنّ مُحَمّدًا سَيَسُودُ فِينَا وَيَخْصِمُ مَنْ يَكُونُ لَهُ حَجِيجًا
وَيُظْهِرُ فِي الْبِلَادِ ضِيَاءَ نُورٍ يُقِيمُ بِهِ الْبَرِيّةَ أَنْ تَمُوجَا
فَيَلْقَى مَنْ يُحَارِبُهُ خَسَارًا وَيَلْقَى مَنْ يُسَالِمُهُ فُلُوجَا

فَيَا لَيْتِي إِذَا مَا كَانَ ذَاكُمْ شَهِدْت فَكُنْت أَوَّلَهُمْ وُلُوجَا
وُلُوجًا فِي الّذِي كَرِهَتْ قُرَيْشٌ وَلَوْ عَجّتْ بِمَكّتِهَا عَجِيجًا
أُرَجّيَ بِالّذِي كَرِهُوا جَمِيعًا إلَى ذِي الْعَرْشِ إنْ سَفَلُوا عُرُوجَا
وَهَلْ أَمْرُ السّفَالَةِ غَيْرُ كُفْرٍ بِمَنْ يَخْتَارُ مِنْ سُمْكِ الْبُرُوجَا
فَإِنْ يَبْقَوْا وَأَبْقَ تَكُنْ أُمُورٌ يَضِجّ الْكَافِرُونَ لَهَا ضَجِيجَا
وَإِنْ أَهْلِكْ فَكُلّ فَتًى سَيَلْقَى مِنْ الْأَقْدَارِ مَتْلَفَةً حَرُوجَا[١]

قال ابن كثير: فشعره يدل على إضماره الإيمان وعقده عليه وتأكده عنده[٢].

ثالثا: لقاء ورقة بمحمد ﷺ عند نزول الوحي:

الوجه الأول: جمع الروايات التي تشير إلى لقاء ورقة بمحمد ﷺ عند نزول الناموس عليه.

تُحدثنا كتب الحديث الصحاح عن لقاء تم بين محمد ﷺ وبين ورقة، بعد أن بلغ من الكبر عتيًا فعمي، وذلك حين تنزل على محمد ملكُ الوحي في غار حراء، وقد حملت محمدًا زوجُه خديجةُ على لقيا ورقة ليستفسر عن حقيقة هذا الذي دخل عليه الغار بتلك الطريقة المهيبة، (فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ خَبَرَ مَا رَأي، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ الله عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟! قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ)[٣].

ولا أحب الاقتصار على رواية أصح الكتب بعد القرآن وهو صحيح الإمام البخاري، بل أسرد من المصادر التي يحتج بها المستشرقون عادة، ومنهم (واط) وهي كتب التاريخ،

---

(١) الروض الأنف١/ ٣٢٩، سيرة ابن هشام١/ ١٩١، سبل الهدى والرشاد٢/ ١٦٠.
(٢) السيرة النبوية ١/ ٣٩٩.
(٣) البخاري (٣).

وفي مقدمتها تاريخ الطبري.

ذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في رواية في تاريخه: أن خديجة طمأنت زوجها. ثم قال: فأتت خديجة ورقة بن نوفل فأخبرته الخبر، فقال: لئن كنت صادقة إن زوجك لنبي، وليلقين من أمته شدة، ولئن أدركته لأؤمنن به[١].

وروى الطبري في رواية أخرى طويلة: أن خديجة بعد أن طمأنت زوجها (انطلقت إلى ورقة ابن نوفل بن أسد؛ وهو ابن عمها، وكان ورقة قد تنصر، وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأي وسمع، فقال ورقة: قدوس قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر -يعني بالناموس: جبريل عليه السلام الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت، فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته بقول ورقة فسهَّل ذلك عليه بعض ما هو فيه من الهم، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف صنع كما كان يصنع وبدأ بالكعبة فطاف بها، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالبيت فقال: يابن أخي، أخبرني بما رأيت أو سمعت، فأخبره رسول الله ﷺ فقال له ورقة: والذي نفسي بيده، إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء إلى موسى، ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه، ولئن أنا أدركت ذلك لأنصرن الله نصرًا يعلمه، ثم أدنى رأسه فقبل يأفوخه*، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله، وقد زاده ذلك من قول ورقة ثباتًا، وخفف عنه بعض ما كان فيه من الهم[٢].

ونصت رواية ابن سعد أن خديجة ذهبت لوحدها إلى ورقة بن نوفل، فأعلن إيمانه ويقينه بأن هذا الحدث هو وحي الله، وتعهد بنصرة الرسول وتأييده، فلم يترك بذلك مجالًا لتوهم الأخذ عنه، وليس امرؤ لديه علم بدين الله تعالى وهو على حافة القبر يستسيغ أن

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٥٦٢).

* اليأْفوخ حيث التقى عظم مقدَّم الرأْس وعظم مؤخره؛ لسان العرب لابن منظور (أفخ). واليَأفوُخُ: مَقَدَّمُ الرَّأس؛ المحيط في اللغة للصاحب بن عباد (أفخ).

(٢) تاريخ الطبري ١/ ٥٣٣.

يكذب على الله في أقدس الأمور؛ في وحي الله ورسالته. جاء في رواية ابن سعد: ثم أتت خديجة ورقة بن نوفل فذكرت له ذلك فقال: إن يك صادقًا فهذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن يبعث وأنا حي فسأعزره وأنصره وأؤمن به[١].

الوجه الثاني: الجمع بين روايات كتب الحديث والسيرة:

قال حسن ضياء الدين: أما اللقاء الذي تم بين سيدنا محمد ﷺ وبين ورقة فإنه تم في زمن متأخر بعد مجيء ملك الوحي المرة الأولى، واستثاره عجب الرسول واستفساره؛ هذا أمر أجمعت عليه جميع المصادر، لكنها اختلفت في زيارة خديجة لورقة، هل كانت لوحدها أم بصحبة محمدﷺ؟ وأرى أن الجمع بين روايات السيرة ورواية الإمام البخاري يفيد أن خديجة ذهبت أول مرة وحدها لتسأل ورقة تأويل هذا الحدث، ثم ذهبت أيضًا مع محمد ﷺ إلى ورقة وحضرت هذا اللقاء وشهدته، وإذا كانت رواية ابن سعد قد أوردت زيارة خديجة لورقة منفردة، فإن رواية ابن إسحاق لم تنفِ هذا الحضور ولم تثبته، بينما جمعت رواية الإمام الطبري بين الزيارتين في سياق واحد، فكانت أوفي تعبيرًا عن الحادثة، ولا يغيب عن بالك أن خديجة هي المرأة الشهيرة بفطنتها ورزانتها ورجاحة عقلها[٢].

قال عبد المحسن المطيري: لم تذكر كتب السيرة في رواياتها الصحيحة أن النبي ﷺ التقى بورقة إلا تلك المرة، فكيف يزعم أنه لازمه خمس عشرة سنة؟ فيكفي في الرد على هذا الكلام أنها دعوى لا دليل عليها[٣].

الوجه الثالث:

النصوص تنفي أي صلة سابقة بين ورقة ومحمدﷺ، فلو افترضنا وجود لقاءات بينهما فلا يشترط وجود تأثيرات لأحدهما على الآخر.

---

(١) طبقات ابن سعد١/ ١٩٥.

(٢) وحي الله حقائقه وخصائصه صـ ٨٨.

(٣) الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين١/ ٦٤.

قال حسن ضياء الدين: إن اللقاء بين محمد ﷺ وبين ورقة بن نوفل قد تم في زمن متأخر بعد مجيء الوحي المرة الأولى إلى رسول الله ﷺ، وقد دلت النصوص على عدم وجود صلة سابقة بين محمد ﷺ وبين ورقة بن نوفل، حتى إن فكرة الاتصال بورقة لم تطرأ على بال الرسول الكريم سعيًا لإزالة الإشكال عن نفسه، بل كانت الفكرة من اقتراح خديجة، فلو كانت هناك صلة سابقة كما زعم بغير دليل (واط) المستشرق لتبادرت إلى ذهن الرسول سريعًا فكرة استفتاء ورقة، أما وإن الفكرة وليدة خاطر خديجة؛ فأمر طبيعي أن تعلم المرأة من قريباتها وأقربائها أحوال ابن عمها واتجاهه الديني الذي خالف به أهل الجاهلية، ولكن زعمه أن خديجة وقعت تحت تأثير ورقة فزعم مجرد لا دليل عليه إطلاقًا؛ بل الدليل قائم على عكسه تمامًا.

شبهة: موقف قريش من ورقة ومحمد ﷺ.

مساندة قريش بقيادة أبي طالب لورقة لتنفيذ فكرته.

الرد على الشبهة:

الوجه الأول: موقف قريش يثبت عزلة محمد ﷺ عن ورقة وعدم تأثره به.

قال حسن ضياء الدين: إن قريشًا لم تتوان لحظة في تصيد أدنى مطعن محتمل وتوجيهه إلى رسول الله ﷺ، فقد بالغت في ذلك وأفرطت حتى زعمت أنه مجنون، وزعمت أنه يُعَلَّمُ من فتىً أعجمي رومي رقيق لديهم، فلو كان هناك أقل قدر من التواصل بين محمد ﷺ وورقة لافترضته قريش ولبنت مزاعمها عليه، ومثل هذه الصلات الدينية لا تخفى في مجتمع وثني قديم ضيق مكشوف بعضه بعضه تجاه بعض، لكن قريشًا مع إفراطها في العداء والبهتان لما لم تورد شيئًا من هذا القبيل دل ذلك على عدمه أصلًا، وعلى أن القول به باطل مفضوح لا طائل وراءه، بل لو كان شيءٌ من ذلك محتملًا لمالت قريش على ورقة ليعلم شبابها فيناهضوا بذلك دعوة محمد ﷺ[1].

---

(١) وحي الله حقائقه وخصائصه (٩٣).

فأين قريش من بحيرا وورقة؟ ولماذا لم يحضروهما ليكونا دليلين بين أيديهم على بشرية مصدر القرآن الكريم؟!

الوجه الثاني: افتراض تعلم النبي ﷺ من نصارى الشام ويهود المدينة وغيرهم لا يتفق مع الحقيقة التاريخية.

فالحقيقة التاريخية التي تحدثنا عن الحيرة والتردد في موقف المشركين من رسول الله ﷺ في محاولتهم لتفسير ظاهرة الرسالة؛ لأن مثل هذه العلاقة مع النصارى أو اليهود لا يمكن التستر عليها أمام أعداء الدعوة من المشركين وغيرهم الذين عاصروه وعرفوا أخباره وخبروا حياته العامة بما فيها من سفرات ورحلات[1].

الوجه الثالث: لماذا لم يُعذِب كفار قريش ورقة على اعتباره أنه هو الذي ألَّف الدين لمحمد؟!

فكما تساءلنا عن أنه لو كان ورقة كاهنًا مسموعة كلمته في مكة؛ فلماذا عذَّب أهل مكة محمدًا وأتباعه الذين تدعون أنهم في الأصل أتباع ورقة؟

فكذلك نتساءل لماذا كان محمدٌ وأتباعه يتعرضون للأذى والتعذيب من كبيرهم إلى صغيرهم ومن ذكرهم إلى أنثاهم؟! فهذا ياسر كبير السن هو وزوجته يُعذَّبان حتى الموت، فلو كان ورقة كبير السن فإن كفار قريش لن يرحموه خصوصًا بعد زعمكم أنه هو مُنشئ الإسلام؟ نعم، إن محمدًا كان عمه وغيره ممن يحمونه يمنعونه من بعض الأذى كأبي بكر، ولكننا لا ننسى ما حدث له في الطائف وفي مواقف أخرى كثيرة.

فهل ورقة كان مستترًا لا يلوح بنفسه خوفًا من الموت؟ ثم هو يودي بمحمد وأتباعه إلى الهلاك؟ فالجواب: لا؛ لأنه إذا كان كذلك فلا بد أن قريشًا علمت بأن ورقة يؤيد الإسلام ولم تتعرض له؛ إما لأنه مات قبل صدوع محمد بالدعوة، وإما لأنه مجرد تابع لمحمد، وليس له كبير أثر في الدعوة لكبر سنه الذي ألزمه الفراش كثيرًا، فكانت قولته الشهيرة: يا ليتني فيها جذعًا إذ يخرجك قومك. أي: يا ليْتَني كنْتُ شابًّا عند ذلك.

الوجه الرابع: إن قريشًا أحرص من المنصِّرين على إثبات بشرية مصدر الوحي.

---

(١) المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن لمحمد باقر الحكيم (٤٣).

ولكنهم ـ وهم الأكثر دراية بحاله وتحركاته ـ لم يرصدوا أنه ذهب إلى معلم كتابي واحد، ولم يفضحه رفاقه في السفر بأنه التقى بأي حبر أو كاهن، ومن غير الممكن أن يتردد سيدنا محمد إلى بيت معلم يعلمه دون أن يلاحظ ذلك أحد، فمكة المكرمة مدينة صغيرة المساحة؛ أحياؤها بل بيوتها معروفة لكل واحد من أهلها.

شبهة :القرآن وورقة والنصارى ونسبة تأليفهم له .

قالوا: ورقة ألَّف القرآن، ونسبه هو ومحمد إلى الله.

والرد على الشبهة كما يلي:

الوجه الأول: إثبات أن القرآن من عند الله.

لخص ابن كثير هذه المسألة في بداية تفسيره تحت هذه الآيات من سورة البقرة، فقال:

قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) ﴾.

ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو، فقال مخاطبًا للكافرين: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ يعني: محمدًا ﷺ ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾ من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله، فعارِضوه بمثل ما جاء به، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله، فإنكم لا تستطيعون ذلك.

قال ابن عباس: ﴿ شُهَدَاءَكُم ﴾ أعوانكم، أي: قومًا آخرين يساعدونكم على ذلك.

وقال السدي عن أبي مالك: شركاءكم أي: استعينوا بآلهتكم في ذلك يمدونكم وينصرونكم.

وقال مجاهد: ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم ﴾ قال: ناس يشهدون به يعني: حكام الفصحاء.

وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن، فقال في سورة القصص: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (القصص: ٤٩)،

وقال أيضًا: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨)، وقال في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (هود: ١٣)، وقال في سورة يونس: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (يونس: ٣٧، ٣٨) وكل هذه الآيات مكية.

ثم تحداهم الله تعالى بذلك أيضًا في المدينة فقال في هذه الآية: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ أي: (في) شك ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعني: محمدًا ﷺ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ يعني: من مثل (هذا) القرآن؛ قاله مجاهد وقتادة، واختاره ابن جرير بدليل قوله: ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ ﴾ (هود: ١٣)، وقوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ (الإسراء: ٨٨)، وقال بعضهم: من مثل محمد ﷺ يعني: من رجل أمي مثله. والصحيح الأول؛ لأن التحدي عام لهم كلهم، مع أنهم أفصح الأمم، وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة، مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾"ولن": لنفي التأبيد أي: ولن تفعلوا ذلك أبدًا، وهذه -أيضًا-معجزة أخرى، وهي أنه أخبر أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبدًا وكذلك وقع الأمر؛ لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وَأَنَّى يَتَأَتَّى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شيء؟ وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين؟!

ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونًا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى؛ قال الله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ (هود: ١)، فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يجارى ولا يداني، فقد أخبر عن مغيبات ماضية وآتية كانت ووقعت

طبق ما أخبر سواءً بسواءٍ، وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر؛ كما قال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ (الأنعام: ١١٥) أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدىً؛ ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل في الشعر: إن أعذبه أكذبه، وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء، أو الخيل، أو الخمر، أو في مدح شخص معين، أو فرس، أو ناقة، أو حرب، أو كائنة، أو مخافة، أو سبع، أو شيء من المشاهدات المتعينة التي لا تفيد شيئًا إلا قدرة المتكلم المعبر على التعبير على الشيء الخفي أو الدقيق أو إبرازه إلى الشيء الواضح، ثم تجد له فيها بيتًا أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد وسائرها هذر لا طائل تحته.

وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلًا وإجمالًا ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة، سواءً كانت مبسوطة أو وجيزة، وسواءً تكررت أم لا، وكلما تكرر حلا وعلا؛ لا يَخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وَعَدَ أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن؛ كما قال في الترغيب: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (السجدة: ١٧)، وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (الزخرف: ٧١)، وقال في الترهيب: ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ ﴾ (الإسراء: ٦٨)، ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾ (الملك: ١٦، ١٧) وقال في الزجر: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ (العنكبوت: ٤٠)، وقال في الوعظ: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ

أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ (الشعراء: ٢٠٥ -٢٠٧) إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة. وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء؛ كما قال ابن مسعود وغيره من السلف: إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾فأوعها سمعك فإنه خيرٌ ما يأمر به أو شرٌ ينهى عنه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال، وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم؛ بشرت به وحذرت وأنذرت، ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزهدت في الدنيا ورغبت في الأخرى، وثبتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم.

ولهذا ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ، قال: "ما من نبي من الأنبياء إلا قد أُعْطِيَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة" لفظ مسلم، وقوله: "وإنما كان الذي أوتيته وحيًا" أي: الذي اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه، بخلاف غيره من الكتب الإلهية فإنها ليست معجزة (عند كثير من العلماء)، والله أعلم. وله ﷺ من الآيات الدالة على نبوته، وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر، ولله الحمد والمنة.[1]

الوجه الثاني: لقد شهد المنصفون من المستشرقين بضد قول المشككين.

يقول المستشرق الإنجليزي لايتنر: (بقدر ما أعرف من دِينَي اليهود والنصارى أقول

---

(١) تفسير ابن كثير تفسير الآية.

بأن ما علمه محمد ليس اقتباسًا بل قد أوحى إليه ربه، ولا ريب بذلك)[١].

ويقول هنري دي كاستري: (ثبت إذن أن محمدا لم يقرأ كتابًا مقدسًا، ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه)[٢].

الوجه الثالث: أسباب النزول واستحالة كون ورقة وغيره مع الرسول.

ومن لطائف الاستدلال على أنه لم ينقل من غيره ما يذكره العلماء في فوائد أسباب النزول؛ إذ يذكرون أن من فوائد أسباب النزول أن دلالته على إعجاز القرآن وأنه من الله تعالى من ناحية الارتجال، فنزوله بعد الحادثة مباشرة يقطع دعوى من ادعوا أنه أساطير الأولين، أو من كتب السابقين، ذكر هذه الفائدة الطاهر بن عاشور في كتابه التحرير والتنوير[٣].

فلو كان ينقل كتابه من كتب غيره لكان إذا سأله سائل يتريث حتى يراجع الكتب التي عنده، وينظر ماذا تقول في هذه المسألة ثم يجيب، ولكن النبي ﷺ لم يكن يفعل؛ بل يسأله الرجل فيعطيه الجواب الموافق للصواب، الذي لم يكن قرأه ولا عرفه إلا في هذه اللحظة التي نزل عليه فيها، وهناك أدلة ووقائع كثيرة تدل على صدق النبي ﷺ.

الوجه الرابع: مناقشة مسألة ورقة ومعاصرة القرآن.

فنقول: لم يعاصر ورقة التسلسل الزمني للحوادث الواردة في القرآن الكريم على مدى ثلاث وعشرين (٢٣) سنة من نزوله، إذ أنه قد توفي في أول البعثة، فأين ورقة من سؤال يسأله المشركون أو اليهود أو غيرهم للرسول ﷺ فنرى الإجابة قد وُجدت في حينها، وجاء القرآن يشرحها ويحدد موقفه منها كقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، وكقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾، كثيرًا ما كان يسأل المؤمنون أو اليهود أو المنافقون أو المشركون؛ يسألون عن أشياء يريدون فهمها، أو

---

(١) الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده لماضي (١٤٩).

(٢) الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده لماضي (١٤٩).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٥٠).

عن أشياء يريدون تعجيز الرسول وإظهاره بمظهر عدم العارف ليضعفوا من شخصيته ومهابته، وكان نزول القرآن مفرقًا يتيح للرسول أن يتلقى الرد عليهم من جبريل بما يريد الله، ولذلك تجد كثيرًا في القرآن (يسألونك)، أو(يسألك الناس)، وتجد الرد بعد ذلك حتى بلغ (يسألونك) نحو خمسة عشر سؤالًا وجهت للرسول في أوقات متباعدة، ونزل القرآن للرد عليها فأين هو ورقة بن نوفل من هذه الأسئلة؟ وهو الذي لم يعاصر التسلسل الزمني للحوادث الواردة في القرآن الكريم على مدى ٢٣ سنة من نزوله إذ أنه قد تُوفي في أول البعثة؟ أين ورقة من أحداث تمت بعد وفاته وقد تحدث عنها القرآن الكريم؟

فليخبرنا هؤلاء هل عاصر ورقة غزوة الأحزاب التي تحدث عنها القرآن الكريم؟

هل عاصر ورقة يوم حنين الذي تحدث عنه القرآن؟ هل عاصر ورقة قصة زيد التي تحدث عنها القرآن الكريم؟ هل عاصر ورقة حادثة الإفك التي تحدث عنها القرآن؟ هل عاصر ورقة قدوم وفد نجران والدعوة للمباهلة؟.

الوجه الخامس

إذا كان النبي ﷺ أخذ من النصارى الذين خالطهم من أمثال سلمان وصهيب وورقة، فلِمَ لم يفضحوه عندما كفَّر النصارى وأظهر عيوبهم في كتابه في عدة آيات، حتى إن سورة المائدة وهي من آخر السور نزولًا كانت من أكثر السور تكفيرًا للنصارى[1].

وهل كانوا جميعًا على مذهب واحد من النصرانية، مع أن كلًا منهم له قصة في اتباعه للحق بعيدة عن الآخر.

الوجه السادس:

وجود بعض الشرائع في القرآن تتفق مع ما في التوراة والإنجيل أو حتى مع ما عند العرب ليس في هذا دليل على أنه مأخوذ منها، فالقرآن لم يأتِ لهدم كل شيء؛ بل لتصحيح الخطأ وإقرار الحق، فالصدق، والشجاعة، والكرم، والحلم، والرحمة، والعزة؛ كل هذه

---

(١) الوحي القرآني من المنظور الاستشراقي ونقده لماضي ١٤٨، الجواب الصحيح لابن تيمية (٣/ ٢٥)، (٤/ ٥٧).

المعاني موجودة عند كفار مكة ومع هذا جاء الإسلام ولم يغير منها شيئًا بل باركها وحث عليها، لذلك قال النبيﷺ: " إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ "[١].

إذن ليس من الضروري لكتاب هداية من هذا القبيل أن يشجب كل الوضع الذي كانت الإنسانية عليه قبله حتى يثبت صحة نفسه، فمن الطبيعي أن يقر القرآن بعض الشرائع سواءً في الكتب السابقة السماوية أو في عادات الناس وأعرافهم، وأما الخطأ فإنه لا يقره[٢].

وقد نص القرآن على هذا المعنى في مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (يونس: ٣٧).

الوجه السابع: لقد ثبت أن النبي محمدًا كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب[٣].

فكيف يستطيع أن يشارك ورقة في مسألة ترجمة التوراة والإنجيل إلى اللغة العربية، ثم بعد ذلك تحويل هذه الترجمة إلى كلام منسق بصياغة أخرى؛ مع وجود تغيرات أخرى وزيادات وحذف، ووضع مسائل جديدة غيبية، وذكر أحكام فقهية جديدة وتغييرات جذرية مما يصعب على رجلين القيام بذلك أحدهما أمي[٤].

شبهة: ترجمة ورقة للكتاب المقدس وتحويل الترجمة إلى قرآن.

نص الشبهة:

محمد كان بجوار ورقة أثناء ترجمة الإنجيل.

فقد كان ورقة يترجم الإنجيل إلى العربية وهذا الإنجيل المترجم كان يلقيه على تلميذه محمد فأصبح قرآنًا.

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٨١، البخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، الحاكم في المستدرك٢/ ٦٧٠؛ وقال: صحيح على شرط مسلم، وقال الهيثمي في المجمع ٨/ ٣٤٣: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٥).

(٢) المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن للحكيم ٦١.

(٣) انظر بحث أمية الرسول.

(٤) انظر بحثنا في اقتباس القرآن من التوراة والإنجيل.

ودليلهم على ذلك ما في الصحيحين: "وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ فَيَكْتُبُ مِنْ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ"(١).

والرد على ذلك كما يلي:

الوجه الأول: الفارق بين القرآن وبين التوراة والإنجيل واضح وبَيِّنٌ، فكيف حوَّل الإنجيل المحرف إلى قرآن بهذه الصورة.

الوجه الثاني: الإنجيل لم يترجمه إلى العربية أحد في عصر النبوة ولا قبله.

فهذه الحقيقة نشرتها دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، ومجلس كنائس الشرق الأوسط في كتابهم المليء بصور فلسطين - عدا المسجد الأقصى-، وعنوان الكتاب: المرشد إلى الكتاب المقدس؛ طبعة ١٩٩٦م؛ أول ترجمات الإنجيل إلى العربية يقول ص ٧٩: عام ٦٣٩م طلب القائد العربي عمر بن سعد بن أبي وقاص من البطريرك اليعقوبي يوحنا أن يضع ترجمة للإنجيل في اللغة العربية ربما تم ذلك حوالى ذلك التاريخ عام ٨٦٧م أعمال الرسل والرسائل كلها؛ مكتبة سانت كاترين؛ سيناء.

حوالي سنة ٩٣٠م أسفار التوراة الخمسة وأشعيا؛ قام بها العالم اليهودي سعيد الفيومي.

وأول ترجمة كاملة للكتاب المقدس بعهديه تمت في روما، وعرفت بالبروباغاندا.

هل مجلس الكنائس أصدق؟ أم من ادعى أن ورقة بن نوفل هو أول من ترجم الكتاب المقدس؟ ولماذا لم يشر مجلس الكنائس العالمي إلى ورقة ولو بإشارة؟

الوجه الثالث: الآثار توضح أن ورقة كان قد عمي حين ذهب إليه النبي ﷺ ليخبره بأمر الوحي.

فعن عائشة رضي الله عنها: ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي؛ وهو ابن عم خديجة ابن أخي أبيها، وكان امرءًا تنصر في الجاهلية، وكان

---

(١) البخاري (٤)، ومسلم (١٦٠).

يكتب الكتاب العربي، يكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله ﷻ أن يكتب، وكان شيخا كبيرًا قد عمي. . ثم لم ينشب ورقة أن توفي.

قال زَيْنُ الدِّينِ الْعِرَاقِيُّ: قَوْلُهَا (أَيْ) بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَإِسْكَانِ الْيَاءِ حَرْفُ نِدَاءٍ لِلْبَعِيدِ مَسَافَةً أَوْ حُكْمًا، فَنَادَتْهُ خديجة نِدَاءَ الْبَعِيدِ مَعَ قُرْبِهِ؛ لِأَنَّهُ فِي حُكْمِ الْبَعِيدِ لِضَرُورَةٍ فَإِنَّهُ كَانَ أَعْمَى كَمَا فِي الْحَدِيث[1].

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرءًا تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. [2]

فلم تقل له اقرأ علينا من كتابك المقدس عن خبر النبي الخاتم الذي كنت تحدثنا به كثيرًا، وذلك لعلمها بأنه أعمى في ذلك الوقت.

الوجه الرابع: العهد القديم لم يكن مترجمًا إلى اللغة العربية قبل الإسلام.

وقد نص على ذلك المستشرقون أنفسهم، فهذا (جوتين) يقول عن صحائف اليهود: (إن تلك الصحائف مكتوبة بلغة أجنبية)[3].

وقد أشارت الموسوعة البريطانية إلى عدم وجود ترجمة عربية لأسفار اليهود قبل الإسلام وأن أول ترجمة كانت في أوائل العصر العباسي، وكانت بأحرف عبرية(٥٥٨).

كيف إذن أخذ النبي ﷺ منها؟ لابد على المستشرقين أن يفتروا كذبة جديدة، وهي أن النبي ﷺ درس لغة التوراة فكان يترجمها للقرآن؟.

الوجه الخامس: كان ورقة يفسر بعض نصوص الإنجيل؛ لا أنه يترجمها للعربية لتكون قرآنًا.

قال السمرقندي: وكان ورقة يقرأ الإنجيل ويفسره[1].

---

(١) طرح التثريب ٥/ ٢١٢.

(٢) البخاري (٣)، ومسلم (٢٥٢) (١٦٠).

(٣) الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، لمحمود ماضي، (ص: ١٤٧).

وفي لفظ الحديث: (فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب) تدل على التبعيض؛ لا أنه كتب وترجم وفسر كل نصوص الإنجيل.

قال زَيْنُ الدِّينِ الْعِرَاقِيُّ: (وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ) فَكَتَبَ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنْ الْإِنْجِيلِ مَا شَاءَ الله أَنْ يَكْتُبَ؛ هَكَذَا هُوَ فِي رِوَايَتِنَا، وَرِوَايَةِ مُسْلِمٍ، وَفِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ فِي أَوَّلِ صَحِيحِهِ: يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ فَيَكْتُبُ مِنْ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ.

قَالَ النَّوَوِيُّ: وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ وَحَاصِلُهُمَا أَنَّهُ تَمَكَّنَ مِنْ مَعْرِفَةِ دَيْنِ النَّصَارَى بِحَيْثُ صَارَ يَتَصَرَّفُ فِي الْإِنْجِيلِ فَيَكْتُبُ أَيَّ مَوْضِعٍ شَاءَ مِنْهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ إنْ شَاءَ وَبِالْعَرَبِيَّةِ إنْ شَاءَ[٢].

فإن قيل: لماذا أشاد ورقة بموسى فقال: (ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء إلى موسى)؟ فهذا دليل على أنه كان مطلعًا على التوراة.

نقول: هذا مما علمه من سماع من رهبان الشام، وليس فيه إثبات صريح على اطلاعه على التوراة، وكذلك فإن لموسى ذكر في الإنجيل.

الرد على شبهة: اختلاف القرآن المكي والمدني لموت ورقة.

الوجه الأول: إن هذه الدعوى مجردة من الدليل، خالية من التحديد والتعيين، ومثل هذه الدعاوى لا تُقبل ما دامت غير موافقة للتحقيق العلمي، وإلا فليخبرونا ما الذي سمعه محمد من ورقة؟ ومتى كان ذلك؟ وأين كان؟

الوجه الثاني: إن الإسلام بدأ من غار حراء حيث كان يتعبد النبي ﷺ كل ليلةٍ معتزلًا عن الناس ومفاتنهم وشهواتهم، متفكرًا في ملكوت السموات والأرض مثل نبي الله إبراهيم عليه السلام، ولم يبدأ من الكنائس، ولم نسمع أن محمدًا قبل الأربعين قد اعتنق أي دين، ولم توجد لدى أحدٍ أي صحيفة مترجمة، وهناك أيضًا الكثير من الأسئلة التي تدحض افتراءات من يفتري على وحي الله لرسوله منها:

---

(١) بحر العلوم٤/ ٤٢١.

(٢) طرح التثريب٥/ ٢١٥.

متى مات ورقة؟ وهل يختلف القرآن المدني عن المكي نتيجة وفاة ورقة؟ وما علاقة موت ورقة بانتشار الإسلام في مكة والمدينة؟ وكم نسبة قرآن ورقة إلى القرآن الكريم؟ وهل محمد (القرشي الأمـي) كان أفضل من ورقة بن نوفـل (النصراني المؤمن)في ادعاء الإسلام؟.

فإن كان ورقة هو الأب الروحي السري للوحي، فلماذا لم تتأثر السور والآيات المكية بعقيدة الثالوث أو بغيرها من الروايات المقدسة حول الأنبياء، ولم يلتزم بالإطار العام في سر القدرة الإلهية والإيحاءات فيها وعلاقة الشيطان برسالة الله في خلقه؟

الوجه الثالث: كيف يمكن اعتبار التوراة والإنجيل من أهم مصادر القرآن مع أن القرآن خالفها في كثير من الأشياء؛ ففي بعض الأحداث التاريخية نجد القرآن يذكرها بدقة متناهية، ويتمسك بها بإصرار، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يتجاهل بعضها على الأقل تفاديًا للاصطدام بالتوراة والإنجيل)[1].

الوجه الرابع: يقال لهم: لقد خالف القرآن الكريم التوراة والإنجيل في أعظم وأخطر قضية وهي الوحدانية لله تعالى، فالقرآن يؤكد على وحدانية الله وكماله وتفرده بالعظمة والخلق والجلال والجمال، بينما نصوص التوراة والإنجيل تؤكد على الثالوث: الأب، والابن، وروح القدس، وتنسب إلى الله النقائص، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

١- في جانب التشريع نجد أن الإنجيل يحرم الزواج بالمطلقة، ويعتبره زنىً، فقد جاء فيه: (من تزوج مطلقة فقد زنا)، أما القرآن فإنه يعتبر ذلك مكرمة للمرأة، ويراه أمرًا حسنًا، وقد تزوج النبي ﷺ بزينب رضي الله عنها بعد أن طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه.

٢- إنك إذا قارنت بين أسلوب القرآن وبلاغته وفصاحته وبين نصوص العهدين وجدت الفرق العظيم، فنصوص العهدين تغلب عليها الركاكة في الأسلوب، وأما القرآن فقد أعيا أساطين البلاغة إلى اليوم أن يأتوا ولو بسورة أو بآية مثله، فكيف يقال: إنه قد صيغ من كتب أولئك الذين لا يستطيعون الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا؟

---

(١) المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن (ص: ٤٦).

الوجه الخامس: إن اتفق شيء مما تبقى من عقائد وشرائع الأنبياء السابقين مع الموجود في القرآن الكريم فهو من أدلة وحدة مصدرها، وإن تفوق القرآن الكريم عليها بكونه كله قطعي الثبوت.

أما الجاحدون من أهل الكتاب ـ لا سيما دعاة النصرانية في هذا الزمان ـ فهم يقولون فيما وافق القرآن به كتبهم: إنه مأخوذ منها بدليل موافقته لها، وفيما خالفها: إنه غير صحيح بدليل أنه خالفها، وفيما لم يوافقها ولم يخالفها به: إنه غير صحيح؛ لأنه لم يوجد عندنا، وهذا منتهى ما يُكابر به مُناظِرٌ مناظرًا، وأبطل ما يرُدُّ به خصمٌ على خصم[1].

الوجه السادس: لم يصدر عن أيٍّ من ملوك النصارى العرب، أو الروم، أو القبط، أو الأحباش؛ الذين وصلتهم رسالة الإسلام، أن ما في القرآن الكريم مستفاد مستقىً من عندهم.

الوجه السابع: هل كان لدى ورقة بن نوفل أي حصيلة علمية أو معرفية، تؤهله ليكون مصدر القرآن الكريم؟ فقد ظل فترة طويلة على الشرك فقصر الوقت الذي شاهدهما فيه، فما في القرآن من عقائد وشرائع وقصص تحتاج إلى فترة زمنية طويلة، بل المنطق يقول: إن أي إنسان عادي لن يستطيع تأليف قوانين وشرائع مماثلة لتلك الموجودة في القرآن الكريم إلا بعد مكث سنوات طويلة من التعلم.

فقد كان عمره ﷺ عندما قابل بحيرا أول مرة تسعة أعوام، ولما تاجر لخديجة كان عمره خمسة وعشرين عامًا، وفي الأولى كان معه عمه، وفي الثانية ميسرة غلام خديجة[2].

الوجه الثامن: عدم موافقة القرآن لعقيدة النصارى. ففي القرآن الكريم آيات لا توافق عقيدة المسيحية فكيف يكتبها ورقة؟ فعلى سبيل المثال: إذا كان القرآن مصدره ورقة، وورقة شخص نصراني فكيف ينكر القرآن صلب المسيح؟.

أيضًا في القرآن الكريم آيات لا توافق اليهود ومعتقداتهم وآيات تندد بهم، فكيف يكون كاتبها يهودي؟ وإذا كان معلم الرسول يهوديًا فكيف اعترف محمد بنبوة عيسى؟

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٣/ ٢٤٩.

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/ ٢٣، والبداية والنهاية لابن كثير ٢/ ٢٩٥.

واليهود لا يعترفون بنبوة عيسى ﷺ!

الوجه التاسع: المعجزات الحسية.

نقول لهؤلاء: إذا كان ورقة هو مصدر هذا القرآن المعجز فماذا عن مصدر تلك المعجزات الحسية التي صنعها النبي ﷺ بيده أمام قومه؟ ومنهم من يقول: إنه لا يصح كون نبي من الأنبياء لا يكون له معجزات حسية[1].

الوجه العاشر: خدمتهم ضلالات الكنيسة بالاختلاق على الرسول زورًا وبهتانًا.

قال حسن ضياء الدين: ماذا قصد المؤلف من زعمه استمرار حياة ورقة ثلاث سنين بعد الوحي الأول، ومن اختلاقه اتصالات دينية تلقى فيها محمد من ورقة منذ وقت مبكر؟ إن بيت القصيد من هذه المزاعم وأمثالها هو الإيهام بأن الإسلام فيه كثير من أفكار ورقة، ولكن أفكار ورقة المتنصر مستمدة من الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) المقرر لدى الكنيسة؛ إذن الإسلام مقتبس من المسيحية، وهذا ما يعبر المستشرقون المحدَثون عنه: بالعلاقة بين الديانتين الإسلامية والمسيحية أو بين الوحيين كما قال (واط) ههنا: ولهذا فمن الأفضل الافتراض بأن محمدًا كان قد عقد صلات مستمرة مع ورقة بن نوفل منذ وقت مبكر وتعلم أشياء كثيرة، وقد تأثرت التعاليم الإسلامية اللاحقة بأفكار ورقة، وهذا ما يعود بنا إلى طرح مشكلة العلاقة بين الوحي الذي نزل على محمد والوحي السابق له.

لا ريب أن هذا الزعم يحتاج إلى دليل، فإنَّ المقارنة الموضوعية بين التعاليم الإسلامية والمسيحية التي تكشف عن التأثر أو عن الاقتباس، كلام بدون دليل مصيره الإهمال، إن مقارنة المعلومات عند الطرفين تكشف استحالة اقتباس الإسلام من إصدار المستشرق(واط) هذا الحكم اعتباطًا، ولا شك أنه سيعطي الكاتب وأمثاله رتبتهم الحقيقية ويعرف مستوى أبحاثهم وحقيقة أغراضهم، فالمثقف العادي من المسلمين يدرك يقينًا أن الإسلام يختلف جذريًا مع المعترف به عند أهل الديانتين اليهودية والمسيحية، والاختلاف

---

(١) انظر بحث معجزات النبي ﷺ.

قائم على أشده في العقيدة والشريعة والأخلاق والقصص[1].

شبهة: ورقة ودعوة الإسلام.

نص الشبهة:

تدعيم ورقة لمحمد بالتثبيت ونشر الدعوة.

الوجه الأول: هل ورقة هو الذي ثَبَّت محمدًا حقًا؟

فللرد على قولهم: (إن ورقة هو الذي ثَبَّتَ محمدًا في دعوته وبعثته لما عاد خائفًا من غار حراء).

قال عبد المحسن المطيري: قد نص الحديث أن التي ثبتته هي خديجة رضي الله عنها، وأما ورقة فقد خوفه فقال: ليتني فيها، جَذِعًا، يا ليتني أكونُ فيها حيًا حين يخرج قومك، فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ "؟! قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا أُوذِيَ؛ في رواية: عُودِيَ.

وإذا كان ورقة يعرف حال النبي ﷺ، وأنه لازمه خمس عشرة سنة، وأخذ منه القرآن، فلماذا يقول: (هذا الناموس -يعني: الوحي- الذي أنزل على موسى)، ويقول: (وإن يدركني يومك حيًا أنصرك نصرًا مؤزرًا)؟ أليس في هذا تصديق له وإثبات صحة نبوته؟

أم أنهم يأخذون من الحديث ما يوافق هواهم ويعرضون عن غيره[2].

الوجه الثاني: ورقة له دور في الإسلام وهو دور مُعَزِّر لا دور مخطط:

قد يُقال: لماذا تذكر كُتب السيرة ورقة بن نوفل؟ أليس هذا دليلًا على دوره في الإسلام؟

قلنا: لا ندعي أن ورقة ليس له أي فاعلية لتأييد الإسلام؛ بل هذا أمر واجب عليه، فمن عرف الحق وجب عليه أن يوضح للناس أن هذا هو الحق الذي لا مرية فيه خصوصًا إذا كان هذا الحق هو أمر الرسالة الخاتمة. قال تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

قال ابن عاشور: ومعنى: عزروه: أيدوه وقَوَّوْه، وذلك بإظهار ما تضمنته كتبهم من البشارة بصفاته، وصفات شريعته، وإعلان ذلك بين الناس، وذلك شيء زائِد على الإيمان

---

(١) وحي الله حقائقه وخصائصه ١٠١.

(٢) الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين ١/ ٦٤.

به، كما فعل عبد الله بن سَلاَم، وكقول ورقة بن نوفل: «هذا الناموس الذي أنزل على موسى»، وهو أيضًا مغاير للنصر؛ لأن النصر هو الإعانة في الحرب بالسلاح، ومن أجل ذلك عطف عليه (ونصروه).

الوجه الثالث: هناك قساوسة علموا بإرهاصات تدل على أن محمدًا ﷺ سيكون هو النبي الخاتم، فلذلك تركوا الأمور تجري كما يريد الله لنبيه واكتفوا بالبشارة بكونه النبي الخاتم، فلماذا لم يصنعوا من الحِيل كما صنع ورقة -كما تزعمون- ليستغلوا فرصة الشهرة ليشير الناس إليهم بأنهم هم الذين صنعوا النبي محمدًا ﷺ؟.

قال ابن سيد الناس: وروينا عن أبى الربيع بن سالم قال: وذكر الواقدي بإسناد له إلى نفيسة بنت منية أخت يعلى بن منية، قال: وقد رويناه أيضًا من طريق أبى على بن السكن، وحديث أحدهما داخل في حديث الآخر مع تقارب اللفظ، وربما زاد أحدهما الشيء اليسير على الآخر، وكلاهما ينمي إلى نفيسة قالت: "فخرج محمد مع غلام خديجة ميسرة حتى قدم الشام، فنزلا في سوق بصرى في ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب يقال له: نسطورا، فاطلع الراهب إلى ميسرة وكان يعرفه، فقال: يا ميسرة، من هذا الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال ميسرة: رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي، ثم قال له: في عينيه حمرة؟ قال ميسرة: نعم، لا تفارقه، قال الراهب: هو هو، وهو آخر الأنبياء، ويا ليت أني أدركه حين يؤمر بالخروج، فوعى ذلك ميسرة، ثم حضر رسول الله ﷺ سوق بصرى فباع سلعته التي خرج بها واشترى، فكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعة، فقال الرجل: احلفْ باللات والعزى، فقال رسول الله ﷺ: ما حلفت بهما قط، فقال الرجل: القول قولك، ثم قال لميسرة وخلا به: يا ميسرة، هذا نبي والذي نفسي بيده، وإنه لهو تجده أحبارنا منعوتا في كتبهم فوعى ذلك ميسرة"[1].

الوجه الرابع: من ذكر أن ورقة عاش لِما بعد البعثة، فإذا افترضنا صحة ذلك؛ فإنه لم

---

(١) عيون الأثر ١/ ٦٩؛ ذكر سفره ﷺ إلى الشام مرة ثانية وتزويجه خديجة، الروض الأنف١/ ٣٢١.

يكن له أثر كبير في الدعوة الإسلامية مثل أثر أبي بكر وغيره من الصحابة.

فالسؤال: لماذا لم يشارك ورقة النبي ﷺ في الدعوة بقوة كما صنع أبو بكر، فلم يسلم أحد على يد ورقة، بينما كل من أسلم كان له دور في دعوة غيره للإسلام؟.

وادعاء أن ورقة كان دوره هو تثبيتهم على الدين لا يحقق وجه مقارنة بين اهتمام ورقة قبل البعثة وبعدها.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَحَدّثَنِي هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ يَمُرّ بِهِ وَهُوَ يُعَذّبُ بِذَلِكَ وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ، فَيَقُولُ: أَحَدٌ أَحَد وَالله يَا بِلَالُ، ثُمّ يُقْبِلُ عَلَى أُمَيّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَمَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ بِهِ مِنْ بَنِي جُمَحَ فَيَقُولُ: أَحْلِفُ بِالله لَئِنْ قَتَلْتُمُوهُ عَلَى هَذَا لَأَتّخِذَنّهُ حَنَانًا*، حَتّى مَرّ بِهِ أَبُو بَكْرٍ الصّدّيقُ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ ﷺ يَوْمًا وَهُمْ يَصْنَعُونَ ذَلِك بِهِ وَكَانَتْ دَارُ أَبِي بَكْرٍ فِي بَنِي جُمَحَ، فَقَالَ لِأُمَيّةِ بْنِ خَلَفٍ: أَلَا تَتّقِي الله فِي هَذَا الْمِسْكِينِ؟ حَتّى مَتَى؟ قَالَ أَنْتَ الّذِي أَفْسَدْته، فَأَنْقِذْهُ مِمّا تَرَى، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَفْعَلُ؛ عِنْدِي غُلَامٌ أَسْوَدُ أَجْلَدُ مِنْهُ وَأَقْوَى عَلَى دِينِك، أُعْطِيكَهُ بِهِ، قَالَ: قَدْ قَبِلْت، فَقَالَ: هُوَ لَك، فَأَعْطَاهُ أَبُو بَكْرٍ الصّدّيقُ ﷺ غُلَامَهُ ذَلِكَ وَأَخَذَهُ فَأَعْتَقَهُ[(١)].

وعن هشام بن عروة عن أبيه قال: كان ورقة بن نوفل يمر ببلال، وهو يعذب على الإسلام، وهو يقول: أحد أحد، فيقول ورقة: أحد أحد؛ والله يا بلال. وبإسناده عن عروة: أن أبا بكر الصديق ﷺ أعتق ممن كان يعذب في الله سبعة فذكرهم وذكره، ثم ذكر منهم الزنيرة، قال: فذهب بصرها وكانت ممن يعذب في الله على الإسلام، فتأبى إلا الإسلام، وقال المشركون: ما أصاب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كلا والله ما هو كذلك، فَرَدَّ الله عليها بصرها[(٢)].

* الحَنانُ: الرحمةُ والعطفُ، والحَنانُ الرِّزْقُ والبركةُ، أَراد لأَجْعَلَنَّ قَبْرَه موضعَ حَنانٍ أَي: مَظِنَّةً منْ رحمة الله تعالى فأَتَمَسَّحُ به متبرّكًا كما يُتمسَّح بقبور الصالحين الذين قُتلوا في سبيل الله من الأُمَمِ الماضية فيرجع ذلك عارًا عليكم وسُبَّةً عند الناس؛ لسان العرب (حنن).

(١) الروض الأنف ٢/ ٨٣.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي ٤/ ١٤٤.

شبهة: دور سلمان الفارسي لتكوين نبوة محمد ﷺ.

نص الشبهة:

سلمان عضو في التنظيم الذي يرأسه ورقة!!

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: لقاء سلمان مع النبي ﷺ لم يكن قط إلا بعد البعثة بثلاثة عشر عامًا وقت هجرته للمدينة(١).

فلا يُعقل أن يكون اشترك مع ورقة قبل بعثة محمد ﷺ رسولًا.

عن ابن عباس قال: حدثني سلمان الفارسي قال: كنت رجلًا فارسيًا من أهل أصبهان؛ من أهل قرية منها يقال لها: جي، وكان أبي دهقانها. وكنت أحب خلق الله إليه، فلم يزل بي حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية، فاجتهدت في المجوسية حتى كنت قاطن النار الذي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة. وكانت لأبي ضيعة عظيمة، فشغل في بنيان له يومًا، فقال لي: يا بني، إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب فاطلعها، وأمرني ببعض ما يريد، فخرجت، ثم قال: لا تحتبس علي، فإنك إن احتبست عليَّ كنت أهم إلي من ضيعتي، وشغلتني عن كل شيء من أمري. فخرجت أريد ضيعته، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس بحبس أبي إياي في بيته، فلما مررت بهم، وسمعت أصواتهم، دخلت إليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلواتهم، ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فوالله ما تركتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي ولم آتها، فقلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام. قال: ثم رجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن عمله كله، فلما جئته قال: أي بني، أين كنت؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟ قلت: يا أبة، مررت بناس يصلون في كنيسة لهم، فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس، قال: أي بني، ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه، قلت: كلا، والله

(١) نقض الاشتباه بتعلم الرسول من ورقة بن نوفل ٣٠.

إنه لخير من ديننا، قال: فخافني، فجعل في رجلي قيدًا، ثم حبسني في بيته. قال: وبعثت إلى النصارى فقلت: إذا قدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم، فقدم عليهم ركب من الشام، قال: فأخبروني بهم، فقلت: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة فأخبروني، قال: ففعلوا، فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام. فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة، فجئته، فقلت: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك، وأتعلم منك، وأصلي معك، قال: فادخل، فدخلت معه، فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها شيئًا اكتنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق، فأبغضته بغضًا شديدًا لما رأيته يصنع، ثم مات، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا رجل سوء؛ يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتم بها كنزها لنفسه، ولم يعطِ المساكين، وأريتهم موضع كنزه سبع قلال مملوءة، فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبدًا، فصلبوه ثم رموه بالحجارة. ثم جاؤوا برجل جعلوه مكانه، فما رأيت رجلًا – يعني: لا يصلي الخمس- أرى أنه أفضل منه؛ أزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلًا ونهارًا، ما أعلمني أحببت شيئًا قط قبله حبه، فلم أزل معه حتى حضرته الوفاة، فقلت: يا فلان، قد حضرك ما ترى من أمر الله، وإني والله ما أحببت شيئًا قط حبك، فماذا تأمرني وإلى من توصيني؟ قال لي: يا بني، والله ما أعلمه إلا رجلًا بالموصل، فائته، فإنك ستجده على مثل حالي. فلما مات وغيب، لحقت بالموصل، فأتيت صاحبها، فوجدته على مثل حاله من الاجتهاد والزهد، فقلت له: إن فلانًا أوصاني إليك أن آتيك وأكون معك، قال: فأقم أي بني، فأقمت عنده على مثل أمر صاحبه حتى حضرته الوفاة، فقلت له: إن فلانا أوصى بي إليك وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني به؟ قال: والله، ما أعلم أي بني إلا رجلا بنصيبين، فلما دفناه، لحقت بالآخر، فأقمت عنده على مثل حالهم حتى حضره الموت، فأوصى بي إلى رجل من أهل عمورية بالروم، فأتيته فوجدته على مثل حالهم، واكتسبت حتى كان لي غنيمة

وبقيرات، ثم احتضر فكلمته إلى من يوصي بي؟ قال: أي بني، والله ما أعلمه بقي أحد على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه، ولكن قد أظلك زمان نبي يبعث من الحرم، مهاجره بين حرتين إلى أرض سبخة ذات نخل، وإن فيه علامات لا تخفى، بين كتفيه خاتم النبوه، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت أن تخلص إلى تلك البلاد فافعل، فإنه قد أظلك زمانُه، فلما واريناه أقمت حتى مرَّ بي رجال من تجار العرب من كلب، فقلت لهم: تحملوني إلى أرض العرب، وأعطيكم غنيمتي وبقراتي هذه؟ قالوا: نعم، فأعطيتهم إياها وحملوني، حتى إذا جاؤوا بي وادي القرى، ظلموني، فباعوني عبدا من رجل يهودي بوادي القرى.

فو الله لقد رأيت النخل، وطمعت أن يكون البلد الذي نعت لي صاحبي، وما حقت عندي حتى قدم رجل من بني قريظة وادي القرى، فابتاعني من صاحبي، فخرج بي حتى قدمنا المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها، فعرفت نعتها، فأقمت في رقي، وبعث الله نبيه ﷺ بمكة لا يذكر لي شيء من أمره مع ما أنا فيه من الرق، حتى قدم رسول الله ﷺ قباء، وأنا أعمل لصاحبي في نخلة له، فوالله إني لفيها إذ جاءه ابن عم له، فقال يا فلان، قاتل الله بني قيلة، والله إنهم الآن لفي قباء مجتمعون على رجل جاء من مكة يزعمون أنه نبي، فوالله ما هو إلا أن سمعتها فأخذتني العرواء يقول: الرعدة- حتى ظننت لأسقطن على صاحبي، ونزلت أقول: ما هذا الخبر؟ فرفع مولاي يده فلكمني لكمة شديدة، وقال: مالك ولهذا، أقبل على عملك، فقلت: لا شيء، إنما سمعت خبرًا، فأحببت أن أعلمه. فلما أمسيت وكان عندي شيء من طعام، فحملته وذهبت إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء، فقلت له: بلغني أنك رجل صالح، وأن معك أصحابًا لك غرباء، وقد كان عندي شيء من الصدقة فرأيتكم أحق مَنْ بهذه البلاد، فهاك هذا، فكل منه، قال: فأمسك، وقال لأصحابه: كلوا، فقلت في نفسي: هذه خلة مما وصف لي صاحبي. ثم رجعت، وتحول رسول الله إلى المدينة، فجمعت شيئًا كان عندي ثم جئته به فقلت: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية، فأكل رسول الله ﷺ وأكل أصحابه، فقلت: هذه خلتان.

ثم جئت رسول الله ﷺ وهو يتبع جنازة وعلي شملتان لي وهو في أصحابه، فاستدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف، فلما رآني استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فانكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي: تحول، فتحولت، فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس، فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه. ثم شغل سلمانَ الرقُ حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدر وأحد. ثم قال رسول الله ﷺ: كاتب يا سلمان، فكاتبت صاحبي على ثلاث مئة نخلة أحييها له بالفقير وبأربعين أوقية، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: " أعينوا أخاكم "، فأعانوني بالنخل الرجل بثلاثين ودية، والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشرة، حتى اجتمعت ثلاث مئة ودية، فقال: اذهب يا سلمان ففقر لها، فإذا فرغت فائتني أكون أنا أضعها بيدي، ففقرت لها وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت منها، جئته وأخبرته، فخرج معي إليها نقرب له الودي، ويضعه بيده، فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة، فأديت النخل، وبقي عليَّ المال. فأتي رسول الله ﷺ بمثل بيضة دجاجة من ذهب من بعض المغازي، فقال: "ما فعل الفارسي المكاتب"؟ فدعيت له، فقال: " خذها فأدِّ بها ما عليك "قلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما علي؟ قال: خذها فإن الله سيؤدي بها عنك، فأخذتها فوزنت لهم منها أربعين أوقية، وأوفيتهم حقهم وعتقت، فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق حرًا، ثم لم يفتني معه مشهد[(١)].

الوجه الثاني: من تناقضِهم زعمُهم أن النبي ﷺ أخذ القرآن من سلمان وصهيب النصرانيين وابن سلام اليهودي وغيرهم ممن أسلم من أهل الكتاب[(٢)]، وحقيقة الأمر أن إسلام هؤلاء حجة عليهم، إذ لو كان النبي ﷺ أخذ القرآن والشريعة من أهل الكتاب، فلماذا يتركون الأصل ويذهبون إلى الفرع؟

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٤١ - ٤٤٤، وابن الأثير الجزري في " أسد الغابة " ٢/ ٤١٧ - ٤١٩، وابن هشام ١/ ٢١٤ - ٢٢١، والطبراني في " الكبير " (٦٠٦٥)، والخطيب البغدادي في " تاريخ بغداد " ١/ ١٦٤ - ١٦٩. ورجاله ثقات وإسناده قوي؛ فقد صرح ابن إسحاق بالتحديث عند أحمد وابن هشام وغيرهما.

(٢) انظر القرآن والمستشرقون لنقرة (٣٥).

دور صهيب، وسلمان، وكعب ﷺ:

١ - فصهيب لم يكن من الأثرياء، بل كان فقيرًا معدمًا مستضعفًا[(١)].

نعم: ذكروا أنه ترك ماله ليهاجر، وأن أهل مكة لم يسمحوا له حتى ترك كل ماله، ولكن لم يذكروا أن هذا المال كان كثيرًا بحيث كان من الأثرياء، وحتى لو كان فلماذا ترك هذا الثراء وتبع النبيﷺ؟ ألا يدل هذا أن صهيبًا عرف صحة نبوة محمدﷺ؟ ، وسلمان لم يكن مسيحي الأصل بل كان مجوسيًا، ثم تنصر، ثم أسلم بعد وصية الراهب النصراني له بذلك؛ انظر حديثه الطويل في قصة إسلامه في مسند أحمد[(٢)]. وعبد الله بن سلام لم يكن الوحيد الذي أسلم من اليهود، فهناك الغلام اليهودي جار النبي ﷺ الذي عاده من مرضه فأسلم، وصفية بنت حيي بن أخطب وغيرهم[(٣)].

وفي شرح الحديث المتفق عليه: "لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي يهود" حيث قال: (الْمُرَاد عَشَرَة مُخْتَصَّة وَإِلَّا فَقَدْ آمَنَ بِهِ أَكْثَر مِنْ عَشَرَة، وَوَقَعَ عِنْد اِبْن حِبَّان قِصَّة إِسْلَام جَمَاعَة مِنْ الْأَحْبَار كَزَيْدِ بْن سَعَفَة مُطَوَّلًا، وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ أَنَّ يَهُودِيًّا سَمِعَ النَّبِيّ (يَقْرَأ سُورَة يُوسُف فَجَاءَ وَمَعَهُ نَفَر مِنْ الْيَهُود فَأَسْلَمُوا كُلّهمْ) اهـ بتصرف واختصار. وكعب الأحبار لم يدرك النبي ﷺ، بل هو من التابعين[(٤)].

الوجه الثالث: نبوة محمد ﷺ أمر أزلي وليس تنظيمًا مدبرًا. فالنبوة وكرم الأخلاق لا تأتي بالتخطيط والتوقع؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ (القصص: ٨٦)، فنبوة محمد أمر أزلي، وهذا ما يعلمه ورقة فلماذا كل هذا التعب من ورقة لجعل محمد نبيًا؟ فورقة قام بمخطط مدروس ومصمم قبل أن

(١) انظر ترجمته في الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر٣/ ٤٤٩.

(٢) مسند الإمام أحمد (٢٣٢٢٥) وتقدم تخريجه في الشبهة السابقة.

(٣) انظر فتح الباري لابن حجر (٧/ ٣٢٢).

(٤) انظر كتاب الأعلام للزركلي (٥/ ٢٨٨).

يولد محمد ﷺ -كما تدعون-أو لم يقمْ فلا يقدم ولا يؤخر في أمر نبوة محمد ﷺ[(١)].

الوجه الرابع: يقولون إن محمدًا ضحية لتنظيم خُطط له من قِبَل ورقة (رئيس التنظيم)، وخديجة، وأبي طالب، وبحيرا، وسلمان، وعدَّاس، وأبي بكر، و. . .

* هل معنى ذلك أنكم تدافعون عن محمد، وأنه ضحية لهذا التنظيم؟ فكيف بكم إذًا تتهمونه بتهم كثيرة في شرفه وعقله وفكره؟! فأوقاتٌ تصفونه وكأنه مسلوب الإرادة، وأوقاتٌ تصفونه بالماكر المدبر!

* أطراف مختلفة في التخطيط من أماكن مختلفة، وكأننا في حرب عالمية تشترك فيها عدة دول لتحقيق هدف واحد، فهذا ورقة نصراني من مكة، وهذا بحيرا قسيس من الشام، وهذه خديجة كانت امرأة مشغولة بالتجارة، وهذا أبو طالب من كفار قريش لم يسلم حتى بعد البعثة، وهذا أبو بكر قد آمن بمحمد، وهذا سلمان كان مجوسيًا، فكيف تتوافق أفكار هؤلاء لتحقيق هدف واحد؟ ولماذا لم يستقل أبو طالب بالأمر ليكون له شرف السبق لتحقيق نبوة ابن أخيه؟

* العرب لم ينتشر فيهم المخططات السرية المليئة بالدسائس، بل كان هذا منتشرًا لدى الفرس والروم، فقد كان عندهما قتل الولد لوالده ليعتلي عرش الملك بدلًا منه، وتدبير الأخ لأخيه المكايد ليفتك به، ولكن العرب كانت الأمور لديهم واضحة المعالم؛ شخصياتهم مليئة بالصراحة، وعدم الكذب والخيانة، ولا أوضح من موقف أبي سفيان من النبي عند هرقل؛ حيث قال: فَوَاللهِ لَوْلاَ الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ[(٢)].

نعم، إن في الحرب خدعة، ولكن لم تكن التنظيمات السرية لقلب نظام الحكم أو لتغيير مسار الجزيرة العربية معروفة لدى العرب.

* هل محمد يخطط له كل هذا التخطيط من قِبَل هذا العدد من المخططين، ثم هو لا يدري من ذلك شيء؟! فهذا لا يتوافق مع كونهم اختاروه لأن له ذكاءً وفطنةً، ولو كان

---

(١) نقض الاشتباه بتعلم الرسول من ورقة بن نوفل (٢٧)بتصرف.

(٢) البخاري (٧)، ومسلم (٤٧٠٧).

يعلم ما يخططون إليه لوفَّر عليهم الكثير: فبدلًا من إقناع أبي طالب له للعمل عند خديجة كمقدمة لكي يرغب في الزواج منها، لكان على الفور طلب الزواج منها، فكل هذا يهدم مسألة وجود تخطيطٍ لتحضير محمد للنبوة.

لماذا لم يتحوَّل محمد ﷺ قبل البعثة إلى اتباع أي طائفة من طوائف اليهود أو النصارى؟

فليس هناك تصريح من محمد ﷺ بأنه كان متبعًا لمذهب ما أو طائفة ما من طوائف اليهود أو النصارى قبل البعثة.

الوجه الخامس: أمور كونية لا علاقة لورقة ولا لغيره فيها. ولبيان ذلك أمور:

الأمر الأول: ما الذي فعله ورقة حتى ينزل الناموس على محمدﷺ:

فربُّ العالمين قد اصطفى نبينا محمد ﷺ بالرسالة ومهدها له، وكان ذلك من قبل ولادته كالإرهاصات، ومن بعد الولادة أشياء كثيرة منها شق صدره، وخاتم النبوة الذي ولد به، وغيرها كثير فهل كان لورقة دخل في مثل هذه الأمور.

الأمر الثاني: الرؤية الصالحة كانت توطئة لنبوة محمد وليس لورقة تدخل في الرؤيا.

فالرؤيا الصالحة الأصل فيها أنها تكون للأنبياء، ثم لباقي الناس جزءٌ من ذلك، فمن العلامات التي جعلها الله خاصة بالأنبياء: أنهم لا يرون رؤيا إلا وهي تتحقق؛ فكان هذا للنبي ﷺ بمثابة توطئة لنبوته، وقد ذكر ابن كثير قصة نزول الناموس على محمد ﷺ، ثم قال: فهذا كالتوطئة لما جاء بعده من اليقظة، كما تقدم من قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[(١)].

ويحتمل أن هذا المنام كان بعد ما رآه في اليقظة صبيحة ليلتئذٍ، ويحتمل أنه كان بعده بمدة[(٢)].

فالسؤال: هل كون ورقة أخبر خديجة بنزول الناموس على محمد أن ذلك هو الأمر الوحيد الذي جعل محمدًا نبيًا؟ أم أن هناك مبشرات وإخبارات أخرى تؤكد لمحمد ﷺ أنه نبي؟ بالطبع هناك مبشرات كثيرة لذلك، فهل كان لورقة تدخل في هذه المبشرات؟!

---

(١) البخاري (٣)، ومسلم (٢٥٢، ١٦٠).

(٢) السيرة النبوية١/ ٤٠٤.

بالطبع لا، فالرؤيا ليس لورقة أدنى تدخل فيها؛ بل ولا الشيطان؛ لأن الشيطان لا يعلم الغيب حتى يأتي لمحمد في منامه ليخبره ما سيحدث، وفي الكتاب المقدس إقرار بأن الرؤيا الصالحة كانت من المبشرات الدالة على صدق الأنبياء: "سَتَأْتِي مُصِيبَةٌ عَلَى مُصِيبَةٍ، وَيَكُونُ خَبَرٌ عَلَى خَبَرٍ، فَيَطْلُبونَ رُؤْيَا مِنَ النَّبِيِّ، وَالشَّرِيعَةُ تُبَادُ عَنِ الْكَاهِنِ، وَالْمَشُورَةُ عَنِ الشُّيُوخِ". (سفر حزقيال: ٧/ ٢٦).

"تَاخَتْ فِي الأَرْضِ أَبْوَابُهَا. أَهْلَكَ وَحَطَّمَ عَوَارِضَهَا. مَلِكُهَا وَرُؤَسَاؤُهَا بَيْنَ الأُمَمِ. لاَ شَرِيعَةَ. أَنْبِيَاؤُهَا أَيْضًا لاَ يَجِدُونَ رُؤْيَا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ"(سفر مراثي أرميا: ٢/ ٩).

فثابتٌ عند المسلمين أن الرؤيا الصالحة وباقي المبشرات كانت من التوطئة لنبوة محمد، فلا يحق لغير المسلمين أن ينكروا ما ثبت بالأخبار الصحيحة والأسانيد المتصلة.

فإن قال قائل: فما سبب ذهاب محمد لورقة مع أنه رأي مبشرات أخرى غير الناموس تبين أنه نبي؟ قيل له: إما لأن المبشرات التي رآها النبي كانت بعد نزول الناموس؛ وإما لأن الإنسان إذا رأي في المنام رؤيا حتى ولو كانت تتحقق في الواقع قد لا ينزعج بقدر ما يرى أشياءً لم يرها من قبل فيفاجأ بها أمام عينيه، فموسى عندما كلَّمه الله لم يفزع بقدر ما فزع من تحول العصا لثعبان.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (القصص ٣١: ٢٩).

فالنبي محمد لو أنه رأي رؤيا توضح له أنه نبي أو أن الله كلَّمه ليخبره بأنه نبي ما كان ليفزع بقدر ما فزع من رؤية الناموس، فمحمد كان في الغار ولا يوجد أحد يصل إلى الغار إلا هو، فقد اختار غار حراء ليعتزل فيه عن الناس، وفجأة وجد جبريل أمام عينيه بالرغم من أنه لم

يسمع بصوت أقدام تتسلق الجبل؛ لتُعَرِّفه بأن أحدًا ما يريد الصعود للغار، ثم إن جبريل أمره بالقراءة وضمه، وكل ذلك أمورٌ عجيبة تستحق أن يفزع منها محمد ويخاف على نفسه.

شبهة: خطبة ورقة بن نوفل أثناء زواج النبيﷺمن خديجة.

الشبهة تتعلق بقولهم: (وخطب القس ورقة ولي أمر خديجة وقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضّلنا على ما عددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يردُّ أحدٌ من الناس فخركم ولا شرفكم، وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا يا معشر قريش بأني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله).

كما تكلم عمُّها عمرو بن أسد فقال: (اشهدوا عليّ يا معاشر قريش أنّي قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد وشهـد على ذلك صناديد قريش).

إذن القس ورقة لم يكن فقط حاضرًا حفلة الزواج ومتقدمًا على الحاضرين؛ بل كان محتفلًا بالعقد ومكللًا، فهو الذي أبرم العقد وشهد عليه وأعلن على الحضور ما جرى؛ فهو المحتفل الأول بالعقد أو قل هو الكاهن الذي ربط باسم الله ما لا يحل إنسان بحسب تعاليم الأبيونيين؛ كاهن نصراني يبارك الزواج فعلى أي دين يكون الزوجان إذن؟ ودليل واضح على تخطيط ورقة لإ نجاح مهمة محمد فيها بعد، فالقس دبَّر، والزوجة نفذت، والعم عضد، والنبي استسلم لإرادة الله؛ على هؤلاء قامت الدعوة الجديدة.

الردود على الشبهة من عدة وجوه :

١-الروايات الموثقة في الكتب المعتمدة لم تتعرض لمسألة خُطبة ورقة بن نوفل، ولا توكيله في عقد زواج النبي مع خديجة إلا ما في السيرة الحلبية[1]، ولكن نقول إذا تفرد

(١) السيرة الحلبية: يعتمد مؤلفها وهو علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي على كتاب عيون الأثر لابن سيد الناس واختصر منه الأسانيد، ومن سيرة الشمس للشامي، وحلّى كتابه بتوزيع همزية البوصيري بحسب أحداث السيرة، كما يذكر شيئًا من أبيات تائية السبكي، وأبيات ابن سيد الناس في ديوان: بشرى اللبيب بذكرى الحبيب، وكثيرًا ما ينسب النقول إلى قائليها وكتبهم، والأحاديث إلى مخرجيها وأحيانًا يحكم عليها، وقد أطال في آخر

كتاب من كتب السيرة برواية ليس لها إسناد صحيح، وكانت هذه الرواية غير مشهورة في كتب السيرة، فهذا دليل على عدم قبول هذه الرواية، فنقول: إن خطبة ورقة بن نوفل المشار إليها غير مقبولة من ناحية التحقيق العلمي.

٢- وحتى لو اعتمدنا على روايات السيرة الحلبية فسنجد أنها لا تدعم فكرة صاحب الشبهة بكون مخطَّطٍ دُبِّرَ لجعل محمد نبيًا، خصوصًا أن كتاب عيون الأثر لم يذكر تلك الخطبة[١].

٣-جاء في السيرة الحلبية: " أن خديجة -رضي الله تعالى عنها- قالت للنبي ﷺ: اذهب إلى عمك فقل له تعجل إلينا بالغداة، فلما جاءها معه رسول الله ﷺ قالت له: يا أبا طالب تدخل على عمي فكلمه يزوجني من ابن أخيك محمد بن عبد الله، فقال أبو طالب: يا خديجة، لا تستهزئي، فقالت: هذا صنع الله، فقام فذهب وجاء مع عشرة من قومه إلى عمها، وخطب أبو طالب يومئذ فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضئ معد - أي: معدنه -، وعنصر مضر- أي: أصله-، وجعلنا حَضَنة بيته -أي: المتكفلين بشأنه-، وسُوَّاس حرمه -أي: القائمين بخدمته-، وجعله لنا بيتا محجوجًا وحرمًا آمنا، وجعلنا حكام الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفًا ونبلًا وفضلًا وعقلًا، وإن كان في المال قل، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل وعارية مسترجعة، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة، وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله اثنتي عشرة أوقية ونشًا -وهو عشرون درهمًا والأوقية أربعون درهمًا-، وعند ذلك قال عمها عمرو بن أسد: هو الفحل لا يقدع كلاهما، وأنكحها منه. وقيل: قائل ذلك ورقة بن نوفل؛ أي: فإنه بعد أن

الكتاب الكلام على سرايا النبي وشمائله وخصائصه وصفاته. . . إلا أن الحلبي تصرف في روايات وزاد في كتابه من الحشو المذموم؛ حيث تم إدخال روايات أخرى ليس لها أصل في الكتب المعتمدة في سيرته.

و للشيخ أكرم ضياء العمري مقالة وجيزة عن الكتاب نصها:

. . . ومنها (السيرة الحلبية) لبرهان الدين الحلبي ت ٨٤١ هـ، فيه حشو وقصص إسرائيلية (أحال الدكتور العمري هنا إلى كتاب: تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي)، وقد حذف الحلبي أسانيد الروايات، واكتفي بذكر راوي الخبر، وشرح بعض الغريب، وإضافة تعليقات أخرى.

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس ١/ ٦٩؛ ذكر سفره ﷺ إلى الشام مرة ثانية وتزويجه خديجة.

خطب أبو طالب بما تقدم خطب ورقة فقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، لا ينكر العرب فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، ورغبتنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا عليَّ معاشر قريش أني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله وذكر المهر، فقال أبو طالب: قد أحببت أن يشركك عمها، فقال عمها: اشهدوا عليَّ معاشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد، وأولم عليها ﷺ ونحر جزورًا(١).

٤- ادعاء أن ورقة هو ولي أمر خديجة، وهذا ما تنفيه كل كتب السيرة، كيف يكون ورقة ولي أمرها وعمها موجود؟

قال ابن سيد الناس: وذكر ابن إسحاق أن أباها خويلد بن أسد هو الذي أنكحها من رسول الله ﷺ، وكذلك وجدته عن الزهري وفيه: وكان خويلد أبوها سكران من الخمر، فلما كلم في ذلك أنكحها فألقت عليه خديجة حلة وضمخته بخلوق، فلما صحا من سكره قال: ما هذه الحلة والطيب فقيل له: أنكحت محمدًا خديجة وقد ابتنى بها فأنكر ذلك ثم رضيه وأمضاه.

وقال محمد بن عمر: الثبت عندنا المحفوظ من أهل العلم أن أباها خويلد بن أسد مات قبل الفجار، وأن عمها عمرو بن أسد زوجها رسول الله ﷺ.

ورأيت ذلك عن غير الواقدي، وقد قيل: إن أخاها عمرو بن خويلد هو الذي أنكحها منه، والله أعلم(٢).

والراجح أن عمها الذي أنكحها:

قال محمد بن يوسف الصالحي الشامي: ما تقدم من أن عمها هو الذي زوجها رسول الله ﷺ ذكره أكثر علماء أهل السير.

قال السهيلي: وهو الصحيح؛ لما رواه الطبري عن جبير بن مطعم وابن عباس وعائشة كلهم قال: إن عمرو بن أسد هو الذي أنكح خديجة رسول الله ﷺ وإن خويلد كان قد

---

(١) السيرة الحلبية ١/ ٢٢٦، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي للعصامي ١/ ١٨٦.

(٢) (عيون الأثر ١/ ٧٢؛ ذكر سفره ﷺ إلى الشام مرة ثانية وتزويجه خديجة).

هلك قبل الفجار.

ورجحه الواقدي وغلَّط من قال بخلافه.

وقال عمر بن أبي بكر المؤملي: المجتمَع عليه أن عمها عمرو بن أسد هو الذي زوجها منه.

٥- والذي يؤكد ذلك أن أبا طالب رفض حديث ورقة (الذي تكلم بصفته عضوًا في الوفد ليس أكثر)، والدليل على استياء أبي طالب من حديث ورقة قوله بعد أن أنهى ورقة حديثه؛ قال أبو طالب: " قد أحببتُ أن يشركك عمها " ولهذا لم يتم عقد الزواج إلا بعد موافقة عمها الصريحة.

٦- اشتراط موافقة ولي أمر خديجة (عمها)، والمهر دليل على أن الزواج لم يكن حسب شريعة النصارى.

٧- لاحظوا النص الذي ذكره: (أرسلت خديجة إلى أعمامها فحضروا) وورقة ليس من أعمامها بل لم يُذكر (رغم حضوره مع الوفد)؛ لأن وجوده أقل أهمية من وجودهم.

٨- ليس لورقة كل تلك القداسة والمهابة والاحترام لدى قريش بل ولدى أقاربه.

٩-أخفى صاحب الشبهة قول ورقة: " ولا يردُّ أحدٌ من الناس فخركم وشرفكم ورغبتنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم "، بل حوّر الكلام بحيث يصبح الشرف والمكانة لورقة وأهله أسمى مما لبني هاشم كما هو متواتر في التاريخ.

١٠-كما حذف صاحب الشبهة اعتراض أبي طالب على حديث ورقة، فكيف دبر أمر الزواج إذن؟ ولماذا حذفه؟!

١١- هل التكليل لأمر الزواج يتم في بيت خديجة أم في الكنيسة؟

١٢-لماذا أصر أبو طالب أن يصدر الموافقة على الزواج من عم خديجة.

١٣- لا يوجد في كلام ورقة أي حرف يدل على النصرانية، وأين اختفت عبارات التكليل المعروفة؟

١٤- هل المهر والصداق المتقدم والمتأخر موجود عند النصارى؟ فهذا يبطل ادعاء أن ورقة كان قسًا وأنه مارس كهنوته من خلال زواج محمد من خديجة.

١٥-هل سأل الكاهن المكلل الحاضرين: من له اعتراض على الزواج فليتكلم، أو ليصمت إلى الأبد؟

١٦- القول بأن الزواج كان نصرانيًا، ودليلهم على زواج محمد من خديجة يتناقض مع قول بعض النصارى إن الإسلام مأخوذ عن النصرانية بدليل أن الهراطقة تمانع تعدد الزوجات؟

١٧- ومما قد يعكر أيضًا على ثبوت خطبة ورقة أن هناك إحدى الروايات تشير لعدم وجوده في زواج محمد من خديجة، ففي كتاب الكامل للمبرد قال: ويروى أن رسول الله ﷺ لما خطب خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي ذُكر لورقة بن نوفل فقال: محمد بن عبد الله يخطب خديجة بنت خويلد الفحل لا يقدع أنفه[1].

فهذا يدل على أن الزواج حدث ثم أُخبر ورقة بذلك، وأنه لم يحضر لعارض حدث له من سفر أو مرض، وقيل: لم يحضر؛ لأنه كان يريد الزواج من خديجة فاستحيا من الحضور وبالرغم من ذلك لم يُسقط من قدر النبي ﷺ.

شبهة: دور أبي طالب في زواج النبي ﷺ.

نص الشبهة: تتعلق بخطبة أبي طالب أثناء زواج النبي ﷺ من خديجة؛ حيث ألح أبو طالب على سيدنا محمد أن يعمل عند خديجة رضي الله عنها، وذلك لتأثير أبي طالب على سيدنا محمد ﷺ، وهذا هو المخطط الذي يُنفذ على يد أبي طالب وخديجة، ويَكمُن اشتراكُ أبي طالب في ذلك قوله: (وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل) فهذا التوقع يدل على تواطئه مع ورقة، إذن لم تبخل علينا كتب السير والأخبار فيما كان عليه القس والعم والزوجة، لقد كان لكل منهم دوره فيما دبَّر الله على أيديهم.

---

(١) الكامل في اللغة والادب١/ ٤٢، زهر الأكم في الأمثال والحكم١/ ٢٧٤.

قال اليوسي: أي: كريم يروم كريمة، فلا سبيل إلى التعرض له دونها وصده عنها، وهو أشرف أكفائها؛ زهر الأكم في الأمثال والحكم (١/ ٢٧٤).

والرد على الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: افتراء المعتدين.

إن هذا القول ما هو إلا سراب وأوهام ألقاها الشيطان في قلوب أعداء الدين، فبنوا أقوالهم على غير أصل، وكذبوا كذبة ثم صدقوها، وعلى أساسها وقعت الشبهة عندهم، ووالله لولا أن بعض هؤلاء نطق بهذا السخف وشغّب به ما كنا نلتفت إلى رده وقمعه، ولكن ماذا نصنع مع قلوب عمي، وآذان صم، ورحم الله من قال:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل.

الوجه الثاني: هل أبو طالب مكلف من ورقة لإقناع النبيﷺ بالزواج من خديجة؟

فإن أبا طالب كان مشركًا، كيف بمشرك يحقق الأهداف التي يرمي إليها القس ورقة لتنصير محمدﷺ، هل القساوسة يحققون أهدافهم الدينية عن طريق المشركين؟! نعم، قد يساعدك مشرك في أمور الدنيا، ولكن لا يمكن أن يشاركك أهدافك الدينية وغاياتك الأساسية، فالنبي ﷺ لم يقبل أن يشاركه أحد المشركين في الجهاد، والنبي ﷺ لم يكلف أبا طالب بالدفاع عنه، ثم دفاعه هذا لم يقصد به دفاعًا عن الدين ولكنه كان دفاعًا عن العصبية.

الوجه الثالث: قول أبي طالب: (وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل).

يدل على أن أبا طالب كان يتفرس في النبي ﷺ بأنه سيكون له شأنٌ عظيمٌ؛ بغض النظر عن هذا الشأن أنه سيكون له بسبب كونه سيصير نبيًا أو ملكًا أو غير ذلك.

ففي هذه الرواية -بافتراض صحتها-ليس فيها تخصيص صريح بأن هذا الشأن هو النبوة؛ لذلك لا نستطيع أن نبني عليه حكمًا.

* أبو طالب كان يتفرس في النبي ﷺ بأنه سيكون له شأنٌ عظيمٌ منذ صغره، فمن العرب من كان يتفرس في المولود الرضيع مثل تفرس الأعرابي في معاوية أنه سيكون مَلِكًا.

ولعل أوضح مثال على ذلك تفرس عبد المطلب في أنه سيكون للنبي شأنٌ، فقد كان يجلسه على أريكته ولم يفعل ذلك مع أولاده لا في صغرهم ولا كبرهم.

قال ابن إسحاق: حدثني العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله قال: كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة وكان لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالًا له، وكان رسول الله ﷺ يأتي حتى يجلس عليه، فيذهب أعمامه يؤخرونه فيقول جده: دعوا ابني، فيمسح ظهره ويقول: إن لابني هذا لشأنًا.

وروى أبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله؛ وزاد: دعوا ابني يجلس فإنه يحس من نفسه بشيء، وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه عربي قبله ولا بعده.

وروى ابن سعد وابن عساكر عن الزهري ومجاهد ونافع وابن جبير قالوا: كان النبي ﷺ يجلس على فراش جده فيذهب أعمامه ليؤخروه فيقول عبد المطلب: دعوا ابني ليؤنس ملكًا. وقال قوم من بني مدلج لعبد المطلب: احتفظ به فإنا لم نرَ قدمًا أشبه بالقدم التي في المقام منه. وقال عبد المطلب لأم أيمن: يا بركة احتفظي به، لا تغفلي عنه؛ فإن أهل الكتاب يزعمون أنه نبي هذه الأمة(١).

فهل عبد المطلب ومن كان من قوم بني مدلج: كلهم متواطئون مع ورقة بن نوفل.

الوجه الرابع: سبب عمل النبي ﷺ عند خديجة.

عمل النبي ﷺ عند خديجة لا لأنه يريد الزواج منها، ولا لأن أبا طالب ألحَّ عليه لخطة مرسومة؛ ولكن لضعف الحالة الاقتصادية في مكة، مما ألجأ الكثير من أهلها للعمل في التجارة؛ قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ (قريش١: ٢)، فما كان لمحمد ﷺ أن يظل مشتغلًا بالرعي تلك المهنة قليلة الدخل التي يستطيع الطفل أن يشتغل بها، لذلك نرى كثيرًا من أطفال أهل البادية يسرحون بقطيع من الغنم ولا يجدون صعوبة بالغة في ذلك.

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ٧٠، دلائل النبوة لأبي نعيم١/ ١١٩، الخصائص الكبرى للسيوطي١/ ١٣٧، سبل الهدى والرشاد٢/ ١٢٩ في كفالة عبد المطلب.

عن أم سعد بن الربيع عن نفيسة بنت أمية أخت يعلى سمعتها تقول: لما بلغ رسول الله ﷺ خمسًا وعشرين سنة وليس له بمكة اسم إلا الأمين؛ لما تكاملت فيه من خصال الخير. قال له أبو طالب: يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، وألحت علينا سنون منكرة ليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالًا من قومك في عيراتها؛ فيتجرون لها ويصيبون منافع، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك؛ لما يبلغها من طهارتك، وإني كنت لأكره أن تأتي الشام وأخاف عليك من اليهود، ولكن لا نجد من ذلك بدًا، وكانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال كثير وتجارة، وتبعث بها إلى الشام فيكون عيرها كعامة عير قريش، وكانت تستأجر الرجل وتدفع إليه المال مضاربة، وكانت قريش قومًا تجارًا من لم يكن تاجرًا فليس عندهم بشيء، قال رسول الله ﷺ: فلعلها أن ترسل إليَّ في ذلك. قال أبو طالب: إني أخاف أن تُولي غيرك؛ فتطلب أمرًا مدْبرًا، فافترقا فبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له، وقبل ذلك ما قد بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، فقالت: ما دريت أنه يريد هذا، ثم أرسلت إليه فقالت: إنه قد دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلًا من قومك، ففعل رسول الله ﷺ فلقي أبا طالب فقال له ذلك فقال: إن هذا لرزق ساقه الله إليك[1].

الوجه الخامس: ورد في السيرة أن أبا طالب قال لخديجة لما أخبرته بعزمها الزواج من سيدنا محمد ﷺ: أن خديجة رضي الله عنها قالت للنبي ﷺ: اذهب إلى عمك فقل له: عجل إلينا بالغداة، فلما جاء قالت له: يا أبا طالب، ادخل على عمروٍ عمي فكلمه يزوجني من ابن أخيك محمد بن عبد الله، فقال أبو طالب: يا خديجة لا تستهزئي، فقالت: هذا صنع الله، فقام أبو طالب مع عشرة من قومه[2].

فقول أبي طالب: يا خديجة لا تستهزئي دليل على أنه لم يكن من (المخططين) لهذا الزواج.

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني ١٠٥، نهاية الأرب في فنون الأدب٤/ ٢٤٢، عيون الأثر لابن سيد الناس ١/ ٦٩؛ ذكر سفره ﷺ إلى الشام مرة ثانية وتزويجه خديجة.

(٢) السيرة الحلبية ١/ ٢٢٦، سبل الهدى والرشاد٢/ ١٦٤ (الباب الرابع عشر في نكاحه ﷺ خديجة بنت خويلد.

شبهة: دور أخت ورقة بن نوفل لتنصير عبد الله بن عبد المطلب والد النبي ﷺ

نص الشبهة:

إن عبد الله أَبا النبي ﷺ مرّ بأُختِ ورَقَةَ بن نَوْفَلٍ، وهي تَنْظُرُ وتَعْتافُ فرأَتْ في وجهه نُورًا فدعته إِلى أَن يَسْتَبْضِعَ منها وتُعْطِيَهُ مائةً من الإِبل فأَبى.

فهذا دليل على استمالة ورقة بن نوفل لأخته لإعداد النبي محمد.

الرد على الشبهة:

الوجه الأول: ذكر روايات القصة:

١-**قال الطبري**: حدثني على بن حرب الموصلي، قال حدثنا محمد بن عمارة القرشي، قال: حدثنا الزنجي بن خالد، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: خرج عبد المطلب بعبد الله ليزوجه، مر به على كاهنة من خثعم يقال لها فاطمة بنت مر، متهودة من أهل تبالة قد قرأت الكتب، فرأت في وجهه نورًا، فقالت له: يا فتى، هل لك أن تقع عليَّ الآن وأعطيك مائة من الإبل، فقال: أما الحرام فالممات دونه، والحل لا حل فأستبينه، فكيف بالأمر الذي تبغينه؟! ثم قال: أنا مع أبي ولا أقدر أن أفارقه، فمضى به فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، فأقام عندها ثلاثًا ثم انصرف، فمر بالخثعمية فدعته نفسه إلى ما دعته إليه، فقال لها: هل لك فيما كنت أردت؟ فقالت: يا فتى، إني والله ما أنا بصاحبة ريبة، ولكني رأيت في وجهك نورًا فأردت أن يكون فيَّ، وأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد فما صنعت بعدي؟ قال: زوجني أبي آمنة بنت وهب، فأقمت عندها ثلاثًا فأنشأت فاطمة بنت مر تقول:

إني رأيت مخيلة لمعت فتلألأت بحناتم القطر

فلمأتها نورًا يضيء له ما حوله كإضاءة البدر

فرجوتها فخرًا أبوء به ما كل قادح زنده يورى

يورى لله ما زهرية سلبت ثوبيك ما استلبت وما تدرى

وقالت أيضًا:

بني هاشم قد غادرت من أخيكم أمينة إذ للباه يعتركان

كما غادر المصباح عند خموده فتائل قد ميهت له بدهان

وما كل ما يحوي الفتى من تلاده لعزم ولا ما فاته لتوان

فأجمل إذا طالبت أمرًا فإنه سيكفيكه جدان يعتلجان

سيكفيكه إما يد مقفعلة وإما يد مبسوطة ببنان

ولما حوت منه أمينة ما حوت حوت منه فخرًا ما لذلك ثان[1]

٢- عن يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، قال: ثم انصرف عبد المطلب آخذًا بيد عبد الله، فمر به فيما يزعمون على امرأة من بني أسد بن عبد العزى بن قصي، وهي عند الكعبة، فقالت له حين نظرت إلى وجهه: أين تذهب يا عبد الله؟ فقال: مع أبي، قالت: لك عندي من الإبل مثل التي نحرت عنك، وقَعْ عليَّ الآن فقال لها: إن معي أبي الآن؛ لا أستطيع خلافه ولا فراقه، ولا أريد أن أعصيه شيئًا، فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة؛ ووهب يومئذ سيد بني زهرة نسبًا وشرفًا، فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسبًا وموضعًا، وهي لبرة بنت عبد العزى بن عثمان ابن عبد الدار بن قصي، وأم برة: أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي، وأم حبيب بنت أسد: لبرة بنت عوف بن عبيد؛ يعني: ابن عويج بن عدي بن كعب بن لؤي. قال: وذكروا أنه دخل عليها حين ملكها مكانه، فوقع عليها عبد الله، فحملت برسول الله ﷺ، قال: ثم خرج

---

(١) **إسناده ضعيف.** أخرجه الطبري في تاريخه ٢/ ٦، وأبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في عيون الأثر١/ ٧٥، السيرة لابن كثير١/ ٢٠٤ كلاهما عن علي بن حرب به. قال أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي: تفرد به محمد بن عمارة القرشي عن مسلم بن خالد الزنجي، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس.

الإرشاد في معرفة علماء الحديث لأبي يعلى الخليلي٢/ ٢٤. ومحمد بن عمارة القرشي: ثقة؛ مسلم بن خالد الزنجي: ضعفه أبوداود وغيره؛ تهذيب الكمال، الجرح والتعديل (٢٦٦٤).

وابن جريج لم يسمع من عطاء، وإن قيل: إن إسناد ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس: في صحيح البخاري، قيل له؛ لأن البخاري اشترط السماع، فقد تخير رواية المدلسين عن مشايخهم، فتخير الروايات التي سمعوها منهم حتى ولو ذكروها بالعنعنة- فأثبتها وترك الروايات التي لم يسمعوها.

من عندها حتى أتى المرأة التي قالت له ما قالت، وهي أخت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وهي في مجلسها، فجلس إليها، وقال لها: ما لك لا تعرضين علي اليوم مثل الذي عرضت أمس؟ فقالت: قد فارقك النور الذي كان فيك، فليس لي بك اليوم حاجة، وكانت فيما زعموا تسمع من أخيها ورقة بن نوفل، وكان قد تنصر واتبع الكتب؛ يقول: إنه لكائن في هذه الأمة نبي من بني إسماعيل، فقالت في ذلك شعرًا، واسمها أم قتال بنت نوفل بن أسد:

آلآن وقد ضيعت ما كنت قادرًا عليه ... وفارقك الذي كان جاءكا

غدوت عليّ حافلًا قد بذلته ... هناك لغيري فالحقن بشانكا

ولا تحسبني اليوم خلوًا وليتني ... أصبت جنينًا منك يا عبد داركا

ولكن ذاكم صار في آل زهرة ... به يدعم الله البرية ناسكا

وقالت أيضًا:

عليك بآل زهرة حيث كانوا ... وآمنة التي حملت غلاما

ترى المهدي حين ترى عليه ... ونورا قد تقدمه أماما

وذكرت أبياتًا، وقالت فيها:

فكل الخلق يرجوه جميعًا ... يسود الناس مهتديًا إماما

براه الله من نور صفاء ... فأذهب نوره عنا الظلاما

وذلك صنع ربك إذ ... حباه إذا ما سار يوما أو أقاما

فيهدي أهل مكة بعد كفر ... ويفرض بعد ذلكم الصياما

قلت: وهذا الشيء قد سمعته من أخيها في صفة رسول الله ﷺ، ويحتمل أن كانت أيضًا امرأة عبد الله مع آمنة[1].

٣- **قال ابن إسحاق**: انصرف عبد المطلب آخذًا بيد عبد الله، فمرَّ به - فيما يزعمون - على امرأةٍ من بني أسد ابن عبد العزى بن قصي، وهي عند الكعبة، فقالت له حين نظرت

(١) دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٣٢، السيرة النبوية لابن كثير ١/ ١٧٦، وإسناده معضل ابن إسحق لم يدرك القصة.

إلى وجهه - فيما يذكرون -: أين تذهب يا عبد الله؟ قال: مع أبي، قالت: لك عندي مثل الإبل التي نحرت عنك وقَعْ عليَّ الآن، فقال: إن معي أبي الآن؛ ولا أستطيع خلافه ولا فراقه، ولا أريد أن أعصيه شيئًا، فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة، ووهب يومئذٍ سيد بني زهرة نسبًا وشرفًا، فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسبًا وموضعًا، وهي لبرة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي، وأم برة: أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي، وأم حبيب بنت أسد لبرة بنت عوف بن عبيد بن كعب بن لؤي.

قال ابن إسحاق: فذكروا أنه دخل عليها حين مَلَكها مكانه، فوقع عليها عبد الله، فحملت برسول الله ﷺ، فخرج من عندها حتى أتى المرأة التي قالت له ما قالت؛ وهي أخت ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد العزى؛ وهي في مجلسها، فجلس إليها، وقال: مالك لا تعرضين عليَّ اليوم مثل الذي عرضت عليَّ أمس؟ قالت: فارقك النور الذي كان فيك، فليس لي بك اليوم حاجة.

قال ابن إسحاق: وكانت فيما ذكروا تسمع من أخيها ورقة بن نوفل، وكان قد تنصر واتبع الكتب، ويقول: إنه لكائن في هذه الأمة نبي من بني إسماعيل، فقالت في ذلك شعرًا، واسمها أم قبال ابنة نوفل بن أسد، كذا قال: أم قبال:

الآن وقد ضيعت ما كنت قادرًا ... عليه وفارقك الذي كان جابكا

غدوت عليَّ حافلًا قد بذلته ... هناك لغيري فالحقن بشأنكا

ولا تحسبني اليوم جلوا وليتني ... أصبت حبيبًا منك يا عبد داركا

ولكن ذاكم صار في آل زهرة ... به يدعم الله البرية ناسكا

فأجابها عبد الله فقال:

تقولين قولًا لست أعلم ما الذي ... يكون وما هو كائن قبل ذلك
فإن كنت ضيعت الذي كان بيننا ... من العهد والميثاق في ظل دارك
فمثلك قد أصبت عند كل حله ... ومثلي لا يستام عند الفوارك

فقالت له أيضًا أم قبال:

عليك بآل زهرة حيث كانوا ... وآمنة التي حملت غلاما
يرى للمهدي حين يرى ... عليه ونور قد تقدمه أماما
فيمنع كل محصنة حر يد ... إذا ما كان مرتديًا حساما
وتحقره الشمال وبان منها ... رياح الجدب تحسبه قتاما
فأنجبه ابن هاشم غير شك ... وءادته كريمته هماما
فكل الخلق يرجوه جميعًا ... يسود الناس مهتديًا إماما
براه الله من نور مصفي ... فأذهب نوره عنا الظلاما
وذلك صنع ربك إذ حباه ... إذا ما سار يومًا أو أقاما
فيهدي أهل مكة بعد كفر ... ويفرض بعد ذلكم الصياما

وقال عبد المطلب:

دعوت ربي مخفيًا وجهرا ... أعلنت قولي وحمدت الصبرا
يا رب لا تنحر بني نحرًا ... وفاده بالمال شفعًا ووترا
أعطيتك من كل سوام عشرًا ... أو مائة دهما وكمتا وحمرا
معروفة أعلامها وصحرا ... لله من مالي وفاء ونذرا
عفوا ولم تشمت عيونًا خزرا ... بالواضح الوجه المزين عذرا
فالحمد لله الأجل شكرا ... أعطاني البيض بني زهرا
ثم كفاني في الأمور أمرا ... قد كان أشجاني وهد الظهرا
فلمست والبيت المغطى سترا ... واللات والركن المحاذى حجرا

منك لأنعمك إلهي كفرا ... ما دمت حيًا وأزور القبرا[١]

٤- قال الزبير: وكان عبد الله أحسن رجل مرئي في قريش قط، وكان أبوه عبد المطلب قد مرَّ به فيما يزعمون على امرأة من بني أسد بن عبد العزى، وهي أخت ورقة بن نوفل وهي عند الكعبة فقالت له: أين تذهب يا عبد الله؟ قال: مع أبي قالت: لك مثل الإبل التي نحرت عنك ـ وكانت مائة ـ وقَعْ علي الآن قال: أنا مع أبي، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه وأنشد بعض أهل العلم في ذلك لعبد الله بن عبد المطلب:

أما الحرام فالمات دونه ... و الحل لا حل فأستبينه

فكيف بالأمر الذي تبغينه ... يحمي الكريم عرضه ودينه[٢]

٥- عن يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، قال: حدثني والدي إسحاق بن يسار، قال: حدثت أنه: « كان لعبد الله بن عبد المطلب امرأة مع آمنة بنت وهب بن عبد مناف، فمر بامرأته تلك وقد أصابه أثر من طين عمل به، فدعاها إلى نفسه، فأبطأت عليه لما رأت من أثر الطين، فدخل، فغسل عنه أثر الطين، ثم دخل عامدًا إلى آمنة، ثم دعته صاحبته التي كان أراد إلى نفسها، فأبى للذي صنعت به أول مرة، فدخل على آمنة، فأصابها، ثم خرج، فدعاها إلى نفسه، فقالت: لا حاجة لي بك، مررت بي وبين عينيك غرة، فرجوت أن أصيبها منك، فلما دخلت على آمنة ذهبت بها منك. قال ابن إسحاق: فحدثت أن امرأته تلك كانت تقول: مر بي وإن بين عينيه لنورًا مثل الغرة، ودعوته له رجاء أن يكون لي، فدخل على آمنة، فأصابها، فحملت برسول الله ﷺ»[٣].

الوجه الثاني: كيف يليق بالقس أن يُحَفِز أخته أن تزني بعبد الله والد محمد؟!

---

(١) السيرة النبوية لابن إسحاق (١/ ٨)، تاريخ الرسل والملوك١/ ٣٦٧، ذكره الواقدي (١/ ٣٥).

(٢) عيون الأثر١/ ٧٥، والسيرة لابن كثير١/ ٢٠٤.

(٣) دلائل النبوة للبيهقي (٢٣)، سيرة ابن هشام١/ ١٥٦.

ويبدو من بعض النصوص السابقة أنها كانت من بغايا المعابد الوثنية كما في هذه الرواية: (قد مر به فيما يزعمون على امرأة من بني أسد بن عبد العزى وهي أخت ورقة بن نوفل وهي عند الكعبة فقالت له: أين تذهب يا عبد الله؟ قال: مع أبي، قالت: لك مثل الإبل التي نحرت عنك ـ وكانت مائة ـ وقَعْ علي الآن[1]).

فهذه الرواية توضح جرأتها الشنيعة بأنها طلبت منه الزنا وهي عند الكعبة، وهذا الأمر لا تفعله إلا امرأة قد استحلَّت الزنا فصارت لا تعبأ بالوقوع فيه حتى ولو كانت عند الكعبة.

الوجه الثالث: فبافتراض أن عبد الله استمع لأمر أخت ورقة وجامعها لإنجاب محمد، فهل يليق برجل يؤهله ورقة لأمر النبوة أن يكون قد أتى من سفاح؟! وكيف يليق هذا بامرأة كانت تقرأ الكتاب المقدس، وتأتمر بأمر القس، وتدَّعي أنها من الراهبات المتطلعات لظهور نبي آخر الزمان؟!

فإحدى الروايات تقول: (مر به على كاهنة من أهل تبالة متهودة قد قرأت الكتب)[2].

كيف يليق بها أن تُعَرِّض نفسها للزنا؟ أهذا من تعاليم الكتاب المقدس وتطبيق محكم لنشيد الإنشاد؟!

فالواضح من الرواية أنها طلبت من عبد الله الفاحشة فأبى، وفي اليوم التالي عرض هو عليها فأبت، وعللت إباءها بأن النور الذي كان في وجهه قد زال، وفي هذا اتهام لعبدالله، وفلسفة للفاحشة بأنها كانت رغبة في النور! وليس نور النبوة إفراز عضو ولا إشراقة وجه! والرواية ظاهرة الاختلاق، وهي ذم في صورة مدح، هذا وقد جاء بعدُ أنها طلبت منه الزواج.

الوجه الرابع: النص يوضح أن والد محمد بعد ما فرغ من جماع آمنة، رجع لأخت ورقة، ألم يكتفِ بالجماع من سيدة قريش؟ أيرضى بالدون بعد ما شَرُف بزواجه منها؟! فهذا لايليق برجل يتفطن فيه ورقة أنه سيكون والد نبيه، والعجيب أن رواية تصفه بأنه يتعفف عن الزنا، ورواية أخرى تدل على أنه ما منعه عن الزنى إلا لوجود عبد المطلب معه.

---

(١) عيون الأثر ١/ ٧٥، السيرة لابن كثير ١/ ٢٠٤.

(٢) عيون الأثر ١/ ٧٥، السيرة لابن كثير ١/ ٢٠٤.

الوجه الخامس: فهذه الروايات السابقة تدحض ما يدَّعيه النصارى من قداسة القس ورقة وأخته، فتدل بصراحة أن هناك قاعدة لديهما وهي الغاية تبرر الوسيلة، ففِعل الزنا طالما أنه يهدف لغاية حميدة فلا بأس به، وهذا ما لا يرضاه كل عاقل من النصارى فضلًا عن قساوستهم، فلا يَشرُف لهم أن يدَّعو بأن دعوة ورقة دعوة مسيحية.

الوجه السادس: وهو الاختلاف في اسم المرأة التي دعت عبد الله لنفسها، فهناك رواية تذكر أنها كاهنة من أهل تبالة متهودة يقال لها: فاطمة بنت مر الخثعمية[(١)].

الوجه السابع: مسألة النور الذي رأته أخت ورقة، لماذا لم تره أخريات من الراهبات في مكة؟ فأنتم تدَّعون أن مكة كانت معقلًا للنصارى، وكان منهم من علم باقتراب ظهور النبي الخاتم، وكان من الطبيعي أن يتفرسوا أهل مكة واحدًا واحدًا.

الوجه الثامن: من الواضح أن عبد المطلب لم يكن متواطئًا مع ورقة كما تدعون، أو أن عبد المطلب كان نصرانيًا أو كان على علاقة وطيدة مع النصارى، فالسؤال: لماذا لم يُحرِّض عبد المطلب ابنه عبد الله على الزواج من أخت ورقة، كما ادعيتم أن أبا طالب حرَّض محمدًا للزواج من خديجة، وذلك كله لكي يتم الهدف المنشود وهو النبوة؟

الوجه التاسع: وعلى افتراض صحة رواية طلب المرأة الفاحشة من والد النبي، فنقول كما قال ابن كثير: وهذه الصيانة لعبد الله ليست له وإنما هي لرسول الله ﷺ، فإنه كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾. وقد تقدم الحديث المروي من طريق جيد أنه

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه ٢/ ٦، وأبو بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي في عيون الأثر١/ ٧٥، السيرة لابن كثير١/ ٢٠٤؛ وهي أصح من الرواية التي تقول أنها أخت ورقة بن نوفل؛ عيون الأثر١/ ٧٥، السيرة لابن كثير١/ ٢٠٤، السيرة النبوية لمحمد بن إسحاق١/ ٨)، تاريخ الرسل والملوك١/ ٣٦٧، ذكره الواقدي (١/ ٣٥).

قال النويري: قد اختُلف في هذه المرأة، فمنهم من يقول: هي قتيلة بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهي أخت ورقة بن نوفل. قال السهيلي: اسمها: رقيقة بنت نوفل تكنى أم قتال، وهي أخت ورقة بن نوفل. ومنهم من يقول: هي فاطمة بنت مر الخثعمية، وقيل غيرها. . . فأما عبد الملك بن هشام فقال: فمر به على امرأةٍ من بني أسد، وهي أخت ورقة بن نوفل، وقال الواقدي: هي قتيلة بنت نوفل. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها امرأةٌ من بني أسد، وهي أخت ورقة. نهاية الأرب في فنون الأدب٤/ ٢٣٠.

قال ﷺ: " وُلدت من نكاح لا من سفاح "[١].

وإننا نعيب أولًا على أخت ورقة، فإن عبد الله كان مشركًا ليس لديه دين يُوضح حرمة الزنا، وكان الزنا معلنًا به عند أصحاب الرايات.

شبهة: دور أم أيمن في نبوة محمد ﷺ.

نص الشبهة:

أم أيمن واسمها بركة، وهي حبشية مسيحية، وهي حاضنة محمد، لها دور في تنصير محمد " فكان محمد طفلًا في حضانة مسيحية ".

الرد على الشبهة:

١ - التعريف بأم أيمن:

أم أيمن الحبشية، مولاة رسول الله ﷺ، وحاضنته، ورثها من أبيه، ثم أعتقها، اسمها: بركة. وقد تزوجها عبيد بن الحارث الخزرجي، فولدت له: أيمن. ولأيمن هجرة وجهاد، استشهد يوم حنين. ثم تزوجها زيد بن حارثة ليالي بعث النبي ﷺ، فولدت له أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ.

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ يَجْعَلُ للنبي ﷺ النَّخلاَتِ حَتَّى افْتَتَحَ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرَ، وَإِنَّ أَهْلِي أَمَرُونِي أَنْ آتِيَ النبي ﷺ فَأَسْأَلَهُ الَّذِينَ كَانُوا أَعْطَوْهُ أَوْ بَعْضَهُ. وَكَانَ النبي ﷺ قَدْ أَعْطَاهُ أُمَّ أَيْمَنَ، فَجَاءَتْ أُمُّ أَيْمَنَ فَجَعَلَتِ الثَّوْبَ في عنقي تَقُولُ: كَلاَّ والذي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، لاَ يُعْطِيكَهُمْ وَقَدْ أَعْطَانِيهَا، أَوْ كَمَا قَالَتْ، والنبي ﷺ يَقُولُ « لَكِ كَذَا » وَتَقُولُ كَلاَّ وَالله،

---

(١) السيرة النبوية١/ ٢٠٤، وحديث (خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبى وأمي فأنا خيركم نفسًا وخيركم أبًا)رواه الحاكم في تاريخه، والبيهقي في الدلائل وضعفه، والديلمي، وابن عساكر عن أنس).

وأخرجه البيهقي في الدلائل (١/ ١٧٤) وقال: تفرد به أبو محمد عبد الله بن محمد بن ربيعة القدامي، وله عن مالك وغيره أفراد لم يتابع عليها، وابن عساكر (٣/ ٤٧)، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ٢٥٥): حديث غريب جدًّا من حديث مالك تفرد به القدامي وهو ضعيف، وقد ضعفه الذهبي في الميزان (٢/ ٤٨٨).

حَتَّى أَعْطَاهَا، حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: « عَشَرَةَ أَمْثَالِهِ »[١].

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: انْطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ فَنَاوَلَتْهُ إِنَاءً فِيهِ شَرَابٌ -قَالَ- فَلاَ أَدْرِى أَصَادَفَتْهُ صَائِمًا أَوْ لَمْ يُرِدْهُ، فَجَعَلَتْ تَصْخَبُ عَلَيْهِ وَتَذَمَّرُ عَلَيْهِ.[٢]

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ الله ﷺ لِعُمَرَ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَزُورُهَا، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ، فَقَالاَ لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ مَا عِنْدَ الله خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَقَالَتْ: مَا أَبْكِى أَنْ لاَ أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ الله خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَلَكِنْ أَبْكِى أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ فَجَعَلاَ يَبْكِيَانِ مَعَهَا.[٣]

وفي ذلك دليل على حسن إسلام أم أيمن وتضحياتها من أجل هذا الدين لا من أجل النصرانية كما يزعمون.

٢-هل من المعقول أن يُسلِّم النصارى أبناءهم إلى المسيحيين الذين قتّلوهم وأجبروهم على الرحيل إلى صحراء العرب بدعوى أنهم هراطقة؟!

٢- لم يُذكر في ترجمة أم أيمن في كتب التاريخ والسير المعتمدة أنها كانت نصرانية، فالذي ذُكر أنها حبشية، وليس كل حبشي نصراني.

٣-نبينا محمد ﷺ وهو في حضانة أم أيمن كان متعلقًا بماء زمزم لا بماء التعميد:

عن أم أيمن رضي الله عنها قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ شكا صغيرًا ولا كبيرًا جوعًا ولا عطشًا، كان يغدو فيشرب من ماء زمزم فأعرض عليه الغداء فيقول: لا أريده أنا شبعان»[٤].

شبهة: تغلغل النصرانية في شبه الجزيرة العربية في العهد الجاهلي.

نص الشبهة: نَجِدُ في المدينة في معية محمد حاشية مسيحية ويهودية قد أسلمت أو سايرت الإسلام، نجد بلالًا الحبشي مؤذن النبي، وصهيبًا الرومي المسيحي الثري، وسلمان الفارسي

(١) البخاري (٣١٢٨، ٤٠٣٠، ٤١٢٠)، ومسلم (١٧٧١).

(٢) مسلم (٦٤٧١).

(٣) مسلم (٦٤٧٢).

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد١/ ١٦٨.

المسيحي الأصل، وعبد الله بن سلام اليهودي الوحيد الذي أسلم في المدينة مع كعب الأحبار، وهل كان حديث هذه الحاشية الكريمة سوى التوراة والإنجيل؟

إن ذلك حجة قاطعة على أن بيئة النبي والقرآن كانت كتابية من كل نواحيها، وأن ثقافة محمد والقرآن كتابية في كل مظاهرها، وذلك بمعزل عن الوحي والتنزيل)[١].

الرد على الشبهة:

الوجه الأول: إن هذه الحاشية المسيحية واليهودية -كما يزعمون- التي قد أسلمت؛ لدليل واضح على أن الديانات قبل الإسلام حُرِّفت، فلذا لم يسعْ هؤلاء بعد أن عرفوا الحق إلا أن يتركوا ما هم عليه من الباطل ويتبعوا هذا النبي.

قال رسول الله ﷺ لزيد بن عمرو: ما لي أرى قومك قد شنفوا لك، فقال: أما والله، إن ذلك لبغير نائرة كانت مني إليهم ولكني أراهم على ضلالة، فخرجت أبتغي هذا الدين حتى قدمت على أحبار يثرب، فوجدتهم يعبدون الله، ويشركون به، فقلت: ما هذا بالدين الذي أبتغي، فخرجت حتى أقدمت على أحبار خيبر فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به، فقلت: ما هذا بالدين الذي أبتغي، فخرجت حتى قدمت على أحبار فدك فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به، فقلت: ما هذا بالدين الذي أبتغي، خرجت حتى أقدمت على أحبار أيلة فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به، فقلت: ما هذا بالدين الذي أبتغي، فقال لي حبر من أحبار الشام: أتسل عن دين ما تعلم أحدًا يعبد الله به إلا شيخًا بالجزيرة، فخرجت فقدمت عليه فأخبرته بالذي خرجت له، فقال: إن كل من رأيت في ضلال؛ إنك تسأل عن دين هو دين الله ودين ملائكته، وقد خرج في أرضك نبي أو هو خارج يدعو إليه، ارجع فصدقه واتبعه وآمن بما جاء به.[٢]

الوجه الثاني: نفى (نِلسُن) أن تكون اليهودية أو المسيحية قد أثَّرتا في وجود التوحيد عند العرب، ففي رأيه أن اليهود كان إلههم الخاص بهم ولم يكن إلهًا عالميًا، كما أن المسيحية التي ظلت حتى عصر

(١) القرآن والمبشرون (ص: ٩٤-٩٥).

(٢) حديث صحيح سبق تخريجه.

محمد ﷺ لم تكن توحيدية بل كانت متعددة الآلهة، فالمسيح وأمه كانا يُقدسان كإلهين[١].

الوجه الثالث: من أهم ما يرد عليهم أن ورقة عندما أراد أن يتنصر ويتعلم دين النصرانية ذهب إلى الشام، وهذا لعدم توفر ذلك في الجزيرة العربية، فكان على الشرك قبل هذا؛ لأنه نشأ في بيئة وثنية.

الوجه الرابع: الواقع يشهد أن ديانة العرب المنتشرة في الجزيرة هي الشرك.

والسؤال هو: أين دليلهم على أن الجزيرة كانت على النصرانية؟

١- قال المستشار نجيب وهبة (النصراني، المستشار بمجمع اللغة العربية سابقًا): كانت كثرةُ العرب في الجاهلية وثنيةً تؤمن بقوى إلهية كثيرة تنبث في الكواكب ومظاهر الطبيعة[٢].

ثم قال: نجران أهم مواطن المسيحية، ثم ذكر عدة أسماء للقبائل التي تنصرت في شبه الجزيرة، ولم يفصل في وجود كنائس أو قبائل نصرانية في مكة[٣].

٢- وجود ثلاثمائة وستين صنمًا عند الكعبة[٤]، فإن عمرو بن لحي الخزاعي قد جلب الأصنام إلى مكة وغيرها، ودعا الناس إلى عبادتها، ومنها: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسرًا.

ثم اتخذ العرب أصنامًا أخرى ومنها: صنم مناة بقديد، واللات بالطائف، والعزى بوادي نخلة، وهبل في جوف الكعبة، وأصنام حول الكعبة، وأصنام في بيوتهم، واحتكم الناس إلى الكهان والعرافين والسحرة[٥].

فالذي يهمنا هي مكة موطن محمد ومبعثه، التي تؤكد كتب التاريخ أن غالب أهلها كانوا على الشرك.

الوجه الرابع: قال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي[٦].

---

(١) التاريخ العربي القديم: نلسن ديتلف وآخرون؛ ترجمة فؤاد حسنين وزكي محمد-نقلًا من كتاب: ورقة بن نوفل مبشر الرسول لغسان عزيز حسن (٢٨).

(٢) إشراقة شمس المسيحية في شبه الجزيرة العربية ٦١.

(٣) المصدر السابق صـ١٣١.

(٤) ابن الأثير في ذكر فتح مكة ١/ ٣٣٢.

(٥) فتاوى الإسلام سؤال وجواب ١/ ٥٦٨.

(٦) البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

فإذا كان محمد نصرانيًا، وإذا كان المجتمع نصرانيًا، فلماذا حدث العداء، فلم يصدِّقوه بل حاربوه، حتى إن القبائل النصرانية بالجزيرة العربية -التي يشهد التاريخ الصحيح بأنها نصرانية- لم تنطوِ له بسهولة.

الوجه الخامس: الحركة الدينية اليهودية والنصرانية في مكة لم تكن مزدهرة؛ بل كان الشرك هو المسيطر: لم يظهر بين يهود الجزيرة العربية مَنْ اشتهر بعلم أو فقه أو فلسفة، وهذا يدل بالضرورة على عدم ازدهار الحركة الفكرية والثقافية عندهم، فهم آثروا البقاء منعزلين عن العالم، مكتفين بأبسط أنواع الحياة[1].

الوجه السادس: من الأدلة على ضعف الحركة الدينية اليهودية والنصرانية في مكة عدم استغلال النصارى للشعر لتقوية موقفهم في مكة ونشر دينهم، فإن هذا كان أهم وسيلة لنشر دينهم، فلا يختلف الشعر النصراني عن شعر الشعراء الوثنيين بشيء، فمن الصعب على الباحث أن يجد فرقًا كبيرًا بين شعر الشعراء النصارى وشعر الشعراء الوثنيين، ولهذا ذهب بعض المستشرقين إلى أن من الصعب التحدث عن وجود شعر نصراني عربي له ميزات امتاز بها عن الشعر الوثني قبل الإسلام[2].

الوجه السابع: من حكمة الله تعالى وتقديره، أنه لم يُعلم في مكة يهودي واحد، واليهود استقبلوا محمدًا ﷺ بعد الهجرة بالعداوة صراحة.

الوجه الثامن: لم يكن في مكة أي كتاب ديني مدون، ولا مدرسة، ولا فلاسفة كما كانت عليه حضارات اليونان والصين وفارس والهند. كما أنه لم يُعرف عن اليهود في كل الجزيرة العربية نبوغٌ فكريٌ ورقيٌ حضاريٌ، وفاقد الشيء لا يعطيه.

ولم يكن النصارى أحسن حالًا منهم، بل كانوا لا يملكون حتى التميز بشعر خاص بهم -على الأقل-، وهذا ما يؤكده المستشرقون من أتباع دينهم.

* * *

(١) انظر العرب قبل الإسلام د/ جواد علي ٦/ ٨، ود/ إسرائيل ولفنسون؛ تاريخ اليهودية في بلاد العرب ٤٢.

(٢) انظر العرب قبل الإسلام د/ جواد علي.

١٦- شبهة: ادعاؤهم تلقي النبي الوحي من بحيرى.

نص الشبهة:

زعموا أنه من الممكن أن يكون رسول الله ﷺ تلقَّف الوحي من بحيرى الراهب.

فالنصارى يرون أن الإسلام ما هو في حقيقة الأمر إلا دعوى مسيحية! فعندهم أن الراهب بحيرى اختار محمدًا ليكون نبيًا للعرب وفق مسوّدة أعمال كان قد أعدها بالاتفاق مع "القس" ورقة بن نوفل وبالاشتراك مع خديجة أيضًا!

والرد على هذه الشبهة من وجوه(١):

الوجه الأول: بيان بطلان الروايات التي أشارت إلى مقابلة النبي لأحد الرهبان.

الوجه الثاني: بحيرى ليس له أصل في الروايات الصحيحة، وذلك عند التحقيق العلمي للروايات، بل هو شخصية مجهولة، ولم يُذكر اسمه إلا في الروايات الموضوعة والمقطوعة.

الوجه الثالث: إذًا؛ إنها دعوى مجردة من الدليل.

الوجه الرابع: التعريف ببحيرى في كتب التاريخ مع العلم بأن الروايات التي ذكرت اسمه ضعيفة.

الوجه الخامس: بحيرى ليس من الصحابة.

الوجه السادس: تضعيف من ظن أن لبحيرى أحاديث سمعها من النبيﷺ.

الوجه السابع: تضعيف آثار لا تثبت تتحدث عن فضائل بحيرى.

الوجه الثامن: هل زار بحيرى مكة أو المدينة؟

الوجه التاسع: لا يليق أبدًا بقسٍّ كبحيرى أن يحلف باللات والعزى حتى ولو كان يختبر محمدًاﷺ.

الوجه العاشر: إن اللقاء بين محمد ﷺ وبحيرى لا يعدو الساعة أو الساعتين في كلا اللقاءين ولو حدثت قصة اللقاء لأثارت جدلًا في قريش.

---

(١) راجع ما ذُكر في الرد على شبه الاقتباس من ورقة، والتوراة وغيرهما.

الوجه الحادي عشر: يستحيل في مجرى العادة أن يتم إنسان على وجه الأرض تعليمه وثقافته في لقاءين ليجعله ذلك أستاذ العالم كله.

الوجه الثاني عشر: حتى ولو أثبتنا أن بحيرى لقي النبيﷺ، فإنه لم يثبت ذكر تعلُّمِ النبي ﷺ من بحيرى.

الوجه الثالث عشر: بحيرى مُبشر لا مُعلم.

الوجه الرابع عشر: ذكر خبر بحيرى في كتب السيرة تدل على الأمانة العلمية عند علماء السيرة.

الوجه الخامس عشر: هل يصح لراهب أن يكذب؟

الوجه السادس عشر: لو كان مصدر هذا الفيض الإسلامي المعجز هو بحيرى لكان هو الأحرى بالنبوة والرسالة.

الوجه السابع عشر: الأديان التي كانت في عصر نزول القرآن ما كانت تصلح لأستاذية رشيدة؛ بل كانت هي في أشد الحاجة إلى أستاذية رشيدة.

الوجه الثامن عشر: لو كانت روايتى لقاء النبي ﷺ ببحيرى صحيحة لما خاف محمد ﷺ يوم ظهر له جبريل.

الوجه التاسع عشر: لو ثبت لقاء بحيرى للنبي ﷺ لكان أرجى في قبول أبي طالب الإسلام.

الوجه العشرون: أين ذكر بحيرى في كتب النصارى؟.

الوجه الحادي والعشرون: بحيرى لم يكلم النبي مباشرة، إنما كان يتكلم مع الناس عنه.

الوجه الثاني والعشرون: لو كان سجود الشجر للنبي ﷺ صحيحًا وقد رآه الناس لما حدث من اعتراضات للمشركين على النبي ﷺ.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: بيان بطلان الروايات التي أشارت إلى مقابلة النبي لأحد الرهبان.

جميع الروايات التي تذكر مقابلة النبي ﷺ لرجل من الرهبان باطلة، إلا رواية واحدة اختلف العلماء فيها، ألا وهي رواية أبي موسى الأشعري: وهي تصف مقابلة الراهب مع النبي ﷺ في صغره، أما الروايات التي تصف مقابلته والنبي شابًا فهي روايات ضعيفة،

وقد وضعتُ كل الروايات الضعيفة –المجمع على ضعفها–في آخر البحث.

رواية أبي موسى الأشعري:

عن قراد أبي نوح قال: أنبأ يونس بن أبي إسحاق، عَنْ أَبِى بَكْرِ بْنِ أَبِى مُوسَى، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: خَرَجَ أَبُو طَالِبٍ إِلَى الشَّامِ وَخَرَجَ مَعَهُ النبي ﷺ في أَشْيَاخٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا أَشْرَفُوا عَلَى الرَّاهِبِ هَبَطُوا فَحَلُّوا رِحَالَهُمْ فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الرَّاهِبُ وَكَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَمُرُّونَ بِهِ فَلاَ يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَلْتَفِتُ. قَالَ: فَهُمْ يَحُلُّونَ رِحَالَهُمْ فَجَعَلَ يَتَخَلَّلُهُمُ الرَّاهِبُ حَتَّى جَاءَ؛ فَأَخَذَ بِيَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: هَذَا سَيِّدُ الْعَالَمِينَ، هَذَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَبْعَثُهُ اللهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ. فَقَالَ لَهُ أَشْيَاخٌ مِنْ قُرَيْشٍ: مَا عِلْمُكَ؟ فَقَالَ: إِنَّكُمْ حِينَ أَشْرَفْتُمْ مِنَ الْعَقَبَةِ لَمْ يَبْقَ شَجَرٌ وَلاَ حَجَرٌ إِلاَّ خَرَّ سَاجِدًا وَلاَ يَسْجُدَانِ إِلاَّ لنبي، وإني أَعْرِفُهُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ أَسْفَلَ مِنْ غُضْرُوفِ كَتِفِهِ مِثْلَ التُّفَّاحَةِ. ثُمَّ رَجَعَ فَصَنَعَ لَهُمْ طَعَامًا فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِهِ وَكَانَ هُوَ فِي رِعْيَةِ الإِبِلِ قَالَ: أَرْسِلُوا إِلَيْهِ فَأَقْبَلَ وَعَلَيْهِ غَمَامَةٌ تُظِلُّهُ فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْقَوْمِ وَجَدَهُمْ قَدْ سَبَقُوهُ إِلَى فَيْءِ الشَّجَرَةِ فَلَمَّا جَلَسَ مَالَ فَيْءُ الشَّجَرَةِ عَلَيْهِ فَقَالَ: انْظُرُوا إِلَى فَيْءِ الشَّجَرَةِ مَالَ عَلَيْهِ. قَالَ: فَبَيْنَمَا هُوَ قَائِمٌ عَلَيْهِمْ وَهُوَ يُنَاشِدُهُمْ أَنْ لاَ يَذْهَبُوا بِهِ إِلَى الرُّومِ فَإِنَّ الرُّومَ إِذَا رَأَوْهُ عَرَفُوهُ بِالصِّفَةِ فَيَقْتُلُونَهُ فَالْتَفَتَ فَإِذَا بِسَبْعَةٍ قَدْ أَقْبَلُوا مِنَ الرُّومِ فَاسْتَقْبَلَهُمْ، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكُمْ؟ قَالُوا: جِئْنَا أَنَّ هَذَا النبي خَارِجٌ فِي هَذَا الشَّهْرِ فَلَمْ يَبْقَ طَرِيقٌ إِلاَّ بُعِثَ إِلَيْهِ بِأُنَاسٍ وَإِنَّا قَدْ أُخْبِرْنَا خَبَرَهُ بُعِثْنَا إِلَى طَرِيقِكَ هَذَا. فَقَالَ هَلْ خَلْفَكُمْ أَحَدٌ هُوَ خَيْرٌ مِنْكُمْ؟ قَالُوا إِنَّمَا أُخْبِرْنَا خَبَرَهُ بِطَرِيقِكَ هَذَا. قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ أَمْرًا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَقْضِيَهُ هَلْ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ رَدَّهُ؟ قَالُوا لاَ. قَالَ فَبَايَعُوهُ وَأَقَامُوا مَعَهُ. قَالَ أَنْشُدُكُمُ اللهَ أَيُّكُمْ وَلِيُّهُ؟ قَالُوا: أَبُو طَالِبٍ فَلَمْ يَزَلْ يُنَاشِدُهُ حَتَّى رَدَّهُ أَبُو طَالِبٍ وَبَعَثَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ بِلاَلًا وَزَوَّدَهُ الرَّاهِبُ مِنَ الْكَعْكِ وَالزَّيْتِ. [1]

---

(١) منكر. أخرجه ابن أبي شيبة(٧/ ٤٣٠)، والترمذي في سننه (٤/ ٤٩٦) وأبو نعيم في " دلائل النبوة " ١/ ٥٣، وابن حبان في الثقات١/ ٤٤: ٤٢، والبزار في البحر الزخار(٣٠٩٦)، والخطيب في تاريخه١٠/ ٢٥٢، والحاكم في " المستدرك " (٢/ ٦١٥ – ٦١٦)، وابن عساكر في " تاريخ دمشق " ٦/ ١٨٧ – ١٨٨، والبيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٢٤، وابن سعد في الطبقات الكبرى ١/ ١٢٠، من طرق عن قراد أبي نوح بنحوه.

قال البزار: وهذا الحديث لا نعلم رواه عن أبي بكر بن أبي موسى، عن أبيه إلا يونس بن إبي إسحاق، ولا عن يونس إلا عبد الرحمن بن غزوان المعروف بقراد. مسند البزار ٣٠٩٦.
قال الترمذي: حسن غريب لا يُعرف إلا من هذا الوجه، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي قائلًا: أظنه موضوع، فبعضه باطل، قلت: ورجال إسناده ثقات، لكن الحديث استنكره جماعة عن قراد.
قال الخطيب: قال الأصم: سمعت العباس -أي الدوري- يقول: ليس في الدنيا يحدث به غير قراد أبي نوح، وسمع هذا أحمد ويحيى بن معين من قراد.
وزاد ابن عساكر بعد أن ساق هذا القول فقال: وقالا: إنما سمعناه من قراد؛ لأنه من الغرائب والأفراد التي تفرد بروايتها عن يونس بن أبي إسحاق عن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه.
وقد استنكر كثير من النقاد هذا الحديث جملة ومشاه آخرون ولكن ضعفوا الزيادة التي فيها ذكر بلال وأبي بكر.
وقال الذهبي في تعليقه على المستدرك ٢/ ٦١٥: أظنه موضوعًا فبعضه باطل، وقال في تاريخ الإسلام١/ ١٣: وهو حديث منكر جدًا.
وقال السخاوي: ووقع في خروج النبيﷺ مع عمه إلى الشام وقصة بحيرى الراهب مما أورده ابن إسحق معضلًا، وقراد أبي نوح واسمه عبد الرحمن بن غزوان وهو ممن خرج له البخاري ووثقه جماعة من الأئمة الحفاظ، ولم أر فيه جرحًا، ومع هذا ففي حديثه هذا غرابة، ولذا قال الترمذي: إنه حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقال عباس الدوري: ليس في الدنيا أحد يحدث به غيره وقد سمعه منه أحمد وابن معين لغرابته وانفراده به، حكاه البيهقي وابن عساكر، وأبو موسى: إما أن يكون تلقاه من النبي ﷺفيكون أبلغ، أو من بعض كبار الصحابة أو كان مشهورًا أخذه بطريق الاستفاضة، وبالجملة فلم تذكر الغمامة في حديث أصح من هذا. المقاصد الحسنة١/ ٣٥.
وضعَّف القصة الدكتور: أكرم ضياء العمري: قال:
وقصة بحيرى لا تثبت أمام النقد الحديثي (انظر: مرويات السيرة النبوية بين قواعد المحدثين وروايات صـ ٣٠)، وأبطلها عبد العزيز راشد (أصول السيرة المحمدية صـ٢٢)
وقال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٢١٣، ٢٦٦: "فيه من الغرائب أنه من مرسلات الصحابة، فإن أبا موسى الأشعري راوي الحديث إنما قدم في سنة خيبر، سنة سبع من الهجرة، ولا يلتفت إلى قول ابن إسحاق في جعله له من المهاجرة إلى أرض الحبشة من مكة. وعلى كل تقدير فهو مرسل. وقال أيضًا: وهو إسناد صحيح، ولكن في متنه غرابة قد بسط الكلام عليه في موضع آخر، وفيه ذكر الغمامة ولم أرها ذكرًا في حديث ثابت أعلمه سواه. الفصول١/ ١١٦.
وقال ابن سيد الناس: ليس في إسناد هذا الحديث إلا من خرج له في (الصحيح) وعبدالرحمن بن غزوان أبو نوح ثقة وقد انفرد به البخاري ويونس بن أبي إسحق تفرد به مسلم ومع ذلك فيه نكارة وهي إرسال أبي بكر

ومع سقوط إسناد هذه الرواية كما هو مبين في الحاشية فكذلك في متنها نكارة.

قال الذهبي:

١- فأين كان أبو بكر؟ كان ابن عشر سنين فإنه أصغر من رسول الله ﷺ بسنتين ونصف.

٢-وأين كان بلال في هذا الوقت؟ فإن أبا بكر لم يشتره إلا بعد المبعث ولم يكن ولد بعد.

٣- وأيضًا فإذا كان عليه غمامة تظله كيف يتصور أن يميل فيء الشجرة؟ لأن ظل الغمامة يعدم فيء الشجرة التي نزل تحتها.

٤-ولم نر النبي ﷺذكر أبا طالب قط بقول الراهب، ولا تذاكرته قريش، ولا حكته أولئك الأشياخ مع توفر هممهم ودواعيهم على حكاية مثل ذلك فلو وقع لاشتهر بينهم أيما اشتهار.

٥-ولبقي عنده ﷺ حس من النبوة؛ ولما أنكر مجيء الوحي إليه أولًا بغار حراء وأتى خديجة خائفا على عقله.

مع النبي ﷺبلالا فكيف وأبو بكر حينئذ لم يبلغ العشر سنين؟) (عيون الأثر ١/ ٤٣)وذكر الألباني أن قول ابن سيد الناس هذا يوافق قول من ذهب إلى تصحيح الخبر، إلا أن ذكر أبا بكر وبلال خطأ في الرواية وعليه فباقي الحديث صحيح. فقال: والحقيقة أن كلام ابن سيد الناس مطابق لكلامي تمام المطابقة كما يظهر بداهة. دفاع عن الحديث النبوي والسيرة١/ ٧٠.

قال ابن القيم في زاد المعاد: وقع في كتاب الترمذي وغيره أنه بعث معه بلالًا وهو من الغلط الواضح فإن بلالًا إذ ذاك لعله لم يكن موجودًا وإن كان فلم يكن مع عمه ولا مع أبي بكر، وذكر البزار في مسنده هذا الحديث ولم يقل: وأرسل معه عمه بلالًا ولكن قال رجلًا.

وقال ابن حجر: وحديث أبي موسى الأشعري أخرجه الترمذي وغيره ولم يسم فيها الراهب وزاد فيها لفظة منكرة وهي قوله: وأتبعه أبو بكر بلالًا وسبب نكارتها أن أبا بكر حينئذ لم يكن متأهلًا ولا اشترى يومئذ بلالًا، وقد وردت هذه القصة بإسناد رجاله ثقات إلا أن يحمل على أن هذه الجملة الأخيرة مقتطعة من حديث آخر أدرجت في هذا الحديث. وفي الجملة هي وهم من أحد رواته. الإصابة١/ ١١٨، وفتح البارى٨/ ٥٨٧.

وقال البيهقي هذه قصة مشهورة عند أهل المغازي، وقال السيوطي: ولها شواهد عدة تقضي بصحتها. انظر: (الخصائص الكبرى١/ ١٤٠)، دفاع عن الحديث النبوي والسيرة١/ ٧٠، وجامع الأحاديث (٣٥/ ٤٦٥)، وكشف الخفاء١/ ١٤١).

٦-وأيضًا فلو أثر هذا الخوف في أبي طالب ورده كيف كانت تطيب نفسه أن يمكنه من السفر إلى الشام تاجرا لخديجة؟.

٧-وفي الحديث ألفاظ منكرة تشبه ألفاظ الطّرقيّة مع أن ابن عائذ قد روى معناه في مغازيه دون قوله: وبعث معه أبو بكر بلالًا إلى آخره فقال: ثنا الوليد بن مسلم أخبرني أبو داود سليمان بن موسى فذكره بمعناه. (١)

قلت: وبالنسبة لمن صحح الحديث من المتقدمين، إذا أردنا تفنيد أقوالهم لا يصفو لنا إلا قول ابن حجر، وهو معترف بوجود خلل ما في الحديث، حيث قال عن اللفظة المنكرة في الحديث: الجملة الأخيرة مقتطعة من حديث آخر أدرجت في هذا الحديث. وفي الجملة هي وهم من أحد رواته. (٢)

أما بالنسبة للحاكم، والترمذي فقد تساهلا في الحكم على هذا الحديث كما تساهلا في الحكم على غيره، وهذا معلوم عند علماء مصطلح الحديث.

وأما قول البيهقي: هذه قصة مشهورة عند أهل المغازي، فشهرة القصة في كتب التاريخ لا تقضي حتمًا بصحتها. (٣)

رواية أبي مجلز:

عن أبي مجلز أن عبد المطلب أو أبا طالب -شك خالد- قال: لما مات عبد الله عطف على محمد ﷺ قال فكان لا يسافر سفرًا إلا كان معه فيه، وإنه توجه نحو الشام فنزل منزله فأتاه فيه راهب، فقال: إن فيكم رجلًا صالحًا، فقال: إن فينا من يقري الضيف ويفك الأسير ويفعل المعروف، أو نحوًا من هذا، ثم قال: إن فيكم رجلًا صالحًا، ثم قال: أين أبو هذا الغلام؟ قال: ها أنا ذا وليه، أو قيل. هذا وليه، قال. احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به

(١) تاريخ الإسلام ١/ ١٣.

(٢) الإصابة١/ ١١٨، وفتح البارى ٨/ ٥٨٧.

(٣) وفيها أيضًا قوله: إن الروم إذا رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه. فإذا كان قد أتى بدين نصراني فلماذا يقتله النصارى وفي دعوته امتداد لدينهم.

إلى الشام، إن اليهود حُسَّدٌ، وإني أخشاهم عليه، قال: ما أنت تقول ذاك، ولكن الله يقول، فرده، قال: اللهم إني أستودعك محمدًا، ثم إنه مات[(١)].

رواية: عبد الله عن عبد الله بن محمد بن عقيل:

عن عبد الله بن جعفر الرقي قال: أنبأنا أبو المليح عن عبد الله عن عبد الله بن محمد بن عقيل قال: أراد أبو طالب المسير إلى الشام فقال له النبي ﷺ: "أي عم إلى من تخلفني ها هنا فما لي أم تكفلني ولا أحد يؤويني؟ قال: فَرَقَّ له ثم أردفه خلفه فخرج به فنزلوا على صاحب دير، فقال صاحب الدير: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال: ما هو بابنك ولا ينبغي أن يكون له أب حي قال: ولم؟ قال: لأن وجهه وجه نبي، وعينه عين نبي. قال: وما النبي؟ قال: الذي يوحى إليه من السماء فينبئ به أهل الأرض. قال: الله أجل مما تقول. قال: فاتق عليه اليهود. قال: ثم خرج حتى نزل براهب أيضًا صاحب دير. فقال: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال: ما هو ابنك وما ينبغي أن يكون له أب حي. قال: ولم ذاك؟ قال: لأن وجهه وجه نبي، وعينه عين نبي. قال: سبحان الله! الله أجل مما تقول، وقال يا ابن أخي ألا تسمع ما يقول. قال: أي عم لا تنكر لله قدره". [(٢)]

رواية: داود بن الحصين:

---

(١) **منقطع**. أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ١٢٠)، وابن عساكر في تاريخه(٣/ ٩)، قلت: وأبو مجلز لم يدرك القصة فهي معضلة.

قال الألباني: وهذا إسناد مرسل صحيح؛ فإن أبا مجلز واسمه لاحق بن حميد تابعي ثقة، جليل، احتج به الشيخان في صحيحيهما، وبقية أصحاب الكتب الستة، وأخذ الحديث عن جماعة من الصحابة منهم: عمران بن حصين، وأم سلمة زوج النبي ﷺ، وأنس، وجندب بن عبد الله، وغيرهم، ومن بينه وبين ابن سعد كلهم عدول ثقات، احتج بهم مسلم في صحيحه. دفاع عن الحديث النبوى (٦٢ - ٧٢).

(٢) **ضعيف معضل**. أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ١٥٣، وابن عساكر (في تاريخ دمشق٣/ ٤٣٥).

قلت: وهو كسابقه من المعضلات، وابن عقيل ضعيف الرواية، وقد أرسلها هنا. قال ابن حجر: صدوق فى حديثه لين، ويقال تغير بآخره، ضعفه أحمد، وابن معين، وابن عيينة، وابن المديني، وابن خزيمة، ذكره محمد بن سعد فى الطبقة الرابعة من أهل المدينة، وأرّخ ابن قانع وفاته سنة اثنتين وأربعين ومئة.

قال ابن سعد: أخبرنا محمد بن عمر، أخبرنا محمد بن صالح بن دينار وعبد الله بن جعفر الزهري قال: وحدثنا ابن أبي حبيبة، داود بن الحصين قالوا: لما خرج أبو طالب إلى الشأم وخرج معه رسول الله ﷺ في المرة الأولى، وهو ابن اثنتي عشرة سنة، فلما نزل الركب بصرى من الشأم، وبها راهب يقال له بحيرى في صومعة له، وكان علماء النصارى يكونون في تلك الصومعة يتوارثونها عن كتاب يدرسونه، فلما نزلوا بحيرى وكان كثيرًا ما يمرون به لا يكلمهم حتى إذا كان ذلك العام، ونزلوا منزلًا قريبًا من صومعته قد كانوا ينزلونه قبل ذلك كلما مروا، فصنع لهم طعامًا ثم دعاهم، وإنما حمله على دعائهم أنه رآهم حين طلعوا وغمامة تظل رسول الله ﷺ من بين القوم حتى نزلوا تحت الشجرة ثم نظر إلى تلك الغمامة أظلت تلك الشجرة واخضلت أغصان الشجرة على النبي ﷺ حين استظل تحتها، فلما رأى بحيرى ذلك نزل من صومعته وأمر بذلك الطعام فأتي به وأرسل إليهم، فقال: إني قد صنعت لكم طعامًا يا معشر قريش، وأنا أحب أن تحضروه كلكم، ولا تخلفوا منكم صغيرًا ولا كبيرًا، حرًا ولا عبدًا، فإن هذا شيء تكرموني به، فقال رجل: إن لك لشأنًا يا بحيرى، ما كنت تصنع بنا هذا فما شأنك اليوم؟ قال: فإني أحببت أن أكرمكم ولكم حق، فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه، ليس في القوم أصغر منه في رحالهم، تحت الشجرة، فلما نظر بحيرى إلى القوم فلم ير الصفة التي يعرف ويجدها عنده، وجعل ينظر ولا يرى الغمامة على أحد من القوم، ويراها متخلفة على رأس رسول الله ﷺ. قال بحيرى: يا معشر قريش لا يتخلفن منكم أحد عن طعامي، قالوا: ما تخلف أحد إلا غلام هو أحدث القوم سنًا في رحالهم، فقال: ادعوه فليحضر طعامي فما أقبح أن تحضروا ويتخلف رجل واحد مع أني أراه من أنفسكم! فقال القوم: هو والله أوسطنا نسبًا وهو ابن أخي هذا الرجل، يعنون أبا طالب، وهو من ولد عبد المطلب، فقال الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف: والله إن كان بنا للؤم أن يتخلف ابن عبد المطلب من بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه وأقبل به حتى أجلسه على الطعام، والغمامة تسير على رأسه،

وجعل بحيرى يلحظه لحظًا شديدًا، وينظر إلى أشياء في جسده قد كان يجدها عنده من صفته، فلما تفرقوا عن طعامهم قام إليه الراهب فقال: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك، فقال رسول اللهﷺ: لا تسألني باللات والعزى فو الله ما أبغضت شيئًا بغضهما! قال: فبالله إلا أخبرتني عما أسألك عنه، قال: سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله حتى نومه، فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عنده، ثم جعل ينظر بين عينيه، ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضع الصفة التي عنده، قال فقبل موضع الخاتم، وقالت قريش: إن لمحمد عند هذا الراهب لقدرًا، وجعل أبو طالب، لما يرى من الراهب، يخاف على ابن أخيه، فقال الراهب لأبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال أبو طالب: ابني، قال ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًا، قال: فابن أخي: قال: فما فعل أبوه؟ قال: هلك وأمه حبلى به، قال: فما فعلت أمه؟ قال: توفيت قريبًا، قال: صدقت، ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود، فو الله لئن رأوه وعرفوا منه ما أعرف ليبْغُنَّه عنتًا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم نجده في كتبنا وما روينا عن آبائنا، واعلم أني قد أديت إليك النصيحة. فلما فرغوا من تجاراتهم خرج به سريعًا، وكان رجال من يهود قد رأوا رسول الله ﷺوعرفوا صفته فأرادوا أن يغتالوه، فذهبوا إلى بحيرى فذاكروه أمره فنهاهم أشد النهي وقال لهم: أتجدون صفته؟ قالوا: نعم، قال: فما لكم إليه سبيل، فصدقوه وتركوه، ورجع به أبو طالب فما خرج به سفرًا بعد ذلك خوفًا عليه.

أخبرنا محمد بن عمر حدثني يعقوب بن عبد الله الأشعري عن جعفر ابن أبي المغيرة عن سعيد ابن عبد الرحمن بن أبزى، قال الراهب لأبي طالب: لا تخرجن بابن أخيك إلى ما ههنا؛ فإن اليهود أهل عداوة، وهذا نبي هذه الأمة، وهو من العرب، واليهود تحسده تريد أن يكون من بني إسرائيل، فاحذر على ابن أخيك.[1]

رواية ابن إسحاق:

---

(١) معضل. الطبقات الكبرى، ١/ ١٥٣ وهو كسابقيه، وفي إسناده الواقدي وهومتروك الحديث.

قال محمد بن إسحاق: وكان أبو طالب هو الذي يلي أمر رسول الله ﷺ بعد جده كان إليه ومعه، ثم إن أبا طالب خرج في ركب إلى الشام تاجرًا، فلما تهيأ للرحيل وأجمع السير ضب به رسول الله ﷺ فأخذ بزمام ناقته، وقال: " يا عم، إلى من تكلني؟ لا أب لي ولا أم لي"، فرق له أبو طالب، وقال: والله لأخرجن به معي، ولا يفارقني ولا أفارقه أبدًا، أو كما قال، قال: فخرج به معه، فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام، وبها راهب يقال له: بحيراء في صومعة له، وكان أعلم أهل النصرانية، ولم يزل في تلك الصومعة قط راهب يصير علمهم عن كتاب فيه، فيما يزعمون، يتوارثونه كابرا عن كابر فلما نزلوا ذلك العام ببحيراء، وكانوا كثيرا مما يمرون به قبل ذلك لا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى إذا كان ذلك العام، نزلوا به قريبا من صومعته، فصنع لهم طعامًا كثيرًا، وذلك فيما يزعمون، عن شيء رآه وهو في صومعته في الركب حين أقبلوا وغمامة بيضاء تظله من بين القوم، ثم أقبلوا حتى نزلوا بظل شجرة قريبا منه، فنظر إلى الغمامة حتى أظلت الشجرة وشمرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها، فلما رأى ذلك بحيراء نزل من صومعته، وقد أمر بذلك الطعام فصنع، ثم أرسل إليهم فقال: إني قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش، وأنا أحب أن تحضروا كلكم، صغيركم وكبيركم، وحركم وعبدكم فقال له رجل منهم: يا بحيراء، إن لك اليوم لشأنًا ما كنت تصنع هذا فيما مضى، وقد كنا نمر بك كثيرا فما شأنك اليوم؟ فقال له بحيراء: صدقت، قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما تأكلون منه كلكم فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم تحت الشجرة. فلما نظر بحيراء في القوم ولم ير الصفة التي يعرف ويجد عنده، فقال: يا معاشر قريش، لا يتخلف أحد منكم عن طعامي هذا، فقالوا له: يا بحيراء ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام وهو أحدث القوم سنًا، تخلف في رحالهم قال: فلا تفعلوا، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم فقال رجل من قريش مع القوم: واللات والعزى، إن هذا للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب

عن الطعام من بيننا. قال: ثم قام إليه فاحتضنه، ثم أقبل به حتى أجلسه مع القوم فلما رآه بحيراء جعل يلحظه لحظًا شديدًا، وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده في صفته حتى إذا فرغ القوم من الطعام وتفرقوا، قام بحيراء فقال له: يا غلام، أسألك باللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك عنه، وإنما قال له بحيراء ذلك؛ لأنه سمع قومه يحلفون بهما وزعموا أن رسول الله ﷺ قال له: لا تسلني باللات والعزى شيئًا، فو الله ما أبغضت بغضهما شيئًا قط. فقال له بحيراء: فبالله إلا أخبرتني عما أسألك عنه، فقال: سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره، فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيراء من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده قال: فلما فرغ منه أقبل على عمه أبي طالب، فقال له: هل هذا الغلام منك؟ فقال: ابني، فقال له بحيراء: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًا، قال: فإنه ابن أخي. قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات، وأمه حبلى به. قال: صدقت. قال: ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه اليهود، فو الله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبْغُنَّه شرًا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن، فأسرع به إلى بلاده فخرج به عمه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام فزعموا فيما يتحدث الناس أن زبيرًا وثمامًا ودريسًا، وهم نفر من أهل الكتاب، قد كانوا رأوا من رسول الله ﷺ في ذلك السفر الذي كان فيه مع عمه أبي طالب أشياء، فأرادوه فردهم عنه بحيراء، وذكرهم الله، وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته، وأنهم إن أجمعوا بما أرادوا لم يخلصوا إليه حتى عرفوا ما قال لهم وصدقوه بما قال، فتركوه وانصرفوا وقال أبو طالب في ذلك أبياتًا منها:

فما رجعوا حتى رأوا من محمد ... أحاديث تجلو غم كل فؤاد
وحتى رأوا أحبار كل مدينة ... سجودا له من عصبة وفراد
زريرا وتماما وقد كان شاهدا ... دريسا وهمو كلهم بفساد
فقال لهم قولا بحيرى وأيقنوا ... له بعد تكذيب وطول بعاد

كما قال للرهط الذين تهودوا وجاهدهم في الله كل جهاد
فقال ولم يترك له النصح رده فإن له أرصاد كل مصاد
فإني أخاف الحاسدين وأنه لفي الكتب مكتوب بكل مداد[(١)]

رواية ابن عباس:

عن ابن عباس «أن أبا بكر الصديق، ﷺ صحب رسول الله ﷺ وهو ابن ثمان عشرة، والنبي ﷺ ابن عشرين سنة، وهم يريدون الشام في تجارة، حتى إذا نزلوا منزلًا فيه سدرة، قعد رسول الله ﷺفي ظلها، ومضى إلى راهب يقال له بحيرى، يسأله عن شيء، فقالوا له: من الرجل الذي في ظل السدرة؟ فقال له: ذاك محمد بن عبد الله. فقال: هذا والله نبي، ما استظل تحتها بعد عيسى إلا محمد عليهما السلام، فوقع من ذلك في قلب أبي بكر اليقين والتصديق، فلما نُبئ النبي ﷺ اتبعه». [(٢)]

رواية نفيسة بنت أمية أخت يعلى:

عن نفيسة بنت أمية أخت يعلى سمعتها تقول: لما بلغ رسول الله ﷺخمسًا وعشرين سنة وليس له بمكة اسم إلا الأمين؛ لما تكاملت فيه من خصال الخير قال له أبو طالب: يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا وألحت علينا سنون منكرة، ليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث

---

(١) **معضل**. دلائل النبوة للبيهقي١/ ٤٠٧. قال الألباني: هذه الرواية معلقة بدون إسناد وهي عند الآخرين مسندة فالاعتماد عليهم-أي الروايات الأخرى- أولى. دفاع عن الحديث النبوي والسيرة١/ ٦٣.

(٢) موضوع. معرفة الصحابة لأبي نعيم٤/ ١٣١-رقم ١٢٠٢، وكذلك فى دلائل النبوة ١/ ٤٥، وابن منده، وابن عساكر كما عند السيوطي كلهم من طرق عن محمد بن عمر الواقدي، قال السيوطي: وموسى بن عبد الرحمن الصنعاني دجال قال ابن حبان وضع على ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس كتابًا في التفسير. جامع الأحاديث٣٥/ ٤٦٦، وضعفه ابن حجر حيث قال: أخرجه ابن منده من تفسير عبد الغني بن سعيد الثقفي أحد الضعفاء المتروكين بأسانيده عن ابن عباس (الإصابة١/ ١١٨).

وقال: فهذا الخبر إن صح يحتمل أن يكون في سفرة أخرى بعد سفرة أبي طالب. الإصابة في معرفة الصحابة١/ ١١٨.

رجالا من قومك في عيراتها فيتجرون لها ويصيبون منافع، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك؛ لما يبلغها من طهارتك وإني كنت لأكره أن تأتي الشام وأخاف عليك من اليهود ولكن لا نجد من ذلك بدًا، وكانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال كثير وتجارة وتبعث بها إلى الشام فيكون عيرها كعامة عير قريش، وكانت تستأجر الرجل وتدفع إليه المال مضاربة، وكانت قريش قوما تجارا من لم يكن تاجرًا فليس عندهم بشيء. قال رسول الله ﷺ: فلعلها أن ترسل إليَّ في ذلك. قال أبو طالب: إني أخاف أن تولي غيرك؛ فتطلب أمرًا مدبرًا. فافترقا فبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له، وقبل ذلك ما قد بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه فقالت: ما دريت أنه يريد هذا. ثم أرسلت إليه فقالت: إنه قد دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلًا من قومك. ففعل رسول الله ﷺفلقي أبا طالب فقال له ذلك فقال: إن هذا لرزق ساقه الله إليك. فخرج مع غلامها ميسرة حتى قدم الشام وجعل عمومته يوصون به أهل العير حتى قدم الشام فنزلا في سوق بصرى في ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب من الرهبان يقال له نسطورا قال: فتطلع الراهب إلى ميسرة وكان يعرفه فقال: يا ميسرة من هذا الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال: من قريش من أهل الحرم. قال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي ثم قال: أفي عينيه حمرة؟ قال ميسرة: نعم لا تفارقه قط. قال الراهب: هذا هو، وهو آخر الأنبياء ويا ليت أني أدركه حين يؤمر بالخروج. فوعى ذلك ميسرة ثم حضر رسول الله ﷺ سوق بصرى فباع سلعته التي خرج بها واشترى، فكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعة فقال له الرجل: احلف باللات والعزى! فقال رسول الله ﷺ: ما حلفت بهما قط وإني لأمر بهما فأعرض عنهما، فقال الرجل: القول قولك، ثم قال لميسرة وخلا به: يا ميسرة هذا نبي والذي نفسي بيده إنه لهو هو ويجده أحبارنا منعوتا في كتبهم، فوعى ذلك ميسرة ثم انصرف أهل العير جميعًا وكان ميسرة يرى رسول الله ﷺ إذا

كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو على بعيره. وقال: وقدم رسول الله ﷺ بتجارتها قد ربحت ضعف ما كانت تربح وأضعفت له ما سمته له.

قال الشيخ: وما تضمن هذا الفصل من أحوال رسول الله ﷺ من حين تزوجت آمنة وحملها ووضعها به واسترضاعه وحضانة حليمة ظئره إلى أن بلغ خمسا وعشرين سنة المقرونة بالآيات دلالة على نبوة رسول الله ﷺ بخروجها عن المتعارف والمعتاد مع توسم أهل الكتب وغيرهم الأمارات التي دونتها الكتب المتقدمة والأخبار السالفة بالبشارات به فترقبهم لمبعثه ومخرجه علامات ودلائل لمن أراد به الإيمان وصار به مؤمنا موقنا ولنبوته محققًا. (١)

الوجه الثاني: بحيرى ليس له أصل في الروايات الصحيحة، وذلك عند التحقيق العلمي للروايات، بل هو شخصية مجهولة، ولم يُذكر اسمه إلا في الروايات الموضوعة والمقطوعة.

إنَّ من صحح رواية أبي موسى الأشعري قال بعدم صحة ذكر بحيرى في الروايات:

قال الألباني: إن الراهب بحيرى لم يسم مطلقًا في رواية أبي موسى، وإنما سمي في رواية ابن إسحاق التي هي ضعيفة معضلة، وسُمي في رواية أخرى فيها الواقدي الكذاب. (٢)

قلت: فالمذكور في الروايات التي صححها بعض العلماء أن النبي ﷺ مر على راهب في صومعته.

الوجه الثالث: إذًا؛ إنها دعوى مجردة من الدليل.

قال الزرقاني: يقولون إن محمدًا لقي بحيرى الراهب فأخذ عنه وتعلم منه، وما تلك المعارف التي في القرآن إلا ثمرة هذا الأخذ وذاك التعلم.

وندفع هذا: بأنها دعوى مجردة من الدليل، خالية من التحديد والتعيين، ومثل هذه الدعاوى لا تقبل ما دامت غير مدللة وإلا فليخبرونا ما الذي سمعه محمد من بحيرى الراهب ومتى كان ذلك وأين كان؟ (٣)

---

(١) معضل، دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني١/ ١٢٥-١٠٥. قلت: وإسناده ضعيف، وفيه الواقدي وهو متروك.

(٢) دفاع عن الحديث النبوي والسيرة١/ ٦٩.

(٣) مناهل العرفان٢/ ٣٠٦.

الوجه الرابع: التعريف ببحيرى في كتب التاريخ مع العلم بأن الروايات التي ذكرت اسمه ضعيفة.

فوجود اسمه في كتب التاريخ ليس شرطًا في صحة وجوده عند التحقيق العلمي.

قال ابن حجر: بحيرى الراهب ذكره ابن منده، وتبعه أبو نعيم وقصته معروفة في المغازي وما أدري أدرك البعثة أم لا؟ وقد وقع في بعض السير عن الزهري أنه كان من يهود تيماء وفي " مروج الذهب " للمسعودي أنه كان نصرانيًا من عبد القيس يقال له جرجيس. (١)

قال ابن كثير: قصة بحيرى حكى السهيلي عن سِير الزهري أن بحيرى كان حبرًا من أحبار يهود، قلت: والذي يظهر من سياق القصة أنه كان راهبًا نصرانيًا.

وعن المسعودي أنه كان من عبد القيس وكان اسمه جرجيس. وفي كتاب المعارف لابن قتيبة: سُمع هاتف في الجاهلية قبل الإسلام بقليل يهتف ويقول: ألا إن خير أهل الأرض ثلاثة، بحيرى، ورئاب بن البراء الشني، والثالث المنتظر وكان الثالث المنتظر هو الرسول ﷺ. (٢)

فإن كان هناك روايات صريحة أن ورقة بن نوفل كان نصرانيًا، لكن ليس هناك أدلة يقينية على أن بحيرى كان نصرانيًا، بل كل ما ورد أنه إما يهوديًا أو نصرانيًا، فقد اختلف العلماء في نصرانيته.

الوجه الخامس: بحيرى ليس من الصحابة.

قال ابن حجر: وإنما ذكرته في هذا القسم-أي من كتاب الإصابة في معرفة الصحابة- لأن تعريف الصحابي لا ينطبق عليه وهو: مسلمٌ لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ومات على ذلك. فقولنا: مسلم، يخرج من لقيه مؤمنًا به قبل أن يبعث كهذا الرجل والله أعلم. (٣)

الوجه السادس: تضعيف من ظن أن لبحيرى أحاديث سمعها من النبي ﷺ:

قال بحيرى الراهب قال رسول الله ﷺ: "إذا شرب الرجلُ كأسًا من خمر ...". (١)

---

(١) الإصابة في معرفة الصحابة١/ ١١٨.

(٢) البداية والنهاية٢/ ٣٤٩، وله ترجمة في أسد الغابة ١/ ٣٥٥، وتجريد أسماء الصحابة ١/ ٤٤.

(٣) الإصابة في معرفة الصحابة١/ ١١٨.

الوجه السابع: تضعيف آثار لا تثبت تتحدث عن فضائل بحيرى:

منها أن الله أودع علمه ونوره عند آدم وذريته من بعده من الأنبياء والصالحين إلى أن أتى مرعيدا ثم بحيرى:

قال أبوالشيخ الأصبهاني حدثني محمد بن يوسف، عن محمد بن جعفر قال: فلما أراد الله تعالى أن يقبض مرعيدًا أوحى إليه أن يستودع علم الله تعالى ونوره بحيرى الراهب ففعل، فعند ذلك ملك هرمز بن كسرى فملك اثنتي عشرة سنة، وولي أمرَ الله ﷻ بحيرى الراهب وأصحابه المؤمنون، فعند ذلك ملك يزدجر بن كسرى فملك أربع سنين، فعند ذلك بعث الله تعالى محمدًا ﷺ تسليمًا كثيرًا وعلى آله وعلى جميع الأنبياء والرسل، والحمد لله رب العالمين. [٢]

الوجه الثامن: هل زار بحيرى مكة أو المدينة؟

لم يَزُر بحيرى مكة ولا المدينة قبل أو أثناء البعثة النبوية، فكيف له أن يعرف ظروف بيئة الرسولﷺ، وأحداثًا قبل الهجرة في مكة كموقف المشركين من الدعوة، وغيرها من أسباب نزول الآيات المكية. وبعد الهجرة: كالغزوات والعلاقة مع المنافقين. . وغيرها من أسباب نزول الآيات المدنية؟ [٣].

---

(١) منكر. أخرجه ابن عدى (٣/ ٤١٢ ترجمة ٨٤٠ سعيد بن عقبة أبو الفتح)، قال: ثنا أحمد بن حفص، ثنا سعيد بن عقبة أبو الفتح الكوفي، ثنا جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، عن بحيرى الراهب. . . ثم قال ابن عدى: هذا حديث منكر الإسناد والمتن، ولم أسمع بذكر بحيرى أنه يسند عن رسول الله ﷺشيئًا إلا في هذا الإسناد، وسعيد بن عقبة هذا لم يبلغني عنه من الحديث غير ما ذكرت وهو مجهول غير ثقة.

وأورده الذهبي في الميزان (٣/ ٢٢٢، ترجمة ٣٢٤٦)، والحافظ في اللسان (٣/ ٣٨، ترجمة ١٤٢) كلاهما في ترجمة سعيد ابن عقبة، قال الحافظ: هذا باطل بحيرى لم يدرك المبعث. لكنه قال في الإصابة (١/ ٢٧١، ترجمة ٥٩٨ بحيرى الراهب): أحد الثمانية الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب تقدم ذكره فى أبرهة (١/ ٢٢، ترجمة ١٦).

قال السيوطي: وظن بعضهم أن صاحب الحديث هو بحيرى الراهب الذي لقي النبي (قبل البعثة مع أبى طالب، وليس بصواب بل إن صح الحديث فهو الذي ذكروا قصته في أبرهة. جامع الأحاديث للسيوطي(٣/ ٢٧٠-٢١٧٨).

وقال ابن حجر في الإصابة: ليس هو بحيرى الذي لقي النبي (قبل البعثة مع أبى طالب كما يظن بعضهم بل هو أحد الثمانية الذين قدموا مع جعفر بن أبى طالب من الحبشة).

(٢) العظمة٣/ ٧٩، وهو حديث منقطع، بل معضل، فأنَّى لمحمد بن جعفر هذا الحديث؟.

(٣) نقلا من المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام٦/ ١٢٢.

٢- الراهب بحيرى لم يكن من سكان مكة بل قد كان يسكن على مسافة بعيدة عنها، فكيف تمكن من تعليم محمد ﷺ وهو صبي كتابًا ضخمًا في زيارة واحدة؟! ولماذا انتقى بحيرى محمدًا بالذات وأعطاه هذا التشريع، ولم يعطه لابنه أو قريبه أو يدَّعيه لنفسه؟! ولماذا لم يحدث ذلك قبل حياة محمد ﷺ؟ هل نفهم أن النصارى بقوا بدون كتاب لمئات من السنين؟.

٣-فكل آية نزلت بعد وقوع حدث معين، وهذا ما يسمى في التفسير بأسباب النزول، يعني كان بحيرى مستخفيًا في مكة ثم في المدينة وظل يملي عليه القرآن عند وقوع كل حدث.

٤- ولا يعقل أن يكون محمد ﷺ قد أخذ عنه، وهو فى هذه السن شيئًا. . . وأنى "لبحيرى" وما حواه الوحي الإلهي قرآنًا وسنة، من علوم وأخبار ماضية ومستقبلة؟ هذا لو فرضنا أنه يمكن أن يكون قد أخذ عنه شيئًا.

إن الباحث المنصف لو استنطق التاريخ، ما زاد على أن يقول له: إن الراهب "بحيرى" لما رآه تظله سحابة من الشمس، ورأى فيه بعض أمارات النبوة ذكر لعمه، أنه سيكون له شأن، وحذره أن تناله اليهود بأذى. [1]

الوجه التاسع: لا يليق أبدًا بقس كبحيرى أن يحلف باللات والعزى حتى ولو كان يختبر محمدًا ﷺ

جاء في قصة بحيرى الراهب أنه استحلف النبي ﷺ باللات والعزى حينما لقيه بالشام في سفرته مع عمه أبى طالب وهو صبى، لما رأى فيه علامات النبوة، فقال بحيرى للنبي ﷺ: (يا غلام أسألك باللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك عنه، وإنما قال له بحيرى ذلك؛ لأنه سمع قومه يحلفون بهما. فقال له النبي ﷺ: "لا تسألني باللات والعزى شيئًا، فو الله ما أبغضت بغضها شيئًا قط". [2]

وهو من قول ابن إسحاق. وذلك ردًا على من يأخذ بقول ابن إسحاق ليرد علينا.

---

(١) رد شبهات حول عصمة النبى١/ ٤٤٦.

(٢) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة ١/ ١٧٢ رقم ١١٠، والبيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٢٦ - ٢٩، كلاهما من طريق ابن إسحاق. وذكره ابن إسحاق في السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٣٦.

فهذا يدل على أن بحيرى لا يصلح كمعلم يعلم تلميذه العقيدة الصحيحة، فكان من الأفضل للمربي أن يسأل تلميذه فيقول له هل أنت تحلف باللات والعزى؟ فإن قال: لا، فهو ما كان يرمي إليه بحيرى؟.

المبدأ التعليمي السابق الذي ركن إليه بحيرى يختلف تمامًا عن المبدأ التعليمي الذي ركن إليه النبي محمد ﷺ لتعليم أصحابه، مما يؤكد أن محمدًا لم يتعلم على يد بحيرى، فقد كان النبي ﷺ إذا أراد أن ينبه على خطأ يفعله أحد الصحابة فإنه ينهى عن ذلك بأسلوب صريح.

عَن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهْوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ الله ﷺ: "أَلاَ إِنَّ الله يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِالله وَإِلاَّ فَلْيَصْمُتْ". (١)

الوجه العاشر: إن اللقاء بين محمد ﷺ وبحيرى لا يعدو الساعة أو الساعتين في كلا اللقاءين، ولو حدثت قصة في اللقاء لأثارت جدلًا في قريش.

ولو افترضنا جدلًا أنها وقعت؛ فإن اللقاء بينهما لا يعدو الساعة أو الساعتين، وعمر النبيّ ﷺ اثنتا عشرة سنة، ولو حدثت قصة في اللقاء لأثارت جدلًا في قريش. لكننا لا نجد صدًى لها مما يؤكد بطلانها. وماذا يتحمل صبي في الثانية عشر من عمره عن بحيرى؟ وقد اجتمع به بحضور قريش ساعة من زمان؟. (٢)

عندما قابل النبي ﷺبحيرى كان عمره ﷺتسع سنين، ومع جماعة من قومه، وفي أثناء تجارته بمال خديجة رضي الله عنها، ولم يفارقه غلامها ميسرة، فضلا عن بعد المسافة بين بصرى ومكة ولا يتم هذا في جلسة أو جلستين؛ بل حتى يعلمه النبوة كان من المفترض أن يكون ملازمًا له، فيكثر اللقاءات بينهما حتى يتم لهما ما ينبغي أن يُخططوا له.

الوجه الحادي عشر: يستحيل في مجرى العادة أن يتم إنسان على وجه الأرض تعليمه وثقافته في لقاءين ليجعله ذلك أستاذ العالم كله.

(١) البخاري (٦١٠٨).

(٢) مرويات السيرة النبوية بين قواعد المحدثين (صـ٢٥).

قال الزرقاني: إنه يستحيل في مجرى العادة أن يُتم إنسان على وجه الأرض تعليمه وثقافته ثم ينضج النضج الخارق للمعهود فيما تعلم وتثقف بحيث يصبح أستاذ العالم كله لمجرد أنه لقي مصادفة واتفاقًا راهبًا من الرهبان مرتين! على حين أن التلميذ كان في كلتا المرتين مشتغلًا عن التعليم بالتجارة، وكان أميا لا يعرف القراءة والكتابة، وكان صغيرا تابعا لعمه في المرة الأولى، وكان حاملًا لأمانة ثقيلة في عنقه لا بد أن يؤديها كاملة في المرة الثانية وهي أمانة العمل والإخلاص في مال خديجة وتجارتها. (١)

الوجه الثاني عشر: حتى ولو أثبتنا أن بحيرى لقي النبيﷺ، فإنه لم يثبت ذكر تعلُم النبي ﷺ من بحيرى.

إن التاريخ لا يعرف أكثر من أنه سافر إلى الشام في تجارة مرتين: مرة في طفولته ومرة في شبابه، ولم يسافر غير هاتين المرتين ولم يجاوز سوق بصرى فيهما، ولم يسمع من بحيرى ولا من غيره شيئًا من الدين ولم يك أمره سرًا هناك؛ ، بل كان معه شاهد في المرة الأولى وهو عمه أبو طالب، وشاهد في الثانية وهو ميسرة غلام خديجة التي خرج الرسول بتجارتها أيامئذ؛ وكل ما هنالك أن بحيرى الراهب رأى سحابة تظلله من الشمس فذكر لعمه أن سيكون لهذا الغلام شأن، ثم حذره عليه من اليهود وقد رجع به عمه خوفًا عليه ولم يتم رحلته. كذلك روي هذا الحادث من طرق في بعض أسانيدها ضعف ورواية الترمذي ليس فيها اسم بحيرى وليس في شيء من الروايات أنه سمع من بحيرى أو تلقى منه درسا واحدا أو كلمة واحدة لا في العقائد ولا في العبادات ولا في المعاملات ولا في الأخلاق فأنى يؤفكون. (٢)

الوجه الثالث عشر: بحيرى مُبشر لا مُعلم.

إن تلك الروايات التاريخية نفسها تحيل أن يقف هذا الراهب موقف المعلم المرشد لمحمد؛ لأنه بشره أو بشر عمه بنبوته، وليس بمعقول أن يؤمن رجل بهذه البشارة التي

---

(١) مناهل العرفان٢/ ٣٠٦، ٣٠٧.

(٢) المصدر السابق.

يزفها ثم ينصب نفسه أستاذا لصاحبها الذي سيأخذ عن الله ويتلقى عن جبريل ويكون هو أستاذ الأستاذين وهادي الهداة والمرشدين وإلا كان هذا الراهب متناقضًا مع نفسه.(١)

الوجه الرابع عشر: ذكر خبر بحيرى في كتب السيرة تدل على الأمانة العلمية عند علماء السيرة.

وللأمانة العلمية كان من المفترض أن رواة الأحاديث يُنكرون أمر بحيرى وغيره حتى لا يتشكك أحد فيقول: إن محمدًا قد علّمه بحيرى ولكن لأمانتهم ذكروا ذلك، فذكروا أنه ما قابل بحيرى إلا مرتين، ومنهم من قال مرة واحدة، فكما أنهم صدَقوا في إثبات أمر بحيرى ولم يخافوا من قول المتشككين كذلك صدقوا في ذِكر عدد اللقاءات بين بحيرى والنبي ﷺ أنهما لا تعدو عن مرتين، بغض النظر عن ضعف روايتهما.

الوجه الخامس عشر: هل يصح لراهب أن يكذب؟

كيف يقول بحيرى إن القرآن من عند الله نزل على قلب محمد وهو من عنده؟ كيف يرضى أصحاب الشبهة هذه أن يكون عالم دينهم كذاب؟ وخلاصة القول: إن من المفيد إلقاء نظرة على الملاحظات الحيادية لبعض المستشرقين.

يقول جون ب. نوس، وديفيد س. نوس في كتابهم الشهير " أديان الرجل": (. . . . إن من الواجب إدراج الحديث الشريف الذي يقول إن محمدًا ﷺ تعلم اليهودية والنصرانية خلال رحلاته مع القافلة التجارية المتجهة للشام، وكانت الأولى بصحبة عمه أبي طالب عندما كان في سن الثانية عشر، والثانية عندما كان عمره ٢٥ عامًا كموظف لخديجة التي تزوجها فيما بعد، على أنه حديث غير مقبول).

ويقول توماس كارلايل: لا أعرف ماذا أقول بشأن سيرجيوس [بُحيرى أو بَحيرى، مهما كان اللفظ، وقد أُطلق عليه أيضًا اسم سرجيوس]، الراهب النسطوري الذي قيل إنه تحادث مع أبي طالب، أو كم من الممكن أن يكون أي راهب قد علم صبيًا في مثل تلك السن، لكنني أعرف أن حديث الراهب النسطوري مبالغ فيه بشكل كبير، فقد كان عمر

---

(١) المصدر السابق.

محمد ﷺ ١٤ عامًا [كان عمره إما ٩ أو ١٢ عامًا على أكثر تقدير] ولم يعرف لغةً غير لغته، وكان معظم ما في الشام غريبًا وغير مفهوم بالنسبة له.

الوجه السادس عشر: لو كان مصدر هذا الفيض الإسلامي المعجز هو بحيرى لكان هو الأحرى بالنبوة والرسالة.

إن بحيرى الراهب لو كان مصدر هذا الفيض الإسلامي المعجز لكان هو الأحرى بالنبوة والرسالة والانتداب لهذا الأمر العظيم. (١)

الوجه السابع عشر: الأديان التي كانت في عصر نزول القرآن ما كانت تصلح لأستاذية رشيدة؛ بل كانت هي في أشد الحاجة إلى أستاذية رشيدة:

إن أصحاب هذه الشبهة من الملاحدة يقولون: إن القرآن هو الأثر التاريخي الوحيد الذي يمثل روح عصره أصدق تمثيل، فإذا كانوا صادقين في هذه الكلمة فإننا نحاكمهم في هذه الشبهة إلى القرآن نفسه، وندعوهم أن يقرؤوه ولو مرة واحدة بتعقل ونَصَفَة؛ ليعرفوا منه كيف كانت الأديان وعلماؤها وكتابها في عصره؟ وليعلموا أنها ما كانت تصلح لأستاذية رشيدة؛ بل كانت هي في أشد الحاجة إلى أستاذية رشيدة، إنهم إن فعلوا ذلك فسيستريحون ويريحون الناس من هذا الضلال والزيغ، ومن ذلك الخبط والخلط. هدانا وهداهم الله؛ فإن الهدي هداه ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

فإن طبيعة الدين الذي ينتمي إليه الراهب بحيرى تأبى أن تكون مصدرًا للقرآن وهداياته خصوصًا بعد أن أصاب ذلك الدين ما أصابه من تغيير وتحريف. (٢)

وفي الحديث: "وَإِنَّ الله نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ"(٣).

قال النووي: الْمَقْت: أَشَدّ الْبُغْض، وَالْمُرَاد بِهَذَا الْمَقْت وَالنَّظَر: مَا قَبْل بَعْثَة رَسُول الله ﷺ، وَالْمُرَاد بِبَقَايَا أَهْل الْكِتَاب: الْبَاقُونَ عَلَى التَّمَسُّك بِدِينِهِمْ الْحَقّ مِنْ غَيْر تَبْدِيل(١).

---

(١) مناهل العرفان ٢/ ٣٠٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) مسلم (٢٨٦٥).

قال ابن القيم: فكان أهل العقول كلهم في مقته إلا بقايا متمسكين بالوحي فلم يستفيدوا بعقولهم حين فقدوا نور الوحي إلا عبادة الأوثان، أو الصلبان، أو النيران، أو الكواكب والشمس والقمر، أو الحيرة والشك، أو السحر، أو تعطيل الصانع والكفر به، فاستفادوا بها مقت الرب سبحانه لهم وإعراضه عنهم فأطلع الله شمس الرسالة في تلك الظلم سراجًا منيرًا، وأنعم بها على أهل الأرض في عقولهم وقلوبهم(٢).

الوجه الثامن عشر: لو كانت روايتى لقاء النبي ﷺ ببحيرى صحيحة لماخاف محمد ﷺ يوم ظهر له جبريل.

فنتساءل: إن كان بحيرى الراهب قد قال لمحمد ومن معه أنه سيكون رسول الله، فلماذا تشكك واضطرب محمد ﷺ يوم ظهر له جبريل وخاف على نفسه؟.

فقد قال ﷺ عند نزول الوحي لخديجة: «أي خَدِيجَةُ مَا لِي، لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نفسي» فَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ. قَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلاَّ أَبْشِرْ، فَوَ الله لاَ يُخْزِيكَ الله أَبَدًا(٣).

الوجه التاسع عشر: لو ثبت لقاء بحيرى للنبي ﷺ لكان أرجى في قبول أبي طالب الإسلام.

قال ابن حجر: ذكر ابن التين أن في شعر أبي طالب-أي شعره في مدح محمدﷺ- هذا دلالة على أنه كان يعرف نبوة النبي ﷺ قبل أن يبعث لما أخبره به بحيرى أو غيره من شأنه، وفيه نظر لما تقدم عن ابن إسحاق أن إنشاء أبي طالب لهذا الشعر كان بعد المبعث، ومعرفةُ أبي طالب بنبوة رسول الله ﷺجاءت في كثير من الأخبار، وتمسك بها الشيعة في أنه كان مسلمًا، ورأيت لعلي بن حمزة البصري جزءًا جمع فيه شعر أبي طالب، وزعم في أوله أنه كان مسلمًا، وأنه مات على الإسلام، وأن الحشوية تزعم أنه مات على الكفر، وأنهم لذلك يستجيزون لعنه، ثم بالغ في سبهم والرد عليهم واستدل لدعواه بما لا دلالة فيه(٤).

---

(١) شرح النووي ١٧/ ١٩٧.

(٢) الصواعق المرسلة ٣/ ١٠٦٨.

(٣) البخاري(٤٩٥٣)، ومسلم(٤٢٢).

(٤) فتح الباري٢/ ٤٩٦.

فعن سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِى أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ لأَبِى طَالِبٍ: " يَا عَمِّ، قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ ". فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِى أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ[1].

الوجه العشرون: أين ذكر بحيرى في كتب النصارى؟.

لو كان بحيرى حقًا عالمًا عظيمًا وبارعًا لدرجة أنه خطط لنبوة محمد ﷺ، فإن من المفروض أن يوجد له في السجلات النصرانية أدب كثير، ومجلدات عن حياته وأعماله، ولكننا لا نجد عنه شيئًا إلا في الروايات الضعيفة التي ذكرناها.

ففي كتب النصارى والمستشرقين- كتاريخ الكنيسة ودائرة المعارف- ذُكر أن بحيرى كان في القرن الرابع، بل ظاهر كلام النصارى عند التحقيق في كتبهم التاريخية أنهم لا يعرفون عنه شيئًا مما يتعلق بتاريخ حياته في أرض العرب.

قال الألباني:

١- إن كتاب تاريخ الكنيسة أثبت أن الراهب بحيرى كان في القرن الرابع من الميلاد، وهي دعوى عارية عن الصحة إذ ليس لذلك حجة علمية يستطاع بها إثباتها، وكل ما كان من الحجة تاريخ الكنيسة! فيا لله العجب كيف يوثق بهذا التاريخ هذه الثقة البالغة إلى درجة أن يُعارض به تاريخ المسلمين؟ مع أن تاريخهم - مهما كان في بعض حوادثه نظر من الوجهة الحديثية خاصة - أصح وأنقى بكثير من تاريخ الكنيسة الذي تعجز الكنيسة نفسها عن إثبات صحة كتابها المقدس الذي هو أصل دينها، فكيف تستطيع أن تثبت تاريخها الذي هو بحق " أمشاج من الروايات التي لا سند لها ".

(١) البخاري(١٣٦٠).

٢- إنني رجعت إلى دائرة المعارف الإسلامية تأليف جماعة من المستشرقين، وإلى دائرة المعارف للبستاني، وإلى: " المنجد " فلم أجدهم ذكروا ما عزاه الأستاذ المصري إلى تاريخ الكنيسة؛ بل ظاهر كلامهم أنهم لا يعرفون عنه شيئًا مما يتعلق بتاريخ حياته في أرض العرب، إلا مما جاء في مصادرنا الإسلامية، وخاصة ما يتعلق منه بقصة اتصاله بالنبي ﷺحسبما تقدم تخريجه، وإن كانوا يعتبرونها " من الأساطير التي أحاطت بسيرة النبي محمد ﷺ" حسبما تقدم تخريجه، وذلك في " دائرة المعارف الإسلامية ".

٣- لنفترض أن ما عُزِيَ إلى تاريخ الكنيسة صحيح ثابت، وهو أن بحيرى الراهب كان في القرن الرابع من الميلاد، فذلك لا ينفي أن يأتي شخص آخر على شاكلته في الترهب سمي باسمه منذ ولادته على عادة النصارى وغيرهم من التسمي بأسماء الصالحين عندهم، أو لقب به بعد؛ لظهور شبه فيه به، هذا كله جائز ليس في العقل السليم ما ينفيه، وإذا كان الأمر كذلك، فبإمكان الأستاذ أن يعتقد وجود شخصين في زمنين متباينين باسم واحد (بحيرى) وبذلك يستطيع أن يوفق بين ثقته بالتاريخ الكنسي، وثقته بالتاريخ الإسلامي ولا يقع في هذه المغالطة التي كتبها بقلمه: " فكيف التقى الزمان القرن الرابع والقرن السادس والتقى المكان؟ "[1].

الوجه الحادي والعشرون: بحيرى لم يكلم النبي مباشرة، إنما كان يتكلم مع الناس عنه.

من الغريب ملاحظته في هذا الحديث الذي وبالرغم من أنه كله ملفق، إلا أنه أقوى من جميع الأحاديث التي تناولت حادثة بحيرى، لكن الراهب لم يخاطب محمدًا ﷺوهو صبي في أي وقت من الأوقات، وبإمكان الشخص ملاحظة ذلك من خلال قراءته للحديث ليرى بنفسه تلك الظاهرة الغريبة. لا يوجد في الحديث ضمير غائب بديلًا لمحمد ﷺ، لقد استعمل الراهب في كل مرة شخصًا ثالثًا أو ضمير إشارة. فتراه يتكلم عن محمد

(١) " مجلة المسلمون " العدد الثامن من سنة ١٣٧٩ (صـ ٣٩٣ - ٣٩٧) فليرجع إليه من أراد زيادة في التثبت. هامش فقه السيرة للغزالي (٦٨)، ودفاع عن الحديث النبوى (٦٢ - ٧٢).

كشخص بعيد عنه، فيتكلم مع القوم عنه، لا يحاوره بمحاورات مباشرة، فهل هذا يدل على أن الراهب لم يعتبر أن محمدًا ﷺوهو صبي أمي يمكنه أن يفهم ما يقول عنه؟.

والروايات التي تبين أن الراهب وهو يخاطب محمدًا ﷺوهو صبي بشكل مباشر اتفق العلماء على تضعيفها؛ لأنه من الطبيعي أن لا يتصور أن صبيًا في مثل عمره قد لا يلتفت لتلك المحادثة التي فيها إخبار بأمر النبوة.

الوجه الثاني والعشرون: لو كان سجود الشجر للنبي صحيحًا وقد رآه الناس لما حدث من اعتراضات للمشركين على النبي ﷺ

١ - اختار بحيرى نبي المستقبل وفي حضور كبار رجال قريش قال: إن محمد ﷺوهو صبي سيصبح نبي رب العالمين ورحمة للعالمين. وبذلك يكون رجال قريش شهودًا على تلك الحادثة غير عادية، وينقلونها إلى أهل مكة عند عودتهم إليها وبذلك تصبح حديث الناس، ومن الطبيعي أنه لو حدث شيء يتعلق بنبي المستقبل فإن أولئك الرجال ومن سمع الحادثة منهم سيعودون للحديث عن تلك الحادثة، لقد ظهر محمد في الصباح الباكر في البيت الحرام بعد ذلك ببضعة سنوات، حيث حل النزاع حول وضع الحجر الأسود، كان من المفروض حسب الحديث أن يصيح الناس " لقد وصل رسول رب العالمين، وظهر رحمة العالمين، ونحن نؤيده ونقبل رأيه ". لكن كتب التاريخ لم تذكر شيئًا من هذا القبيل، بل تذكر أنهم قالوا "جاء الأمين-الصادق-إلخ" ومرة أخرى عندما أعلن النبي المنتظر أنه اختير لأداء المهمة، كان من المفترض حسب الحديث أيضًا أن يعلن كل من اعتنقوا الإسلام أنهم كانوا يعرفون ذلك وينتظرونه، فإننا نجد أن ذلك لم يحدث.

* * *

١٧ـ شبهة: دعوى أن القرآن مقتبس من التوراة والإنجيل.

نص الشبهة:

الشبهة التي تمسكوا بها: وُرُودُ مواضع بينها تشابهٌ في كل من التوراة والقرآن الكريم. ومن أبرزها الجانب القصصي. وبعض المواضع التشريعية تمسكوا بها، وقالوا: إن القرآن مقتبس من التوراة، وبعضهم يضيف إلى هذا أن القرآن اقتبس مواضع أخرى من " الأناجيل ".

الرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: لقد تكفل الله تعالى بالرد على هذه الشبهة.

الوجه الثاني: معرفة كيفية تحقق الاقتباس عمومًا، وذلك بالتحقيق العلمي لمسألة كون القرآن مقتبس من التوراة والإنجيل أم لا؟

الوجه الثالث: حقيقة التشابه بين القرآن من جهة وبين التوراة والإنجيل.

الوجه الرابع: حقيقة النصرانية عند العرب، ولماذا لم يتأثروا بها كما تأثروا بالإسلام؟

الوجه الخامس: تأثير الإسلام في اليهودية والنصرانية يبين هيمنة القرآن على غيره، وضعف القول بأن اليهودية والنصرانية هما اللتان أثَّرتا في القرآن.

الوجه السادس: تأثير الإسلام لم يكن قاصرًا على العقيدة في المسيحية فحسب، بل يمتد إلى الشريعة. والكتب المقدسة كذلك، فإن تأثير الإسلام تناول اليهودية إلى جانب المسيحية.

الوجه السابع: تأثر الشرائع النصرانية بالعقيدة الوثنية.

الوجه الثامن: اختلافات ما بين القرآن وعقيدة جميع الطوائف النصرانية واليهودية القديمة والحديثة.

الوجه التاسع: دلائل تهافت الدعوى بأن القصص القرآني تكرار لقصص التوراة والإنجيل.

الوجه العاشر: تباين أهداف القصص في القرآن والتوراة والإنجيل.

الوجه الحادي عشر: القصص الذي انفرد به القرآن.

الوجه الثاني عشر نتائج المقارنة بين القصص المتناظر في القرآن والتوراة والإنجيل.

الوجه الثالث عشر: العهد القديم لم يكن مترجمًا إلى اللغة العربية قبل الإسلام.

الوجه الرابع عشر: لو كان محمدﷺ ينقل كتابه من كتب غيره، لكان إذا سأله سائل يتريث حتى يراجع الكتب التي عنده.

الوجه الخامس عشر: التحدي أن يأتي بمثله.

الوجه السادس عشر: هذه الأصول المأخوذة من التوراة والإنجيل والكتب السابقة التي يزعمون أن محمدًا ﷺقد نقل عنها موجودة في متناول أيدي الجميع، فلماذا يتحدى الناس بشيء موجود.

الوجه السابع عشر: القرآن لم يأت لهدم كل شيء، بل لتصحيح الخطأ وإقرار الحق.

الوجه الثامن عشر: الطعن في القرآن طعن في التوراة والإنجيل إن صح القول بالاقتباس.

الوجه التاسع عشر: مثال أخير فيما ذكره القرآن وما ذكرته التوراة والإنجيل عن عصمة الأنبياء، والبون الشاسع بينهما.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: **لقد تكفل الله تعالى بالرد على هذه الشبهة.**

وبالسبر والتقسيم يكون هناك احتمالات لمسألة إثبات ألوهية القرآن ألا وهي: أن القرآن يمكن أن يأتي إلى النبي ﷺعن أربع طرق: من عند نفسه، من عند شخص، من كتاب، من الله تعالى، أما من عند نفسه فقد تقدم معنا الرد على هذه الشبهة[١]

-أما من عند شخص؛ فمن هو هذا الشخص؟ أكثر الطاعنين على أنهم نصارى أو يهود، فردَّ الله تعالى عليهم أن لسان أولئك القوم ولغتهم أعجمية، ولكن لغة هذا القرآن عربي مبين، فكيف للأعجمي أن يأتي بأعلى الفصاحة وذروة البلاغة في اللغة العربية؟ ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (النحل: ١٠٣).[٢]

(١) انظر: بحث شبهة أن القرآن من تأليف محمد ﷺ من هذه الموسوعة.

(٢) انظر: شبهة ورقة بن نوفل- وبحيرى وقد تقدمتا.

-أما من كتاب، فالنبي ﷺ لا يقرأ ولا يكتب: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٨). [1] فلم يبق إلا أنه من الله تعالى[2].

الوجه الثاني: معرفة كيفية تحقق الاقتباس عمومًا، وذلك للتحقيق العلمي لمسألة كون القرآن مقتبس من التوراة والإنجيل أم لا؟

١- الاقتباس عملية فكرية لها ثلاثة أركان:

الأول: الشخص المُقتبَس منه.

الثاني: الشخص المُقتبِس (اسم فاعل).

الثالث: المادة المُقتبَسَة نفسها (اسم مفعول).

والشخص المُقتبَس منه سابق إلى الفكرة، التي هي موضوع الاقتباس، أما المادة المُقتبَسَة فلها طريقتان عند الشخص المُقتبِس، إحداهما: أن يأخذ المقتبس الفكرة بلفظها ومعناها كلها أو بعضها. والثانية: أن يأخذها بمعناها كلها أو بعضها كذلك ويعبر عنها بكلام من عنده.

والمقتبِس في عملية الاقتباس أسير المقتبَس منه قطعًا ودائر في فلكه؛ إذ لا طريق له إلى معرفة ما اقتبس إلا ما ذكره المقتبَس منه. فهو أصل، والمقتبِس فرع لا محالة.

٢- وعلى هذا فإن المقتبِس لابد له وهو يزاول عملية الاقتباس من موقفين لا ثالث لهما:

أحدهما: أن يأخذ الفكرة كلها بلفظها ومعناها أو بمعناها فقط.

وثانيهما: أن يأخذ جزءًا من الفكرة باللفظ والمعنى أو بالمعنى فقط.

ويمتنع على المقتبِس أن يزيد في الفكرة المقتبسة أية زيادة غير موجودة في الأصل؛ لأننا قلنا: إن المقتبِس لا طريق له لمعرفة ما اقتبس إلا ما ورد عند المقتبَس منه، فكيف يزيد على الفكرة والحال أنه لا صلة له بمصادرها الأولى إلا عن طريق المقتبَس منه؟

---

(١) انظر: شبهة أمية الرسول في هذه الموسوعة.

(٢) الرد على الطاعنين ١/ ٤٦.

٣- إذا جرى الاقتباس على هذا النهج صدقت دعوى من يقول إن فلانًا اقتبس منى كذا. أما إذا تشابه ما كتبه اثنان، أحدهما سابق والثاني لاحق، واختلف ما كتبه الثاني عما كتبه الأول مثل:

أ- أن تكون الفكرة عند الثاني أبسط وأحكم ووجدنا فيها ما لم نجده عند الأول.

ب- أو أن يصحح الثاني أخطاء وردت عند الأول، أو يعرض الوقائع عرضًا يختلف عن سابقه.

في هذه الحال لا تصدق دعوى من يقول إن فلانًا قد اقتبس مني كذا.

ورَدُّ هذه الدعوى مقبول من المدعى عليه؛ لأن المقتبِس (اتهامًا) لما لم يدر في فلك المقتبَس منه (فرضًا) بل زاد عليه وخالفه فيما ذكر من وقائع؛ فإن معنى ذلك أن الثاني تخطى ما كتبه الأول حتى وصل إلى مصدر الوقائع نفسها واستقى منها ما استقى. فهو إذن ليس مقتبِسًا وإنما مؤسس حقائق تلقاها من مصدرها الأصيل ولم ينقلها عن ناقل أو وسيط.

٤- وسوف نطبق هذه الأسس التي تحكم عملية الاقتباس على ما ادعاه القوم هنا وننظر:

هل القرآن عندما اقتبس كما يدعون من التوراة كان خاضعًا لشرطي عملية الاقتباس وهما: نقل الفكرة كلها، أو الاقتصار على نقل جزء منها فيكون بذلك دائرًا في فلك التوراة، وتصدق حينئذ دعوى القوم بأن القرآن (معظمه) مقتبس من التوراة؟

أم أن القرآن لم يقف عند حدود ما ذكرته التوراة في مواضع التشابه بينهما؟ بل:

أ- عرض الوقائع عرضًا يختلف عن عرض التوراة لها.

ب- أضاف جديدًا لم تعرفه التوراة في المواضع المشتركة بينهما.

ج- صحح أخطاء خطيرة وردت في التوراة في مواضع متعددة.

د- انفرد بذكر مادة خاصة به ليس لها مصدر سواه.

٥- في حالة اختلافه مع التوراة حول واقعة يكون الصحيح هو ما ذكره القرآن. والباطل ما جاء في التوراة بشهادة العقل والعلم إذا كان الاحتمال الأول هو الواقع فالقرآن مقتبس من التوراة.

أما إذا كان الواقع هو الاحتمال الثاني فدعوى الاقتباس باطلة ويكون للقرآن في هذه الحالة سلطانه الخاص به في استقاء الحقائق، وعرضها فلا اقتباس لا من توراة ولا من إنجيل ولا من غيرهما.

لا أظن أن القارئ يختلف معنا في هذه الأسس التي قدمناها لصحة الاتهام بالاقتباس عمومًا. وما علينا بعد ذلك إلا أن نستعرض بعض صور التشابه بين التوراة والقرآن، ونطبق عليها تلك الأسس المتقدمة تاركين الحرية التامة للقارئ سواء أكان مسلمًا أو غير مسلم في الحكم على ما سوف تسفر عنه المقارنة، أنحن على صواب في نفي الاقتباس عن القرآن أم لا؟.

والمسألة بعد ذلك ليست مسألة اختلاف في الرأي يصبح فيها كل فريق موصوفًا بالسلامة، وأنه على الحق أو شعبة من حق. وإنما المسألة مسألة مصير أبدي، من ورائه عقيدة صحيحة توجب النجاة لصاحبها يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، أو عقيدة فاسدة تُحل قومها دار البوار، يوم يقدم الله إلى ما عملوا من عمل فيجعله هباءًا منثورًا. [1]

الوجه الثالث: حقيقة التشابه بين القرآن من جهة وبين التوراة والإنجيل:

إذا كان هناك تشابه بين القرآن والتوراة والإنجيل فهذا أمر طبيعي؛ لأن المصدر واحد وهو الوحي، أما التناقض فيرجع إلى تحريف اليهود والنصارى للوحي المنزل على موسى وعيسى عليهما السلام.

إنما يُوجد تشابه بين القرآن والتوراة والإنجيل في أمور كثيرة، مع هيمنة القرآن عليهما هيمنة كاملة شاملة مقرونة بالإعجاز والتحدي. وهذا التشابه سببه وِحدة المصدر الإلهي؛ فبما أن الله تعالى هو منزل كل الكتب السماوية، والدين عنده واحد هو الإسلام، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران: ١٩)فمن البديهي والطبيعي، ومن الضروري أيضا أن يُوجد تشابه بين كل الكتب السماوية. [2]

الوجه الرابع: حقيقة النصرانية عند العرب، ولماذا لم يتأثروا بها كما تأثروا بالإسلام؟

(١) حقائق الإسلام وشبهات المشككين ص- ١٣٩

(٢) أباطيل وخرافات حول القرآن الكريم والنبي ١/ ٢٠٥.

إن العرب ما عرفوا من النصرانية إلا شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، فلو تأثر الإسلام بما عليه دين النصارى من الباطل، لشعُر العرب أن الإسلام لم يأتِ بجديد، وكان جديرًا لهم أن يتبعوا النصرانية بدلًا عن الإسلام.

إن الهجرة إلى الحبشة ما جعلت هناك دواعي لتأثر الإسلام بالنصرانية؟ فإنه لم تكن الحبشة النصرانية قادرة في تلك المرحلة على أن تعطي شيئًا للإسلام أو لغير الإسلام؟ بل لم تكن النصرانية عمومًا في الحبشة وغيرها قادرة على أن تعطي الإنسانية شيئًا؟ وقد كان عمر ﷺ يُقَالُ له القبيلة الفلانية اعتنقت النصرانية في الجاهلية والقبيلة الفلانية اعتنقت النصرانية فيقول رضوان الله عليه بسخرية ذات معنى عميق يقول: (إن العرب ما عرفوا من النصرانية إلا شرب الخمر وأكل لحم الخنزير)[1]؛ وعمر ﷺكان يتحدث عن العرب ولا يجهل أن النصرانية عمومًا بين العرب وغير العرب ما عرفت في تلك الأيام إلا شرب الخمر وأكل الخنزير والاعتداء على المحرمات، هذا واقع يشهد به تاريخ الحبشة في ذلك الزمان.[2]

الوجه الخامس: تأثير الإسلام في اليهودية والنصرانية يبين هيمنة القرآن على غيره، وضعف القول بأن اليهودية والنصرانية هما اللتان أثرتا في القرآن.

قال د. عبد الراضي محمد عبد المحسن: لعل هذا الوجه من أبرز دلائل تهافت المزاعم التنصيرية حول تلفيق القرآن من اليهودية والنصرانية؛ لأن واقع الأمر وحقيقة الحال أن اتجاه التأثير كان عكسيًّا، من اللاحق إلى السابق، وليس من السابق إلى اللاحق، وهذا الاتجاه التأثيري العكسي وإن كان على غير المألوف إلا أن له ما يسوغه، حيث جاءت اليهودية والنصرانية دعوة مرحلية لجماعات قبلية محدودة من البشر، فلمّا أرادت تجاوز طبيعتها وأهداف رسالتها احتاجت إلى عناصر تمكنها من ملاءمة الدائرة الزمانية والمكانية والثقافية الجديدة التي أرادتها لنفسها، ولمّا كانت تفتقد إلى تلك العناصر التي لم تتوفر إلا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٦/ ٧٢، لكنه من قول علي ﷺ، وإسناده صحيح.

(٢) موسوعة البحوث والمقالات العلمية -بحث رقم١٣ ص٤.

للإسلام بحكم طبيعة رسالته العالمية الخاتمة، فإن اليهودية والنصرانية تلمّستا تلك العناصر في الإسلام واقتبستها منه.

حتى إننا لا ندري إلى أيّ مدًى يمكن أن تكون ثورات الفكر المسيحي منذ الحركة الألبية حتى حركة الإصلاح البروتستانتي محسوبة كنتائج مباشرة أو غير مباشرة لمفهوم العقيدة في القرآن. [١]

يقول قاموس "برتلس مان" لديانات العالم: ((لقد أثّر الإسلام تأثيرًا عظيمًا في العقيدة المسيحية والفلسفة، وقاد على سبيل المثال إلى نقاش جديد حول عبادة الصور وتقديسها في المسيحية)). [٢]

الوجه السادس: تأثير الإسلام لم يكن قاصرًا على العقيدة في المسيحية فحسب، بل يمتد إلى الشريعة والكتب المقدسة، كذلك فإن تأثير الإسلام تناول اليهودية إلى جانب المسيحية.

وذلك في عدد من الجوانب يمكن إجمالها فيما يلي:

١ -المبادئ الثلاثة عشر التي جعلها موسى بن ميمون أساس الدين اليهودي وأركان الإيمان فيه، فصاغها على غرار أصول الإيمان في الإسلام، وأدرج فيها بعض أصول الإيمان الإسلامية مما لم يكن معروفًا في اليهودية من قبل أو مدرجًا في العهد القديم، كالاعتقاد بأن الله عالم، وبالثواب والعقاب في الآخرة، والاعتقاد في بعث الموتى. [٣]

وقد أقر ابن كمونة بعدم ذكر الثواب والعقاب الأخروي في التوراة وراح يعتذر عن ذلك ويحاول تسويغه. [٤] وهذا يؤكد اقتباس ابن ميمون هذه الأصول من الإسلام.

---

(١) الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم١/ ٧٢، والظاهرة القرآنية، مالك بن نبي ص ١٩٢.

(٢) نقلًا من الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم١/ ٧٢.

(٣) راجع المبادىء الثلاثة عشر في: Moses ben Maimone: Sein Leben، Seine Werke und sein Einfluss، Hrsg von: W. Bacher. Leipzig ١٩٠٨، S: ١١٢، نقلًا من الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم١/ ٧٣.

(٤) تنقيح الأبحاث للملل الثلاث لابن كمونة ص ٤٠ - ٤٣، نقلا من الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم١/ ٧٤.

٢ – تحديد مفهوم النبوة والمعجزة لأول مرة في اليهودية، والذي جاء إما متأثرًا بنظرية الفلاسفة المشائين كالفارابي وابن سينا، وإما متابعًا لجمهور علماء الإسلام في استدلالهم على هذه المعتقدات بالنصوص القرآنية. [١]

٣ – نقد التوراة، يقول ((واكسمان)) صاحب كتاب ((الأدب اليهودي)): ((في القرن الحادي عشر دخلت الفلسفة اليهودية مرحلة جديدة متأثرة بالمؤلفات الفلسفية الإسلامية والأفكار الإسلامية، وكان من أثر هذا أن بدأ الشك في التلمود، وبدأت تظهر أفكار حرة، ولم يقتصر الهجوم والنقد الذي قام به القراءون والطوائف المتصلة بهم على التلمود، بل شمل الكتاب المقدس أعظم إنتاج عقلي في الدين اليهودي)). [٢]

٤ – إقرار المسيحية بالوظيفة النبوية للمسيح الأرضي عيسى عليه السلام والتي لم تجد لها مكانًا في وثائق الكنيسة إلا في قرار مجمع الفاتيكان الثاني عام ١٩٦٥م. [٣]

٥ – دعوة البروتستانت إلى حرية قراءة الكتاب المقدس ورفض احتكار الكنيسة تفسيره والتي فتحت الباب أمام حركة نقد الكتاب المقدس في الغرب، تلك الحركة المنهجية التي تدين بالفضل لعلماء الإسلام كابن حزم والقرطبي وابن تيمية وابن القيم، وغيرهم.

٦ – تحريم البروتستانت لعبادة الأيقونات، ومنع وضعها في الكنائس؛ لأنها عمل وثني.

الوجه السابع: تأثر الشرائع النصرانية بالعقيدة الوثنية، وأن هناك ألفاظ ذُكرت في الكتاب المقدس مأخوذة من ديانات أخرى، والإسلام جاء ليقضي على العقيدة الوثنية، فكيف يأخذ الإسلام الشرائع النصرانية بما فيها من وثنية؟ [٤]

الوجه الثامن: اختلافات ما بين القرآن وعقيدة جميع الطوائف النصرانية واليهودية القديمة والحديثة:

---

(١) الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم١/ ٧٤.

(٢) الأثر العربي في الفكر اليهودي. ص ١٤٤، إبراهيم موسى هنداوي، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٣ م.

(٣) ١٩٩ Katechismus der katholischen kirche. Leipzig - schwens نقلًا من الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم ١/ ٧٤.

(٤) انظر تفصيل ذلك في شبهة ادعاؤهم أن أعمال الحج من بقايا الوثنية.

وثَمَّ شبهة تقول بأن الإسلام لم يأخذ عقيدته من الكنيسة الكاثوليكية ولا الأرثوذوكسية ولكنه أخذها من الأبيونية وممن كان يُنادي من النصارى بأن المسيح هو نبي وليس إله، وأن القرآن انتقد الطوائف الأخرى إلا هذه الطائفة التي أخذ منها عقيدته:

وهذا تم الرد عليه بالتفصيل في شبهة أن ورقة بن نوفل كان أبيونيًا، وأن محمدًا ﷺ أخذ منه هذه العقيدة، وبيَّنا أن هناك اختلافات كبيرة بين الأبيونية وممن كان يُنادي من النصارى بأن المسيح هو نبي وليس إله من جهة وبين الإسلام من جهة أخرى. (١)

الوجه التاسع: دلائل تهافت الدعوى بأن القصص القرآني تكرار لقصص التوراة والإنجيل. (٢)

لن يجدي في رد هذه الشبهة سوى منهج نقد النصوص المقارن لإبراز جوانب التباين بين مرويات القصص القرآني ومنهجها، وبين القصص التوارتي والإنجيل.

وبواسطة هذا المنهج أمكن الوقوف على أربعة دلائل تتهافت معها دعوى تكرار القرآن لقصص التوراة والإنجيل، وهي:

الدليل الأول: اختلاف منهج القصص في القرآن عن المنهج القصصي في التوراة والإنجيل.

يختلف منهج القصص في القرآن عن المنهج القصصي في التوراة والإنجيل من عدة جوانب منها:

١ - مصدر القصص، حيث إن الذي يقصُّ في القرآن هو الله تبارك وتعالى، فهو المتكلم بالكلمة القرآنية، يقول تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (يوسف: ٣).

ويقول تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ (الكهف: ١٣).

أما في التوراة والإنجيل فالله تعالى متحدَّث عنه بطريق الحكاية لتعريف الناس به. (٣)

---

(١) انظر شبهة ادعاؤهم اقتباس محمدﷺالوحي من ورقة بن نوفل.

(٢) هذا الوجه وما يليه من ثلاثة وجوه نقلا بتصرف يسير من كتاب الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم للدكتور عبد الراضي محمد عبد المحسن ص- ٧٤- ٩١.

(٣) سيكولوجية القصة في القرآن للتهامي النقرة، ، ص- ٨٠.

٢ - الخيال القصصي، بينما يقوم الخيال القصصي في التوراة والإنجيل بأكبر الأدوار في صياغة وتأليف قصصها، وهو ما كشفت عنه دراسات حديثة تعد مرجعيات في هذا الباب، مثل دراسة: جيمس فريزر عن الفلكلور في العهد القديم. (١)

ودراسة: ((زينون كاسيدوفسكي)) عن الحقيقة والأسطورة في التوراة والتي لخّص فيها مكانة الخيال والخرافة في القصص التوراتي، بقوله: ((تناقل اليهود تراثهم الديني من جيل إلى جيل، وساهم الطابع الفلكلوري لنقل الروايات الحقيقية بتطعيمها بكثرة من الخرافات والأساطير والأمثال والأقصوصات، جعلت من الصعب الآن التمييز بين الواقع والخرافة فيها)). (٢)

أما القرآن الكريم فلا يعرف الخيال القصصي طريقًا إلى مادة مروياته، حيث يلجأ القرآن في قصصه إلى الاحتكام لمعياره النقدي في الأخبار: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ (الحجرات: ٦).

فهو يطالب قارئ قصصه بتلمس دلائل واقعيتها وصدقها التاريخي في آثارها الماثلة للعيان: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ (آل عمران: ١٣٧). وقد وقف الأثريون على آثار القصص القرآني الشاهدة على الصدق التاريخي، مثل آثار سيل العرم الذي هدّم سد مأرب باليمن، فلا زالت آثار الجنتين الواقعتين عن يمين السد وشماله ماثلة حتى اليوم تؤكد صحة قصة سبأ: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖ﴾ (سبأ: ١٥-٢١).

وكذلك اكتشف علماء الآثار النقوش الثمودية في أرض تبوك ومدائن صالح وتيماء ولا زالت مزارًا سياحيًّا حتى اليوم. (٣)

---

(١) الفلكلور في العهد القديم لجيمس فريزر، بترجمة نبيلة إبراهيم.

(٢) الحقيقة والأسطورة في التوراة لزينون كاسيدوفسكي، ص ٥٢.

(٣) مصادر التاريخ صـ١٦، لسيدة إسماعيل كاشف.

ولذلك يصف القرآن قصصه بأنه: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ (يوسف: ٣)، لما توافر له من علم ومعاينة: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ (الأعراف: ٧)، وما اتسم به من حقيقة وصدق: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ (آل عمران: ٦٢).

٣ - التشخيص البياني، وهو التعبير بالصورة المحسوسة المتخيلة عن المعاني الذهنية والحالات الشعورية والمشاهدات والأحداث الحقيقية، وهذا النهج التشخيصي هو الأداة المفضلة في القصص القرآني.

٤ - التصريح والتلميح، في الوقت الذي يهتم القرآن بإبراز أدق التفاصيل النفسية والشعورية لأشخاص قصصه، فإنه يكتفي بذلك التشخيص معرضًا عن التصريح بالأسماء كما في قصة (العبد الصالح)، (الفتى) مع موسى، وكما في قصة ثمود ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢﴾ (الشمس: ١٢)، وكما في مؤمن آل فرعون.

وقد يكون هذا التلميح إلى جانب ملاءمته للمنهج القصصي الذي يهتم بإبراز الحدث وقيمته ومغزاه لكونه الهدف من القصّ، فإنه يناسب طبيعة التشريع الإسلامي فيما يخصُّ أسماء النساء مثلا: امرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة فرعون، وكذلك زوجة إبراهيم هاجر وسارة، وأسماء زوجات النبيﷺ، والمجادِلة في زوجها[1].

٥ - التجريد الزماني والمكاني، حيث لا يحدد القرآن زمن الحدث أو مدته أو مكانه إلا ما كان محوريًّا في الحدث أو مسرحًا له كمصر في قصة يوسف، أو المسجد الحرام والمسجد الأقصى في الإسراء والمعراج، أو مدة رسالة نوح، أو مدة لبث أهل الكهف في نومهم، أو المدة التي أماتها الله للمارّ على القرية الخاوية[2].

وترجع أسباب التجريد في الزمان والمكان في قصص القرآن إلى أمرين:

---

(١) القرآن ونظرية الفن حسين علي محمد، ص ١١٢.

(٢) سيكلوجية القصة في القرآن، ص ـ٩٧ التهامي نقرة، القرآن ونظرية الفن، حسين علي محمد، صـ ١١٣.

أولهما: عناية القصة بالحدث وتقرير الحقائق الدائمة المستقلة عن الأشخاص، والتي يمكن الإفادة من حكمتها ومغزاها في كل زمان ومكان بما يتلاءم مع عالمية رسالة القرآن واستمرارها، فما الأشخاص في القصص القرآني والحال كذلك إلا أمثلة لتلك الحقائق المقصودة لذاتها. (١)

الثاني: تحقيق الإيجاز غير المُخِلّ. (٢)

٦ - التنويع بين الإجمال والتفصيل، ففي مواضع: التحذير من العناد والتكذيب والإصرار على الباطل، والتخويف من مصائر المكذبين، يكون الإيجاز والفواصل القصيرة دون ذكر للأسماء أو للمحاورات(٣).

فيورد القرآن -مثلًا- في تسع آيات من سورة الفجر ثلاث قصص لمكذبي الرسل تشمل أعمالهم وعقابهم. قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾** ﴾ (الفجر: ٦-١٤). وهذا ما لا نظير له في التوراة أو الإنجيل.

٧ - عاقبة القصص، يأتي ختام القصة في القرآن بعكس ختام قصص التوراة والإنجيل حيث تختم القصة مع نهاية السفر أو الإصحاح، ففي قصة يوسف مثلًا يفترض أن تكون الخاتمة في لقاء يوسف بأبيه يعقوب الذي صوَّرته التوراة على النحو التالي: **فَشَدَّ يُوسُفُ مَرْكَبَتَهُ وَصَعِدَ لاسْتِقْبَالِ إِسْرَائِيلَ أَبِيهِ إِلَى جَاسَانَ. وَلَمَّا ظَهَرَ لَهُ وَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَبَكَى عَلَى عُنُقِهِ زَمَانًا. ٣٠فَقَالَ إِسْرَائِيلُ لِيُوسُفَ: «أَمُوتُ الآنَ بَعْدَ مَا رَأَيْتُ وَجْهَكَ أَنَّكَ حَيٌّ بَعْدُ»**(سفر التكوين ٤٦ : ٢٩ - ٣٠).

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ٢١٧).

(٢) أدب القصة في القرآن الكريم، لعبد الجواد المحص، ص ٢٥٥

(٣) سيكلوجية القصة في القرآن للتهامي نقرة ص ٩١.

وعلى الرغم من أن عبارة يعقوب لم تمس سبب العقدة الأصلية في القصة وهي رؤيا يوسف وتآمر إخوته عليه، فإن القاصّ في التوراة يكمل الأحداث بعد هذا اللقاء ليصف لقاء يعقوب بالفرعون، والمكان الذي أقطعه لبني إسرائيل، ومرض يعقوب وموته.

أما ختام القصص في القرآن فيكون غالبًا في شكل عبرة، أو عظة، أو حكمة، أو تقرير موجز.[1]

كما في قصة السامري مع العجل: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ (طه: ٩٨)، وفي قصة أهل الكهف: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ (الكهف: ٢٦)، وفي قصة يوسف: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ (يوسف: ١٠٠)، وفي قصة مريم وابنها المسيح: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ (مريم: ٣٤-٣٥).

الوجه العاشر: تباين أهداف القصص في القرآن والتوراة والإنجيل.

تختلف أهداف القصة في التوراة والإنجيل عنها في القرآن، وذلك على النحو التالي:

أ - أهداف القصة في التوراة والإنجيل.

يمثل العهد القديم والجديد سجلا تاريخيًّا لحياة الشعب الإسرائيلي والنصراني، فهو كتاب تاريخ وتأريخ للاعتقاد والرؤساء والأنساب والتقاليد والنظم الاجتماعية والعلاقات الشخصية؛ لذلك جاءت عناوين الأسفار ملخّصة لمضمون تاريخها، مثل سفر التكوين الذي يؤرخ لبدء الخليقة، وسفر الخروج الذي يؤرخ لخروج اليهود من مصر،

(١) القرآن ونظرية الفن لحسين محمد علي ص ١١٣.

وسفر العدد الذي يحصي أعدادهم، وسفر اللاويين الذي يؤرخ لأحكام الكهنة من بني لاوي، وسفر التثنية الذي يعيد الأحكام والفروض والوصايا.

ولما كان الهدف من الكتابين التأريخ جاءت القصص فيهما في إطار الهدف العام، فجاءت سردية تأريخية متنوعة ما بين التأريخ للأنساب كما في الإحصاءات التي يقوم بها العهد القديم لأعداد بني إسرائيل الداخلين إلى مصر والخارجين منها والداخلين إلى فلسطين والمهجّرين منها. . . . إلخ.

وكذلك التأريخ لنسب المسيح كما في شجرتي النسب الشهيرتين لدى متى ولوقا في العهد الجديد.

وما بين التأريخ للسير الذاتية والتيارات الأدبية، كما في خطابات بولس الشخصية لأصدقائه. تيموتاوس العهد الجديد، رسالة بولس الأولى إلى تيموتاوس، فيلمون، وكما في التأريخ لقصائد داود في المناسبات المختلفة. [1]

وما بين القصص التأريخي للأحداث، مثل إنجيل لوقا الذي يصرح مؤلفه أن قصصه تأريخ لأحداث جرت بذكرها الألسنة. يقول لوقا(١/ ١ - ٥): **١إِذْ كَانَ كَثِيرُونَ قَدْ أَخَذُوا بِتَأْلِيفِ قِصَّةٍ فِي الأُمُورِ الْمُتَيَقَّنَةِ عِنْدَنَا، ٢كَمَا سَلَّمَهَا إِلَيْنَا الَّذِينَ كَانُوا مُنْذُ الْبَدْءِ مُعَايِنِينَ وَخُدَّامًا لِلْكَلِمَةِ، ٣رَأَيْتُ أَنَا أَيْضًا إِذْ قَدْ تَتَبَّعْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الأَوَّلِ بِتَدْقِيق، أَنْ أَكْتُبَ عَلَى التَّوَالِي إِلَيْكَ أَيُّهَا الْعَزِيزُ ثَاوُفِيلُسُ، ٤لِتَعْرِفَ صِحَّةَ الْكَلاَمِ الَّذِي عُلِّمْتَ بِهِ.**

وفي سفر أعمال الرسل يخبر الكاتب أن قصصه تكملة لمشروع القصص التأريخي الذي بدأه في كتابه إلى ثاوفيلس وتوقف فيه عند رفع المسيح. [2] وربما يكون هذا الهدف التأريخي أحد أهم أسباب مجيء القصص التوراتي والإنجيلي سرديًّا باردًا غير مؤثر وجدانيًّا في المتلقي أو مشوق له.

ب - أهداف القصص القرآني:

---

(١) العهد القديم، سفر المزامير، مزمور رقم: ٤٥، ٥٢، ٥٤، ٨٥، ٨٩.

(٢) العهد الجديد، سفر أعمال الرسل (١/ ١ - ٩).

القصص القرآني ليس مسوقًا لذاته، بل لأجل غايات وأهداف كثيرة يمكن إدراكها بالتفكير والتأمل في القصص؛ لقوله تعالى: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٦). ومن هذه الأهداف:

١ - الاستدلال على التوحيد، وهو من أهم أهداف القصص القرآني، كما في قصص إبراهيم مع قومه، ونوح مع قومه، وموسى مع فرعون. . . . إلخ.

٢ - تثبيت الرسول والمؤمنين على الحق الذي يدعون إليه رغم ما يلقونه من مشقة ويتكبدونه من تضحيات، قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ (هود: ١٢٠).

٣ - الحكم والفصل في مواضع الاختلاف والتضارب في قصص التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (النمل: ٧٦)، ولعل هذا الهدف الذي حدده القرآن لقصصه أبلغ رد وأوقع دليل على تهافت دعوى الجدليات التنصيرية بأن القرآن تكرار للقصص في التوراة والإنجيل؛ لأنه يتضمن التفسير المقنع لمواضع التشابه بين القصص القرآني وقصص الكتب السابقة، فما جاءت به الكتب السابقة في مقام ادعاء المدعي، أما قصص القرآن فهو حقيقة الحدث الذي جرى يحكيه القاضي الفاصل في دعوى المدّعي، مبيِّنا به وجه الخطأ والصواب في مزاعم الادعاء ومقررًا الحقيقة التاريخية في الحدث لكل العالمين.

٤ - العظة والاعتبار، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (يوسف: ١١١)، ويمكن القول: إن معظم قصص القرآن يُقصد به العظة والاعتبار من باب: إما قياس الطرد وإما قياس العكس، فما يحيق بالمشركين وبمخالفي الرسل هو جزاء كل من جاء بمثل فعلهم، أما من جاء بعكس فعلهم فله عكس جزائهم.

ولذلك حينما يورد القرآن قصص الفساد الأخلاقي لدى الأمم السابقة، يقرن ذلك بما تلاه من جزاء ومصير ناله المفسدون، ويصدّر ذلك بطلب النظر والتأمل في التلازم بين

الذنب والعقاب للاعتبار والتخويف. يقول تعالى عقب قصة قوم لوط: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (الأعراف: ٨٤).

ويعقّب القرآن على قصة ثمود بالترهيب من جزاء من يفعل السيئات مثلهم، وبالترغيب في ثواب من آمن واتقى من قوم صالح. قال تعالى: ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (النمل: ٥١-٥٣).

٥ - الحجة والإقناع، وذلك بإيراد القصة المناسبة للموقف بما تتضمنه من حوار تبرز فيه دعاوى المخالفين القدامى ضد أنبيائهم، ثم تأتي ردود الأنبياء الإقناعية وكأنها ردود من النبي محمد ﷺ على قومه، أو ردود من كل داعية إلى الإسلام على مخالفيه في كل زمان ومكان، من ذلك مثلا الحوار الذي جرى بين نوح وقومه. قال تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ (هود: ٣١).

٦ - إظهار قدرة الله المطلقة، وذلك في باب الخلق من عدم كقصة خلق آدم، أو الخلق من أم بلا أب كقصة مريم وابنها المسيح عيسى، أو إثبات القدرة على إحياء الموتى كقصة إبراهيم مع الطير، أو البعث والنشور كقصة الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه.

الوجه الحادي عشر: القصص الذي انفرد به القرآن.

يعد هذا الدليل من أبرز أدلة (نقد النص) وأهمها في بيان تهافت دعوى تكرار القرآن لقصص التوراة والإنجيل، بسبب كون المصدر المزعوم الإفادة منه يفتقد مادة المرويات القصصية ويجهل كل شيء عنها، وذلك في حالة القصص الكاملة التي انفرد بها القرآن، ويزيد الأمر قوة في الإثبات والإفحام عندما تتعلق المرويات ببعض التفاصيل الدقيقة التي أتى بها القرآن في القصص المتناظرة مما لم تذكره كتب العهدين.

ومن القصص الذي انفرد به القرآن ما يلي: -

أ - القصص الكاملة مثل قصص: صالح، هود، شعيب، الخضر، ذي القرنين.

ب - تفاصيل دقيقة في القصص المتناظر انفرد بها القرآن أو خالف فيها كتب التوراة والإنجيل مثل:

١ - ما جاء في القرآن الكريم من أمر الله الملائكة بالسجود لآدم وامتناع إبليس عن هذا السجود.

٢ - ما ورد في القرآن الكريم من قصص الخليل عليه السلام مع قومه وتحطيمه لأصنامهم ونظرته في النجوم، وحجاجه مع قومه، ومحاولتهم إحراقه في النار، وإسكانه بعض ذريته عند بيت الله الحرام، واشتراكه هو وابنه إسماعيل في رفع القواعد من البيت وبناء الكعبة.

٣ - ما قصه علينا القرآن الكريم من محاورة بين نوح وابنه الكافر، وعدم ركوب هذا في السفينة وغرقه، ومحاورة نوح مع الله في ذلك.

٤ - ما قصه علينا القرآن الكريم من تمزيق امرأة العزيز قميص يوسف، وحديث النسوة ودعوة امرأة العزيز إياهن وتقطيعهن أيديهن.

٥ - ما قصه القرآن الكريم عن خبرة سحرة فرعون والتقام العصا التي انقلبت حية لحبالهم وعصيهم وسجودهم وإيمانهم برب هارون وموسى، ومحاورتهم مع فرعون.

٦ - الشخص الثاني الذي أراد سيدنا موسى عليه السلام أن يبطش به من عدوه، في حين أن العهد القديم يدعي أن هذا الشخص عبراني.

٧ - السامري الذي صنع العجل لبني إسرائيل في حين أن التوراة تذكر أنه هارون عليه السلام.

٨ - ما قصه القرآن الكريم عن الرجل المؤمن من آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه، ودافع عن موسى حين هموا بقتله، وذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى فنصح موسى بالخروج من أرض مصر.

٩ - القرآن الكريم يذكر أن بنات الشيخ المديني اثنتان، في حين أن التوراة تذكر أنهن سبع.

١٠ - ما ورد في القرآن الكريم من محاورة بين فرعون وهامان لأجل بناء صرح ليطلع إلى إله موسى.

١١ - ما جاء في القرآن الكريم من خبر أمر موسى قومه بذبح بقرة ومحاورته معهم.

١٢ - أمر الله لقوم موسى بدخول الباب سجدًا ومخالفتهم لهذا الأمر.

١٣ - قصة أصحاب السبت ومسخهم قردة بعد أن اعتدوا فيه.

١٤ - ما قصه القرآن الكريم من تسخير الله الشجر والطير والحديد لداود عليه السلام.

١٥ - تسخير الجن والريح لسليمان عليه السلام.

١٦ - قصة الهدهد، وكتاب سليمان لملكة سبأ وإسلامها وإحضار عرشها بلمح البصر من قبل الذي عنده علم الكتاب.

١٧ - كلام عيسى عليه السلام في المهد.

١٨ - صنع عيسى من الطين كهيئة الطير وصيرورته طيرًا بإذن الله.

١٩ - قصة المائدة(١).

الوجه الثاني عشر: نتائج المقارنة بين القصص المتناظر في القرآن والتوراة والإنجيل.

لا شك أن المقابلة بين نصوص القصص القرآني ونصوص القصص في التوراة والإنجيل تُعَدُّ معيارًا موضوعيًّا في بيان تهافت مزاعم الجدليات التنصيرية بتكرار القصص القرآني لقصص العهد القديم والجديد، وذلك لما يكشف عنه هذا المنهج المقارن للنصوص من اختلافات وفوارق تفصيلية وجوهرية بين متون القصص في الكتب الثلاثة، مما يحسم بشكل جليّ وقاطع أمر الاقتباس والمتابعة، وذلك في ضوء الاعتبارات التالية: قصة هابيل وقابيل ابني آدم، قصة الطوفان، قصة يوسف، بشارة زكريا ب "يحيى"(٢).

الوجه الثالث عشر: العهد القديم لم يكن مترجما إلى اللغة العربية قبل الإسلام.

---

(١) أباطيل الخصوم حول القصص القرآني لعبد الجواد المحص، صـ ٤٦ - ٤٨.

(٢) انظر شبهة قصة ابني آدم، قصة يوسف في هذه الموسوعة.

وقد نص على ذلك المستشرقون أنفسهم، فهذا (جوتين) يقول عن صحائف اليهود (إن تلك الصحائف مكتوبة بلغة أجنبية) وقد أشارت الموسوعة البريطانية إلى عدم وجود ترجمة عربية لأسفار اليهود قبل الإسلام وأن أول ترجمة كانت في أوائل العصر العباسي، وكانت بأحرف عبرية[(١)].

كيف إذن أخذ النبي ﷺ منها، لابد على المستشرقين أن يفتروا كذبة جديدة، وهي أن النبي ﷺ درس لغة التوراة فكان يترجمها للقرآن؟! !. [(٢)]

الوجه الرابع عشر: لو كان محمد ﷺ ينقل كتابه من كتب غيره، لكان إذا سأله سائل يتريث حتى يراجع الكتب التي عنده.

ومن لطائف الاستدلال على أنه لم ينقل من غيره ما يذكره العلماء في فوائد أسباب النزول؛ إذ يذكرون أن من فوائد أسباب النزول أن دلالته على إعجاز القرآن، وأنه من الله تعالى من ناحية الارتجال، فنزوله بعد الحادثة مباشرة يقطع دعوى من ادعوا أنه أساطير الأولين، أو من كتب السابقين[(٣)]، فلو كان ينقل كتابه من كتب غيره، لكان إذا سأله سائل يتريث حتى يراجع الكتب التي عنده، وينظر ماذا تقول في هذه المسألة ثم يجيب، ولكن النبي ﷺ لم يكن يفعل، بل يسأله الرجل فيعطيه الجواب الموافق للصواب، الذي لم يكن قرأه ولا عرفه إلا في هذه اللحظة التي نزل عليه فيها، وقد ذكرت في مبحث أدلة صدق النبي وقائع كثيرة تدل على هذا المعنى.

الوجه الخامس عشر: التحدي أن يأتي بمثله:

من أوضح الأدلة على رد دعوى النقل من غيره التحدي أن يأتي بمثله.

قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ (البقرة: ٢٣)[(٤)].

الوجه السادس عشر: هذه الأصول المأخوذة من التوراة والإنجيل والكتب السابقة التي يزعمون أن محمدًا ﷺ قد نقل عنها موجودة في متناول أيدي الجميع، فلماذا يتحدى

---

(١) دراسات في تاريخ الإسلام ونظمه د. جوتين، نقلا عن كتاب الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، لمحمود ماضي صـ: ١٤٧.

(٢) الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين في القرن الرابع عشر الهجري ص- ٢٢٣المطلب الثاني: نقله من غيره، والرد عليهم.

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٥٠).

(٤) انظر بحث إعجاز القرآن، وشبهة تأليف القرآن

الناس بشيء موجود؟

لو كان القرآن مأخوذًا من التوراة والإنجيل والكتب السابقة، لما استطاع محمد ﷺ أن يتحدى الناس ويقدم على هذا الخطأ الفادح؛ لأن هذه الأصول المنقول عنها موجودة في متناول أيدي الجميع، فلماذا يتحدى الناس بشيء موجود، ألا يخشى أن يقوم بعض الناس بالرجوع إلى مراجعه والعمل مثل عمله، فينكشف؟.

ثم هذه الأساطير والمراجع ليست خاصة بمحمد ﷺ، بل هي كتب متداولة بيد الجميع، فلماذا لا تحضرون لنا هذه الكتب التي نقل منها؟.

وعلى فرض تعلم النبي ﷺ من نصارى الشام ويهود المدينة وغيرهم، لا يتفق مع الحقيقة التاريخية التي تحدثنا عن الحيرة والتردد في موقف المشركين من رسول الله في محاولتهم لتفسير ظاهرة الرسالة؛ لأن مثل هذه العلاقة مع النصارى أو اليهود لا يمكن التستر عليها أمام أعداء الدعوة من المشركين وغيرهم، الذين عاصروه وعرفوا أخباره وخبروا حياته العامة بما فيها من سفرات ورحلات[1].

الوجه السابع عشر: القرآن لم يأت لهدم كل شيء؛ بل لتصحيح الخطأ وإقرار الحق.

إن وجود بعض الشرائع في القرآن، التي تتفق مع ما في التوراة والإنجيل، أو حتى ما عند العرب ليس في هذا دليل على أنه مأخوذ منها، فالقرآن لم يأت لهدم كل شيء؛ بل لتصحيح الخطأ وإقرار الحق، فالصدق والشجاعة والكرم والحلم والرحمة والعزة كل هذه المعاني موجودة عند كفار مكة ومع هذا جاء الإسلام ولم يغير منها شيئا بل باركها وحث عليها، لذلك قال النبي ﷺ: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ"[2]، ولم يقل: لأنشئها؛ إذن ليس من الضروري لكتاب هداية من هذا القبيل، أن يشجب كل الوضع الذي كانت الإنسانية عليه قبله حتى يثبت صحة نفسه، فمن الطبيعي أن يقر القرآن بعض الشرائع، سواء في الكتب السابقة السماوية، أو في عادات الناس وأعرافهم، وأما الخطأ فإنه لا يقره، وقد نص القرآن على هذا المعنى في مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ

---

(١) الرد على الطاعنين ص-٢٢٤.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٨١عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٤٩).

ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (يونس: ٣٧).

الوجه الثامن عشر: الطعن في القرآن طعن في التوراة والإنجيل إن صح القول بالاقتباس.

إذا كان القرآن مأخوذ من التوراة والإنجيل فلماذا هذا الطعن في كتاب مأخوذ منهما؟ ولماذا إذن هذه الحرب الشعواء عليه؟ أليس حقيقة هذا الأمر أنه طعن في الأصل المأخوذ منه؟.

أم أن هؤلاء الطاعنين علموا في قرارة أنفسهم أنه كتاب عظيم منزل من الله تعالى، وأنه ناسخ للشرائع السابقة؛ فهالهم هذا الأمر وحاولوا تنفير الناس منه بأي طريق، فأخذوا يتكلمون بأي كلام، لا لشيء إلا بغضا لهذا الكتاب، فجرفهم الحماس حتى قالوا كلاما طعنوا به في التوراة والإنجيل -التي يدينون بها- وهم لا يشعرون[1].

لقد شهد المنصفون من المستشرقين بضد ذلك:

يقول المستشرق الإنجليزي لايتنر: (بقدر ما أعرف من دِينَي اليهود والنصارى أقول بأن ما علمه محمد ليس اقتباسًا، بل قد أوحى إليه ربه، ولا ريب بذلك).

ويقول هنري دي كاستري: (ثبت إذن أن محمدا لم يقرأ كتابا مقدسا، ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه). [2]

الوجه التاسع عشر: مثال أخير فيما ذكره القرآن وما ذكرته التوراة والإنجيل عن عصمة الأنبياء، والبون الشاسع بينهما.

فصفات الأنبياء في القرآن: أنهم معصومون، أما في الكتاب المقدس فلهم رذائل لم يتوبوا منها:

نوح عليه السلام في التوراة: فقد تحدثت التوراة عن سكر نوح وتعريه داخل خبائه فأبصره ابنه الصغير حام، وأخبر أخويه بما رأى فجاءا بظهريهما وسترا أباهما، فلما أفاق من سكرته وعرف ما فعل ابنه حام الصغير قال: "ملعون كنعان (ابن الجاني حام)، عبد العبيد يكون لإخوته... وليكن كنعان عبدًا لهم".

فبدلًا من أن يوجه ابنه الصغير للتصرف الصحيح مع الوالد حين سكره وعربدته، صب لعناته على كنعان ابن حام، كنعان الذي لعله لم يخلق بعد، فما ذنب هذا! بل وما ذنب أبيه الذي

---

(١) الرد على الطاعنين في القرن الرابع عشر الهجري ص-٢٢٨.

(٢) الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده ص-١٤٩. نقلًا من الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين في القرن الرابع عشر الهجري ص- ٢٢٨ المطلب الثاني: نقله من غيره، والرد عليهم.

لم يكن ليستحق هذا كله؟ وماذا عن الأب الذي شرب الخمر. ما الذي يستحقه؟ ؟

لوط ﷺ: وأما لوط ﷺ النبي الذي حارب الشذوذ، فتذكر التوراة أنه لما أهلك الله قومه لجأ إلى مغارة مع ابنتيه فسقتاه الخمر، وضاجعتاه ولم يعلم بذلك، وولد من هاتين الفاحشتين عمي ومؤاب، ومنهما انحدر العمويون والمؤابيون أعداء بني إسرائيل، كما في (التكوين ١٩: ٣٠ - ٣٧).

ويذكر السفر تبريرًا لهذه الفاحشة أن الكبيرة منهما قالت لأختها: " أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. . . . نحيي من أبينا نسلًا " (التكوين ١٩: ٣١ - ٣٢) فيصور النص الأرض وقد خلت من الرجال، أو أن المغارة سيمكث فيها لوط وابنتاه إلى الأبد.

موسى وهارون عليهما السلام: كما تسيء التوراة إلى موسى أعظم أنبياء بني إسرائيل، وتذكر كلمات لا يمكن أن تصدر من موسى لما فيها من إساءة أدب مع الله، منها: " فقال موسى للرب: لماذا أسأت إلى عبدك؟ ولماذا لم أجد نعمة في عينيك حتى أنك وضعت ثقل جميع هذا الشعب علي؟ ألعلي حبلت بجميع هذا الشعب؟ أو لعلي ولدته. . فإن كنت تفعل بي هكذا فاقتلني قتلًا، إن وجدتُ نعمة في عينيك فلا أرى بليتي " (العدد ١١: ١٠ - ١٥)، فهل يتحدث عبد مع ربه بمثل هذا؟.

سليمان ﷺ: وحين يذكر اليهود سليمان ﷺ، يذكره كثير منهم، على أنه ملك أو ساحر، كما في جرأة اليهود على رسول الله ﷺ بقولهم (ألا تعجبون لمحمد يزعم أن سليمان بن داود كان نبيًا! والله ما كان إلا ساحرًا) كما في بعض نصوص التوراة[1].

قال ابن تيمية: فإن كثيرًا من اليهود والنصارى يطعنون فيه منهم من يقول: كان ساحرًا وأنه سحر الجن بسحره، ومنهم من يقول سقط عن درجة النبوة فيجعلونه حكيمًا لا نبيًا. [2]

قال ابن كثير: وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان. [3]

وذمهم الله باتباعهم السحر ثم نسبته إلى نبي الله سليمان ﷺ، واختلف هل المذموم اليهود

---

(١) انظر: القران والتوراة حسن الباش ١/ ٣٤٠.

(٢) الجواب الصحيح ٣/ ٣٨.

(٣) تفسير ابن كثير (٧/ ٦٠).

الذين كانوا على عهد سليمان ، أم المعاصرين لنبينا ، والصواب أنه للجميع؛ "لأن المتبعة ما تلته الشياطين في عهد سليمان وبعده إلى أن بعث الله نبيه بالحق وأمر السحر لم يزل في اليهود. وكل متبع ما تلته الشياطين على عهد سليمان من اليهود داخل في معنى الآية. "[1]

قال تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ (البقرة: ١٠٢).

فقد جعلته التوراة عابدًا لأصنام نسائه اللاتي بلغن ألفًا، كما بنى المعابد لعبادتها، فغضب عليه الرب وسخط، تقول التوراة: "وَكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةٍ مِنَ النِّسَاءِ السَّيِّدَاتِ، وَثَلاَثُ مِئَةٍ مِنَ السَّرَارِيِّ، فَأَمَالَتْ نِسَاؤُهُ قَلْبَهُ. ٤وَكَانَ فِي زَمَانِ شَيْخُوخَةِ سُلَيْمَانَ أَنَّ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ كَامِلًا مَعَ الرَّبِّ إِلهِهِ كَقَلْبِ دَاوُدَ أَبِيهِ. ٥فَذَهَبَ سُلَيْمَانُ وَرَاءَ عَشْتُورَثَ إِلهَةِ الصِّيدُونِيِّينَ، وَمَلْكُومَ رِجْسِ الْعَمُّونِيِّينَ. ٦وَعَمِلَ سُلَيْمَانُ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، وَلَمْ يَتْبَعِ الرَّبَّ تَمَامًا كَدَاوُدَ أَبِيهِ. ٧حِينَئِذٍ بَنَى سُلَيْمَانُ مُرْتَفَعَةً لِكَمُوشَ رِجْسِ الْمُوآبِيِّينَ عَلَى الْجَبَلِ الَّذِي تُجَاهَ أُورُشَلِيمَ، وَلِمُولَكَ رِجْسِ بَنِي عَمُّونَ. ٨وَهكَذَا فَعَلَ لِجَمِيعِ نِسَائِهِ الْغَرِيبَاتِ اللَّوَاتِي كُنَّ يُوقِدْنَ وَيَذْبَحْنَ لآلِهَتِهِنَّ. ٩فَغَضِبَ الرَّبُّ عَلَى سُلَيْمَانَ لأَنَّ قَلْبَهُ مَالَ عَنِ الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ الَّذِي تَرَاءَى لَهُ مَرَّتَيْنِ، ١٠وَأَوْصَاهُ فِي هذَا الأَمْرِ أَنْ لاَ يَتَّبِعَ آلِهَةً أُخْرَى، فَلَمْ يَحْفَظْ مَا أَوْصَى بِهِ الرَّبُّ. ١١فَقَالَ الرَّبُّ لِسُلَيْمَانَ: «مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذلِكَ عِنْدَكَ، وَلَمْ تَحْفَظْ عَهْدِي وَفَرَائِضِيَ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ بِهَا، فَإِنِّي أُمَزِّقُ الْمَمْلَكَةَ عَنْكَ تَمْزِيقًا وَأُعْطِيهَا لِعَبْدِكَ. " (الملوك (١) ١١: ٣-١١). [2]

*   *   *

(١) تفسير الطبري ١/ ٤٤٨ باختصار.

(٢) الأنبياء في التوراة١/ ١٤، وانظر تفصيل ذلك في محله.

١٨ـ شبهة: الناسخ والمنسوخ.

نص الشبهة:

اعترضوا على مسألة الناسخ والمنسوخ خاصةً في القرآن الكريم، وانقسموا إلى فريقين: قسم أنكره، وقسم أثبته، وكلٌ له غرضه:

الأول: وَهم الذين أنكروه وهم يحاولون بزعمهم أن يثبتوا هذه الدعوى، ويقولون بأن النسخ في القرآن يتعارض مع بعض آياته مثل قوله تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ (فصلت٤٢)، بزعمهم أن النسخ من الباطل، وأيضًا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر٩).

كيف يُحفظ مع أنه يقول في آية النسخ ﴿أَوْ نُنسِهَا ﴾.

ويقولون: أن النسخ يدل على إثبات البداء لله، وهو مستحيل عليه؛ لأنه يستلزم الجهل والعبث، وأن النسخ شيء استخدمه النبي ﷺ والصحابة للخروج من مأزق التناقض في القرآن، وغير ذلك من الافتراءات، ويزعمون بأن النسخ لا يوجد إلا في شريعة النبي ﷺ، ولم يكن موجودًا قبل ذلك، وأن الكتاب المقدس لا يوجد فيه شيء من ذلك، ويحاولون أن يتمسكوا بهذه الأكاذيب التي نسبوها إلى أنبياء الله حيث يقولون: إن موسى عليه السلام أخبر أن شريعته لا تُنسخ حيث إنه قال لهم: "هذه شريعة مؤبدة ما دامت السماوات والأرض"، وأن عيسى عليه السلام قال: "السماء والأرض تزولان وكلامي لا يزول"، وهم بذلك يريدون أن يثبتوا أن النسخ من مساوئ هذه الشريعة، وهو يدل على عدم حفظ القرآن.

الثاني: وهم الذين أثبتوه، وكان لهم غرض آخر، فقد أثبتوا النسخ في القرآن، واتخذوا ذلك ذريعة للقول بالبداء على الله تعالى، ووصفوه بالجهل والعبث في أحكامه تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: مقدمة حول الناسخ والمنسوخ.

وهي تشتمل على هذه المباحث:

المبحث الأول: تعريف النسخ.

المبحث الثاني: أدلة وقوع النسخ.

المبحث الثالث: أهمية علم الناسخ والمنسوخ.

المبحث الرابع: الحكمة من النسخ.

المبحث الخامس: شروط النسخ.

المبحث السادس: معرفة تقدم الناسخ والمنسوخ.

المبحث السابع: الأشياء التي يدخلها النسخ والتي لا يدخلها.

المبحث الثامن: أنواع النسخ في القرآن.

المبحث التاسع: أنواع الناسخ.

المبحث العاشر: النسخ بالإجماع والقياس.

المبحث الحادي عشر: الفرق بين النسخ والبداء.

الوجه الثاني: الرد على الشبهات المتعلقة بالناسخ والمنسوخ.

الوجه الثالث: الناسخ والمنسوخ في الكتاب المقدس.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: مقدمة حول الناسخ والمنسوخ

تشتمل هذه المقدمة على بعض المباحث المتعلقة بالناسخ والمنسوخ وهي:

المبحث الأول: تعريف النسخ:

أولًا: تعريف النسخ لغةً

نسخ الشيءَ ينسَخُه نَسْخًا وانتسَخَه واستنسَخَه: اكتتبه عن معارضه.

التهذيب: النَّسْخ اكتتابك كتابًا عن كتاب حرفًا بحرف.

والنَّسْخ إبطال الشيء وإقامة آخر مقامه. وفي التنزيل ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ والآية الثانية ناسخة والأُولى منسوخة.

قال ابن الأعرابي: النسخ تبديل الشيء من الشيء وهو غيره، ونَسْخ الآية بالآية: إِزالة مثل حكمها، والنسخ نقل الشيء من مكان إِلى مكان وهو هو. . . . ، الفرّاء وأَبو سعيد: مَسَخه الله قردًا ونسخه قردًا بمعنى واحد. ونسخ الشيء بالشيء ينسَخه وانتسخه أَزاله به وأَداله، والشيء ينسخ الشيء نَسْخًا أَي يزيله ويكون مكانه[١].

قال الليث: النسْخ أَن تزايل أَمرًا كان من قبلُ يُعْمَل به ثم تنسخه بحادث غيره.

قال الفرّاء: النسخ أَن تعمل بالآية ثم تنزل آية أُخرى فتعمل بها وتترك الأُولى[٢].

وعلى هذا فيطلق في اللغة على معنيين:

المعنى الأول: إبطال الشيء وإقامة آخر مقامه، فتارة يفهم منه الإزالة وتارة يفهم منه الإثبات قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٍ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾ والعرب تقول نسخت الشمس الظل: أي أذهبت الظل وحلت محله.

المعنى الثاني: نقل الشيء من مكان إلى مكان وهو هو، وفي التنزيل قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، والنسخ اكتتاب كتاب عن كتاب حرفًا بحرف والأصل نسخة والمكتوب عنه نسخة؛ لأنه قام مقامه.[٣]

ثانيًا: تعريف النسخ شرعًا:

أولًا: تعريف النسخ في اصطلاح المتقدمين.

لم يكن النسخ عند السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم – على وجه التقريب- مميزاً عن غيره من أساليب البيان، فقد كانوا يطلقون النسخ على تخصيص العام، وتقييد المطلق، وتفصيل المجمل، وإيضاح المبهم، ونحو ذلك كما كانوا يطلقونه على النسخ بمعناه المعروف عند الأصوليين، بعد تحديد المصطلحات العلمية، ولقد سجل العلماء ذلك:

(١) لسان العرب (٣/ ٦١).

(٢) لسان العرب (٦/ ٤٤٠٧)، وانظر العين (١/ ٣٠٨)، تهذيب اللغة(٧/ ١٨٢: ١٨١).

(٣) الفقيه والمتفقه (١/ ٢٤٤)، روضة الناظر (١/ ٢١٨)، الناسخ والمنسوخ للنحاس (١/ ١٠١).

قال ابن تيمية: والمنسوخ يدخل فيه في اصطلاح السلف العام كل ظاهر تُرك ظاهره لمعارض راجح كتخصيص العام وتقييد المطلق. [(١)]

وقال أيضًا: إن لفظ النسخ مجمل، فالسلف كانوا يستعملونه فيما يظن دلالة الآية عليه من عموم أو إطلاق أو غير ذلك. [(٢)]

قال ابن القيم: ومراد عامة السلف بالناسخ والمنسوخ رفع الحكم بجملته تارة وهو اصطلاح المتأخرين، ورفع دلالة العام والمطلق والظاهر وغيرها تارة؛ إما بتخصيص أو تقييد أو حمل مطلق على مقيد وتفسيره وتبيينه، حتى إنهم يسمون الاستثناء والشرط والصفة نسخا لتضمن ذلك رفع دلالة الظاهر وبيان المراد فالنسخ عندهم وفي لسانهم هو بيان المراد بغير ذلك اللفظ؛ بل بأمر خارج عنه ومن تأمل كلامهم رأى من ذلك فيه ما لا يحصى وزال عنه به إشكالات أوجبها حمل كلامهم على الاصطلاح الحادث المتأخر. [(٣)]

قال الشاطبي: وذلك أن الذي يظهر من كلام المتقدمين أن النسخ عندهم في الإطلاق أعم منه في كلام الأصوليين، فقد يطلقون على تقييد المطلق نسخًا، وعلى تخصيص العموم بدليل متصل أو منفصل نسخًا، وعلى بيان المبهم والمجمل نسخًا كما يطلقون على رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر نسخًا؛ لأن جميع ذلك مشترك في معنى واحد وهو أن النسخ في الاصطلاح المتأخر اقتضى أن الأمر المتقدم غير مراد في التكليف، وإنما المراد ما جيء به آخرًا، فالأول غير معمول به، والثاني هو المعمول به.

وهذا المعنى جار في تقييد المطلق؛ فإن المطلق متروك الظاهر مع مقيده فلا إعمال له في إطلاقه؛ بل المعمل هو المقيد فكأن المطلق لم يفد مع مقيده شيئًا فصار مثل الناسخ والمنسوخ، وكذلك العام مع الخاص إذ كان ظاهر العام يقتضي شمول الحكم لجميع ما يتناوله اللفظ فلما جاء الخاص أخرج حكم ظاهر العام عن الاعتبار فأشبه الناسخ المنسوخ

---

(١) مجموع الفتاوى(١٣/ ٢٧٢).

(٢) المصدر السابق (١٤/ ١٠١).

(٣) إعلام الموقعين (١/ ٣٥).

إلا أن اللفظ العام لم يهمل مدلوله جملة، وإنما أهمل منه ما دل عليه الخاص وبقي السائر على الحكم الأول والمبين مع المبهم كالمقيد مع المطلق فلما كان كذلك استسهل إطلاق لفظ النسخ في جملة هذه المعاني لرجوعها إلى شيء واحد.[١]

ثانيًا: تعريف النسخ في اصطلاح الأصوليين

اختلفت عبارات الأصوليين في تعريف النسخ،[٢] ومن أهمها: رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر (متراخ) عنه.[٣]

قال الزرقاني: وإني أوجه نظرك في هذا التعريف إلى نقاط أربع:

أولاها: أن التعبير برفع الحكم يفيد أن النسخ لا يمكن أن يتحقق إلا بأمرين:

أحدهما: أن يكون هذا الدليل الشرعي متراخيًا عن دليل ذلك الحكم الشرعي المرفوع، والآخر: أن يكون بين هذين الدليلين تعارض حقيقي بحيث لا يمكن الجمع بينهما وإعمالهما معًا، أما إذا انتفى الأمر الأول ولم يكن ذلك الدليل الشرعي متراخيًا عن دليل الحكم الأول فلا نسخ وذلك كقوله تعالى: ﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ (البقرة: ١٨٧)، فإن الغاية المذكورة وهي قوله ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾ تفيد انتهاء حكم الصوم وهو وجوب إتمامه بمجرد دخول الليل، ولكن لا يقال لهذه الغاية الدالة على انتهاء هذا الحكم إنها نسخ وذلك لاتصالها بدليل الحكم الأول، وهو قوله ثم أتموا الصيام بل تعتبر الغاية المذكورة بيانًا أو إتمامًا لمعنى الكلام وتقديرًا له بمدة أو شرط فلا يكون رافعًا، وإنما يكون رافعا إذا ورد الدليل الثاني بعد أن ورد الحكم مطلقًا واستقر من غير تقييد بحيث يدوم لولا الناسخ ولهذا زاد بعضهم تقييد الدليل الشرعي في تعريف الناسخ بالتراخي وزاد بعضهم كلمة

---

(١) الموافقات (٣/ ١٠٨).

(٢) تراجع هذه التعريفات في النسخ والمفارقة بينها في النسخ في القرآن الكريم مصطفى زيد (١/ ١١٧: ٦١)، مقدمة الناسخ والمنسوخ للنحاس دراسة وتحقيق سليمان بن إبراهيم (١/ ١١٤: ١٠٧)، مقدمات النسخ د/ أسامة عبد العظيم.

(٣) شرح مختصر ابن الحاجب للأصفهاني(٢/ ٤٨٩)، الموافقات (٣/ ١٠٧)، شرح الكوكب المنير (٣/ ٥٢٦)، إرشاد الفحول(١٨٥)، روضة الناظر (١/ ٢١٩)، منا هل العرفان (٢/ ١٤٧).

على وجهٍ لولاه لكان الحكم الأول ثابتًا، وقد علمت من هذا الذي ذكرناه أنه لا حاجة إلى هاتين الزيادتين بل هما تصريح بما علم من التعبير في التعريف بكلمة رفع.

وأما إذا انتفى الأمر الثاني بأن لم يكن بين الدليلين تعارض حقيقي فإنه لا نسخ؛ لأن النسخ ضرورة لا يصار إليها إلا إذا اقتضاها التعارض الحقيقي، دفعًا للتناقض في تشريع الحكيم العليم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وحيث لا تعارض هناك على الحقيقة فلا حاجة إلى النسخ؛ لأنه لا تناقض. ولا ريب أن إعمال الدليلين ولو بنوع تأويل خير من إعمال دليل وإهدار آخر.

ثانيتها: أن التعريف المذكور يفيد أن النسخ لا يتوجه إلا إلى الحكم وهو كذلك في الواقع ونفس الأمر، وتقسيمهم النسخ إلى نسخ تلاوة ونسخ حكم تقسيم صوري للإيضاح فحسب؛ لأن ما أسموه نسخ تلاوة لم يخرج عن كونه نسخ حكم إذ إن نسخ تلاوة الآية لا معنى له في الحقيقة إلا نسخ حكم من أحكامها، وهو رفع الإثابة على مجرد ترتيلها وصحة الصلاة بها ونحوهما.

ثالثتها: أن هذا التعريف يشمل النسخ الواقع في الكتاب وفي السنة جميعًا، سواء أكانت السنة قولية أم فعلية أو وصفية أم تقريرية، وسواء منها ما كان نبويًا وما كان قدسيًا؛ لأنها كلها وحي بالفعل أو بالقوة، والرسول أقامه الله في محراب الإمامة لخلقه، وجعله الأسوة الحسنة لعباده، وأمر الجميع باتباعه، فهو إذن لا يمكن أن يصدر فيما يشرع لأمته ابتداء أو نسخًا إلا عن إيحاء الله إليه تصريحًا أو تقريرًا.

رابعتها: أن الإضافة في كلمة رفع الحكم الشرعي الواردة في تعريف النسخ من قبيل إضافة المصدر لمفعوله والفاعل مضمر وهو الله تعالى وذلك يرشد إلى أن الناسخ في الحقيقة هو الله كما يدل عليه قوله سبحانه ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ (البقرة: ١٠٦)، ويرشد أيضًا إلى أن المنسوخ في الحقيقة هو الحكم المرتفع، وقد يطلق الناسخ على الحكم الرافع، فيقال: وجوب صوم رمضان نسخ وجوب صوم عاشوراء. وقد يطلق النسخ على دليله

كذلك، فيقال: آية المواريث نسخت آية الوصية للوالدين، ويقال: خبر أكل الرسول من الشاة ولم يتوضأ ناسخ لخبر وضوئه مما مست النار وهلم جرا، والخطب في ذلك جد يسير.

ما لا بد منه في النسخ:

ولعلك تدرك مما سبق أنه لا بد في تحقق النسخ من أمور أربعة:

أولها: أن يكون المنسوخ حكمًا شرعيًا.

ثانيها: أن يكون دليل رفع الحكم دليلًا شرعيًا.

ثالثها: أن يكون هذا الدليل الرافع متراخيًا عن دليل الحكم الأول غير متصل به كاتصال القيد بالمقيد والتأقيت بالمؤقت.

رابعها: أن يكون بين ذينك الدليلين تعارض حقيقي.[1]

المبحث الثاني: أدلة وقوع النسخ:

أولًا: الدليل من القرآن

الدليل الأول: قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ (البقرة: ١٠٦). ووجه الدلالة: أن الله تعالى بين أنه سبحانه إذا نسخ آية أورد مكانها آية أخرى، وكلام الله صدق.

الدليل الثاني: قال تعالى ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ (النحل ١٠١).

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: وإذا نسخنا حكم آية، فأبدلنا مكانه حكمًا آخر، والله أعلم بما ينزل يقول: والله أعلم بالذي هو أصلح لخلقه فيما يبدِّل ويغير من أحكامه، قالوا: إنما أنت مفتر يقول: قال المشركون بالله، المكذبون لرسوله ﷺ لرسوله: إنما أنت يا محمد مفتر: أي مكذب تخرص بتقوّل الباطل على الله، يقول الله تعالى بل أكثر هؤلاء القائلين لك يا محمد: إنما أنت مفتر جهال، بأنّ الذي تأتيهم به من عند الله ناسخه ومنسوخه، لا يعلمون حقيقة صحته[1].

(١) مناهل العرفان(٢/ ١٥٠: ١٤٨).

قال الرازي: والتبديل يشتمل على رفع وإثبات، والمرفوع إما التلاوة وإما الحكم، فكيف كان فهو رفع ونسخ[٢].

الدليل الثالث: قال تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ (الرعد: ٣٩).

قال السعدي: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من الأقدار ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه وكتبه قلمه؛ فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير؛ لأن ذلك محال على الله أن يقع في علمه نقص أو خلل ولهذا قال: ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع له وشعب.

فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسبابًا ولمحوها أسبابًا، لا تتعدى تلك الأسباب، ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سببًا لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببًا للسلامة، وجعل التعرض لذلك سببا للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ.[٣]

الدليل الرابع: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ (النساء: ١٦٠)، ووجه الدلالة فيها أنها تفيد تحريم ما أحل من قبل وما ذلك إلا نسخ، وكلمة ﴿أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ يفهم منها أن الحكم الأول كان حكمًا شرعيًا لا براءة أصلية[٤].

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ١٧٦).

(٢) تفسير الرازي(٣/ ٢٣٠).

(٣) تفسير السعدي (٤٢٠: ٤١٩).

(٤) مناهل العرفان(٢/ ١٦١).

الدليل الخامس: الآيات الواردة في القرآن الكريم الدالة على وقوعه ومن هذه الآيات:

١- نسخ وجوب التربص حولًا كاملًا عن المتوفي عنها زوجها بالتربص أربعة أشهر وعشرًا، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ (البقرة: ٢٤٠)، ثم قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (البقرة٢٣٤).

٢- نسخ وجوب ثبات الواحد للعشرة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (الأنفال: ٦٥).

نسخت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ (الأنفال: ٦٦)، والأمثلة في ذلك كثيرة.

ثانيًا: الدليل من السنة:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ عُمَرُ ﷺ أَقْرَؤُنَا أُبَيٌّ، وَأَقْضَانَا عَلِيٌّ، وَإِنَّا لَنَدَعُ مِنْ قَوْلِ أُبَيٍّ، وَذَاكَ أَنَّ أُبَيًّا يَقُولُ لاَ أَدَعُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾[1].

قال ابن حجر: قوله: (وقد قال الله تعالى. . الخ)، هو مقول عمر محتجًا به على أبي بن كعب ومشيرًا إلى أنه ربما قرأ ما نسخت تلاوته لكونه لم يبلغه النسخ، واحتج عمر لجواز وقوع ذلك بهذه الآية. وقال: واستُدل بالآية المذكورة على وقوع النسخ خلافًا لمن شذ فمنعه[2].

ثالثا: الدليل من الإجماع:

أجمع المسلمون على جواز النسخ. [1]

---

(١) البخاري (٤٤٨١)

(٢) فتح الباري لابن حجر(٨/ ١٧).

قال ابن النجار: وَيَجُوزُ النَّسْخُ عَقْلًا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الشَّرَائِعِ. (٢)

قال الآمدي: وقد اتفق أهل الشرائع على جواز النسخ عقلًا، وعلى وقوعه شرعًا. (٣)

قال ابن الجوزي: اتفق جمهور علماء الأمم على جواز النسخ عقلًا وشرعًا.

وقال أيضًا: انعقد إجماع العلماء على هذا (إثبات أن في القرآن منسوخًا) إلا أنه قد شذ من لا يُلتفت إليه، فحكى أبو جعفر النحاس أن قومًا قالوا: ليس في القرآن ناسخ ولا منسوخ، وهؤلاء قوم لا يُقرون؛ لأنهم خالفوا نص الكتاب وإجماع الأمة. (٤)

قال ابن كثير: والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى، لما له في ذلك من الحِكم البالغة، وكلهم قال بوقوعه. وقال أبو مسلم الأصبهاني المفسر: لم يقع شيء من ذلك في القرآن، وقوله هذا ضعيف مردود مرذول. (٥)

قال الشوكاني: النسخ جائز عقلًا، واقع سمعًا بلا خلاف في ذلك بين المسلمين إلا ما يُروى عن أبي مسلم الأصفهاني فإنه قال: إنه جائز غير واقع، وإذا صح هذا عنه فهو دليل على أنه جاهل بهذه الشريعة المحمدية جهلًا فظيعًا، وأعجب من جهله بها حكاية من حكى عنه الخلاف في كتب الشريعة؛ فإنه إنما يعتد بخلاف المجتهدين لا بخلاف من بلغ في الجهل إلى هذه الغاية. (٦)

هذا وقد نقل كثير من أهل العلم الإجماع على ذلك. (٧)

رابعًا: أدلة وقوعه عقلًا:

---

(١) الإبهاج (٥/ ١٦٣٧).

(٢) شرح الكوكب المنير (٣/ ٥٣٣).

(٣) الأحكام للآمدي (٣/ ١٠٦).

(٤) نواسخ القرآن (٧٨).

(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤).

(٦) إرشاد الفحول (١٨٥).

(٧) روضة الناظر (١/ ٢١٦)، المحصول (٣/ ٤٤١)، لباب المحصول (١/ ٢٦٧)، تفسير القرطبي (٢/ ٥٦)، البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٠)، الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٦٠).

الدليل الأول: الله تعالى له أن يفعل ما يشاء كما يشاء، وأيضًا اختلاف المصالح باختلاف الأزمنة؛ فلا يكون النسخ ممتنعًا.

قال الآمدي: والدليل على الجواز العقلي؛ العقل والسمع. أما العقل؛ فهو أن المخالف لا يخلو إما أن يكون ممن يوافق على أن الله تعالى له أن يفعل ما يشاء كما يشاء من غير نظر إلى حكمة وغرض، وإما أن يكون ممن يعتبر الحكمة والغرض في أفعاله تعالى؛ فإن كان الأول، فلا يمتنع عليه تعالى أن يأمر بالفعل في وقت، وينهى عنه في وقت، كما أمر بالصيام في نهار رمضان، ونهى عنه في يوم العيد؛ وإن كان الثاني، فمع بطلانه على ما عرفناه في كتب الكلام، فلا يمتنع أن يعلم الله استلزام الأمر بالفعل في وقتٍ معين للمصلحة، واستلزام النهي عنه للمصلحة في وقت آخر، فإنّ المصالح مما يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال حتى إن مصلحة بعض الأشخاص في الغنى أو الصحة أو التكليف، ومصلحة الآخر في نقيضه؛ فكذلك جاز أن تختلف المصلحة باختلاف الأزمان، حتى أن مصلحة بعض أهل الأزمان في المداراة والمساهلة، ومصلحة أهل زمان آخر في الشدة والغلظة عليهم، إلى غير ذلك من الأحوال.

وإذا عرف جواز اختلاف المصلحة باختلاف الأزمان، فلا يمتنع أن يأمر الله تعالى المكلف بالفعل في زمان لعلمه بمصلحته فيه، وينهاه عنه في زمن آخر لعلمه بمصلحته فيه، كما يفعل الطبيب بالمريض، حيث يأمره باستعمال دواء خاص في بعض الأزمنة، وينهاه عنه في زمن آخر بسبب اختلاف مصلحته عند اختلاف مزاجه، وكما يفعل الوالد بولده من التأديب له وضربه في زمان، واللين له والرفق به في زمان آخر على حسب ما يتراءى له من المصلحة. ولهذا خص الشارع كل زمان بعبادة غير عبادة الزمن الآخر، كأوقات الصلوات والحج والصيام، ولولا اختلاف المصالح باختلاف الأزمنة لما كان كذلك.

ومع جواز اختلاف المصالح باختلاف الأزمنة لا يكون النسخ ممتنعًا[1].

الدليل الثاني:

---

(١) الأحكام للآمدي ٣/ ١٠٧، نواسخ القرآن ٨٠، مناهل العرفان ٢/ ١٥٨.

وهو دليل إلزامي للمنكرين أن النسخ لو لم يكن جائزًا عقلًا وواقعًا سمعًا، لما جوزوا أن يأمر الشارع عباده بأمر مؤقت ينتهي بانتهاء وقته لكنهم يجوزون هذا عقلا ويقولون بوقوعه سمعا؛ فليجوزوا هذا؛ لأنه لا معنى للنسخ إلا انتهاء الحكم الأول لميقات معلوم عند الله بيد أنه لم يكن معلوما لنا من قبل ثم أعلمنا الله إياه بالنسخ وهذا ليس بفارق مؤثر.

فقول الشارع مثلًا أول يوم من رمضان صوموا إلى نهاية هذا الشهر مساوٍ لأن يقول أول يوم من رمضان صوموا من غير تقييد بغاية حتى إذا ما انتهى شهر رمضان قال: أول يوم من شوال أفطروا، وهذا الأخير نسخ لا ريب فيه وقد جوز منكروه المثال الأول فليجوزوا هذا المثال الثاني؛ لأنه مساويه والمتساويات يجب أن يتحد حكمها وإلا لما كانا متساويين[١].

الدليل الثالث:

أن الدلالة القاطعة دلت على نبوة محمد ﷺ، ونبوته لا تصح إلا مع القول بنسخ شرع من قبله فوجب القطع بالنسخ.

قال الزرقاني: إن النسخ لو لم يكن جائزًا عقلًا وواقعًا سمعًا لما ثبتت رسالة سيدنا محمد ﷺ إلى الناس كافة، لكن رسالته العامة للناس ثابتة بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة التي يطول شرحها؛ إذن فالشرائع السابقة ليست باقية؛ بل هي منسوخة بهذه الشريعة الختامية، وإذن فالنسخ جائز وواقع. أما ملازمة هذا الدليل فنبرهن عليها بأن نسخه لو لم يكن جائزًا وواقعًا؛ لكانت الشرائع الأولى باقية، ولو كانت باقية ما ثبتت رسالته إلى الناس كافة[٢].

الدليل الرابع:

أنه لا يمتنع عقلًا أن يأمر الله بالشيء ثم ينسخ، سواء نسخ قبل الفعل، أو بعده للامتحان والابتلاء، فمن فعل الشيء قبل نسخه، أو عزم على فعله، أو استعد للامتثال، أو ظهرت عليه أي علامة تدل على استعداده لامتثال الأمر قبل أن ينسخ: فإنه يثاب[٣].

---

(١) مناهل العرفان ٢/ ١٥٨.

(٢) مناهل العرفان ٢/ ١٥٨.

(٣) المهذب في علم أصول الفقه ٢/ ٥٤٣.

قال ابن حزم: إن النفس إذا مرنت على أمر ألفته، فإذا نقلت عنه إلى غيره شق عليها لمكان الاعتياد المألوف، فظهر منها بإذعان الانقياد لطاعة الأمر[١].

الدليل الخامس:

أنه إذا جاز أن يخلق الله -تعالى- خلقا على صفة، ثم ينقله إلى صفة أخرى: مثل أن يخلقه طفلًا، ثم ينقله إلى الشباب، ثم إلى الكهولة، ثم إلى الشيخوخة، ثم إلى الموت من غير اختيار للعبد، ولم يكن ذلك قبيحًا في شرع ولا عقل، فوجب أن يجوز - هنا- أن يكلف الله خلقه بعبادة ثم ينقلهم عنها. [٢]

المبحث الثالث: أهمية علم الناسخ والمنسوخ.

قال ابن حزم: ثم اعلم أن هذا الفن من العلم من تتمات الاجتهاد؛ إذ الركن الأعظم في باب الاجتهاد معرفة النقل، ومن فوائد النقل معرفة الناسخ والمنسوخ؛ إذ الخطب في ظواهر الأخبار يسير، وتحمل كلفها غير عسير؛ وإنما الإشكال في كيفية استنباط الأحكام من خفايا النصوص، ومن التحقيق فيها معرفة أول الأمرين وآخرهما إلى غير ذلك من المعاني. [٣]

قال القرطبي: معرفة هذا الباب أكيدة، وفائدته عظيمة، لا يستغني عن معرفته العلماء، ولا ينكره إلا الجهلة الأغبياء؛ لما يترتب عليه من النوازل في الأحكام، ومعرفة الحلال من الحرام. [٤]

وقد جمع الزرقاني فوائد علم الناسخ والمنسوخ، **فقال رحمه الله:**

لهذا المبحث أهمية خاصة وذلك من وجوه خمسة:

أولها: أنه طويل الذيل، كثير التفاريع، متشعب المسالك.

ثانيها: أنه تناول مسائل دقيقة كانت مثارًا لخلاف الباحثين من الأصوليين الأمر الذي يدعو إلى اليقظة والتدقيق، وإلى حسن الاختيار مع الإنصاف والتوفيق.

---

(١) الناسخ والمنسوخ لابن حزم ص٨.

(٢) المهذب في علم أصول الفقه ٢/ ٥٤٣.

(٣) الناسخ والمنسوخ لابن حزم ص٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٦٢.

ثالثها: أن أعداء الإسلام من ملاحدة ومبشرين ومستشرقين قد اتخذوا من النسخ في الشريعة الإسلامية أسلحة مسمومة، طعنوا بها في صدر الدين الحنيف، ونالوا من قدسية القرآن الكريم، ولقد أحكموا شراك شبهاتهم، واجتهدوا في ترويج مطاعنهم حتى سحروا عقول بعض المتسبين إلى العلم والدين من المسلمين؛ فجحدوا وقوع النسخ وهو واقع، وأمعنوا في هذا الجحود الذي ركبوا له أخشن المراكب من تمحلات ساقطة وتأويلات غير سائغة.

رابعها: أن الإلمام بالناسخ والمنسوخ بكشف النقاب عن سير التشريع الإسلامي، ويُطلع الإنسان على حكمة الله في تربيته للخلق، وسياسته للبشر، وابتلائه للناس مما يدل دلالة واضحة على أن نفس محمد النبي الأمي لا يمكن أن تكون المصدر لمثل هذا القرآن، ولا المنبع لمثل هذا التشريع إنما هو تنزيل من حكيم حميد.

خامسها: أن معرفة الناسخ والمنسوخ ركن عظيم في فهم الإسلام، وفي الاهتداء إلى صحيح الأحكام خصوصًا إذا ما وجدت أدلة متعارضة لا يندفع التناقض بينها إلا بمعرفة سابقها من لاحقها، وناسخها من منسوخها؛ ولهذا كان سلفنا الصالح يعنون بهذه الناحية يحذقونها ويلفتون أنظار الناس إليها ويحملونهم عليها[1].

ولهذا فقد حذر السلف من تفسير القرآن إلا بعد معرفة الناسخ والمنسوخ.

قال ابن حزم: لا يحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقول في شيء من القرآن والسنة: هذا منسوخ إلا بيقين؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ (النساء: ٦٤)، وقال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ (الأعراف: ٣)، فكل ما أنزل الله تعالى في القرآن أو على لسان نبيه ففرض اتباعه، فمن قال في شيء من ذلك إنه منسوخ؛ فقد أوجب ألا يطاع ذلك الأمر، وأسقط لزوم اتباعه، وهذه معصية لله تعالى مجردة، وخلاف مكشوف، إلا أن يقوم برهان على صحة قوله، وإلا فهو مفتر مبطل.

---

(١) مناهل العرفان ٢/ ١٤٦: ١٤٥.

ومن استجاز خلاف ما قلنا؛ فقوله يؤول إلى إبطال الشريعة كلها؛ لأنه لا فرق بين دعواه النسخ في آية ما أو حديث ما، وبين دعوى غيره النسخ في آية أخرى، وحديث آخر، فعلى هذا لا يصح شيء من القرآن والسنة، وهذا خروج عن الإسلام. وكل ما ثبت بيقين فلا يبطل بالظنون، ولا يجوز أن تسقط طاعة أمر أمرنا به الله تعالى ورسوله إلا بيقين نسخ لا شك فيه[1].

قال الزركشي: قال الأئمة ولا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ[2].

المبحث الرابع: الحكمة من النسخ.

أولًا: حكمة نسخ الشرائع السابقة بشريعة النبي ﷺ:

الحكمة الأولى: أن الأعمال البدنية إذا واظبوا عليها خلفًا عن سلف صارت كالعادة عند الخلق، وظنوا أن أعيانها مطلوبة لذاتها، ومنعهم ذلك من الوصول إلى المقصود، وهو معرفة الله وتمجيده، فإذا غُيِّر ذلك الطريق إلى نوع من الأنواع، وتبين أن المقصود من هذه الأعمال رعاية أحوال القلب والأرواح في المعرفة والمحبة انقطعت الأوهام عن الاشتغال عن تلك الصور والظواهر إلى علام السرائر.

الحكمة الثانية: أن الخلق طُبعوا على الملالة من الشيء، فوضع في كل عصر شريعة جديدة؛ لينشطوا في أدائها.

الحكمة الثالثة: بيان شرف نبينا ﷺ، فإنه نسخ بشريعته شرائعهم، وشريعته لا ناسخ لها.

الحكمة الرابعة: أن النوع الإنساني يتقلب كما يتقلب الطفل في أدوار مختلفة، ولكل دور من هذه الأدوار حال تناسبه غير الحال التي تناسب دورًا غيره. فالبشر أول عهدهم بالوجود كانوا كالوليد أول عهده بالوجود سذاجة وبساطة وضعفًا وجهالةً ثم أخذوا يتحولون من هذا العهد رويدًا رويدًا، ومروا في هذا التحول أو مرت عليهم أعراض متباينة من ضآلة العقل وعماية الجهل وطيش الشباب وغشم القوة على تفاوت في ذلك

(١) الإحكام لابن حزم ٤/ ٤٨٤.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٢/ ٢٩.

بينهم اقتضى وجود شرائع مختلفة لهم تبعا لهذا التفاوت، حتى إذا بلغ العالم أوان نضجه واستوائه وربطت مدنيته بين أقطاره وشعوبه؛ جاء هذا الدين الحنيف ختامًا للأديان، ومتممًا للشرائع، وجامعا لعناصر الحيوية، ومصالح الإنسانية، ومرونة القواعد جمعا وَفَّق بين مطالب الروح والجسد، وآخى بين العلم والدين، ونظَّم علاقة الإنسان بالله وبالعالم كله من أفراد وأسر وجماعات وأمم وشعوب وحيوان ونبات وجماد مما جعله بحق دينًا عامًا خالدًا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ثانيًا: حكمة نسخ الأحكام التكليفية في الشريعة الإسلامية:

الحكمة الأولى: رحمة المكلفين والتخفيف عنهم.

قال الشافعي: وأنزل عليهم الكتاب تبيانًا لكل شئ وهدى ورحمة، وفرض فيهم فرائض أثبتها وأخرى نسخها؛ رحمة لخلقه بالتخفيف عنهم، وبالتوسعة عليهم زيادة فيما ابتدأهم به من نعمه، وأثابهم على الانتهاء إلى ما أثبت عليهم جنته، والنجاة من عذابه فعمتهم رحمته فيما أثبت ونسخ فله الحمد على نعمه. (١)

الحكمة الثانية: حفظ مصالح العباد. (٢)

الحكمة الثالثة: التدرج في الأحكام على الأمة حتى لا تنفر ويسهل عليها تقبله.

كما حصل في الخمر فقد تدرج القرآن فيه على مراحل؛ أولاها: الإشارة إلى أنه ليس من الرزق الحسن، كما في قوله تعالى ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًا. . . ﴾ (النحل: ٦٧)، والواو تقتضي المغايرة، ثم بيان أن فيه ضررًا وشرًا كبيرًا من غير التعرض لمنعه كما في قوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَا. . ﴾ (البقرة: ٢١٩)، ثم تحريمه في أوقات الصلاة كما في قوله سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ

---

(١) الرسالة ١/ ١٠٦.

(٢) إرشاد الفحول ١٨٥، الأصول في علم الأصول لابن العثيمين ٤٤، مقدمات النسخ د/ أسامة محمد عبد العظيم ٧٣.

مَا تَقُولُونَ . . ﴾ (النساء: ٤٣).

ثم تحريمه تحريمًا تامًا في كل الأوقات في سورة المائدة -التي هي من أواخر السور نزولا- في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ (المائدة: ٩٠).

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ: اللهمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانَ شِفَاءٍ، فَنَزَلَتْ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ... ﴾، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللهمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانَ شِفَاءٍ، فنَزَلَتْ الَّتِي فِي النِّسَاءِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: اللهمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانَ شِفَاءٍ، فَنَزَلَتْ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ .. ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ: انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا. ومثل الخمر في هذا الميسر والفاحشة.

عن يُوسُفَ بْنِ مَاهَكٍ قَالَ: إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا إِذْ جَاءَهَا عِرَاقِيٌّ فَقَالَ: أَيُّ الْكَفَنِ خَيْرٌ؟ قَالَتْ: وَيْحَكَ وَمَا يَضُرُّكَ؟ قَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَرِينِي مُصْحَفَكِ. قَالَتْ: لِمَ؟ قَالَ: لَعَلِّي أُوَلِّفُ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ. قَالَتْ: وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟ إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنْ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا. وَلَوْ نَزَلَ لَا تَزْنُوا لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ (القمر: ٤٦) وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ، قَالَ: فَأَخْرَجَتْ لَهُ الْمُصْحَفَ فَأَمْلَتْ عَلَيْهِ آيَ السُّوَرِ[1].

الحكمة الرابعة: كثرة الثواب وعظم الأجر.[2]

---

(١) دعاوي الطاعنين ص ٢٦٨: ٢٧٠، راجع شبهة الخمر في هذه الموسوعة، الأصول في علم الأصول لابن العثيمين ص٤٤، مقدمات النسخ ص٧٤.

(٢) إرشاد الفحول(١٨٥)، مقدمات النسخ د/ أسامة محمد عبد العظيم (٧٤).

قال الطبري: في تفسير قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾، ما نبدل من حكم آية فنغيره، أو نترك تبديله فنقره بحاله نأت بخير منها لكم من حكم الآية التي نسخنا فغيرنا حكمها، إما في العاجل لخفته عليكم من أجل أنه وضع فرض كان عليكم فأسقط ثقله عنكم، وذلك كالذي كان على المؤمنين من فرض قيام الليل ثم نسخ ذلك فوضع عنهم فكان ذلك خيرا لهم في عاجلهم لسقوط عبء ذلك وثقل حمله عنهم، وإما في الآجل لعظم ثوابه من أجل مشقة حمله وثقل عبئه على الأبدان كالذي كان عليهم من صيام أيام معدودات في السنة فنسخ وفرض عليهم مكانه صوم شهر كامل في كل حول؛ فكان فرض صوم شهر كامل كل سنة أثقل على الأبدان من صيام أيام معدودات غير أن ذلك وإن كان كذلك فالثواب عليه أجزل، والأجر عليه أكثر؛ لفضل مشقته على مكلفيه من صوم أيام معدودات. فذلك وإن كان على الأبدان أشق فهو خير من الأول في الآجل؛ لفضل ثوابه وعظم أجره الذي لم يكن مثله لصوم الأيام المعدودات. [١]

الحكمة الخامسة: الاختبار وتثبيت المؤمنين. [٢]

قال الرازي: في قوله تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ١٠٢) أي ليبلوهم بالنسخ حتى إذا قالوا فيه هو الحق من ربنا؛ حكم لهم بثباتِ القَدَم في الدين، وصحة اليقين بأن الله حكيم فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب[٣].

الحكمة السادسة: رعاية أحوال القلب.

وذلك أن الأعمال البدنية إذا تواطأ عليه الخلق خلفا عن سلف، صارت كالعادة عندهم، وظنوا أن أعيانها مطلوبة لذاتها، ومنعهم ذلك عن الوصول إلى المقصود من معرفة الله وتمجيده، فإذا غيرت بعض طرقها إلى نوع من الأنواع وتبين أن المقصود من هذه

(١) جامع البيان(١/ ٣٨٢).

(٢) معالم أصول الفقه(٢٥٤)، الأصول في علم الأصول لابن العثيمين(٤٤)، مقدمات النسخ د/ أسامة عبد العظيم(٧٤).

(٣) تفسير الرازي (٥/ ٣٥٣).

الأعمال رعاية أحوال القلب والأرواح في المعرفة والمحبة انقطعت الأوهام عن الاشتغال بتلك الظواهر إلى علام السرائر[١].

الحكمة السابعة: بشارة المؤمنين برفع الخدمة عنهم، وبأن رفع مؤنتها عنهم في الدنيا مؤذن برفعها في الجنة[٢].

الحكمة الثامنة: فيه دلالة على بعض صفات الله كالعلم، فهو سبحانه عالم بأحوال الناس جملةً وتفصيلًا، وعالم بما يصلحهم وينفعهم والطريقة التي تصلح لهم، وفيه دلالة على صفة الحكمة والرحمة[٣].

الحكمة التاسعة: من الحكم التذكير بنعمة الله لاسيما في بعض أنواع النسخ الذي يكون فيها النسخ من أثقل إلى أسهل، كما هو الحال في عدة المتوفاة عنها زوجها وغير ذلك[٤].

المبحث الخامس: شروط النسخ.

الشرط الأول:

أن يكون الحكم في الناسخ والمنسوخ متناقضان بحيث لا يمكن العمل بهما جميعًا، أي أنهما متعارضان تعارضًا حقيقيًا لا سبيل إلى تلافيه بإمكان الجمع بينهما على أي وجه من وجوه التأويل[٥].

الشرط الثاني: أن يكون الحكم المنسوخ مشروعًا؛ أعني أنه ثبت بخطاب الشرع، فأما إن كان ثابتًا بالعادة والتعارف لم يكن رافعه ناسخًا[٦].

الشرط الثالث: أَنْ يَكُونَ النَّاسِخُ مُنْفَصِلًا عَنْ الْمَنْسُوخِ مُتَأَخِّرًا عَنْهُ[١].

---

(١) إرشاد الفحول (١٨٥)، مقدمات النسخ د/ أسامة محمد عبد العظيم(٧٥).

(٢) إرشاد الفحول (١٨٥).

(٣) دعاوي الطاعنين(٢٧٠: ٢٦٨)، المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام(٧/ ٣٩١).

(٤) المصدر السابق.

(٥) تفسير الطبري (٣/ ١٤٩)، نواسخ القرآن لابن الجوزي (٩٥)، مناهل العرفان (٢/ ١٧٣)، معالم أصول الفقه للجيزاني (٢٥٠)، فتح المنان في نسخ القرآن علي حسن العريض(٥٧).

(٦) نواسخ القرآن(٩٦)، البحر المحيط (٤/ ٧٨)، الإحكام للآمدي(٣/ ١٠٦).

الشرط الرابع: أَنْ يَكُونَ النَّسْخُ بِخِطَابٍ شَرْعِيٍّ، فَارْتِفَاعُ الْحُكْمِ بِمَوْتِ الْمُكَلَّفِ أَوْ جُنُونِهِ لَيْسَ بِنَسْخٍ، وَإِنَّمَا هُوَ سُقُوطُ التَّكْلِيفِ جُمْلَةً(٢).

الشرط الخامس: أَنْ لَا يَكُونَ المنسوخ مُقَيَّدًا بِوَقْتٍ(٣).

الشرط السادس: أَنْ يَكُونَ مِمَّا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَشْرُوعًا، وَأَنْ لَا يَكُونَ مِمَّا لَا يَحْتَمِلُ التَّوْقِيتَ نَسْخًا، مَعَ كَوْنِهِ مَشْرُوعًا.

فَلَا يَدْخُلُ النَّسْخُ أَصْلَ التَّوْحِيدِ بِحَالٍ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ، وَكَذَا مَا عُلِمَ بِالنَّصِّ أَنَّهُ يَتَأَبَّدُ وَلَا يَتَأَقَّتُ فَلَا يَدْخُلُهُ نَسْخٌ، كَشَرِيعَتِنَا هَذِهِ(٤).

المبحث السادس: معرفة تقدم المنسوخ عن الناسخ. (٥)

لمعرفة تقدم المنسوخ عن الناسخ طرق هي:

الطريق الأول: النطق الصريح وهو أربعة أنواع:

الأول: قول من الله تعالى، وله ثلاثة أنحاء:

أولها: أن يدل على رفع الحكم من غير بدل، كقوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ (المجادلة: ١٣)، بعد الأمر بتقديم الصدقة في قوله سبحانه: ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ (المجادلة: ١٢).

ثانيها: أن يدل على ثبوت نقيض الحكم السابق، كقوله تعالى: ﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ (البقرة: ١٨٧)، فإنه يدل على عدم حرمة المباشرة التي كانت ثابتة من قبل.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) البحر المحيط (٤/ ٧٩)، إرشاد الفحول(١٨٦)، معالم أصول الفقه (٢٥٠).

(٥) نواسخ القرآن لابن الجوزي (٩٦)، شرح الكوكب المنير(٣/ ٥٦٣٣)، لباب المحصول (١/ ٣٢٢، الأحكام لابن حزم (١/ ٤٨٨)، روضة الناظر (١/ ٢٧٠) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢/ ٦٠)، إرشاد الفحول(١٩٧)، مناهل العرفان (٢/ ١٥٠)، مذكرة الشنقيطي (١١٠)، معالم أصول الفقه (٢٥٠).

ثالثها: أن يدل على ثبوت ضد الحكم السابق، كقوله تعالى: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾ (الأنفال: ٦٦)، فإنه يدل على ثبوت ضد الحكم السابق، وهو وجوب ثبات الواحد للعشرة المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾ (الأنفال: ٦٥).

الثاني: قول من النبي ﷺ:

مثل قوله ﷺ: "نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها"[١]، فإنه يدل على أن الإذن بالزيارة ناسخ للحظر المدلول عليه بالنهي السابق.

الثالث: إجماع الصحابة:

على حكمٍ أنه ناسخ، وعلى آخر أنه منسوخ كالإجماع على أن وجوب صوم رمضان ناسخ لوجوب صوم عاشوراء، والاستدلال بالإجماع يعني أن معه خبرًا وقع به النسخ؛ لأن الإجماع لا ينسخ به، وذلك أن الأمة قد ضبطت الأخبار، فإذا رأينا خبرًا يخالف إجماعهم استدللنا بإجماعهم على نسخه[٢].

الرابع: قول الصحابي:

رخص رسول الله ﷺ في كذا؛ لأن الغالب أن الرخصة لا تكون إلا بعد النهي، مثل حديث أبي هريرة رضي الله عنه: توضؤا مما مست النار.[٣]

الطريق الثاني: فعله ﷺ يعني إذا تأخر عن القول مخالفًا له، فإنه يدل على أن القول منسوخ، مثاله: اقتصاره ﷺ على رجم ماعز من غير جلد.

فإنه يدل قوله ﷺ: "الثيب بالثيب جلد مائة والرجم"[٤]. قد نسخ، والفعل بين ذلك.

الطريق الثالث: معرفة التاريخ وله صور.

---

(١) مسلم (٩٧٧).

(٢) العدة (٨٢٦)، وانظر المبحث العاشر من هذا البحث.

(٣) مسلم (٣٥٢).

(٤) مسلم(١٦٩٠).

الأولى: النص على التأخير:

كقول جابرﷺ: كان آخر الأمرين من رسول الله ﷺ ترك الوضوء مما مست النار. (١)

الثانية: النص على سنة الورود أو النزول:

مثاله: عن جابر بن عبد الله ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول يوم الفتح-وهو بمكة- "إن الله ورسوله حرم بيع الخمر". (٢)

الثالثة: النص على الغزوة: مثاله: عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية. (٣)

الرابعة: أن يكون أحد الحديثين برواية من مات قبل رواية الحديث الآخر؛ فيدل على تأخر الحديث الثاني.

الخامسة: نقل الصحابي لتقدم أحد الحكمين وتأخر الآخر.

كأن يقول: هذه الآية نزلت قبل تلك، أو هذا الحديث سابق على ذلك؛ لعدالة الصحابة وكونه منزلًا منزلة المرفوع، إذ لا دخل للاجتهاد فيه. (٤)

المبحث السابع: الأشياء التي يدخلها الناسخ والمنسوخ والتي لا يدخلها.

يدخل الناسخ والمنسوخ في الأوامر والنواهي ولا يدخل في الأخبار. (٥)

قال ابن عبد البر: وهذا (الناسخ والمنسوخ) إنما يكون في الأوامر والنواهي من الكتاب والسنة، وأما في الخبر عن الله عز وجل أو عن رسوله ﷺ فلا يجوز النسخ في الأخبار البتة بحال؛ لأن المخبر عن الشيء أنه كان أو يكون إذا رجع عن ذلك لم يخل من السهو أو الكذب،

---

(١) أبو داود (١٥٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٨٧).

(٢) البخاري(٢٢٣٦)، مسلم(١٥٨١).

(٣) البخاري (٤٢١٩)، مسلم (١٩٤١).

(٤) مقدمات النسخ د. أسامة عبد العظيم (٦٢: ٥٩).

(٥) الناسخ والمنسوخ لابن حزم ص ٨، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢/ ٥٨)، الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٦١)، البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٣)، المهذب في علم أصول الفقه (٢/ ٥٥٤: ٥٥٣) مقدمات النسخ (٤١: ٤٦).

وذلك لا يعزى إلى الله ولا إلى رسوله فيما يخبر به عن ربه في دينه، وأما الأمر والنهي فجائز عليهما النسخ للتخفيف ولما شاء الله من مصالح عباده وذلك من حكمته لا إله إلا هو.

وقال أيضًا: والنسخ لا يجوز إلا فيما يصح وقوعه على وجهين كالصوم والصلاة وغيرهما من العبادات الشرعية، فأما ما لا يجوز أن يكون إلا على وجه واحد مثل التوحيد وصفات الله تعالى الذاتية كعلمه وقدرته وما عدا ذلك من صفاته فلا يصح فيه النسخ، وكذلك ما أخبر الله تعالى عنه من أخبار القرون الماضية والأمم السالفة فلا يجوز فيها النسخ، وهكذا ما أخبر عن وقوعه في المستقبل كخروج الدجال ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام إلى الأرض ونحو ذلك فإن النسخ فيه لا يجوز(١).

ومن قال بأن النسخ يدخل في الأخبار فيقصد الخبر الذي يراد به الأمر والنهي.

قال ابن الجوزي: فأما الأخبار فهي على ضربين:

الأول: ما كان لفظه لفظ الخبر ومعناه معنى الأمر كقوله تعالى ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (الواقعة: ٧٩)، فهذا لا حق بخطاب التكليف في جواز النسخ عليه.

والثاني: الخبر الخالص فلا يجوز علي؛ لأنه يؤدي إلى الكذب وذلك محال وقد حكى جواز ذلك عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم والسدي وليس شئ يعول عليه. وقال أبو جعفر النحاس: وهذا القول عظيم جدًا يؤول إلى الكفر؛ لأن قائلًا لو قال: قام فلان ثم قال: لم يقم، فقال: نسخته لكان كاذبًا. وقال ابن عقيل: الأخبار لا يدخلها النسخ؛ لأن نسخ الأخبار كذب وحوشى القرآن من ذلك(٢).

المبحث الثامن: أقسام (أنواع) النسخ في القرآن.

النسخ الواقع في القرآن يتنوع إلى أنواعٍ ثلاثة:

---

(١) التمهيد (٣/ ٢١٥)، الفقيه والمتفقه (١/ ٢٥٥).

(٢) نواسخ القرآن لابن الجوزي(٩٣)، وانظر الناسخ والمنسوخ للنحاس (١/ ٤٠٤).

نسخ التلاوة والحكم معا، ونسخ الحكم دون التلاوة، ونسخ التلاوة دون الحكم[١].

القسم الأول: نسخ الحكم والتلاوة جميعًا:

وذلك مثل التحريم بعشر رضعات. عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ. ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ فَتُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ وَهُنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ.[٢]

القسم الثاني: نسخ التلاوة دون الحكم.

وذلك كنسخ آية الرجم، كما جاء في حديث عمر بن الخطاب ﷺ، وفيه أنه قال: (إِنَّ الله بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ الله آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَرَأْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا، رَجَمَ رَسُولُ الله ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ وَالله مَا نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ فِي كِتَابِ الله، فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا الله، وَالرَّجْمُ فِي كِتَابِ الله حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أُحْصِنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ أَوْ كَانَ الْحَبَلُ أَوِ الاعْتِرَافُ[٣].

وكذلك التحريم بخمس رضعات.

قال الزركشي: هنا سؤال وهو أن يقال ما الحكمة في رفع التلاوة مع بقاء الحكم، وهلاَّ أبقيت التلاوة؛ ليجتمع العمل بحكمها وثواب تلاوتها؟ وأجاب صاحب الفنون فقال: إنما كان كذلك؛ ليظهر به مقدار طاعة هذه الأمة في المسارعة إلى بذل النفوس بطريق

---

(١) نواسخ القرآن(١١٠)، الفقيه والمتفقه(١/ ٢٤٨: ٢٤٥)، روضة الناظر (١/ ٢٣٠)، شرح صحيح مسلم للنووي (٥/ ٢٨٥)، البرهان في أصول الفقه(١/ ٢٥٦)، التمهيد لابن عبد البر (٤/ ٢٧٧: ٢٧٥)، شرح الكوكب المنير(٣/ ٥٥٨: ٥٥٣)، الأحكام للآمدي (٣/ ١٢٨)ومابعدها، البرهان في علوم القرآن(٢/ ٤٠: ٣٥)، معالم أصول الفقه(٢٥٨)، مناهل العرفان (٢/ ١٧٩: ١٧٧).

(٢) صحيح مسلم (١٤٥٢) (وهن فيما يقرأ) معناه: أن النسخ بخمس رضعات تأخر إنزاله جدًا حتى إنه ﷺ توفي وبعض الناس يقرأ خمس رضعات ويجعلها قرآنًا متلوًا؛ لكونه لم يبلغه النسخ لقرب عهده فلما بلغهم النسخ بعد ذلك رجعوا عن ذلك وأجمعوا على أن هذا لا يتلى. شرح صحيح مسلم للنووي (٥/ ٢٨٦).

(٣) البخاري(٦٨٣٠)، مسلم (١٦٩١).

الظن من غير استفصال لطلب طريق مقطوع به فيسرعون بأيسر شيء، كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بمنام، والمنام أدنى طرق الوحي[1].

القسم الثالث: نسخ الحكم دون التلاوة.

فيدل على وقوعه آيات كثيرة منها: أن آية تقديم الصدقة أمام مناجاة الرسول وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ منسوخة بقوله سبحانه ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ (المجادلة: ١٣) على معنى أن حكم الآية الأولى منسوخ بحكم الآية الثانية مع أن تلاوة كلتيهما باقية.

قال الزركشي: وهنا سؤال وهو أن يسأل ما الحكمة في رفع الحكم وبقاء التلاوة؟

والجواب من وجهين:

أحدهما: أن القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه والعمل به، فيتلى لكونه كلام الله تعالى فيثاب عليه فتركت التلاوة لهذه الحكمة.

وثانيهما: أن النسخ غالبًا يكون للتخفيف فأبقيت التلاوة تذكيرًا بالنعمة ورفع المشقة، وأما حكمة النسخ قبل العمل كالصدقة عند النجوى فيثاب على الإيمان به وعلى نية طاعة الأمر[2].

قال الزرقاني: أما حكمة بقاء التلاوة مع نسخ الحكم فتسجل تلك الظاهرة الحكيمة ظاهرة سياسة الإسلام للناس حتى يشهدوا أنه هو الدين الحق، وأن نبيه نبي الصدق، وأن الله هو الحق المبين العليم الحكيم الرحمن الرحيم. يضاف إلى ذلك ما يكتسبونه من الثواب

---

(١) البرهان في علوم القرآن(٢/ ٣٧).

(٢) المصدر السابق.

على هذه التلاوة، ومن الاستمتاع بها حوته تلك الآيات المنسوخة من بلاغة، ومن قيام معجزات بيانية أو علمية أو سياسية بها[(١)].

المبحث التاسع: أنواع الناسخ.

ينقسم النسخ بالنظر إلى دليله إلى أقسام متعددة، يمكن جمعها في قسمين: قسم متفق على جوازه، وقسم مختلف فيه.

أولًا: القسم المتفق على جوازه وهو:

١- نسخ القرآن بالقرآن.

٢- نسخ السنة المتواترة والأحادية بالسنة المتواترة.

٣- نسخ الآحاد من السنة بالآحاد وبالمتواتر.

لا خلاف في جواز نسخ القرآن بالقرآن، ونسخ السنة المتواترة بالسنة المتواترة، وجواز نسخ الآحاد بالآحاد، ونسخ الآحاد بالمتواتر[(٢)].

ثانيًا: القسم المختلف فيه

فيمكن بيانه في ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: نسخ القرآن بالسنة.

ذهب جمهور الأصوليين إلى أنه يجوز نسخ القرآن بالسنة[(٣)].

وذهب الإمام الشافعي وأحمد في رواية إلى أنه لا يجوز نسخ القرآن بالسنة[(٤)].

قال الجصاص: وَقَدْ احْتَجَّ بَعْضُ النَّاسِ فِي امْتِنَاعِ جَوَازِ نَسْخِ الْقُرْآنِ بِالسَّنَةِ؛ لِأَنَّ السَّنَةَ عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَتْ لَا تَكُونُ خَيْرًا مِنْ الْقُرْآنِ، وَهَذَا إغْفَالٌ مِنْ قَائِلِهِ مِنْ وُجُوهٍ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: "بِخَيْرٍ مِنْهَا فِي التِّلَاوَةِ وَالنَّظْمِ" لِاسْتِوَاءِ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ فِي

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ١٦٣).

(٢) نواسخ القرآن(٩٧)، شرح الكوكب المنير (٣/ ٥٥٩)، البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٢).

(٣) الإبهاج شرح المنهاج (٥/ ١٦٩٩)، الأحكام للآمدي (٣/ ١٣٨)، شرح الكوكب المنير (٣/ ٥٦٣)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢/ ٥٨)، إرشاد الفحول (١٩١).

(٤) الرسالة (١٠٦)، روضة الناظر (١/ ٢٥٧)، نواسخ القرآن(٩٧).

إِعْجَازِ النَّظْمِ، وَالْآخِرُ اتِّفَاقُ السَّلَفِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ النَّظْمَ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُمْ فِيهِ عَلَى أَحَدِ الْمَعْنَيَيْنِ إمَّا التَّخْفِيفُ أَوْ الْمَصْلَحَةِ.

وَذَلِكَ قَدْ يَكُونُ بِالسُّنَّةِ كَمَا يَكُونُ بِالْقُرْآنِ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إنَّهُ أَرَادَ التِّلَاوَةَ، فَدَلَالَةُ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى جَوَازِ نَسْخِ الْقُرْآنِ بِالسُّنَّةِ أَظْهَرُ مِنْ دَلَالَتِهَا عَلَى امْتِنَاعِ جَوَازِهِ بِهَا. وَأَيْضًا فَإِنَّ حَقِيقَةَ ذَلِكَ إنَّمَا تَقْتَضِي نَسْخَ التِّلَاوَةِ، وَلَيْسَ لِلْحُكْمِ فِي الْآيَةِ ذِكْرٌ؛ لِأَنَّهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ وَالْآيَةُ إنَّمَا هِيَ اسْمٌ لِلتِّلَاوَةِ، وَلَيْسَ فِي نَسْخِ التِّلَاوَةِ مَا يُوجِبُ نَسْخَ الْحُكْمِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ جَازَ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: " مَا نَنْسَخْ مِنْ تِلَاوَةِ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا لَكُمْ مِنْ مُحْكَمٍ مِنْ طَرِيقِ السُّنَّةِ أَوْ غَيْرِهَا"[1].

قال القرطبي: وحذاق الأئمة على أن القرآن ينسخ بالسنة...وهو ظاهر مسائل مالك.

وأبى ذلك الشافعي وأبو الفرج المالكي، والأول أصح، بدليل أن الكل حكم الله تعالى ومن عنده وإن اختلفت في الأسماء.[2]

وأختم بهذا الكلام النفيس:

قال ابن حزم: اختلف الناس في هذا (نسخ القرآن بالسنة والسنة بالقرآن) بعد أن اتفقوا على جواز نسخ القرآن بالقرآن، وجواز نسخ السنة بالسنة، فقالت طائفة: لا تنسخ السنة بالقرآن ولا القرآن بالسنة، وقالت طائفة: جائز كل ذلك، والقرآن ينسخ بالقرآن وبالسنة، والسنة تنسخ بالقرآن وبالسنة.

قال ابن حزم: وبهذا نقول وهو الصحيح، وسواء عندنا السنة المنقولة بالتواتر والسنة المنقولة بأخبار الآحاد، كل ذلك ينسخ بعضه بعضًا، وينسخ الآيات من القرآن، وينسخه الآيات من القرآن، وبرهان ذلك ما بيناه في باب الأخبار من هذا الكتاب، من وجوب الطاعة لما جاء عن النبي ﷺ، كوجوب الطاعة لما جاء في القرآن ولا فرق، وأن كل ذلك من عند الله

---

(١) أحكام القرآن للجصاص (١/ ٦٠: ٥٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن(٢/ ٥٨).

بقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ فإذا كان كلامه وحيا من عند الله عز وجل، والقرآن وحي، فنسخ الوحي بالوحي جائز؛ لأن كل ذلك سواء في أنه وحي[1].

قال الشوكاني: ولا يخفاك أن السنة شرع من الله ﷻ كما أن الكتاب شرع منه سبحانه، وقد قال: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا۟ ﴾ وأمر سبحانه باتباع رسوله في غير موضع في القرآن فهذا بمجرده يدل على أن السنة الثابتة عنه ثبوتًا على حد ثبوت الكتاب العزيز حكمها حكم القرآن في النسخ وغيره، وليس في العقل ما يمنع من ذلك ولا في الشرع.[2]

المسألة الثانية: نسخ السنة بالقرآن.

ذهب جمهور الأصوليين إلى أنه يجوز نسخ السنة بالقرآن.[3]

وذهب الإمام الشافعي في رواية إلى أن السنة لا تنسخ بالقرآن، حيث قال في باب ابتداء الناسخ والمنسوخ: (لا يَنْسخ كتابَ الله إلا كتابُه كما كان المبتدئ لفرضه فهو المُزيلُ المثبت لِما شاء منه جل ثناؤه ولا يكون ذلك لأحد من خلقه)[4].

وبهذا الكلام أخذ من نقل عن الشافعي أن السنة لا تنسخ بالكتاب.[5]

---

(١) الإحكام لابن حزم (١/ ٥٠٥).

(٢) إرشاد الفحول(١٩١).

(٣) شرح الكوكب المنير(٣/ ٥٥٩)، مذكرة في أصول الفقه للشنقيطي(١٠٠).

(٤) الرسالة (١٠٦).

(٥) قال السبكي: قال إمام الحرمين (قطع الشافعي جوابه بأن الكتاب لا ينسخ بالسنة وتردد في قوله في نسخ السنة بالكتاب) قلت: وهذا هو الذي قاله في(الرسالة)فإنه قال في باب ابتداء الناسخ والمنسوخ ما نصه: (ولا ينسخ كتاب الله إلا كتابه كما كان المبتدي بفرضه فهو المزيل المثبت لما شاء منه جل ثناؤه ولا يكون ذلك لأحد من خلقه) اهـ.

ثم قال ما نصه: (وهكذا سنة رسول الله ﷺ لا ينسخها إلا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو أحدث الله لرسوله في أمر سن فيه غير ما سن فيه رسول الله ﷺ لسن فيها حدث الله إليه حتى يبين للناس أن له سنة ناسخة للتي قبلها مما يخالفها)اهـ.

ومن صدر هذا الكلام أخذ من نقل عن الشافعي رحمه الله أن السنة لا تنسخ بالكتاب، وليس بجيد، وإنما مراد الشافعي رحمه الله أن النبي ﷺ إذا سن سنة ثم أنزل الله في كتابه ما ينسخ ذلك الحكم فلا بد أن يسن النبي

والراجح هو القول الأول.

المسألة الثالثة: نسخ المتواتر (قرآن وسنة) بالآحاد:

ذهب الجمهور من الأصوليين إلى أنه لا يجوز شرعا نسخ المتواتر بالآحاد[١].

وذهب البعض إلى أنه يجوز نسخ المتواتر بالآحاد[٢].

قال الشوكاني: ومما يرشدك إلى جواز النسخ بما صح من الآحاد لما هو أقوى متنًا أو دلالةً منها: أن الناسخ في الحقيقة إنما رافعًا لاستمرار حكم المنسوخ ودوامه وذلك ظني، وإن كان دليله قطعيًا فالمنسوخ إنما هو هذا الظني لا ذلك القطعي فتأمل هذا[٣].

المبحث العاشر: النسخ بالإجماع والقياس

أولًا: النسخ بالإجماع

قال الخطيب البغدادي: ولا يجوز نسخ إجماع المسلمين؛ لأن الإجماع لا يكون إلا بعد موت رسول الله ﷺ، والنسخ لا يجوز بعد موته[٤].

وإذا وجد في كلام العلماء أن الإجماع نسخ نصًا، فالمراد بالإجماع الناسخ النص الذي استند إليه الإجماع لا نفس الإجماع، فيكون من قبيل نسخ النص بنص مثله.

ﷺ سنة أخرى موافقة للكتاب تنسخ سنته الأولى لتقوم الحجة على الناس في كل حكم بالكتاب والسنة جميعا ولا تكون سنة منفردة تخالف الكتاب. وقوله ولو أحدث الله إلى آخره صريح في ذلك.

فهذا هو معنى القول المنسوب إلى الشافعي أعني أنه لا بد أن يسن النبي ﷺ سنة أخرى وأكثر الأصوليين الذين تكلموا في ذلك لم يفهموا مراد الشافعي وليس مراده إلا ما ذكرناه. الإبهاج في شرح المنهاج (٥/ ١٧٠٥: ١٧٠٣).

قلت: ولو فهم كلام الشافعي على ظاهره فهو خلاف الراجح، وكل يؤخذ منه ويُرد(نص بذلك الشافعي نفسه وغيره من الأئمة).

(١) الإحكام للآمدي (٣/ ١٣٤: ١٣٢)، روضة الناظر (١/ ٢٦٣)، إرشاد الفحول (١٩٠).

(٢) الإحكام لابن حزم (١/ ٥٠٥)، إرشاد الفحول (١٩٠)، مذكرة في أصول الفقه للشنقيطي(١٠٣).

(٣) إرشاد الفحول(١٩١)، الفقيه والمتفقه(١/ ٢٥٦)، البحر المحيط(٤/ ١٢٨).

(٤) الفقيه والمتفقه(١/ ٢٥٦)، وانظر روضة الناظر (١/ ٢٦٥)، الأحكام للآمدي (٣/ ١٤٤)، البحر المحيط(٤/ ١٢٨)، الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٥٩).

قال ابن قدامة: فإن قيل: فيجوز أن يكونوا ظفروا بنصٍ كان خفيًا هو أقوى من النص الأول أو ناسخ له. قلنا: فيضاف النسخ إلى النص الذي أجمعوا عليه لا إلى الإجماع.[(١)]

ثانيًا: النسخ بالقياس

قال الخطيب البغدادي: ولا يجوز نسخ القياس؛ لأن القياس تابع للأصول، والأصول ثابتة فلا يجوز نسخ تابعها.[(٢)]

المبحث الحادي عشر: الفرق بين النسخ والبداء

أولًا: تعريف البداء.[(٣)]

البَداء: بفتح الباء يطلق في لغة العرب على معنيين متقاربين:

أحدهما: الظهور بعد الخفاء، ومنه قوله الله تعالى ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ (الزمر: ٤٧) وقال تعالى ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الجاثية: ٣٣) ومنه قولهم: بدا لنا سور المدينة.

والآخر: نشأة رأي جديد لم يك موجودًا، قال في القاموس: وبَدَا له في الأمرِ بَدْوًا وبَدَاءٌ وبداةً: نَشَأَ له فيه رَأْيٌ. ومنه قول الله تعالى ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ (يوسف: ٣٥) أي نشأ لهم في يوسف رأي جديد هو أن يسجن سجنًا وقتيًا بدليل قوله: ليسجننه حتى حين[(٤)].

ثانيًا: الفرق بين النسخ والبداء.

---

(١) روضة الناظر (١/ ٢٦٦)، وانظر إرشاد الفحول(١٩٣)، معالم أصول الفقه (٢٤٨).

(٢) الفقيه والمتفقه (١/ ٢٥٦)، شرح الكوكب المنير(٣/ ٥٧١)وما بعدها، إرشاد الفحول(١٩٣).

(٣) البَدائي: بفتح الباء الموحدة والدال المهملة وفي آخرها الياء آخر الحروف، هذه النسبة إلى البدائية وهم جماعة من غلاة الروافض وهم الذين أجازوا البداء على الله ﷻ، وزعموا أنه يريد الشيء ثم يبدو له، وأول ظهور هذا القول من جهة المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي غلب على الكوفة وأعمالها، وقتل قتلة الحسين ﷺ، وقيل: إن المختار أخذ هذا القول عن مولى لعلي ﷺيقال له كيسان، وفي إجاز البداء على الله تعالى إجازة الندم عليه، وهذا كفر. الأنساب للسمعاني (١/ ٢٩٥)، الملل والنحل للشهرستاني (١/ ١٤٦).

(٤) النهاية في غريب الأثر (١/ ٢٧١)، التعريفات (٦٢)، الإحكام للآمدي(٣/ ١٠٢).

قال ابن الجوزي: فأما الفرق بين النسخ والبداء فذلك من وجهين:

الأول: أن النسخ تغيير عبادة أُمر بها المكلف وقد علم الآمر حين الأمر أن لتكليف المكلف بها غاية ينتهي الإيجاب إليها ثم يرتفع بنسخها.

والبداء أن ينتقل الأمر عن ما أمر به وأراده دائما بأمر حادث لا بعلم سابق.

والثاني: أن سبب النسخ لا يوجب إفساد الموجب لصحة الخطاب الأول.

والبداء يكون سببه دالًا على إفساد الموجب لصحة الأمر الأول مثل أن يأمره بعمل يقصد به مطلوبا، فيتبين أن المطلوب لا يحصل بذلك الفعل، فيبدو له ما يوجب الرجوع عنه، وكلا الأمرين يدل على قصور في العلم، والحقُّ عز وجل منزه عن ذلك[1].

قال ابن حزم: الفرق بينهما لائح وهو: أن البداء هو أن يأمر بالأمر، والآمر لا يدري ما يؤول إليه الحال، والنسخ هو أن يأمر بالأمر والآمر يدري أنه سيحيله في وقت كذا ولا بد، قد سبق ذلك في علمه وحتمه من قضائه، فلما كان هذان الوجهان معنيين متغايرين مختلفين، وجب ضرورة أن يعلق على كل واحد منها اسم يعبر به عنه غير اسم الآخر؛ ليقع التفاهم، ويلوح الحق، فالبداء ليس من صفات الباري تعالى، ولسنا نعني الباء والدال والألف، وإنما نعني المعنى الذي ذكرنا من أن يأمر بالأمر لا يدري ما عاقبته، فهذا مبعد من الله ﷻ، وسواء سموه نسخا أو بداء أو ما أحبوا. وأما النسخ فمن صفات الله تعالى من جهة أفعاله كلها، وهو القضاء بالأمر قد علم أنه سيحيله بعد مدة معلومة عنده ﷻ، كما سبق في علمه تعالى.

ولسنا نكابر على النون والسين والخاء، وإنما نعني المعنى الذي بينّا، وسواء سموه نسخًا أو بداء أو ما أحبوا من الأسماء، ولكن اسمه عندنا النسخ، وبهذه العبارة نعبر عن هذا المعنى الذي لا يخلو لله تعالى فعل منه أصلًا في دار الابتلاء، وكل شيء منها كائن فاسد، وهذا هو النسخ، وهو نوع من أنواع الكون والفساد الجاريين في طبيعة العالم بتقدير خالقه ومخترعه ومدبره ومتممه لا إله إلا هو.

---

(١) نواسخ القرآن لابن الجوزي(٨٣)، وانظر الناسخ والمنسوخ للنحاس (١/ ٤٤١).

واسم الصفة الأولى عندنا البَدَاء، فيها يعبر عن هذا المعنى الذي هو من صفات المختارين من الإنس والجن وسائر الحيوان، وهو خلق مذموم؛ لأنه نتيجة الملل والندم والسآمة، وهذه الأخلاق منفية عن الملائكة بنص القرآن، فكيف عن الباري تعالى. [1]

الوجه الثاني: الرد على بعض الشبهات حول النسخ في القرآن.

الشبهة الأولى:

قالوا: بأن النسخ يتعارض مع قوله تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ (فصلت: ٤٢)، حيث إن هذه الآية تفيد أن أحكام القرآن لا تبطل أبدًا، والنسخ فيه إبطال لحكم سابق.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: بيان معنى الآية.

الآية تحتمل عدة معانٍ:

الأول: أي: لا يستطيع الشيطان أن ينقص منه حقا، ولا يزيد فيه باطلا قالوا: والباطل هو الشيطان.

عن قتادة ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ الباطل: إبليس لا يستطيع أن ينقص منه حقا، ولا يزيد فيه باطلًا[2].

الثاني: أن المراد أن هذا الكتاب لم يتقدمه من كتب الله ما يبطله ولا يأتيه من بعده أيضًا ما يبطله[3].

الثالث: النسخ ليس باطلًا، إذ هو حق وذلك أن الله أضافه إلى نفسه في قوله ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ١٠٦)، ولا ينسب الله إلى نفسه باطلا، والباطل يضاد الحق فوجب حمل الباطل على غير النسخ. [4]

الوجه الثاني: أن معنى الباطل في الآية ما خالف الحق، والنسخ حق.

---

(١) الإحكام لابن حزم (١/ ٤٧١).

(٢) إسناده صحيح. أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ١٢٥) من طريق يزيد، قال: ثنا سعيد عن قتادة به.

(٣) الرازي في تفسيره (٣/ ٢٣٠)، الإبهاج في شرح المنهاج (٥/ ١٦٥٨).

(٤) الإبهاج في شرح المنهاج (٥/ ١٦٥٨)، النسخ في القرآن الكريم د/ مصطفى زيد (١/ ٥٧).

ومعنى الآية أن عقائد القرآن موافقة للعقل وأحكامه، مسايرة للحكمة وأخباره، مطابقة للواقع، ألفاظه محفوظة من التغيير والتبديل، ولا يمكن أن يتطرق إلى ساحته الخطأ بأي حال قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: ٩) وقال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الإسراء: ١٠٥)، ولعلك تدرك معي أن تفسير الآية بهذا المعنى يجعلها أقرب إلى إثبات النسخ ووقوعه منها إلى نفيه وامتناعه؛ لأن النسخ كما قررنا تصرفٌ إلهيٌّ حكيم تقتضيه الحكمة وترتبط به المصلحة(١).

الوجه الثالث: الآية تدل على نوع خاص من النسخ.

لو كان معنى الباطل في الآية هو متروك العمل به مع بقاء قرآنيته؛ لكان دليله قاصرًا عن مدعاه؛ لأن الآية لا تفيد حينئذ إلا امتناع نوع خاص من النسخ وهو نسخ الحكم دون التلاوة، فإنه وحده هو الذي يترتب عليه وجود متروك العمل في القرآن، أما نسخ التلاوة مع الحكم أو مع بقائه فلا تدل الآية على امتناعه بهذا التأويل(٢).

الوجه الرابع: إنكار وتشديد القول من أهل العلم على من قال بهذا القول(٣)، مما يدل على بطلان قوله.

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ١٧٢).

(٢) مناهل العرفان (٢/ ١٧٢)، النسخ في القرآن الكريم د/ مصطفى زيد (١/ ٥٧)

(٣) يرى أبو مسلم أن النسخ (إبطال)؛ لأن فيه إلغاء الحكم بالمنسوخ، فلو وقع في القرآن لأتاه الباطل، وفي ذلك تكذيب لخبر الله تعالى، والكذب محال في خبره.

وأبو مسلم هذا قد اختلف العلماء في اسمه على تسعة أقوال أشهرها: محمد بن علي، وكان أديبًا مترسلًا بليغًا متكلمًا، وهو مفسر معتزلي. واختلف الباحثون في تبيين حقيقة ما ذهب إليه في النسخ لاضطراب النقل عنه، فحُكي عنه منع النسخ بين الشرائع، وحُكي عنه منع النسخ في القرآن وغير ذلك، وقيل إنه كان يخالف العلماء في النسخ من ناحية اللفظ، فكان يسميه تخصيصًا، وقد أنكر أن يكون في القرآن نسخًا، وأتى على الآيات التي تتحدث عن وجود النسخ في القرآن بتأويلات عقلية، ونقلها عنه الرازي في تفسيره، ورد عليها. وقد جمع أبو مسلم هذه الآيات في كتابه الشهير (جامع التأويل لمحكم التنزيل)، غير أن الشيخ سعيد الأنصاري رد عليه في تأويله للآيات في كتابه المشهور (ملتقط جامع التأويل لمحكم التنزيل).

قال الجصاص: زعم بعض المتأخرين من غير أهل الفقه أنه لا نسخ في شريعة نبينا محمد ﷺ، وأن جميع ما ذكر فيها من النسخ؛ فإنما المراد به نسخ شرائع الأنبياء المتقدمين كالسبت والصلاة إلى المشرق والمغرب؛ قال: لأن نبينا عليه السلام آخر الأنبياء، وشريعته ثابتة باقية إلى أن تقوم الساعة.

وقد كان هذا الرجل ذا حظ من البلاغة وكثير من علم اللغة، غير محظوظ من علم الفقه وأصوله، وكان سليم الاعتقاد غير مظنون به غير ظاهر أمره، ولكنه بَعُدَ من التوفيق بإظهار هذه المقالة؛ إذ لم يسبقه إليها أحد، بل قد عقلت الأمة سلفها وخلفها من دين الله وشريعته نسخ كثير من شرائعه، ونقل ذلك إلينا نقلا لا يرتابون به ولا يجيزون فيه التأويل، كما قد عقلت أن في القرآن عاما وخاصا ومحكما ومتشابها، فكان دافع وجود النسخ في القرآن والسنة كدافع خاصة وعامه، ومحكمة ومتشابهه؛ إذ كان ورود الجميع ونقله على وجه واحد، فارتكب هذا الرجل في الآي المنسوخة والناسخة وفي أحكامها أمورا خرج بها عن أقاويل الأمة مع تعسف المعاني واستكراهها، وما أدري ما الذي ألجاه إلى ذلك؟

وأكثر ظني فيه أنه إنما أتى به من قلة علمه بنقل الناقلين لذلك، واستعمال رأيه فيه من غير معرفة منه بما قد قال السلف فيه ونقلته الأمة[1].

قال أبو جعفر النحاس: فمن المتأخرين من قال: ليس في كتاب الله ﷻ ناسخ ولا منسوخ وكابر العيان واتبع غير سبيل المؤمنين[2].

قال ابن كثير: وقال أبو مسلم الأصفهاني المفسر: لم يقع شيء من ذلك في القرآن. وقوله هذا ضعيف مردود مرذول. وقد تعسف في الأجوبة عما وقع من النسخ. [3]

مقدمات النسخ د. أسامة عبد العظيم (٧٦: ٧٩)، (شرح الكوكب المنير٣/ ٥٣٥) (الحاشية).

(١) أحكام القرآن (١/ ٥٩).

(٢) الناسخ والمنسوخ (١/ ٤٠٠).

(٣) تفسير ابن كثير(١/ ١٤٥).

قال الشوكاني: النسخ جائز عقلا واقع سمعًا بلا خلاف في ذلك بين المسلمين إلا ما يروى عن أبي مسلم الأصفهاني فإنه قال: إنه جائز غير واقع. وإذا صح هذا عنه فهو دليل على أنه جاهل بهذه الشريعة المحمدية جهلًا فظيعًا، وأعجب من جهله بها حكاية من حكى عنه الخلاف في كتب الشريعة؛ فإنه إنما يعتد بخلاف المجتهدين لا بخلاف من بلغ في الجهل إلى هذه الغاية. [١]

الشبهة الثانية: إنكار لبعض الآيات التي تثبت النسخ بتأويلات غير صحيحة

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ (البقرة: ١٠٦)، فقد سلكوا مسلكًا آخر يقصدون به إبطال دلالة الآية على وقوع النسخ. واستدلوا بوجوه من عندهم وهي:

الأول: أن المراد من الآيات المنسوخة هي الشرائع التي في الكتب القديمة من التوراة والإنجيل، كالسبت والصلاة إلى المشرق والمغرب مما وضعه الله تعالى عنا وتعبدنا بغيره؛ فإن اليهود والنصارى كانوا يقولون: لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، فأبطل الله عليهم ذلك بهذه الآية.

الثاني: المراد من النسخ نقله من اللوح المحفوظ وتحويله عنه إلى سائر الكتب وهو كما يقال: نسخت الكتاب.

الثالث: الآية لا تدل على وقوع النسخ؛ بل على أنه لو وقع النسخ لوقع إلى خير منه[٢].

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: الآيات إذا أطلقت فالمراد بها آيات القرآن؛ لأنه هو المعهود عندنا. والمعنى أن العرب لم يستعملوا كلمة آية بمعنى شريعة، وأن القرآن الكريم أيضًا لم يستعملها في أداء هذا المعنى بدليل خُلو معجم القرآن، ومعاجم اللغة منه فتفسير الآية بالشريعة تفسير لا يستقيم[١].

---

(١) إرشاد الفحول (١٨٥).

(٢) الرازي في تفسيره(٣/ ٢٣٠).

الوجه الثاني: بأن نقل القرآن من اللوح المحفوظ لا يختص ببعض القرآن، وهذا النسخ مختص ببعضه.

والمعنى أننا قد بينا أن معنى النسخ في اللغة يدور بين الإزالة والنقل، وأن الأصل فيه الإزالة، وأسلوب الآية يقتضي ذلك؛ فإنه صريح في إفادة الإتيان بالبدل حين ينسخ، ولما كان البدل لا يجتمع مع المبدل منه؛ فإن تقرير الإتيان به – أي البدل – يستلزم أن يكون المبدل منه قد أزيل، وهذا هو معنى نسخه. وكون النسخ قد ورد في القرآن بمعنى النقل لا يسوغ تفسيره بالنقل في كل موضع ورد فيه[٢].

الوجه الثالث: الرد على قوله أن الآية لا تدل على وقوع النسخ، بل لو وقع لوقع إلى خير منه.

قال د. مصطفى أبو زيد: فهو يلتقي معنا كما هو واضح في تفسير النسخ، والآية. غير أنه يتشبث بشرطية الجملة؛ لأنه يجد فيها المخرج. وقد اقتضاه هذا أن يسلم بجواز النسخ شرعًا، لكنه ـ فيما يبدو ـ لم يبال بهذا، ما دامت شرطية الجملة هنا قد مكنته من القول بأنها لا تفيد الوقوع! وأما نحن فحسبنا أن تدل الآية لجواز النسخ؛ لأن وقوعه قد تكلفت بالدلالة عليه آية سورة النحل. [٣] وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ (الرعد: ٣٩).

ولذا قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ يرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتصرف، فكما خلقهم كما يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، ويصح من يشاء، ويمرض من يشاء، ويوفق من

(١) تفسير الرازي (٣/ ٢٣٠)، النسخ في القرآن الكريم د/ مصطفى زيد(١/ ٢٥١، ٢٧٣).
(٢) الرازي في تفسيره (٣/ ٢٣٠)، النسخ في القرآن الكريم د/ مصطفى زيد (١/ ٢٧٣).
(٣) النسخ في القرآن الكريم (١/ ٢٧٣).

يشاء، ويخذل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه. ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى. . فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا. وامتثال ما أمروا. وترك ما عنه زجروا. وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم -لعنهم الله -في دعوى استحالة النسخ إما عقلًا كما زعمه بعضهم جهلا وكفرًا، وإما نقلًا كما تخرصه آخرون منهم افتراء وإفكًا.

وقال الطبري: فتأويل الآية: ألم تعلم يا محمد أن لي ملك السماوات والأرض وسلطانهما دون غيري، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عما أشاء، وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامي التي أحكم بها في عبادي ما أشاء إذا أشاء، وأقر فيهما ما أشاء.

ثم قال: وهذا الخبر وإن كان من الله تعالى خطابا لنبيه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه تكذيب لليهود الذين أنكروا نَسْخَ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد، عليهما الصلاة والسلام، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغير ما غير الله من حكم التوراة. فأخبرهم الله أن له ملك السماوات والأرض وسلطانهما، وأن الخلق أهل مملكته وطاعته وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء، ونهيهم عما يشاء، ونسخ ما يشاء، وإقرار ما يشاء، وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه[1].

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ ﴾ (البقرة: ٢٤٠)، ثم نسخ ذلك بأربعة أشهر وعشر كما قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ (البقرة: ٢٣٤)، قالوا:

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٣).

الاعتداد بالحول ما زال بالكلية؛ لأنها لو كانت حاملًا ومدة حملها حول كامل لكانت عدتها حولًا كاملًا، وإذا بقي هذا الحكم في بعض الصور كان ذلك تخصيصًا لا ناسخًا.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: ذهب جمهور المفسرين والأصوليين إلى أنها منسوخة بقوله (أربعة أشهر وعشرًا).[1]

قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: قُلْتُ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ قَدْ نَسَخَتْهَا الآيَةُ الأُخْرَى، فَلِمَ تَكْتُبُهَا أَوْ تَدَعُهَا؟ قَالَ: يَا ابْنَ أخي، لاَ أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ[2].

ومعنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان: إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التي نسختها يوهم بقاء حكمها؟ فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقيفي، وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها فأثبتها حيث وجدتها[3].

الوجه الثاني: عدة الحمل تنقضي بوضع الحمل سواء حصل وضع الحمل بسنة أو أقل أو أكثر.

قال ابن كثير: هذا أمر من الله للنساء اللاتي يُتَوّفى عنهن أزواجهن: أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع، ومستنده في غير المدخول بها عُمُوم الآية الكريمة، وهذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي: أن ابن مسعود سُئِل عن رجل تزوّج امرأة فمات ولم يدخل بها، ولم يفرض لها؟ فترددوا إليه مرارًا في ذلك، فقال: أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكُن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه: أرى لها الصداق كاملًا. وفي لفظ: لها صداق مثلها، لا وكس، ولا شَطَط، وعليها العدّة،

---

(١) الطبري في تفسيره (٢/ ٥٨٢: ٥٨٠)، ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٠٨)، الإبهاج في شرح المنهاج (٥/ ١٦٥٠)، شرح الكوكب المنير (٣/ ٥٥٧).

(٢) البخاري (٤٥٣٠).

(٣) فتح الباري لابن حجر (٨/ ٤٢)، تفسير ابن كثير (٢/ ٤١٠).

ولها الميراث. فقام معقل بن سنان الأشجعي فقال: سمعت رسول الله ﷺ قَضى به في بَرْوَع بنت واشق. ففرح عبد الله بذلك فرحًا شديدًا. وفي رواية: فقام رجال من أشجع، فقالوا: نشهد أن رسول الله ﷺ قضى به في بَرْوَع بنت وَاشِق[1].

ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها، وهي حامل، فإن عدّتها بوضع الحمل، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة؛ لعموم قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ (الطلاق: ٤)، وكان ابن عباس ﷺ يرى: أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع، أو أربعة أشهر وعشر، للجمع بين الآيتين، وهذا مأخذ جيد ومسلك قوي، لولا ما ثبتت به السنة في حديث سبيعة الأسلمية، المخرج في الصحيحين من غير وجه: أنه توفي عنها زوجها سعد بن خولة، وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، وفي رواية: فوضعت حملها بعده بليال، فلما تَعَلَّتْ من نفاسها تجملت للخُطَّاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بَعْكَك، فقال لها: ما لي أراك مُتَجَمِّلة؟ لعلك ترجين النكاح. والله ما أنتِ بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعَشْر. قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت عليَّ ثيابي حين أمسيت، فأتيت رسول الله ﷺفسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حلَلَتُ حين وضعتُ، وأمرني بالتزويج إن بدا لي[2].

قال أبو عمر بن عبد البر: وقد روي أن ابن عباس رجع إلى حديث سُبَيعة، يعني لما احُتج عليه به. قال: ويصحح ذلك عنه: أن أصحابه أفتوا بحديث سبيعة، كما هو قول أهل العلم قاطبة.

وكذلك يستثنى من ذلك الزوجة إذا كانت أمة، فإن عدتها على النصف من عدة الحرة، شهران وخمس ليال، على قول الجمهور[3].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٢١٤)، والترمذي (١١٤٥)، وصححه الألباني في الإرواء (١٩٣٨).

(٢) البخاري (٥٣١٩)، مسلم (١٤٨٤).

(٣) تفسير ابن كثير(٢/ ٣٧٧: ٣٧٩).

قال النووي: فَأَخَذَ بِهَذَا (حديث سبيعة) جَمَاهِير الْعُلَمَاء مِنْ السَّلَف وَالْخَلَف، فَقَالُوا: عِدَّة الْمُتَوَفَّى عَنْهَا بِوَضْعِ الْحَمْل، حَتَّى لَوْ وَضَعَتْ بَعْد مَوْت زَوْجهَا بِلَحْظَةٍ قَبْل غَسْله اِنْقَضَتْ عِدَّتهَا وَحَلَّتْ فِي الْحَال لِلْأَزْوَاجِ. هَذَا قَوْل مَالِك وَالشَّافِعِيّ وَأَبِي حَنِيفَة وَأَحْمَد وَالْعُلَمَاء كَافَّة[1].

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾ (النساء: ١٥)، قالوا: المراد بقوله: ﴿وَٱلَّتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ السحاقات، وحدُّهن الحبس إلى الموت، وبقوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ﴾ (النساء: ١٦) أهل اللواط، وحدهما الأذى بالقول والفعل، والمراد بالآية المذكورة في سورة النور: الزنا بين الرجل والمرأة، وحده في البكر الجلد، وفي المحصن الرجم.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: إجماع أهل العلم على أن الآية منسوخة.

كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا زنت فثبت زناها بالبينة العادلة، حُبست في بيت فلا تُمكن من الخروج منه إلى أن تموت؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ يعني: الزنا ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾، فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الحكم كذلك، حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد، أو الرجم. وكذا رُوي عن عِكْرِمة، وسَعيد بن جُبَيْر، والحسن، وعَطاء الخُراساني، وأبي صالح، وقتادة، وزيد بن أسلم، والضحاك: أنها منسوخة، وهو أمر متفق عليه.[2]

وأجمع العلماء على أن هاتين الآيتين منسوختان بآية الجلد في سورة النور.[3]

---

(١) شرح النووي على مسلم (٥/ ٣٦٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٤).

(٣) المحرر الوجيز (٢/ ٢٢)، تفسير الخازن (١/ ٣٥٣).

الوجه الثاني: أن هذا قول لم يقله أحد من المفسرين المتقدمين فكان باطلًا. [1]

الوجه الثالث: أنه جاء في الحديث أنه ﷺ قال: " قد جعل الله لهن سبيلا، الثيب ترجم والبكر تجلد. [2]

وهذا يدل على أن هذه الآية نازلة في حق الزناة وليست في السحاق واللواط. [3]

الوجه الرابع: أن الصحابة اختلفوا في أحكام اللواط، ولم يتمسك أحد منهم بهذه الآية، فعدم تمسكهم بها مع شدة احتياجهم إلى نص يدل على هذا الحكم من أقوى الدلائل على أن هذه الآية ليست في اللواطة. [4]

الوجه الخامس: أن تأويله للآية الثانية على أنها في اللواط، لا يستند إلى أساس سليم، فإن الحديث الذي ذكره تأييدًا لتسمية اللواط زنًا-وهو قوله ﷺ: "إذا أتى الرجلُ الرجل فهما زانيان"[5] ضعيف لا يصح. [6]

والوجه السادس: أنه لا يسوغ لغة أن تذكر الفاحشة في الآية الأولى بمعنى المساحقة، ثم يعاد الضمير عليها بمعنى اللواطة في الآية الثانية، مع أن العقوبة التي تشرعها الآيتان مختلفة[7].

والوجه السابع: أن هذا التأويل لا يبطل واقعة النسخ، على فرض قبوله والتسليم بصحته، فقد صح عن النبي ﷺ (برواية عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه، عنه) أنه قال: (من وجدتموه

---

(١) الرازي في تفسيره (١٠/ ٢٣١).

(٢) مسلم (١٦٩٠).

(٣) الرازي في تفسيره (١٠/ ٢٣١).

(٤) المصدر السابق.

(٥) **ضعيف**. أخرجه الآجري في ذم اللواط (١٦). والحديث ضعفه الحافظ في التلخيص (٤/ ٥٥) والألباني في الإرواء (٢٣٤٩). ويراجع شبهة اللواط من هذه الموسوعة.

(٦) النسخ في القرآن الكريم د/ مصطفى زيد (٢/ ٣٦٨).

(٧) المصدر السابق.

يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به)[1]، مع أن الآية تأمر بإيذاء اللذين يأتيان الفاحشة، لا بقتلهما، فيجب إذن أن تكون الآية-على تأويلهم - منسوخة بالسنة، مع أنهم لم يتكلفوا في تأويل الآية كل هذا التكلف إلا ليتفادوا القول بأنها منسوخة.[2]

والوجه الثامن: أنه لا يعقل ولا يتصور أن تكون عقوبة المساحقة الحبس حتى الموت، وعقوبة اللواط مجرد الإيذاء، مع أن جريمة اللواط أخطر على كيان المجتمع من المساحقة، ومع أن المساحقة لم يشرع لها حد، وشرع للواط قتل الفاعل والمفعول به، ومع أن الله ﷻ قد خسف الأرض بمرتكبيها، واستأصلهم بالعذاب بكرهم وثيبهم، ولم يوقع بالمساحقات بعض هذا[3].

الوجه التاسع: **هذه الدعاوي ليست صحيحة**: أما ما ادعوه من أن إفراد النساء بالنص عليهن في الآية الأولى يقتضي أن يكون المراد بقوله(واللذان) الذكرين، لا الذكر والأنثى تغليبًا، فغير صحيح؛ لأن النساء إنما أفردن بالذكر لأنهن يتفردن بعقوبة الحبس، لا بارتكاب الفاحشة وحدهن دون مشاركة من الرجال. وأما ما زعموه من التكرار إذا فسرت الفاحشة في كل من الآيتين بالزنا فهو أيضًا غير صحيح؛ لأن الآية الثانية تبين العقوبة المشتركة بعد أن بينت الآية الأولى ما يخص النساء من عقوبة الحبس، ثم إنه لا مكان لادعاء التكرار، مع أن الذي في الثانية هو ضمير الفاحشة المذكورة في الأولى.

---

(١) **صحيح**. أخرجه أبو داود(٤٤٦٢)، والترمذي(١٤٥٦)، وابن ماجه(٢٥٦١)، وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي(١٢٧)، والآجري في ذم اللواط(٢٧)، وابن الجارود(٨٢٠)، والبيهقي(٨/ ٢٣١)، وعبد بن حميد(٥٧٣)، وابن عدي في الكامل(٤/ ٣٣٩)، وعبد الرزاق(١٣٤٩٢)، وأحمد (١/ ٣٠٠)، الطبراني(١١٥٦٨)، عن عكرمة، عن ابن عباس به. والحديث صححه الألباني في الإرواء(٢٣٥٠)، ويراجع تفصيل هذا الحديث في شبهة اللواط من هذه الموسوعة.

(٢) النسخ في القرآن الكريم د/ مصطفى زيد (٢/ ٣٦٩).

(٣) المصدر السابق.

وأما ما غالطوا به من تفسير السبيل بأنها السبيل إلى قضاء الشهوة بطريق النكاح، فإن القرآن قد أنكره على المؤمنين في قوله: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ٣)، فكيف تكون السبيل التي يشرعها الله لهن موضع إنكار وتحريم في آية أخرى؟ ، ثم ما قيمة تلك الشهوة التي وقعن بسببها في الفاحشة، حتى يهتم القرآن بإشباعها فيهن، وبالسبيل التي تيسر لهن إشباعها؟.

أكل هذا من أجل أنه قال: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ﴾ ولم يقل عليهن؟ ، ولكن ألا يقال للمخلص من الشئ هو سبيل له، سواء كان أخف أو أثقل؟. (١)

الآية الرابعة: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نسخت بقوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المجادلة: ١٢، ١٣).

قالوا: إن المنافقين كانوا يمتنعون من بذل الصدقات، وإن قومًا من المنافقين تركوا النفاق وآمنوا ظاهرًا وباطنًا إيمانًا حقيقيًا، فأراد الله تعالى أن يميزهم عن المنافقين، فأمر بتقديم الصدقة على النجوى؛ ليتميز هؤلاء الذين آمنوا إيمانًا حقيقيًا عمن بقي على نفاقه الأصلي، وإذا كان هذا التكليف لأجل هذه المصلحة المقدرة لذلك الوقت، لا جرم يقدر هذا التكليف بذلك الوقت. وحاصل قولهم: أن ذلك التكليف كان مقدرًا بغاية مخصوصة، فوجب انتهاؤه عند الانتهاء إلى الغاية المخصوصة، فلا يكون هذا نسخًا.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: لو كان كذلك لكان من لم يتصدق منافقًا، وهو باطل؛ لأنه (جاء في الخبر)أنه لم يتصدق غير علي رضي الله عنه. (١)

---

(١) المصدر السابق.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ (المجادلة: ١٣)[٢].

الوجه الثاني: الإجماع على أنها منسوخة. [٣]

الوجه الثالث: بيان معنى الآية.

قال ابن كثير: قول تعالى آمرًا عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله ﷺ، أي: يساره فيما بينه وبينه، أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾، ثم قال: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ﴾ أي: إلا من عجز عن ذلك لفقده ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ فما أمر بها إلا من قدر عليها.

ثم قال: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖ﴾ أي: أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول، ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، فنسخ وجوب ذلك عنهم[٤].

قال الشوكاني: وليس في الآية ما يدلّ على تقصير المؤمنين في امتثال هذا الأمر، أما الفقراء منهم فالأمر واضح، وأما من عداهم من المؤمنين، فإنهم لم يكلفوا بالمناجاة حتى تجب عليهم الصدقة بل أمروا بالصدقة إذا أرادوا المناجاة فمن ترك المناجاة، فلا يكون مقصرًا في امتثال الأمر بالصدقة، على أن في الآية ما يدل على أن الأمر للندب[٥].

الوجه الرابع: بيان الفائدة من هذا التكليف.

هذا التكليف وهو الصدقة قبل مناجاة النبي ﷺ كان له عدة فوائد منها:

١ - إعظام الرسول ﷺ وإعظام مناجاته.

---

(١) تفسير الطبري(٢٨/ ٢٠)، من طريق (ابن أبي نجيح، ليث) عن مجاهد قال: نهوا عن مناجاة النبيّ ﷺ حتى يتصدقوا، فلم يناجه إلا عليّ بن أبي طالب ﷺ قدم دينارًا فتصدق به، ثم أنزلت الرخصة في ذلك.

(٢) تفسير الرازي (٣/ ٢٣٠)، النسخ في القرآن د. مصطفى زيد (١/ ٢٨٩).

(٣) الإبهاج في شرح المنهاج(٥/ ١٦٥٣).

(٤) تفسير ابن كثير(١٣/ ٤٦٢).

(٥) فتح القدير(٥/ ٢٧١).

٢- نفع كثير من الفقراء بتلك الصدقة.

٣- تخفيف عن النبي ﷺ من المشقة، فقد أكثروا مناجاته.

٤- التمييز بين قوي الإيمان وضعيف الإيمان، وبين محب الآخرة ومحب الدنيا. (١)

الشبهة الثالثة: يقولون: لو جاز على الله تعالى أن ينسخ حكمًا من أحكامه؛ لكان ذلك إما لحكمة ظهرت له كانت خافية عليه، وإما لغير حكمة وكل هذين باطل.

أما الأول: فلأنه يستلزم تجويز البداء والجهل بالعواقب على علام الغيوب.

وأما الثاني: فلأنه يستلزم تجويز العبث على الحكيم العليم اللطيف الخبير.

والبداء والعبث مستحيلان عليه سبحانه بالأدلة العقلية والنقلية فما أدى إليهما وهو جواز النسخ محال.

والجواب على هذه الشبهة:

الوجه الأول: أن الله لا يُسألُ عما يفعل.

قال ابن حزم: ما الفرق بين أن يأمرنا الله بشيء في وقت ما، ويبينه لنا، ويعلمنا أنه إذا أتى وقت كذا وجب الانتقال إلى شئ آخر، وبين أن يأمرنا ولا يعلمنا أنه سينقلنا إلى شئ آخر؟ وهذا ما لا سبيل إلى وجود فرق فيه أبدا لذي تمييز وعقل؛ لأنه ليس لنا على الله تعالى شرط، ولا عليه أن يطلعنا على علمه، ولا يتقمن(٢) مسارنا، ولا أن يأخذ آراءنا في شيء، ومدَّعِي هذا ملحد في دين الله ﷻ، كافر به، مفتر عليه، وقد نص تعالى على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ (البقرة: ٢٥٥) وبقوله ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ (الجن: ٢٦، ٢٧). (٣)

الوجه الثاني: النسخ مبنيٌّ على حكمةٍ يعلمها الله سبحانه وتعالى.

---

(١) تفسير الرازي (٢٩/ ٢٧١) بتصرف.

(٢) قال في لسان العرب ١٣ / ٣٤٧: تقَمَّنْتُ في هذا الأَمر مُوافقَتَك أَي: تَوَخَّيْتُها.

(٣) الأحكام لابن حزم(١/ ٤٧٢).

قال الزرقاني: إن نسخ الله تعالى ما شاء من أحكامه مبني على حكمة كانت معلومة له أولًا، ظاهرة لم تخف عليه ولن تخفى عليه أبدًا؛ غاية الأمر أن مصالح العباد تتجدد بتجدد الأزمان وتختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، وأسراره وحكمه سبحانه لا تتناهى، ولا يحيط بها سواه. فإذا نسخ حكما بحكم، لم يخل هذا الحكم الثاني من حكمة جديدة غير حكمة الحكم الأول هي مصلحة جديدة للعباد في الحكم الجديد، أو هي غير تلك؛ وسبحان من أحاط بكل شي علما. وإذن فلا يستلزم نسخ الله لأحكامه بداءً ولا عبثًا(١).

الوجه الثالث: الالتباس وقع لتشبيههم علم المخلوق بعلم الله، وبينهما بون عظيم.

وبيان هذا أنه ما دام قد أمكن النسخ على احتمال لا يأباه العقل فمن الخطأ الحكم باستحالته عقلًا، وما في النسخ من جديد ـ على هذا ـ إنما يعتبر جديدًا بالنسبة لنا نحن، أما بالنسبة لله فقد سبق به علمه، ثم جاء النسخ تحقيقًا لهذا العلم، لا اعتراضًا عليه. ولو أنه تعالى حين شرع الحكم الأول حدد مدة العمل، وشرع معه الحكم الذي سينسخه حين يجيء أوان النسخ لاستقبل الناس هذا دون أن يثير في نفوسهم تساؤلًا أو استنكارًا، فلماذا التساؤل والاستنكار حين يخفى عنا الناسخ حتى يجيء أوانه؟ وهل النسخ إلا هذا؟ وهل ننكره لشيء إلا لأنه يشرع لنا حكمًا جديدًا علينا؟.

على أننا نلحظ هذا الجديد كل يوم في جميع شئون الحياة، ولا نجد فيه دليلا ولا شبه دليل على أن الله تعالى يمكن أن يوصف بالبداء أو بالعبث. فالصحيح الجسم قد ينتابه المرض، ومن يعاني مرضًا قد يسبغ الله عليه ثوب العافية، ولم يقل أحد إن الله ﷻ قد تغير علمه، أو إنه قد بدا له، فابتلى الصحيح بالمرض، وأنعم على المريض بالصحة.

والغنى والفقر يتعاوران الناس، فالغني يصاب بالفقر، والفقير يبتلى بالغنى، ولم يفهم أحد أن الله تعالى قد تبدل، أو أنه ﷻ قد بدا له، فبدل الغني بغناه فقرًا، وبدل الفقير غنى بفقره.

---

(١) مناهل العرفان(٢/ ١٦٥).

وكل حي فمصيره إلى الموت لا محالة، طال عمره أو قصر، ولم يزعم أحد حين مات إنسان أن موته تغير في علم الله، أو أنه تعالى قد بدا له فأماته.

أفيقال إن النسخ يستلزم البداء أو العبث مع أنه لا جديد فيه بالنسبة لله ﷻ، ومع أن كلًا من الحكمين الأول والثاني قد شرع لحكمة، فكان هو الصواب، وهو المحقق للمصلحة في وقته؟.

وحين يعالج الطبيب مريضًا، فيرى أن المرحلة التي يجتازها من مراحل مرضه يصلح لها دواء معين، فيصف له هذا الدواء وهو يعلم المدة التي سيتناوله في أثنائها، وأنه لا يصلح له بعد هذه المدة، ثم يصف له في المرحلة التالية الدواء الذي كان يعلم من أول الأمر أنه يصلح له في هذه المرحلة لا يوصف عادة بأن علمه قد تغير، أو أنه قد بدا له. فهل يسوغ أن نصف الله ﷻ بالبداء، لا لشيء إلا لأنه-وهو يَطِبُّ للنفوس من أدوائها- قد شرع في كل وقت ما يحقق المصلحة، وهو يعلم كل شئ قبل أن يقع؟ وهل يمكن أن يوصف بالعبث حكم لم يشرع إلا حين اقتضته الحكمة، وإن سبق في علم الله تعالى أزلًا أنه سيشرع؛ ليحل محل حكم آخر قد رُفع؟ ، سبحانه، وله المثل الأعلى!. [(١)].

الشبهة الرابعة: يقولون: لو جاز على الله تعالى أن ينسخ حكما بحكم، للزم على ذلك أحد باطلين: جهله جل وعلا، وتحصيل الحاصل.

وبيان ذلك أن الله تعالى إما أن يكون قد علم الحكم الأول المنسوخ على أنه مؤبد، وإما أن يكون قد علمه على أنه مؤقت. فإن كان قد علمه على أنه مستمر إلى الأبد، ثم نسخه وصيره غير مستمر؛ انقلب علمه جهلًا، والجهل عليه تعالى محال. وإن كان قد علمه على أنه مؤقت بوقت معين ثم نسخه عند ذلك الوقت؛ ورد عليه أن المؤقت ينتهي بمجرد انتهاء وقته، فإنهاؤه بالنسخ تحصيل للحاصل، وهو باطل.

والجواب على هذه الشبهة

الوجه الأول: أن النسخ لا يتعارض مع علم الله ﷻ.

---

(١) النسخ في القرآن د. مصطفى زيد(١/ ٣٥).

قال الزرقاني: إن الله تعالى قد سبق في علمه أن الحكم المنسوخ مؤقت لا مؤبد، ولكنه عَلِم بجانب ذلك أن تأقيته إنما هو بورود الناسخ لا بشيء آخر كالتقييد بغاية في دليل الحكم الأول، وإذن فعلمه بانتهائه بالناسخ لا يمنع النسخ؛ بل يوجبه. وورود الناسخ محقق لما في علمه لا مخالف له شأنه تعالى في الأسباب ومسبباتها، وقد تعلق علمه بها كلها، ولا تنس ما قررناه ثمة من أن النسخ بيان بالنسبة إلى الله، رفع بالنسبة إلينا[1].

الشبهة الخامسة.

يقولون: لو جاز النسخ للزم أحد باطلين تحصيل الحاصل، وما هو في معناه. وبيان ذلك أن الحكم المنسوخ إما أن يكون دليله قد غياه بغاية ينتهي عندها أو يكون قد أَبَّدَه نصًا؛ فإن كان قد غياه بغاية فإنه ينتهي بمجرد وجود هذه الغاية، إذ لا سبيل إلى إنهائه بالنسخ وإلا لزم تحصيل الحاصل. وإن كان دليل الحكم الأول قد نص على تأبيده ثم جاء الناسخ على رغم هذا التأبيد لزم المحال من وجوه ثلاثة:

أولها: التناقض؛ لأن التأبيد يقتضي بقاء الحكم ولا ريب أن النسخ ينافيه.

ثانيها: تعذر إفادة التأبيد من الله للناس؛ لأن كل نص يمكن أن يفيده تبطل إفادته باحتمال نسخه، وذلك يفضي إلى القول بعجز الله وعِيِّه عن بيان التأبيد لعباده فيما أبده لهم ـ تعالى الله ـ عن ذلك.

ثالثها: استلزام ذلك لجواز نسخ الشريعة الإسلامية مع أنها باقية إلى يوم القيامة عند القائلين بالنسخ.

والجواب على هذه الشبهة:

الوجه الأول: إن حصر الحكم المنسوخ في هذين الوجهين اللذين ذكرهما المانع غير صحيح؛ لأن الحكم المنسوخ يجوز ألا يكون مؤقتًا ولا مؤبدًا؛ بل يجيء مطلقا عن التأقيت وعن التأبيد كليهما، وعليه فلا يستلزم طرو النسخ عليه شيئا من المحالات التي ذكروها،

(١) مناهل العرفان(٢/ ١٦٥).

وإطلاق هذا الحكم كاف في صحة نسخه؛ لأنه يدل على الاستمرار بحسب الظاهر وإن لم يعرض له النص.

الوجه الثاني: أن ما ذكروه من امتناع نسخ الحكم المؤبد غير صحيح أيضا وما استندوا إليه منقوض بوجوه ثلاثة:

أولها: أن استدلالهم بأنه يؤدي إلى التناقض مدفوع بأن الخطابات الشرعية مقيدة من أول الأمر بألا يرد ناسخ، كما أنها مقيدة بأهلية المكلف للتكليف، وألا يطرأ عليه جنون أو غفلة أو موت وإذن فمجيء الناسخ لا يفضي إلى تناقض بينه وبين المنسوخ بحال.

ثانيها: أن استدلالهم بأنه يؤدي إلى أن يتعذر على الله بيان التأبيد لعباده مدفوع بأن التأبيد يفهمه الناس بسهولة من مجرد خطابات الله الشرعية المشتملة على التأبيد، وهو ما يشعر به كل واحد منا، وذلك لأن الأصل بقاء الحكم الأول، وما اتصل به من تأقيت أو تأبيد وطرو الناسخ احتمال مرجوح، واستصحاب الأصل أمر يميل إليه الطبع كما يؤيده العقل والشرع.

ثالثها: أن جواز نسخ الشريعة الإسلامية إن لزمنا معاشر القائلين بالنسخ فإنه يلزمنا على اعتبار أنه احتمال عقلي لا شرعي بدليل أننا نتكلم في الجواز العقلي لا الشرعي، أما نسخ الشريعة الإسلامية بغيرها من الناحية الشرعية فهو من المحالات الظاهرة؛ لتضافر الأدلة على أن الإسلام دين عام خالد ولا يضير المحال في حكم الشرع أن يكون من قبيل الجائز في حكم العقل.[1]

الشبهة السادسة: يقولون إن النسخ يستلزم اجتماع الضدين، واجتماعهما محال.

وبيان ذلك أن الأمر بالشيء يقتضي أنه حسن وطاعة ومحبوب لله، والنهي عنه يقتضي أنه قبيح ومعصية ومكروه له تعالى، فلو أمر الله بالشيء ثم نهى عنه، أو نهى عن الشيء ثم أمر به لاجتمعت هذه الصفات المتضادة في الفعل الواحد الذي تعلق به الأمر والنهي.

والجواب عن هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: الله سبحانه وتعالى له الحكمة البالغة.

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ١٦٧: ١٦٦).

قال ابن حزم: إن منكري النسخ قالوا: ليس من الحكمة أن يأمر الله تعالى بشيء أمس ثم ينهى عن مثله اليوم، وهذا من نظائر قول أصحابنا بالعلل، وهؤلاء قوم يتعقبون على ربهم تعالى، فيقال لهم: أخبرونا أي حكمة وجبت عليه تعالى أن يأمر أمس بما أمر به؟ أترى لو لم يأمر تعالى بما أمر به لكانت تبطل حكمته؟ أو لو أمر بغير ما أمر به لكانت تبطل حكمته؟ أو ترون إذ قدس الأرض المقدسة، ولعن أريحا، ولعن أورشليم أكان ذلك مفسدا لحكمته؟ وإذ حظر العمل في السبت وأباحه في الأحد، أرأيتم لو عكس الأمر أكان ذلك مبطلا لحكمته؟ فإن راموا فرقًا بين شيء من ذلك لحقوا بالمجانين، وجاهروا بما لا يفهم وبما يعلم بطلانه.

ثم يُقال لهم: أليس الله تعالى قد ملّك قومًا من الكفار العصاة الظلمة ومكّنهم، وأذل قومًا من الكفار العصاة الظلمة وملّك غيرهم رقابهم، وملك قومًا صالحين فضلاء مؤمنين، ومكنهم وبسط أيديهم، وأذل قومًا صالحين فضلاء مؤمنين وملك غيرهم رقابهم، ومد أعمار قوم كفار طغاة، واخترم آخرين منهم قبل بلوغ الاكتهال، وفعل مثل ذلك بقوم مؤمنين أفاضل، ومكّن قومًا عصاة مردة من البيان والكلام في العلوم حتى أضلوا أممًا من الخلق، وجعل آخرين منهم بلداء أغبياء، وفعل مثل ذلك أيضًا بالمؤمنين سواء بسواء، فما الذي جعل هذا حكمه دون عكس كل ذلك؟ وما الفرق بين هذا من أفعاله تعالى وبين أن يأمر اليوم بأمر ثم ينهى عن مثله غدا؟ وما يفرق بين كل ما ذكر إلا عديم عقل أو وقح سخيف. [1]

الوجه الثاني: الذي يحكم بالحسن والقبح هو الله.

فإن الحُسن والقبح وما اتصل بهما ليست من صفات الفعل الذاتية حتى تكون ثابتة فيها لا تتغير؛ بل هي تابعة لتعلق أمر الله ونهيه بالفعل وعلى هذا يكون الفعل حسنًا وطاعة ومحبوبًا لله ما دام مأمورًا به من الله، ثم يكون هذا الفعل نفسه قبيحًا ومعصية

(١) الإحكام لابن حزم (١/ ٤٧٠).

ومكروهًا له تعالى ما دام منهيًا عنه منه تعالى. والقائلون بالحسن والقبح العقليين من المعتزلة يقرون بأنهما يختلفان باختلاف الأشخاص والأوقات والأحوال، وبهذا التوجيه ينتفي اجتماع الضدين؛ لأن الوقت الذي يكون فيه الفعل حسنا غير الوقت الذي يكون فيه ذلك الفعل قبيحا؛ فلم يجتمع الحسن والقبح في وقت واحد على فعل واحد[(١)].

الشبهة السابعة: يقولون إن التوراة التي أنزلها الله على موسى، لم تزل محفوظة لدينا منقولة بالتواتر فيما بيننا وقد جاء فيها: (هذه شريعة مؤبدة ما دامت السموات والأرض).

وجاء فيها أيضًا، (الزموا يوم السبت أبدًا) وذلك يفيد امتناع النسخ؛ لأن نسخ شيء من أحكام التوراة لا سيما تعظيم يوم السبت إبطال لما هو من عنده تعالى.

والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجوه

الوجه الأول: هذا الخبر المنقول عن موسى عليه السلام لا يصح.

قال ابن الجوزي: وأما دعوى من ادعى أن موسى عليه السلام أخبر أن شريعته لا تنسخ فمحال ويقال: إن ابن الراوندي[(٢)] علَّمهم أن يقولوا: إن موسى قال: لا نبي بعدي.

---

(١) الإبهاج في شرح المنهاج(٥/ ١٦٤٦)، البرهان في أصول الفقه(١/ ٢٥٠)، مناهل العرفان (٢/ ١٦٧)، النسخ في القرآن الكريم د/ مصطفى زيد (١/ ٤٠: ٣٥).

(٢) ابن الراوندي الزنديق، وهو أحمد بن يحيى بن إسحاق أبو الحسين بن الراوندي، نسبة إلى قرية ببلاد قاشان ثم نشأ ببغداد، كان بها يصنف الكتب في الزندقة، وكانت لديه فضيلة، ولكنه استعملها فيما يضره ولا ينفعه في الدنيا ولا في الآخرة، -وهو-أحد مشاهير الزنادقة، كان أبوه يهوديا فأظهر الإسلام، ويقال إنه حرف التوراة، كما عادى ابنه القرآن بالقرآن، وألحد فيه، وصنف كتابًا في الرد على القرآن سماه الدامغ. وكتابًا في الرد على الشريعة والاعتراض عليها سماه الزمردة، وكتابًا يقال له التاج في معنى ذلك.

وله كتاب الفريد، وكتاب إمامة المفضول الفاضل، وقد انتصب للرد على كتبه هذه جماعة منهم الشيخ أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي شيخ المعتزلة في زمانه وقد أجاد في ذلك، وكذلك ولده أبو هاشم عبد السلام ابن أبى على، قال الشيخ أبو علي: قرأت كتاب هذا الملحد الجاهل السفيه ابن الراوندي، فلم أجد فيه إلا السفه، والكذب، والافتراء، قال: وقد وضع كتابًا في قدم العالم ونفي الصانع، وتصحيح مذهب الدهرية والرد على أهل التوحيد، ووضع كتابًا في الرد على محمد رسول الله ﷺ في سبعة عشر موضعا ونسبه إلى الكذب يعنى: النبي ﷺ، وطعن على القرآن ووضع كتابًا لليهود والنصارى وفضل دينهم على المسلمين

ويدل على ما قلنا: أنه لو صح قولهم لما ظهرت المعجزات على يد عيسى ؛ لأن الله تعالى لا يصدق بالمعجزة من كذب موسى، فإن أنكروا معجزة عيسى لزمهم ذلك في معجزة موسى، فإن اعترفوا ببعض معجزاته لزمهم تكذيب من نقل عن موسى لأنه قال: لا نبي بعدي[(١)].

قال الآمدي: وما ذكروه من قول موسى، فمختلق لم تثبت صحته عن موسى .

وقد قيل: إن أول من وضع ذلك لهم ابن الراوندي؛ ليعارض به دعوى الرسالة من محمد ﷺ، لما ظهر من تسمحه في الدين. [(٢)]

الوجه الثاني: أن اليهود ما كانوا يحتجون على نبينا محمد ﷺ بشيء من هذا خاصةً من أسلم منهم، فلو كانت هذه الدعوى صحيحة لحاجُّوا بها أفضل الرسل ﷺ.

قال ابن الجوزي: ومما يدل على كذبهم فيما ادعوا أن اليهود ما كانوا يحتجون على نبينا محمد ﷺ بكل شيء، وكان نبينا مصدقًا لموسى ، وحكم عليهم بالرجم عملًا بما في

والإسلام يحتج لهم فيها على إبطال نبوة محمد ﷺ إلى غير ذلك من الكتب التي تبين خروجه عن الإسلام، نقل ذلك ابن الجوزي عنه.

قال ابن الجوزي: وإنما ذكرته ليعرف قدر كفره، فإنه معتمد الملاحدة والزنادقة. - وقد ذكر ابن الجوزي طرفًا من كلامه في معارضته للقرآن في كتابه الدامغ، ثم قال بعدها: وقد ذكر الملعون أشياء من هذا الجنس مزجها بسوء الأدب، والانبساط القبيح، والذكر للخالق سبحانه وتعالى بما لا يصلح أن يذكر به أحد العوام، وما سمعنا أن أحدًا عاب الخالق وانبسط كانبساط هذا اللعين قبله ويلومه لو جحد الخالق كان أصلح له من أن يثبت وجوده، ثم يخاصمه ويعيبه وليس له في شيء مما قاله شبهة، فضلًا عن حجة فتذكر ويجاب عنها، وإنما هو خذلان فضحة الله تعالى به في الدنيا، والله تعالى يقابله يوم القيامة مقابلة تزيد على مقابلة إبليس، وإن خالف، لكنه احترم في الخطاب كقوله: " بعزتك " ولم يواجه بسوء أدب كما واجه هذا اللعين، جمع الله بينهما، وزاد هذا من العذاب. المنتظم (١٣/ ١١٧: ١٠٨)، وانظر: الوافي بالوفيات (٣/ ١٠١)، سير أعلام النبلاء (١٤/ ٦٢: ٥٩)، ولسان الميزان (١/ ٣٢٣).

(١) نواسخ القرآن (٨٢).

(٢) الإحكام في أصول الأحكام (٣/ ١١٤).

شريعة موسى فهلا احتجوا عليه بذلك، ولو احتجوا لشاع نقل ذلك فدل على أنه قول ابتُدع بعد نبينا محمد ﷺ.[١]

قال الآمدي: ويدل على ذلك أن أحبارهم ككعب الأحبار، وابن سلام، ووهب بن منبه وغيرهم كانوا أعرف من غيرهم بما في التوراة، وقد أسلموا ولم يذكروا شيئًا من ذلك: ولو كان ذلك صحيحًا لكان من أقوى ما يتمسك به اليهود في زمن النبي ﷺ في معارضته، ولم ينقل عنهم شئ من ذلك، ثم إنهم مختلفون في نفس متن الحديث، فإن منهم من قال الحديث: إن أطعتموني لما أمرتكم به، ونهيتكم عنه، ثبت ملككم، كما ثبتت السموات والأرض. وليس في ذلك ما يدل على إحالة النسخ[٢].

الوجه الثالث: على القول بصحته فلا تعارض.

قال الآمدي: وإن سلمنا صحة ما نقلوه، فيحتمل أنه أراد بالشريعة؛ التوحيد. ويحتمل أنه أراد بقوله (مؤبدة) ما لم تنسخ بشريعة نبي آخر، ومع احتمال هذه التأويلات، فلا يعارض قوله ما ظهر على يد النبي ﷺ من المعجزات القاطعة الدالة على صدقه في دعواه الرسالة ونسخ شريعة من تقدم[٣].

الوجه الرابع: التأبيد في التوراة لم يرد به الدوام.

قال الآمدي: كيف وإنَّ لفظ التأبيد قد ورد في التوراة، ولم يرد به الدوام، كقوله: إن العبد يستخدم ست سنين، ثم يعتق في السابعة، فإن أبى العتق، فلتثقب أذنه ويستخدم أبدًا. وكقوله في البقرة التي أُمِروا بذبحها: هذه سنة لكم أبدًا، وكقوله: قربوا كل يوم خروفين قربانا دائمًا، (هذه سنة لكم أبدًا) وكقوله: (قربوا كل يوم خروفين قربانًا دائمًا)، مع أن هذه الأحكام قد نسخت باعتراف اليهود أنفسهم، على رغم التصريح فيها بما يفيد

(١) نواسخ القرآن(٨٢).

(٢) الإحكام في أصول الأحكام(٣/ ١١٤)، مناهل العرفان (٢/ ١٦٩).

(٣) الإحكام في أصول الأحكام(٣/ ١١٤).

التأبيد كما ترى[١].

الوجه الخامس: زعمهم أن التوراة محفوظة في أيديهم كلام باطل.

إننا لا نسلم لهم ما زعموه من أن التوراة لم تزل محفوظة في أيديهم حتى يصح استدلالهم بها؛ بل الأدلة متضافرة على أن التوراة الصحيحة لم يعد لها وجود، وأنه أصاب من التغيير والتبديل ما جعلها في خبر كان.

من تلك الأدلة أن نسخة التوراة التي بأيدي السامريين تزيد في عمر الدنيا نحوًا من ألف سنة على ما جاء في نسخة العنانيين، وأن نسخة النصارى تزيد ألفًا وثلاثمائة سنة.

ومنها أنه جاء في بعض نسخ التوراة ما يفيد أن نوحًا أدرك جميع آبائه إلى آدم، وأنه أدرك من عهد آدم نحوًا من مائتي سنة، وجاء في بعض نسخ أخرى ما يفيد أن نوحًا أدرك من عمر إبراهيم ثمانيًا وخمسين سنة وكل هذا باطل تاريخيًا.

ومنها أن نسخ التوراة التي بأيديهم تحكي عن الله وعن أنبيائه وملائكته أمورًا ينكرها العقل ويمجها الطبع ويتأذى بها السمع مما يستحيل معه أن يكون هذا الكتاب صادرًا عن نفس بشرية مؤمنة طاهرة فضلًا عن أن ينسب إلى ولي فضلًا عن أن ينسب إلى نبي فضلًا عن أن ينسب إلى الله رب العالمين.

من ذلك أن الله ندم على إرسال الطوفان إلى العالم، وأنه بكى حتى رمدت عيناه، وأن يعقوب صارعه - جل الله عن ذلك كله - ومن ذلك أن لوطًا شرب الخمر حتى ثمل وزنى بابنتيه، ومنه أن هارون هو الذي اتخذ العجل لبني إسرائيل ودعاهم إلى عبادته من دون الله.

ومن الأدلة أيضًا على فساد دعوى بقاء التوراة وحفظها ما ثبت بالتواتر عند المؤرخين بل عند اليهود أنفسهم من أن بني إسرائيل وهم حملة التوراة وحفاظها قد ارتدوا عن الدين مرات كثيرة، وعبدوا الأصنام، وقتلوا أنبياءهم شر تقتيل. ولا ريب أن هذه مطاعن شنيعة جارحة لا تبقي لأي واحد منهم أي نصيب من عدالة أو ثقة، ولا تحمل لهذه النسخ

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام(٣/ ١١٤)، مناهل العرفان (٢/ ١٦٩).

التي زعموا أنها التوراة أقل شيء من القيمة أو الصحة ما داموا هم رواتها وحفاظها، وما دامت هي لم تعرف إلا عن طريقهم وبرواياتهم.(١)

الشبهة الثامنة: يقولون إن المسيح عليه السلام قال: (السماء والأرض تزولان وكلامي لا يزول) كما قال: (لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ. ١٨ فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ.) إنجيل متى(٥/ ١٨: ١٧) وهذا يدل على امتناع النسخ سمعًا.

والجواب عن هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: قوله (ما جئت لأنقض بل لأكمل) لا يصح بدليل وقوع النقض (النسخ)، والدليل على ذلك: جاء في العهد القديم ما نصه: (إِذَا أَخَذَ رَجُلٌ امْرَأَةً وَتَزَوَّجَ بِهَا، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ؛ لأَنَّهُ وَجَدَ فِيهَا عَيْبَ شَيْءٍ، وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ طَلاَقٍ وَدَفَعَهُ إِلَى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ، ٢ وَمَتَى خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهِ ذَهَبَتْ وَصَارَتْ لِرَجُل آخَرَ، ٣ فَإِنْ أَبْغَضَهَا الرَّجُلُ الأَخِيرُ وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ طَلاَقٍ وَدَفَعَهُ إِلَى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ، أَوْ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ الأَخِيرُ الَّذِي اتَّخَذَهَا لَهُ زَوْجَةً، ٤ لاَ يَقْدِرُ زَوْجُهَا الأَوَّلُ الَّذِي طَلَّقَهَا أَنْ يَعُودَ يَأْخُذُهَا لِتَصِيرَ لَهُ زَوْجَةً بَعْدَ أَنْ تَنَجَّسَتْ. لأَنَّ ذلِكَ رِجْسٌ لَدَى الرَّبِّ. فَلاَ تَجْلِبْ خَطِيَّةً عَلَى الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا.) سفر التثنية(٢٤/ ٤: ١).

وبعد ذلك جاء في العهد الجديد ما ينقضه (ينسخه) وهذا نصه: (وَجَاءَ إِلَيْهِ الْفَرِّيسِيُّونَ لِيُجَرِّبُوهُ قَائِلِينَ لَهُ: «هَلْ يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُطَلِّقَ امْرَأَتَهُ لِكُلِّ سَبَبٍ؟ » ٤ فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: «أَمَا قَرَأْتُمْ أَنَّ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْبَدْءِ خَلَقَهُمَا ذَكَرًا وَأُنْثَى؟ ٥ وَقَالَ: مِنْ أَجْلِ هذَا يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَكُونُ الاثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. ٦ إِذًا لَيْسَا بَعْدُ اثْنَيْنِ بَلْ جَسَدٌ وَاحِدٌ. فَالَّذِي جَمَعَهُ اللهُ لاَ يُفَرِّقُهُ إِنْسَانٌ». ٧ قَالُوا لَهُ: «فَلِمَاذَا أَوْصَى مُوسَى أَنْ يُعْطَى كِتَابُ طَلاَقٍ فَتُطَلَّقُ؟ » ٨ قَالَ لَهُمْ: «إِنَّ مُوسَى مِنْ أَجْلِ قَسَاوَةِ قُلُوبِكُمْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تُطَلِّقُوا نِسَاءَكُمْ. وَلكِنْ مِنَ الْبَدْءِ لَمْ يَكُنْ هكَذَا. ٩ وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلاَّ بِسَبَبِ الزِّنَا

(١) مناهل العرفان (٢/ ١٦٩)، وانظر مبحث (تحريف الكتاب المقدس) من هذه الموسوعة المباركة.

وَتَزَوَّجَ بِأُخْرَى يَزْنِي، وَالَّذِي يَتَزَوَّجُ بِمُطَلَّقَةٍ يَزْنِي) إنجيل متى(١٩/ ٩: ٣).

الوجه الثاني: الكتاب الذي بين أيديكم محرف، ولا يجوز الاحتجاج به.

قال الزرقاني: إنا لا نسلم أن الكتاب الذي بأيديهم هو الإنجيل الذي نزل على عيسى؛ إنْ هو إلا قصة تاريخية وضعها بعض المسيحيين يبين فيها حياة المسيح وولادته ونشأته ودعوته والأماكن التي تنقل فيها والآيات التي ظهرت على يديه ومواعظه ومناظراته، كما يتحدث فيها عن ذلك الحادث الخيالي حادث الصلب، وعلى رغم أنها قصة فقد عجزوا عن إقامة الدليل على صحتها وعدالة كاتبها وأمانته وضبطه، كما أعياهم اتصال السند وسلامته من الشذوذ والعلة بل ثبت علميا تناقض نسخ هذه القصة التي أسموها الإنجيل مما يدل على أنها ليست من عند ا لله ولو كانت من عند ا لله ما أتاها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وصدق الله في قوله عن القرآن ﴿وَلَوْكَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).[1]

إن سياق هذه الكلمة في إنجيلهم يدل على أن مراده بها تأبيد تنبؤاته، وتأكيد أنها ستقع لا محالة أما النسخ فلا صلة لها به نفيًا ولا إثباتًا، وذلك لأن المسيح حدّث أصحابه بأمور مستقبلية، وبعد أن انتهى من حديثه هذا أتى بهذه الجملة التي تشبثوا بها: (**اَلسَّمَاءُ وَالأَرْضُ تَزُولاَنِ وَلكِنَّ كَلاَمِي لاَ يَزُولُ**).

ولا ريب أن لسياق الكلام تأثيره في المراد منه، وهكذا شرحها المفسرون منهم للإنجيل وقالوا: إن فهمها على عمومها لا يتفق وتصريح المسيح بأحكام ثم تصريحه بما يخالفها، من ذلك أنه قال لأصحابه كما جاء في إنجيل متى (**إِلَى طَرِيقِ أُمَمٍ لاَ تَمْضُوا، وَإِلَى مَدِينَةٍ لِلسَّامِرِيِّينَ لاَ تَدْخُلُوا. ٦بَلِ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ.**)وهذا اعتراف بخصوص رسالته لنبي إسرائيل ثم قال مرة أخرى كما في إنجيل مرقس: (**اذْهَبُوا**

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ١٧٠).

إِلَى الْعَالَمِ أَجْمَعَ وَاكْرِزُوا بِالإِنْجِيلِ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا.) فالقول الثاني ناسخ للأول. (١)

الوجه الثالث: على فرض صحتها إنما تدل على امتناع نسخ شيء من شريعة المسيح عليه السلام فقط.

قال الزرقاني: إن هذه الجملة على تسليم صحتها، وصحة رواته وكتابها الذي جاءت فيه لا تدل على امتناع النسخ مطلقا؛ إنما تدل على امتناع نسخ شيء من شريعة المسيح فقط، فشبهتهم على ما فيه قاصرة قصورًا بيِّنًا عن مدعاهم. (٢)

الشبهة التاسعة: هي الربط بين النسخ والبداء، فقد اتخذوا من إثبات النسخ ووقوعه في القرآن ذريعة إلى وصف الله عز وجل بالبداء.

و تمسحوا في أمرين أولها قوله سبحانه: ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ (الرعد: ٣٩)، فيقولون: إن مجال المحو والإثبات فيها هو صفة العلم ذاتها، وإنّ علم الله تعالى يتبدل، نتيجة لما يبدو له، أي لما يظهر له بعد أن كان خافيًا عليه.

الأمر الثاني: أنهم تشبثوا بآثار نسبوها إلى أئمة طاهرين، منها أن عليًا رضي الله عنه كان يقول: لولا البداء لحدثتكم بما هو كائن إلى يوم القيامة. ومنها أن جعفر الصادق رضي الله عنه قال: ما بدا الله تعالى في شيء كما بدا له في إسماعيل. ومنها أن موسى بن جعفر قال: البداء ديننا ودين آبائنا في الجاهلية. ويقوم هذا الادعاء على أن أئمة آل البيت كانوا يصفون الله عز وجل بالبداء.

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: البداء على الله مستحيل وقد حكم العلماء على من وصف الله به بالكفر.

قال ابن النجار: وَلَا يَجُوزُ الْبَدَاءُ عَلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ تَجَدُّدُ الْعِلْمِ. وَهُوَ أَيْ الْقَوْلُ بِتَجَدُّدِ عِلْمِهِ جَلَّ وَعَلَا (كُفْرٌ) بِإِجْمَاعِ أَئِمَّةِ أَهْلِ السُّنَّةِ. قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ الله: مَنْ قَالَ: إنَّ الله تَعَالَى لَمْ يَكُنْ عَالِمًا حَتَّى خَلَقَ لِنَفْسِهِ عِلْمًا فَعَلِمَ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ(٣).

(١) مناهل العرفان (٢/ ١٧٠)، وانظر إظهار الحق (٣/ ٦٧٧: ٦٧٦).

(٢) مناهل العرفان (٢/ ١٧١: ١٧٠).

(٣) شرح الكوكب المنير (٣/ ٥٣٦)، البرهان في علوم القرآن(٢/ ٣٠).

قال الشوكاني: وقد جوزت الرافضة البداء عليه عز وجل لجواز النسخ، وهذه مقالة الكفر بمجردها[1].

قال الزرقاني: ذانك معنيان متقاربان للبداء (الظهور بعد الخفاء، نشأة رأي جديد لم يك موجودًا) وكلاهما مستحيل على الله تعالى؛ لما يلزمهما من سبق الجهل، وحدوث العلم، والجهل والحدوث عليه محالان؛ لأن النظر الصحيح في هذا العالم دلنا على أن خالقه ومدبره متصف أزلًا وأبدًا بالعلم الواسع المطلق المحيط بكل ما كان وما سيكون وما هو كائن كما هدانا هذا النظر الصحيح إلى أنه تعالى لا يمكن أن يكون حادثا ولا محلا للحوادث، وإلا لكان ناقصًا يعجز عن أن يبدع هذا الكون ويدبره هذا التدبير المعجز ذلك إجمال لدليل العقل.

أما أدلة النقل: فنصوص فياضة ناطقة بأنه تعالى أحاط بكل شيء علما وأنه لا تخفى عليه خافية، قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (الحديد: ٢٢)، وقال تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ (الأنعام: ٥٩)، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ (الرعد: ٨-١٠)، إلى غير ذلك من مئات الآيات والأحاديث.

ولكن على رغم أنف هذه البراهين الساطعة من عقلية ونقلية ضل أقوام سفهوا أنفسهم فأغمضوا عيونهم عن النظر في الكون الناطق، وصموا آذانهم عن سماع كلام الله وكلام نبيه الصادق، وزعموا أن النسخ ضرب من البداء أو مستلزم للبداء، وهكذا اشتبهوا أو شبهوا على الناس الأمر لولا ظهور مصلحة لله ونشوء رأي جديد له ما نسخ أحكامه وبدل تعاليمه، ونسوا أو تناسوا أن الله تعالى حين نسخ بعض أحكامه ببعض ما

(١) إرشاد الفحول(١٨٥).

ظهر له أمر كان خافيًا عليه، وما نشأ له رأي جديد كان يفقده من قبل؛ إنما كان سبحانه يعلم الناسخ والمنسوخ أزلًا من قبل أن يشرعهما لعباده؛ بل من قبل أن يخلق الخلق ويبرأ السماء والأرض، إلا أنه جلت حكمته علم أن الحكم الأول المنسوخ منوط بحكمة أو مصلحة تنتهي في وقت معلوم، وعلم بجانب هذا أن الناسخ يجيء في هذا الميقات المعلوم منوطا بحكمة وبمصلحة أخرى، ولا ريب أن الحكم والمصالح تختلف باختلاف الناس وتتجدد بتجدد ظروفهم وأحوالهم، وأن الأحكام وحكمها والعباد ومصالحهم والنواسخ والمنسوخات كانت كلها معلومة لله من قبل، ظاهرة لديه لم يخف شيء منها عليه، والجديد في النسخ إنما هو إظهاره تعالى ما علم لعباده، لا ظهور ذلك له على حد التعبير المعروف: شؤون يبديها ولا يبتديها، وما كان ربك نسيًا.

اجتمعت اليهود والرافضة على هذه الضلالة، ضلالة استلزام النسخ للبداء؛ لكنهم افترقوا بعد ذلك إلى ناحيتين خطيرتين: فاليهود أنكروا النسخ وأسرفوا في الإنكار لاستلزامه في زعمهم البداء وهو محال، وسنناقشهم الحساب فيها بعد إن شاء الله. أما الرافضة فأثبتوا النسخ ثم أسرفوا في إثبات هذا البداء اللازم له في زعمهم ونسبوه إلى الله في صراحة ووقاحة سبحانه وتعالى عما يقولون علوًا كبيرًا[1].

قال الغزالي: - في معرض الرد على منكري النسخ وأنه يستلزم البداء:

وأما الجواب عن الخامس وهو لزوم البداء، فهو فاسد؛ لأنه إن كان المراد أنه يلزم من النسخ أن يحرم ما أباح، وينهى عما أمر فذلك جائز ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ ولا تناقض فيه، كما أباح الأكل بالليل وحرمه بالنهار، وإن كان المراد أنه انكشف له ما لم يكن عالما به فهو محال، ولا يلزم ذلك من النسخ؛ بل يعلم الله تعالى أنه يأمرهم بأمر مطلق، ويديم عليهم التكليف إلى وقت معلوم، ثم يقطع التكليف بنسخه عنهم، فينسخه في الوقت الذي علم نسخه فيه، وليس فيه تبين بعد جهل.

---

(١) مناهل العرفان(٢/ ١٥١: ١٥٢).

فإن قيل: فهم مأمورون في علمه إلى وقت النسخ أو أبدًا؟

فإن كان إلى وقت النسخ، فالنسخ قد بين وقت العبادة كما قاله الفقهاء، وإن كانوا مأمورين أبدا فقد تغير علمه ومعلومه.

قلنا: هم مأمورون في علمه إلى وقت النسخ، الذي هو قطع الحكم المطلق عنهم، الذي لولاه لدام الحكم، كما يعلم الله ـ تعالى ـ البيع المطلق مفيدا للملك، إلى أن يقطع بالفسخ، ولا يعلم البيع في نفسه قاصرا على مدة؛ بل يعلمه مقتضيا لملك مؤبد بشرط، أن لا يطرأ قاطع، لكن يعلم أن الفسخ سيكون، فينقطع الحكم لانقطاع شرطه، لا لقصوره في نفسه.

فليس إذًا في الفسخ لزوم البداء، ولأجل قصور فهم اليهود عن هذا أنكروا النسخ، ولأجل قصور فهم الروافض عنه ارتكبوا البداء، ونقلوا عن علي ﷺ أنه كان لا يخبر عن الغيب مخافة أن يبدو له تعالى فيه فيغيره، وحكوا عن جعفر بن محمد أنه قال: ما بدا لله في شيء كما بدا له في إسماعيل، أي: في أمره بذبحه.

وهذا هو الكفر الصريح ونسبة الإله ـ تعالى ـ إلى الجهل والتغير[1].

الوجه الثاني: الآية حجة عليهم، وأن التغير في المعلوم لا في العلم.

قال الزرقاني: قوله سبحانه: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، والجواب: أنه لا مستند لهم في الآية الكريمة؛ بل هي ترد عليهم كما ردت على أشباههم ممن عابوا النسخ على النبي ﷺ، ومعناها أن الله يغير ما شاء من شرائعه وخلقه على وفق علمه وإرادته وحكمته، وعلمه سبحانه لا يتغير ولا يتبدل إنما التغير في المعلوم لا في العلم بدليل قوله: ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي وعنده المرجع الثابت الذي لا محو فيه ولا إثبات، وإنما يقع المحو والإثبات على وفقه فيمحو سبحانه شريعةً ويثبت مكانها أخرى، ويمحو حكمًا ويثبت آخر، ويمحو مرضًا، ويثبت صحة، ويمحو فقرًا ويثبت غنىً،

---

(١) المستصفى (١/ ٢١٥).

ويمحو حياة ويثبت موتًا، وهكذا تعمل يد الله في خلقه وتشريعاته تغييرًا وتبديلًا، وهو الحق وحده لا يعروه تغيير ولا تبديل، ولا يتطرق إلى علمه محو ولا إثبات.

وخلاصة هذا التوجيه أن النسخ تبديل في المعلوم لا في العلم، وتغيير في المخلوق لا في الخالق، وكشف لنا وبيان عن بعض ما سبق به علم الله القديم المحيط بكل شيء، ولهذا ذهب كثير من علمائنا إلى تعريف النسخ بأنه بيان انتهاء الحكم الشرعي الذي تقرر في أوهامنا استمراره بطريق التراخي، ثم قالوا: توجيهًا لهذا الاختيار، إن هذا التعريف دفعًا ظاهرًا للبداء وتقريرًا لكون النسخ تبديلًا في حقنا بيانًا محضًا في حق صاحب الشرع[1].

الوجه الثالث: بيان معنى المحو والإثبات في قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ (الرعد: ٣٩).

والمحو والإثبات في الآية على قولين:

القول الأول: أن الآية عامة في كل شيء كما يقتضيه ظاهر السياق.

قال ابن عطية: وتخبط الناس في معنى هذه الألفاظ، والذي يتخلص به مشكلها: أن نعتقد أن الأشياء التي قدرها الله تعالى في الأزل، وعلمها بحال ما لا يصح فيها محو ولا تبديل، وهي التي ثبتت في ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ وسبق بها القضاء، وهذا مروي عن ابن عباس وغيره من أهل العلم، وأما الأشياء التي قد أخبر الله تعالى أنه يبدل فيها وينقل كعفو الذنوب بعد تقريرها، وكنسخ آية بعد تلاوتها واستقرار حكمها -ففيها يقع المحو والتثبيت فيما يقيده الحفظة ونحو ذلك، وأما إذا رد الأمر للقضاء والقدر فقد محا الله ما محا وثبت ما ثبت. وجاءت العبارة مستقلة بمجيء الحوادث، وهذه الأمور فيما يستأنف من الزمان فينتظر البشر ما يمحو أو ما يثبت وبحسب ذلك خوفهم ورجاؤهم ودعاؤهم[2].

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ١٥٣: ١٥٢).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٣١٧).

قال الشوكاني: وظاهر النظم القرآني العموم في كل شيء مما في الكتاب، فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر، أو خير أو شرّ، ويبدل هذا بهذا، ويجعل هذا مكان هذا ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأنبياء: ٢٣)[١].

القول الثاني: أن هذه الآية خاصة في بعض الأشياء دون البعض.

وعلى هذا التقرير ففي الآية وجوه:

أحدها: يمحو الله ما يشاء من أمور عباده فيغيره إلا الشقاء والسعادة فإنهما لا يغيران، قاله ابن عباس ومجاهد.

الثاني: يمحو الله ما يشاء ويثبت ما يشاء في كتابٍ سوى أُم الكتاب، وهما كتابان أحدهما: أم الكتاب لا يغيره ولا يمحو منه شيئًا كما أراد، قاله عكرمة.

الثالث: أن الله ﷻ ينسخ ما يشاء من أحكام كتابه، ويثبت ما يشاء منها فلا ينسخه أي الناسخ والمنسوخ، فيمحو المنسوخ، ويثبت الناسخ، قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد.

الرابع: أنه يمحو مَنْ قد جاء أجلُه ويثبت من لم يأت أجلُه، قاله الحسن.

الخامس: يغفر ما يشاء من ذنوب عباده، ويترك ما يشاء فلا يغفره، قاله سعيد بن جبير.

السادس: أنه الرجل يقدم الطاعة ثم يختمها بالمعصية فتمحو ما قد سلف، والرجل يقدم المعصية ثم يختمها بالطاعة فتمحو ما قد سلف، وهذا القول مأثور عن ابن عباس أيضًا.

السابع: أن الحفظة من الملائكة يرفعون جميع أقواله وأفعاله، فيمحو الله ﷻ، منها ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب، قاله الضحاك. وثم أقوال أخرى ذكرها أهل العلم.[٢]

والقول الأول هو الراجح.

فإن قال قائل: ألستم تزعمون أن المقادير سابقة قد جف بها القلم وليس الأمر بأنف،

---

(١) فتح القدير (٣/ ١٢٤)، تفسير الرازي(١٩/ ٦٤)، تفسير القرطبي (٩/ ٣٤٠)، تفسير ابن كثير (٨/ ١٦٥).

(٢) تفسير الطبري(١٣/ ١٧٠: ١٦٥)، النكت والعيون(٣/ ١١٨: ١١٧).

فكيف يستقيم مع هذا المعنى المحو والإثبات؟

قلنا: ذلك المحو والإثبات أيضًا مما جف به القلم فلا يمحو إلا ما سبق في علمه وقضائه محوه[1].

الوجه الرابع: هذه الآثار مكذوبة على أئمة آل البيت.

وندفع هذا بأنها مفتريات وأكاذيب كان أول من حاك شباكها الكذاب الثقفي (المختار بن أبي عبيد)[2] الذي كان ينتحل لنفسه العصمة وعلم الغيب، فإذا ما افتضح أمره وكذبته الأيام

(١) تفسير الرازي (١٩/ ٦٥)، فتح القدير (٣/ ١٢٥).

(٢) المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي، أبو إسحاق، كان من أهل الطائف، وانتقل مع أبيه إلى المدينة في زمن عمرﷺ، وفيها انقطع إلى بني هاشم، وتزوج عبد الله بن عمر أخته صفية، ثم كان مع علي بالعراق، وسكن البصرة بعده، ولما قُتل الحسين سنة ٦١هـ انحرف عن ابن زياد أمير البصرة حينذاك، فقُبض عليه هذا وجلده وحبسه، ثم نفاه بشفاعة ابن عمر إلى الطائف، ولما طالب عبد الله بن الزبير في المدينة بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية سنة٦٤هـ ذهب إليه المختار وعاهده، وشهد معه بداية حرب الحصين بن نمير، ثم استأذنه في التوجه إلى الكوفة ليدعو الناس إلى طاعته، فوثق به وأرسله ووصى عليه، غير أنه كان أكبر همه منذ دخل الكوفة أن يقتل من قاتلوا الحسين وقتلوه، فدعا إلى إمامة محمد بن الحنفية، ولكن هذا تبرأ منه، ومع ذلك بايعه زهاء سبعة عشر ألف رجل سرًا، وقد خرج بهم على والي الكوفة، فعظم شأنه بعد أن استولى عليها وعلى الموصل وتتبع قتلة الحسين، فقتل منهم شمر بن ذي الجوشن الذي باشر قتل الحسين، وخولي بن يزيد الذي سار برأسه إلى الكوفة، وعمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الجيش الذي حاربه، وأرسله إبراهيم بن الأشتر في عسكر كثيف إلى عبيد الله بن زياد الذي جهز الجيش لقتال الحسين فقتله، وقتل كثيرًا ممن كان لهم ضلع في تلك الجريمة، غير أنه انحرف بعد ذلك فادعى أنه يوحى إليه، وقال بجواز البداء على الله سبحانه، ثم كانت نهاية أمره أن قاتله مصعب بن الزبير أمير البصرة من قبل أخيه، حتى حصره في قصر الكوفة، وقتله ومن كان معه، بعد أن أقام نفسه أميرًا عليها ستة عشر شهرًا.

وواضح أن الكذاب الثقفي لم يفتر إلا على الإمام علي، من بين هؤلاء الأئمة الثلاثة، أما الإمام جعفر وابنه موسى فإن الذين افتروا عليهما هم أتباعه الذين عاصروهما، ذلك أن الإمام جعفرًا لم يولد إلا عام ٨٠ للهجرة، مع أن الكذاب توفي سنة٦٦هـ فكيف بموسى وهو ابن جعفر؟.

(أما إن) هذه الكلمات مفتراة، ومنسوبة زورًا إلى آل البيت فحسبنا في إثبات هذا أمر الله تعالى لنبيهﷺ بأن يقول: ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ (الأعراف: ١٨٨)، وهذه الآية

قال: إن الله وعدني ذلك غير أنه بدا له، فإذا أوجس في نفسه خيفة من أن يؤاخذه الناس وينتقموا منه على هذا الكفر الشنيع نسب تلك الكفريات إلى أعلام بيت النبوة وهم منها براء، وهكذا كان اللعين وأشياعه يحتجون بكفر على كفر، ويستدلون بكذب على كذب، ويعالجون داء بداء، ومن يضلل الله فما له من هاد نسأل الله السلامة بمنه وكرمه آمين[1].

الوجه الخامس: ماذا قال الكتاب المقدس عن الرب في وصفه بالبداء.

سفر القضاة (٢: ١٨)(وَحِينَمَا أَقَامَ الرَّبُّ لَهُمْ قُضَاةً، كَانَ الرَّبُّ مَعَ الْقَاضِي، وَخَلَّصَهُمْ مِنْ يَدِ أَعْدَائِهِمْ كُلَّ أَيَّامِ الْقَاضِي، لأَنَّ الرَّبَّ نَدِمَ مِنْ أَجْلِ أَنِينِهِمْ بِسَبَبِ مُضَايِقِيهِمْ وَزَاحِمِيهِمْ.)، سفر صموئيل الأول (١٥/ ٣٥) (وَلَمْ يَعُدْ صَمُوئِيلُ لِرُؤْيَةِ شَاوُلَ إِلَى يَوْمِ مَوْتِهِ، لأَنَّ صَمُوئِيلَ نَاحَ عَلَى شَاوُلَ. وَالرَّبُّ نَدِمَ لأَنَّهُ مَلَّكَ شَاوُلَ عَلَى إِسْرَائِيلَ.)، (سفر يونان ٣/ ١٠)(فَلَمَّا رَأَى الله أَعْمَالَهُمْ أَنَّهُمْ رَجَعُوا عَنْ طَرِيقِهِمِ الرَّدِيئَةِ، نَدِمَ الله عَلَى الشَّرِّ الَّذِي تَكَلَّمَ أَنْ يَصْنَعَهُ بِهِمْ، فَلَمْ يَصْنَعْهُ.)، (سفر التكوين ٦/ ٧: ٦) (فَحَزِنَ الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الإِنْسَانَ فِي الأَرْضِ، وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ. ٧ فَقَالَ الرَّبُّ: «أَمْحُو عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ الإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ، الإِنْسَانَ مَعَ بَهَائِمَ وَدَبَّابَاتٍ وَطُيُورِ السَّمَاءِ، لأَنِّي حَزِنْتُ أَنِّي عَمِلْتُهُمْ»)، (سفر صموئيل الأول ١٥/ ١١: ١٠) (وَكَانَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَى صَمُوئِيلَ قَائِلًا: ١١ «نَدِمْتُ عَلَى أَنِّي قَدْ جَعَلْتُ شَاوُلَ مَلِكًا، لأَنَّهُ رَجَعَ مِنْ وَرَائِي وَلَمْ يُقِمْ كَلاَمِي». فَاغْتَاظَ صَمُوئِيلُ وَصَرَخَ إِلَى الرَّبِّ اللَّيْلَ كُلَّهُ.)، فهذا عين البداء الذي ينسبونه إلى الرب.

الشبهة العاشرة: قالوا بأن النبي ﷺ هو الذي كان يدَّعِي النسخ. ويتشبثون بقول الله تعالى ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ (النحل ١٠١).

والجواب عليهم من هذه الوجوه:

الوجه الأول: بيان المعنى الصحيح للآية

مع الدليل العقلي كافيان شافيان. المنتظم(٦/ ٦٧)، الإصابة(٦/ ٣٥٢: ٣٤٩)، البداية والنهاية (٨/ ٢٧٨: ٢٧٥)، نقلًا من النسخ د/ مصطفى زيد.

(١) مناهل العرفان(٢/ ١٥٣).

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: وإذا نسخنا حكم آية، فأبدلنا مكانه حكم أخرى، والله أعلم بما ينزل: يقول: والله أعلم بالذي هو أصلح لخلقه فيما يبدِّل ويغير من أحكامه، قالوا: إنما أنت مفتر. يقول: قال المشركون بالله، المكذبوا رسوله لرسوله: إنما أنت يا محمد مفتر: أي مكذب تخرص بتقوّل الباطل على الله، يقول الله تعالى؛ بل أكثر هؤلاء القائلين لك يا محمد: إنما أنت مفتر جهال، بأنّ الذي تأتيهم به من عند الله ناسخه ومنسوخه، لا يعلمون حقيقة صحته(١).

قال الآلوسي: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ أي إذا نزلنا آية من القرآن مكان آية منه وجعلناها بدلًا منها بأن نسخناها بها، والظاهر على ما في البحر أن المراد نسخ اللفظ والمعنى، ويجوز أن يراد نسخ المعنى مع بقاء اللفظ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ من المصالح، فكل من الناسخ والمنسوخ منزل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة؛ فإن كل وقت له مقتضى غير الآخر، فكم من مصلحة تنقلب مفسدة في وقت آخر لانقلاب الأمور الداعية إليها، ونرى الطبيب الحاذق قد يأمر المريض بشربة ثم بعد ذلك ينهاه عنها ويأمره بضدها، وما الشرائع إلا مصالح للعباد وأدوية لأمراضهم المعنوية فتختلف حسب اختلاف ذلك في الأوقات وسبحان الحكيم العليم. والجملة إما معترضة لتوبيخ الكفرة والتنبيه على فساد رأيهم. وفي الالتفات إلى الغيبة مع الإسناد إلى الاسم الجليل ما لا يخفى من تربية المهابة وتحقيق معنى الاعتراض، أو حالية كما قال أبو البقاء وغيره، وقرأ ابن كثير. وأبو عمرو ﴿يُنْزِلُ﴾ من الإنزال ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي الكفرة الجاهلون بحكمة النسخ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ متقول على الله تعالى، تأمر بشيء ثم يبدو لك فتنهى عنه، وقد بالغوا -قاتلهم الله- تعالى في نسبة الافتراء إلى حضرة الصادق المصدوق ﷺ حيث وجهوا الخطاب إليه ﷺ، وجاءوا بالجملة الاسمية مع التأكيد بإنما، وحكاية هذا القول عنهم ههنا للإيذان

(١) تفسير الطبري (١٤/ ١٧٦).

بأنه فكرة ناشئة من نزغات الشيطان وأنه وليهم[1].

الوجه الثاني: تكملة الآية وما بعدها يرد عليهم.

حيث قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) ﴾، فهي لا تكاد تحكي قولتهم المتهورة في اتهام النبي ﷺ حتى تلحقها بما يثبت خطأها وبطلانها، وذلك قوله ﷻ فيه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وكأن هذين الأسلوبين في الرد عليهم لا يكفيان؛ فإن الآية التالية تأتي بالجواب القاطع قال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل: ١٠٢).

ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)﴾ (يونس: ١٥).

الوجه الثالث: سباق ولحاق الآية ينكر هذه الدعوى.

قال د/مصطفى زيد: ولا نمضي مع الردود الأخرى التي تضمنها سياق الآيات من بعد، فإن علينا قبل هذا أن نعود إلى السياق لنرى ماذا كان قبل الآية: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ (النحل٩٨: ١٠٠).

وكون المتحدث عنه في أولها هو القرآن، ووجوب الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند قراءته واضح وضوحًا شديدًا، فليس في حاجة إلى أن ننبه عليه، وإنما نرى أن ننبه على ما عالجته بعد ذلك، من نفي سلطان الشيطان على المؤمنين المتوكلين على ربهم، وهو نكرة وقع في سياق النفي فيعم، ومن حصر لهذا السلطان الذين يتخذونه وليًا، فيطيعونه

(١) تفسير الآلوسي(١٤/ ٢٣١).

ويشركون بالله، ذلك أن من مظاهر طاعتهم له ونتائجها هذا الاتهام لمحمد ﷺ بالافتراء، إذا نسخ الله ﷻ آية من كتابه بآية.

إنه واقع حدث منهم، نتيجة لسلطان الشيطان عليهم، وماذا عسى أن تكون وسوسة الشيطان إلا خطأً وباطلًا وجهلًا؟ غير أنهم بسبب تسلطه غافلون عن هذا كله، فسرعان ما يرمون بالافتراء أصدق الناس وأوثقهم وآمنهم.

ولكن هناك واقعًا آخر كله صدق وحق وحكمة، وهذا الواقع هو النسخ، فقد نسخ الله ﷻ من كتابه الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه آيات بآيات أخرى، وكان ذلك لحكمة اقتضته وإن جهلناها نحن أحيانًا غير أن الله ﷻ -وهو أعلم بما ينزل- يعلمها منذ الأزل، وقد جاء النسخ -حين جاء- تحقيقًا لهذه الحكمة، ولم يكن اعتراضًا عليها.

ونعود لمتابعة السياق مرة أخرى بعد آية التبديل والآية التالية لها- وفيها الرد الذي يجب أن يجابههم به الرسول- فنجد أن الله ﷻ يقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (النحل١٠٧ : ١٠٣).

وفي هذه الآية حكاية لدعواهم الباطلة: أن الذي يعلم رسول الله ﷺ إنما هم بشر، لكن بطلان هذه الدعوى وكذبها وخطأها -هو أيضًا- واضح شديد الوضوح، فإن الذي ينسبون إليه أنه هو الذي يُعلِّم النبي ﷺ أعجمي اللسان، والقرآن الذي يزعمون أنه من تعليم هذا الأعجمي عربي اللسان، بل هو عربي مبين: في بلاغة، وقوة، وإعجاز. فكيف يصدر مثله عن مثل ذلك الأعجمي؟.

وإنهم ليكذبون بما تدل عليه آيات الكتاب الحكيم: من حجج على وجود الله، وعلى علمه، وعلى قدرته، وعلى أنه المنزل لكتابه: الناسخ والمنسوخ منه وغيره، فكيف يهتدون؟ وكيف ينجون من العذاب الأليم؟ على أن الذي يكذب على الله ليس هو محمدًا وأصحابه الذين آمنوا به، وإنما يكذب ويفتري ويختلق على الله: من ينكر وحدانية الله ولا يؤمن بآياته، من يكفر بالله ولا يطمئن قلبه بالإيمان، من استحب الحياة الدنيا لزخرفها الباطل وغرورها وخداعها، فآثرها لهذا السبب على الآخرة.

فهم الذين افتروا ويفترون على الله إذن؛ بإنكارهم للنسخ، وبادعائهم أن محمدًا يفتري على ربه، وبزعمهم أنه إنما يعلمه بشر، أما محمد فلم يفتر على الله شيئًا، وما كان ليفتري وهو الصادق الأمين(١).

الشبهة الحادية عشرة: قالوا: إن النسخ يدل على وجود التحريف والتبديل في القرآن وأنه لم يحفظ؛ بل حصل فيه كثير من التغيير.

فقد ثبت أن كثيرًا من الآيات المنسوخة كانت تتلى بعد الرسول ﷺ، مثل حديث عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنْ الْقُرْآنِ عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنْ الْقُرْآنِ.

والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: النسخ موجود في الشرائع السابقة؛ فمن طعن في القرآن من هذا الباب فهو يطعن في جميع الشرائع المنزلة.

فقد نسخت التوراة إباحة تزوج الأخوة والأخوات كما كان في عهد آدم عليه السلام، ونصها في سفر اللاويين (١٨/ ١٤: ١٣) "عَوْرَةَ أُخْتِ أُمِّكَ لاَ تَكْشِفْ. إِنَّهَا قَرِيبَةُ أُمِّكَ. ١٤ عَوْرَةَ أَخِي أَبِيكَ لاَ تَكْشِفْ. إِلَى امْرَأَتِهِ لاَ تَقْتَرِبْ. إِنَّهَا عَمَّتُكَ. "، ونسخ إباحة الجمع بين الأختين كما كان ذلك في عهد يعقوب ﷺفإنه كان يجمع بين ليا وراحيل ابنتي خاله،

(١) النسخ في القرآن د/ مصطفى زيد(١/ ٢٤٥: ٢٤٨).

وقصته مذكورة في سفر التكوين الإصحاح التاسع والعشرين، ودليل النسخ ما جاء في سفر اللاويين (١٨/ ١٨)" وَلاَ تَأْخُذِ امْرَأَةً عَلَى أُخْتِهَا لِلضِّرِّ لِتَكْشِفَ عَوْرَتَهَا مَعَهَا فِي حَيَاتِهَا. "، ونسخت إباحة أكل جميع الحيوانات كما كان في عهد نوح ﷺففي سفر التكوين الإصحاح التاسع خطابًا لنوح وبنيه "كل دابة حية تكون لكم طعاما كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع "، ودليل النسخ ما جاء في سفر اللاويين، الإصحاح الحادي عشر من تحريم الجمل والأرنب والخنزير وغير ذلك، فهذا قليل من كثير مما نسخته التوراة من أحكام الشرائع السابقة.

وأما الإنجيل فقد نسخ إباحة الطلاق كما كان ذلك في الشريعة الموسوية بأي سبب كان زنا أو غيره، وإباحة تزوج المطلقة، ففي سفر التثنية (٢٤/ ٣: ١)" إِذَا أَخَذَ رَجُلٌ امْرَأَةً وَتَزَوَّجَ بِهَا، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ لأَنَّهُ وَجَدَ فِيهَا عَيْبَ شَيْءٍ، وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ طَلاَق وَدَفَعَهُ إِلَى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ، [٢] وَمَتَى خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهِ ذَهَبَتْ وَصَارَتْ لِرَجُل آخَرَ، "، فحرم الإنجيل الطلاق إلا بعلة الزنا، وحرم تزوج المطلقة، ونص متى في ذلك الإصحاح الخامس "وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب الطلاق، وأما أنا فأقول لكم: إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنا يجعلها تزني، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزني "، ونسخ حرمة أكل الحيوانات التي كانت محرمة في شريعة موسى، وتقدمت الإشارة إلى بعضها ... إلى آخر تلك النصوص.

الوجه الثاني: أن النسخ من محاسن القرآن لا من المطاعن فيه.

إن النسخ من محاسن القرآن لا من مساوئه كما تقدم في ذكر طرف من هذه الحكم، وأكثر ما يدندن عليه الطاعنون هو نسخ الحكم وبقاء التلاوة أو العكس، وهي قضية نسخ التلاوة وبقاء الحكم، فيقولون: ما فائدة بقاء الآية إذا ذهب حكمها ونسخ، وكيف يقال إن هذه الآية نسخت وحكمها باق؟ ولم يعلموا أن لهذا حكما كثيرة.

فمن حكم نسخ الحكم وبقاء التلاوة:

أ- التذكير بنعمة الله تعالى حيث إن غالب الآيات المنسوخة الحكم لا التلاوة فيها تخفيف على الأمة، مثل نسخ عدة المتوفاة من سنة إلى أربعة أشهر وعشرًا، وفي الصحيحين قَالَتْ زَيْنَبُ: سَمِعْتُ أُمَّ سَلَمَةَ تَقُولُ: جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى رَسولِ الله ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ ابْنَتِي تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا وَقَدْ اشْتَكَتْ عَيْنَهَا أَفَتَكْحُلُهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: لَا، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، كلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: لَا، ثمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: (إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ، وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَرْمِي بِالْبَعْرَةِ عَلَى رَأْسِ الْحَوْلِ) قَالَ حُمَيْدٌ: فَقُلْتُ لِزَيْنَبَ: وَمَا تَرْمِي بِالْبَعْرَةِ عَلَى رَأْسِ الْحَوْلِ؟ فَقَالَتْ زَيْنَبُ: كَانَتْ الْمَرْأَةُ إِذَا تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا دَخَلَتْ حِفْشًا وَلَبِسَتْ شَرَّ ثِيَابِهَا وَلَمْ تَمَسَّ طِيبًا حَتَّى تَمُرَّ بِهَا سَنَةٌ ثُمَّ تُؤْتَى بِدَابَّةٍ حِمَارٍ أَوْ شَاةٍ أَوْ طَائِرٍ فَتَفْتَضُّ بِهِ فَقَلَّمَا تَفْتَضُّ بِشَيْءٍ إِلَّا مَاتَ ثُمَّ تَخْرُجُ فَتُعْطَى بَعَرَةً فَتَرْمِي ثُمَّ تُرَاجِعُ بَعْدُ مَا شَاءَتْ مِنْ طِيبٍ أَوْ غَيْرِهِ، سُئِلَ مَالِكٌ مَا تَفْتَضُّ بِهِ قَالَ: تَمْسَحُ بِهِ جِلْدَهَا). [(١)]

ب- أن نسخ حكم الآية التكليفي لا يبطل كل الأحكام المتعلقة بالآية مثل الأجر لمن قرأها، فقارئها له ثواب التلاوة، وكذلك الاستفادة من الآية في الأحكام البلاغية والنحوية والتجويدية، ومن قيام معجزات بيانية أو علمية أو سياسية فيها.

٣- أن العقل لا يمنع أن يقول الملك لرعيته: افعلوا كذا، وهو يقصد أن يهيئهم لأمر آخر، فإذا تهيئوا قال: افعلوا كذا، وكما يقول الطبيب لمدمن التدخين مثلًا: قلل من شرب الدخان، فإذا تجاوز هذه المرحلة قال له: اقطع التدخين.

وأما نسخ التلاوة وبقاء الحكم فله حِكَم كثيرة منها:

١- الابتلاء؛ لمعرفة كمال اتباع الناس للنصوص، فالمؤمن كامل الإيمان يسلم، والمنافق يجادل، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَلَسَ عُمَرُ عَلَى الْمِنْبَرِ يوم الجمعة فَلَمَّا سَكَتَ الْمُؤَذِّنُونَ قَامَ فَأَثْنَى عَلَى الله بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي قَائِلٌ لَكُمْ مَقَالَةً قَدْ قُدِّرَ لِي أَنْ أَقُولَهَا لَا أَدْرِي لَعَلَّهَا بَيْنَ يَدَيْ أَجَلِي فَمَنْ عَقَلَهَا وَوَعَاهَا فَلْيُحَدِّثْ بِهَا حَيْثُ انْتَهَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، وَمَنْ خَشِيَ أَنْ لَا

---

(١) البخاري (٥٠٢٤)، مسلم (١٤٨٩).

يَعْقِلَهَا فَلَا أُحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَكْذِبَ عَلَيَّ؛ إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا (بِالْحَقِّ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ آيَةُ الرَّجْمِ فَقَرَأْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا رَجَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ وَاللهِ مَا نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ فِي كِتَابِ اللهِ فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللهُ وَالرَّجْمُ فِي كِتَابِ اللهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أُحْصِنَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِذَا قَامَتْ الْبَيِّنَةُ أَوْ كَانَ الْحَبَلُ أَوْ الِاعْتِرَافُ. . .)[١].

٢- بيان فضل هذه الأمة؛ إذ بلغ من كمال إتباعها أنها تتبع حتى ما نسخ لفظه ولا تجده في المصحف.

قال الزركشي: وهنا سؤال وهو أن يقال ما الحكمة في رفع التلاوة مع بقاء الحكم وهلا أبقيت التلاوة ليجتمع العمل بحكمها وثواب تلاوتها؟ وأجاب صاحب الفنون فقال: إنما كان كذلك ليظهر به مقدار طاعة هذه الأمة في المسارعة إلى بذل النفوس بطريق الظن من غير استفصال لطلب طريق مقطوع به فيسرعون بأيسر شئ كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بمنام، والمنام أدنى طرق الوحي). [٢]

٣-لنفرض جدلًا أن هذه الأحكام التي نسخ لفظها لا يجوز العمل بها؛ لأن ما نسخ لفظه فقد نسخ حكمه، فإن ثبوتها في السنة يكفي للعمل بها. [٣]

الوجه الثالث: كتابكم غير محفوظ.

والأدلة على ذلك كثيرة جدًا ومن أهم هذه الأدلة هي ضياع أسفار ليست موجودة في كتابكم.

فقد تكلم الرب عن أسفار نسخها بنفسه، أو فقدت أو حرفها الكتبة والكهنة منهم:

١-سفر حروب الرب وقد جاء ذكره في (العدد ٢١: ١٤).

٢- سفر ياشر وقد جاء ذكره في (يشوع ١٠: ١٣ وصموئيل الثاني ١: ١٧).

---

(١) البخاري (٦٤٤٢).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٧)، الإتقان للسيوطي (٣/ ٧٢).

(٣) دعاوي الطاعنين، د/ عبد المحسن بن زبن المطري (٢٧٢: ٢٧٩)، وانظر آراء المستشرقين حول القرآن، د/ عمر بن إبراهيم رضوان(٢/ ٦٣٢: ٦٢٨).

٣- سفر أمور سليمان جاء ذكره في (الملوك الأول١١ : ٤١).

٤-سفر مرثية إرميا على يوشيا ملك أورشليم (أخبار الأيام الثاني ٣٥: ٢٥)

٥- سفر أمور يوشيا (أخبار الأيام الثاني٣٥: ٢٥)

٦- سفر مراحم يوشيا (أخبار الأيام الثاني٣٥: ٢٥)

٧- سفر أخبار ناثان النبي (أخبار الأيام الثاني٩: ٢٩)

٨- سفر أخيا النبي الشيلوني(أخبار الأيام الثاني ٩: ٢٩)

٩- وسفر رؤيا يعدو الرائي وجاء ذكره في (أخبار الأيام الثاني ٩: ٢٩)

١٠- سفر أخبار جاد الرائي وقد جاء ذكره في(أخبار الأيام الأول ٢٩: ٢٩-٣١).

١١- سفر أخبار أيام ملوك يهوذا: ورد ذكره في (ملوك الثاني ٢٤/ ٥ و٢١: ٢٥).

١٢- سفر تاريخ إسرائيل ويهوذا: ورد ذكره في (أخبار الأيام الثاني ٢٧: ٧).

١٣- سفر تاريخ عدو الرائى: ذكر في (أخبار الأيام الثاني ١٢: (١٥و(١٣: ٢٢).

١٤- سفر تاريخ شمعيا النبي: ورد ذكره في (أخبار الأيام الثاني١٢/ ١٥).

١٥- سفر كتاب إشعياء النبي عن الملك عزّيا: ذكر في (أخبار الأيام الثاني ٢٦: ٢٢).

١٦-سفر تاريخ الملوك: ورد ذكره في (أخبار الأيام الثاني ٢٤/ ٢٧).

١٧- سفر أخبار الأنبياء: ورد ذكره في (أخبار الأيام الثاني ٣٣: ١٩).

١٨-سفر الرب: ورد ذكره في اشعياء (٣٤: ١٦).

١٩- سفر تاريخ ياهو بن حناني: ورد ذكره في (أخبار الأيام الثاني ٢٠: ٣٤).

٢٠-سفر تاريخ ملوك إسرائيل ويهوذا: ورد ذكره في (أخبار الأيام الثاني ٣٦: ٨).

٢١-سفر سنن الملك: ورد ذكره في (صموئيل الأول١٠: ٢٥).

٢٢- سفر أخبار أيام ملوك إسرائيل: ورد ذكره في (ملوك الأول ١٤/ ١٩ و١٦/ ٥) و(١٦/ ١٤).

٢٣-سفر شريعة الله (يشوع ٢٤: ٢٦).

٢٤-سفر توراة موسى (يشوع ٨: ٣١).

٢٥- سفر شريعة موسى (يشوع ٢٣: ٦).

٢٦- سفر أخبار الأيام: ورد ذكره في (نحميا ١٢: ٢٣).

٢٧- سفر يسوع (تسالونيكى الثانية) (١/ ٨).

٢٨- سفر أخبار صموئيل الرائي (أخبار الأيام الأول ٢٩: ٢٩).

٢٩- سفر حياة الخروف (رؤيا يوحنا اللاهوتي ١٣: ٨ و٢١: ٢٧).

٣٠- كتاب العهد لموسى عليه السلام (الخروج ٢٤: ٧).

٣١- رسالة بولس إلى أهل اللاذقية: ورد ذكرها ف. ي(كولسي ٤/ ١٦).

٣٢- رسالة بولس الأولى إلى أهل فيلبي: ورد ذكرها في (فيلبي ٣: ١). الموجودة في العهد الجديد. . (انظر العهد الجديد (بولس باسيم) هامش صفحة ٧٧١).

٣٣- رسالة بولس إلى أهل كورنثوس: ورد ذكرها في كورنثوس الثانية ٧: ٨).

٣٤- وتقول دائرة المعارف الكتابية (كلمة أبوكريفا): إن هناك رسالة مفقودة إلى الكورنثيين: ففي (كورنثوس الأولى ٥: ٩) يذكر الرسول رسالة إلى الكورنثيين يبدو أنها قد فقدت.

الشبهة الثانية عشر: قالوا: إن النسخ حيلة ابتدعها المسلمون للخروج من مأزق التناقض بين الآيات.

والجواب على هذه الشبهة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: النسخ كان في زمن النبي ﷺ وليس مبتدعًا بعده، وكان الصحابة رضي الله عنهم لا يأذنون لأحد بالفتوى حتى يتعلم الناسخ والمنسوخ.

عَنْ أَبِى عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِىِّ: أَنَّ عَلِيًّا رضي الله عنه أَتَى عَلَى قَاص فَقَالَ لَهُ: هَلْ تَعْلَمُ النَّاسِخَ مِنَ الْمَنْسُوخِ؟ قَالَ: لاَ. قَالَ: هَلَكْتَ وَأَهْلَكْتَ. [1]

(١) **صحيح.** أخرجه أبو جعفر النحاس في الناسخ والمنسوخ (٣)، وابن الجوزي في نواسخ القرآن (١٠٥)، والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقة (٢٣٩)، والبيهقي في السنن الكبرى(١٠/ ١١٧) من طريق شعبة، وأخرجه ابن أبي شيبة فى المصنف ٦/ ١٩٦، وأبو جعفر النحاس في الناسخ والمنسوخ (٢)، والحازمي في

الوجه الثاني: أن النسخ موجود في كل الشرائع كما تقدم.

الوجه الثالث: أن بعض الآيات تدل هي ذاتها على النسخ من غير تدخل من أحد، مثل قوله تعالى في آيات المصابرة ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا . . ﴾ (الأنفال: ٦٦).

الوجه الرابع: أن النسخ قد تم الإجماع على وقوعه والأمة لا تجتمع على ضلالة.

الوجه الخامس: أن الحكم على آية أو حديث بالنسخ له شروط شديدة لابد أن تتوفر حتى يحكم على هذا النص بالنسخ، فلا يمكن لأي أحد التلاعب في النصوص بحجة النسخ، فمن هذه الشروط:

١-أن يكون النسخ حكما شرعيًا.

٢-أن يكون الناسخ دليلا شرعيًا.

٣-أن يكون الناسخ متراخيًا عن المنسوخ.

٤-أن يكون بين النصين تعارض حقيقي، فلا يصار إلى النسخ مع إمكان الجمع بينهما.

٥-أن النسخ لا يكون في الأخبار كما تقدم.[1]

الشبهة الثالثة عشر: اعتراضهم على قوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ (البقرة/١٠٦)

فقالوا: بأن الكلام فيه مفاضلة، وهذه الخيرية تتعارض مع النسخ بالأثقل فكيف تكون الخيرية إذن.

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: المراد بالخيرية في الآية التخفيف أو المصلحة وليست في التلاوة.

قال الجصاص: فَحَصَلَ مِنْ اتِّفَاقِ الْجَمِيعِ أَنَّ الْمُرَادَ"خَيْرٌ لَكُمْ إمَّا فِي التَّخْفِيفِ أَوْ فِي الْمَصْلَحَةِ "وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ: خَيْرٌ مِنْهَا فِي التِّلَاوَةِ؛ إذْ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يُقَالَ: إنَّ بَعْضَ الْقُرْآنِ خَيْرٌ مِنْ بَعْضٍ فِي مَعْنَى التِّلَاوَةِ وَالنَّظْمِ؛ إذْ جَمِيعُهُ مُعْجِزٌ كَلَامُ اللهِ[1].

الاعتبار (٤٨)من طريق سفيان الثوري. كلاهما (شعبة وسفيان) عن أبي حصين عَنْ أَبِى عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِىِّ عن علي به وإسناده صحيح.

(١) دعاوي الطاعنين (٢٧٩: ٢٧٢)، آراء المستشرقين حول القرآن (٢/ ٦٣٢: ٦٢٨).

قال ابن أبي زمنين: هذه الآية الناسخة خير في زماننا هذا لأهلها، وتلك الأولى المنسوخة خير لأهلها في ذلك الزمان، وهي مثلها بعد في حقها وصدقها. (٢)

الوجه الثاني: الخيرية في كلام الله ثابتة فهذا كلامه سبحانه وهو الذي حكم بذلك.

قال ابن تيمية: وأيضًا فإن الناس متنازعون في صفاته: هل بعضها أفضل من بعض مع أنها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه؟ وهل بعض كلامه أفضل من بعض مع كمال الجميع؟.

والسلف والجمهور على أن بعض كلامه أفضل من بعض وبعض صفاته أفضل من بعض مع كونها كلها كاملة لا نقص فيها كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة كقوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ (البقرة: ١٠٦)، وكقوله ﷺ حاكيًا عن ربه: "إن رحمتي تغلب غضبي" وفي لفظ: "سبقت غضبي"(٣).

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ (الإخلاص: ١) تعدل ثلث القرآن(٤).

وقوله في فاتحة الكتاب: لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها، فنفى أن يكون لها مثل، وقوله عن آية الكرسي أنها أعظم آية في القرآن، وقوله ﷺ **"أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك"**(٥).

وقوله: **"يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه والقسط بيده الأخرى يخفض ويرفع"**(٦).

---

(١) أحكام القرآن (١/ ٥٩).

(٢) تفسير ابن أبي زمنين (١/ ١٦٨)، وانظر النكت والعيون (١/ ١٧١)، تفسير الرازي (٣/ ٢٣٢)، تفسير الخازن (١/ ٦٩)، تفسير ابن كثير (٢/ ١٢).

(٣) البخاري (٣١٩٤)، مسلم (٢٧٥١).

(٤) البخاري (٥٠١٣)، مسلم (٨١١).

(٥) مسلم (٤٨٦).

(٦) البخاري (٤٦٨٤).

فأخبر أن الفضل بيده اليمنى، والقسط بيده الأخرى مع أن كلا يديه يمين كما في الصحيح عن النبي ﷺ: "إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ الله عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ﷻ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا"[1].

فإذا كانت صفاته كلها كاملة لا نقص فيها، وبعضها أفضل من بعض لم يمتنع أنه هو العالي علوًا مطلقًا، وإن كان منه ما هو أعلى من غيره[2].

وقال أيضًا: والقول بأن كلام الله بعضه أفضل من بعض، هو القول المأثور عن السلف وهو الذي عليه أئمة الفقهاء من الطوائف الأربعة وغيرهم[3].

الوجه الثالث: الجمهور على وقوع البدل إلى أثقل.

قال ابن حزم: قال قوم من أصحابنا ومن غيرهم: لا يجوز نسخ الأخف بالأثقل. وقد أخطأ هؤلاء القائلون.

وجائز نسخ الأخف بالأثقل والأثقل بالأخف، والشيء بمثله، ويفعل الله ما يشاء ولا يسأل عما يفعل، وإن احتج محتج بقوله الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾، وبقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، وبقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾، فلا حجة لهم في شئ من ذلك.

أما قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، فنعم، دين الله كله يسر، والعسر والحرج هو ما لا يستطاع، أما ما استطيع فهو يسر، وأما قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ﴾ منه، ولا ثقيل البتة إلا وهو خفيف بالإضافة إلى ما هو أثقل منه هذا أمر يعلم حسًا ومشاهدةً، ولا يشك ذو عقل أن الصلوات الخمس المفروضة علينا أخف من خمسين صلاة، وأنها لو كانت صلاة واحدة

(١) مسلم (١٨٢٧).

(٢) درء التعارض (٣/ ٢٩٣).

(٣) مجموع الفتاوى(١٧/ ١٣)، وانظر مجموع الفتاوى(١٧/ ٩) وما بعدها.

كانت أخف علينا من الخمس، وقد خفف الله تعالى عن المسافر فجعلها ركعتين وعن الخائف فجعلها ركعة واحدة، ولو شاء ألا يكلفنا صلاة أصلًا لكان أخف بلا شك.

وقد نص الله تعالى في الصلاة على أنها كبيرة إلا على الخاشعين، ولا يشك ذو عقل وحس أن صيام شهر أخف من صيام عام، وأن صيام ساعة أخف من صيام يوم، فكل ما كلفنا الله تعالى فهو يسر وتخفيف بالإضافة إلى ما هو أشد مما حمله من كان قبلنا، كما قال الله تعالى آمرا لنا أن ندعوه فنقول: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾.

وكما نص تعالى أنه وضع بنبيه ﷺالإصر الذي كان عليهم، والأغلال التي كانوا يطوقونها، إذ يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: ١٥٧)، فهذا هو عين اليسر وعين التخفيف وإسقاط الحرج، وأين يقع ما كلفناه نحن مما كلفه بعض قوم موسى، من قتل أنفسهم بأيديهم، فكل شئ كلفناه يهون عند هذا، وكذلك ما في شرائع اليهود من أنه من خطر على ميت تنجس يوما إلى الليل، وسائر الثقائل التي كلفوا وحرم عليهم، وخفف عنا ذلك كله. ولله الحمد والمنة.

وأما قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾، فإنما معناه بخير منها لكم، وكلام الله لا يتفاضل في ذاته، فمعناه أكثر أجرًا.

ولو احتج بهذه الآية من يستجيز أن يقول: لا ننسخ الأخف إلا بالأثقل لكنا أقوى شغبًا ممن خالفه؛ لأنه لا خلاف أن الأثقل فاعله أعظم أجرًا، وقد قال ﷺ لعائشة في العمرة: هي على قدر نصبك ونفقتك، كانت الناسخة أعظم أجرًا، فلا يكون ذلك إلا لثقلها، فهذه الآية عليهم لا لهم فسقط احتجاجهم بكل ما شغبوا به.

ثم نقول: إن من قال: إن الله تعالى إنما يلزمنا أخف الأشياء: فإنه يلزمه إسقاط الشرائع كلها؛ لأنها كلها ثقال بالإضافة إلى ترك عملها، والاقتصار على عمل جزء من كل عمل منها، وهذا شئ يعلم بالحس والمشاهدة.

فصار قول من خالفنا مؤديًا إلى الخروج عن الإسلام جملة، ولا عمل في الدنيا إلا وفيه كلفة ومشقة. وقد قال الشاعر:

هل الولد المحبوب إلا تعلة وهل خلوة الحسناء إلا أذى البعل

وفي الأكل والشرب مشقة، فلو أن الإنسان يصل إلى ذوق الطعوم المستطابة والشبع، دون تكلف تناول ومضغ وبلع، لكان أخف عليه وأقل مشقة وأيسر غررا، فرب مختنق بأكله كان في ذلك حتفه، أو الإشراف على الحتف.

ورب متأذ بما يدخل من ذلك في جوفه، وبما يدخل بين أضراسه، ومغث لمعدته فيتقيأ فيألم لذلك، ومن ملوث لثوبه بما يسقط من يده ولو تتبعنا ما في اللذات من عسر ومشقة لطال ذلك جدا، فكيف بالأعمال المكلفة.

ولكن العسر والمشقة تتفاضل، فإنما رفع الله ﷻ عنا في بعض المواضع ما لا نطيق، وخفف تعالى في بعضها تخفيفا أكثر من تخفيف آخر.

وقد جاء في الأثر: "حُفت الجنة بالمكاره" فبطل بهذا الحديث نصًا قول من قال: إن الله تعالى لا ينسخ الأخف بالأثقل.

وصح أن الله تعالى يفعل ما يشاء فينسخ الأخف بالأثقل، والأثقل بالأخف، والشيء بمثله، والشيء بإسقاطه جملة، ويزيدنا شريعة من غير أن يخفف عنا أخرى لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل.

فإن اعترضوا بقوله تعالى: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾، فهذه حجة عليهم بينة لا محيد عنها؛ لأن التخفيف لا يكون إلا بعد تثقيل، فإذا ثقل علينا تعالى أولا فما الذي يمنع من أن يثقل علينا آخرا إن شاء.

وقد كنا برهة خالين من ذلك التثقيل الأول ثم ثقلنا به، فما المانع من أن يعود علينا ثانية كما كان أولا وأن نزاد تثقيلا آخر أشد منه، ويكفي من هذا كله وجودنا ما لا سبيل لهم إلى دفع نسخه تعالى أشياء خفافا بأشياء ثقال.

فمن ذلك نسخه تعالى صيام يوم عاشوراء بصيام شهر رمضان، ونسخ إباحةالإفطار في رمضان، وإطعام مساكين - بدل ما يفطر من أيامه - بوجوب صيامه فرضًا على كل حاضر صحيح بالغ عاقل عالم بالشهر، ولزوم الصيام فيه، ونسخ سقوط الغسل عن المولج العامد الذاكر لطهارته بإيجاب الغسل عليه، ونسخ تعالى إباحة الكلام للمصلي بعد أن كان حلالا بتحريمه، وقد كان الكلام فيها فيما ناب الإنسان أخف بلا شك، ونسخ تعالى سقوط فرض الجهاد وبيعة المسلمين لرسول الله ﷺ على بيعة النساء بإيجاب القتال، وحرم الخمر بعد إحلالها وقال تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾، فصح أنه تعالى حرم عليهم أشياء كانت لهم حلالًا وقد كان المنسوخ من كل ما ذكرنا أخف من الناسخ بالحس والمشاهدة.

وقد بين الله تعالى ذلك بإخباره أن في الخمر والميسر منافع للناس، فأبطل تعالى علينا تلك المنافع ولا يشك ذو عقل أن عدم المنفعة أثقل من وجودها، ونسخ تعالى الأذى والحبس عن الزواني والزناة والرجم والتغريب، ولا شك عند من له عقل أن الحجارة والسياط أثقل من السب والسجن[1].

الشبهة الرابعة عشر: قالوا بأن النسخ يتعارض مع قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩] لأن الآية هنا تثبت الحفظ، وفي آية النسخ تثبت النسيان حيث يقول الله تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾.

والجواب على هذه الشبة من هذه الوجوه:

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام (١/ ٤٩٧: ٤٩٣)، وانظر: الفقيه والمتفقه (١/ ٢٥٠)، روضة الناظر (١/ ٢٥١)، الإحكام للآمدي (٣/ ١٢٥)، تفسير القرطبي (٢/ ٥٩).

الوجه الأول: القرآن محفوظ بحفظ الله تعالى فالله له الحكمة البالغة

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)﴾ (النحل١٠١: ١٠٢).

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: وإذا نسخنا حكم آية، فأبدلنا مكانه حكم أخرى، والله أعلم بما ينزل: يقول: والله أعلم بالذي هو أصلح لخلقه فيما يبدِّل ويغير من أحكامه، قالوا: إنما أنت مفتر يقول: قال المشركون بالله، المكذبو رسوله لرسوله: إنما أنت يا محمد مفتر: أي مكذب تخرص بتقوّل الباطل على الله، يقول الله تعالى بل أكثر هؤلاء القائلين لك يا محمد: إنما أنت مفتر جهال، بأنّ الذي تأتيهم به من عند الله ناسخه ومنسوخه، لا يعلمون حقيقة صحته.[1]

ولذا قال الله تعالى عقب هذه الآية (آية سورة البقرة): ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)﴾ (البقرة ١٠٧: ١٠٦).

قال ابن كثير: يرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتصرف، فكما خلقهم كما يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، ويصح من يشاء، ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى. . فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا. وامتثال ما أمروا. وترك ما عنه زجروا. وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم –

(١) تفسير الطبري (١٤/ ١٧٦).

لعنهم الله - في دعوى استحالة النسخ إما عقلا كما زعمه بعضهم جهلا وكفرا، وإما نقلا كما تخرصه آخرون منهم افتراءً وإفكًا.

قال الطبري: فتأويل الآية: ألم تعلم يا محمد أن لي ملك السماوات والأرض وسلطانهما دون غيري، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عما أشاء، وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامي التي أحكم بها في عبادي ما أشاء إذا أشاء، وأقر فيهما ما أشاء.

ثم قال: وهذا الخبر وإن كان من الله تعالى خطابا لنبيه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه تكذيب لليهود الذين أنكروا نَسْخَ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد، عليهما الصلاة والسلام، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغير ما غير الله من حكم التوراة. فأخبرهم الله أن له ملك السماوات والأرض وسلطانهما، وأن الخلق أهل مملكته وطاعته وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء، ونهيهم عما يشاء، ونسخ ما يشاء، وإقرار ما يشاء، وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه.

وأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، ثم نسخه قبل الفعل، وأمر جمهور بني إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم، ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم القتل.

قلت: الذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النسخ، إنما هو الكفر والعناد، فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله تعالى؛ لأنه يحكم ما يشاء كما أنه يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرم ذلك، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نُسخ حِلُّ بعضها، وكان نكاح الأختين مباح لإسرائيل وبنيه، وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها. وأشياء كثيرة يطول ذكرها، وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنه. وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية، فلا تصرف الدلالة في المعنى، إذ هو المقصود، وكما في كتبهم مشهورا من البشارة بمحمد ﷺ والأمر بإتباعه، فإنه يفيد وجوب متابعته، عليه الصلاة والسلام، وأنه لا يقبل عمل إلا على شريعته. وسواء قيل إن الشرائع المتقدمة مُغَيَّاة إلى

بعثته ﷺ فلا يسمى ذلك نسخًا كقوله: ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ (البقرة: ١٨٧)، وقيل: إنها مطلقة، وإن شريعة محمد ﷺ نسختها، فعلى كل تقدير فوجوب اتباعه معين؛ لأنه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهدا بالله تبارك وتعالى.

ففي هذا المقام بين تعالى جواز النسخ، ردا على اليهود، عليهم لعائن الله، حيث قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ الآية، فكما أن له الملك بلا منازع، فكذلك له الحكم بما يشاء، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ (الأعراف: ٥٤)[١].

الوجه الثاني: بيان معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا ﴾.

الآية فيها قراءتان:

أولًا: قراءة (ننسأها)وعلى هذا تكون بمعنى التأخير، فقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو (ننسأها)[٢]، وَ" نَنْسَأَهَا " مِنَ التَّأْخِيرِ، يُقَالُ: نَسَأَت الشَّيْءَ: أَخَّرْته، وَالنَّسِيئَةُ: الدَّيْنُ الْمُتَأَخِّرُ. وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ يَعْنِي تَأْخِيرَ الشُّهُور، وَأَمَّا مَعْنَى قِرَاءَةِ "أَوْ نَنْسَأْهَا" فَإِنَّمَا هُوَ بِأَنْ يُؤَخِّرَهَا فَلَا يُنَزِّلُهَا وَيُنَزِّلُ بَدَلًا مِنْهَا مَا يَقُومُ مَقَامَهَا فِي الْمَصْلَحَةِ أَوْ يَكُونُ أَصْلَحَ لِلْعِبَادِ مِنْهَا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُؤَخِّرَ إِنْزَالَهَا إِلَى وَقْتٍ يَأْتِي فَيَأْتِي بَدَلًا مِنْهَا لَوْ أَنْزَلَهَا فِي الْوَقْتِ الْمُتَقَدِّمِ فَيَقُومَ مَقَامَهَا فِي الْمُصْلِحَةِ[٣].

قال مكي بن أبي طالب: "جعلاه - أبو عمرو وابن كثير - من التأخير على معنى: أو نؤخر نسخ لفظها نأت بخير منها، فهو من: نسأ الله في أجلك، أي أخر فيه. وتأخر النسخ

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٢: ١٤)، تفسير الطبري (١/ ٤٨١)، الكشاف (١/ ١٧٦).

(٢) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه (٣٦)، الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها لأبي محمد مكي بن أبي طالب (١/ ٢٥٨)التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو(٦٤) الموضح في وجوه القراءات لابن أبي مريم (١/ ٢٩٦)، النشر في القراءات العشر لابن الجزري (٢/ ٢٢٠).

(٣) أحكام القرآن للجصاص (١/ ٥٩)، تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (١/ ١٦٨) النكت والعيون (١/ ١٧١)، تفسير البغوي (١/ ١٠٤)، تفسير الرازي(٣/ ٢٢٦).

على وجهين: أحدهما: أن يؤخر التنزيل للآية فلا ينزل من اللوح المحفوظ، والثاني: أن ينزل القرآن فيتلى، ويعمل به. ثم يؤخر فينسخ العمل به دون اللفظ أو ينسخ العمل به واللفظ، أو ينسخ اللفظ ويبقى العمل.[1]

ثانيًا: قراءة (ننسها)

وهي قراءة الجمهور وتحمل معنيين:

الأول: الترك.

(أو ننسها) من النسيان الذي هو بمعنى الترك، فيكون المعنى: ما ننسخ من آية أو نتركها بلا نسخ نأت بخير منها أو مثلها، وقدر بعض العلماء هنا مقدر وهو (حكم)، فالمعنى ما ننسخ من حكم آية أو نترك حكمها نأت بخير منها أو مثلها.

ويرد على هذا إيراد وهو: كيف تكون الآية باقية(أي متروكة لم تُنسخ)، ويُقال نأت بخير منها أو مثلها؟ وللإجابة على ذلك وجوه:

أولها: أن المراد بننسها نثبت لفظها ونترك حكمها.

ثانيها: أن المراد بالآية: الآية من آيات التوراة، فالمعنى ما ننسخ من آية من آيات التوراة نأت بآية في القرآن مثلها أو خير منها، لكن هذا القول لم يقل به هنا إلا قلة قليلة من أهل العلم (أعني القول بأن المراد بالآية آية التوراة).

القول الثاني:

أن المراد بقوله تعالى (ننسها) أي: نرفع لفظها فلا يستقر منها في القلوب والأذهان شيء، (وهو من النسيان المعهود لدى الناس)، ومثال ذلك ما صح عن أنس بن مالك من وجوه أن الذين قُتلوا ببئر معونة أنزل الله فيهم قرآنًا يتلى (أن بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا) ثم نُسخ ذلك بعد.

ومثال ذلك أيضًا في صحيح مسلم من حديث أبي الأسود: بَعَثَ أَبو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ إِلَى قُرَّاءِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فَدَخَلَ عَلَيْهِ ثَلاثُمِائَةِ رَجُلٍ قَدْ قَرَءُوا الْقُرْآنَ فَقَالَ: أَنْتُمْ خِيَارُ أَهْلِ

---

(١) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها (١/ ٢٥٨).

الْبَصْرَةِ وَقُرَّاؤُهُمْ فَاتْلُوهُ، وَلاَ يَطُولَنَّ عَلَيْكُمُ الأَمَدُ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ كَمَا قَسَتْ قُلُوبُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَإِنَّا كُنَّا نَقْرَأُ سُورَةً كُنَّا نُشَبِّهُهَا فِي الطُّولِ وَالشِّدَّةِ بِبَرَاءَةَ فَأُنْسِيتُهَا غَيْرَ أَنِّي قَدْ حَفِظْتُ مِنْهَا لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لاَبْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ. وَكُنَّا نَقْرَأُ سُورَةً كُنَّا نُشَبِّهُهَا بِإِحْدَى الْمُسَبِّحَاتِ فَأُنْسِيتُهَا غَيْرَ أَنِّي حَفِظْتُ مِنْهَا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ (الصف: ٢)، فَتُكْتَبُ شَهَادَةً فِي أَعْنَاقِكُمْ فَتُسْأَلُونَ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.[(١)]

قال ابن عطية: وهذه القراءات لا تخلو كل واحدة منها أن تكون من النسء أو الإنساء بمعنى التأخير، أو تكون من النسيان. والنسيان في كلام العرب يجيء في الأغلب ضد الذكر، وقد يجيء بمعنى الترك، فالمعاني الثلاثة مقولة في هذه القراءات، فما كان منها يترتب في لفظة النسيان الذي هو ضد الذكر.

فمعنى الآية: ما ننسخ من آية أو نقدر نسيانك لها فتنساها حتى ترتفع جملة وتذهب فإنا نأتي بما هو خير منها لكم أو مثله في المنفعة، وما كان من هذه القراءات يحمل على معنى الترك فإن الآية معه تترتب فيها أربعة معان:

أحدها: ما ننسخ على وجوه النسخ أو نترك غير منزل عليك فإنا لا بد أن ننزل رفقًا بكم خيرًا من ذلك أو مثله حتى لا ينقص الدين عن حد كماله.

والمعنى الثاني: أو نترك تلاوته وإن رفعنا حكمه فيجيء النسخ على هذا رفع التلاوة والحكم.

والمعنى الثالث: أو نترك حكمه وإن رفعنا تلاوته فالنسخ أيضًا، على هذا رفع التلاوة والحكم.

والمعنى الرابع: أو نتركها غير منسوخة الحكم ولا التلاوة، فالنسخ على هذا المعنى هو على جميع وجوهه، ويجيء الضميران في ﴿مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾ عائدين على المنسوخة فقط، وكان الكلام إن نسخنا أو أبقينا فإنا نأتي بخير من المنسوخة أو مثلها.

---

(١) التسهيل لتأويل التنزيل تفسير سورة البقرة (٢/ ١٨٦)، تفسير الطبري(١/ ٤٧٩)، الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها(١/ ٢٥٨)، النكت والعيون (١/ ١٧١).

وما كان من هذه القراءات يحمل على معنى التأخير؛ فإن الآية معه تترتب فيها المعاني الأربعة التي في الترك، أولها ما ننسخ أو نؤخر إنزاله، والثاني ما ننسخ النسخ الأكمل أو نؤخر حكمه وإن أبقينا تلاوته، والثالث: ما ننسخ النسخ الأكمل أو نؤخر تلاوته وإن أبقينا حكمه، والرابع: ما ننسخ أو نؤخره مثبتًا لا ننسخه، ويعود الضميران كما ذكرنا في الترك، وبعض هذه المعاني أقوى من بعض، لكن ذكرنا جميعها؛ لأنها تحتمل، وقد قال « جميعها » العلماء إما نصًا وإما إشارة فكملناها.

وقال الزجاج: إن القراءة «أو نُنْسِها» بضم النون وسكون الثانية وكسر السين لا يتوجه فيها معنى الترك؛ لأنه لا يقال أنسأ بمعنى ترك، وقال أبو علي وغيره: ذلك متجه؛ لأنه بمعنى نجعلك تتركها، وكذلك ضعف الزجاج أن تحمل الآية على النسيان الذي هو ضد الذكر، وقال: إن هذا لم يكن للنبي ﷺ ولا نسي قرآنًا، وقال أبو علي وغيره: ذلك جائز وقد وقع ولا فرق بين أن ترفع الآية بنسخ أو بتنسئة، واحتج الزجاج بقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ (الإسراء: ٨٦) أي لم نفعل، قال أبو علي معناه لم نذهب بالجميع.

قال ابن عطية: على معنى إزالة النعمة كما توعد، وقد حكى الطبري القول عن أقدم من الزجاج، ورد عليه، والصحيح في هذا أن نسيان النبي ﷺ لما أراد الله، تعالى أن ينساه ولم يرد أن يثبت قرآنًا جائز.

فأما النسيان الذي هو آفة في البشر فالنبي ﷺ معصوم منه قبل التبليغ وبعد التبليغ ما لم يحفظه أحد من أصحابه، وأما بعد أن يحفظ فجائز عليه ما يجوز على البشر؛ لأنه قد بلغ وأدى الأمانة، ومنه الحديث حين أسقط آية، فلما فرغ من الصلاة قال: أفي القوم أبيّ؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: فلم لم تذكرني؟ قال: حسبت أنها رفعت، فقال النبي ﷺ: لم ترفع ولكني نسيتها[1].

(١) المحرر الوجيز (١/ ١٩٤: ١٩٣).

وعلى قول الجمهور بأن المراد بقوله (نُنْسِهَا)النسيان الذي هو ضد الذكر، فالذي نسيه النبي ﷺ إنما هو بقدر الله ﷻقال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الأعلى ٦ : ٧).

قال الطبري: بل إنما ذهب بها لا حاجة بهم إليه منه، وذلك أن ما نسخ منه فلا حاجة بالعباد إليه، وقد قال الله تعالى ذكره: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الأعلى٦: ٧)، فأخبر أنه ينسي نبيه منه ما شاء. فالذي ذهب منه الذي استثناه الله(1).

الشبهة الخامسة عشر: يقولون بأن النسخ يوجد في القرآن بكثرة وهذا يدل على عدم الحفظ.

والجواب عليه من هذه الوجوه:

الوجه الأول: عند التحقيق النسخ قليل جدًا في القرآن.

قال السيوطي: الضرب الثاني: ما نسخ حكمه دون تلاوته، وهذا الضرب هو الذي فيه الكتب المؤلفة، وهو على الحقيقة قليل جدًا، وإن أكثر الناس من تعديد الآيات فيه فإن المحققين منهم كالقاضي أبي بكر بن العربي بين ذلك وأتقنه.

والذي أقوله: إن الذي أورده المكثرون أقسام: قسم ليس من النسخ في شيء ولا من التخصيص ولا له علاقة بهما بوجه من الوجوه، وذلك مثل قوله تعالى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾، ونحو ذلك، قالوا: إنه منسوخ بآية الزكاة، وليس كذلك هو باق، أما الأولى فإنها خبر في معرض الثناء عليهم بالإنفاق، وذلك يصلح أن يفسر بالزكاة على الأهل وبالإنفاق في الأمور المندوبة كالإعانة والإضافة، وليس في الآية ما يدل على أنها نفقة واجبة غير الزكاة، والآية الثانية يصلح حملها على الزكاة وقد فسرت بذلك.

وكذا قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ (التين: ٨)، قيل: إنها مما نسخ بآية السيف، وليس كذلك؛ لأنه تعالى أحكم الحاكمين أبدًا، لا يقبل هذا الكلام النسخ وإن

---

(١) جامع البيان (١/ ٤٧٩)، ويراجع في ذلك بحث حول نسيان النبي ﷺ في هذه الموسوعة.

كان معناه الأمر بالتفويض وترك المعاقبة، وقوله في البقرة: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٣)، عده بعضه من المنسوخ بآية السيف، وقد غلطه ابن الحصار بأن الآية حكاية عما أخذه على بني إسرائيل من الميثاق فهو خبر فلا نسخ فيه وقس على ذلك.

وقسم هو من قسم المخصوص لا من قسم المنسوخ. وقد اعتنى ابن العربي بتحريره فأجاد كقوله ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ.﴾ (العصر ٣: ٢) ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (الشعراء ٢٢٤، ٢٢٧)، ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ (البقرة: ١٠٩)، وغير ذلك من الآيات التي خصت باستثناء أو غاية. وقد أخطأ من أدخلها في المنسوخ، ومنه قوله ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ (البقرة: ٢٢١) قيل إنه نسخ، بقوله ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (المائدة: ٥)، وإنما هو مخصوص به. وقسم رفع ما كان عليه الأمر في الجاهلية أوفي شرائع من قبلنا أوفي أول الإسلام ولم ينزل في القرآن، كإبطال نكاح نساء الآباء، ومشروعية القصاص والدية، وحصر الطلاق في الثلاث، وهذا إدخاله في قسم الناسخ قريب، ولكن عدم إدخاله أقرب، وهو الذي رجحه مكي وغيره، ووجهوه بأن ذلك لو عُدَّ في الناسخ لعُدَّ جميع القرآن منه إذ كله أو أكثره رافع لما كان عليه الكفار وأهل الكتاب.

قالوا: وإنما حق الناسخ والمنسوخ أن تكون آية نسخت آية ا هـ.

نعم النوع الآخر منه وهو رافع ما كان في أول الإسلام إدخاله أوجه من القسمين قبله، إذا علمت ذلك فقد خرج من الآيات التي أوردها المكثرون الجم الغفير مع آيات الصفح والعفو إن قلنا إن آية السيف لم تنسخها، وبقي مما يصلح لذلك عدد يسير.

فقد لخص رحمه الله جملة هذه الآيات المنسوخة في هذه الأبيات فقال:

قد أكثر الناس في المنسوخ من عدد — وأدخلوا فيه آيا ليس تنحصر
وهاك تحرير آي لا مزيد لها — عشرين حررها الحذاق والكبر
آي التوجه حيث المرء كان وأن — يوصي لأهليه عند الموت محتضر
وحرمة الأكل بعد النوم من رفث — وفدية لمطيق الصوم مشتهر
وحق تقواه فيما صح من أثر — وفي الحرام قتال للألي كفروا
والاعتداد بحول مع وصيتها — وأن يدان حديث النفس والفكر
والحلف والحبس للزاني وترك أولى — كفروا شهادتهم والصبر والنفر
ومنع عقد لزان أو لزانية — وما على المصطفى في العقد محتظر
ودفع مهر لمن جاءت وآية نجـ — ـواه كذاك قيام الليل مستطر
وزيد آية الاستئذان من ملكت — وآية القسمة الفضلى لمن حضروا(١)

الوجه الثاني: موقف العلماء من النسخ.

قال الزرقاني: العلماء في موقفهم من الناسخ والمنسوخ يختلفون بين مقصر ومقتصد وغال، فالمقصرون هم الذين حاولوا التخلص من النسخ إطلاقا سالكين به مسلك التأويل بالتخصيص ونحوه.

والمقتصدون هم الذين يقولون بالنسخ في حدوده المعقولة فلم ينفوه إطلاقًا ولم يتوسعوا فيه جزافًا كالغالين، بل يقفون به موقف الضرورة التي يقتضيها وجود التعارض الحقيقي بين الأدلة مع معرفة المتقدم منها والمتأخر، والغالون هم الذين تزيدوا فأدخلوا في النسخ ما ليس منه بناء على شبه ساقطة، ومن هؤلاء أبو جعفر النحاس في كتابه الناسخ والمنسوخ، وهبة الله بن سلامة، وأبو عبد الله محمد بن حزم وغيرهم فإنهم ألفوا كتبا في النسخ أكثروا فيها من ذكر الناسخ والمنسوخ اشتباها منهم وغلطا. ومنشأ تزيدهم هذا أنهم انخدعوا بكل ما نقل عن السلف أنه منسوخ، وفاتهم أن السلف لم يكونوا يقصدون

---

(١) الإتقان في علوم القرآن(٣/ ٦٣: ٦٨).

بالنسخ هذا المعنى الاصطلاحي؛ بل كانوا يقصدون به ما هو أعم منه مما يشمل بيان المجمل وتقييد المطلق ونحوها.[١]

قال د/مصطفى زيد: لم يُهلنا الأمر عندما وجدنا أن قضايا النسخ كما تجمعت لدينا قد أربى عددها على مائتين وتسعين قضية، فنحن نعلم أن من بين هذه القضايا دعاوى نسخ في آيات إخبارية لا تشريع فيها على الإطلاق، ودعاوى أخرى في أحكام لم يشرع الإسلام غيرها في موضوعها، ودعاوى في آيات ليس فيها إلا تخصيص العام أو تقييد المطلق، أو بيان المبهم، أو تفصيل المجمل، ودعاوى لم تقم أصلًا إلا على سوء الفهم للنص القرآني المنسوخ أو الناسخ أو كليهما بسبب تجاهل سبب النزول أو دلالة السياق، أو بسبب القصور عن إدراك الأسلوب القرآني وإعجازه البليغ، أو بسبب آخر غير هذا وذاك.

ومن هنا أيضًا لم يدهشنا أن ينزل السيوطي في الإتقان بهذا العدد الكبير إلى أقل من عُشره، حين قرر أن عدد الآيات المنسوخة في القرآن لا يتجاوز عشرين آية، فقد تكشف مناقشتنا لدعاوى النسخ في هذه الآيات عن رفض بعض هذه الدعاوى، وتنزل بهذا العدد الذي حدده السيوطي إلى ما دون نصفه: ربعه أو نحوه.[٢]

ثم قال: وينبغي أن يكون معلومًا أن العدد الذي عرضه كل مصنف في كتابه ليس تحديدًا دقيقًا لعدد وقائع النسخ عنده، فهو لا يعدو في جملته أن يكون قضايا كما عبرنا، ومن بين هذه القضايا كثير حكوا في نسخه خلافًا، ومن بين هذه القضايا التي اختلفوا في نسخها قليل انتهوا من مناقشة دعوى النسخ فيه إلى إثبات أنه محكم، ومن بينها كذلك قضايا أثبتت مناقشتها أنها ناسخة وليست منسوخة، حتى عندهم.[٣]

وقال أيضًا: فهاهنا تنتهي مناقشتنا للآيات التي ادعى عليها النسخ وليست منسوخة عرضنا منها حسبما مرتبًا:

---

(١) مناهل العرفان ٢/ ٢١٠.

(٢) النسخ في القرآن (١/ ٤٢٢).

(٣) المصدر السابق (١/ ٤٣٠).

خمسًا وسبعين آية بطلت دعوى النسخ عليها؛ لأنها أخبار.

وثماني وعشرين آية بطلت دعوى النسخ عليها؛ لأنها للوعيد.

وثلاثًا وستين ادعى عليها النسخ خطأ بآية السيف، مع أنها جميعًا محكمة.

وثماني وأربعين ادعى عليها النسخ مع أن علاقة نواسخها بها إنما هي التخصيص بأنواعه، أو التقييد أو التفسير أو التفصيل.

وثلاثًا وستين لم تصح دعوى النسخ عليها لعدم التعارض بينها وبين نواسخها.

وستًا لم تصح دعوى النسخ عليها مع أن المؤلفين في الناسخ والمنسوخ يجمعون عليها، والأصوليون يمثلون ببعضها على أن النسخ فيها مسلم.

ولقد أحسسنا ونحن نعالج كل مجموعة من هذه المجموعات أن بعضها يتداخل في بعضها الآخر، فليس كل منها تقسيمًا لغيره بالمعنى الدقيق المفهوم للتقسيم، لكنا كنا نشعر منذ بدأنا نعالج أن هذا التداخل واقع لا مفر منه، وأنه لا مانع على الإطلاق من أن تبطل دعوى النسخ على آية؛ لأنها خبر، ولأنه لا تعارض بينها وبين الآية الناسخة لها على زعمهم، ولأنها لا تعدو أن تكون من الأولى بمنزلة الخاص من العام، أو المقيد من المطلق، أو المفسر من المبهم، أو المفصل من المجمل، وأنها مع هذا سيقت لتدل على الوعيد، ثم ادعى عليها النسخ بعد هذا كله بآية السيف.[1]

وأخيرًا: فقد عرض في فصل وحيد وقائع النسخ التي صحت، بعد ترتيبها ترتيبًا موضوعيًا فقهيًا، وهي خمس وقائع في ست آيات:

واقعة وجوب التهجد في نسخه، في سورة المزمل.

وواقعة فرض الصدقة بين يدي نجوى الرسول ثم رفعه، في سورة المجادلة.

وواقعة وجوب الثبات في القتال أمام عشرة أمثالهم من الكفار، ثم نسخه بوجوب الثبات أمام مثليهم فقط في سورة الأنفال.

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢٣٥).

وواقعة عقوبة الزنا في آيتي سورة النساء، ونسخها بالحد في آية سورة النور.

وواقعة نسخ مفهوم قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ . . . ﴾ (النساء: ٤٣)، بالأمر باجتناب الخمر مطلقًا عن القيود في سورة المائدة.[١]

قال الشيخ محمد أشرف الملباري: – بعد دراسة وتحقيق كتاب نواسخ القرآن لابن الجوزي–:

ابن الجوزي أكثر المؤلفين إيرادًا لوقائع النسخ مع أنه أقلهم قبولًا لها، فقد بلغ عدد القضايا التي قيل فيها بالنسخ عنده ٢٤٧ قضية في ٦٢ سورة. ومن خلال استعراضه لقضايا النسخ، يختار ابن الجوزي وقوعه في عدد ضئيل من الآيات، وبالتحديد لم يقل بوقوع النسخ إلا في ٢٢ واقعة فحسب، بينما يرى الإحكام في حوالي ٢٠٥ واقعة، وفي الآيات الباقية وقف موقف الحياد. ويلاحظ أن ابن الجوزي لم يصرح في كتابه بالنسخ في جميع هذه الوقائع، وإنما صرح به في سبع وقائع فقط.[٢]

كذلك نجد أن أبا جعفر النحاس، رجح وقوع النسخ في القرآن في ٢٥ أو ٢٦ واقعة أيضًا.[٣]

كذلك نجد أن الدهلوي، رجح وقوع النسخ في القرآن في ٥ آيات.[٤]

كذلك نجد أن الزرقاني، ذكر كلام السيوطي، رجح وقوع النسخ في القرآن في ٩ آيات.[٥]

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٣٨٣: ٣٨٤).

(٢) نواسخ القرآن لابن الجوزي؛ دراسة وتحقيق محمد أشرف الملباري (٥١٥).

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس؛ دراسة وتحقيق د/ سليمان بن إبراهيم اللاحم (١/ ٢٤٥)، دراسات في التفسير وعلوم القرآن محمد بكر إبراهيم آل عابد(٧٦).

(٤) نواسخ القرآن لابن الجوزي دراسة وتحقيق محمد أشرف الملباري (٢٤)، دراسات في التفسير وعلوم القرآن محمد بكر إبراهيم آل عابد(٧٦).

(٥) مناهل العرفان(٢/ ٢١٥)، النسخ في القرآن د/ مصطفى زيد (٢/ ٢٨٣)، دراسات في التفسير وعلوم القرآن محمد بكر إبراهيم آل عابد(٧٦).

الوجه الثالث: بيان منشأ غلط المتزايدين في النسخ.

قال الزرقاني: ونستطيع أن نرد أسباب هذا الغلط إلى أمور خمسة:

أولها: ظنهم أن ما شرع لسبب ثم زال سببه من المنسوخ، وعلى هذا عدوا الآيات التي وردت في الحث على الصبر وتحمل أذى الكفار أيام ضعف المسلمين وقلتهم منسوخة بآيات القتال مع أنها ليست منسوخة؛ بل هي من الآيات التي دارت أحكامها على أسباب، فالله أمر المسلمين بالصبر وعدم القتال في أيام ضعفهم وقلة عددهم لعلة الضعف والقلة ثم أمرهم بالجهاد في أيام قوتهم وكثرتهم لعلة القوة والكثرة، وأنت خبير بأن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا، وأن انتفاء الحكم لانتفاء علته لا يعد نسخا بدليل أن وجوب التحمل عند الضعف والقلة لا يزال قائما إلى اليوم، وأن وجوب الجهاد والدفاع عند القوة والكثرة لا يزال قائما كذلك إلى اليوم.

ثانيها: توهمهم أن إبطال الإسلام لما كان عليه أهل الجاهلية من قبيل ما نسخ الإسلام فيه حكما بحكم كإبطال نكاح نساء الآباء، وكحصر عدد الطلاق في ثلاث، وعدد الزواج في أربع بعد أن لم يكونا محصورين مع أن هذا ليس نسخًا؛ لأن النسخ رفع حكم شرعي، وما ذكروه من هذه الأمثلة ونحوها رفع الإسلام فيه البراءة الأصلية وهي حكم عقلي لا شرعي.

ثالثها: اشتباه التخصيص عليهم بالنسخ كالآيات التي خصصت باستثناء أو غاية مثل قوله سبحانه: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ (الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧)، ومثل قوله: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ (البقرة: ١٠٩).

رابعها: اشتباه البيان عليهم بالنسخ في مثل قوله سبحانه: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، فإن منهم من توهم أنه ناسخ لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ مع أنه ليس ناسخا له، وإنما هو بيان لما ليس بظلم، وببيان ما ليس بظلم يعرف الظلم وبضدها تتميز الأشياء.

خامسها: توهم وجود تعارض بين نصين على حين أنه لا تعارض في الواقع وذلك مثل قوله تعالى ﴿أَنفِقُواْمِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ وقوله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فإن بعضهم توهم أن كلتا الآيتين منسوخة بآية الزكاة لتوهمه أنها تعارض كلا منهما على حين أنه لا تعارض ولا تنافي؛ لأنه يصح حمل الإنفاق في كلتا الآيتين الأوليين على ما يشمل الزكاة وصدقة التطوع ونفقة الأهل والأقارب ونحو ذلك، وتكون آية الزكاة معهما من قبيل ذكر فرد من أفراد العام بحكم العام، ومثل هذا لا يقوى على تخصيص العام فضلا عن أن ينسخه وذلك لعدم وجود تعارض حقيقي لا بالنسبة إلى كل أفراد العام حتى يكون ناسخا ولا بالنسبة إلى بعضها حتى يكون مخصصًا(1).

الوجه الثالث: النسخ في الكتاب المقدس. (2)

وسنتكلم في هذا الوجه بشيء من البيان حول النسخ في الكتاب المقدس في ثلاثة عناصر:

أولًا: النسخ في العهد القديم.

ثانيًا: النسخ في العهد الجديد.

ثالثًا: نسخ العهد الجديد للعهد القديم.

أولًا: الناسخ والمنسوخ في العهد القديم

الأول: السماح بالزواج من الأخت الشقيقة:

فقد تزوج قايين بأخته شقيقته بعد أن قتل أخاه هايين (تكوين ٤: ١٧)

ونسخها: سفر اللاويين (عَوْرَةَ أُخْتِكَ بِنْتِ أَبِيكَ أَوْ بِنْتِ أُمِّكَ الْمَوْلُودَةِ فِي الْبَيْتِ أَوِ الْمَوْلُودَةِ خَارِجًا لاَ تَكْشِفْ عَوْرَتَهَا.) سفر الأويين(١٨: ٩).

الثاني: السماح بالزواج من الأخت غير الشقيقة:

تزوج إبراهيم أخته من أبيه (وَبِالْحَقِيقَةِ أَيْضًا هِيَ أُخْتِي ابْنَةُ أَبِي غَيْرَ أَنَّهَا لَيْسَتِ ابْنَةَ أُمِّي فَصَارَتْ لِي زَوْجَةً.) تكوين (٢٠: ١٢).

---

(١) مناهل العرفان(٢/ ٢١٠: ٢١٢).

(٢) إظهار الحق (٣/ ٦٤١: ٦٨٠)، الناسخ والمنسوخ في الكتاب المقدس؛ علاء أبو بكر (٢١: ١٢٤).

ونسخها: سفر اللاويين(عَوْرَةَ أُخْتِكَ بِنْتِ أَبِيكَ أَوْ بِنْتِ أُمِّكَ الْمَوْلُودَةِ فِي الْبَيْتِ أَوِالْمَوْلُودَةِ خَارِجًا لاَ تَكْشِفْ عَوْرَتَهَا.) سفر الأويين(٩/ ١٨) (إِذَا تَزَوَّجَ رَجُلٌ أُخْتَهُ، ابْنَةَ أَبِيهِ أَوِ ابْنَةَ أُمِّهِ، فَذَلِكَ عَارٌ، وَيَجِبُ أَنْ يُسْتَأْصَلاَ عَلَى مَشْهَدٍ مِنْ أَبْنَاءِ شَعْبِهِ، لأَنَّهُ قَدْ كَشَفَ عَوْرَةَ أُخْتِهِ، وَيُعَاقَبُ بِذَنْبِهِ) سفر اللاويين (١٧/ ٢٠)، (مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ يُضَاجِعُ أُخْتَهُ ابْنَةَ أُمِّهِ أَوِ ابْنَةَ أَبِيهِ. وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِين.) سفر التثنية (٢٧: ٢٢).

فلو لم يكن هذا النكاح جائزًا في شريعة آدم وإبراهيم عليهما السلام يلزم أن يكون الناس كلهم أولاد الزنا، والناكحون زانين وواجبي القتل وملعونين، فكيف يظن هذا في حق الأنبياء عليهم السلام؟ فلا بد من الاعتراف بأنه كان جائزًا في شريعتهما ثم نسخ.

الثالث: الجمع بين الأختين فقد تزوج يعقوب الأختين ليئة وراحيل: (وَكَانَ فِي الْمَسَاءِ أَنَّهُ أَخَذَ لَيْئَةَ ابْنَتَهُ وَأَتَى بِهَا إِلَيْهِ فَدَخَلَ عَلَيْهَا. وَأَعْطَى لاَبَانُ زِلْفَةَ جَارِيَتَهُ لِلَيْئَةَ ابْنَتِهِ جَارِيَةً. وَفِي الصَّبَاحِ إِذَا هِيَ لَيْئَةُ. فَقَالَ لِلاَبَانَ: «مَا هذَا الَّذِي صَنَعْتَ بِي! أَلَيْسَ بِرَاحِيلَ خَدَمْتُ عِنْدَكَ؟ فَلِمَاذَا خَدَعْتَنِي؟ » فَقَالَ لاَبَانُ: «لاَ يُفْعَلُ هكَذَا فِي مَكَانِنَا أَنْ تُعْطَى الصَّغِيرَةُ قَبْلَ الْبِكْرِ. أَكْمِلْ أُسْبُوعَ هذِهِ فَنُعْطِيَكَ تِلْكَ أَيْضًا بِالْخِدْمَةِ الَّتِي تَخْدُمُنِي أَيْضًا سَبْعَ سِنِينٍ أُخَرَ». فَفَعَلَ يَعْقُوبُ هكَذَا. فَأَكْمَلَ أُسْبُوعَ هذِهِ فَأَعْطَاهُ رَاحِيلَ ابْنَتَهُ زَوْجَةً لَهُ. وَأَعْطَى لاَبَانُ رَاحِيلَ ابْنَتَهُ بَلْهَةَ جَارِيَتَهُ جَارِيَةً لَهَا. فَدَخَلَ عَلَى رَاحِيلَ أَيْضًا. وَأَحَبَّ أَيْضًا رَاحِيلَ أَكْثَرَ مِنْ لَيْئَةَ. وَعَادَ فَخَدَمَ عِنْدَهُ سَبْعَ سِنِينٍ أُخَرَ.) (تكوين ٢٩: ٢٣: ٣٠).

وقد نسخها سفر اللاويين ١٨: ١٨ (وَلاَ تَأْخُذِ امْرَأَةً عَلَى أُخْتِهَا لِلضِّرِّ لِتَكْشِفَ عَوْرَتَهَا مَعَهَا فِي حَيَاتِهَا).

الرابع: أثبت سفر الخروج إباحة الزواج بالعمة:

(وَأَخَذَ عَمْرَامُ يُوكَابَدَ عَمَّتَهُ زَوْجَةً لَهُ. فَوَلَدَتْ لَهُ هَارُونَ وَمُوسَى. وَكَانَتْ سِنُو حَيَاةِ عَمْرَامَ مِئَةً وَسَبْعًا وَثَلاَثِينَ سَنَةً) سفر الخروج(٦: ٢٠)

ونسخها: سفر اللاويين: (عَوْرَةَ أُخْتِ أَبِيكَ لاَ تَكْشِفْ. إِنَّهَا قَرِيبَةُ أَبِيكَ) (اللاويين١٨: ١٢).

الخامس: أثبت سفر التكوين إباحة الزواج بابنة الأخ: وَهَذِهِ مَوَالِيدُ تَارَحَ: وَلَدَ تَارَحُ أَبْرَامَ وَنَاحُورَ وَهَارَانَ. وَوَلَدَ هَارَانُ لُوطًا.) (تكوين ١١: ٢٧)، واتَّخَذَ أَبْرَامُ وَنَاحُورُ لَهُمَا امْرَأَتَيْنِ: اسْمُ امْرَأَةِ أَبْرَامَ سَارَايُ وَاسْمُ امْرَأَةِ نَاحُورَ مِلْكَةُ بِنْتُ هَارَانَ أَبِي مِلْكَةَ وَأَبِي يِسْكَةَ.) (تكوين ١١: ٢٩).

إذًا فقد تزوج ناحور ابنة أخيه هاران (أخت لوط)، أي تزوجت مِلْكَة عمها.

ونسخها: اللاويين: (عَوْرَةَ أُخْتِ أَبِيكَ لاَ تَكْشِفْ. إِنَّهَا قَرِيبَةُ أَبِيكَ. عَوْرَةَ أُخْتِ أُمِّكَ لاَ تَكْشِفْ. إِنَّهَا قَرِيبَةُ أُمِّكَ. عَوْرَةَ أَخِي أَبِيكَ لاَ تَكْشِفْ. إِلَى امْرَأَتِهِ لاَ تَقْتَرِبْ. إِنَّهَا عَمَّتُكَ.) (سفر اللاويين ١٨/ ١٢-١٤).

وأثبتها مرة أخرى سفر القضاة: (فَقَالَ كَالِبُ: «الَّذِي يَضْرِبُ قَرْيَةَ سَفَرٍ وَيَأْخُذُهَا، أُعْطِيهِ عَكْسَةَ ابْنَتِي امْرَأَةً». فَأَخَذَهَا عُثْنِيئِيلُ بْنُ قَنَازَ أَخُو كَالِبَ الأَصْغَرِ مِنْهُ. فَأَعْطَاهُ عَكْسَةَ ابْنَتَهُ امْرَأَةً) (قضاة١: ١٢-١٣).

السادس: أباح الرب لنوح وقومه كل حيوانات الأرض: (وَلْيَكُنْ كُلُّ حَيٍّ مُتَحَرِّكٍ طَعَامًا لَكُمْ، فَتَأْكُلُونَ كُلَّ شَيْءٍ كَمَا تَأْكُلُونَ الْبُقُولَ الْخَضْرَاءَ الَّتِي أَعْطَيْتُكُمْ.) (تكوين ٩/ ٣).

ونسخ: هذا الحكم فى الشريعة الموسوية، وحرمت حيوانات كثيرة: منها الجمل والوبر والأرنب والخنزير: (أَمَّا الْحَيَوَانَاتُ الْمُجْتَرَّةُ فَقَطْ، أَوِ الْمَشْقُوقَةُ الظِّلْفِ فَقَطْ، فَلاَ تَأْكُلُوا مِنْهَا، فَالْجَمَلُ غَيْرُ طَاهِرٍ لَكُمْ لأَنَّهُ مُجْتَرٌّ وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مَشْقُوقِ الظِّلْفِ، وَكَذَلِكَ الْوَبْرُ نَجِسٌ لَكُمْ لأَنَّهُ مُجْتَرٌّ وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مَشْقُوقِ الظِّلْفِ، أَمَّا الأَرْنَبُ فَإِنَّهُ مُجْتَرٌّ وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مَشْقُوقِ الظِّلْفِ، لِذَلِكَ هُوَ نَجِسٌ لَكُمْ، وَالْخِنْزِيرُ أَيْضًا نَجِسٌ لَكُمْ لأَنَّهُ مَشْقُوقُ الظِّلْفِ وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مُجْتَرٍّ. لاَ تَأْكُلُوا مِنْ لَحْمِهَا وَلاَ تَلْمِسُوا جُثَثَهَا لأَنَّهَا نَجِسَةٌ لَكُمْ.) سفر اللاويين (١١/ ٤ – ٨).

السابع: شريعة أنبياء بنى إسرائيل كلهم أن يتزوج كل منهم من نفس سبطه وسبط أبيه: فقد أمر نبى الله إبراهيم أن يُزوِّج ابنه من بنت من بنات عشيرته، وقد كان عمر ابنه لم يتعد

بضعة أيام: (وَوَلَدَتْ سَارَةُ امْرَأَةُ سَيِّدِي ابْنًا لِسَيِّدِي بَعْدَ مَا شَاخَتْ فَقَدْ أَعْطَاهُ كُلَّ مَا لَهُ. وَاسْتَحْلَفَنِي سَيِّدِي قَائِلًا: لاَ تَأْخُذْ زَوْجَةً لابْنِي مِنْ بَنَاتِ الْكَنْعَانِيِّينَ الَّذِينَ أَنَا سَاكِنٌ فِي أَرْضِهِمْ. بَلْ إِلَى بَيْتِ أَبِي تَذْهَبُ وَإِلَى عَشِيرَتِي وَتَأْخُذُ زَوْجَةً لابْنِي) (تكوين ٢٤/ ٣٦-٣٨).

إلا أن الرب سمح لموسى أن يتزوج من امرأة ليست من أهله أو سبطه: (وَتَكَلَّمَتْ مَرْيَمُ وَهَارُونُ عَلَى مُوسَى بِسَبَبِ الْمَرْأَةِ الْكُوشِيَّةِ التِي اتَّخَذَهَا (لأَنَّهُ كَانَ قَدِ اتَّخَذَ امْرَأَةً كُوشِيَّةً) (سفر العدد١٢/ ١) وتم إلغائها فيما بعد: (وَكُلُّ بِنْتٍ وَرِثَتْ نَصِيبًا مِنْ أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيل تَكُونُ امْرَأَةً لِوَاحِدٍ مِنْ عَشِيرَةِ سِبْطِ أَبِيهَا لِيَرِثَ بَنُو إِسْرَائِيل كُلُّ وَاحِدٍ نَصِيبَ آبَائِهِ.) (سفر العدد ٣٦: ٨).

إلا أن الرب نسخ هذا الحكم وسمح لشمشون أن يتزوج من امرأة فلسطينية: (وَنَزَلَ شَمْشُونُ إِلَى تِمْنَةَ وَرَأَى امْرَأَةً فِي تِمْنَةَ مِنْ بَنَاتِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ، ٢فَصَعِدَ وَأَخْبَرَ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَقَالَ: «قَدْ رَأَيْتُ امْرَأَةً فِي تِمْنَةَ مِنْ بَنَاتِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ، فَالآنَ خُذَاهَا لِي امْرَأَةً«. فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ وَأُمُّهُ: «أَلَيْسَ فِي بَنَاتِ إِخْوَتِكَ وَفِي كُلِّ شَعْبِي امْرَأَةٌ حَتَّى أَنَّكَ ذَاهِبٌ لِتَأْخُذَ امْرَأَةً مِنَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ الْغُلْفِ؟ » فَقَالَ شَمْشُونُ لأَبِيهِ: «إِيَّاهَا خُذْ لِي لأَنَّهَا حَسُنَتْ فِي عَيْنَيَّ». ٤وَلَمْ يَعْلَمْ أَبُوهُ وَأُمُّهُ أَنَّ ذلِكَ مِنَ الرَّبِّ لأَنَّهُ كَانَ يَطْلُبُ عِلَّةً عَلَى الْفِلِسْطِينِيِّينَ. وَفِي ذلِكَ الْوَقْتِ كَانَ الْفِلِسْطِينِيُّونَ مُتَسَلِّطِينَ عَلَى إِسْرَائِيلَ.) (قضاة ١٤/ ١-٤)، ثم نُسِخَ مرة أخرى: (ولعل من أجل ذلك ساقكما الله إليّ حتى تتزوج هذه بذي قرابتها على حسب شريعة موسى) (طوبيا ٧: ١٤).

(ولما أن صار رجلًا اتخذَ له امرأة من سبطه اسمها حنه) (طوبيا ١: ٩).

الثامن: قرَّرَ الرب أخذ كل بكر من بنى إسرائيل ومن البهائم: (وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قَدِّسْ لِي كُلَّ بِكْرٍ كُلَّ فَاتِحِ رَحِمٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ النَّاسِ وَمِنَ الْبَهَائِمِ. إِنَّهُ لِي» (خروج١٣/ ٢: ١).

وقد **نسخه** بأن أخذَ اللاويين من بنى إسرائيل بدل كل بكر«وَهَا إِنِّي قَدْ أَخَذْتُ اللاوِيِّينَ مِنْ بَيْنِ بَنِي إِسْرَائِيل بَدَل كُلِّ بِكْرٍ فَاتِحِ رَحِمٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل فَيَكُونُ اللاوِيُّونَ

لِي. لأَنَّ لِي كُل بِكْرٍ. يَوْمَ ضَرَبْتُ كُل بِكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ قَدَّسْتُ لِي كُل بِكْرٍ فِي إِسْرَائِيل مِنَ النَّاسِ وَالبَهَائِمِ. لِي يَكُونُونَ. أَنَا الرَّبُّ». (عدد ٣/ ١٢-١٣).

التاسع: كانت خدمة اللاويين فى بداية التيه تبدأ من سن الثلاثين إلى الخمسين: (وَقَال الرَّبُّ لِمُوسَى وَهَارُونَ: «خُذْ عَدَدَ بَنِي قَهَاتَ مِنْ بَيْنِ بَنِي لاوِي حَسَبَ عَشَائِرِهِمْ وَبُيُوتِ آبَائِهِمْ مِنِ ابْنِ ثَلاثِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا إِلى ابْنِ خَمْسِينَ سَنَةً كُلِّ دَاخِلٍ فِي الجُنْدِ لِيَعْمَل عَمَلًا فِي خَيْمَةِ الاِجْتِمَاعِ. هَذِهِ خِدْمَةُ بَنِي قَهَاتَ فِي خَيْمَةِ الاِجْتِمَاعِ: قُدْسُ الأَقْدَاسِ.) (عدد ٤/ ١-٤).

ثم **نسخت** وانخفضت إلى الخامسة والعشرين: (وَقَال الرَّبُّ لِمُوسَى: «هَذَا مَا لِلاوِيِّينَ: مِنِ ابْنِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا يَأْتُونَ لِيَتَجَنَّدُوا أَجْنَادًا فِي خِدْمَةِ خَيْمَةِ الاِجْتِمَاعِ. وَمِنِ ابْنِ خَمْسِينَ سَنَةً يَرْجِعُونَ مِنْ جُنْدِ الخِدْمَةِ وَلا يَخْدِمُونَ بَعْدُ.) (عدد ٨/ ٢٣-٢٥).

ثم **نسخت** وانخفضت مرة أخرى بعد أن استقروا فى كنعان إلى سن العشرين: (ثُمَّ بَعْدَ الوَبَإِ أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى وَأَلِعَازَارَ بْنَ هَارُونَ الكَاهِنِ: «خُذَا عَدَدَ كُلِّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيل مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا حَسَبَ بُيُوتِ آبَائِهِمْ كُلِّ خَارِجٍ لِلجُنْدِ فِي إِسْرَائِيل».) (عدد ٢٦/ ١-٢).

العاشر: حكم سفر اللاويين على من اضطجع مع فتاة عذراء مخطوبة أن يُؤدَّبا فقط ويُغفر للفاعل إذا قدَّم ذبيحة إثم: (وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةٍ اضْطِجَاعَ زَرْعٍ وَهِيَ أَمَةٌ مَخْطُوبَةٌ لِرَجُلٍ وَلَمْ تُفْدَ فِدَاءً وَلاَ أُعْطِيَتْ حُرِّيَّتَهَا فَلْيَكُنْ تَأْدِيبٌ. لاَ يُقْتَلاَ لأَنَّهَا لَمْ تُعْتَقْ. وَيَأْتِي إِلَى الرَّبِّ بِذَبِيحَةٍ لإِثْمِهِ إِلَى بَابِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ: كَبْشًا ذَبِيحَةَ إِثْمٍ. فَيُكَفِّرُ عَنْهُ الْكَاهِنُ بِكَبْشِ الْإِثْمِ أَمَامَ الرَّبِّ مِنْ خَطِيَّتِهِ الَّتِي أَخْطَأَ فَيُصْفَحُ لَهُ عَنْ خَطِيَّتِهِ الَّتِي أَخْطَأَ)سفر الاويين (١٩/ ٢٠-٢٢).

إلا أنه **نسخ** هذا الحكم فى سفر التثنية وجعل عقوبته القتل رجمًا بالحجارة: «إِذَا كَانَتْ فَتَاةٌ عَذْرَاءُ مَخْطُوبَةً لِرَجُلٍ فَوَجَدَهَا رَجُلٌ فِي المَدِينَةِ وَاضْطَجَعَ مَعَهَا. فَأَخْرِجُوهُمَا كِليْهِمَا إِلى بَابِ تِلكَ المَدِينَةِ وَارْجُمُوهُمَا بِالحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَا. الفَتَاةُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا لمْ تَصْرُخْ فِي المَدِينَةِ وَالرَّجُلُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ أَذَل امْرَأَةَ صَاحِبِهِ. فَتَنْزِعُ الشَّرَّ مِنْ وَسَطِكَ.) (تثنية ٢٢/ ٢٤: ٢٣).

الحادي عشر: حكم من اضطجع مع امرأة طامث: يكون نجسًا سبعة أيام: (وَإِنِ اضْطَجَعَ مَعَهَا رَجُلٌ فَكَانَ طَمْثُهَا عَلَيْهِ يَكُونُ نَجِسًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ. وَكُلُّ فِرَاشٍ يَضْطَجِعُ عَلَيْهِ يَكُونُ نَجِسًا.) (سفر الاويين ١٥/ ٢٤).

إلا أنه **نسخ** بقوله: (وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةٍ طَامِثٍ وَكَشَفَ عَوْرَتَهَا عَرَّى يَنْبُوعَهَا وَكَشَفَتْ هِيَ يَنْبُوعَ دَمِهَا يُقْطَعَانِ كِلاَهُمَا مِنْ شَعْبِهِمَا.) (سفر الاويين ٢٠/ ١٨).

الثاني عشر: نال فينحاس وذريته ميثاق الكهنوت إلى الأبد:

(فَقَال الرَّبُّ لِمُوسَى: «فِينَحَاسُ بْنُ أَلِعَازَارَ بْنِ هَارُونَ الكَاهِنُ قَدْ رَدَّ سَخَطِي عَنْ بَنِي إِسْرَائِيل بِكَوْنِهِ غَارَ غَيْرَتِي فِي وَسَطِهِمْ حَتَّى لمْ أُفْنِ بَنِي إِسْرَائِيل بِغَيْرَتِي. لِذَلِكَ قُل هَئَنَذَا أُعْطِيهِ مِيثَاقِي مِيثَاقَ السَّلامِ. فَيَكُونُ لهُ وَلِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِيثَاقَ كَهَنُوتٍ أَبَدِيٍّ لأَجْلِ أَنَّهُ غَارَ للهِ وَكَفَّرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيل».) عدد ٢٥/ ١٠-١٣.

ثم يتراجع الرب في وعده قائلًا: (٣٠لِذَلِكَ يَقُولُ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: إِنِّي قُلْتُ إِنَّ بَيْتَكَ وَبَيْتَ أَبِيكَ يَسِيرُونَ أَمَامِي إِلَى الأَبَدِ. وَالآنَ يَقُولُ الرَّبُّ: حَاشَا لِي!) (صموئيل الأول ٢/ ٣٠).

الثالث عشر: حرَّمَ الرب أكل الوحوش والزَّحَّافات على بني إسرائيل: «وَهَذِهِ تَكْرَهُونَهَا مِنَ الطُّيُورِ. لاَ تُؤْكَلْ. إِنَّهَا مَكْرُوهَةٌ: النَّسْرُ وَالأَنُوقُ وَالْعُقَابُ. وَالْحِدَأَةُ وَالْبَاشِقُ عَلَى أَجْنَاسِهِ. وَكُلُّ غُرَابٍ عَلَى أَجْنَاسِهِ. وَالنَّعَامَةُ وَالظَّلِيمُ وَالسَّأَفُ وَالْبَازُ عَلَى أَجْنَاسِهِ. وَالْبُومُ وَالْغَوَّاصُ وَالْكُرْكِيُّ. وَالْبَجَعُ وَالْقُوقُ وَالرَّخَمُ. وَاللَّقْلَقُ وَالْبَبْغَاءُ عَلَى أَجْنَاسِهِ وَالْهُدْهُدُ وَالْخُفَّاشُ. وَكُلُّ دَبِيبِ الطَّيْرِ الْمَاشِي عَلَى أَرْبَعٍ. فَهُوَ مَكْرُوهٌ لَكُمْ) (سفر اللاويين ١١/ ١٣-٢٠).

وقد **نسخت** فى سفر الأعمال: يحكى لنا سفر أعمال الرسل أنه نزل على بطرس من عند الله ملاءة مليئة بالطيور وغيره من الوحوش والزَّحَّافات، وصوت الرب من السماء يقول له («قُمْ يَا بُطْرُسُ اذْبَحْ وَكُلْ».): (فَرَأَى السَّمَاءَ مَفْتُوحَةً وَإِنَاءً نَازِلًا عَلَيْهِ مِثْلَ مُلاَءَةٍ عَظِيمَةٍ مَرْبُوطَةٍ بِأَرْبَعَةِ أَطْرَافٍ وَمُدَلاَّةٍ عَلَى الأَرْضِ. وَكَانَ فِيهَا كُلُّ دَوَابِّ الأَرْضِ وَالْوُحُوشِ وَالزَّحَّافَاتِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ. وَصَارَ إِلَيْهِ صَوْتٌ: « قُمْ يَا بُطْرُسُ اذْبَحْ وَكُلْ». فَقَالَ بُطْرُسُ:

«كَلاَّ يَا رَبُّ لأَنِّي لَمْ آكُلْ قَطُّ شَيْئًا دَنِسًا أَوْ نَجِسًا». فَصَارَ إِلَيْهِ أَيْضًا صَوْتٌ ثَانِيَةً: «مَا طَهَّرَهُ اللهُ لاَ تُدَنِّسْهُ أَنْتَ! «وَكَانَ هَذَا عَلَى ثَلاَثِ مَرَّاتٍ ثُمَّ ارْتَفَعَ الإِنَاءُ أَيْضًا إِلَى السَّمَاءِ.) (أعمال الرسل ١٠/ ١١-١٦) وأيضًا (١١/ ٥-١٠).

الرابع عشر: حرَّم الرب على الكاهن أن يتزوج امرأة زانية: (وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قُلْ لِلْكَهَنَةِ بَنِي هَارُونَ:. . . اِمْرَأَةً زَانِيَةً أَوْ مُدَنَّسَةً لاَ يَأْخُذُوا وَلاَ يَأْخُذُوا امْرَأَةً مُطَلَّقَةً مِنْ زَوْجِهَا. لأَنَّهُ مُقَدَّسٌ لإِلَهِه. . . هَذَا يَأْخُذُ امْرَأَةً عَذْرَاءَ. أَمَّا الأَرْمَلَةُ وَالْمُطَلَّقَةُ وَالْمُدَنَّسَةُ وَالزَّانِيَةُ فَمِنْ هَؤُلاَءِ لاَ يَأْخُذُ بَلْ يَتَّخِذُ عَذْرَاءَ مِنْ قَوْمِهِ امْرَأَةً.) (اللاويين ٢١/ ١-١٤).

ونسخ الرب كلامه بأن أمر نبيه هوشع أن يتزوج الزوجة الأولى زانية: (أَوَّلَ مَا كَلَّمَ الرَّبُّ هُوشَعَ قَالَ الرَّبُّ لِهُوشَعَ: «اذْهَبْ خُذْ لِنَفْسِكَ امْرَأَةَ زِنًى وَأَوْلاَدَ زِنًى لأَنَّ الأَرْضَ قَدْ زَنَتْ زِنًى تَارِكَةً الرَّبَّ! «. فَذَهَبَ وَأَخَذَ جُومَرَ بِنْتَ دِبْلاَيِمَ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ لَهُ ابْنًا.) (سفر هوشع ١/ ٢-٣).

الخامس عشر: نسخ الرب أمره لحزقيال بأكل الخراء الآدمي إلى أكل خراء البقر: (وَتَأْكُلُ كَعْكًا مِنَ الشَّعِيرِ. عَلَى الْخُرْءِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الإِنْسَانِ تَخْبِزُهُ أَمَامَ عُيُونِهِمْ». وَقَالَ الرَّبُّ: [هَكَذَا يَأْكُلُ بَنُو إِسْرَائِيلَ خُبْزَهُمُ النَّجِسَ بَيْنَ الأُمَمِ الَّذِينَ أَطْرُدُهُمْ إِلَيْهِمْ«. فَقُلْتُ: آهِ يَا سَيِّدُ الرَّبُّ، هَا نَفْسِي لَمْ تَتَنَجَّسْ. وَمِنْ صِبَايَ إِلَى الآنَ لَمْ آكُلْ مِيتَةً أَوْ فَرِيسَةً وَلاَ دَخَلَ فَمِي لَحْمٌ نَجِسٌ». فَقَالَ لِي: اُنْظُرْ. قَدْ جَعَلْتُ لَكَ خِثْيَ الْبَقَرِ بَدَلَ خُرْءِ الإِنْسَانِ فَتَصْنَعُ خُبْزَكَ عَلَيْهِ) (حزقيال ٤/ ١٢-١٥).

ثانيًا: النسخ في العهد الجديد:

الأول: فى أخلاق الحرب والقصاص: (لاَ تُقَاوِمُوا الشَّرَّ بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ فَاتْرُكْ لَهُ الرِّدَاءَ أَيْضًا. وَمَنْ سَخَّرَكَ مِيلًا وَاحِدًا فَاذْهَبْ مَعَهُ اثْنَيْنِ. مَنْ سَأَلَكَ فَأَعْطِهِ وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْتَرِضَ مِنْكَ فَلاَ تَرُدَّهُ. . أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ) (متى ٥/ ٣٩- ٤٤).

نسخت بقوله: (لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لِأُلْقِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لِأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سَيْفًا. فَإِنِّي جِئْتُ لِأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ وَالاِبْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا) (متى ١٠/ ٣٤-٤٠).

وبقوله: (جِئْتُ لأُلْقِيَ نَارًا عَلَى الأَرْضِ. أَتَظُنُّونَ أَنِّي جِئْتُ لأُعْطِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ؟ كَلاَّ أَقُولُ لَكُمْ! بَلِ انْقِسَامًا. لأَنَّهُ يَكُونُ مِنَ الآنَ خَمْسَةٌ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ مُنْقَسِمِينَ: ثَلاَثَةٌ عَلَى اثْنَيْنِ وَاثْنَانِ عَلَى ثَلاَثَةٍ. يَنْقَسِمُ الأَبُ عَلَى الاِبْنِ وَالاِبْنُ عَلَى الأَبِ وَالأُمُّ عَلَى الْبِنْتِ وَالْبِنْتُ عَلَى الأُمِّ وَالْحَمَاةُ عَلَى كَنَّتِهَا وَالْكَنَّةُ عَلَى حَمَاتِهَا» (لوقا ١٢/ ٤٩-٥٣).

ثالثا: نسخ العهد الجديد للعهد القديم:

الأول: أوحى الرب أن الزناة لا يدخلون ملكوت السموات.

(لا يَدْخُل مَخْصِيٌّ بِالرَّضِّ أَوْ مَجْبُوبٌ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. لا يَدْخُلِ ابْنُ زِنىً فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. حَتَّى الجِيلِ العَاشِرِ لا يَدْخُل مِنْهُ أَحَدٌ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. لا يَدْخُل عَمُّونِيٌّ وَلا مُوآبِيٌّ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. حَتَّى الجِيلِ العَاشِرِ لا يَدْخُل مِنْهُمْ أَحَدٌ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ إِلى الأَبَدِ) (تثنية ٢٣/ ١-٣)، والمقصود بالجيل العاشر هنا هو إلى الأبد.

ونسخ هذا بقوله: (فَأَيُّ الاِثْنَيْنِ عَمِلَ إِرَادَةَ الأَبِ؟ » قَالُوا لَهُ: «الأَوَّلُ». قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ الْعَشَّارِينَ وَالزَّوَانِيَ يَسْبِقُونَكُمْ إِلَى مَلَكُوتِ الله) (متى ٢١/ ٣١).

الثاني: حرَّمَ الرب القيام بأى عمل فى الأعياد المقدسة وفرض فيها الراحة والتعبد لله فقط: (لاَ تَأْكُلُوا مِنَ الْغَلَّةِ الْجَدِيدَةِ، لاَ دَقِيقًا مَخْبُوزًا وَلاَ فَرِيكًا وَلاَ سَوِيقًا إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي تُحْضِرُونَ فِيهِ قُرْبَانَ إِلَهِكُمْ، فتكُونُ هَذِهِ عَلَيْكُمْ فَرِيضَةً دَائِمَةً جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ) (الاويين ٢٣/ ١٤).

وَتُخَصِّصُونَ ذَلِكَ الْيَوْمَ عَيْنَهُ لِيَكُونَ مَحْفَلًا مُقَدَّسًا لَكُمْ، تَتَعَطَّلُ فِيهِ جَمِيعُ الأَعْمَالِ، فتكُونُ عَلَيْكُمْ فَرِيضَةً دَائِمَةً حَيْثُ تُقِيمُونَ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ)(اللاويين ٢٣/ ٢١).

(إِيَّاكُمُ الْقِيَامَ بِعَمَلٍ مَا. إِنَّهَا فَرِيضَةٌ دَائِمَةٌ عَلَيْكُمْ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ حَيْثُ تُقِيمُونَ. إِنَّهُ سَبْتُ رَاحَةٍ لَكُمْ تَتَذَلَّلُونَ فِيهِ، فَتَسْتَرِيحُونَ مِنْ مَسَاءِ الْيَوْمِ التَّاسِعِ حَتَّى مَسَاءِ الْيَوْمِ التَّالِي) (اللاويين ٢٣/ ٣١-٣٢).

(أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ فِي السَّنَةِ مِنَ الشَّهْرِ السَّابِعِ تَحْتَفِلُونَ بِهِ عِيدًا لِلرَّبِّ. وَيَكُونُ هَذَا فَرِيضَةً دَائِمَةً عَلَيْكُمْ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ) (اللاويين ٢٣: ٤١).

ثم نسخ بولس هذه الأحكام: (فَلاَ يَحْكُمْ عَلَيْكُمْ أَحَدٌ فِي قَضِيَّةِ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ، أَوْ فِي الْقَضَايَا الْمُتَعَلِّقَةِ بِالأَعْيَادِ وَرُؤُوسِ الشُّهُورِ وَالسُّبُوتِ؛ فَهَذِهِ كَانَتْ ظِلاَلاً لِمَا سَيَأْتِي، أَيْ لِلْحَقِيقَةِ الَّتِي هِيَ الْمَسِيحُ.) رسالة بولس إلى أهل كلوسي (٢/ ١٦-١٧).

الثالث: سمحت الشريعة الموسوية بزواج المطلقة: (إِذَا تَزَوَّجَ رَجُلٌ مِنْ فَتَاةٍ وَلَمْ تَرُقْ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ لأَنَّهُ اكْتَشَفَ فِيهَا عَيْبًا مَا، وَأَعْطَاهَا كِتَابَ طَلاَقٍ وَصَرَفَهَا مِنْ بَيْتِهِ، فَتَزَوَّجَتْ مِنْ رَجُلٍ آخَرَ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَتْ طَلِيقَةً، فَإِنْ أَبْغَضَهَا الرَّجُلُ الأَخِيرُ وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ طَلاَقٍ وَدَفَعَهُ إِلَى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ أَوْ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ الأَخِيرُ الذِي اتَّخَذَهَا لَهُ زَوْجَةً لا يَقْدِرُ زَوْجُهَا الأَوَّلُ الذِي طَلقَهَا أَنْ يَعُودَ يَأْخُذُهَا لِتَصِيرَ لهُ زَوْجَةً بَعْدَ أَنْ تَنَجَّسَتْ. لأَنَّ ذَلِكَ رِجْسٌ لدَى الرَّبِّ. فَلا تَجْلِبْ خَطِيَّةً عَلى الأَرْضِ التِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا.) (التثنية ٢٤/ ١-٤).

ونسختها الشريعة الإنجيلية: (وَقِيلَ أَيْضًا: مَنْ طَلَّقَ زَوْجَتَهُ، فَلْيُعْطِهَا وَثِيقَةَ طَلاَقٍ. أَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَنْ طَلَّقَ زَوْجَتَهُ لِغَيْرِ عِلَّةِ الزِّنَى، فَهُوَ يَجْعَلُهَا تَرْتَكِبُ الزِّنَى. وَمَنْ تَزَوَّجَ بِمُطَلَّقَةٍ، فَهُوَ يَرْتَكِبُ الزِّنَى.)(متى ٥/ ٣١-٣٢).

الرابع: أقر الله الختان ليكون عهد أبدى بينه وبين شعبه: فكان الأنبياء وقومهم لا يُختنون قبل نبي الله إبراهيم، وقد رضي الله بذلك حتى بلغ إبراهيم من العمر ٩٩ سنة. ثم أبدل الرب ذلك، وأخذ عهدًا يكون أبديا فى إبراهيم ونسله:

وَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيمَ: «وَأَمَّا أَنْتَ فَتَحْفَظُ عَهْدِي أَنْتَ وَنَسْلُكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ. هَذَا هُوَ عَهْدِي الَّذِي تَحْفَظُونَهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ: يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ. فَتُخْتَنُونَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِكُمْ فَيَكُونُ عَلامَةَ عَهْدٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ. اِبْنَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ فِي أَجْيَالِكُمْ: وَلِيدُ الْبَيْتِ وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّةٍ مِنْ كُلِّ ابْنِ غَرِيبٍ لَيْسَ مِنْ نَسْلِكَ. يُخْتَنُ خِتَانًا وَلِيدُ بَيْتِكَ وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّتِكَ فَيَكُونُ عَهْدِي فِي لَحْمِكُمْ عَهْدًا أَبَدِيًّا.) (تكوين ١٧/ ٩-١٢).

وقد اختُتِنَ جميع الأنبياء: (وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ جَاءُوا لِيَخْتِنُوا الصَّبِيَّ وَسَمَّوْهُ بِاسْمِ أَبِيهِ زَكَرِيَّا. ٦٠فَقَالَتْ أُمُّهُ: «لاَ بَلْ يُسَمَّى يُوحَنَّا».)(لوقا ١/ ٥٩-٦٠).

وكذلك عيسى عليه السلام: (وَلَمَّا تَمَّتْ ثَمَانِيَةُ أَيَّامٍ لِيَخْتِنُوا الصَّبِيَّ سُمِّيَ يَسُوعَ كَمَا تَسَمَّى مِنَ الْمَلاَكِ قَبْلَ أَنْ حُبِلَ بِهِ فِي الْبَطْنِ.) (لوقا ٢: ٢١).

وقد ألغاها بولس في رسالته إلى أهل غلاطية بقوله: (هَا أَنَا بُولُسُ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ إِنِ اخْتَتَنْتُمْ لاَ يَنْفَعُكُمُ الْمَسِيحُ شَيْئًا! لكِنْ أَشْهَدُ أَيْضًا لِكُلِّ إِنْسَانٍ مُخْتَتِنٍ أَنَّهُ مُلْتَزِمٌ أَنْ يَعْمَلَ بِكُلِّ النَّامُوسِ. قَدْ تَبَطَّلْتُمْ عَنِ الْمَسِيحِ أَيُّهَا الَّذِينَ تَتَبَرَّرُونَ بِالنَّامُوسِ. سَقَطْتُمْ مِنَ النِّعْمَةِ.) (غلاطية ٥/ ٤: ١).

وأيضًا بقوله: (لأَنَّهُ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ لَيْسَ الْخِتَانُ يَنْفَعُ شَيْئًا وَلاَ الْغُرْلَةُ، بَلِ الْخَلِيقَةُ الْجَدِيدَةُ.) (غلاطية٦/ ١٥).

الخامس: أقر سفر التثنية القسم بالله وحده: (الرَّبَّ إِلهَكَ تَتَّقِي وَإِيَّاهُ تَعْبدُ وَبِاسْمِهِ تَحْلِفُ) (تثنية ٦/ ١٣)، وأقرها يسوع: (وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْقَادَةُ الْعُمْيَانُ الْقَائِلُونَ: مَنْ حَلَفَ بِالْهَيْكَلِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ وَلكِنْ مَنْ حَلَفَ بِذَهَبِ الْهَيْكَلِ يَلْتَزِمُ! أَيُّهَا الْجُهَّالُ وَالْعُمْيَانُ أَيُّمَا أَعْظَمُ: أَلذَّهَبُ أَمِ الْهَيْكَلُ الَّذِي يُقَدِّسُ الذَّهَبَ؟ وَمَنْ حَلَفَ بِالْمَذْبَحِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ وَلكِنْ مَنْ حَلَفَ بِالْقُرْبَانِ الَّذِي عَلَيْهِ يَلْتَزِمُ! أَيُّهَا الْجُهَّالُ وَالْعُمْيَانُ أَيُّمَا أَعْظَمُ: أَلْقُرْبَانُ أَمِ الْمَذْبَحُ الَّذِي يُقَدِّسُ الْقُرْبَانَ؟ فَإِنَّ مَنْ حَلَفَ بِالْمَذْبَحِ فَقَدْ حَلَفَ بِهِ وَبِكُلِّ مَا عَلَيْهِ. وَمَنْ حَلَفَ بِالْهَيْكَلِ فَقَدْ حَلَفَ بِهِ وَبِالسَّاكِنِ فِيهِ. وَمَنْ حَلَفَ بِالسَّمَاءِ فَقَدْ حَلَفَ بِعَرْشِ اللهِ وَبِالْجَالِسِ عَلَيْهِ!) (متى ٢٣/ ١٦-٢٢).

وأقرها متى: فقد استحلفه رئيس الكهنة وأجابه: (وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ سَاكِتًا. فَسَأَلَهُ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ: «أَسْتَحْلِفُكَ بِاللهِ الْحَيِّ أَنْ تَقُولَ لَنَا: هَلْ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ؟ » قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنْتَ قُلْتَ! وَأَيْضًا أَقُولُ لَكُمْ: مِنَ الآنَ تُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنْسَانِ جَالِسًا عَنْ يَمِينِ الْقُوَّةِ وَآتِيًا عَلَى سَحَابِ السَّمَاءِ».) (متى ٢٦: ٦٣).

وحلف بطرس: (وَبَعْدَ قَلِيلٍ جَاءَ الْقِيَامُ وَقَالُوا لِبُطْرُسَ: «حَقًّا أَنْتَ أَيْضًا مِنْهُمْ فَإِنَّ لُغَتَكَ تُظْهِرُكَ!» فَابْتَدَأَ حِينَئِذٍ يَلْعَنُ وَيَحْلِفُ: «إِنِّي لاَ أَعْرِفُ الرَّجُلَ!» وَلِلْوَقْتِ صَاحَ الدِّيكُ.) (متى٢٦/ ٧٤: ٧٣)، وحلف بولس: (وَلكِنِّي أَسْتَشْهِدُ اللهَ عَلَى نَفْسِي أَنِّي إِشْفَاقًا عَلَيْكُمْ لَمْ آتِ إِلَى كُورِنْثُوسَ.) (كورنثوس الثانية ١/ ١٢).

(وَالَّذِي أَكْتُبُ بِهِ إِلَيْكُمْ هُوَذَا قُدَّامَ اللهِ أَنِّي لَسْتُ أَكْذِبُ فِيهِ.) (غلاطية ١/ ٢٠).

نسخها: (أَيْضًا سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَحْنَثْ بَلْ أَوْفِ لِلرَّبِّ أَقْسَامَكَ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لكم: لاَ تَحْلِفُوا الْبَتَّةَ لاَ بِالسَّمَاءِ لأَنَّهَا كُرْسِيُّ اللهِ وَلاَ بِالأَرْضِ لأَنَّهَا مَوْطِئُ قَدَمَيْهِ وَلاَ بِأُورُشَلِيمَ لأَنَّهَا مَدِينَةُ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ. وَلاَ تَحْلِفْ بِرَأْسِكَ لأَنَّكَ لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَجْعَلَ شَعْرَةً وَاحِدَةً بَيْضَاءَ أَوْ سَوْدَاءَ. بَلْ لِيَكُنْ كَلاَمُكُمْ: نَعَمْ نَعَمْ لاَ لاَ. وَمَا زَادَ عَلَى ذلِكَ فَهُوَ مِنَ الشِّرِّيرِ.) (متى ٦: ٣٣-٣٧).

الخامس: أباح الرب كل حيوانات الأرض ما عدا بعض الحيوانات: (وَلكِنْ لاَ تَأْكُلُوا الْحَيَوَانَاتِ الْمُجْتَرَّةَ غَيْرَ مَشْقُوقَةِ الظِّلْفِ، كَالْجَمَلِ وَالأَرْنَبِ وَالْوَبْرِ، فَإِنَّهَا تَجْتَرُّ وَلكِنَّهَا غَيْرُ مَشْقُوقَةِ الظِّلْفِ، لِذلِكَ هِيَ نَجِسَةٌ لَكُمْ، وَالْخِنْزِيرِ لأَنَّهُ مَشْقُوقُ الظِّلْفِ وَلكِنَّهُ غَيْرُ مُجْتَرٍّ، لِذلِكَ فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. فَلاَ تَأْكُلُوا مِنْ لَحْمِ جَمِيعِ هذِهِ الْبَهَائِمِ وَلاَ تَلْمَسوا جُثَثَهَا.) (تثنية ١٤/ ٧–٨).

ثم نسخه بولس بقوله: (كُلُّ الأَشْيَاءِ تَحِلُّ لِي لكِنْ لَيْسَ كُلُّ الأَشْيَاءِ تُوافِقُ. كُلُّ الأَشْيَاءِ تَحِلُّ لِي لكِنْ لاَ يَتَسَلَّطُ عَلَيَّ شَيْءٌ.)(كورنثوس الأولى ٦/ ١٢).

السادس: أُثبِتَ الطلاق فى شريعة موسى ﷺ: (إِذَا أَخَذَ رَجُلٌ امْرَأَةً وَتَزَوَّجَ بِهَا فَإِنْ لَمْ تَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ لأَنَّهُ وَجَدَ فِيهَا عَيْبَ شَيْءٍ وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ طَلاَقٍ وَدَفَعَهُ إِلى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ٢ وَمَتَى خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهِ ذَهَبَتْ وَصَارَتْ لِرَجُلٍ آخَرَ. فَإِنْ أَبْغَضَهَا الرَّجُلُ الأَخِيرُ وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ طَلاَقٍ وَدَفَعَهُ إِلى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ أَوْ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ الأَخِيرُ الذِي اتَّخَذَهَا لهُ زَوْجَةً. لا يَقْدِرُ زَوْجُهَا الأَوَّلُ الذِي طَلقَهَا أَنْ يَعُودَ يَأْخُذُهَا لِتَصِيرَ لهُ زَوْجَةً بَعْدَ أَنْ تَنَجَّسَتْ..) (التثنية ٢٤/ ٤: ١).

وقد **نسخها** متى: (وَجَاءَ إِلَيْهِ الْفَرِّيسِيُّونَ لِيُجَرِّبُوهُ قَائِلِينَ لَهُ: «هَلْ يَحِلُّ لِلرَّجلِ أَنْ يُطَلِّقَ امْرَأَتَهُ لِكُلِّ سَبَبٍ؟ » فَأَجَابَ: «أَمَا قَرَأْتُمْ أَنَّ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْبَدْءِ خَلَقَهما ذَكَرًا وَأُنْثَى؟ » وَقَالَ: «مِنْ أَجْلِ هَذَا يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونُ الاِثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. إِذًا لَيْسَا بَعْدُ اثْنَيْنِ بَلْ جَسَدٌ وَاحِدٌ. فَالَّذِي جَمَعَهُ الله لاَ يُفَرِّقُهُ إِنْسَانٌ». فَسَأَلُوهُ: «فَلِماذَا أَوْصَى مُوسَى أَنْ يُعْطَى كِتَابُ طَلاَقٍ فَتُطَلَّقُ؟ » قَالَ لَهُمْ: «إِنَّ مُوسَى مِنْ أَجْلِ قَسَاوَةِ قُلُوبِكُمْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تُطَلِّقُوا نِسَاءَكُمْ. وَلَكِنْ مِنَ الْبَدْءِ لَمْ يَكُنْ هَكَذَا. وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلاَّ بِسَبَبِ الزِّنَا وَتَزَوَّجَ بِأُخْرَى يَزْنِي وَالَّذِي يَتَزَوَّجُ بِمُطَلَّقَةٍ يَزْنِي» (متى ١٩/ ٩: ٣).

أما قول متى (إِنَّ مُوسَى مِنْ أَجْلِ قَسَاوَةِ قُلُوبِكُمْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تُطَلِّقُوا نِسَاءَكُمْ. وَلَكِنْ مِنَ الْبَدْءِ لَمْ يَكُنْ هَكَذَا) متى ٩/ ٨ فيدل على أنه قبل موسى كان الطلاق محرمًا، فنسخت شريعة موسى هذا التحريم، ثم نُسِخَ مرة أخرى في كلام متى.

السابع: أمر عزرا بعد العودة من السبي الكهنة واليهود أن يهجروا زوجاتهم الوثنيات حتى لا يزيدوا إثم بني إسرائيل ولنيل رضا الرب عليهم. (عزرا١٠/ ١١: ٢).

وقد **نسخها** بولس في كورنثوس الأولى بسماحه لليهودي أن يستمر في حياته الزوجية مع الوثنية، وللمسيحية أن تستمر في زواجها مع الوثني: (وَأَمَّا الْبَاقُونَ فَأَقُولُ لَهُمْ أَنَا لاَ الرَّبُّ: إِنْ كَانَ أَخٌ لَهُ امْرَأَةٌ غَيْرُ مُؤْمِنَةٍ وَهِيَ تَرْتَضِي أَنْ تَسْكُنَ مَعَهُ فَلاَ يَتْرُكْهَا. وَالْمَرْأَةُ الَّتِي لَهَا رَجُلٌ غَيْرُ مُؤْمِنٍ وَهُوَ يَرْتَضِي أَنْ يَسْكُنَ مَعَهَا فَلاَ تَتْرُكْهُ. لأَنَّ الرَّجُلَ غَيْرَ الْمُؤْمِنِ مُقَدَّسٌ فِي الْمَرْأَةِ وَالْمَرْأَةُ غَيْرُ الْمُؤْمِنَةِ مُقَدَّسَةٌ فِي الرَّجُلِ - وَإِلاَّ فَأَوْلاَدُكُمْ نَجِسُونَ. وَأَمَّا الآنَ فَهُمْ مُقَدَّسُونَ) (كورنثوس الأولى ٧/ ١٤: ١٢).

* * *

١٩ـ شبهات عن الأحرف السبعة، والقراءات

ويقوم هذا البحث على ثلاثة مباحث وهي:

المبحث الأول: الأحرف السبعة.

١-الأدلة على نزول القرآن على سبعة أحرف.

٢- معنى الأحرف السبعة.

٣-الحكمة في نزول القرآن على سبعة أحرف.

٤- هل المصاحف العثمانية مشتملة على الأحرف السبعة أم لا؟.

المبحث الثاني: القراءات ونشأتها

١ – تعريف القراءات.

٢- نشأة القراءات.

٣- ضوابط القراءة الصحيحة.

٤- القراءة الشاذة معناها، وأنواعها.

٥- حكم الاحتجاج بالقراء الشاذة.

٦- الذي يقبل من القراءات والذي لا يقبل.

٧- الوجوه السبعة التي يقع فيها التغاير في القرآن ولا تخرج القراءات عنها.

٨- فائدة اختلاف القراءات وتنوعها، وعلى أي شيء يتوجه اختلاف القراءات.

٩- سبب الاقتصار على قراءة الأئمة المشهورين.

١٠- معنى إضافة القراءة إلى من قرأ بها.

١١- دور المصحف، والرسم العثماني في القراءات.

المبحث الثالث: الرد على الشبهات

الشبهة الأولى: ادعاؤهم أن نشأة القراءات كان بسبب خلو المصحف من النقط، والشكل.

الشبهة الثانية: الاختلاف في القراءات يوقع في شك وريب من القرآن.

الشبهة الثالثة: نزول القرآن على سبعة أحرف يخالف قول الله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

الشبهة الرابعة: معنى الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن هي القراءات السبع.

الشبهة الخامسة: نزول القرآن على سبعة أحرف ينافي ما هو مقرر من أن القرآن نزل بلغة قريش وحدها.

الشبهة السادسة: اتهام بعض القراء بالضعف كـ (عاصم، وحفص)؛ فكيف يقبل منهم القرآن؟!

وإليك التفصيل

المبحث الأول: الأحرف السبعة.

١ـ الأدلة على نزول القرآن على سبعة أحرف:

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ الْقَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ يَقُولُ: سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَؤُهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَقْرَأَنِيهَا، وَكِدْتُ أَنْ أَعْجَلَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَمْهَلْتُهُ حَتَّى انْصَرَفَ، ثُمَّ لَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ فَجِئْتُ بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَأْتَنِيهَا، فَقَالَ لِي: **"أَرْسِلْهُ"، ثُمَّ قَالَ لَهُ: "اقْرَأْ"**، فَقَرَأَ. قَالَ: **" هَكَذَا أُنْزِلَتْ ". ثُمَّ قَالَ لِي: " اقْرَأْ "، فَقَرَأْتُ، فَقَالَ: " هَكَذَا أُنْزِلَتْ. إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَاقْرَءُوا مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ "**(١).

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ عِنْدَ أَضَاةِ بَنِي غِفَارٍ قَالَ: فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ ﵇ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَقَالَ: **"أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفَيْنِ، فَقَالَ: أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، ثُمَّ جَاءَهُ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرُفٍ، فَقَالَ: أَسْأَلُ اللهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، ثُمَّ جَاءَهُ الرَّابِعَةَ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ،**

---

(١) البخاري (٢٤١٩)، ومسلم (٨١٨).

فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَءُوا عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا"(١).

وفي رواية أخرى عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَدَخَلَ رَجُلٌ يُصَلِّي فَقَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ قِرَاءَةً سِوَى قَرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَلَمَّا قَضَيْنَا الصَّلَاةَ دَخَلْنَا جَمِيعًا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنَّ هَذَا قَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، وَدَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَأَمَرَهُمَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَرَأَ، فَحَسَّنَ النَّبِيُّ ﷺ شَأْنَهُمَا، فَسَقَطَ فِي نَفْسِي مِنْ التَّكْذِيبِ وَلَا إِذْ كُنْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ الله ﷺ مَا قَدْ غَشِيَنِي ضَرَبَ فِي صَدْرِي فَفِضْتُ عَرَقًا، وَكَأَنَّمَا أَنْظُرُ إِلَى الله ﷻ فَرَقًا، فَقَالَ لِي: **"يَا أُبَيُّ، أُرْسِلَ إِلَيَّ أَنْ اقْرَأْ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّانِيَةَ اقْرَأْهُ عَلَى حَرْفَيْنِ فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّالِثَةَ اقْرَأْهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَلَكَ بِكُلِّ رَدَّةٍ رَدَدْتُكَهَا مَسْأَلَةٌ تَسْأَلُنِيهَا، فَقُلْتُ: اللهمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، اللهمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، وَأَخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ حَتَّى إِبْرَاهِيمُ ﷺ**(٢).

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: **"أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عليه السلام عَلَى حَرْفٍ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ"**(٣).

وعَنْ زِرٍّ عَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: **"لَقِيتُ جِبْرِيلَ عليه السلام عِنْدَ أَحْجَارِ الْمِرَاءِ فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، إِنِّي أُرْسِلْتُ إِلَى أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ- الرَّجُلُ، وَالْمَرْأَةُ، وَالْغُلَامُ، وَالْجَارِيَةُ، وَالشَّيْخُ الْفَانِي الَّذِي لَا يَقْرَأُ كِتَابًا قَطُّ. قَالَ: إِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**(٤).

قال السيوطي: وَرَدَ حديث **"نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ "** من رواية جمع من الصحابة، وعدهم إلى أن قال: فهؤلاء أحد وعشرون صحابيًا، وقد نص أبو عبيد على تواتره(٥).

---

(١) مسلم (٨٢١).

(٢) مسلم (٨٢٠).

(٣) البخاري (٣٢١٩)، ومسلم (٨١٩).

(٤) حسن. أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٤٠٠، ٤٠٥)، والطيالسي في مسنده (٥٤٣)، والترمذي في سننه (٢٩٤٤)، والبزار في مسنده (٢٩٠٨)، وأبو عمرو في الأحرف السبعة (٦) كلهم من طرق عن عاصم عن زر عن حذيفة به. قال الترمذي: حسن صحيح. قلت: هو حسن من أجل عاصم، وهو صدوق.

(٥) الإتقان (١/ ١٣١).

٢ـ معنى الأحرف السبعة

اختلف العلماء كثيرًا في المراد بالأحرف السبعة المذكورة في الأحاديث المذكورة التي تقدم ذكرها[1]، وهذا لا يعني أن كل هذه الأقوال صحيحة؛ بل بعضها ضعيف وهو أكثرها، وبعضها يدخل في بعض. وعلى هذا فيمكن تقسيم هذه الأقوال إلى أربعة طوائف وهي: [2]

الطائفة الأولي: وهم الذين أولوا مدلول الأحرف السبعة ولهم قولان:

الأول: أن هذا الحديث من المشكل المتشابه الذي لا يُعلم معناه، وذلك أن الحرف مشترك لفظي يصدق علي معانٍ كثيرة، و لم يعين المراد منها في الحديث.

الثاني: ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد، و إنما هو رمز لما ألفه العرب من معنى الكمال في هذا العدد.

الطائفة الثانية: رأت أن هذه الأحرف تتعلق بالمعاني وليس بالألفاظ، ثم اختلفوا في تحديد هذه المعاني إلى أقوال كثيرة منها:

١ـ أمر، وزجر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه.

٢ـ وعد، ووعيد، وحلال، وحرام، ومواعظ، وأمثال.

٣ـ ناسخ، ومنسوخ، وخصوص، وعموم، وقصص وغير ذلك.

الطائفة الثالثة: رأت أن المراد بالأحرف السبعة: الوجوه التي يقع بها التغاير والاختلاف في الكلمات القرآنية وهي سبع وجوه، وقد ذهب إلى هذا القول كثير من أهل العلم: ابن قتيبة، والباقلاني، والرازي، ومكي بن أبي طالب، وابن الجوزي، وغيرهم، واختلفوا في تحديد هذه الوجوه على أقوال نذكرها بعد ونجمع بينها إن شاء الله.

الطائفة الرابعة: رأت أن المراد بالأحرف السبعة هي سبع لغات من لغات العرب، وإلى هذا ذهب ابن جرير، والطحاوي، وسفيان، وأبو عبيد وغيرهم.

---

(١) الأحرف السبعة لأبي عمرو (٢٧)، والإبانة عن معاني القراءات لمكي بن أبي طالب (٥٣)، والبرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٢١٢)، والإتقان للسيوطي(١/ ١٣٠)، ومناهل العرفان (١/ ١٣٠)، وغيرهم كثير.

(٢) هذا التقسيم مقتبس من دراسات في علوم القرآن د/ فهد الرومي (٣٧٦-٣٩٣).

وقد اختلفوا في هذه السبع لغات على أقوال:

١ـ أنها سبع لغات من لغات العرب يدل عليها القرآن بمعنى: أن كلمات القرآن لا تخرج عن سبع لغات هي أفصح لغات العرب.

٢ـ سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد على معنى: أنه إذا اختلفت لغة العرب في كلمة جاء القرآن بسبع لغات منها.

هذا هو مجمل أقوال العلماء في هذه الأحرف.

وبعد البحث تبين أن الأقرب للصواب قول الطائفة الثالثة والرابعة وكلامهما يتداخل مع بعضهما.

قال ابن حجر: يمكن الجمع بين القولين بأن يكون المراد الأحرف تغاير الألفاظ مع اتفاق المعنى مع انحصار ذلك في سبع لغات[1].

٣ـ الحكمة في نزول القرآن على سبعة أحرف.

تتلخص حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف في أمور:

١ – تيسير القراءة والحفظ على قوم أميين، لكل قبيل منهم لسان، ولا عهد لهم بحفظ الشرائع فضلًا عن أن يكون ذلك مما ألفوه.

قال أبو عمرو الداني: وأما وجه إنزال القرآن هذه السبعة أحرف، وما الذي أراد تبارك اسمه بذلك؟ فإنه إنما أنزل علينا توسعة من الله تعالى على عباده، ورحمة لهم، وتخفيفًا عنهم عند سؤال النبي ﷺ إياه لهم، ومراجعته له فيه لعلمه ﷺ بما هم عليه من اختلاف اللغات، واستصعاب مفارقة كل فريق منهم الطبع والعادة في الكلام إلى غيره، فخفف تعالى عنهم وسهل عليهم بأن أقرهم على مألوف طبعهم وعادتهم في كلامهم[2].

ويدل على ذلك:

(١) فتح الباري٨/ ٦٤٧.

(٢) الأحرف السبعة(٣١)، وانظر: الإبانة لمكي بن أبي طالب (٥٩)، وشرح مسلم للنووي (٣/ ٣٦٢)، وفتح الباري(٣/ ٦٤٣).

٢- إعجاز القرآن للفطرة اللغوية عند العرب. فتعدد مناحي التأليف الصوتي للقرآن تعددًا يكافئ الفروع اللسانية التي عليها فطرة اللغة في العرب حتى يستطيع كل عربي أن يوقع بأحرفه وكلماته على لحنه الفطري ولهجة قومه مع بقاء الإعجاز الذي تحدى به الرسول ﷺ، ومع اليأس من معارضته لا يكون إعجازًا للسان دون آخر، وإنما يكون إعجازًا للفطرة اللغوية عند العرب.

٣- إعجاز القرآن في معانيه وأحكامه. فإن تقلب الصور اللفظية في بعض الأحرف والكلمات يتهيأ معه استنباط الأحكام التي تجعل القرآن ملائمًا لكل عصر[١].

٤- الأحرف السبعة من خصائص القرآن الكريم.

قال الطبري: وذلك أنّ كل كتاب تقدَّم كتابَنا نزولُه على نبيّ من أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم، فإنما نزل بلسان واحد، متى حُوِّل إلى غير اللسان الذي نزل به، كان ذلك له ترجمة وتفسيرًا لا تلاوةً له على ما أنزلهُ الله، وأنزل كتابنا بألسُن سبعة، بأيِّ تلك الألسن السَّبعة تلاه التالي، كان لهُ تاليًا على ما أنزله الله لا مترجِمًا ولا مفسِّرًا[٢].

٤ـ هل المصاحف العثمانية مشتملة على الأحرف السبعة أم لا؟

لقد اختلف العلماء في المسألة، وذهبوا فيها إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: بقي من الأحرف السبعة ما يحتمله رسم المصحف.

قال ابن الجزري: وذهب جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين إلى أن هذه المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط، جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبرائيل عليه السلام، متضمنة لها لم تترك حرفًا منها[٣].

---

(١) مباحث في علوم القرآن/ مناع القطان (١٦٠، ١٦١)، وانظر: مناهل العرفان (١/ ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٣٠).

(٣) النشر في القراءات العشر(١/ ٣١)، ومناهل العرفان (١/ ١٤٢)، والمصحف الشريف- أبحاث في تاريخه وأحكامه -للشيخ عبد الفتاح القاضي (٧٩)، ودراسات في علوم القرآن د/ فهد الرومي (٣٩٣).

قال أبو شامة: والحق أن الذي جمع في المصحف هو المتفق على إنزاله المقطوع به المكتوب بأمر النبي ﷺ، وفيه بعض ما اختلف فيه الأحرف السبعة لا جميعها[١].

قال مكي بن أبي طالب: هذه القراءات كلها التي يقرأ بها الناس اليوم، وصحت روايتها عن الأئمة، إنما هي جزء من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن.

وقال أيضًا: فالمصحف الذي كتب على حرف واحد، وخطه محتمل لأكثر من حرف؛ إذ لم يكن منقوطًا ولا مضبوطًا، فذلك الاحتمال الذي احتمل الخط هو من الستة أحرف الباقية[٢].

قال ابن الجزري: وهذا القول هو الذي يظهر صوابه؛ لأن الأحاديث الصحيحة والآثار المشهورة المستفيضة تدل عليه وتشهد له[٣].

القول الثاني: بقاء حرف واحد من الأحرف السبعة.

ذهب البعض إلى أنها لا تشتمل إلا على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن عليها وهو حرف قريش خاصة.

وذهب إلى هذا القول الطبري، والطحاوي، وابن عبد البر، وابن حبان وغيرهم[٤].

الأدلة على ذلك:

واستدلوا على ذلك بقول عثمان ؓ للقرشيين الثلاثة: (إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شيء مِنَ الْقُرْآنِ، فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ)[٥].

واحتجوا: بأن الأحرف السبعة نزلت في صدر الإسلام؛ للتيسير على الأمة ورفع الحرج والمشقة عنها في أمر القراءة، ولما ذللت الألسنة ومرنت على لغة قريش أمرت جميع القبائل بالقراءة بلغة قريش، كما أن القراءة باللغات الكثيرة كانت مثار نزاع وخلاف بين

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٨/ ٦٤٧).

(٢) الإبانة عن معاني القراءات (٢٣-٢٤).

(٣) النشر في القراءات العشر (١/ ٣١).

(٤) مناهل العرفان (١/ ١٤٢)، والمصحف الشريف -أبحاث في تاريخه وأحكامه للشيخ عبد الفتاح القاضي (٧٨)، ودراسات في علوم القرآن د/ فهد الرومي (٣٩٣)، وجمع القرآن الكريم في عهد الخلفاء الراشدين للسندي (١/ ٥٩).

(٥) البخاري (٣٥٠٦).

المسلمين، لذلك اقتصر عثمان ﷺ على لغة واحدة، وهي لغة قريش، أما القراءات الموجودة اليوم - على كثرتها وتعددها - فهي كلها تمثل حرفًا واحدًا فقط.

قال الطبري: ...والآثار الدالة على أن إمامَ المسلمين وأميرَ المؤمنين عثمانَ بن عفان ﷺ جمع المسلمين نظرًا منه لهم، وإشفاقًا منه عليهم، ورأفة منه بهم، حِذارَ الردّةِ من بعضهم بعدَ الإسلامِ، والدّخولِ في الكفر بعد الإيمان؛ إذ ظهر من بعضهم بمحضَره وفي عصره التكذيبُ ببعض الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، مع سماع أصحاب رسول الله ﷺ من رسول الله ﷺ النهيَ عن التكذيب بشيء منها، وإخباره إياهم أنّ المِراء فيها كفر - فحملهم رحمةُ الله عليه، إذْ رأى ذلك ظاهرًا بينهم في عصره، ولحَدَاثة عهدهم بنزول القرآن، وفراق رسول الله ﷺ إياهم بما أمِنَ عليهم معه عظيم البلاء في الدين من تلاوة القرآن - على حرف واحد.

وجمعهم على مصحف واحد، وحرف واحد، وخَرَّق ما عدا المصحف الذي جمعهم عليه. وعزم على كل من كان عنده مُصحفٌ مخالفٌ المصحفَ الذي جمعهم عليه، أن يخرقه. فاستوسقت (اجتمعت) له الأمة على ذلك بالطاعة، ورأت أنّ فيما فعلَ من ذلك الرشدَ والهداية، فتركت القراءة بالأحرف الستة التي عزم عليها إمامُها العادلُ في تركها، طاعةً منها له، ونظرًا منها لأنفسها ولمن بعدَها من سائر أهل ملتها، حتى دَرَست من الأمة معرفتها، وتعفت آثارها، فلا سبيلَ لأحد اليوم إلى القراءة بها، لدثورها وعُفُوِّ آثارها، وتتابعِ المسلمين على رفض القراءة بها، من غير جحود منها صحتَها وصحةَ شيء منها، ولكن نظرًا منها لأنفسها ولسائر أهل دينها. فلا قراءة للمسلمين اليوم إلا بالحرف الواحد الذي اختاره لهم إمامهم الشفيقُ الناصحُ، دون ما عداه من الأحرف الستة الباقية[1].

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٨)، وقد أورد الطبري إشكالًا على هذا القول ثم أجاب عليه فقال: فإن قال بعضُ من ضعفت معرفته: وكيف جاز لهم تَركُ قراءة أقرأهموها رسول الله ﷺ، وأمرهم بقراءتها؟

قيل: إنَّ أمرَه إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض، وإنما كان أمرَ إباحة ورخصة؛ لأنّ القراءة بها لو كانت فرضًا عليهم، لوجب أن يكونَ العلمُ بكل حرف من تلك الأحرف السبعة، عند من تقوم بنقله الحجة، ويقطع خبرهُ العذر، ويزيل الشك من قَرَأة (جمع قاريء) الأمة. وفي تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل

قال ابن تيمية: فَالَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ مِنْ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ أَنَّهَا حَرْفٌ مِنْ الْحُرُوفِ السَّبْعَةِ؛ بَلْ يَقُولُونَ: إنَّ مُصْحَفَ عُثْمَانَ هُوَ أَحَدُ الْحُرُوفِ السَّبْعَةِ وَهُوَ مُتَضَمِّنٌ للعرضة الْآخِرَةِ الَّتِي عَرَضَهَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَى جِبْرِيلَ وَالْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ الْمَشْهُورَةُ الْمُسْتَفِيضَةُ تَدُلُّ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ[1].

القول الثالث: **بقاء الأحرف السبعة كلها**.

ذهب جماعة من الفقهاء والقراء والمتكلمين إلى أنها كانت مشتملة على جميع الأحرف السبعة[2].

واحتجوا على ذلك بأنه لا يجوز على الأمة أن تهمل نقل شيء من الحروف السبعة التي نزل القرآن بها، وقد أجمع الصحابة على نقل المصاحف العثمانية من الصحف التي كتبها أبو بكر وعمر، وإرسال كل مصحف منها إلى مصر من أمصار المسلمين، وأجمعوا على ترك ما سوى ذلك. قال هؤلاء: ولا يجوز أن ينهى عن القراءة ببعض الأحرف السبعة، ولا أن يجمعوا على ترك شيء من القرآن[3].

والجواب عليهم:

بما قاله الطبري: وهو أن القراءة على الأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة، وإنما كان ذلك جائزًا لهم ومرخصًا فيه[4].

على أنهم كانوا في القراءة بها مخيرين، بعد أن يكون في نقلة القرآن من الأمة من تجبُ بنقله الحجة ببعض تلك الأحرف السبعة.

وإذْ كان ذلك كذلك، لم يكن القوم بتركهم نقلَ جميع القراءات السبع، تاركين ما كان عليهم نقله؛ بل كان الواجب عليهم من الفعل ما فعلوا. إذْ كانَ الذي فعلوا من ذلك، كان هو النَّظرَ للإسلام وأهله. فكان القيامُ بفعل الواجب عليهم بهم أولى من فعل ما لو فعلوه، كانوا إلى الجناية على الإسلام وأهله أقرب منهم إلى السلامة من ذلك. تفسير الطبري ١/ ٢٨.

(١) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٩٥.

(٢) النشر في القراءات العشر ١/ ٣١، ومناهل العرفان ١/ ١٤٢، ومجموع الفتاوى ١٣/ ٣٩٦، وفتح الباري ٨/ ٧٤٦، والإتقان ١/ ١٤٢.

(٣) النشر في القراءات العشر ١/ ٣١.

(٤) تفسير الطبري ١/ ٢٨، وقد تقدم ذكره في الهامش.

والراجح بعد عرض هذه الأقوال: هو القول الأول. والقول الثاني ينطوي تحته[١].

المبحث الثاني: القراءات ونشأتها

١ – تعريف القراءات

القراءة لغة: يقال قرأ الكتاب قراءة وقرآنًا أي: تتبع كلماته نظرًا ونطق به، أوتتبع كلماته ولم ينطق، وقرأ الآية من القرآن أي نطق بألفاظها عن نظر وعن حفظ، والقراءة مصدر لقرأ.

اصطلاحًا: والتعريف الاصطلاحي مبني على معرفة علم القراءات لذا نبدأ بتعريف علم القراءات وهو: علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزوًا لناقله، خرج بذلك النحو واللغة والتفسير وما أشبه ذلك[٢].

القراءة: مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء مخالفًا به غيره في النطق بالقرآن الكريم مع اتفاق الروايات والطرق عنه سواء أكانت هذه المخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئاتها[٣].

قال الزركشي: واعلم أن القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان. فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز، والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتبة الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتثقيل وغيرهما[٤].

٢ـ **نشأة القراءات**: لما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ومضى الناس يقرءون القرآن، ويقرئ بعضهم بعضًا بالحروف التي تلقوها عن الرسول ﷺ أو عن الحفظة المتقنين من الصحابة، وكان هؤلاء الحفظة يختلفون في بعض الأداء حسب سماعهم من رسول الله ﷺ وتفرق الصحابة في الأمصار، فأخذ هذا الخلاف في الأداء يشتد، فأمر عثمان بكتابة عدة

---

(١) النشر في القراءات العشر١/ ٢٨، المصحف الشريف -أبحاث في تاريخه وأحكامه- للشيخ عبد الفتاح القاضي (٨٤).

(٢) منجد المقرئين لابن الجزري (٤٩).

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٣٣٦.

(٤) البرهان في علوم القرآن ١/ ٣١٨.

نسخ من المصاحف على حرف قريش، وأمر بإحراق ما عدا هذه المصاحف حتى لا يدع فرصة لأي خلاف ممكن، وأمر المقرئين في كل الأمصار أن يقرئوا الناس على حروفها وأطاعته الأمة وأجمعت على ما تضمنته نسخ مصحف مهملة ما خالفها[(١)].

من ثَمَّ تتجلى لنا الحكمة في الترخيص للناس بشتى انتماءاتهم بقراءة القرآن بقدر ما تسعفهم به لهجاتهم، ثم الترخيص في العامين الأخيرين من عمر الرسالة المحمدية بعد أن كان الجميع يقرأ بحرف واحد. هذا التشريع البالغ الحكمة هو الذي ولد الولاء للقرآن في نفس كل مسلم، حتى إذا جاءت لحظة الخطر سنة ٣٠هـ سارع الناس بالتنازل عن الرخصة طائعين مختارين في سبيل الحفاظ على هوية القرآن والذي أصبح هوية لكل فرد منهم، وهذا هو السبب الجوهري في هذا الإجماع العبقري[(٢)].

٣ـ ضوابط القراءة الصحيحة. فالقراءة الصحيحة هي كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالًا، وصح سندها[(٣)] عند ابن الجزري ومن وافقه، أو تواترت[(٤)] عند جمهور القراء والأصوليين.

قال برهان الدين الجعبري[(٥)]: ضابط كل قراءة تواتر نقلها، ووافقت العربية، ورسم المصحف ولو تقديرًا، فهي من الأحرف السبعة المتفق عليه[(٦)].

وقال أبو شامة في شرح الشاطبية[(١)]: وذكر المحققون من أهل العلم بالقراءة ضابطًا حسنًا في تمييز ما يعتمد عليه من القراءات وما يطرح فقالوا: كل قراءة ساعدها خط المصحف، مع صحة النقل فيها، ومجيئها على الفصيح من لغة العرب فهي قراءة صحيحة معتبرة[(٢)].

---

(١) راجع مقدمة كتاب السبعة لابن مجاهد للدكتور شوقي ضيف (١٠-١١)، باختصار وتصرف يسير، وراجع الموضوع بالتفصيل في مقدمة الجمع (مبحث جمع عثمان).

(٢) إعجاز القراءات القرآنية (٥٥) باختصار وتصرف.

(٣) النشر (١/ ٩).

(٤) القول الجاذ لمن قرأ بالشاذ (٥٧).

(٥) هو الإمام إبراهيم بن عمر الجعبري الخليلي ت (٧٣٢هـ).

(٦) شرح الجعبري للشاطبية المسمى- كنز المعاني في شرح حرز الأماني (٣٠).

ومما سبق يتبين لنا أن ضوابط القراءة الصحيحة هي إجمالًا:

١- موافقة اللغة العربية بوجه من الوجوه سواء أكان أفصح، أم فصيحًا، راجحًا، أو مرجوحًا.

٢- أن توافق القراءة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالًا.

٣- على قولين: التواتر، أو صحة السند.

الشرح والبيان:

الضابط الأول: يشترط في القراءة الصحيحة أن توافق اللغة العربية سواء كانت هذه الموافقة لما هو شائع على ألسنة العرب، أو ما يسمى بالأفصح، أو كان أقل شيوعًا على ألسنتهم وهو الفصيح.

وقال ابن الجزري رحمه الله[٣]: وقولنا في الضابط: ولو في وجه، نريد به وجهًا من وجوه النحو، سواء كان أفصح، أم فصيحًا مجمعًا، أم مختلفًا فيه اختلافًا لا يضر مثله إذا كانت القراءة مما ذاع وشاع، وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح، إذ هو الأصل الأعظم والركن الأقوم، وهذا هو المختار عند المحققين في ركن موافقة العربية، فكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو أو كثير منهم ولم يعتبر إنكارهم؛ بل أجمع الأئمة المقتدى بهم على قبولها كإسكان (بارئْكم) و(يأمرْكم)... قال الحافظ أبو عمرو الداني[٤] في كتابه (جامع البيان[٥]) بعد ذكره إسكان (بارئْكم) و(يأمرْكم))[٦]لأبي عمرو[٧]، وحكاية إنكار

---

(١) هو الإمام عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان أبو شامة المقدسي الشافعي ت سنة٦٦٥هـ.

(٢) القول الجاذ (٦٠)، والمرشد الوجيز (٣٨٣).

(٣) هو الإمام الحافظ المقرئ المحقق أبو الخير محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف الجزري شمس الدين الدمشقي الشافعي، ونسبته إلى جزيرة ابن عمر قرب الموصل توفي سنة ٨٣٣هـ.

(٤) هو الإمام الحافظ أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد الداني صاحب كتاب التيسير في القراءات توفي سنة ٤٤٤هـ.

(٥) جامع البيان (٢/ ١٥).

(٦) يقصد إسكان الهمزة في بارئكم، والراء في يأمركم.

(٧) هو زبان بن العلاء بن عمار بن العريان أبو عمرو البصري توفي سنة ١٥٤ ليس في القراء السبعة أكثر شيوخًا منه.

سيبويه[١] له، فقال ـ أعني الداني ـ: والإسكان أصح في النقل وأكثر في الأداء وهو الذي أختاره وآخذ به. ثم لما ذكر نصوص رواته قال: و أئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية؛ بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل والرواية، إذا ثبت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة؛ لأن القراءة سنَّة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها. [٢]، وكما قال صاحب حرز الأماني: والمقصود بموافقة العربية موافقة ما كان مستعملًا في زمن النزول ولو كان أقل شيوعًا من غيره، وليس المقصود موافقة القواعد النظرية المجردة، حيث إن العلماء استمدوها من القرآن الكريم؛ لأنه أفصح الكلام قاطبة ثم من بقية كلام العرب، وقد حدث ذلك بعد موت النبي ﷺ واكتمال نزول القرآن، وعليه فالقرآن سابق لتدوين القواعد ولا يمكن للاحق أن يكون حكمًا على السابق، وفي هذا رد على شبهة أذاعها أعداء الدين وتبعهم بعض المتشككين الجاهلين.

الضابط الثاني: أن توافق القراءة أحد المصاحف العثمانية التي أمر عثمان ﷺ بكتابتها وإرسالها إلى الأمصار على خلاف في عددها، وقد تمت كتابة هذه المصاحف بأمر من عثمان ﷺ؛ سدًا للفتنة التي ظهرت بوادرها، ورأي طرفًا منها حذيفة بن اليمان ﷺ في فتح أرمينية فأفزعه ما رأى، فأشار على عثمان أن يتدارك الأمر[٣].

يقول ابن الجزري: ويعني بموافقة أحد المصاحف ما كان ثابتًا في بعضها دون بعض كقراءة ابن عامر[٤]، قالوا ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ في البقرة بغير واو ﴿وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ بزيادة الباء في الاسمين ونحو ذلك، فإن ذلك ثابت في المصحف الشامي، وكقراءة ابن كثير﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ في الموضع الأخير من سورة براءة بزيادة (من) فإن ذلك ثابت في المصحف المكي[١].

---

(١) هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر صاحب الكتاب وتلميذ الخليل توفي سنة ١٨٠هـ.

(٢) جامع البيان لأبي عمرو الداني (٢/ ٥ب). وانظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري ١ / ٢٠.

(٣) الحديث بطوله أخرجه البخاري(٤٩٨٧).

(٤) هو عبدالله بن عامر اليحصبي: أحد القراء السبعة أخذ القراءة عن المغيرة ابن أبي شهاب المخزومي عن عثمان ﷺ، إمام القراءة بالشام. توفي ١١٨هـ

وموافقة الرسم تأتي على ثلاثة أنواع:

أ- الموافقة التحقيقية، وهي الصريحة الموافقة للفظ القياسية التي لا يتطرق إليها الاحتمال مثل ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ففي قراءة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ تكون موافقة للرسم تحقيقًا إذ الأصل عدم النقط وكذا ﴿هَيْتَ لَكَ﴾.

ب-الموافقة التقديرية، وهي الموافقة الاصطلاحية، وهي ما خالف اللفظ، ومخالفة الرسم للفظ محصورة في خمسة أقسام وهي:

١-الدلالة على البدل. نحو ﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾.

٢-الدلالة على الزيادة. نحو ﴿ مَٰلِكِ﴾.

٣-الدلالة على الحذف. نحو ﴿ لَّٰكِنَّاْ هُوَ﴾.

٤-الدلالة على الفصل. نحو ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

٥-الدلالة على أن الأصل الوصل. نحو ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ﴾.

ج-الموافقة الاحتمالية، وهي ما وافق الرسم احتمالًا، ويدخل فيه ما وقع الاختلاف فيه بالحركة والسكون مثل(القدْس) بسكون الدال وتحريكها، والتخفيف والتشديد مثل (يَنْشُرُكُمْ) بيونس فتقرأ هكذا، وتقرأ ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾، و بعضهم أدخل بعض هذه الأنواع في بعض[٢].

الضابط الثالث: اختلف أهل العلم في هذا الضابط على قولين:

القول الأول: التواتر وهو قول جمهور أهل العلم من القراء والأصوليين والفقهاء؛ بل نقل بعضهم الإجماع على ذلك كما سيأتي. والمقصود بالتواتر هو ما قاله ابن الجزري: ما

---

(١) انظر النشر ١/ ١٦.

(٢) انظر النشر لابن الجزري(١/ ١٧)حيث عد هذه الأنواع نوعين، وانظر شرح أبي القاسم النويري (ت ٨٥٧) على طيبة النشر(١/ ١١٥-١١٧)، وكذلك الترمسي على الطيبة (١٠)، و شرح الرميلي على الدرة(٨)، وإتحاف فضلاء البشر للبنا الدمياطي(١٥-١٦) حيث زاد بعض أقسام مخالفة الرسم للفظ، وشرح الجعبري للشاطبية(٣٠)، وراجع المرشد الوجيز لأبي شامة (٣٨٣).

رواه جماعة عن جماعة كذا إلى منتهاه تفيد العلم من غير تعيين عدد، وقيل بالتعيين، واختلفوا فيه فقيل: ستة، وقيل: اثنا عشر، وقيل: عشرون، وقيل: أربعون، وقيل: سبعون، والذي جمع في زماننا هذه الثلاثة هو قراءة الأئمة العشرة[١].

بعض أقوال العلماء في هذا:

قال أبو القاسم النويري: أجمع الأصوليون كافة على أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر[٢].

وقال ابن حجر: صرح أئمة الفقه والأصول بأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، والمراد به: الاتفاق من مجتهدي كل عصر على أن ذلك قرآن فما حصل الاتفاق عليه حصل فيه الشرط[٣].

قال السرخسي: اعلم بأن الكتاب هو القرآن المنزل على رسول الله ﷺ، المكتوب في دفات المصاحف، المنقول إلينا على الأحرف السبعة المشهورة نقلًا متواترًا؛ لأن ما دون المتواتر لا يبلغ درجة العيان، ولا يثبت بمثله القرآن مطلقًا[٤].

وقال ابن النجار الحنبلي: القرآن لا يكون إلا متواترًا[٥].

وقال ابن تيمية: والعادة والشرع أوجبا أن ينقل القرآن نقلًا متواترًا كما نقلت جمل الشريعة نقلًا متواترًا مثل إيجاب الصلوات الخمس، وأن صلاة الحضر أربع إلا المغرب والفجر. [٦]

وقال ابن قدامة في تعريفه للقرآن: وهو ما نقل إلينا بين دفتي المصحف نقلًا متواترًا[٧]

وقال ابن الصلاح: لا يجوز القراءة إلا بما تواتر نقله واستفاض وتلقته الأمة بالقبول. [٨]

هذه بعض نصوص أهل العلم في اشتراط التواتر[١].

---

(١) منجد المقرئين (٨٠)، وانظر شرح الشاطبية للجعبري (٣٠-٣١)، وإتحاف فضلاء البشر للدمياطي(٨).

(٢) انظر القول الجاذ لمن قرأ بالشاذ (٥٧) ملحق بالجزء الأول من شرحه للطيبة.

(٣) فتوى للحافظ ابن حجر عن القراءات ملحق بكتاب المنجد لابن الجزري (٢٤١).

(٤) أصول السرخسي(١/ ٢٩١).

(٥) شرح الكوكب المنير(٢/ ١٢٦).

(٦) رسالة للشيخ ابن تيمية في تواتر القراءات مخطوطة منها جزء مطبوع ملحق بكتاب منجد المقرئين (٢٣٧).

(٧) روضة الناظر(١/ ١٩٩).

(٨) فتاوى ابن الصلاح (٨٥) ومنجد المقرئين(٨٥).

القول الثاني: صحة السند والاستفاضة والقبول من جموع الأمة من غير نكير، وهذا ما ذهب إليه ابن الجزري ونسبه إلى بعض المتقدمين من أهل العلم، قال ابن الجزري: وقولنا: وصح سندها فإنا نعني به: أن يروي تلك القراءة العدل الضابط عن مثله كذا حتى تنتهي، وتكون مع ذلك مشهورة عند أئمة هذا الشأن الضابطين له غير معدودة عندهم من الغلط أو مما شذ بها بعضهم، وقد شرط بعض المتأخرين التواتر في هذا الركن ولم يكتف فيه بصحة السند، وزعم أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر وأن ما جاء مجيء الآحاد لا يثبت به قرآن.

وتعقب أصحاب القول الأول بقوله: هذا مما لا يخفى ما فيه؛ فإن التواتر إذًا لا يحتاج فيه إلى الركنين الآخرين من الرسم وغيره؛ إذ ما ثبت من أحرف الخلاف متواترًا عن النبي ﷺ وجب قبوله، وقطع بكونه قرآنًا سواء وافق الرسم أم خالفه، وإذا اشترطنا التواتر في كل حرف من حروف الخلاف انتفى كثير من أحرف الخلاف الثابت عن هؤلاء الأئمة السبعة وغيرهم. ولقد كنت قبلُ أجنح إلى هذا القول ثم ظهر فساده وموافقة أئمة السلف والخلف. قال الإمام الكبير أبو شامة في مرشده: وقد شاع على ألسنة جماعة من المقرئين المتأخرين وغيرهم من المقلدين أن القراءات السبع كلها متواترة أي في كل فرد ممن روى عن هؤلاء الأئمة السبعة، قالوا: والقطع بأنها منزلة من عند الله واجب، ونحن بهذا نقول ولكن فيما اجتمعت على نقله عنهم الطرق، واتفقت عليه الفرق من غير نكير له مع أنه شاع واشتهر واستفاض فلا أقل من اشتراط ذلك إذا لم يتفق التواتر في بعضها.

وقال الجعبري: الشرط واحد وهو صحة النقل ويلزم الآخران[2].

وقال أبو شامة أيضًا: فكل قراءة ساعدها خط المصحف مع صحة النقل فيها ومجيئها على الفصيح من لغة العرب فهي قراءة صحيحة معتبرة[1].

---

(١) من أراد المزيد فليراجع: القول الجاذ (٦٠)، وجامع البيان والمنخول للغزالي (٢٨٢)، والبرهان للزركشي (١/ ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣)، والمجموع للنووي(٣/ ٣٤٣، ٣٩٢)، والبحر المحيط (١/ ٤٦٦) و المنتقى شرح الموطأ للباجي(٦/ ٢٢).

(٢) النشر ١/ ١٣، و المرشد الوجيز(٣٩١).

قال ابن الجزري:

فَكُلِ مَا وَافَق وَجْه نَحْوِ   وَكَانَ للرّسْمِ احْتِمالاً يَحْوِى
وَصَحَّ إسْناداً هُوَ الْقُرآنُ   فَهَذِهِ الثَّلاثَةُ الأَركَانُ[2]

مناقشة هذا الشرط:

تعقب النويري[3] شيخه ابن الجزري في قوله: وَصَحَّ إسْناداً. . . ، فقال: ظاهره أن القرآن يكتفي في ثبوته مع الشرطين المتقدمين بصحة السند فقط ولا يحتاج إلى تواتر، وهذا قول حادث مخالف لإجماع الفقهاء والمحدثين وغيرهم كما ستراه إن شاء الله.

نقول: كأن النويري أراد باشتراط التواتر سد الذريعة لعدم التساهل مع كتاب الله تعالى لذا أكمل فقال: ولقد ضل بسبب هذا القول قوم فصاروا يقرءون أحرفًا لا يصح لها سند أصلًا، ويقولون: التواتر ليس بشرط وإذا طولبوا بسند صحيح لا يستطيعون ذلك! ولا بد لهذه المسألة من بعض بسط، فأقول: القرآن عند الجمهور من أئمة المذاهب الأربعة هو ما نقل بين دفتي المصحف نقلًا متواترًا[4].

خلاصة القول:

اختلف العلماء على فريقين: فريق قال باشتراط التواتر، وفريق قال باشتراط صحة السند مع الاستقامة والقبول وعدم النكران، وظاهر القولين التعارض ولكن يمكن الجمع ودفع التعارض بينها على النحو التالي:

قول الجمهور باشتراط التواتر. أي تواتر مجمل القرآن وليس كل حروفه وأفراده؛ إذ إن ذلك غير حاصل، فكم من قراءة متواترة كما قال اشتملت على حروف لم تبلغ درجة

---

(١) المرشد الوجيز (٣٨١)، وانظر العواصم من القواصم لابن العربي(٣٦١).

(٢) طيبة النشر لابن الجزري، وانظر المرشد الوجيز أيضًا (٣٤٥)، ورجح الشوكاني في نيل الأوطار (٢/ ٢٤٩)، و إرشاد الفحول (٣١) قول ابن الجزري في مناقشته هذا الشرط.

(٣) رده الشوكاني في نيل الأوطار(٢/ ٢٤٩)، ورجح كلام ابن الجزري وأبي شامة بالخبرة بالفن والكثرة.

(٤) شرح النويري على طيبة النشر(١/ ١١٩-١٢٠)، وأشار إليه الدمياطي في إتحاف فضلاء البشر(٨)، وشرح الترمسي على الطيبة(١١)، وراجع البحر المحيط للزركشي(١/ ٤٦٧).

التواتر، و لذلك اعترض أبو شامة على من قال بتواتر كل فرد من أفراد القراءة الصحيحة كما سبق في كلامه.

قوله: وقد شاع على ألسنة جماعة من المقرئين المتأخرين وغيرهم من المقلدين أن القراءات السبع كلها متواترة أي: كل فرد فرد، وبهذا نفهم ما نص عليه ابن الجزري أكثر من مرة في كتبه باشتراط التواتر، فقال في كتابه منجد المقرئين: كل قراءة وافقت العربية مطلقًا، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو تقديرًا، وتواتر نقلها؛ هذه القراءة المتواترة المقطوع بها[(١)].

وهذا دفع لشبهة التعارض في كلام ابن الجزري.

ثم إن ابن الجزري وأبا شامة اشترطا مع صحة السند الاستفاضة والقبول والشهرة وعدم النكير، إذن فالصحة المجردة عن هذه الضوابط لا تكفي في قبول القراءة[(٢)].

قال أبو شامة: بل تكفي الآحاد الصحيحة مع الاستفاضة وموافقة خط المصحف بمعنى أنها لا تنافيه مع عدم المنكرين لها نقلًا وتوجيهًا من حيث اللغة[(٣)].

فكأن الاستفاضة تجبر النقص الذي في الآحاد الصحيح الذي لم يبلغ حد التواتر، فالاستفاضة درجة بين الآحاد والمتواتر كما قال إمام الحرمين في البرهان.

قال الأستاذ أبو إسحاق: المستفيض واسطة بين التواتر والآحاد[(٤)].

وبهذا يجتمع القولان ويزول التعارض، والله أعلم.

قال الزرقاني: إنما اكتفى القراء في ضابط القراءة المشهورة بصحة الإسناد مع الركنين الآخرين ولم يشترطوا التواتر: مع أنه لا بد منه في تحقق القرآنية لأسباب ثلاثة: -

---

(١) منجد المقرئين (٧٩)، وانظر: النشر (١/ ١٣).

(٢) انظر النشر (١/ ١٣).

(٣) المرشد الوجيز (ص٣٨١)

(٤) نقلًا من نفائس الأصول في شرح المحصول للقرافي (٧/ ٣٠٤٨)، وانظر: نحوه في البرهان وتعقيب أبي المعالي عليه (٢٢٣).

أحدها: أن هذا ضابط لا تعريف. والتواتر قد لوحظ في تعريف القرآن على أنه شطر أو شرط على الأقل. ولم يلحظ في الضابط؛ لأنه يغتفر في الضوابط ما لا يغتفر في التعاريف. فالضوابط ليست لبيان الماهية والحقيقة.

ثانيها: التيسير على الطالب في تمييز القراءات المقبولة من غيرها. فإنه يسهل عليه بمجرد رعايته لهذا الضابط أن يميز القراءات المقبولة من غير المقبولة. أما إذا اشترط التواتر فإنه يصعب عليه ذلك التمييز؛ لأنه يضطر في تحصيله إلى أن يصل إلى جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب في كل طبقة من طبقات الرواية. وهيهات أن يتيسر له ذلك.

ثالثها: أن هذه الأركان الثلاثة تكاد تكون مساوية للتواتر في إفادة العلم القاطع بالقراءات المقبولة. بيان هذه المساواة: أن ما بين دفتي المصحف متواتر ومجمع عليه من الأمة في أفضل عهودها وهو عهد الصحابة، فإذا صح سند القراءة، ووافقت قواعد اللغة، ثم جاءت موافقة لخط هذا المصحف المتواتر كانت هذه الموافقة قرينة على إفادة هذه الرواية للعلم القاطع وإن كانت آحادًا.

ثم قال: وهذا التوجيه الذي وجهنا به الضابط السالف يجعل الخلاف أنه لفظي، ويسير بجماعات القراء على جدد الطريق في تواتر القرآن، ومن سلك الجدد أمن العثار[(١)].

٤ - **القراءة الشاذة معناها، وأنواعها**.

سبق تعريف القراءة لغةً، أما الشاذ في اللغة فهو ما انفرد عن الجمهور وندر، فهو شاذ.

وأشذه غيره، وشذا الرجل إذا انفرد عن أصحابه، وكذلك كل شيء منفرد فهو شاذ.

وقيل: الشاذ المتفرد أو الخارج عن الجماعة، والشاذ ما خالف القاعدة أو القياس والشاذ من الناس خلاف السوي[(٢)].

القراءة الشاذة اصطلاحًا:

هي ما نقل قرآنًا من غير تواتر واستفاضة متلقاة بالقبول من الأمة[(١)].

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن(١/ ٣٤٦).

(٢) انظر لسان العرب والمعجم الوسيط مادة (شذذ).

وتخرج القراءة بالمعنى التي لم تنقل على أنها قرآن، فليس ذلك من القراءات الشاذة أصلًا، والمجترئ على ذلك مجترئ على عظيم وضال ضلالًا بعيدًا[٢].

وقال أبو شامة بعد ما ذكر ضوابط القراءة الصحيحة: فإن اختلت هذه الأركان الثلاثة أطلق على تلك القراءة أنها شاذة وضعيفة. أشار إلى ذلك كلام الأئمة المتقدمين[٣].

و قال ابن الجزري: ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة، سواء كانت عن السبعة أم عن من هو أكبر منهم، هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف، صرح بذلك الإمام الحافظ أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، ونص عليه في غير موضع الإمام أبو محمد مكي بن أبي طالب، وهو مذهب السلف الذي لا يعرف عن أحد منهم خلافه.[٤]

وقال ابن الجزري في طيبته:

وَحَيْثُمَا يَخْتَلَّ رُكْنٌ أَثْبِتِ   شُذُوذَهُ لَوْ أَنَّهُ فِي السَّبْعَةِ

أنواع القراءات الشاذة:

مما تقدم يمكن أن نحصر القراءات الشاذة في الأنواع التالية:

١ - الآحاد، وهو ما صح سنده، وخالف الرسم أو العربية، ولم يتواتر.

٢ - الشاذ، وهو ما فقد أحد الأركان الثلاثة أو معظمها.

٣- المدرج، وهو ما يزيد في القراءات على وجه التفسير.

٤ - الموضوع، وهو ما ينسب إلى قائله من غير أصل.

٥ - المشهور، وهو ما صح سنده، ولم يبلغ درجة التواتر، ووافق العربية والرسم.

قال الشيخ الترمسي في شرح الطيبة: القراءات أنواع:

---

(١) منجد المقرئين (٨٥)، وتقريب النشر (٢٧) نقله عن ابن الصلاح في فتاواه، انظر: فتاوى ابن الصلاح (٨٦)، والبرهان(١/ ٣٣٢).

(٢) المصادر السابقة.

(٣) المرشد الوجيز (٣٨١-٣٨٢)، والبحر المحيط (١/ ٤٧٤).

(٤) النشر (١/ ٩)، و انظر القول الجاذ (٥٧-٥٨).

الأول المتواتر: وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم إلى منتهاه، وغالب القراءات كذلك.

والثاني المشهور: وهو ما صح سنده، ولم يبلغ درجة التواتر، ووافق العربية والرسم، واشتهر عند القراء فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ كغالب ما اختلف الطرق في نقله عن السبعة، فرواه بعض عنهم دون بعض، وهي كثيرة في فرش الحرف من كتب الخلاف في القراءات كهذا المتن (يقصد طيبة النشر)و غيره.

والثالث الآحاد: وهو ما صح سنده، وخالف الرسم أو العربية، ولم يشتهر الاشتهار المذكور كقراءة (مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَارِفَ خُضْرٍ وَعَبَاقِرِيٍّ حِسَانٌ)، (فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّاتِ أَعْيُنٍ)، (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفَسِكُمْ) بفتح الفاء.

الرابع الشاذ: وهو ما لم يصح سنده كقراءة (مَلَكَ يَوْمَ) بصيغة الماضي ونصب يوم.

الخامس الموضوع: كقراءة الخزاعي وزيد.

السادس: وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير للآية[1]، كقراءة سعد بن أبي وقاص (وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ مِن أُم) وقراءة ابن عباس (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ في مواسِم الحج)[2].

والخلاصة: أن كل ما خرج عن القراءات العشر التي يقرأ بها اليوم عن القراء العشرة، فهي القراءة الشاذة، واتفق أئمة الفقه والأصول وجمهور القراء على ذلك، ولا يلتفت إلى من يخالف ذلك؛ لأن من شذ لم يقبل[3].

٥ـ حكم الاحتجاج بالقراء الشاذة:

اختلف أهل العلم في ذلك، وأجمل السيوطي فقال:

---

(١) تكلم السيوطي عن القراءة المدرجة في الإتقان (١/ ١١٩).

(٢) غنية الطلبة في شرح الطيبة للشيخ محمد محفوظ الترمسي (١/ ١١، ١٢).

(٣) راجع فتوى الحافظ ابن حجر ملحق بآخر البحث، وحاشية كتاب دراسات في علوم القرآن الكريم، د. فهد الرومي(٣٥٨).

اختلف في العمل بالقراءة الشاذة، فنقل إمام الحرمين في البرهان عن ظاهر مذهب الشافعي أنه لا يجوز، وتبعه أبو نصر القشيري، وجزم به ابن الحاجب؛ لأنه نقله على أنه قرآن ولم يثبت، وذكر القاضيان أبو الطيب والحسين والروياني والرافعي العمل بها تنزيلًا لها منزلة خبر الآحاد، وصححه ابن السبكي في جمع الجوامع وشرح المختصر، وقد احتج الأصحاب على قطع يمين السارق بقراءة ابن مسعود، وعليه أبو حنيفة أيضًا واحتج على وجوب التتابع في صوم كفارة اليمين بقراءته (مُتَتابِعَاتٍ)، ولم يحتج بها أصحابنا لثبوت نسخها[1].

التفصيل

القول الأول: إنها ليست حجة ولا يثبت بها حكم، وهذا ظاهر مذهب الشافعي والذي قاله أئمة المذهب، والمالكية وظاهر كلام ابن حزم ورواية عن أحمد.

قال إمام الحرمين الجويني: ظاهر مذهب الشافعي أن القراءة الشاذة التي لم تنقل تواترًا لا يسوغ الاحتجاج بها، ولا تنزل منزلة الخبر الذي ينقله آحاد من الثقات، ولهذا نفى التتابع واشتراطه في صيام الأيام الثلاثة في كفارة اليمين، ولم ير الاحتجاج بما نقله الناقلون من قراءة ابن مسعود في قوله تعالى (فَصِيَامُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مُتتابِعَات). [2]

وقال الغزالي: القراءة الشاذة المتضمنة لزيادة في القرآن مردودة كقراءة ابن مسعود في آية كفارة اليمين (فَصِيَامُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مُتتابِعَات)، فلا يشترط التتابع. [3]

وقال النووي: مذهبنا أن القراءة الشاذة لا يحتج بها، ولا يكون لها حكم الخبر عن رسول الله ﷺ[4].

---

(١) الإتقان للسيوطي (١/ ٢٢٨)، و أشار إلي هذا الاختلاف شيخ الإسلام في الفتاوى (٤/ ٤٢-٤٣)، وانظر: البحر المحيط للزركشي (١/ ٤٧٥)، وشرح الكوكب المنير لابن النجار (٢/ ١٣٩)، والمغني لابن قدامة (١١/ ٢٧٣)، والغزالي في المنخول(٢٨١-٢٨٢)، والمهذب في علم أصول الفقه المقارن د/ عبد الكريم النملة (٢/ ٤٨٢)، والبرهان للجويني (١/ ٢٥٧)، والحاوي الكبير (١٩/ ٣٨٩-٣٩٠)، والتبيان في آداب حملة القرآن للنووي(٤٧).

(٢) البرهان للجويني (١/ ٢٥٧).

(٣) المنخول للغزالي(٢٨٢).

(٤) شرح مسلم(٥/ ١٣١).

وقال ابن العربي: والقراءة الشاذة لا ينبني عليها حكم؛ لأنه لم يثبت لها أصل(١).

وقال أبو الوليد الباجي: القرآن لا يثبت إلا بالخبر المتواتر، وأما خبر الآحاد فلا يثبت به القرآن، وإذا لم يثبت بمثله قرآن؛ فمن مذهبنا أن من ادعى فيه أنه قرآن وتضمن حكمًا، فإنه لا يثبت ذلك الحكم إلا أن يثبت بما يثبت به القرآن من الخبر المتواتر؛ لأن ذلك الحكم ثبوته فرع عن ثبوت الخبر قرآنًا. (٢)

وقال ابن حزم: في معرض الرد على من قال: إن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر: من العجب احتجاجكم بهذه الزيادة ـ يعني زيادة صلاة العصر ـ التي أنتم مجمعون معنا على أنها لا يحل لأحد أن يقرأ بها ـ ولا أن يكتبها في مصحفه، وفي هذا بيان أنها روايات لا تقوم بها حجة. (٣)

وقال الشوكاني: لكونه كلام الرب سبحانه، وكونه مشتملًا على الأحكام الشرعية، وكونه معجزًا، وما كان كذلك فلا بد أن يتواتر، فما لم يتواتر، فليس بقرآن. هكذا قرر أهل الأصول التواتر، وقد ادعي تواتر كل واحدة من القراءات السبع، ثم ذكرها وادعى أيضًا تواتر القراءات العشر وذكرها، ثم قال: وليس على ذلك أثارة من علم؛ فإن هذه القراءات كل واحدة منها منقولة نقلًا آحاديًا كما يعرف ذلك من يعرف أسانيد هؤلاء القراء لقراءاتهم، وقد نقل جماعة من القراء الإجماع على أن في هذه القراءات ما هو متواتر، وفيها ما هو آحاد، ولم يقل أحد منهم بتواتر كل واحدة من السبع فضلًا عن العشر، وإنما هو قول قاله بعض أهل الأصول، وأهل الفن أخبر بفنهم(٤).

تعقيب:

تعقب جمال الدين الإسنوي الجويني والنووي وغيرهما ممن نقل أن الشافعي لا يحتج بالقراءة الشاذة، فقال: وما قالوه جميعه خلاف مذهب الشافعي وخلاف قول جمهور أصحابه، فقد نص الشافعي في موضعين من مختصر البويطي على أنها حجة، ذكر ذلك في

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي(١/ ٧٩).

(٢) المنتقي شرح الموطأ للباجي(٦/ ٢٢).

(٣) المحلى(٤/ ٢٥٥).

(٤) إرشاد الفحول(٣٠-٣١).

باب الرضاع، وفي باب تحريم الحج، وجزم به الشيخ أبو حامد في الصيام وفي الرضاع، والماوردي في الموضعين أيضًا، والقاضي أبو الطيب في موضعين من تعليقاته: أحدهما: الصيام، والثاني: في باب وجوب العمرة، والقاضي الحسين في الصيام، والمحاملي في الأيام من كتابه المسمي- عدة المسافر وكفاية الحاضر-، وابن يونس شارح التنبيه في كتاب الفرائض في الكلام على ميراث الأخ لأم، وجزم به الرافعي في باب حد السرقة، والذي وقع للإمام فقلده فيه النووي مستنده عدم إيجابه التتابع في كفارة اليمين بالصوم مع قراءة ابن مسعود السابقة، وهو منع عجيب! ؛ فإن عدم الإيجاب يجوز أن يكون لعدم ثبوت ذلك عن الشافعي، أو لقيام معارض[1].

ولم نقف على ما ذكره الإسنوي من النصوص عن الشافعي وأصحابه إلا ما ذكره المزني في مختصره، فقال عن الشافعي، وقال في كتاب الصيام: إن صيام كفارة اليمين متتابع، والله أعلم[2].

وذكره الماوردي نقلًا عن المزني وذكره أحد القولين للشافعي في أن التتابع في صيام الكفارة عن اليمين شرط، وقال: واختاره المزني، فإن صام متفرقًا لم يجزه استدلالًا بقراءة ابن مسعود (فَصِيَامُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مُتتابِعَات)، وقراءة أُبيٍّ (فَصِيَامُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مُتتابِعَة)[3].

حجة أصحاب هذا القول:

قال إمام الحرمين: إن القرآن قاعدة الإسلام، وقطب الشريعة، وإليه رجوع جميع الأصول، ولا أمر في الدين أعظم منه، وكل ما يحل خطره ويعظم وقعه لاسيما في الأمور الدينية فأصحاب الأديان يتناهون في نقله وحفظه، ولا يسوغ في اضطراد الاعتبار رجوع الأمر فيه إلى نقل الآحاد مادامت الدواعي متوفرة، والنفوس إلى ضبط الدين متشوقة.

إن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعوا في زمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه على ما بين

---

(١) التمهيد في تخريج الفروع على الأصول للإسنوي أبي محمد الشافعي(١٤٢-١٤٣).

(٢) مختصر المزني(٢٩٣).

(٣) الحاوي الكبير للماوردي (ت: ٤٥)، وهو يشرح فيه مختصر المزني(١٩/ ٣٨٩).

الدفتين وطرحوا ما عداه، وكان ذلك عن اتفاق منهم، وكل زيادة لا تحويها الأم ولا تشتمل عليها الدفتان، فهي غير معدودة في القرآن[١].

قال الغزالي: ومعتمدنا شيئان: أحدهما: أن الشيء إنما يثبت من القرآن إما لإعجازه[٢]، و إما لكونه متواترًا، ولا إعجاز ولا تواتر (أي في القراءة الشاذة)، ومناط الشريعة وعمدتها تواتر القرآن، ولولاه لما استقرت النبوة وما يبني على الاستفاضة لتوفر الدواعي على نقله كيف يقبل فيه رواية شاذة؟ [٣].

المسلك الثاني: مبنانا فيما نأتي ونذر الاقتداء بالصحابة ﭬ، وقد كانوا لا يقبلون القراءة الشاذة[٤].

ولذلك جمع عثمان ﭬ المسلمين على مصحف واحد، ورد وأحرق كل ما سواه مما كان فيه قرآن، ومن المعلوم أن عثمان ﭬ ممن أمرنا باتباع سنتهم، ولذلك قال ابن عبد البر: وأجمع العلماء أن ما في مصحف عثمان بن عفان ﭬ، وهو الذي بأيدي المسلمين اليوم في أقطار الأرض حيث كان هو القرآن المحفوظ الذي لا يجوز لأحد أن يتجاوزه، ولا تحل الصلاة لمسلم إلا بما فيه، وأن كل ماروي من القراءات في الآثار عن النبي ﷺ أو غيرهم من الصحابة مما يخالف مصحف عثمان المذكور لا يقطع بشيء من ذلك على الله ﻷ[٥].

قال النووي: لأن ناقلها لم ينقلها إلا على أنها قرآن، والقرآن لا يثبت إلا بالتواتر بالإجماع[٦]، و إذا لم يثبت قرآنًا لا يثبت خبرًا[٧].

---

(١) البرهان للجويني(١/ ٢٥٧)

(٢) هذا كلام فيه نظر؛ لأن ظاهره أنه إذا ثبت الإعجاز ولم يكن متواترًا فيسمى قرآنًا، ثم ما هو ضابط الإعجاز إذ تتفاوت الأفهام وتختلف العقول فما يكون معجزًا عند بعضهم لا يكون عند الآخر كذلك، و إنما نزل القرآن معجزًا لكل الخلق.

(٣) المنخول (٢٨٢).

(٤) السابق.

(٥) التمهيد (٤/ ٢٧٨-٢٧٩، ٢٩٩). .

(٦) خالفه في ذلك ابن الجزري ومن معه وقد سبق.

(٧) شرح مسلم (٥/ ١٣١).

و قال ابن عبد البر: وإنما حل مصحف عثمان ﷺ هذا المحل؛ لإجماع الصحابة وسائر الأمة عليه، ولم يجمعوا على ما سواه، ويبين لك هذا أن من دفع شيئًا ممن في مصحف عثمان كفر ومن دفع ما جاء في هذه الآثار وشبهها من القراءات لم يكفر.

القول الثاني: قال أصحابه إنها حجة، تثبت بها الأحكام وتعامل معاملة خبر الواحد، ذهب إلى ذلك الحنفية والحنابلة والشافعي في رواية البويطي، وبعض المالكية ورجحه الشوكاني في إرشاد الفحول[١].

قال ابن النجار الحنبلي في أثناء كلامه عن القرآن: وما صح منه أي مما لم يتواتر حجة عند أحمد وأبي حنيفة والشافعي فيما حكاه عنه البويطي في باب الرضاع وفي تحريم الجمع، وعليه أكثر أصحابه[٢]. وقالوا لأنه إما قرآن، أو خبر، وكلاهما موجب للعمل[٣].

قال ابن قدامة: فأما ما نقل نقلًا غير متواتر كقراءة ابن مسعود ﷺ (فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَات) فقد قال قوم ليس بحجة؛ لأنه خطأ قطعًا؛ لأنه واجب على الرسول تبليغ القرآن طائفة من الأمة تقوم الحجة بقولهم، وليس له مناجاة الواحد به، وإن لم ينقله على أنه من القرآن احتمل أن يكون مذهبًا، واحتمل أن يكون خبرًا ومع التردد لا يعمل به، والصحيح أنه حجة؛ لأنه يخبر أنه سمعه من النبي ﷺ، فإن لم يكن قرآنًا فهو خبر، فإنه ربما سمع الشيء من النبي ﷺ تفسيرًا فظنه قرآنًا، ففي الجملة لا يخرج عن كونه مسموعًا من النبي ﷺ ومرويًا عنه فيكون حجة كيف ما كان، وقولهم: يجوز أن يكون مذهبًا له؟ قلنا: لا يجوز ظن مثل هذا بالصحابة ﷺ، فإن هذا افتراء على الله تعالى وكذب عظيم؛ إذ جعل رأيه ومذهبه الذي ليس هو عن الله تعالى ولا عن رسوله قرآنًا، والصحابة ﷺ لا يجوز

---

(١) إرشاد الفحول(٣١).

(٢) وهذا موافق لما قاله الإسنوي.

(٣) شرح الكوكب المنير(٢/ ١٣٨).

نسبة الكذب إليهم في حديث النبي ﷺ ولا في غيره، فكيف يكذبوه في جعل مذاهبهم قرآنًا؟! هذا باطل يقينًا[١].

قال ابن مفلح: قال الخصم: لم يصرح بكونه قرآنًا، ثم لو صرح فعدم شرط القراءة لا يمنع صحة سماعه فيقول: هو مسموع من الشارع وكل قوله حجة وهذا واضح[٢].

وكأن ابن مفلح يرد على النووي ومن تابعه أو قال بمثل قوله في شرح مسلم حيث قال: لأن ناقلها لم ينقلها إلا علي أنها قرآن، والقرآن لا يثبت إلا بالتواتر بالإجماع، وإذا لم يثبت قرآنًا يثبت خبرًا، والمسألة محررة في أصول الفقه وفيها خلاف بيننا وبين أبي حنيفة رحمه الله[٣].

وقال الماوردي: والقراءة الشاذة تقوم مقام خبر الواحد في وجوب العمل؛ لأنها منقولة عن الرسول ﷺ فأما قراءة ابن مسعود وأُبيٍّ فإنها تجري في وجوب العمل بها مجرى خبر الواحد إذا أطلقت جرت مجرى التأويل دون التنزيل، ثم لو سلمت لحملت على الاستحباب وإطلاقها على الجواز[٤].

و قال أبو بكر السرخسي: وعندنا شرط التتابع فيه (صيام الفدية للحاج)ليس بحمل المطلق على المقيد؛ بل بقراءة ابن مسعود ﷺ (فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَات)، وقراءته لا تكون دون خبر يرويه وقد كان مشهورًا إلى عهد أبي حنيفة رحمه الله، وبالخبر المشهور تثبت الزيادة على النص[٥].

قال ابن قدامة: إن كان قرآنًا فهو حجة؛ لأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإن لم يكن قرآنًا فهو رواية عن النبي ﷺ تفسيرًا، فظنَّاه قرآنًا فتثبت له رتبة

---

(١) روضة الناظر(١/ ٢٠٣-٢٠٥)، و انظره بنحوه في شرح الكوكب المنير(٢/ ١٣٩).

(٢) شرح الكوكب المنير (٢/ ١٣٩-١٤٠).

(٣) شرح مسلم(٥/ ١٣٠).

(٤) الحاوي (١٩/ ٣٨٩-٣٩٠)، وراجع البحر المحيط(١/ ٤٧٨).

(٥) أصول السرخسي(١/ ٢٨٠).

الخبر ولا ينقص عن درجة تفسير النبي ﷺ للآية، وعلى التقدير فهو حجة يصار إليه[١].

تعقيب للغزالي على من قال: تعامل معاملة خبر الواحد. قال: فإن قيل: لا ينحط عن خبر الواحد فليعمل به، قلنا: العمل به ينبني على كونه من القرآن، وبطل ذلك، ثم مستندنا في العمل بخبر الواحد سيرة الصحابة وهم لم يعملوا به[٢].

قال الزركشي: ويخرج من كلام أبي الحسين في المعتمد مذهب رابع فإنه قال في باب الأخبار: القرآن المنقول بالآحاد إما أن يظهر فيه الإعجاز أولا؛ فإن لم يظهر جاز أن يعمل بما تضمنه من عمل إذا نقل إلينا بالآحاد كقراءة ابن مسعود متتابعات، وإن ظهر فهو حجة للنبوة ولا يكون حجة إلا وقد علم أنه لم يعارض في عصر النبيﷺ مع سماع أهل عصره له ولا يعلم ذلك إلا وقد تواتر نقل ظهوره في ذلك العصر[٣].

الذي يقبل من القراءات والذي لا يقبل.

قال مكي بن أبي طالب: فإن سأل سائل فقال: فما الذي يقبل من القرآن الآن فيقرأ به، وما الذي لا يقبل ولا يقرأ به، وما الذي يقبل ولا يقرأ به؟

فالجواب أن جميع ما روي في القرآن على ثلاثة أقسام:

قسم يقرأ به اليوم، وذلك ما اجتمع فيه ثلاث خلال، وهي أن ينقل عن الثقات عن النبيﷺ، ويكون وجهه في العربية التي نزل بها القرآن شائعًا، ويكون موافقًا لخط المصحف. فإذا اجتمعت فيه هذه الخلال الثلاث قرئ به، وقطع على مغيبه وصحته وصدقه؛ لأنه أخذ عن إجماع من جهة موافقة خط المصحف وكفرَ من جحده.

---

(١) المغني(١١/ ٢٧٣).

(٢) المنخول (٢٨٣).

(٣) البحر المحيط(١/ ٤٧٨).

والقسم الثاني ما صح نقله عن الآحاد وصح وجهه في العربية، وخالف لفظه خط المصحف؛ فهذا يقبل ولا يقرأ به لعلتين(١):

إحداهما: أنه لم يوجد بإجماع، إنما أخذ بأخبار الآحاد، ولا يثبت قرآن يقرأ به بخبر الواحد.

والعلة الثانية: أنه مخالف لما قد أجمع عليه فلا يقطع على مغيّبه وصحته، وما لم يقطع على صحته لا يجوز القراءة به، ولا يكفر من جحده وبئسما ما صنع إذا جحده.

والقسم الثالث: هو ما نقله غير ثقة، أو نقله ثقة ولا وجه له في العربية.

فهذا لا يقبل، وإن وافق خط المصحف، قال: ولكل صنف من هذه الأقسام تمثيل تركنا ذكره اختصارًا(٢).

ثم انبرى المحقق ابن الجزري لذاك التمثيل الذي تركه مكي اختصارًا فقال:

ومثال القسم الأول: (مَالِكِ وَمَلِكِ)، (وَيَخْدَعُونَ وَيُخَادِعُونَ)، (وَأَوْصَى وَوَصَّى)، (و يَطَّوَّعْ وتَطَوَّع) ونحو ذلك من القراءات المشهورة.

مثال القسم الثاني: قراءة عبد الله بن مسعود وأبي الدرداء: (الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى) في ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ - بحذف لفظ ما خلق-، وقراءة ابن عباس (وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا. وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا) - بإبدال كلمة (أمام) من كلمة (وراء)، وبزيادة كلمة(صالحة)، وأما الغلام فكان كافرا بزيادة كلمة (كافرًا)، ونحو ذلك مما ثبت بروايات الثقات.

---

(١) ومعنى هذا: أنه يقبل على اعتبار أنه خبر شرعي يصح الاحتجاج به عند من يرى ذلك وهم الحنفية دون الشافعية، ولا يقرأ به على أنه قرآن، ولا ليوهم القارئُ أحدًا أنه قرآن. قال النويري: " اعلم الذي استقرت عليه المذاهب وآراء العلماء أن من قرأ بها أي ـ الشواذ ـ غير معتقد أنها قرآن ولا موهم أحدًا ذلك لما فيها من الأحكام الشرعية عند من يحتج بها أو الأحكام الأدبية؛ فلا كلام في جواز قراءتها. وعلى هذا يحمل حال من قرأ بها عند المتقدمين. وكذلك أيضا يجوز تدوينها في الكتب والتكلم على ما فيها. وإن قرأها باعتقاد قرآنيتها أو لإيهام قرآنيتها حرم ذلك. ونقل ابن عبد البر في تمهيده إجماع المسلمين عليه اهـ. مناهل العرفان في علوم القرآن(١/ ٣٤٤).

(٢) الإبانة عن معاني القراءات ٤٠: ٣٩.

ومثال القسم الثالث: مما نقله غير ثقة كثير مما في كتب الشواذ مما غالب إسناده ضعيف، كقراءة ابن السميفع وأبي السمال وغيرهما في ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ (نُنَحِّيكَ): بالحاء المهملة. ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ (يونس: ٩٢) بفتح سكون اللام (خَلَفَك)، وكالقراءة المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة رحمه الله التي جمعها أبو الفضل محمد بن جعفر الخزاعي ونقلها عنه أبو القاسم الهذلي وغيره فإنها لا أصل لها، قال أبو العلاء الواسطي: إن الخزاعي وضع كتابًا في الحروف نسبه إلى أبي حنيفة فأخذت خط الدارقطني وجماعة أن الكتاب موضوع لا أصل له.

قلت: وقد رويت الكتاب المذكور ومنه (إِنَّمَا يَخْشَى اللهُ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءَ) برفع الهاء ونصب الهمزة. وقد راج ذلك على أكثر المفسرين ونسبها إليه وتكلف توجيهها، وإن أبا حنيفة لبرئ منها.

ومثال ما نقله ثقة ولا وجه له في العربية ولا يصدر مثل هذا إلا على وجه السهو والغلط وعدم الضبط ويعرفه الأئمة المحققون والحفاظ الضابطون، وهو قليل جدًا؛ بل لا يكاد يوجد، وقد جعل بعضهم منه رواية خارجة عن نافع (مَعَائِشَ) بالهمز.

وما رواه ابن بكار عن أيوب عن يحيى عن ابن عامر من فتح ياء (أَدْرِيَ أَقَرِيبٌ) مع إثبات الهمزة، وهي رواية زيد وأبي حاتم عن يعقوب. **وما رواه** أبو علي العطار عن العباس عن أبي عمرو (سَاحِرَانِ تَظَّاهَرَا) بتشديد الظاء، والنظر في ذلك لا يخفى[1].

قال ابن الجزري: وبقي قسم مردود أيضًا: وهو ما وافق العربية والرسم ولم ينقل البتة، فهذا رده أحق، ومنعه أشد، ومرتكبه مرتكب لعظيم من الكبائر، وقد ذكر جواز ذلك عن أبي بكر محمد بن الحسن بن مقسم البغدادي المقري النحوي وكان بعد الثلاثمائة.

قال الإمام أبو طاهر بن أبي هاشم في كتابه البيان: وقد نبغ نابغ في عصرنا فزعم أن كل من صح عنده وجه في العربية بحرف من القرآن يوافق المصحف؛ فقراءته جائزة في الصلاة وغيرها، فابتدع بدعة ضل بها عن قصد السبيل.

---

(١) النشر في القراءات العشر (١/ ١٦: ١٥)، وانظر مناهل العرفان (١/ ٣٤٤).

قلت: وقد عقد له بسبب ذلك مجلس ببغداد حضره الفقهاء والقراء وأجمعوا على منعه، وأوقف للضرب؛ فتاب ورجع وكتب عليه بذلك محضر كما ذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد وأشرنا إليه في الطبقات(١).

---

(١) النشر في القراءات العشر (١/ ١٧).

موقف العلماء من محمد بن الحسن بن يعقوب، وابن شنبوذ:

أولًا: محمد بن الحسن.

قال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: كان ابن مقسم من أحفظ الناس لنحو الكوفيين، وأعرفهم بالقراءات، وله في التفسير ومعاني القرآن كتاب جليل سماه كتاب (الأنوار)، وله أيضًا في القراءات وعلوم النحو تصانيف عدة، ومما طُعن عليه به أنه عمد إلى حروف من القرآن فخالف الإجماع فيها، وقرأها وأقرأها على وجوه ذكر أنها تجوز في اللغة والعربية، وشاع ذلك عند أهل العلم فأنكروه عليه، وارتفع الأمر إلى السلطان فأحضره واستتابه بحضرة القراء والفقهاء فأذعن بالتوبة وكتب محضر بتوبته، وأثبت جماعة من حضر ذلك المجلس خطوطهم فيه بالشهادة عليه، وقيل: إنه لم ينزع عن تلك الحروف وكان يُقرئ بها إلى حين وفاته، وقد ذكر حاله أبو طاهر بن أبي هاشم المقرئ صاحب أبي بكر بن مجاهد في كتابه الذي سماه كتاب (البيان) فقال: فيما أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عمر المقرئ قال: أنبأنا أبو طاهر عبد الواحد بن عمر بن محمد بن أبي هاشم قال: وقد نبغ نابغ في عصرنا هذا فزعم أن كل ما صح عنده وجه في العربية لحرف من القرآن يوافق خط المصحف فقراءته جائزة في الصلاة وغيرها! ، فابتدع بقيله ذلك بدعة ضل بها عن قصد السبيل، وأورط نفسه في مذلة عظمت بها جنايته على الإسلام وأهله، وحاول إلحاق كتاب الله من الباطل مالا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه؛ إذ جعل لأهل الإلحاد في دين الله بسيئ رأيه طريقًا إلى مغالطة أهل الحق بتخير القراءات من جهة البحث والاستخراج بالآراء دون الاعتصام والتمسك بالأثر المفترض، وقد كان أبو بكر شيخنا نضر الله وجهه نشله من بدعته المضلة باستتابته منها، وأشهد عليه الحكام والشهود المقبولين عند الحكام بتركه ما أوقع نفسه فيه من الضلالة بعد أن سئل البرهان على صحة ما ذهب إليه؛ فلم يأت بطائل، ولم يكن له حجة قوية ولا ضعيفة، واستوهب أبو بكر ﷺ تأديبه من السلطان عند توبته وإظهاره الإقلاع عن بدعته، ثم عاود في وقتنا هذا إلى ما كان ابتدعه واستغوى من أصاغر المسلمين ممن هو في الغفلة والغباوة دونه ظنًا منه أن ذلك يكون للناس دينًا وأن يجعلوه فيما ابتدعه إمامًا، ولن يعدو ما ضل به مجلسه؛ لأن الله قد أعلمنا أنه حافظ كتابه من لفظ الزائفين وشبهات الملحدين بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾، ثم ذكر أبو طاهر كلامًا كثيرًا وقال بعده: وقد دخلت عليه شبهة لا تخيل بطولها وفسادها على ذي لب وفطنة صحيحة، وذلك أنه قال: لما كان لخلف بن هشام، وأبي عبيد، وابن سعدان أن يختاروا

وكان ذلك لهم مباحًا غير منكر كان ذلك لي أيضًا مباحًا غير مستنكر، فلو كان حذا حذوهم فيما اختاروه وسلك طريقًا كطريقهم كان ذلك مباحا له ولغيره غير مستنكر، وذلك أن خلفًا ترك حروفًا من حروف حمزة، واختار أن يقرأ على مذهب نافع، وأما أبو عبيد وابن سعدان فلم يتجاوز واحد منهما قراءة أئمة القراءة بالأمصار، ولو كان هذا الغافل نحا نحوهم كان مسوغًا لذلك غير ممنوع منه ولا معيب عليه؛ بل إنما كان النكير عليه شذوذه عما عليه الأئمة الذين هم الحجة فيما جاءوا به مجتمعين مختلفين. (تاريخ بغداد٢/ ٢٠٨).

ثانيًا: ابن شنبوذ.

وعُقد مجلس آخر لاستتابة ابن شنبوذ الذي كان يقرأ بحروف مخالفة لرسم المصحف وأعلن توبته ورجوعه، وإليك قصته بالتفصيل لما فيها من الفوائد:

هو الإمام محمد بن أحمد بن أيوب بن الصلت بن شنبوذ المقرئ كان من مشاهير القراء وأعيانهم، وتفرد بقراءات من الشواذ كان يقرأ بها في المحراب فأنكرت عليه، وبلغ ذلك الوزير أبا علي محمد بن مقلة الكاتب المشهور، فاعتقله واستحضر الوزير المذكور القاضي أبا الحسين عمر بن محمد وأبا بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد المقرئ وجماعة من أهل القرآن، وأحضر ابن شنبوذ المذكور، ونوظر بحضرة الوزير ابن مقلة، ثم أوقفوه على الحروف التي قيل إنه يقرأ بها، فأنكر ما كان شنيعًا، وقال فيما سواه: إنه قرأ به قوم، فاستتابوه فتاب، وقال: إنه قد رجع عما كان يقرؤه، وإنه لا يقرأ إلا بمصحف عثمان بن عفان ﷺ وبالقراءة المتعارفة التي يقرأ بها الناس، فكتب عليه الوزير محضرًا بما قاله، وأمره أن يكتب خطه في آخره، فكتب ما يدل على توبته؛ ونسخة المحضر: سئل محمد بن أحمد المعروف بابن شنبوذ عما حكي عنه أنه يقرؤه، وهو (. . . إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ اللهِ)، فاعترف به، وعن (وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)، فاعترف به، وعن (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَقَدْ تَبَّ)، فاعترف به، وعن (. . . كَالصُّوفِ المَنْفُوشِ)، فاعترف به، وعن (فَالْيَوْمَ نُنَحِّيكَ بِبدَنِكَ)، "فاعترف به، وعن (وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا)، فاعترف به، وعن (فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الإِنْسُ أَنَّ الجِنَّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُواحولًا فِي العَذَابِ المُهِينِ)، فاعترف به، وعن (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى. وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَالذَّكَرَ وَالأُنْثَى)، فاعترف به، وعن (فَقَدْ كَذَّبَ الكَافِرُونَ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا)، فاعترف به، وعن (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ فِئَةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيَسْتَعِينُونَ اللهَ عَلَى مَا أَصَابَهُم أُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ)، فاعترف به، وعن (إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ)، فاعترف به، وكتب الشهود الحاضرون شهاداتهم في المحضر حسبما سمعوه من لفظه.

وكتب ابن شنبوذ بخطه ما صورته: يقول محمد بن أحمد بن أيوب المعروف بابن شنبوذ: ما في هذه الرقعة: صحيح، وهو قولي واعتقادي، وأشهد الله ﷻ وسائر من حضر على نفسي بذلك؛ وكتب بخطه: فمتى خالفت ذلك أو بان مني غيره، فأمير المؤمنين في حل من دمي وسعة.

٧ـ الوجوه السبعة التي يقع فيها التغاير في أحرف القرآن ولا تخرج القراءات عنها.

فقد ذهب فيها العلماء إلى ثلاثة مذاهب:

مذهب ابن قتيبة ومن وافقه.

الأول: الاختلاف في إعراب الكلمة أو في حركات بقائها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتاب ولا يغير معناها نحو ﴿**الْبُخْلِ**﴾ و﴿**الْبَخَلِ**﴾ و﴿**مَيْسَرَةٍ**﴾ و﴿**ميسُرة**﴾ ﴿**وهُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ**﴾ و﴿**أَطْهَرَ لَكُمْ**﴾ ﴿**وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ**﴾ ﴿**وَهَلْ يُجَازَي إِلاَّ الْكَفُورَ**﴾، وهو كثير يقرأ منه بما صحت روايته، وصح وجهه في العربية؛ لأنه غير مخالف للخط.

الثاني: الاختلاف في إعراب الكلمة في حركات بنائها بما يغير معناها ولا يزيلها عن صورتها في الكتاب نحو ﴿**رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا**﴾ و﴿**رَبُّنَا بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا**﴾، وهو كثير يقرأ به لما صحت روايته ووافق العربية.

الثالث: الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها بما يغير معناها ولا يزيل صورتها نحو ﴿**كَيْفَ نُنْشِزُهَا**﴾ و﴿**نُنْشِرُهَا**﴾ و﴿**فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ**﴾ و﴿**فَزَعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ**﴾ و﴿**يَقُصُّ الْحَقَّ**﴾ و﴿**يَقْضِ الْحَقَّ**﴾، وهو كثير يقرأ به إذا صح سنده ووجهه لموافقته لصورة الخط في رأي العين.

الرابع: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها ومعناها، نحو: ﴿**إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً**﴾ و(إلا زقية واحدة) و﴿**كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ**﴾ و(كالصَّوف المنقوش)، فهذا يقبل إذا صحت روايته ولا يقرأ به اليوم لمخالفته لخط المصحف، ولأنه إنما ثبت عن آحاد.

الخامس: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها ومعناها، نحو: ﴿**طَلْحٍ مَنْضُودٍ**﴾ و﴿**طَلْعٍ مَنْضُودٍ**﴾، فهذا لا يقرأ به أيضًا لمخالفته الخط، ويقبل منه ما لم يكن فيه تضاد لما عليه المصحف.

ومن الطريف أنه قد انعقد المجلسان بأمر شيخ القراء ابن مجاهد الذي هو أول من جمع القراءات السبع، وكان ابن مجاهد قد أخذ القراءة عن شاذان الرازي الذي عنه أخذ أيضًا كل من ابن مقسم وابن شنبوذ، ولكن اشتراك الثلاثة في التلقي عن شيخ واحد لم يمنع ابن مجاهد من التشدد مع زميليه لإجماع القراء في عهده على الأخذ بالأثبت في الأثر والأصح في النقل، وليس الأفشى في اللغة والأقيس في العربية.

السادس: **أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير نحو**(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ)، **فهذا** يقبل لصحة معناه إذا صحت روايته، ولا يقرأ به لمخالفته المصحف، ولأنه غير واحد.

السابع: الاختلاف بالزيادة والنقص في الحروف والكلم، نحو: ﴿**وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ**﴾ (وَمَا عَمِلَتْ)، و(نَعْجَةً أُنْثَى)، ونظائره فهذا يقبل منه ما لم يحدث حكمًا لم يقله أحد، ويقرأ منه ما اختلفت عليه المصاحف في إثباته وحذفه نحو﴿**تَجْرِي تَحْتَهَا**﴾ في براءة عند رأس المائة و﴿**مِنْ تَحْتِهَا**﴾ و﴿**فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ في الحديد و﴿**فَإِنَّ اللهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ ونحو ذلك مما اختلف فيه المصاحف التي وجَّه بها عثمان إلى الأمصار فيقرأ به إذ لم يخرج عن خط جميع المصاحف. ولا يقرأ منه – ما لم تختلف فيه المصاحف- لا يزاد شيء لم يزد في شيء من المصاحف، ولا ينقص شيء لم ينقص في شيء من المصاحف. [1]

مذهب الرازي: الكلام لا يخرج عن سبعة أحرف في الاختلاف:

الأول: اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث.

ويمكن التمثيل للوجه الأول منه وهو اختلاف الأسماء. بقوله سبحانه: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ**﴾ **قرئ هكذا**: ﴿**لِأَمَانَاتِهِمْ**﴾ جمعًا، وقرئ﴿**لِأَمَانَتِهِم**﴾ بالإفراد.

الثاني: اختلاف تصريف الأفعال من ماض ومضارع وأمر.

ويمكن التمثيل للوجه الثاني وهو اختلاف تصريف الأفعال بقوله سبحانه: ﴿**فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا**﴾ قرئ هكذا بنصب لفظ ﴿**رَبَّنَا**﴾ على أنه منادى، وبلفظ ﴿**بَاعِدْ**﴾، و﴿**بَعِّدْ**﴾ فعل أمر، وبعبارة أنسب بالمقام فعل دعاء.

وقرئ هكذا: ﴿**رَبُّنَا بَاعَدَ**﴾ برفع رب على أنه مبتدأ وبلفظ﴿**بَعَّدَ**﴾ فعلًا ماضيًا مضعف العين جملته خبر.

الثالث: اختلاف وجوه الإعراب.

---

(١) تأويل مختلف الحديث(٩٢: ٩٤) بتصرف، والإبانة عن معاني القراءات (٥٥: ٥٨)، والنشر في القراءات العشر(١/ ٢٧)، والبرهان في علوم القرآن (١/ ٣٣٤).

ويمكن التمثيل للوجه الثالث وهو اختلاف وجوه الإعراب بقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ قرئ بفتح الراء وضمها؛ فالفتح على أن لا ناهية فالفعل مجزوم بعدها والفتحة الملحوظة في الراء هي فتحة إدغام المثلين. أما الضم فعلى أن لا نافية فالفعل مرفوع بعدها.

ومثل هذا المثال قوله سبحانه: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ قرئ برفع لفظ المجيد وجره. فالرفع على أنه نعت لكلمة ذو، والجر على أنه نعت لكلمة العرش. فلا فرق في هذا الوجه بين أن يكون اختلاف وجوه الإعراب في اسم أو فعل كما رأيت.

الرابع: الاختلاف بالنقص والزيادة.

ويمكن التمثيل للوجه الرابع: وهو الاختلاف بالنقص والزيادة. بقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾

قرئ بهذا اللفظ. وقرئ أيضًا (والذكر والأنثى) بنقص كلمة ما خلق.

الخامس: الاختلاف بالتقديم والتأخير.

ويمكن التمثيل للوجه الخامس- وهو الاختلاف بالتقديم والتأخير- بقوله سبحانه: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾، وقرئ: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بالمَوْتِ).

السادس: الاختلاف بالإبدال.

ويمكن التمثيل للوجه السادس- وهو الاختلاف بالإبدال- بقوله سبحانه: ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ بالزاي، وقرئ ﴿نُنْشِرُهَا﴾ بالراء، وكذلك قوله سبحانه ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ بالحاء، وقرئ ﴿وَطَلْعٍ﴾ بالعين. فلا فرق في هذا الوجه أيضًا بين الاسم والفعل.

السابع: اختلاف اللغات ـ يريد اللهجات ـ كالفتح والإمالة، والترقيق والتفخيم، والإظهار والإدغام، ونحو ذلك، غير أن النقل كما ترى لم يشفع بتمثيل فيما عثرنا.

ويمكن التمثيل للوجه السابع- وهو اختلاف اللهجات- بقوله سبحانه: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ تقرأ بالفتح والإمالة في: أتى، ولفظ: موسى، فلا فرق في هذا الوجه أيضًا بين الاسم والفعل. والحرف مثلهما نحو﴿بَلَى قَدِرِينَ﴾ (القيامة: ٤)قرئ بالفتح

والإمالة في لفظ بلى. [١]

مذهب ابن الجزري: قال: تتبعت القراءات صحيحها، وشاذها، وضعيفها، ومنكرها؛ فإذا هو يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه من الاختلاف لا يخرج عنها وذلك:

١- إما في الحركات بلا تغيير في المعنى والصورة: نحو (البخل) بأربعة (ويحسب) بوجهين.

٢- أو بتغير في المعنى فقط نحو ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾. ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾، و(أَمَة).

٣- وإما في الحروف بتغير المعنى لا الصورة نحو (تبلوا، وتتلوا، وننحيك(بالحاء) ببدنك لتكون لمن خلفك، وننجيك(بالجيم)ببدنك).

٤- أو عكس ذلك نحو (بصطة، وبسطة، والصراط، والسراط).

٥- أو بتغيرهما نحو (أشد منكم، ومنهم، ويأتل، ويتأل، و-فامضوا، اسعوا إلى ذكر الله).

٦- وإما في التقديم والتأخير نحو (فيقتلون، ويقتلون، وجاءت سكرت الحق بالموت).

٧- أو في الزيادة والنقصان نحو (وأوصى، ووصى، والذكر والأنثى) فهذه سبعة أوجه لا يخرج الاختلاف عنها. [٢]

وهذه المذاهب بينها عموم وخصوص ويدخل بعضها في بعض، ولذا قال ابن حجر عن مذهب الرازي: إنه أخذ كلام ابن قتيبة ونقَّحه. [٣]، وهذا لا يؤدي إلى الخلاف الكبير، بدليل أن الإمام مكي بن أبي طالب بيَّن الذي يُقرأ من ذلك والذي لا يقرأ من هذه الوجوه. [٤]، وهذا التغاير أيضًا في حدود القراءات العشر المتواترة التي أجمع عليها أهل العلم. وإذا خرج عنها وجه من هذه الوجوه فلا يقرأ به.

٨- فائدة اختلاف القراءات وتنوعها، وعلى أي شيء يتوجه اختلاف القراءات.

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن(١/ ١٣٢: ١٣٣)، والنشر في القراءات العشر(١/ ٢٧)، وفتح الباري(٨/ ٦٤٦).

(٢) النشر في القراءات العشر(١/ ٢٦).

(٣) فتح الباري(٨/ ٦٤٦).

(٤) الإبانة عن معاني القراءات (٥٥: ٥٨).

أولًا: فائدة اختلاف القراءات.

فإن في ذلك فوائد غير ما قدمناه من سبب التهوين والتسهيل والتخفيف على الأمة.

ومنها: ما في ذلك من نهاية البلاغة، وكمال الإعجاز وغاية الاختصار، وجمال الإيجاز، إذ كل قراءة بمنزلة الآية، إذ كان تنوع اللفظ بكلمة تقوم مقام آيات، ولو جعلت دلالة كل لفظ آية على حدتها لم يخف ما كان في ذلك من التطويل.

ومنها: ما في ذلك من عظيم البرهان وواضح الدلالة؛ إذ هو مع كثرة هذا الاختلاف وتنوعه لم يتطرق إليه تضاد ولا تناقض ولا تخالف؛ بل كله يُصدِّق بعضه بعضًا، ويبين بعضه بعضًا، ويشهد بعضه لبعض على نمط واحد وأسلوب واحد، وما ذلك إلا آية بالغة، وبرهان قاطع على صدق من جاء به ﷺ.

ومنها: سهولة حفظه وتيسير نقله على هذه الأمة؛ إذ هو على هذه الصفة من البلاغة والوجازة، فإنه من يحفظ كلمة ذات أوجه أسهل عليه وأقرب إلى فهمه وأدعى لقبوله من حفظه جملًا من الكلام تؤدي معاني تلك القراءات المختلفات لا سيما فيما كان خطه واحدًا؛ فإن ذلك أسهل حفظًا وأيسر لفظًا.

ومنها: إعظام أجور هذه الأمة من حيث إنهم يفرغون جهدهم؛ ليبلغوا قصدهم في تتبع معاني ذلك واستنباط الحكم والأحكام من دلالة كل لفظ، واستخراج كمين أسراره وخفي إشاراته، وإنعامهم النظر وإمعانهم الكشف عن التوجه والتعليل والترجيح، والتفصيل بقدر ما يبلغ غاية علمهم، ويصل إليه نهاية فهمهم ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ (آل عمران: ١٩٥)، والأجر على قدر المشقة.

ومنها: بيان فضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم، من حيث تلقيهم كتاب ربهم هذا التلقي، وإقبالهم عليه هذا الإقبال، والبحث عن لفظة لفظة، والكشف عن صيغة صيغة، وبيان صوابه، وبيان تصحيحه، وإتقان تجويده، حتى حموه من خلل التحريف، وحفظوه من الطغيان والتطفيف، فلم يهملوا تحريكًا ولا تسكينًا، ولا تفخيمًا ولا ترقيقًا،

حتى ضبطوا مقادير المدات وتفاوت الإمالات، وميزوا بين الحروف بالصفات، مما لم يهتد إليه فكر أمة من الأمم، ولا يوصل إليه إلا بإلهام بارئ النسم.

ومنها: ما ادخره الله من المنقبة العظيمة، والنعمة الجليلة الجسيمة لهذه الأمة الشريفة، من إسنادها كتاب ربها، واتصال هذا السبب الإلهي بسببها خصيصة الله تعالى هذه الأمة المحمدية، وإعظامًا لقدر أهل هذه الملة الحنيفية، وكل قارئ يوصل حروفه بالنقل إلى أصله، ويرفع ارتياب الملحد قطعًا بوصله، فلو لم يكن من الفوائد إلا هذه الفائدة الجليلة لكفت، ولو لم يكن من الخصائص إلا هذه الخصيصة النبيلة لوفت.

ومنها: ظهور سر الله في توليه حفظ كتابه العزيز وصيانة كلامه المنزل بأوفى البيان والتمييز، فإن الله تعالى لم يخل عصرًا من الأعصار، ولو في قطر من الأقطار، من إمام حجة قائم بنقل كتاب الله تعالى وإتقان حروفه ورواياته، وتصحيح وجوهه وقراءاته، يكون وجوده سببًا لوجود هذا السبب القويم على ممر الدهور، وبقاؤه دليلًا على بقاء القرآن العظيم في المصاحف والصدور[1].

ثانيًا: على أي شيء يتوجه اختلاف هذه السبعة.

فإنه يتوجه على أنحاء ووجوه مع السلامة من التضاد والتناقض، فإن الاختلاف المشار إليه في ذلك اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد وتناقض؛ فإن هذا محال أن يكون في كلام الله تعالى قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ (النساء: ٨٢).

أولاً: فمنها: ما يكون لبيان حكم مجمع عليه كقراءة سعد بن أبي وقاص وغيره (**وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ**- من أُم)؛ فإن هذه القراءة تبين أن المراد بالأخوة هنا هو الإخوة للأم، وهذا أمر مجمع عليه.

ثانيًا: منها: ما يكون مرجحًا لحكم اختلف فيه كقراءة ﴿**أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ**﴾ في كفارة اليمين، ففيها ترجيح لاشتراط الإيمان فيها كما ذهب إليه الشافعي وغيره، ولم

---

(١) النشر في القراءات العشر (١/ ٥٢: ٥٤).

يشترطه أبو حنيفة رحمه الله.

ثالثًا: منها: ما يكون للجمع بين حكمين مختلفين ﴿يَطْهُرْنَ﴾ و﴿يَطَّهَّرْنَ﴾ بالتخفيف والتشديد ينبغي الجمع، وهو أن الحائض لا يقربها زوجها حتى تطهر بانقطاع حيضها وتطهر بالاغتسال.

رابعًا: منها: ما يكون لأجل اختلاف حكمين شرعيين كقراءة ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ بالخفض والنصب، فإن الخفض يقتضى فرض المسح، والنصب يقتضي فرض الغسل فبينهما النبي ﷺ، فجعل المسح للابس الخف، والغسل لغيره.

خامسًا: منها: ما يكون لإيضاح حكم يقتضى الظاهر خلافه كقراءة (فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ اللهِ) فإن قراءة ﴿فَٱسْعَوْاْ﴾ يقتضى ظاهرها المشي السريع وليس كذلك، فكانت القراءة الأخرى موضحة لذلك ورافعة لما يتوهم منه.

سادسًا: منها: ما يكون مفسرًا لما لعله لا يعرف مثل قراءة (كالصُّوفِ المنفُوشِ).

سابعًا: منها: ما يكون حجة لأهل الحق ودفعًا لأهل الزيغ كقراءة ﴿وَمَلِكًا كَبِيرًا﴾ بكسر الكلام، وردت عن ابن كثير وغيره وهي من أعظم دليل على رؤية الله تعالى في الدار الآخرة.

ثامنًا: منها: ما يكون حجة بترجيح لقول بعض العلماء كقراءة ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ ٱلنِّسَاءَ﴾ إذ اللمس يطلق على الجس والمس كقوله تعالى ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: مسوه.

تاسعًا: منها: ما يكون حجة لقول بعض أهل العربية كقراءة ﴿وَٱلْأَرْحَامِ﴾ بالخفض ﴿وَلِيَجْزِيَ قَوْمًا﴾ على ما لم يسم فاعله مع النصب[1].

والخلاصة: أن تنوع القراءات يقوم مقام تعدد الآيات. وذلك ضرب من ضروب البلاغة يبتدئ من جمال هذا الإيجاز وينتهي إلى كمال الإعجاز.

أضف إلى ذلك ما في تنوع القراءات من البراهين الساطعة والأدلة القاطعة على أن القرآن كلام الله وعلى صدق من جاء به وهو رسول الله ﷺ، فإن هذه الاختلافات في

(١) النشر في القراءات العشر (١/ ٢٨).

القراءة على كثرتها لا تؤدي إلى تناقض في المقروء وتضاد ولا إلى تهافت وتخاذل؛ بل القرآن كله على تنوع قراءاته يصدق بعضه بعضًا، ويبين بعضه بعضًا، ويشهد بعضه لبعض على نمط واحد في علو الأسلوب والتعبير وهدف واحد من سمو الهداية والتعليم. وذلك من غير شك يفيد تعدد الإعجاز بتعدد القراءات والحروف.

ومعنى هذا: أن القرآن يُعجز إذا قرئ بهذه القراءة، ويُعجز أيضًا إذا قرئ بهذه القراءة الثانية، ويُعجز أيضًا إذا قرئ بهذه القراءة الثالثة، وهلم جرًا. ومن هنا تتعدد المعجزات بتعدد تلك الوجوه والحروف.

ولا ريب أن ذلك أدل على صدق محمد؛ لأنه أعظم في اشتمال القرآن على مناح جمة في الإعجاز وفي البيان على كل حرف ووجه وبكل لهجة ولسان. ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.[1]

سبب الاقتصار على قراءة الأئمة المشهورين:

فإن قيل: فهذا سبب الخلاف وأصله مستمد من الوحي، فما السبب في الاقتصار على قراءة هؤلاء القراء؟ فهذا جوابه:

١ـ اشتهارهم بالثقة والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة به والاتفاق على الأخذ عنه.

لما جمع عثمان ﷺ الناس على حرف واحد، وأمر بأن يرسل للآفاق مصاحف على ما جمعه، كما تقدم، وكانت كتابتها مجردة من الشكل والنقط، فقرأ أهل كل مصر في مصحفهم وتلقوا ما فيه عن الصحابة الذين تلقوه عن النبي ﷺ. . .

ثم لما كثر الاختلاف فيما يحتمله الرسم، وقرأ أهل البدع والأهواء بما لا يحل لأحد قراءته وفاقًا لبدعهم كمن قال من المعتزلة ﴿وَكَلَّمَ-اللهَ- مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٤) بالنصب على الهاء - رأى المسلمون أن يجمعوا على قراءات أئمة ثقات تجردوا للاعتناء بشأن القرآن العظيم، فاختاروا من كل مصر وجه إليه مصحف أئمةً مشهورين بالثقة، والأمانة بالنقل، وحسن كمال الدين، وكمال العلم، أفنوا عمرهم في القراءة والإقراء واشتهر أمرهم. . . ولم

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن(١/ ١٢٧).

تخرج قراءتهم عن خط مصحفهم، فمنهم بالمدينة أبو جعفر وشيبة ونافع، وبمكة: عبد الله بن كثير وابن محيصن والأعرج، وبالكوفة يحيى بن وثَّاب وعاصم والأعمش وحمزة والكسائي، وبالشام عبد الله بن عامر وعطية بن قيس الكلابي ويحيى بن الحارث الزماري، وبالبصرة عبد الله بن أبي إسحاق وأبو عمرو بن العلاء وعاصم الجحدري ويعقوب الحضرمي.

ثم إن القراء بعد ذلك تفرقوا في البلاد، وخلفهم أمم بعد أمم. إلا أنهم كان فيهم المتقن وغيره. فلما كثر الاختلاف، وعسر الضبط، وشق الائتلاف، وظهر التخليط، وانتشر التفريط، واشتبه متواتر القراءات بفاذِّها، ومشهورها بشاذِّها، فمن ثَمّ وضع الأئمة لذلك ميزانًا يرجع إليه، ومعيارًا يعول عليه، وهو السند والرسم والعربية فكل ما صح سنده، واستقام وجهه في العربية، ووافق لفظه خط مصحف الإمام فهو من السبعة المنصوصة، فعلى هذا الأصل بني قبول القراءات على سبعة كانوا أو سبعة آلاف، ومتى سقط شرط من هذه الثلاثة فهو شاذ[1].

والسبب في الاقتصار على السبعة مع أن في أئمة القراء من هو أجلّ منهم أو مثلهم إلى عدد أكثر من السبعة هو أن الرواة عن الأئمة كانوا كثيرين جدًا، فلما تقاصرت الهمم اقتصروا -مما يوافق خط المصحف- على ما يسهل حفظه، وتنضبط القراءة به، فنظروا إلى من اشتهر بالثقة والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة به والاتفاق على الأخذ عنه، فأفردوا من كل مصر إمامًا واحدًا ولم يتركوا مع ذلك نقل ما كان عليه غير الأئمة هؤلاء من القراءات ولا القراءة بها، كقراءة يعقوب الحضرمي وأبي جعفر المدني وشيبة وغيرهم.

ولقد أسهم المؤلفون في القراءات في الاقتصار على عدد معين؛ لأنهم إذ يؤلفون مقتصرين على عدد مخصوص من أئمة القراء يكون ذلك من دواعي شهرتهم، وإن كان غيرهم أجل منهم قدرًا فيتوهم الناس بعدُ أن هؤلاء الذين اقتصر التأليف على قراءتهم هم الأئمة المعتبرون في القراءات، وقد صنف ابن جبر المكي كتابًا في القراءات، فاقتصر على خمسة اختار من كل مصر إمامًا[2].

---

(١) محاسن التأويل(١/ ٢٩٥ : ٢٩٦) باختصار.

(٢) فتح الباري لابن حجر(٨/ ٦٤٨)، و الإتقان(١/ ٢٢٤)، والإبانة لمكي بن أبي طالب (٤٦ : ٦٣).

٢ـ تم ترشيح هؤلاء القراء السبعة للأخذ عنهم دون غيرهم على أساس من الموثوقية والحيادية المطلقة.

قال ابن مجاهد وهو يبين منهجه في اختيار القراء السبعة: اختلف الناس في القراءة كما اختلفوا في الأحكام، ورويت الآثار بالاختلاف عن الصحابة والتابعين توسعة ورحمة للمسلمين وبعض ذلك قريب من بعض.

وحَمَلَةُ القرآن متفاضلون في حمله، ولنقلة الحروف منازل في نقل حروفه، وأنا ذاكر منازلهم، ودال على الأئمة منهم، ومخبر عن القراءة التي عليها الناس بالحجاز والعراق والشام، وشارح مذاهب أهل القراءة، ومبين اختلافهم واتفاقهم إن شاء الله وإياه أسأل التوفيق بمنه.(١)

فبين هنا أن الأئمة من القراء هم أصحاب القراءة التي عليها الناس، ثم قال مؤكدًا فكرته(٢): فمن حملة القرآن المعرب، العالم بوجوه الإعراب والقراءات، العارف باللغات ومعاني الكلمات، البصير بعيب القراءات، المنتقد للآثا، ر فذلك الإمام الذي يفزع إليه حفاظ القرآن في كل مصر من أمصار المسلمين، ومنهم من يعرب ولا يلحن ولا علم له بغير ذلك؛ فذلك كالأعرابي الذي يقرأ بلغته ولا يقدر على تحويل لسانه، فهو مطبوع على كلامه.

ومنهم من يؤدي ما سمعه ممن أخذ عنه ليس عنده إلا الأداء لما تعلم، لا يعرف الإعراب ولا غيره فذلك الحافظ فلا يلبث مثله أن ينسى إذا طال عهده، فيُضَيِّعُ الإعرابَ لشدة تشابهه، وكثرة فتحه وضمه وكسره في الآية الواحدة؛ لأنه لا يعتمد على علم بالعربية، ولا بصر بالمعاني يرجع إليه، وإنما اعتماده على حفظه وسماعه، وقد ينسى الحافظ فيضيع السماع، وتشتبه عليه الحروف؛ فيقرأ بلحن لا يعرفه، وتدعوه الشبهة إلى أن يرويه عن غيره ويبرئ نفسه، وعسى أن يكون عند الناس مصدقًا، فيحمل ذلك عنه قد نسيه ووهم فيه وجسر على لزومه والإصرار عليه، أو يكون قد قرأ على من نسي وضيع الإعراب ودخلته الشبهة فتوهم، فذلك لا يقلد القراءة ولا يحتج بنقله.

---

(١) السبعة (١/ ٤٥).

(٢) إعجاز القراءات القرآنية – دراسة في تاريخ القراءات واتجاهات القراء – تأليف/ صبري الأشوح (٦٩: ٧٠).

فهو هنا يؤكد على شرط من شروط القراءة وهو: موافقة العربية، ثم يشير إلى الشرط الآخر، وهو: صحة السند **بقوله:**

ومنهم من يعرب قراءته ويبصر المعاني ويعرف اللغات، ولا علم له بالقراءات واختلاف الناس والآثار، فربما دعاه بصره بالإعراب إلى أن يقرأ بحرف جائز في العربية لم يقرأ به أحد من الماضين، فيكون بذلك مبتدعًا.

ويكشف لنا ابن مجاهد عن أن اختيار الناس لم يكن مجرد تبعية أو تقليدًا أو انسياقًا أعمى؛ بل كان انتقاءً واعيًا وبصيرة نافذة فيقول: [١]

وأما الآثار التي رويت في الحروف فكالآثار التي رويت في الأحكام، منها المجتمع عليه السائر المعروف، ومنها المتروك المكروه عند الناس المعيب من أخذ به، وإن كان قد روى وحفظ، ومنها ما توهم فيه من رواه فضيع روايته ونسى سماعه لطول عهده فإذا عرض على أهله عرفوا توهمه وردوه على من حمله، وربما سقطت روايته لذلك بإصراره على لزومه وتركه الانصراف عنه، ولعل كثيرًا ممن تُرك حديثه واتُهم في روايته كانت هذه علته، وإنما ينتقد ذلك أهل العلم بالأخبار والحرام والحلال والأحكام، وليس انتقاد ذلك إلى من لا يعرف الحديث ولا يبصر الرواية والاختلاف، كذلك ما روى من الآثار في حروف القرآن منها المعرب السائر الواضح، ومنها المعرب الواضح غير السائر، ومنها اللغة الشاذة القليلة، ومنها الضعيف المعنى في الإعراب غير أنه قد قرئ به، ومنها ما توهم فيه فغلط به، فهو لحن غير جائز عند من لا يبصر من العربية إلا اليسير، ومنها اللحن الخفي الذي لا يعرفه إلا العالم النحرير، وبكلٍّ قد جاءت الآثار في القراءات.

ويقول ابن مجاهد أيضًا مؤكدًا على أن اختياره لم يكن سوى اختيار الناس الخاصة منهم والعامة: والقراءة التي عليها الناس بالمدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام هي القراءة التي تلقوها عن أوليهم تلقيًا، وقام بها في كل مصر من هذه الأمصار رجل ممن أخذ عن

---

(١) إعجاز القراءات القرآنية(٧٠).

التابعين أجمعت الخاصة والعامة على قراءته، وسلكوا فيها طريقه، وتمسكوا بمذهبه على ما رُوي عن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وعروة بن الزبير ومحمد بن المنكدر وعمر بن عبد العزيز وعامر الشعبي، ثم ساق بإسناده عن هؤلاء بألفاظ متقاربة قولهم: قراءة القرآن سنة يأخذها الآخر عن الأول. وفي رواية: القراءة سنة فاقرءوا كما قرأ أولكم.

وقال ابن مجاهد- وهو يترجم للقراء السبعة الذين أجمعت الأمة على قبول قراءتهم ويبين مكانتهم-: على قراءة نافع اجتمع الناس بالمدينة العامة منهم والخاصة[١].

وكان الإمام الذي انتهت إليه القراءة بمكة وائتم به أهلها في عصره عبد الله بن كثير.[٢]

وأول من أقرأ بالكوفة القراءة التي جمع عثمان ﷺ الناس عليها أبو عبد الرحمن السلمي، واسمه: عبد الله بن حبيب. فجلس في المسجد الأعظم ونصب نفسه لتعليم الناس القرآن، ولم يزل يقرئ بها أربعين سنة فيما ذكر[٣]، فلما مات أبو عبد الرحمن رحمه الله تعالى خلفه في موضعه أبو بكر عاصم بن أبي النجود[٤].

وكان عاصم مقدمًا في زمانه مشهورًا بالفصاحة معروفًا بالإتقان[٥].

ثم بيّن ابن مجاهد العلة في عدم انتشار قراءة عاصم في زمانه فقال: وإلى قراءة عاصم صار بعض أهل الكوفة، وليست بالغالبة عليهم؛ لأن أضبط من أخذ عن عاصم أبو بكر بن عياش فيما يقال؛ لأنه تعلمها منه تعلما خمسًا خمسًا، وكان أهل الكوفة لا يأتمون في قراءة عاصم بأحد ممن يثبتونه في القراءة عليه إلا بأبي بكر بن عياش، وكان أبو بكر لا يكاد

(١) السبعة في القراءات(١/ ٦٢).

(٢) السابق(١/ ٦٤).

(٣) السابق (١/ ٦٧).

(٤) السابق (١/ ٦٩).

(٥) السابق(١/ ٧٠)، وإن كنا نجد من القراء كحفص من هو في عداد المجروحين عند المحدثين، ولكن تجريح حفص وعدم قبول هؤلاء القراء لجرح المحدثين لأكبر دليل علي عدم التفاتهم لهذا الأمر؛ بل وانتشار قراءة حفص في الآفاق ـ وهو ضعيف عند المحدثين ـ لأبلغ رد علي المحدثين بأن أصولهم لا تسير على معشر القراء.

يمكن من نفسه من أرادها منه، فقلَّت بالكوفة من أجل ذلك، وعز من يحسنها، وصار الغالب على أهل الكوفة إلى اليوم قراءة حمزة بن حبيب الزيات[1].

وكان حمزة ممن تجرد للقراءة ونصب نفسه لها.

وكان علي بن حمزة الكسائي قد قرأ على حمزة ونظر في وجوه القراءات، وكانت العربية علمه وصناعته، واختار من قراءة حمزة وقراءة غيره قراءة متوسطة غير خارجة عن آثار من تقدم من الأئمة، وكان حمزة إمام أهل الكوفة في عصره، وكان إمام الناس في القراءة في عصره، وكان يأخذ الناس عنه ألفاظه بقراءته عليهم.

وأما البصرة فقام بالقراءة بها بعد التابعين جماعة منهم أبو عمرو بن العلاء.

قال أبو بكر: وكان مقدمًا في عصره عالمًا بالقراءة ووجوهها، قدوة في العلم باللغة، إمام الناس في العربية، وكان مع علمه باللغة وفقهه بالعربية متمسكًا بالآثار، لا يكاد

---

(١) وهنا يثور التساؤل عن السبب الذي حدا بابن مجاهد أن يخالف القاعدة التي وضعها لنفسه فيختارقراءة عاصم على الرغم من أن غالبية أهل الكوفة تركتها إلى قراءة حمزة؟.

والإجابة هنا تشهد لابن مجاهد ولا تشهد عليه، ذلك أن اختياره الوحيد الذي خالف فيه القاعدة التي وضعها لنفسه يدل على أنه ليس من ذلك النوع من البشر الذي يسير مغمض العينين ومغيب العقل على القواعد، إذ لكل قاعدة استثناء، فلقد أكد ابن مجاهد أنه كان ينشد الحق أينما وُجد، فإن وافق اختيار الناس، وإلا فهو يختار لهم.

وهذا عين ما حدث عند اختياره لقراءة عاصم، فلقد أدرك- وهو الخبير بالقراءات - فضل هذه القراءة الذي لا يُنكر، ثم بحث في أسباب انصراف غالب أهل الكوفة عنها، فوجدها أسبابًا ذاتية غير موضوعية، ذلك أن الإمام العظيم عاصم بن أبي النجود كان إذا تكلم كاد يدخله خيلاء، فلعل هذا ما جعل العامة ينصرفون عن قراءته، فإذا أضفنا إلى هذا السبب أن شعبة وهو أحد راويي عاصم، والذي كان الناس في الكوفة يأتمون بروايته عن عاصم، كان هو الآخر لا يكاد يمكن نفسه من أرادها منه، ووصل إلى أن الناس لم ينكروا لقراءة عاصم فضلها، إلا أنهم حين سعوا إليها وجدوا نوعًا من الاستعلاء ربما جرح كبرياءهم فانصرفوا عنها إلى غيرها غير منكرين لفضلها.

من هنا اعتبر ابن مجاهد انصراف أهل الكوفة عن قراءة عاصم لقراءة حمزة. . . . وأن عاصم كان يتمتع بذاكرة حافظة ليس لها نظير، قال عاصم: مرضت سنتين، فلما قرأت القرآن فما أخطأت حرفًا.

إذا علمنا ذلك كله أدركنا السر وراء تمسك ابن مجاهد بقراءة عاصم - خلافًا لقاعدة الشهرة – فأثبت أنه كان عقلًا فذًا مستقلًا. (إعجاز القراءات القرآنية٧٥: ٧٧).

يخالف في اختياره ما جاء عن الأئمة قبله متواضعًا في علمه، قرأ على أهل الحجاز وسلك في القراءة طريقهم، ولم تزل العلماء في زمانه تعرف له تقدمه وتقر له بفضله وتأتم في القراءة بمذهبه.

وأما أهل الشام فيسندون قراءتهم إلى عبد الله بن عامر اليحصبي.[١]

فهؤلاء سبعة نفر من أهل الحجاز والعراق والشام خلفوا في القراءة التابعين، وأجمعت على قراءتهم العوام من أهل كل مصر من هذه الأمصار التي سميت وغيرها من البلدان التي تقرب من هذه الأمصار إلا أن يستحسن رجل لنفسه حرفًا شاذًا فيقرأ به من الحروف التي رويت عن بعض الأوائل منفردة، فذلك غير داخل في قراءة العوام ولا ينبغي لذي لب أن يتجاوز ما مضت عليه الأئمة والسلف بوجه يراه جائزًا في العربية أو مما قرأ به قارئ غير مجمع عليه[٢].

وبهذا الاجتهاد الطويل والمراجعة المتأنية يكون ابن مجاهد قد استطاع أن يستخلص تلك القراءات راضيًا مغتبطًا بما أدى من هذا الواجب العظيم، وتبعه جمهور العلماء والقراء في الأمة وارتضوا اجتهاده في تقديمهم[٣].

١٠ـ معنى إضافة القراءة إلى من قرأ بها:

قال أبو عمرو: وأن معنى إضافة كل حرف مما أنزل الله تعالى إلى من أضيف من الصحابة كأُبي، وعبد الله، وزيد، وغيرهم من قِبَل أنه كان أضبط له، وأكثر قراءة، وإقراءًا به، وملازمة له وميلًا إليه لا غير ذلك. وكذلك إضافة الحروف والقراءات إلى أئمة القراءة بالأمصار، المراد بها أن ذلك القارئ، وذلك الإمام اختار القراءة بذلك الوجه من اللغة، وآثره على غيره، وداوم عليه ولزمه حتى اشتهر، وعرف به، وقصد فيه، وأُخذ عنه، فلذلك أضيف إليه دون غيره من القراء. وهذه الإضافة إضافة اختيار ودوام ولزوم، لا إضافة

---

(١) القراءات السبعة١/ ٧٤: ٨٥.

(٢) السبعة في القراءات (١/ ٨٧).

(٣) مقدمة السبعة في القراءات باختصار وتصرف (٢٢: ٢٣).

اختراع ورأي واجتهاد. [١]

١٠- دور المصحف، والرسم العثماني في القراءات.

أولًا: دور المصحف العثماني في القراءات

وهكذا جاء المصحف العثماني؛ ليضع حدًا لمرحلة ويبدأ مرحلة جديدة في تاريخ القرآن والقراءات، فقد ضيق المصحف العثماني من إطار استخدام رخصة الأحرف السبعة والتي كانت مفتوحة على مصراعيها من قبل[٢].

ويبين لنا ابن هشام تلميذ ابن مجاهد إمام القراءات كيفية ولادة القراءات ولادة شرعية من الأحرف السبعة قائلًا: إن السبب في اختلاف القراءات السبع وغيرها أن الجهات التي وجهت إليها المصاحف كان بها من الصحابة من حمل عنه أهل تلك الجهة، وكانت المصاحف خالية من النقط والشكل، قال: فثبت أهل كل ناحية على ما كانوا تلقوه سماعًا عن الصحابة بشرط موافقة الخط، وتركوا ما يخالف الخط امتثالًا لأمر عثمان الذي وافقه عليه الصحابة لما رأوا في ذلك من الاحتياط للقرآن، فمن ثَمَّ نشأ الاختلاف بين قراء الأمصار مع كونهم متمسكين بحرف واحد من السبعة. وقال مكي بن أبي طالب: هذه القراءات التي يقرأ بها اليوم وصحت رواياتها عن الأئمة جزء من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ثم ساق نحو ما تقدم[٣].

المصحف الإمام نقلة حضارية كبرى في توثيق المعلومات

لأن الفكرة الجوهرية التي تمحور حولها المصحف العثماني كانت الإجماع. [٤] وهو بلا شك أقوى وأعلى من التواتر.

المصحف الإمام كان سببًا في ظهور مصطلح القراءات الشاذة في القاموس الإسلامي:

---

(٣) الأحرف السبعة (٦١).

(٢) إعجاز القراءات القرآنية (٥٢).

(٣) فتح الباري(٩/ ٣١).

(٤) إعجاز القراءات القرآنية (٥٩)، وراجع ما سبق تسطيره عن عوامل التحري والتوثيق في كتابة المصحف العثماني.

وأغلب ما وصف بالشذوذ من القراءات كان بسبب مخالفة الرسم العثماني أو بسبب عدم توافر النقل[١]، وليس من أجل مخالفة العربية، إلا في النادر، مما نقله ثقة ولا وجه له في العربية، ولا يصدر مثل هذا إلا سهوًا بشريًا، وقد نبه عليه المحققون والقراء الضابطون[٢].

مع أن القرآن دُوِّن في مصحف عثمان لم يتحول الأساس في تلاوته يومًا إلى الاعتماد على المصحف المكتوب؛ بل ظل الاعتماد منذ وجود الرسول ﷺعلى الرواية بالسند الصحيح المتواتر عنه، فالأساس دائمًا الرواية عن الرسول ﷺ، وقد تلقاه شفويًا عنه صحابته[٣]، وعنهم تلقاه التابعون، وتوالى ذلك بالسند المتواتر جيلًا بعد جيل[٤].

وقد كان التعويل في ذلك على أن القرآن محفوظ في الصدور قبل أن يحفظه كونه محفوظًا في مصحف، وأن القراءة الصحيحة لن تكون أي نطق محتمل لخط المصحف؛ بل لابد أن تكون رواية عن رسول الله ﷺ[٥].

ومن ثم ظهر نوع آخر من القراءات الشاذة التي سببها عدم صحة السند، أو عدم وجوده أصلًا، فتكون القراءة إما من قبيل الخطأ والسهو، أو من قبيل الكذب والافتراء، وهذا كله يندرج تحت القراءات الشاذة اصطلاحًا، ووجه الشذوذ هنا أن القارئ لم يخالف من هو أوثق منه؛ بل خالف الأمة كلها[٦].

ثانيًا: مزايا الرسم العثماني:

---

(١) انظر فيما سبق شروط القراءة الصحيحة.

(٢) المنهاج في الحكم على القراءات د. **إبراهيم بن سعيد الدوسري**(١/ ١٨)، إعجاز القراءات القرآنية (٥٩).

(٣) هذه العبارة فيها تجوز؛ لأنه ليس كل واحد من الصحابة تلقى كل آية من القرآن من النبي ﷺ وفي حياته؛ بل من الصحابة من تلقى منه ﷺ بعض السور وتلقى البعض الآخر من غيره من الصحابة، ومنهم من حفظ القرآن كله في حياته، ومنهم من أتم حفظه بعد وفاته ﷺ، فالحاصل: أن مجموع الصحابة حفظ جميع القرآن، وليس جميع الصحابة حفظ جميع القرآن منه وفي حياته ﷺ. راجع شبهة (لم يحفظ القرآن إلا أربعة).

(٤) مقدمة السبعة للدكتور شوقي ضيف (١١).

(٥) إعجاز القراءات القرآنية (٦٠).

(٦) راجع في ذلك مزايا جمع عثمان ﷺ.

لهذا الرسم مزايا وفوائد:

الفائدة الأولى: الدلالة في القراءات المتنوعة في الكلمة الواحدة بقدر الإمكان، وذلك أن قاعدة الرسم لوحظ فيها أن الكلمة إذا كان فيها قراءتان أو أكثر كتبت بصورة تحتمل هاتين القراءتين أو الأكثر. فإن كان الحرف الواحد لا يحتمل ذلك بأن كانت صورة الحرف تختلف باختلاف القراءات جاء الرسم على الحرف الذي هو خلاف الأصل؛ وذلك ليعلم جواز القراءة به وبالحرف الذي هو الأصل. وإذا لم يكن في الكلمة إلا قراءة واحدة بحرف الأصل رسمت به. مثال الكلمة تكتب بصورة واحدة وتقرأ بوجوه متعددة قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ (طه: ٦٣) رسمت في المصحف العثماني هكذا: (إن هدان لساحران) من غير نقط، ولا شكل، ولا تشديد، ولا تخفيف في نوني إن وهذان، ومن غير ألف، ولا ياء بعد الذال من هذان.

ومجيء الرسم كما ترى كان صالحًا عندهم لأن يقرأ بالوجوه الأربعة التي وردت كلها بأسانيد صحيحة.

أولها: قراءة نافع ومن معه إذ يشددون نون-إنَّ ويخففون-هذَان- بالألف.

ثانيها: قراءة ابن كثير وحده إذ يخفف النون في- إنْ- ويشدد النون-في هذان.

ثالثها: قراءة حفص إذ يخفف النون في -إنْ- وهذان بالألف.

رابعها: قراءة أبي عمرو بتشديد -إنَّ- وبالياء وتخفيف النون في- هذين، فتدبر هذه الطريقة المثلى الضابطة لوجوه القراءة لتعلم أن سلفنا الصالح كان في قواعد رسمه للمصحف أبعد منا نظرًا وأهدى سبيلًا.

الفائدة الثانية: إفادة المعاني المختلفة بطريقة تكاد تكون ظاهرة، وذلك نحو قطع كلمة أم في قوله تعالى: ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ (النساء: ١٠٩)، ووصلها في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الملك: ٢٢) إذ كتبت هكذا ﴿أَمَّن﴾ بإدغام الميم

الأولى في الثانية وكتابتها ميمًا واحدة مشددة فقط؛ أم الأولى في الكتابة للدلالة على أنها أم المنقطعة التي بمعنى بل، ووصل أم الثانية للدلالة على أنها ليست كتلك.

الفائدة الثالثة: الدلالة على معنى خفي دقيق كزيادة الياء في كتابة كلمة "أيد" من قوله تعالى: ﴿**السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ**﴾ إذ كتبت هكذا ﴿**بِأَيْدٍ**﴾، وذلك للإيماء إلى تعظيم قوة الله التي بنى بها السماء، وأنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة وهي: زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

ومن هذا القبيل كتابة هذه الأفعال الأربعة بحذف الواو وهي:

(ويدعو الإنسان)، (يمحو الله الباطل)، (يوم يدعو الداع)، (سندعوا الزبانية) فإنها كتبت في المصحف العثماني هكذا: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾، ولكن من غير نقط ولا شكل في الجميع.

قالوا: والسر في حذفها من ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ هو الدلالة على أن هذا الدعاء سهل على الإنسان يسارع فيه كما يسارع إلى الخير؛ بل إثبات الشر إليه من جهة ذاته أقرب إليه من الخير. والسر في حذفها من {وَيَمْحُ الله الْبَاطِلَ} الإشارة إلى سرعة ذهابه واضمحلاله.

والسر في حذفها من ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ الإشارة إلى سرعة الدعاء وسرعة إجابة الداعين. والسر في حذفها من ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ الإشارة إلى سرعة الفعل وإجابة الزبانية وقوة البطش. ويجمع هذه الأسرار قول المراكشي: والسر في حذفها من هذه الأربعة سرعة وقوع الفعل، وسهولته على الفاعل، وشدة قبول المنفعل المتأثر به في الوجود.

الفائدة الرابعة: الدلالة على أصل الحركة مثل كتابة الكسرة ياء في قوله سبحانه ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ إذ تكتب هكذا ﴿وإيتاءى ذي القربى﴾، ومثل كتابة الضمة واوًا في قوله سبحانه: ﴿**سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ**﴾ إذ كتبت هكذا ﴿**سأوريكم دَارَ الْفَاسِقِينَ**﴾

ومثل ذلك الدلالة على أصل الحرف، نحو الصلاة والزكاة إذ كتبا هكذا: الصلَوة الزكَوة؛ ليفهم أن الألف فيهما منقلبة عن واو. من غير نقط ولا شكل كما سبق.

الفائدة الخامسة: إفادة بعض اللغات الفصيحة، وذلك مثل كتابة هاء التأنيث تاء مفتوحة في بعض المواضع؛ للإيذان بجواز الوقف عليها بالتاء على لغة (طيئ) نحو: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في الأعراف، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ (إبراهيم: ٣٤)، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ في التحريم، ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في الأنفال، ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾﴾ في الدخان.

ومثل: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ . .﴾ في الكهف، كتبت كلمة ﴿نَبْغِ﴾ بحذف الياء على لغة هذيل التي تحذف لام الفعل المضارع المعتل من غير دخول جازم عليه.

ومثل قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ كتبت بحذف الياء هكذا ﴿يَأْتِ﴾ للدلالة على لغة هذيل.

الفائدة السادسة: حمل الناس على أن يتلقوا القرآن من صدور ثقات الرجال، ولا يتكلوا على هذا الرسم العثماني الذي جاء غير مطابق للنطق الصحيح في الجملة. وينضوي تحت هذه الفائدة مزيتان.

إحداهما: التوثق من ألفاظ القرآن وطريقة أدائه وحسن ترتيله وتجويده. فإن ذلك لا يمكن أن يعرف على وجه اليقين من المصحف مهما تكن قاعدة رسمه واصطلاح كتابته. فقد تخطئ المطبعة في الطبع، وقد يخفى على القارئ بعض أحكام تجويده كالقلقلة، والإظهار، والإخفاء، والإدغام، والروم، والإشمام ونحوها فضلًا عن خفاء تطبيقها.

ولهذا قرر العلماء أنه لا يجوز التعويل على المصاحف وحدها؛ بل لا بد من التثبت في الأداء والقراءة بالأخذ عن حافظ ثقة. وإن كنت في شك فقل لي بربك: هل يستطيع المصحف بأي رسم يكون أن يدل قارئًا أيًا كان على النطق الصحيح بفواتح السور

الكريمة؟ مثل ﴿كهيعص، حم، عسق، طسم﴾؟ ، ومن هذا الباب الروم والإشمام في قوله سبحانه ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ من كلمة ﴿لَا تَأْمَنَّا﴾.

المزية الثانية: اتصال السند برسول الله ﷺ، وتلك خاصة من خواص هذه الأمة الإسلامية امتازت بها على سائر الأمم.

قال ابن حزم: نقل الثقة عن الثقة يبلغ به النبي ﷺ مع الاتصال خص الله به المسلمين دون سائر الملل. وأما مع الإرسال والإعضال فيوجد في كثير من كتب اليهود ولكن لا يقربون فيه من موسى قربنا من محمد ﷺ؛ بل يقفون بحيث يكون بينهم وبين موسى أكثر من ثلاثين عصرًا. إنما يبلغون إلى شمعون ونحوه، ثم قال: وأما النصارى فليس عندهم من صفة هذا النقل إلا تحريم الطلاق. وأما النقل المشتمل على طريق فيه كذاب أو مجهول العين فكثير في نقل اليهود والنصارى. وأما أقوال الصحابة والتابعين فلا يمكن اليهود أن يبلغوا صاحب نبي أو تابعي، ولا يمكن النصارى أن يصلوا إلى أعلى من شمعون وبولص[1].

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن(١/ ٣٠٦: ٣٠٩) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عدد ٣٢، تاريخ القرآن الكريم لـ محمد طاهر الكردي(١/ ١٢٠).

المبحث الثالث: الرد على الشبهات:

الشبهة الأولى: ادعاؤهم أن نشأة القراءات كان بسبب خلو المصحف من النقط والشكل

نص الشبهة:

يقولون بأن سبب اختلاف القراءات وتنوعها وتعددها؛ إنما هو خاصية الخط العربي الذي كتبت به المصاحف العثمانية، تلك الخاصية هي خلوه من إعجام الحروف ونقطها الذي يدل على ذاتها، وخلوه من شكل الكلمات الذي يدل على إعرابها، فلما كان الأمر كذلك كانت محتملة لقراءات، وأوجه متنوعة. فكان كل قارئ يختار من هذه القراءات ومن هذه الأوجه ما يروق في نظره.

والجواب على هذه الشبة من هذه الوجوه:

الوجه الأول: القراءات نزلت من عند الله وليست ناشئة من خلو المصاحف من النقط والشكل.

الوجه الثاني: القراءات مصدرها التلقي والسماع وليس للاجتهاد والتشهي.

الوجه الثالث: أن سيدنا عثمان لما أرسل المصاحف أرسل مع كل مصحف معلمًا يعلم المسلمين القراءة؛ ليكون الأصل التلقي.

الوجه الرابع: في القرآن الكريم كلمات تكررت في مواضع كثيرة، ورُسمت برسم واحد في جميع المواضع، ولكنها في بعض المواضع وردت فيها القراءات، والبعض الآخر لم تتنوع فيها القراءات التي يحتملها رسمها، فدل على أن الأصل التلقي، وليس لخلو المصحف من النقط والشكل.

الوجه الخامس: في القرآن الكريم كلمات رسمت غير معجمة ولا مشكولة ورسمها يحتمل أكثر من قراءة واللغة العربية تجيز فيها هذه القراءات، ومع ذلك ليس فيها إلا قراءة واحدة.

الوجه السادس: لو كان الأمر على خلو المصحف من النقط والشكل فهذا لا يستقيم مع حكمة الله في حفظه للقرآن.

الوجه السابع: لو كان الأمر على خلو المصحف من النقط والشكل وعلى حسب الاختيار لما يحتمله الرسم؛ لكان القرآن من كلام البشر والله وعد بحفظه.

الوجه الثامن: التبديل في القرآن الكريم يستوجب عقابًا من الله.

الوجه التاسع: من القراء العشر من كان إمامًا في النحو، ومع ذلك كان يخالف مذهبه في النحو لأجل القراءة مما يدل على أن الأصل التلقي لا لخلو المصحف من الشكل والنقط.

الوجه العاشر: أجمع المسلمون على تواتر قراءات الأئمة العشرة، وثبوتها عن رسول الله ﷺ بطريق القطع واليقين.

الوجه الحادي عشر: القراءة ليست على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية؛ بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل.

وإليك التفصيل

الوجه الأول: القراءات نزلت من عند الله وليست ناشئة من خلو المصاحف من النقط والشكل.

قال أبو عمرو الداني: وهذه القراءات كلها، والأوجه بأسرها من اللغات، هي التي أنزل القرآن عليها، وقرأ بها رسول الله ﷺ، وأقرأ بها، وأباح الله تعالى لنبيه ﷺ القراءة بجميعها، وصوب الرسول ﷺ من قرأ ببعضها دون بعض. (١)

ومما يدل على ذلك الأحاديث الدالة على نزول القرآن على سبعة أحرف.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: **"أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عَلَى حَرْفٍ فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ"**. (٢)

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَدَخَلَ رَجُلٌ يُصَلِّي، فَقَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلَ آخَرُ، فَقَرَأَ قِرَاءَةً سِوَى قَرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَلَمَّا قَضَيْنَا الصَّلَاةَ، دَخَلْنَا جَمِيعًا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقُلْتُ: إِنَّ هَذَا قَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، و دَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ فَأَمَرَهُمَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَرَأَ. فَحَسَّنَ النَّبِيُّ ﷺ شَأْنَهُمَا. فَسَقَطَ فِي نَفْسِي مِنْ التَّكْذِيبِ وَلَا إِذْ كُنْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ الله ﷺ مَا قَدْ غَشِيَنِي. ضَرَبَ فِي صَدْرِي. فَفِضْتُ عَرَقًا، وَكَأَنَّمَا أَنْظُرُ إِلَى الله ﷻ

---

(١) الأحرف السبعة (٥٣)، وانظر القراءات في نظر المستشرقين والملحدين للشيخ عبد الفتاح القاضي (٧٢).

(٢) رواه البخاري (٤٩٩٢)، ومسلم (٨١٨).

فَرَقًا. فَقَالَ لِي: "يَا أُبَيُّ! أُرْسِلَ إِلَيَّ أَنْ اقْرَأْ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّانِيَةَ اقْرَأْهُ عَلَى حَرْفَيْنِ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّالِثَةَ اقْرَأْهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ. فَلَكَ بِكُلِّ رَدَّةٍ رَدَدْتُكَهَا مَسْأَلَةٌ تَسْأَلُنِيهَا، فَقُلْتُ: اللهمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، اللهمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، وَأَخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ حَتَّى إِبْرَاهِيمُ ﷺ"(١).

الوجه الثاني: القراءات مصدرها التلقي والسماع وليس الاجتهاد والتشهي

قال ابن حجر: وتتمة ذلك أن يقال: إن الإباحة المذكورة لم تقع بالتشهي، أي إن كل أحد منهم يغير الكلمة بمرادفها في لغته؛ بل المراعى في ذلك السماع من النبي ﷺ، ويشير إلى ذلك قول كلٍ من: عمر وهشام في حديث الباب أقرأني النبي ﷺ(٢).

قلنا يشير إلى حديث عمر بن الخطاب قال: سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ الله ﷺ، فَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِه، فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ لَمْ يُقْرِئْنِيهَا رَسُولُ الله ﷺ! ، فَكِدْتُ أُسَاوِرُهُ فِي الصَّلَاةِ، فَتَصَبَّرْتُ حَتَّى سَلَّمَ، فَلَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ. فَقُلْتُ: مَنْ أَقْرَأَكَ هَذِهِ السُّورَةَ الَّتِي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ؟ قَالَ: أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ الله ﷺ. فَقُلْتُ: كَذَبْتَ. فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ أَقْرَأَنِيهَا عَلَى غَيْرِ مَا قَرَأْتَ. فَانْطَلَقْتُ بِهِ أَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ. فَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ بِسُورَةِ الْفُرْقَانِ عَلَى حُرُوفٍ لَمْ تُقْرِئْنِيهَا. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "أَرْسِلْهُ. اقْرَأْ يَا هِشَامُ. فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ. ثُمَّ قَالَ: اقْرَأْ يَا عُمَرُ. فَقَرَأْتُ الْقِرَاءَةَ الَّتِي أَقْرَأَنِي. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ. إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ". (٣)

فيؤخذ التلقي والمشافهة والسماع من قول عمر لما سمع هشامًا يقرأ: (فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ لَمْ يُقْرِئْنِيهَا رَسُولُ الله ﷺ). ومن قول هشام لعمر: (أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ الله ﷺ) هكذا إلى آخر الحديث،

---

(١) رواه مسلم (٨٢٠).

(٢) فتح الباري(٨/ ٦٤٤).

(٣) رواه البخاري (٤٩٩٢)، ومسلم (٨١٨).

فقد تكرر لفظ الإقراء مما يدل على أن القراءات إنما تثبت بالتوقيف والتلقين والتلقي.[١]

عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه قال: القراءة سنة.[٢]

قال البيهقي: وَإِنَّمَا أَرَادَ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ اتِّبَاعَ مَنْ قَبْلَنَا فِي الْحُرُوفِ، وَفِي الْقِرَاءَاتِ سُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ، لاَ يَجُوزُ مُخَالَفَةُ الْمُصْحَفِ الذي هُوَ إِمَامٌ، وَلاَ مُخَالَفَةُ الْقِرَاءَاتِ التي هي مَشْهُورَةٌ، وَإِنْ كَانَ غَيْرُ ذَلِكَ سَائِغًا فِي اللُّغَةِ أَوْ أَظْهَرَ مِنْهَا.[٣]

قال أبو شامة: -في شرحه للشاطبية عند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ (الحج: ٢٣)، ورسم بالألف في الحج خاصة دون فاطر، والقراءة نقل؛ فما وافق منها ظاهر الخط كان أقوى وليس اتباع الخط بمجرده واجبًا؛ ما لم يعضده نقل، فإن وافق فبها ونعمت، وذلك نور على نور، قال الشيخ السخاوي- تلميذ الشاطبي- وهذا الموضع أدلّ دليل على اتباع النقل في القراءة؛ ؛ لأنهم لو اتبعوا الخط وكانت القراءة إنما هي مستندة إليه لقرءوا هنا- الحج- بألف، وفي الملائكة- فاطر- بالخفض.

قال أبو عبيد: ولولا الكراهة لخلاف الناس لكان اتباع الخط أحبَّ إليَّ، فيكون هذا - في الحج- بالنصب، والآخر- في فاطر - بالخفض.[٤]

قال ابن تيمية: وأما قول السائل: ما السبب الذي أوجب الاختلاف بين القراء فيما احتمله خط المصحف؟ فهذا مرجعه إلى النقل واللغة العربية لتسويغ الشارع لهم القراءة بذلك كله؛ إذ ليس لأحد أن يقرأ قراءة بمجرد رأيه؛ بل القراءة سنة متبعة، وهم إذا اتفقوا على اتباع القرآن المكتوب في المصحف الإمامي، وقد قرأ بعضهم بالياء وبعضهم بالتاء لم

---

(١) القراءات في نظر المستشرقين والملحدين للشيخ عبد الفتاح القاضي (٤١) بتصرف.

(٢) حسن. أخرجه سعيد بن منصور في سننه(٢/ ٢٦٠)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (٢١٨)، وابن مجاهد في السبعة (٤٩)، والطبراني في الكبير(٥/ ١٣٣) من طرق عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه عن خارجة بن زيد عن زيد بن ثابت.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي(٢/ ٣٨٥).

(٤) إبراز المعاني من حرز الأماني (٢/ ٣٠٠).

يكن واحد منهم خارجًا عن المصحف. ومما يوضح ذلك أنهم يتفقون في بعض المواضع على ياء أو تاء ويتنوعون في بعض كما اتفقوا في قوله تعالى ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ في موضع وتنوعوا في موضعين، وقد بينا أن القراءتين كالآيتين، فزيادة القراءات كزيادة الآيات؛ لكن إذا كان الخط واحدًا واللفظ محتملًا كان ذلك أخصر في الرسم. والاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب لا على المصاحف. اهـ[1].

الوجه الثالث: أن سيدنا عثمان لما أرسل المصاحف أرسل مع كل مصحف معلم يعلم المسلمين القراءة؛ ليكون الأصل التلقي.

لما كُتبت المصاحف العثمانية وأُرسلت إلى الأمصار الإسلامية، لم يكتف الخليفة عثمان بإرسالها إلى الأمصار وحدها، لتكون الملجأ والمرجع؛ بل أرسل مع كل مصحف عالمًا من علماء القراءة، يعلم المسلمين القرآن وفق هذا المصحف، وعلى مقتضاه، فأمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمدينة، وبعث عبد الله بن السائب إلى مكة، والمغيرة بن شهاب إلى الشام، وعامر بن قيس إلى البصرة، وأبا عبد الرحمن السلمي إلى الكوفة، فكان كل واحد من هؤلاء العلماء يقرئ أهل مصره بما تعلمه من القراءات الثابتة عن رسول الله ﷺ بطريق التواتر التي يحتملها رسم المصحف دون الثابتة بطريق الآحاد والمنسوخة، وإن كان يحتملها رسم المصحف، فالمقصود من إرسال القارئ مع المصحف، تقييد بما يحتمله الرسم من القراءات بالمنقول منها تواترًا، فلو كانت القراءات مأخوذة من رسم المصحف وساغ لكل إنسان أن يقرأ بكل قراءة يحتملها رسم المصحف سواء كانت ثابتة بطريق التواتر أم بطريق الآحاد أم كانت منسوخة أم لم يكن لها سند أصلًا لم يكن ثمَّ حاجة إلى إرسال عالم مع المصحف، فإيفاد عالم مع المصحف دليل واضح على أن القراءة إنما تعتمد على التلقي، والنقل، والرواية، لا على الخط، والرسم، والكتابة[2].

الوجه الرابع: في القرآن الكريم كلمات تكررت في مواضع كثيرة، ورُسمت برسم واحد في جميع المواضع، ولكنها في بعض المواضع وردت فيها القراءات، والبعض الآخر لم تتنوع فيها القرءات التي يحتملها رسمها؛ فدل على أن الأصل التلقي، وليس لخلو المصحف

---

(١) الفتاوى (١٣/ ٣٩٩، ٤٠٠).

(٢) القراءات في نظر المستشرقين والملحدين للشيخ عبد الفتاح القاضي (٤٣: ٤٢).

من النقط والشكل.

لو كان خلو المصاحف من الشكل والإعجام سببًا في تنوع القراءات واختلافها؛ أي أن هذا الاختلاف نتيجة حتمية لخلو المصاحف من الشكل والإعجام؛ لكانت كل قراءة يحتملها رسم المصحف صحيحة معتبرة من القرآن، وليس كذلك، فإن ما يحتمله رسم المصاحف من القراءات أربعة أقسام:

القسم الأول: ما ثبت بطريق التواتر، وهو جلُّ القراءات ومعظمها كالقراءات في كلمة(وَنُخْرِجُ)، في قوله تعالى: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ (الإسراء: ١٣)، فإن كلمة ﴿وَنُخۡرِجُ﴾ فيها ثلاث قراءات:

الأولى: بنون مضمومة مع كسر الراء. [1] ﴿وَنُخۡرِجُ﴾.

الثانية: بياء مثناة تحتية مضمومة مع فتح الراء. [2] ﴿وَيُخْرَجُ﴾

الثالثة: بياء مثناة تحتية مفتوحة مع ضم الراء. [3] ﴿وَيَخْرُجُ﴾

والقراءات الثلاثة ثابتة بطريق التواتر، والرسم يحتملها كلها.

القسم الثاني: ما ثبت بطريق الآحاد وصح سنده بنقل العدل الضابط عن مثله، وهكذا إلى نهاية السند، واستفاض نقله عن أئمة الأداء، واشتهر ذكره بين شيوخ الإقراء وتلقاه علماء القراءة بالرضا والقبول، كقراءة ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ (الأعراف: ٥٨) بضم الياء وكسر الراء في ﴿يَخْرُجُ﴾[4].

وقراءة ﴿أَجَعَلْتُمْ سُقَاةَ الْحَاجِّ وَعَمَرَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (التوبة: ١٩) بضم السين

(١) قراءة الجمهور عدا أبي جعفر ويعقوب. (النشر ٢/ ٣٠٦).

(٢) قراءة أبي جعفر. النشر(٢/ ٣٠٦).

(٣) قراءة يعقوب. النشر (٢/ ٣٠٦).

(٤) ابن وردان بخلف عنه. (النشر ٢/ ٢٧٠).

وحذف الياء[1]-جمع ساق مثل رماة جمع رام، وعمرة بفتح العين والميم مع حذف الألف بعدها جمع عامر، مثل: صنعة جمع صانع، فهاتان القراءتان مع ثبوتهما بطريق الآحاد قد صح سندهما وذاع بين القراء خبرهما، وتلقوهما بالقبول، ورسم المصحف يحتملهما، وحكم هذين القسمين واحد، وهو: أن يكون كل واحد منهما يعتبر قرآنًا ويُتعبد بتلاوته في الصلاة وغيرها، فيجب قبوله ولا يحل إنكار شيء منه، ومن أنكر شيئًا منه فهو كافر حلال الدم.

القسم الثالث: ما ثبت بطريق الآحاد وصح سنده، ولكنه لم يشتهر ولم يظهر بالذيوع والاستفاضة، ولم يتلقاه علماء القراءة بالقبول كقراءة ﴿وكان عبدًا لله وجيهًا﴾ بفتح العين وباء تحتية موحدة ساكنة بعد العين مع نصب الدال وتنوينها.[2] بدلًا من﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ (الأحزاب: ٦٩)، وهذا القسم شاذ تُمنع القراءة به منع تحريم في الصلاة وخارج الصلاة، ولا يحل التعبد بتلاوته.

القسم الرابع: ما لم يصح سنده أو لم يُعرف له سند أصلًا كقراءة بعضهم ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا- أباه﴾ (التوبة: ١١٤)، بهمزة مفتوحة وباء موحدة تحتية مفتوحة بدلًا من﴿إِيَّاهُ﴾ إياه بكسر الهمزة وياء مثناة تحتية مفتوحة مشددة، وهذا القسم لا يُعتبر قرآنًا، ولا يسوغ التعبد بتلاوته بحال، فتحرم القراءة به بإجماع المسلمين، ورسم المصحف يحتمل هذين القسمين الثالث والرابع.

وأزيد هذا الدليل إيضاحًا فأقول: في القرآن الكريم كلمات تكررت في مواضع كثيرة ورُسمت برسم واحد في جميع المواضع، ولكنها في بعض المواضع وردت فيها القراءات التي يحتملها رسمها، فاختلف فيها القراء وتنوعت فيها قراءاتهم، وفي بعض المواضع اتفق القراء على قراءتها بوجه واحد؛ لأن غيره لم يصح به النقل، ولم تثبت به الرواية مع أن الرسم يحتمله، وهاك أمثلة لما ذكرنا:

---

(١) ابن وردان بخلف عنه. (النشر ٢/ ٢٧٨).

(٢) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جني(٢/ ١٨٥).

المثال الأول: كلمة (مُلك).

ذُكرت في القرآن على أنها صفة أو في حكم الصفة في ثلاثة مواضع ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة: ٤)، ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ ﴾ (آل عمران: ٢٦) ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ (الناس: ٢)، ورُسمت هذه الكلمة برسم واحد في المواضع الثلاثة، وهو حذف الألف بعد الميم ولكن اختلفوا في قراءتها في موضع الفاتحة فقط، فمنهم من قرأها فيه بحذف الألف(١)، ومنهم من قرأها فيه بإثباتها(٢).

أما موضع آل عمران، فقد اتفقوا على قراءتها فيه بإثبات الألف مع أنه لو قُرئت الكلمة في هذا الموضع بحذف الألف لكان ذلك سائغًا لغةً ومعنى، ولكن لم تُقرأ بالحذف في هذا الموضع لعدم ثبوت الرواية فيه بالحذف.

وأما موضع سورة الناس فقد اتفق القراء على قراءة الكلمة فيه بحذف الألف مع أنه لو قُرئت هذه الكلمة في هذا الموضع بإثبات الألف لكان ذلك سائغًا لغةً ومعنى، ولكن لم تُقرأ الكلمة في هذا الموضع بالإثبات لعدم ثبوت النقل فيه بالإثبات، فلو كانت القراءات بالرأي والاجتهاد لا بالتلقي والتوقيف، وكان تنوع القراءات تابعًا لرسم المصحف لم يكن اختلاف القراء مقصورًا على موضع الفاتحة؛ بل كان يتناول الموضعين الآخرين، لكنهم اختلفوا في موضع الفاتحة واتفقوا في موضعي آل عمران والناس، فدل هذا على أن القراءات لم تكن بالاختيار والاجتهاد، ولم يكن تنوعها تابعًا للخط والرسم، وإنما هو تابع للسند والرواية والنقل.

المثال الثاني: كلمة ﴿غِشَٰوَةٌ﴾.

وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم في موضعين:

الأول: في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٌ﴾ (البقرة: ٧).

---

(١) الجمهور. النشر (١/ ٢٧١).

(٢) عاصم والكسائي ويعقوب وخلف البزار (النشر ١/ ٢٧١).

الثاني: في سورة الجاثية في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ (الجاثية: ٢٣)، وهذه الكلمة مرسومة في جميع المصاحف العثمانية بحذف الألف بعد الشين في الموضعين معًا، ومع ذلك اتفق القراء على قراءتها في موضع البقرة بكسر الغين وفتح الشين وإثبات ألف بعدها، واختلفوا في قراءتها في موضع الجاثية، فقرأها بعضهم بكسر الغين وفتح الشين وألف بعدها[1]، وقرأها بعضهم بفتح الغين وسكون الشين -من غير ألف-[2]، ولو قُرئ موضع البقرة بفتح الغين وسكون الشين لكان ذلك صحيحًا لغةً ومعنى، ولكن لم يقرأ أحد بهذه القراءة في هذا الموضع لعدم ثبوتها فيه، وهذا يدل على أن القراءة إنما تُؤخذ بالمشافهة والسماع ولا تُؤخذ من خط المصحف ورسمه.

المثال الثالث: كلمة ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾.

ذُكرت هذه الكلمة معرفة ومنكرة في القرآن الكريم في ستة مواضع:

الأول: في سورة البقرة ﴿فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ (البقرة: ٥٥).

الثاني: في سورة النساء ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡ﴾ (النساء: ١٥٣).

الثالث والرابع: في قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ١٣﴾ (فصلت: ١٣).

الخامس: في سورة فصلت أيضًا ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ (فصلت: ١٧).

السادس: في سورة الذاريات: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ (الذاريات: ٤٤).

وهذه الكلمة مرسومة في جميع المصاحف العثمانية في المواضع الستة بدون ألف بعد صاد، ولكن القراء أجمعوا على قراءتها في المواضع الخمسة الأولى بإثبات الألف بعد الصاد مع كسر العين، واختلفوا في الموضع السادس، فقرأها بعضهم فيه بإثبات الألف بعد

(١) الجمهور. النشر (٢/ ٣٧٢).

(٢) حمزة والكسائي وخلف البزار. (النشر ٢/ ٣٧٢).

الصاد مع كسر العين[1]، وقرأها بعضهم بحذف الألف مع سكون العين[2]، ومعنى القراءتين واحد، فلو كان تنوع القراءات تابعًا للرسم لاختلف القراء في الموضع الخمسة كما اختلفوا في الموضع السادس، ولكنهم اتفقوا في المواضع الخمسة واختلفوا في السادس، فكان ذلك دليلًا على أن العمدة في ثبوت القراءة التوقيف والرواية لا الرسم والكتابة[3].

الوجه الخامس: في القرآن الكريم كلمات رسمت غير معجمة ولا مشكولة، ورسمها يحتمل أكثر من قراءة، واللغة العربية تجيز فيها هذه القراءات، ومع ذلك ليس فيها إلا قراءة واحدة

في القرآن الكريم كلمات أخرى رسمت غير معجمة ولا مشكولة، ورسمها كذلك يجعلها محتملة لقراءات متعددة، واللغة العربية تجيز فيها هذه القراءات، ومع ذلك لم يختلف فيها القراء ولم تتعدد فيها القراءات؛ بل اتفقوا على قراءة واحدة فيها؛ لأنه لم يرو فيها بالسند القوي والأثر الثابت والنقل الموثوق، إلا هذه القراءة، وأما غيرها من القراءات التي يحتملها رسم المصاحف فليس له سند يُعتمد عليه، وأصل يُرد إليه فلم يقرأ به أحد، وهاك أمثلة لذلك:

١ -(خَطِفَ- يخطَفُ) جاء في لغة العرب أن فيها لغتين، خَطِفَ يخطَفُ من باب عَلِمَ يعلَم، وخَطِفَ يخطِفُ من باب عمَدَ يعمِد، ولكن القراء أجمعوا على قراءتها بكسر الطاء في الماضي وفتحها في المضارع.

٢- ﴿مُكْثٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ (الإسراء: ١٠٦).

اللغة تجيز فيها تثليث الميم ورسمها يحتمل الأوجه الثلاثة، ولكن القراء أجمعوا على قراءتها بضم الميم، فلو كانت القراءات بالرأي والاختيار وكان خلو الكلمات من الشكل

---

(١) الجمهور. (النشر ٢/ ٣٧٧)

(٢) الكسائي. النشر (٢/ ٣٧٧).

(٣) القراءات في نظر المستشرقين والملحدين للشيخ عبد الفتاح القاضي (٤٩: ٤٣) باختصار. وقد ضرب أمثلة كثيرة على هذا المنوال فراجعه.

سببًا في اختلاف القراءات وتنوعها؛ لاختلف القراء في قراءة الكلمات السابقة، فكان منهم من يقرأ: خطف يخطف من باب علم يعلم، وكان منهم من يقرأ مكث بضم الميم، ومنهم من يقرأ بفتحها، ومنهم من يقرأ بكسرها، والمعنى لا يختلف، واللغة تسيغ جميع هذه القراءات، ولكن القراء اتفقوا على قراءة خطف بالكسر يخطف بالفتح، وعلى قراءة (مُكْثٍ) بالضم، فحينئذ لا تكون القراءات بالرأي والاختيار ولا بالهوى والاجتهاد، ولا يكون تجرد المصاحف من الشكل سببًا في تنوع القراءات واختلافها سببًا في تنوع القراءات واختلافها، إنما سبب التنوع والاختلاف

الروايات الصحيحة والأسانيد الموصولة والنقول الصريحة والتوقيف والتلقي والسماع[1].

الوجه السادس: لو كان الأمر على خلو المصحف من النقط والشكل فهذا لا يستقيم مع حكمة الله في حفظه للقرآن

ينجم عن رأي جولد زيهر ومن شايعه من الملاحدة وهو أن منشأ القراءات تجرد المصاحف من النقط والشكل، أن يكون القرآن الكريم قد قُرئ في خير العهود -عهد النبي ﷺ وعهد الصحابة وعهد التابعين- بقراءات وأوجه لا يُعرف الصحيح منها من غيره، ولا المنزل منها من غير المنزل، ولا المتواتر منها من غير المتواتر، وبداهة العقل قاضية ببطلان هذا وفساده، ثم إنه لا يستقيم في حكمة الحكيم ﷻ أن يكل أمر القرآن وهو أعظم دستور سماوي إلى العباد يقرؤه كل واحد منهم حسب ميله وهواه، وحسب رغبته واختياره، ويعبر كل منهم في نطاق قدرته على التعبير والأسلوب، والناس في هذا متفاوتون تفاوتًا شاسعًا.

أقول: لا يستقيم هذا في حكمة الحكيم؛ لأن فيه تعريضًا لنصوص القرآن للتناقض والتعارض والتخاذل والتهافت والتغيير والتحريف والخطأ والتصحيف[2].

---

(١) القراءات في نظر المستشرقين والملحدين للشيخ عبد الفتاح القاضي صـ ٦٥: ٦٦ باختصار وقد ضرب أمثلة كثيرة على هذا المنوال فراجعه.

(٢) القراءات في نظر المستشرقين والملحدين للشيخ عبد الفتاح القاضي صـ ٧٢: ٧٣.

الوجه السابع: لو كان الأمر على خلو المصحف من النقط والشكل، وعلى حسب الاختيار لما يحتمله الرسم؛ لكان القرآن من كلام البشر والله وعد بحفظه.

لو كان مبعث اختلاف القراءات وتنوعها خلو المصاحف من النقط والشكل، وكان كل قارئ يقرأ بقراءة يختارها من تلقاء نفسه إذا كان الرسم محتملًا لها، ولم يكن مبعثها الوحي والمشافهة والتلقي من فيه ﷺ لكان القرآن من كلام البشر، ولم يكن كله وحيًا سماويًا منزَّلًا من عند الله تعالى، ولو كان كذلك لذهبت أعظم خاصية من خصائصه، تلك الخاصية التي امتاز بها القرآن عن سائر الكتب السماوية السابقة وهو الإعجاز، ولو ذهبت عنه صفة الإعجاز لم يكن للتحدي به -بجميع قراءاته ورواياته- وجه، ولم يكن لعجز العرب عن معارضته سر -حيث إن بعضه من وضع جنسهم- ولم يكن للإيمان به والتعبد بتلاوته معنى أصلًا، لكن الله تعالى أمرنا بالإيمان به، والتعبد بتلاوته، وتحدى به سائر العرب، فعجزوا عن معارضته والإتيان بمثله؛ بل بأقصر سورة من سوره، فحينئذ تكون صفة الإعجاز ملازمة له لا تفارقه ولا تنفك عنه.

إذًا لم يكن بعضه من كلام البشر؛ بل كله من كلام الله ﷻ، فلا يكن مبعث القراءات خلو المصاحف من النقط والحركات، بل مبعثها الوحي والتلقي والمشافهة من فيه ﷺ، وهو المطلوب[1].

إن الله تعالى وعد بحفظ كتابه من أن تمتد إليه يد العبث والتحريف التي امتدت إلى ما سبقه من الكتب السماوية.[2] فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (فصلت: ٤١، ٤٢)، ولا شك أن قراءته بالرأي والاختيار تفضي ـ من قريب أو من بعيد ـ إلى تعريض نصوصه للتغيير والتصحيف، وذلك ينافي الوعد بحفظه، ووصفه بأنه ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾.

---

(١) القراءات في نظر المستشرقين والملحدين للشيخ عبد الفتاح القاضي صـ ٧٣: ٧٤.

(٢) راجع مسألة حفظ القرآن في بحث جمع القرآن في هذه الموسوعة.

الوجه الثامن: التبديل في القرآن الكريم يستوجب عقابًا من الله.

إن القرآن الكريم سجل على رسول الله ﷺ أنه لا يستطيع أن يبدل في القرآن الكريم كلمة بكلمة أو حرفًا بآخر، وأشار إلى أن هذا التبديل معصية يترتب عليها العقاب الأخروي الشديد، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ (يونس: ١٥).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ (الحاقة: ٤٤ - ٤٦).

فإذا كان الرسول ﷺ لا يستطيع أن يبدل في القرآن الكريم شيئًا، فهل يملك غيره صحابيًا كان أم تابعيًا أم غيرهما، أن يضع كلمة مكان كلمة، أو حرفًا في موضع حرف[١].

الوجه التاسع: من القراء العشر من كان إمامًا في النحو، ومع ذلك كان يخالف مذهبه في النحو لأجل القراءة، مما يدل على أن الأصل التلقي لا لخلو المصحف من الشكل والنقط.

إن من القراء العشرة قد بلغ الذروة في العربية، وكان فيها إمامًا يُرحل إليه ويؤخذ عنه، وله مذهب خاص اشتهر به، ومع ذلك كان في القراءة لا يتعدى ما نقله عن أئمته، وتلقاه عن شيوخه ولو خالف مذهبه في العربية، من هؤلاء الإمام أبو عمرو ابن العلاء البصري.

قال الأصمعي: قال لي أبو عمرو: لولا أنه ليس لي أن أقرأ إلا بما قُرئ لقرأت كذا وكذا من الحروف، كذا وكذا[٢].

فكان أبو عمرو يخالف مذهبه في النحو اتباعًا للأثر.

(١) القراءات في نظر المستشرقين والملحدين للشيخ عبد الفتاح القاضي صـ ٧٤.

(٢) حسن. أخرجه ابن مجاهد في السبعة صـ٤٨، صـ ٨٢ من طريق نصر بن علي قال أخبرنا الأصمعي قال سمعت أبا عمرو يقول لولا أنه ليس لي أن أقرأ إلا بما قد قرىء به لقرأت حرف كذا كذا وحرف كذا كذا.

قال ابن خالويه: أدغم أبو عمرو وحده الراء في اللام من ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ وما شاكله في القرآن وهو ضعيف عند البصريين[(١)].

وورد عن الكسائي مثل ما ورد عن أبي عمرو، فكانت قراءته في بعض المواضع تخالف مذهبه في النحو، وليس هناك تفسير لذلك إلا أن هؤلاء الأئمة كانوا يستندون في قراءتهم إلى النقل والرواية لا إلى القواعد والدراية.

قال سفيان الثوري: ما قرأ حمزة حرفًا من كتاب الله تعالى إلا بأثر. [(٢)]

وكان ليحيى بن سلام اختيار في القراءة، ولكن من طريق الآثار، وكان الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام يختار من القراءات ما يوافق العربية والأثر جميعًا[(٣)].

الوجه العاشر: أجمع المسلمون على تواتر قراءات الأئمة العشرة، وثبوتها عن رسول الله ﷺ بطريق القطع واليقين.

قال القرطبي: وقد أجمع المسلمون في هذه الأعصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة مما رووه ورأوه من القراءات، وكتبوا في ذلك مصنفات فاستمر الإجماع على الصواب، وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب وعلى هذا الأئمة المتقدمون والفضلاء المحققون كالقاضي أبي بكر بن الطيب والطبري وغيرهما.

قال ابن عطية: ومضت الأعصار والأمصار على قراءات السبعة وبها يصلى؛ لأنها ثبتت بالإجماع[(٤)].

قال عبد الوهاب بن السبكي: الحمد لله، القراءات السبع التي اقتصر عليها الشاطبي، والثلاث التي هي قراءة أبي جعفر وقراءة يعقوب، وقراءة خلف متواترة معلومة من الدين

---

(١) الحجة في القراءات السبع صـ ٨٠

(٢) حسن. أخرجه ابن مجاهد في السبعة في القراءات صـ ٧٦ حدثني مطين محمد بن عبد الله قال حدثنا عقبة بن قبيصة بن عقبة قال حدثني أبي كنا عند سفيان الثوري فجاءه حمزة فكلمه فلما قام قال سفيان أترون هذا ما قرأ حرفا من كتاب الله إلا بأثر.

(٣) القراءات في نظر المستشرقين والملحدين للشيخ عبد الفتاح القاضي صـ ٧٨: ٧٧.

(٤) تفسير القرطبي ١/ ٦٤.

بالضرورة، وكل حرف انفرد به واحد من العشرة معلوم من الدين بالضرورة أنه مُنزل على رسول الله ﷺ لا يكابر في شيء من ذلك إلاَّ جاهل وليس تواتر شيء منها مقصورًا على من قرأ بالروايات؛ بل هي متواترة عند كل مسلم يقول: أشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمدًا رسول الله، ولو كان مع ذلك عاميًا جلفًا لا يحفظ من القرآن حرفًا، ولهذا تقرير طويل، وبرهان عريض لا يسع هذه الورقة شرحه، وحظ كل مسلم وحقه أن يدين الله تعالى ويجزم بأن ما ذكرناه متواتر معلوم باليقين، لا يتطرق الظنون ولا الارتياب إلى شيء منه، والله أعلم(١).

الوجه الحادي عشر: القراءة ليست على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية؛ بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل

قال أبو عمرو: وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية؛ بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل، والرواية إذا ثبت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة؛ لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها. (٢)

قال ابن الجزري: ومن ثم امتنعت القراءة بالقياس المطلق، وهو الذي ليس له أصل في القراءة يرجع إليه، ولا ركن وثيق في الأداء يعتمد عليه كما روينا عن عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت رضي الله عنهما من الصحابة، وعن ابن المنكدر، وعروة بن الزبير، وعمر بن عبد العزيز، وعامر الشعبي من التابعين أنهم قالوا: القراءة سنة يأخذها الآخر عن الأول فاقرؤوا كما علمتموه. ولذلك كان الكثير من أئمة القراءة كنافع وأبي عمرو يقول: لولا أنه ليس لي أن أقرأ إلا بما قرأت لقرأت حرف كذا كذا وحرف كذا كذا. (أما) إذا كان القياس على إجماع انعقد أو عن أصل يعتمد فيصير إليه عند عدم النص وغموض وجه الأداء؛ فإنه مما يسوغ قبوله ولا ينبغي رده لا سيما فيما تدعو إليه الضرورة؛ وتمس الحاجة مما يقوي وجه الترجيح ويعين على قوة التصحيح؛ بل قد لا يسمى ما كان كذلك قياسًا على الوجه الاصطلاحي؛ إذ هو في الحقيقة نسبة جزئي إلى كلي كمثل ما اختير في تخفيف بعض الهمزات لأهل الأداء، وفي إثبات

---

(١) نقله عنه ابن الجزري في النشر ١/ ٤٦.

(٢) النشر في القراءات العشر ١/ ١٠.

البسملة وعدمها لبعض القراء، ونقل (كتابيه إني) وإدغام (ماليه هلك) قياسًا عليه، وكذلك قياس (قال رجلان. وقال رجل) على (قال رب) في الإدغام كما ذكره الداني وغيره ونحو ذلك مما لا يخالف نصًا ولا يرد إجماعًا ولا أصلًا مع أنه قليل جدًا.[1]

الشبهة الثانية: الاختلاف في الأحرف يوقع في شك وريب من القرآن

نص الشبهة:

يقولون: إن هذا الاختلاف في القراءات يوقع في شك وريب من القرآن، خصوصًا إذا لاحظنا في بعض الروايات معنى تخيير الشخص أن يأتي من عنده باللفظ وما يرادفه، أو باللفظ وما لا يضاده في المعنى كحديث أبي بكرة وفيه: كلها شاف كاف ما لم تختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب نحو قولك: تعال وأقبل وهلم واذهب وأسرع وعجل. جاء بهذا اللفظ من رواية أحمد بإسناد جيد، ومثله حديث أُبي بن كعب.

وأكثر من ذلك ما جاء أن عبد الله بن مسعود أقرأ رجلًا: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ فقال الرجل: طعام اليتيم فردها عليه فلم يستقم بها لسانه. فقال: أتستطيع أن تقول: طعام الفاجر قال: نعم. قال: فافعل.

أولًا: تخريج النصوص وبيان صحتها:

فعَن أَبِي بَكْرَةَ أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، اقْرَأْ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، قَالَ مِيكَائِيلُ عليه السلام: اسْتَزِدْهُ فَاسْتَزَادَهُ قَالَ: اقْرَأْهُ عَلَى حَرْفَيْنِ، قَالَ مِيكَائِيلُ: اسْتَزِدْهُ فَاسْتَزَادَهُ حَتَّى بَلَغَ سَبْعَةَ أَحْرُفٍ. قَالَ: كُلٌّ شَافٍ كَافٍ مَا لَمْ تَخْتِمْ آيَةَ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ أَوْ آيَةَ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ نَحْوَ قَوْلِكَ تَعَالَ وَأَقْبِلْ وَهَلُمَّ وَاذْهَبْ وَأَسْرِعْ وأعجل. وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَرَأْتُ آيَةً وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ خِلَافَهَا فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَمْ تُقْرِئْنِي آيَةَ كَذَا وَكَذَا؟ قَالَ: بَلَى، فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: أَلَمْ تُقْرِئْنِيهَا كَذَا وَكَذَا؟ فَقَالَ: بَلَى، كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ مُجْمِلٌ. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ، فَضَرَبَ صَدْرِي فَقَالَ: يَا أُبَيُّ بْنَ كَعْبٍ! إِنِّي أُقْرِئْتُ الْقُرْآنَ، فَقِيلَ لِي: عَلَى حَرْفٍ أَوْ عَلَى حَرْفَيْنِ؟ قَالَ

---

(١) النشر في القراءات العشر ١/ ١٧: ١٨.

فَقَالَ الْمَلَكُ الَّذِي مَعِي: عَلَى حَرْفَيْنِ، فَقُلْتُ: عَلَى حَرْفَيْنِ، فَقَالَ: عَلَى حَرْفَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ؟ فَقَالَ الْمَلَكُ الَّذِي مَعِي: عَلَى ثَلَاثَةٍ. فَقُلْتُ: عَلَى ثَلَاثَةٍ حَتَّى بَلَغَ سَبْعَةَ أَحْرُفٍ لَيْسَ مِنْهَا إِلَّا شَافٍ كَافٍ، إِنْ قُلْتَ: غَفُورًا رَحِيمًا أَوْ قُلْتَ: سَمِيعًا عَلِيمًا أَوْ عَلِيمًا سَمِيعًا فَاللهُ كَذَلِكَ، مَا لَمْ تَخْتِمْ آيَةَ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ أَوْ آيَةَ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ(١).

عن همام بن الحارث، أن أبا الدرداء كان يُقرئ رجلًا ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ فقال: طعام اليتيم، فقال أبو الدرداء: قل إن شجرة الزقوم طعام الفاجر. (٢)

عن عون بن عبد الله أن ابن مسعود أقرأ رجلًا ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ فقال الرجل: طعام اليتيم، فرددها عليه فلم يستقم بها لسانه، فقال: أتستطيع أن تقول: طعام الفاجر؟ قال: نعم. قال: فافعل. (٣)

ثانيا: توجيه النصوص من وجوه:

الوجه الأول: أن اختلاف القراءات لا يوقع في شك ولا ريب ما دام الكل نازلا من عند الله.

الوجه الثاني: أمَّا هذه الروايات التي اعتمدت عليها الشبهة فلا نسلم أنه يفهم منها معنى تخيير الشخص أن يأتي من تلقاء نفسه باللفظ وما يرادفه، أو باللفظ وما لا يضاده في المعنى حتى يوقع ذلك في ريب من هذا التنزيل؛ بل قصارى ما تدل عليه هذه الروايات أن الله تعالى وسَّع على عباده خصوصا في مبدأ عهدهم بالوحي أن يقرؤوا القرآن بما تلين به ألسنتهم. وكان من جملة هذه التوسعة القراءة بمترادفات من اللفظ الواحد للمعنى الواحد، مع ملاحظة أن الجميع نازل من عند الله نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٥/ ١٢٤، وأبو داود في سننه (١٤٧٧)، قال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧/ ١٥١: رواه أحمد والطبراني في المعجم الكبير بنحوه إلا أنه قال: وذهب وأدبر، وفيه على بن زيد بن جدعان، وهو سيء الحفظ، وقد توبع، وبقيه رجال أحمد رجال الصحيح. قال الألباني: إسناده صحيح. الأحاديث المختارة للضياء المقدسي ٢/ ٩١.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٤٣ بإسناد صحيح.

(٣) الدر المنثور٩/ ١٢٩ بإسناد فيه ضعف فإن عون بن عتبة روايته عن ابن مسعود مرسلة كما قال الدار قطني.

وقرأه الرسول على الناس على مكث، وسمعوه منه ثم نسخ الله ما شاء أن ينسخ بعد ذلك، وأبقى ما أبقى لحكمة سامية تستقبلك في مبحث النسخ. يدل على أن الجميع نازل من عند الله تعالى قولُه ﷺ لكل من المتنازعين المختلفين في القراءة من أصحابه: "هكذا أنزلت" وقول كل من المختلفين لصاحبه: أقرأنيها رسول الله ﷺ. وقول الله تعالى لرسوله جوابا لمن سأله تبديل القرآن: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وليس بعد كلام الله ورسوله كلام. كذلك أجمعت الأمة على أنه لا مدخل لبشر في نظم هذا القرآن لا من ناحية أسلوبه ولا من ناحية ألفاظه؛ بل ولا من ناحية قانون أدائه، فمن يخرج على هذا الإجماع ويتبع غير سبيل المؤمنين يوله الله ما تولى ويصله جهنم وساءت مصيرًا.

وها نحن أولًا قد رأينا القرآن في تلك الآية يمنع الرسول من محاولة ذلك منعًا باتًا مشفوعًا بالوعيد الشديد ومصحوبًا بالعقاب الأليم. فما يكون لابن مسعود ولا لأكبر من ابن مسعود بعد هذا أن يبدل لفظًا من ألفاظ القرآن بلفظ من تلقاء نفسه.

أما هذه الرواية المنسوبة إلى ابن مسعود من أنه أقرأ الرجل بكلمة الفاجر بدلًا من كلمة الأثيم في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ (٤٤)﴾ فتدل على أن ابن مسعود سمع الروايتين عن رسول الله ﷺ، ولما رأى الرجل قد تعسر عليه النطق بالأولى أشار عليه أن يقرأ بالثانية وكلاهما منزل من عند الله.

وكذلك حديث أبي بكرة السابق لا يدل على جواز تبديل الشخص ما شاء من القرآن بما لا يضاده كما زعم الواهم؛ إنما ذلك الحديث وأشباهه من باب الأمثال التي يضربها الرسول ﷺ للحروف التي نزل عليها القرآن؛ ليفيد أن تلك الحروف على اختلافها ما هي إلا ألفاظ متوافقة مفاهيمها، متساندة معانيها، لا تخاذل بينها ولا تهافت، ولا تضاد ولا تناقض، ليس فيها معنى يخالف معنى آخر على وجه ينفيه ويناقضه كالرحمة التي هي

خلاف العذاب وضدها، وتلك الأحاديث بهذا الوجه تقرير؛ لأن جميع الحروف نازلة من عند الله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

وهاك برهانًا آخر ذكره صاحب التبيان في مثل هذا المقام إذ يقول: إن النبي ﷺ علم البراء بن عازب دعاءً فيه هذه الكلمة (ونبيك الذي أرسلت) فلما أراد البراء أن يعرض ذلك الدعاء على رسول الله ﷺ قال: ورسولك الذي أرسلت فلم يوافقه النبي ﷺ على ذلك؛ بل قال له: "لا. ونبيك الذي أرسلت"[1]. وهكذا نهاه ﷺ أن يضع لفظة رسول موضع لفظة نبي مع أن كليهما حق لا يحيل معنى إذ هو ﷺرسول ونبي معًا، ثم قال: فكيف يسوغ للجهال المغفلين أن يقولوا: إنه ﷺ كان يجيز أن يوضع في القرآن الكريم مكان عزيز حكيم غفور رحيم أو سميع عليم. وهو يمنع من ذلك في دعاء ليس قرآنًا والله يقول مخبرًا عن نبيه: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ ولا تبديل أكثر من وضع كلمة مكان أخرى؟[2].

الوجه الثالث: أن ذلك كان رخصة لعسر تلاوته بلفظ واحد على الأميين ثم نسخ وإلا لجازت روايته بالمعنى، ولذهب التعبد بلفظه، ولا تسع الخرق، ولفات كثير من الأسرار والأحكام وهذا يستدعي نسخ الحديث وفيه بعد؛ بل لا قائل به[3].

---

(١) الحديث عند البخاري (٢٤٤)، ونصه: عن البراء بن عازب، قال: قال النبي ﷺ: "إذا أتيت مضجعك، فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن مت من ليلتك، فأنت على الفطرة، واجعلهن آخر ما تتكلم به". قال: فرددتها على النبي ﷺ، فلما بلغت: اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، قلت: ورسولك، قال: "لا، ونبيك الذي أرسلت".

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٨٥.

(٣) روح المعاني ١/ ٢٠.

وقال القرطبي: ولا حجة في هذا للجهال من أهل الزيغ، أنه يجوز إبدال الحرف من القرآن بغيره؛ لأن ذلك إنما كان من عبد الله تقريبًا للمتعلم، وتوطئة منه له للرجوع إلى الصواب، واستعمال الحق والتكلم بالحرف على إنزال الله وحكاية رسول الله ﷺ.(١)

وقال الملا علي القاري: قال كثيرون من الأئمة: إنما كان ذلك، أي جواز تغيير اللفظ بمرادفه، رخصة لما كان يتعسر على كثير منهم التلاوة بلفظ واحد؛ لعدم علمهم بالكتابة والضبط وإتقان الحفظ، فالقرشي يشق عليه تخفيف الهمزة، واليمني تركه فلذلك سهل على كل قبيلة أن تقرأ بلغتها، ثم نسخ بزوال العذر وتيسير الكتابة والحفظ.(٢)

وقال الزركشي: إن ضرورة اختلاف لغات العرب ومشقة نطقهم بغير لغتهم؛ اقتضت التوسعة عليهم في أول الأمر، فأذن لكل منهم أن يقرأ على حرفه، أي على طريقته في اللغة إلى أن انضبط الأمر في آخر العهد، وتدربت الألسن، وتمكن الناس من الاقتصار على الطريقة الواحدة، فعارض جبريل النبي ﷺ القرآن مرتين في السنة الآخرة، واستقر على ما هو عليه الآن، فنسخ الله سبحانه تلك القراءة المأذون فيها بما أوجبه من الاقتصار على هذه القراءة التي تلقاها الناس مراعاة التخفيف على العجوز والشيخ الكبير(٣).

الوجه الرابع: إن هذا قد نسخ.

قال القاضي ابن الطيب: وإذا ثبت هذه الرواية - يريد حديث أُبَيٍّ - حُمل على أن هذه كان مطلقًا ثم نسخ، فلا يجوز للناس أن يبدلوا اسمًا لله تعالى في موضع بغيره مما يوافق معناه أو يخالف(٤).

الوجه الخامس: هذا خاص لمعان متفق مفهومها، مختلف مسموعها.

---

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ١٤٩.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١ / ٤٥٥.

(٣) البرهان في علوم القرآن ١/ ٢١٣.

(٤) تفسير القرطبي ١/ ٤٤.

قال ابن عبد البر: إنما أراد بهذا ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن عليها أنها معان متفق مفهومها، مختلف مسموعها، لا يكون في شيء منها معنى وضده، ولا وجه يخالف معنى وجه خلافًا ينفيه ويضاده، كالرحمة التي هي خلاف العذاب وضده وما أشبه ذلك(١).

الوجه السادس: هذا خاص بالنبي ﷺ.

قال صاحب عون المعبود: هَذَا يُفِيدُ أَنَّهُ كَمَا رَخَّصَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي اللُّغَات السَّبْع كَذَلِكَ رَخَّصَ لَهُ ﷺ فِي رُءُوس الْآيَات بِمَا يُنَاسِبُ الْمَقَام مِنْ أَسْمَاء الله تَعَالَى مِنْ غَيْر تَقْيِيدٍ بِبَعْضٍ، وَلَكِنْ لَا يَجُوزُ هَذَا التَّغَيُّرُ وَالتَّبَدُّل لِكُلِّ أَحَد، وَلَمْ يُرَخِّصْ فِي ذَلِكَ عُمُومًا؛ بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَقْتَصِرَ فِي الْقِرَاءَة عَلَى مَا ثَبَتَ عَنْ النَّبِيّ ﷺ، وَعَلَيْهِ أَكْثَر الْأَئِمَّة مِنْ السَّلَف وَالْخَلَف وَالله أَعْلَمُ(٢).

الوجه السابع: هذا الحكمُ إنما كان قبل الإجماع على ترتيب القرآن في المصحف العثماني

إن هذا الحكم إنما كان قبل الإجماع على ترتيب القرآن في المصحف العثماني، فلما وقع الإجماع على منع تغيير الناس القرآن لم يجُز لأحد أن يجْعل موضع "سميع عليم" مثلا "عزيزًا حكيمًا"، ونحو ذلك قصدًا وعمدًا، ولكن إذا جرى على لسانه من غير قصدٍ إلى التغيير فلا بأس بذلك، حتى لو كان في الصلاة لا تفسدُ صلاته(٣).

الوجه الثامن: كانوا يفعلون ذلك قبل العرضة الأخيرة.

قال ابن تيمية: هذه القراءات لم تثبت متواترة عن النبي ﷺ، وإن ثبتت فإنها منسوخة بالعرضة الآخرة، فإنه قد ثبت في الصحاح عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم أن جبريل عليه السلام

---

(١) التمهيد ٨/ ٢٨٤، الإتقان في علوم القرآن ١/ ٥٢.

(٢) عون المعبود ٣/ ٤٠٨.

(٣) شرح أبي داود للعيني ٥/ ٣٩٣.

كان يعارض النبي ﷺ بالقرآن في كل عام مرة، فلما كان العام الذي قبض فيه عارضه مرتين، والعرضة الآخرة هي قراءة زيد بن ثابت وغيره، وهي التي أمر الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بكتابتها في المصاحف، وكتبها أبو بكر وعمر في خلافة أبي بكر في صحف. أمر زيد بن ثابت بكتابتها، ثم أمر عثمان في خلافته بكتابتها في المصاحف وإرسالها إلى الأمصار، وجمع الناس عليها باتفاق من الصحابة. (١)

الوجه التاسع: المقصد من الزيادة بيان المعنى.

قال ابن عادل: المقصود من الزيادة بيان المعنى فقط. (٢)

الشبهة الثالثة: نزول القرآن على سبعة أحرف يخالف قول الله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

نص الشبهة:

يقولون: إن أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف تثبت الاختلاف في القرآن مع أن القرآن نفسه يرفع الاختلاف عن نفسه إذ يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا (٨٢)﴾، وذلك تناقض ولا ندري أيهما يكون الصادق.

والجواب: الاختلاف هنا بمعنى التنويع في طرق الأداء، اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد وتنافر وتناقض (٣).

إن الاختلاف الذي تثبته تلك الأحاديث غير الاختلاف الذي ينفيه القرآن. وهذا كاف في دفع التناقض فكلاهما صادق. وبيان ذلك أن الأحاديث الشريفة تثبت الاختلاف بمعنى التنويع في طرق أداء القرآن والنطق بألفاظه في دائرة محدودة لا تعدو سبعة أحرف، وبشرط التلقي فيها كلها عن النبي ﷺ، أمَّا القرآن فينفي الاختلاف بمعنى التناقض

---

(١) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٩٥.

(٢) تفسير اللباب لابن عادل ١٦/ ٣٦.

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير (٢/ ٨٧).

والتدافع بين معاني القرآن وتعاليمه مع ثبوت التنويع في وجوه التلفظ والأداء السابق، ومعنى ذلك أن نزول القرآن على سبعة أحرف لا يلزم منه تناقض، ولا تخاذل، ولا تضاد، ولا تدافع بين مدلولات القرآن ومعانيه، وتعاليمه ومراميه بعضها مع بعض؛ بل القرآن كله سلسلة واحدة متصلة الحلقات، محكمة السور والآيات، متآخذة المبادئ والغايات مهما تعددت طرق قراءته، ومهما تنوعت فنون أدائه[1].

ولابن الجزري كلام نفيس يتصل بهذا الموضوع قال: وأما حقيقة اختلاف هذه السبعة الأحرف المنصوص عليها من النبي ﷺوفائدته؛ فإن الاختلاف المشار إليه في ذلك اختلاف تنوع وتغاير، لا اختلاف تضاد وتناقض؛ فإن هذا محال أن يكون في كلام الله تعالى، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾، وقد تدبرنا اختلاف القراءات كلها فوجدناها لا تخلو من ثلاثة أحوال:

(أحدها) اختلاف اللفظ والمعنى واحد. (الثاني) اختلافهما جميعًا مع جواز اجتماعهما في شيء واحد. (الثالث) اختلافهما جميعًا مع امتناع جواز اجتماعهما في شيء واحد؛ بل يتفقان من وجه آخر لا يقتضي التضاد.

فأما الأول: كالاختلاف في (الصراط، وعليهم، ويؤده، والقدس، ويحسب) ونحو ذلك مما يطلق عليه أنه لغات فقط.

وأما الثاني: فنحو (مالك، وملك) في الفاتحة؛ لأن المراد في القراءتين هو الله تعالى؛ لأنه مالك يوم الدين وملكه، وكذا (يكذبون، ويكذبون) لأن المراد بهما هم المنافقون؛ لأنهم

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٨٥، و تاريخ القرآن الكريم لمحمد طاهر الكردي ١/ ٨٣، وقال الكردي: فاختلاف هذه الأحرف إنما هو اختلاف ألفاظ وتلاوة، لا اختلاف معان موجبة لاختلاف أحكامه (مثال ذلك) ما رواه ابن فارس بسنده عن هانئ قال: كنت عند عثمان ﷺ وهم يعرضون المصاحف فأرسلني بكتف شاة إلى أبى بن كعب فيها " لم يتسن " و" فأمهل الكافرين " و" لا تبديل للخلق " قال فدعا بالدواة فمحا إحدى اللامين وكتب " لخلق الله " ومحا فأمهل وكتب " فمهل " وكتب " لم يتسنه " ألحق فيها هاء والقراءة في المصاحف على هذا الإصلاح.

يكذِّبون بالنبي ﷺ ويَكذِبون في أخبارهم، وكذا(كيف ننشرها) بالراء والزاي؛ لأن المراد بها هي العظام وذلك أن الله أنشرها أي أحياها، وأنشزها أي رفع بعضها إلى بعض حتى التأمت فضمن الله تعالى المعنيين في القراءتين.

وأما الثالث: فنحو (وظنوا أنهم قد كذبوا) بالتشديد والتخفيف، وكذا (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) بفتح اللام ورفع الأخرى وبكسر الأولى وفتح الثانية، وكذا (للذين هاجروا من بعد ما فتنوا) بالتسمية والتجهيل، وكذا قال (لقد علمت) بضم التاء وفتحها، وكذلك ما قرئ شاذًا (وهو يطعم ولا يطعم) عكس القراءة المشهورة، وكذلك (يطعم ولا يطعم) على التسمية فيهما؛ فإن ذلك كله وإن اختلف لفظًا ومعنى وامتنع اجتماعه في شيء واحد؛ فإنه يجتمع من وجه آخر يمتنع فيه التضاد والتناقض، فأما وجه تشديد (كذبوا) فالمعنى: وتيقن الرسل أن قومهم قد كذبوهم، ووجه التخفيف: وتوهم المرسَل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروهم به فالظن في الأولى يقين والضمائر الثلاثة للرسل، والظن في القراءة الثانية شك والضمائر الثلاثة للمرسل إليهم. وأما وجه فتح اللام الأولى ورفع الثانية من (لتزول) فهو أن يكون أن مخففة من الثقيلة أي: وإن مكرهم كان من الشدة بحيث تقتلع منه الجبال الراسيات من مواضعها، وفي القراءة الثانية إن نافية أي: ما كان مكرهم وإن تعاظم وتفاقم ليزول منه أمر محمد ﷺ ودين الإسلام ففي الأولى تكون الجبال حقيقة وفي الثانية مجازًا. وأما وجه (من بعد ما فتنوا) على التجهيل فهو إن الضمير يعود للذين هاجروا وفي التسمية يعود إلى (الخاسرون). وأما وجه ضم تاء علمت فإنه اسند العلم إلى موسى حديثًا منه لفرعون حيث قال: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾، فقال موسى على نفسه: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾، فأخبر موسى عليه السلام عن نفسه بالعلم بذلك أي أن العالم ذلك ليس بمجنون، وقراءة فتح التاء أنه أسند هذا العلم لفرعون مخاطبة من موسى له بذلك على وجه التقريع لشدة معاندته للحق بعد علمه، وكذلك وجه قراءة الجماعة

(يطعم) بالتسمية (ولا يطعم) على التجهيل أن الضمير في "وهو" يعود إلى الله تعالى، أي: والله تعالى يرزق الخلق ولا يرزقه أحد، والضمير في هذه القراءة يعود إلى الولي أي: والوالي المتخذ يرزق أحدًا، والضمير في القراءة الثالثة إلى الله تعالى أي: والله يطعم من يشاء ولا يطعم من يشاء. فليس في شيء من القراءات تناف وتضاد ولا تناقض. وكل ما صح عن النبي ﷺ من ذلك فقد وجب قبوله ولم يسع أحدًا من الأمة رده ولزم الإيمان به وأن كله منزل من عند الله؛ إذ كل قراءة منها مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية يجب الإيمان بها كلها، واتباع ما تضمنته من المعنى علمًا وعملًا، ولا يجوز ترك موجب إحداهما لأجل الأخرى ظنًا أن ذلك تعارض وإلى ذلك أشار عبد الله بن مسعود ﷺ بقوله: "لا تختلفوا في القرآن ولا تتنازعوا فيه؛ فإنه لا يختلف ولا يتساقط"، ألا ترون أن شريعة الإسلام فيه واحدة، حدودها وقراءتها وأمر الله فيها واحد، ولو كان من الحرفين حرف يأمر بشيء ينهى عنه الآخر كان ذلك الاختلاف ولكنه جامع ذلك كله، ومن قرأ على قراءة فلا يدعها رغبة عنها؛ فإنه من كفر بحرف منه كفر به كله".

قلت: وإلى ذلك أشار النبي ﷺحيث قال لأحد المختلفين "أحسنت" وفي الحديث الآخر "أصبت" وفي الآخر "هكذا أنزلت" فصوب النبي ﷺقراءة كل من المختلفين، وقطع بأنها كذلك أنزلت من عند الله، وبهذا افترق اختلاف القراء من اختلاف الفقهاء؛ فإن اختلاف القراء كل حق وصواب نزل من عند الله وهو كلامه لا شك فيه، واختلاف الفقهاء اختلاف اجتهادي والحق في نفس الأمر فيه واحد، فكل مذهب بالنسبة إلى الآخر صواب يحتمل الخطأ، وكل قراءة بالنسبة إلى الأخرى حق وصواب في نفس الأمر نقطع بذلك ونؤمن به، ونعتقد أن معنى إضافة كل حرف من حروف الاختلاف إلى من أضيف إليه من الصحابة وغيرهم إنما هو من حيث إنه كان أضبط له وأكثر قراءة وإقراء به، وملازمة له، وميلًا إليه، لا غير ذلك. وكذلك إضافة الحروف والقراءات إلى أئمة القراءة ورواتهم المراد بها أن ذلك القارئ وذلك الإمام اختار القراءة بذلك الوجه من اللغة حسبما

قرأ به، فآثره على غيره، وداوم عليه ولزمه حتى اشتهر وعُرف به، وقُصد فيه، وأُخذ عنه، فلذلك أضيف إليه دون غيره من القراء، وهذه الإضافة إضافة اختيار ودوام ولزوم لا إضافة اختراع ورأي واجتهاد(١).

الشبهة الرابعة: معنى الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن هي القراءات السبع

نص الشبهة:

يقولون: إنه لا معنى للأحرف السبعة التي نزل بها القرآن إلا تلك القراءات السبع المنقولة عن الأئمة السبعة المعروفين عند القراء.

هذه شبهة تعرض كثيرا للعامة ومن في حكمهم ممن لم يأخذوا من علوم القرآن والحديث بحظ ولا نصيب. فإن ذلك المعنى الذي زعموه غير صحيح:

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: مقدمة

قال أبو شامة: ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل.

وقال أبو العباس بن عمار: لقد نقل مسبع هذه السبعة ما لا ينبغي له، وأشكل الأمر على العامة بإيهامه كل من قل نظره أنَّ هذه القراءات هي المذكورة في الخبر، وليته إذا اقتصر نقص عن السبعة أو زاد؛ ليزيل الشبهة. ووقع له أيضًا في اقتصاره عن كل إمام على راويين أنه صار من سمع قراءة راو ثالث غيرهما أبطلها، وقد تكون هي أشهر وأصح وأظهر، وربما بالغ من لا يفهم فخطأ أو كفر(٢).

وقال أبو بكر بن العربي: ليست هذه السبعة متعينة للجواز حتى لا يجوز غيرها كقراءة أبي جعفر، وشيبة، والأعمش، ونحوهم؛ فإن هؤلاء مثلهم أو فوقهم، وكذا قال غير واحد، منهم مكي، وأبو العلاء الهمذاني، وآخرون من أئمة القراء. وقال مكي: من ظن أن قراءة

---

(١) النشر في القراءات العشر ١/ ٦٦.

(٢) الإتقان ١/ ٢١٥.

هؤلاء القراء كنافع، وعاصم هي الأحرف السبعة التي في الحديث فقد غلط غلطًا عظيمًا، قال: ويلزم من هذا أن ما خرج عن قراءة هؤلاء السبعة مما ثبت عن الأئمة وغيرهم ووافق خط المصحف ألا يكون قرآنًا، وهذا غلط عظيم؛ فإن الذين صنفوا القراءات من الأئمة المتقدمين كأبي عبيد القاسم بن سلام، وأبي حاتم السجستاني، وأبي جعفر الطبري، وإسماعيل القاضي قد ذكروا أضعاف هؤلاء، وكان الناس على رأس المائتين بالبصرة على قراءة أبي عمرو ويعقوب، وبالكوفة على قراءة حمزة وعاصم، وبالشام على قراءة ابن عامر، وبمكة على قراءة ابن كثير، وبالمدينة على قراءة نافع، واستمروا على ذلك فلما كان على رأس الثلاثمائة أثبت ابن مجاهد اسم الكسائي وحذف يعقوب، قال: والسبب في الاقتصار على السبعة مع أن في أئمة القراء من هو أجل منهم قدرا ومثلهم أكثر من عددهم أن الرواة عن الأئمة كانوا كثيرا جدا، فلما تقاصرت الهمم اقتصروا مما يوافق خط المصحف على ما يسهل حفظه، وتنضبط القراءة به؛ فنظروا إلى من اشتهر بالثقة والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة والاتفاق على الأخذ عنه؛ فأفردوا من كل مصر إمامًا واحدًا ولم يتركوا مع ذلك نقل ما كان عليه الأئمة غير هؤلاء من القراءات، ولا القراءة به كقراءة يعقوب وأبي جعفر وشيبة وغيرهم. قال: وقد صنف ابن جبير المكي قبل ابن مجاهد كتابًا في القراءات فاقتصر على خمسة اختار من كل مصر إمامًا وإنما اقتصر على ذلك؛ لأن المصاحف التي أرسلها عثمان كانت خمسة إلى هذه الأمصار، ويقال: إنه وجه بسبعة هذه الخمسة، ومصحفا إلى اليمن، ومصحفا إلى البحرين لكن لما لم يسمع لهذين المصحفين خبر وأراد ابن مجاهد وغيره مراعاة عدد المصاحف استبدلوا من مصحف البحرين واليمن قارئين كمل بهما العدد فصادف ذلك موافقة العدد الذي ورد الخبر به فوقع ذلك لمن لم يعرف أصل المسألة، ولم تكن له فطنة فظن أن المراد بالأحرف السبعة القراءات السبع، والأصل المعتمد عليه صحة السند في السماع، واستقامة الوجه في العربية، وموافقة الرسم. وأصح القراءات سندًا نافع وعاصم، وأفصحها أبو عمرو والكسائي.

وقال القراب في الشافي: التمسك بقراءة سبعة من القراء دون غيرهم ليس فيه أثر ولا سنة، وإنما هو من جمع بعض المتأخرين فانتشر، وأوهم أنه لا تجوز الزيادة على ذلك، وذلك لم يقل به أحد.

وقال الكواشي: كل ما صح سنده واستقام وجهه في العربية ووافق خط المصحف الإمام فهو من السبعة المنصوصة ومتى فقد شرط من الثلاثة فهو الشاذ.

وقد اشتد إنكار أئمة هذا الشأن على من ظن انحصار القراءات المشهورة في مثل ما في التيسير والشاطبية، وآخر من صرح بذلك الشيخ تقي الدين السبكي فقال في **"شرح المنهاج"**: قال الأصحاب: تجوز القراءة في الصلاة وغيرها بالقراءات السبع، ولا تجوز بالشاذة. وظاهر هذا يوهم أن غير السبع المشهورة من الشواذ، وقد نقل البغوي الاتفاق على القراءة بقراءة يعقوب وأبي جعفر مع السبع المشهورة وهذا القول هو الصواب. (١)

قال القرطبي: وقد قيل: إن المراد بقوله ﷺ: "انزل القرآن على سبعة أحرف" القراءات السبع التي قرأ بها القراء السبعة؛ لأنها كلها صحت عن رسول الله ﷺ، وهذا ليس بشيء لظهور بطلانه. لذا قال كثير من علمائنا كالداودي، وابن صفرة وغيرهما: هذه القراءات السبع التي تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة في القراءة بها، وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة، وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف. ذكره ابن النحاس وغيره. (٢)

قال ابن تيمية: لا نزاع بين العلماء المعتبرين أن (الأحرف السبعة) التي ذكر النبي ﷺأن القرآن أُنزل عليها ليست هي قراءات القراء السبعة المشهورة؛ بل أول من جمع قراءات هؤلاء هو الإمام أبو بكر بن مجاهد، وكان على رأس المائة الثالثة ببغداد، فإنه أحب أن يجمع المشهور من قراءات الحرمين والعراقين والشام؛ إذ هذه الأمصار الخمسة هي التي خرج منها عِلْم النبوة من القرآن وتفسيره، والحديث والفقه من الأعمال الباطنة

(١) الإتقان في علوم القرآن ١/ ٢١٥.

(٢) تفسير القرطبي ١/ ٤٦.

والظاهرة، وسائر العلوم الدينية، فلما أراد ذلك جمع قراءات سبعة مشاهير من أئمة قراء هذه الأمصار؛ ليكون ذلك موافقًا لعدد الحروف التي أنزل عليها القرآن، لا لاعتقاده أو اعتقاد غيره من العلماء أن القراءات السبعة هي الحروف السبعة، أو أن هؤلاء السبعة المعينين هم الذين لا يجوز أن يقرأ بغير قراءتهم، ولهذا قال من قال من أئمة القراء: لولا أن ابن مجاهد سبقني إلى حمزة لجعلت مكانه يعقوب الحضرمي إمام جامع البصرة، وإمام قراء البصرة في زمانه في رأس المائتين.

ولا نزاع بين المسلمين أن الحروف السبعة التي أنزل القرآن عليها لا تتضمن تناقض المعنى وتضاده؛ بل قد يكون معناها متفقًا أو متقاربًا، كما قال عبد الله بن مسعود: إنما هو كقول أحدكم: أقبِل، وَهَلُمَّ، وَتَعَال، وقد يكون معنى أحدهما ليس هو معنى الآخر، لكن كلا المعنيين حق، وهذا اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد وتناقض، وهذا كما جاء في الحديث المرفوع عن النبي ﷺ في هذا حديث: (أنزل القرآن على سبعة أحرف، إن قلت: غفورًا رحيمًا، أو قلت: عزيزًا حكيمًا فالله كذلك، ما لم تختم آية رحمة بآية عذاب، أو آية عذاب بآية رحمة). وهذا كما في القراءات المشهورة ﴿ربنا بَاعَد﴾ و﴿بَاعِدْ﴾ (سبأ: ١٩)، ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا﴾ (البقرة: ٢٢٩) و(إلا أن يُخافا ألا يقيما)، ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ - و(ليزول) (إبراهيم: ٤٦)، و﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ و﴿بل عجبتُ﴾ (الصافات: ١٢) ونحو ذلك. .[1]

الوجه الثاني: بيان الفرق بين القرآن والقراءات.

قال الزركشي: إن القرآن غير القراءات، فالقرآن: هو الوحي المنزَّل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز، والقراءات: هي اختلاف في كيفية النطق بألفاظ الوحي، من تخفيف أو تثقيل أو مد أو نحو ذلك[2]، قال أبو شامة: "ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل.[1]

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢/ ٣٣٠.

(٢) البرهان في علوم القرآن ١/ ٣١٨.

الوجه الثالث: أن السبعة لم يكونوا قد خلقوا ولا وجدوا حين نطق الرسول ﷺ بهذا الحديث الشريف.

قال ابن الجزري: فينبغي أن لا يتوهم متوهم في قوله ﷺ: "أنزل القرآن على سبعة أحرف" أنه منصرف إلى قراءة سبعة من القراء الذين ولدوا بعد التابعين؛ لأنه يؤدي أن يكون الخبر متعريًا عن الفائدة إلى أن يولد هؤلاء الأئمة السبعة فيؤخذ عنهم القراءة، ويؤدي أيضًا إلى أنه لا يجوز لأحد من الصحابة أن يقرأ إلا بما يعلم أن هؤلاء السبعة من القراء إذا ولدوا وتعلموا اختاروا القراءة به، وهذا تجاهل من قائله، قال: وإنما ذكرت ذلك؛ لأن قومًا من العامة يقولونه جهلًا، ويتعلقون بالخبر، ويتوهمون أن معنى السبعة الأحرف المذكورة في الخبر اتباع هؤلاء الأئمة السبعة، وليس ذلك على ما توهموه؛ بل طريق أخذ القراءة أن تؤخذ عن إمام ثقة لفظًا عن لفظ إمامًا عن إمام إلى أن يتصل بالنبيﷺ، والله أعلم بجميع ذلك.[٢]

قال الزرقاني: ومحال أن يفرض الرسول على نفسه، وعلى أصحابه ألا يقرؤوا بهذه الأحرف السبعة النازلة إلا إذا علموا أن هؤلاء القراء السبعة قد اختاروا القراءة بها، على حين أن بين العهدين بضعة قرون، وعلى حين أن هؤلاء القراء وسواهم إنما أخذوا عن النبي ﷺ من طريق أصحابه ومن أخذ عنهم إلى أن وصلوا إليهم. فهذه الشبهة تستلزم الدور الباطل فهي باطلة. وتستلزم أيضًا أن يبقى قول الرسول ﷺ: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف" عاريًا عن الفائدة غير نافذ الأثر حتى يولد القراء السبعة المعروفون وتؤخذ القراءة عنهم. وذلك باطل أيضًا يكذبه الواقع من قراءة النبي صلوات الله وسلامه عليه، وقراءة أصحابه وتابعيه بالأحرف السبعة من قبل أن يولد القراء السبعة المعروفون[٣].

الوجه الرابع: لو كانت القراءة محصورة بسبع روايات لسبعة من القراء؛ لوجب أن لا

---

(١) مباحث في علوم القرآن ١/ ١٦٧.

(٢) النشر في القراءات العشر ١/ ٦٢.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٨٥.

يؤخذ عن كل واحد منهم إلا رواية وهذا لا قائل به[١].

الوجه الخامس:

أن الأحرف التي نزل بها القرآن أعم من تلك القراءات المنسوبة إلى الأئمة السبعة القراء عموما مطلقا، وأن هذه القراءات أخص من تلك الأحرف السبعة النازلة خصوصًا مطلقًا.

ذلك؛ لأن الوجوه التي أنزل الله عليها كتابه تنتظم كل وجه قرأ به النبي ﷺ وأقرأه أصحابه، وذلك ينتظم القراءات السبع المنسوبة إلى هؤلاء الأئمة السبعة القراء، كما ينتظم ما فوقها إلى العشرة وما بعد العشرة، وما كان قرآنا ثم نسخ ولم يصل إلى هؤلاء القراء جميعا، ولهذا نصوا في المذهب المختار على أنه يشمل كل وجوه القراءات صحيحها وشاذها ومنكَرِها كما سبق[٢].

الشبهة الخامسة: نزول القرآن على سبعة أحرف ينافي ما هو مقرر من أن القرآن نزل بلغة قريش وحدها.

نص الشبهة:

يقولون: إن نزول القرآن على سبعة أحرف ينافي ما هو مقرر من أن القرآن نزل بلغة قريش وحدها.

والرد على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: بيان قدر لغة قريش.

كانت لغة قريش أرجح اللغات فاقتصر عليها[٣]، وأيضا رفعا للحرج والمشقة في ابتداء الأمر؛ فرأى أن الحاجة إلى ذلك انتهت فاقتصر على لغة واحدة.[٤]

(١) النشر في القراءات العشر ١/ ٦٢.
(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٨٥.
(٣) المدخل لدراسة القرآن الكريم (١٦٤).
(٤) فتح الباري ٩/ ٢١.

قال إسماعيل بن أبي عُبيد الله: أجمَعَ علماؤنا بكلام العرب، والرُّواةُ لأشعارهم، والعلماءُ بلُغاتهم وأيامهم ومَحالّهم أن قُريشًا أفصحُ العرب ألْسنةً وأصْفاهم لغةً. وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم، واختار منهم نبيَّ الرحمة محمدًا ﷺ، فجعل قُريشًا قُطَّان حَرَمِه، وجيران بيته الحرام، ووُلاتَهُ. فكانت وُفود العرب من حُجاجها وغيرهم يَفِدون إِلَى مكة للحج، ويتحاكمون إِلَى قريش فِي أُمورهم. وَكَانَتْ قريش تعلّمهم مَناسكَهم وتحكُمُ بَيْنَهم. ولن تزل العرب تَعرِف لقريش فضلها عليهم وتسمّيها أهل الله؛ لأنهم الصَّريح من ولد إسماعيل عليه السلام، لَمْ تَشُبْهم شائبة، وَلَمْ تنقُلْهم عن مناسبهم ناقِلَة، فضيلةً من الله عز وجل لهم وتشريفًا؛ إذ جعلهم رَهط نبيّه الأدْنَيْنَ، وعِتْرته الصالحين، وَكَانَتْ قريش مع فصاحتها وحُسن لغاتها ورِقَّة ألسنتها، إِذَا أتتهُم الوُفود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسنَ لغاتهم وأصفى كلامهم. فاجتمع مَا تخيّروا من تِلْكَ اللغات إِلَى نَحائرهم وسَلائقهم الَّتِي طُبعوا عَلَيْهَا. فصاروا بذلك أفصح العرب. ألا ترى أنك لا تجد فِي كلامهم عَنْعَنَة تَميم، ولا عَجْرفيّة قَيْس، ولا كَشْكَشَة أَسَد، ولا كَسْكَسة رَبيعةَ، ولا الكَسْر الَّذِي تسمَعه من أسدَ وقَيْس مثل: " تعلِمون " و" نِعلَم " ومثل " شِعير " وبِعير ".[1]

الوجه الثاني: الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم واقعةٌ كلها في لغة قريش.

فلقد اشتملت لهجة قريش على خصائص كثيرة من لهجات القبائل الأخرى.

قال البخاري: بَاب نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ وَالْعَرَبِ وَقَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[2]، ثم أخرج عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ عُثْمَانَ دَعَا زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ وَعَبْدَ الله بْنَ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَنَسَخُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ. وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلَاثَةِ: إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنْ الْقُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ

(١) الصاحبي في فقه اللغة ١/ ٧.

(٢) البخاري ١١/ ٣٢٥.

قُرَيْشٍ فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ فَفَعَلُوا ذَلِكَ(١).

أولًا: قوله ﴿فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ﴾ أَيْ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ. قَالَ الْقَاضِي اِبْنُ أَبِي بَكْرِ بْنِ الْبَاقِلَّانِيِّ: مَعْنَى قَوْلِ عُثْمَانَ: نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ. أَيْ: مُعْظَمُهُ، وَأَنَّهُ لَمْ تَقُمْ دَلَالَةٌ قَاطِعَةٌ عَلَى أَنَّ جَمِيعَهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أَنَّهُ نَزَلَ بِجَمِيعِ أَلْسِنَةِ الْعَرَبِ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ أَرَادَ مُضَرَ دُونَ رَبِيعَةَ، أَوْ هُمَا دُونَ الْيَمَنِ، أَوْ قُرَيْشًا دُونَ غَيْرِهِمْ، فَعَلَيْهِ الْبَيَانُ؛ لِأَنَّ اِسْمَ الْعَرَبِ يَتَنَاوَلُ الْجَمِيعَ تَنَاوُلًا وَاحِدًا، وَلَوْ سَاغَتْ هَذِهِ الدَّعْوَى لَسَاغَ لِلْآخَرَانِ. وَيَقُولُ: نَزَلَ بِلِسَانِ بَنِي هَاشِمٍ مَثَلًا؛ لِأَنَّهُمْ أَقْرَبُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ نَسَبًا مِنْ سَائِرِ قُرَيْشٍ(٢).

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ قَوْلُهُ: "سَبْعَةُ أَحْرُفٍ": يَعْنِي سَبْعَ لُغَاتٍ مِنْ لُغَاتِ الْعَرَبِ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنْ يَكُونَ فِي الْحَرْفِ الْوَاحِدِ سَبْعَةُ أَوْجُهٍ، هَذَا مَا لَمْ يُسْمَعْ بِهِ قَطُّ، وَلَكِنْ يَقُولُ هَذِهِ اللُّغَاتُ السَّبْعُ مُتَفَرِّقَةٌ فِي الْقُرْآنِ، فَبَعْضُهُ نَزَلَ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ، وَبَعْضُهُ بِلُغَةِ هَوَازِنَ، وَبَعْضُهُ بِلُغَةِ هُذَيْلٍ، وَبَعْضُهُ بِلُغَةِ أَهْلِ الْيَمَنِ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ اللُّغَاتِ وَمَعَانِيهَا فِي هَذَا كُلِّهِ وَاحِدٌ، وَمِمَّا يُبَيِّنُ لَكَ ذَلِكَ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ فَذَكَرَهُ. قَالَ: وَكَذَلِكَ قَالَ ابْنُ سِيرِينَ إِنَّمَا هُوَ كَقَوْلِكَ: هَلُمَّ وَتَعَالَ وَأَقْبِلْ. ثُمَّ فَسَّرَهُ ابْنُ سِيرِينَ فَقَالَ: فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: إِنْ كَانَتْ إِلاَّ زَقْيَةً وَاحِدَةً، وَفِي قِرَاءَتِنَا (صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ) وَالْمَعْنَى فِيهِمَا وَاحِدٌ، وَعَلَى هَذَا سَائِرُ اللُّغَاتِ.(٣)

عناية المسلمين بتوجيه القراءات في ضوء العربية خدمةً للقرآن:

ثمة ارتباط وثيق بين القراءات القرآنية ولهجات القبائل العربية، وقد كان مِنْ حكمة نزول هذه القراءات أن يَسَّرَتْ تلاوة الوحي الكريم والتعامل معه، على الرغم من أن اللسان العربي تتعدَّد لهجاته على نحوٍ واسع. وفي الفترة التي سبقت نزول القرآن كان للهجة قريش السيادة على اللهجات العربية الأخرى في شبه الجزيرة العربية. وقد بلغَتْ قريش هذه المنزلة بعد

(١) البخاري(٣٢٤٤).

(٢) تحفة الأحوذي ٧/ ٤٢٧.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي وفي ذيله الجوهر النقي ٢/ ٣٨٥.

مراحل عديدة من احتكاك اللهجات العربية بها، وذلك بفضل موقعها الديني؛ فهي المشرفة على خدمة الكعبة المشرفة، وتَهْفو إليها أفئدة العرب جميعًا، وبفضل النشاط التجاري الذي كانت قريش تعقده في حواضرها، وكانت اللهجة القرشية تستقي من لهجات القبائل ما تحتاج إليه من صفوة اللغات، حتى تمَّ تكوينُها قُبَيْل نزول الوحي وقد اشتملت لهجة قريش على خصائص كثيرة من لهجات القبائل الأخرى؛ إذ استوعبت صفوة العناصر الحميدة لهذه اللهجات. فإذا قلنا: إن القرآن نزل بلغة قريش، فليس معنى هذا أننا نَغُضُّ الطرف عن تأثير اللغات الأخرى في مفردات القرآن ونسيجه الصوتي، وإنما نقصد أن لغة قريش هي اللغة النموذجية العالية التي تكوَّنَتْ عبر مراحل عديدة، واشتملَتْ على خصائص لهجات العرب الأخرى، وقد تكفَّلَت كتب (لغات القبائل) بإسناد كل مفردة قرآنية إلى أصل قبيلتها التي انحدرت منها، على نحو ما تبيَّن لنا في موضوع اللغة. والحق أنَّ هذا التطور التاريخي للهجة قريش التي نزل بها القرآن كان مَحْمَدة لصالح العرب جميعًا؛ وذلك لأنَّ هذه اللهجة أصبحت لغة الأدب والشعر وقاسمًا مشتركًا لدى جميع القبائل، ولو كانت لهجة قريش مقصورةً عليها غير معهودة عند العرب لما استطاعت هذه القبائل أن تحقِّق الانتفاع بالقرآن الكريم والتعامل معه؛ لأنه بلهجةٍ غيرِ لهجتها، وبذلك صار تحدِّي القرآن للعرب جميعًا يقوم بغرضه الذي سِيق من أجله، فهو معجزٌ بالإضافة إلى قبائلهم كلها، ولو كان التحدي مُوَجَّهًا إلى قبيلة قريش وحدها؛ لقيل: إن القرآن جاء بما لا قدرةَ للعرب على جنسه. وقد بذل النحاة جهدًا فائقًا لخدمة القرآن بمختلف قراءاته المتواترة والشاذة، فوجَّهوها بالتعليل المستند إلى الأصول المعتمدة عندهم، واستشهدوا على ذلك بالشواهد الفصيحة التي جمعوها من البوادي عبر رحلاتهم العلمية المديدة، وقد استندوا إلى هذه القراءات في تأصيل قواعدهم، وإرساء معالم الصناعة النحوية والصرفية، وضبط مفردات اللغة. ومن المعلوم أن للقراءات الصحيحة شروطًا ومعايير تجعلها مقبولة، وقد اعتمدها النحاة واللغويون والبلاغيون، واستنبطوا منها

الأصول التي بَنَوْا عليها علومهم، وما خالف شروط القراءة الصحيحة عَدُّوه شاذًّا. (١)

قال الزرقاني: لا منافاة ولا ضياع للوحدة؛ فإن الوجوه السبعة التي نزل بها القرآن الكريم واقعة كلها في لغة قريش. ذلك أن قريشا كانوا قبل مهبط الوحي والتنزيل، قد داوروا بينهم لغات العرب جميعًا وتداولوها، وأخذوا ما استملحوه من هؤلاء وهؤلاء في الأسواق العربية ومواسمها ووقائعها وحجها وعمرتها، ثم استعملوه وأذاعوه بعد أن هذبوه وصقلوه. وبهذا كانت لغة قريش مجمع لغات مختارة منتقاة من بين لغات القبائل كافة. وكان هذا سببًا من أسباب انتهاء الزعامة إليهم واجتماع أوراع العرب عليهم. ومن هنا شاءت حكمة الحكيم العليم أن يطلع عليهم القرآن من هذا الأفق، وأن يطل عليهم من هذه السماء سماء قريش ولغتها التي أعطوها مقادتهم، وولوا شطرها وجوههم، فخاطبهم بهذا اللسان العام لهم؛ ليضم نشرهم ولينظم نثرهم. وقد تم له ما أراد بهذه السياسة الرشيدة التي جاءتهم بالإعجاز البياني عن طريق اللغة التي انتهت إليها أفصح اللغات، وباللسان الذي خضعت له وتمثلت فيه كافة الألسنة العربية. ولو نزل القرآن بغير لغة قريش هذه؛ لكان مثار مشاحنات وعصبيات، ولذهب أهل كل قبيلة بلغتهم، ولعلا بعضهم على بعض، ولما اجتمع عليه العرب أبدًا؛ بل لو نزل القرآن بغير لغة قريش لراجت شبهتهم وافتراؤهم عليه أنه سحر وكهانة وما إليها نظرا إلى أنه قد دخل عليهم من غير بابهم فلا يستطيعون القضاء فيه، ولا إدراك الفوارق البعيدة بينه وبين الحديث النبوي مما يجعلهم يذوقون الإعجاز ويلمسونه كما تذوقوه بوضوح حين نزل بلسانهم. ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾(٢).

الوجه الثالث: يَحْتَمِل أنْ يَكُون قَوْله "نَزَلَ بِلِسَانِ قُرَيْش" أَيْ اِبْتِدَاء نُزوله، ثُمَّ أُبِيحَ أنْ يُقْرَأ بِلُغَةِ غَيْرهمْ.

(١) عناية المسلمين باللغة العربية خدمة للقرآن الكريم ١/ ٦٣.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٨٥.

فلما جمع عثمان الناس على حرف واحد رأى أن الحرف الذي نزل القرآن أولًا بلسانه أولى الأحرف؛ فحمل الناس عليه لكونه لسان النبي ﷺ، ولما له من الأولية المذكورة، وعليه يحمل كلام عمر لابن مسعود أيضًا. [١]

الوجه الرابع: أو يكون مراد عثمان أن معظمه وأكثره نزل بلغة قريش. [٢]

الشبهة السادسة: اتهام بعض القراء بالضعف كـ (عاصم، وحفص)؛ فكيف يقبل منهم القرآن؟

نص الشبهة:

كيف يكون حفص إمامًا في القراءات وهو ضعيف في الحديث؟.

والرد على الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: التعريف به وثناء العلماء عليه وخاصة في تحمله وأدائه لكتاب الله ﷻ.

أولًا: التعريف بحفص:

هو حفص بن سليمان بن المغيرة أبو عمر بن أبي داود الأسدي الكوفي المقرئ الإمام مولاهم الغاضري البزاز ويعرف بحفيص، أخذ القراءة عرضًا وتلقينًا عن عاصم وكان ربيبه ابن زوجته.

مولده: قال خلف بن هشام ولد سنة تسعين.

قال الداني: وهو الذي أخذ قراءة عاصم عن الناس تلاوة، ونزل بغداد فأقرأ بها وجاور بمكة فأقرأ أيضًا بها، وقال يحيى بن معين: الرواية الصحيحة التي رويت عن قراءة عاصم رواية أبي عمر حفص بن سليمان.

وقال أبو هاشم الرفاعي: كان حفص أعلمهم بقراءة عاصم.

وقال الذهبي: أما القراءة فثقة ثبت ضابط لها بخلاف حاله في الحديث، قلت: يشير إلى أنه تُكلم فيه من جهة الحديث. قال ابن المنادى: قرأ على عاصم مرارًا، وكان الأولون يعدونه في

---

(١) فتح الباري ٩/ ٩، ١٤/ ١٨٩.

(٢) المدخل لدراسة القران الكريم (١٦٤)

الحفظ فوق أبي بكر بن عياش، ويصفونه بضبط الحروف التي قرأ على عاصم، وأقرأ الناس دهرًا وكانت القراءة التي أخذها عن عاصم ترتفع إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه[١].

قلت: يشير إلى ما روينا عن حفص أنه قال: قلت لعاصم: أبو بكر يخالفني. فقال: أقرأتك بها أقرأني أبو عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب، وأقرأته بها أقرأني زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود.

وفاته: توفي سنة ثمانين ومائة على الصحيح، وقيل: بين الثمانين والتسعين، فأما ما ذكره أبو طاهر بن أبي هاشم وغيره من أنه توفي قبل الطاعون بقليل، وكان الطاعون سنة إحدى وثلاثين ومائة فذاك حفص ابن سليمان المنقري بصري من أقران أيوب السختياني قديم الوفاة فكأنه تصحيف عليهم والله أعلم[٢].

ثانيًا: ثناء العلماء عليه:

قال وكيع: كان ثقة[٣]، قال محمد بن سعد العوفي، حدثنا أبي، حدثنا حفص بن سليمان، وكان ينزل سُوَيْقَةَ نصر، لو رأيته لَقَرَّتْ عَيْنُكَ به علمًا وفهمًا.

قال أحمد: هو صالح. وفي رواية: ما كان بحفص بن سليمان المقرئ بأس[٤].

قال الذهبي: فأما في القراءة فثبتٌ إمام، وأما في الحديث فحسن الحديث.[٥] وقال في السير: حجة في **القراءة، لين في الحديث**.[٦]

---

(١) النشر في القراءات العشر لابن الجزري١/ ١٧٩.

(٢) غاية النهاية في طبقات القراء ١/ ١١١، وتراجم القراء ١/ ٢٥.

(٣) وقول وكيع هذا مهم جدًا في توثيق حفص لسببين: الأول: كونه من الكوفة، وأهل الكوفة أعرف بعلمائهم، والثاني: كونه معاصرًا لحفص، وما رَاءٍ كمَنْ سَمِعَ.

(٤) موسوعة أقوال الإمام أحمد في الجرح والتعديل ٢/ ١٦٤.

(٥) معرفة القراء الكبار ١/ ١٤٠-١٤١.

(٦) تاريخ الإسلام ٨/ ٤٩٧.

وقال في السير أيضًا: كان ثبتًا في القراءة، واهيًا في الحديث.[1]

ولا نستطيع أن نجزم بأن رواية حفص لا يفوقها أو يساويها في الفصاحة رواية أخرى، وذلك لأن فصحاء العرب الأقحاح لم يذكروا مزية لرواية حفص على غيرها من جهة الفصاحة، فالإمام أحمد بن حنبل الشيباني وكان عربيًا فصيحًا قرأ بقراءة عاصم، وبقراءة أبي عمرو، وبقراءة نافع، ومع ذلك قال: عليك بقراءة أبي عمروٍ لغة قريش وفصحاء العرب. وقال الإمام مكي بن أبي طالب: وربما جعلوا الاختيار على ما اتفق عليه نافع وعاصم، فقراءة هذين الإمامين أوثق القراءات وأصحها سندًا، وأفصحها في العربية، ويتلوهما في الفصاحة خاصة: قراءة أبي عمرو والكسائي رحمهم الله.[2]

وقال في التذكرة: إمامًا في القراءة، تالف في الحديث.[3]

وقال الحافظ ابن حجر: متروك الحديث مع إمامته في القراءة.[4]

الوجه الثاني: إن القائلين بضعف رواية حفص في الحديث اجتمعوا على صدقه في قراءة القران الكريم.

قال ابن تيمية: وقد اتفق أهل العلم بالحديث على الطعن في حديث حفص هذا، دون قراءته[5].

الوجه الثالث: إن رواية حفص في القرآن لها العديد من الطرق غير حفص

فيوافقه أحيانا كثير من الرواة والقراء. والأمثلة على ذلك كثيرة لا تحصى وراجع كتب القراءات وغيرها ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنكُم ﴾ ـ بالياء ـ ابن عامر وحفص ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ ﴾

---

(١) تاريخ الإسلام ٥/ ٢٦٠.

(٢) الإبانة في معاني القراءات (٤٨).

(٣) التذكرة(١٠٣١).

(٤) تقريب التهذيب (١٤٠٥).

(٥) منهاج السنة النبوية ٥/ ١٤٦ - ١٤٧.

بالنصب، نافع والكسائي وحفص. ﴿ خُطُوَٰتِ ﴾ بضم الطاء حيث وقع، ابن عامر والكسائي وقنبل وحفص[١].

الوجه الرابع: أن سبب الضعف متعلق بالضبط في رواية الأحاديث لا بالعدالة

فليس هو بالقوي، ويضعف في الحديث لكنه في قراءة القران الكريم إمام من أئمة المسلمين بلا نزاع.

وإليك ذكر بعض من ضعفه، وتوجيه أقوالهم:

أولًا: توجيه قول يحي بن معين في وصفه لحفص بالكذب من وجوه: [٢]

---

(١) العنوان في القراءات السبع ١/ ٩.

(٢) أخرج الأثر ابن عدي في الكامل: أنا الساجي ثنا أحمد بن محمد البغدادي، قال: سمعت يحيى بن معين يقول: كان حفص بن سليمان وأبو بكر بن عيا ش من أعلم الناس بقراءة عاصم، وكان حفص أقرأ من أبي بكر، وكان أبو بكر صدوقا، وكان حفص كذابا. الكامل في ضعفاء الرجال ٢/ ٣٨٠ والرد من وجوه:
الوجه الأول: أن الكذب هنا هو الإخبار بخلاف الواقع خطًأ وسهوًا وليس عن تعمد، وكذلك قولهم لا يصدق يحمل على أنه يخبر بخلاف الصواب عن خطأ وسهو بسبب قلة ضبطه للحديث، لا أنه يتعمد الكذب، مع ملاحظة أن من يصفه أئمة الجرح والتعديل بأنه يكذب ليس بالضرورة أنه يضع متونًا من تأليفه وينسبها إلى الرسول ﷺ، وإنما يقصد بها أحيانًا أنه يرفع الموقوفات أو العكس ويسند المرسلات أو العكس، ويركب أسانيد أحاديث على متون أحاديث أخرى ونحو هذا، ومثل هذه الأمور قد تقع بسبب قلة الضبط وعدم العناية بالحديث لا بسبب تعمد الكذب، وهذا الذي ينبغي أن يحمل عليه حال حفص، وبهذا نوفق بين ثناء أئمة القراءة على دين حفص وخلقه وإتقانه للقراءة وإفنائه عمره في تعلم القرآن وتعليمه، وبين وصف من وصفه من أئمة الحديث بالكذب، والله أعلم. قال ابن حبان في (الثقات ٦/ ١١٤): (أهل الحجاز يسمون الخطأ كذبًا). كما يُفسر تكذيب أبي داود لابنه عبد الله الحافظ الشهير. قال الذهبي في السير (١٣/ ٢٣١): (لعل قول أبيه فيه إن صح أراد الكذب في لهجته لا في الحديث فإنه حجة فيما ينقله، أو كان يكذب ويوري في كلامه، ومن زعم أنه لا يكذب أبدًا فهو أرعن نسأل الله السلامة من عثرة الشباب ثم إنه شاخ وارعوى ولزم الصدق والتقى). قال ابن عدي: هو مقبول عند أهل الحديث، وأما كلام أبيه فيه فما أدري أيش تبين له منه. الكامل (٤/ ٢٦٦). قال الإمام مسلم رحمة الله عليه في مقدمة الصحيح (١٩)حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جرير عن مغيرة عن الشعبي قال: حدثني الحارث الأعور الهمداني وكان كذابا. قال الذهبي رحمه الله تعالى في سير أعلام النبلاء ٤/ ١٥٣، فأما قول الشعبي: الحارث كذاب محمول على أنه عنى بالكذب الخطأ لا التعمد، وإلا فلماذا يروي عنه ويعتقده يتعمد الكذب في الدين.

ثانيًا: توجيه قول ابن خرا ش:

قال ابن خراش: كذاب، متروك يضع الحديث، وبيانه من وجوه: (١)

الوجه الثاني: إن أكثر العلماء لم يتلفظوا بهذا حسب الاستقراء والتتبع فقط، قالوا: هو متروك الحديث أو ضعيف.

الوجه الثالث: أن ابن معين قد يستخدم إطلاق الكذب عند التفرد بما لا يُحتمل من الراوي. . وأقرب مثال يحضرني على هذا ما رواه الحاكم قال: سمعت أبا علي الحافظ، سمعت أحمد بن يحيى التستري، يقول: لما حدث أبو الأزهر بهذا (يعني حديث عن ابن عباس قال نظر رسول الله ﷺ إلى علي، فقال: أنت سيد في الدنيا سيد في الآخرة. . .) في الفضائل، أُخبر يحيى بن معين بذلك، فبينا هو عنده في جماعة أصحاب الحديث إذ قال: من هذا الكذاب النيسابوري الذي حدث بهذا عن عبد الرزاق؟ فقام: أبو الأزهر، فقال: هو ذا أنا، فتبسم يحيى بن معين، وقال: أما إنك لست بكذاب، وتعجب من سلامته، وقال: الذنب لغيرك فيه.

الوجه الرابع: ربما أطلق الكذب على الراوي لروايته الكذب ولو لم يكن هو الذي اختلقه وصنعه. . كما في الحديث الشريف: "من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين".

(١) الوجه الأول: أن قول ابن خرا ش هذا فيه تحامل، والتحامل سمة من سمات ابن خراش، قال الذهبي في أهل الجرح والتعديل: فمنهم من نَفَسُهُ حادٌّ في الجَرْح، ومنهم من هو معتدِل، ومنهم من هو متساهل. فالحادُّ فيهم: يحيى بنُ سعيد، وابنُ معين، وأبو حاتم، وابنُ خرا ش. الموقظة في علم مصطلح الحديث ١/ ٢٠.

الوجه الثاني: ابن خرا ش أصلا متكلم فيه، قال الذهبي في: مَنِ الَّذِي يُصَدِّقُ ابْنَ خراش ذَاكَ الرَّافِضِيُّ فِي قَوْلِهِ؟ سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٨٧). وقال ابن حجر: ابن خراش مذكور بالرفض والبدعة فلا ينظر إليه. مقدمة فتح الباري/ ٣٨٦. وقال السخاوي: عبد الرحمن بن يوسف ابن خرا ش المحدث الحافظ فإنه من غلاة الشيعة؛ بل نسب إلى الرفض فيتأنى في جرحه لأهل الشام للعداوة البينة في الاعتقاد. فتح المغيث (٣/ ٣٦٢)

الوجه الثالث: أن أقوال ابن خرا ش يتوقف فيها إذا انفرد فكيف إذا خالف؟ فابن خراش رافضيٌّ لا يقبل قوله إذا خالف أو انفرد.

الوجه الرابع: إمّا أن تكون عدالة الرّاوي أرجح من عدالة الجارح له أو مثلها أو دونها.

قال ابن الوزير: لا يخلو إمّا أن تكون عدالة الرّاوي أرجح من عدالة الجارح له أو مثلها أو دونها، إن كانت عدالة الرّاوي أرجح وأشهر من عدالة الجارح؛ لم نقبل الجرح؛ لأنّا إنّما نقبل الجرح من الثّقة لرجحان صدقه على كذبه، ولأجل حمله على السّلامة، وفي هذه الصّورة كذبه أرجح من صدقه، وفي حمله على السّلامة إساءة الظّنّ بمن هو خير منه وأوثق وأعدل وأصلح. وأكثر ما يقول أئمة هذا الشّأن في أهل هذه الطّبقة إذا سُئلوا عنهم: أنا أُسأل عن فلان؟ بل هو يُسأل عنّي. وأمّا إن كان مثله في العدالة، فيجب الوقف لتعارض أمارتي صدق الجارح وكذبه، فإنّ عدالة الجارح أمارة صدقه، وعدالة المجروح أمارة كذبه، وهما على سواء، وليس أحدهما بالحمل على السّلامة أولى من الآخر، فإن انضم إلى عدالة المجروح مُعدّل كان وجهًا لترجيح عدالته.

ثالثا: توجيه قول الحاكم:

قال الحاكم رحمه الله تعالى: ذاهب الحديث. لم يذكر التوجيه.

الوجه الخامس: هناك فرق بين التوثيق للحديث والتوثيق للقراءة.

قال الذهبي في ترجمة عاصم: وما زال في كل وقت يكون العالم إمامًا في فن مقصرًا في فنون(١).

فقد يكون الإمام متقنًا لفن من الفنون، ومُبَرِّزًا في علم من العلوم؛ لكونه أنفق فيه جل حياته، واعتنى بطلبه وتدريسه عناية فائقة، بينما يكون مقصرًا في فن آخر؛ لعدم إعطائه تلك العناية، فيكون عمدة في فنه الذي ضبط معرفته وأتقنه، وتنزل مرتبته فيما قصّر فيه؛ بل قد يكون فيه غير معتمد.

ومن ضوابط الترجيح بين الجرح والتعديل عند التعارض من المسائل التي شغلت بال المشتغلين بالحديث ومصطلحه تنازع الجارحين والمعدلين في الراوي الواحد. فيجتمع فيه جرح الجارحين وتعديل المعدلين، وقد تكلم علماؤنا في مثل هذا، فقالوا: إذا اجتمع في شخص جرح وتعديل، فالجرح مقدم؛ لأن المعدل يخبر عما ظهر من حاله، والجارح يخبر عن باطن خفي على المعدل(٢).

من هذه الضوابط: اعتبار ما إذا كان للراوي تميز واختصاص في نوع من علوم الشرع فيوثق في ذلك العلم خاصة دون غيره. إذا لم يثبت عليه ما يسقط روايته مطلقًا، وأما في سوى ذلك فقد تقصر درجته عن الاحتجاج أو حتى عن الاعتبار.

مثال ذلك: عاصم بن أبي النجود المقرئ المشهور وأحد القراء السبعة. يقول فيه الذهبي: (كان عاصم ثبتا في القراءة، صدوقا في الحديث، وقد وثقه أبو زرعة، وجماعة. وقال أبو حاتم: محله الصدق، وقال الدار قطني: في حفظه شيء. يعني: للحديث لا

وأمّا إن كانت عدالة الرّاوي أضعف من عدالة الجارح، فإنّ الجرح هنا يقبل إلا أن تقتضي القرائن والعادة والحال -من العداوة ونحوها- أنّ الجارح واهم في جرحه أو كاذب. الروض الباسم لابن الوزير ٢/ ٢١٦.

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٠.

(٢) مقدمة ابن الصلاح(٢٢٤).

للحروف. فقد يكون إمامًا في القراءات ولكنه غير قوي في الحديث: وكذلك جماعة من القُرّاء أثباتٌ في القراءة دون الحديث كنافع، والكسائي، وحفص فإنهم نهضوا بأعباء الحروف وحرّروها، ولم يصنعوا ذلك في الحديث. وكذلك أبو بكر بن عياش الأسدي إمام في القراءات أما الحديث فيأتي بغرائب ومناكير. [1]

وكذلك عمر بن هارون بن يزيد الثقفي البلخي.

قال الذهبي:

ولا ريب في ضعفه، وكان إمامًا حافظًا في حروف القراءات[2].

وقال: والنقاش مجمع على ضعفه في الحديث لا في القراءات[3].

وكذلك الحسن بن علي بن إبراهيم الأهوازي: كان رأسًا في القراءات معمرًا بعيد الصيت صاحب حديث ورحلة وإكثار، وليس بالمتقن له ولا المجود؛ بل هو حاطب ليل[4].

وقد يكون إمامًا في التفسير ولكنه غير قوي في الحديث:

مثال: الضحاك بن مزاحم الهلالي الخراساني، قال عنه الذهبي: صاحب التفسير. . . . وليس بالمجود لحديثه[5].

قد يكون ثبتًا في الحديث ضعيفًا في القراءات:

وكذلك الأعمش كان ثبتًا في الحديث لينًا في الحروف والقراءات. قال الذهبي: وكان الأعمش بخلافه- أي حفص - كان ثبتًا في الحديث، لينًا في الحروف، فإن للأعمش قراءة منقولة في كتاب "المنهج" وغيره لا ترتقي إلى رتبة القراءات السبع، ولا إلى قراءة يعقوب وأبي جعفر والله أعلم. [6]

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٥٠٥.

(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ٣٤١.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٠٦.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٣.

(٥) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٩٨.

(٦) سير أعلام النبلاء٥/ ٢٦٠.

وقد يكون إمامًا في المغازي غير مجود في الحديث:

مثال ابن إسحاق: قال الذهبي: فله ارتفاع بحسبه ولا سيما في السير، وأما في الأحاديث فينحط حديثه فيها عن رتبة الصحة إلى رتبة الحسن، إلا فيما شذ فإنه يعد منكرًا. وقال أيضًا: قد كان في المغازي علّامة. (١)

وكذلك سلمة بن الفضل الرازي، قال عنه الذهبي: كان قويًا في المغازي، وقد سمع منه ابن المديني وتركه(٢).

وقال البخاري: عنده منا كير، وقال النسائي: ضعيف.

وكذلك الواقدي. قال عنه الذهبي: لا يستغنى عنه في المغازي وأيام الصحابة وأخبارهم. وقال النسائي: ليس بثقة، وقال مسلم وغيره: متروك الحديث.

وقد يكون إمامًا في الفقه ضعيفًا في الحديث:

الإمام أبو حنيفة: إليه المنتهى في الفقه، والناس عليه عيال في الفقه، قال الذهبي: الإمامة في الفقه ودقائقه مسلمة إلى هذا الإمام، وهذا أمر لا شك فيه(٣)، وضعفه من جهة حفظه في الحديث النسائي وابن عدي والخطيب.

قال النسائي: ليس بالقوي في الحديث. (٤)

إمام الحرمين الشافعي الجو يني: يقول الذهبي: كان هذا الإمام مع فرط ذكائه وإمامته في الفروع والأصول وقوة مناظرته لا يدري الحديث كما يليق به، لا متنًا ولا إسنادًا. (٥)

محمد بن عبد الله الإشبيلي المالكي: قال الذهبي: وكان كبير الشأن، انتهت إليه رئاسة الحفظ في الفتيا، وقُدم للشورى من سنة إحدى وعشرين، وعظم جاهه، ونال دنيا

(١) المصدر السابق ٧/ ٣٧.

(٢)المصدر ا لسابق ٩/ ٥٠.

(٣) المصدر السابق ٦/ ٤٠٣.

(٤) الضعفاء والمتروكون(٢٣٧)

(٥) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٧١.

عريضة، ولم يكن يدري فن الحديث، وكان فقيه عصره.[1]

وكذلك الخصيب بن جحدر البصري؛ قال الذهبي: وكان من الفقهاء لكنه متروك الحديث.[2]

وقد يكون إماماً في الحديث ضعيفًا في الفقه:

سعيد بن عثمان التجيبي: قال الذهبي: وكان ورعًا زاهدًا حافظًا، بصيرًا بعلل الحديث ورجاله، لا علم له بالفقه.[3]

وقد يكون إمامًا في اللغة ضعيفًا في الحديث:

عمر بن حسن بن دحية: قال الذهبي: كان الرجل صاحب فنون وتوسع ويد في اللغة، وفي الحديث على ضعف فيه.[4]

وقد يكون إمامًا في الحديث ضعيفًا في اللغة:

إبراهيم بن يزيد النخعي: قال الذهبي: لا يحكم العربية، وربما لحن.[5]

الوجه السادس: كثرة من روى عنه القراءة دلالة على ثقته.

وروى القراءة عنه عرضًا وسماعًا أناس كثيرون، منهم: حسين بن محمد المروزي، وحمزة بن القاسم الأحول، وسليمان بن داود الزهراني، وحمدان بن أبي عثمان الدقاق، والعباس بن الفضل الصفار، وعبد الرحمن بن محمد بن واقد، ومحمد بن الفضل زرقان، وخلف الحداد، وعمرو بن الصباح، وعبيد بن الصباح، وهبيرة بن محمد التمار، وأبو شعيب القواس، والفضل بن يحيى بن شاهي بن فراس الأنبا ري، وحسين بن علي الجعفي، وأحمد بن جبير الأنطاكي، وسليمان الفقيمي[6].

---

(١) المصدر السابق ٢١/ ١٧٨.

(٢) تاريخ الإسلام وفيات (١٢٥).

(٣) المصدر السابق (١٥٩).

(٤) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٩١.

(٥) ميزان الاعتدال ١/ ٧٥، راجع المقترح ١/ ٣، تحرير علوم الحديث ١/ ٢٩٢، محاضرات الدكتور محمد الطرهوني ٦/ ٩.

(٦) تراجم القراء ١/ ٢٥، ومعرفة القراء الكبار ١/ ١٤٠-١٤١.

ذكر المزي في (تهذيب الكمال) سبعة وعشرين شيخًا روى عنهم الحديث حفص بن سليمان القارئ، وقد تتبعتهم في **"تقريب التهذيب"** لابن حجر فوجدته يصف خمسة عشر منهم بـ(ثقة)، وعشرة منهم بـ (صدوق)، وواحد بـ (لا بأس به)، وواحد وصفه بمجهول، وهو كثير بن زاذان، الذي سأل عثمان بن سعيد الدار مي يحيى بن معين عنه، فقال: " قلت يروي (أي حفص القارئ) عن كثير بن زاذان من هو؟ قال: لا أعرفه"، لكن ابن حجر ذكره في **"التهذيب"** وقال: كثير بن زاذان النخعي الكوفي، وذكر جماعةً من الرواة الذين رووا عنه سوى حفص، وذكر نقلًا عن الخطيب البغدادي أنه كان مؤذن النخع.

وذكر المزي خمسة وثلاثين راويًا أخذوا عن حفص بن سليمان القارئ، وقد تتبعت ما قاله فيهم ابن حجر في **"تقريب التهذيب"**، وابن أبي حاتم في **"الجرح والتعديل"**، فوجدت أن معظمهم موصوف بأنه (ثقة) أو (صدوق).

وإذا نظرنا إلى حال شيوخ حفص القارئ، وحال معظم تلامذته من حيث وصفهم بالثقة والصدق؛ فإن من المناسب أن يكون حفصٌ كما وصفه وكيع بأنه: ثقة، أو كما وصفه الإمام أحمد بأنه: صالح. [1]

الوجه السابع: تفرغ حفص لتعليم قراءة شيخه وتنقله بين الأمصار.

قال أبو عمرو الداني: وهو الذي أخذ قراءة عاصم على الناس تلاوة، ونزل بغداد فأقرأ بها، وجاور بمكة فأقرأ بها أيضًا. [2]

الوجه الثامن: الطباعة.

وقد يكون للطباعة شأن في التمكين لرواية حفص، فأقدم مصحف طبع في مدينة هامبورج بألمانيا سنة ١٦٩٤ م كان مضبوطًا برواية حفص عن عاصم[3].

واشتهر من خطاطي الدولة العثمانية الحافظ عثمان الذي كتب بخطه خمسة وعشرين

(١) حفص بن سليمان المقرئ ومروياته بين القبول والرد (١١).

(٢) غاية النهاية ١/ ٢٥٤.

(٣) ينظر: كتاب رسم المصحف (٥٠٨).

مصحفًا[١].

واشتهرت المصاحف التي خطها الحافظ عثمان في العالم الإسلامي شهرة واسعة.

وقد طُبِعَ مصحفه مئات الطبعات في مختلف الأقطار الإسلامية، وانتشر في العالم الإسلامي، وفاق الطبعات السابقة واللاحقة ". [٢]

وهذا قبل ظهور مصحف الأزهر ومصحف المدينة طبعًا. وطباعة المصاحف برواية حفص عن عاصم كانت تعكس واقع الحال في بلدان المشرق الإسلامي، فلولا انتشار هذه القراءة في هذه البلدان لما أقبل الناشرون على طبع المصاحف بهذه الرواية، لكن الطباعة في الوقت نفسه أسهمت في التمكين لها، وساعدت على دخولها في بقاع جديدة من أرض الإسلام.

الوجه التاسع: إتقان حفص لروايته عن عاصم.

قال الشاطبي:

فَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ وَعَاصِمٌ اسْمُـــــهُ ... فَشُعْبَةُ رَاوِيهِ المُبَرِّزُ أَفْضَلاَ

وَذَاكَ ابْنُ عيا ش أَبُو بَكْرٍ الرِّضَا ... وحفص وَبِالْإِتْقَانِ كانَ مُفَضَّلا

وذلك أن حفصًا كان ابن زوجة شيخه عاصم بن أبي النجود، وكان معه في دار واحدة. [٣]

قال الزرقاني: وأما حفص فهو أبو عمرو حفص بن سليمان بن المغيرة البزاز كان ربيب عاصم، تربى في حجره وقرأ عليه وتعلم منه كما يتعلم الصبي من معلمه، فلا جرم كان أدق إتقانًا من شعبة. توفي سنة ١٨٠ هـ ثمانين ومائة. [٤]

الوجه العاشر: استحالة اجتماع الأمة على رواية حفص وهو غير ضابط لها لأن الأمة لا تجتمع إلا على الحق.

* * *

(١) ينظر: تاريخ الخط العربي (٣٣٩).

(٢) تراجم خطاطي بغداد لوليد الأعظمي (١٣١).

(٣) حرز الأماني ١/ ١٥.

(٤) مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٤٥٩.

الفهرس

الفهرس الإجمالي للموسوعة